منشورات اتحاد المؤرخين العرب
القاهرة
١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق

حتى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد «التاسع الهجري»

حصاد
(٥)

ندوة
عقدها الاتحاد بمقره في القاهرة
٢٥-٢٦ رجب ١٤١٨
٢٥-٢٦ نوفمبر ١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

لقطات سريعة من الندوة

الجمع والإخراج الداخلي والخارجي
دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

اتحاد المؤسسات العربية
فندق
بلاد المغرب

الثلاثاء ٢٥ نوفمبر ١٩٩٧م - ٢٥ رجب ١٤١٨هـ

* كلمة الافتتاح يلقيها رئيس الاتحاد (الساعة التاسعة صباحًا)

الجلسة الأولى : (الساعة التاسعة والربع صباحًا)

- أ.د. محمد عبودى إبراهيم كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

المدن الفينيقية وعلاقتها بشمال أفريقية فى ضوء المصادر اليونانية الرومانية .

- أ. م. محمد السيد عبد الغنى كلية الآداب - جامعة الكويت

يوجورثا ثائر جزائرى ضد الهيمنة الرومانية

- أ.د. محمد أحمد زيود كلية الآداب- جامعة الكويت

العلاقات السياسية بين الفاطميين والأمويين فى المغرب والأندلس

- أ.م. على منصور نصر كلية الآداب - جامعة البحرين

الفتح الإسلامى لبلاد المغرب

(استراحة وتناول الشاى)

الجلسة الثانية : الساعة الحادية عشر صباحًا

- أ.د. سعد زغلول عبد الحميد كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

محمد بن تومرت ورحلته العلمية إلى المشرق

- أ.د. إبراهيم زعرور كلية الآداب - جامعة دمشق

سفارة أبى بكر العربى إلى بغداد

- أ.م. على سلمان أحمد كلية الآداب - جامعة دمشق

مصر فى نظر المغاربة من العاملين فى مجال الإدارة العامة والاقتصاد منذ نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجرى

- أ.د. عبدالله عبد الرحمن الربيعى جامعة الإمام محمد بن سعود

دور القبائل العربية فى حماية سواحل شمال أفريقيا من الغزوات الأوربية

(الساعة الواحد دعوة للغداء واستراحة)

الجلسة الثالثة : (الساعة الرابعة مساء)

- أ.د. حياة ناصر الحجي كلية الآداب- جامعة الكويت

حملة لويس التاسع على تونس وروده الفعل المملوكية

- أ.د. محمود سعيد عمران كلية الآداب- جامعة الاسكندرية

شارل آف أنجو بين قرطاج والقدس

- أ.م. على محمد عودة الغامدى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى

الراهب الفرنسيسكانى ريموندلل ومحاولاته نشر النصرانية فى شمال أفريقية ٦٩٠-٧١٥هـ

- أ.د. ابراهيم بن حمد المزينى كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

رحلات العلماء المغاربة إلى المشرق الإسلامى وأثرهم فى جهاد الصليبيين

الأربعاء ٢٦ نوفمبر ١٩٩٧م - ٢٦ رجب ١٤١٨ هـ

الجلسة الأولى : (الساعة التاسعة صباحًا)

- أ.د. سهيل زكار كلية الآداب- جامعة دمشق

- أ.م. محمد محمد الكحلاوى كلية الآثار- جامعة القاهرة

دراسة مقارنة بين الفنادق المغربية والوكائل المصرية فى العصر المملوكى

- أ.م. محمد حمزه اسماعيل كلية الآثار- جامعة القاهرة

أهمية كتابات الرحالة المغاربة كمصدر لدراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية فى مكة والمدينة

- أ.م. سامية مصطفى مسعد كلية الآداب- جامعة الزقازيق

المغاربة ودورهم الثقافى فى مصر المملوكية

(استراحة وتناول الشاى)

الجلسة الثانية : (الساعة الحادية عشر صباحًا)

- أ.د. مجاهد توفيق الجندى كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

رواق المغاربه فى الأزهر بالقاهرة أو البعثة الدائمة للمغرب فى مصر دراسة وثائقية مقارنة

- د. عائشة عبد العزيز التهامى كلية الآداب بقنا- جامعة جنوب الوادى

دور الأزهر الشريف فى توثيق العلاقات المشرقية المغربية منذ العصر الفاطمى حتى العصر المملوكى

- أ.د. عبد المنعم ماجد كلية الآداب- جامعة عين شمس

توثيق تاريخ تاريخ استرداد الفاطميين للمغرب بعد انفصالهم عنهم من واقع السجلات المستنصرية

- د. ابراهيم سعيد فهيم كلية الآداب- جامعة الاسكندرية

سقلية البيزنطية بين معاويه بن أبى سفيان ومعاوية بن حديج

(الساعة الواحدة دعوة للغداء واستراحة)

الجلسة الثالثة : (الساعة الرابعة مساء)

- أ.د. صالح محمد السنيدى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أزمة الحج بين المغرب والأندلس فى القرن الرابع الهجرى

- أ.د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى كلية التربية بالفيوم - جامعة القاهرة

موقف القرى الإسلامية من سقوط الأندلس

- د. يسرى أحمد عبدالله كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

علماء القراءات المغاربة وعلاقاتهم بمصر حتى نهاية عصر الموحدين سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٨م

- أ.م. محمد بركات البيلى كلية الآداب - جامعة القاهرة

الفتح الفاطمى لمصر

المحتويات

صفحة

كلمة الافتتاح - رئيس الاتحاد ١٥

أضواء على الفتح الإسلامي للمغرب ١٧

د. علي منصور نصر

الأدارسة وأثرهم الحضاري في المغرب الأقصى ٥٥

د. عبد الرحمن بن سليمان العجلان

العلاقات السياسية بين الفاطميين والأمويين ٨٣

أ.د. محمد أحمد زيوه

استيلاء الفاطميين على مصر ٩٩

د. محمد بركات البيلي

استرداد الفاطميين بلاد المغرب من واقع السجلات المستنصرية ١٢١

أ.د. عبد المنعم ماجد

صقلية البيزنطية بين معاوية بن أبي سفيان ومعاوية بن حديج ١٢٧

د. ابراهيم سعيد فهيم محمود

صقلية بين بيزنطة والمغرب العربي ١٤٩

د. سهير محمد ابراهيم نعيم

الوجود الإسلامي في فرنسا خلال العصور الوسطى ١٧٩

د. عبدالله بن عبد الرحمن الربيعي

حملة لويس التاسع على تونس وردود الفعل المملوكية ٢٢١

أ.. حياة الحجي

موقف القوى الإسلامية من سقوط الأندلس ٢٣٥

أ.د. عبد المنعم ابراهيم الجميعي

عناصر المرتزقة فى الجيوش المغربية ٢٤٧

أ.د. رضوان البارودى

محمد بن تومرت ورحلته العلمية ٢٦١

أ.د. سعد زغلول عبد الحميد

المغاربة العاملون فى مصر بين القرنين الخامس والتاسع للهجرة ٢٧٩

د. على أحمد

القراء المغاربة وعلاقتهم بمصر ٣٠١

د. يسرى أحمد عبدالله زيدان

رحلات المغاربة إلى المشرق الإسلامى ٣٢٧

د. ابراهيم بن محمد الحمد المزينى

الأزهر الشريف ودوره فى توثيق العلاقات الشرعية المغربية ٣٥٣

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامى

الرحلة العلمية المغربية إلى مدينة القاهرة ٣٩٣

أ.د. مجاهد توفيق الجندى

الآثار المعمارية الباقية فى مسجد قيسارية ٤٣٣

د. كمال عنانى اسماعيل العانى

كلمة الختام - رئيس الاتحاد ٤٧٥

كلمة الافتتاح

أمة واحدة

التاريخ حافل بعديد الدول ، لكل دولة طابعها المميز الذى أكسبها صورة معينة أسهمت فى تشكيل تاريخها.

وعندما نطبق هذا الحكم على الدولة الإسلامية نجد أنه من الخصائص التى أسهمت فى تشكيل تاريخها أن هذه الدولة ذات جناحين كبيرين : جناح شرقى هو الجناح الآسيوى، وجناح غربى هو الجناح الإفريقى ، وما يتصل به من متعلقات فى بعض جزر البحر المتوسط وبعض أجزاء الجنوب الأوربى . أما مربط هذين الجناحين وحلقة الوصل بينهما فهى مصر ، الدولة الأفرو آسيوية التى تضم طرفا من غرب آسيا ، فى حين تشغل بثقلها الرئيسى الركن الشمالى الشرقى من القارة الأفريقية.

وإذا كانت أمة الإسلام قد وصفت فى القرآن الكريم بأنها خير أمة أخرجت للناس ، فإنه من دواعى الخير لهذه الأمة أن تكون فى شبابها مترابطة الأجزاء ، متماسكة الأطراف ، يحس أهلها جميعا - فى المشرق والمغرب سواء - بأنهم إخوة متحابون فى سبيل الله، وبأنهم أعضاء فى جسد واحد ، مما جعل دولة الإسلام تمثل مركز الثقل فى المحيط العالمى.

ولما كان الإسلام - بتعاليمه ومنهجه وحضارته - هو الرباط الأول الذى ربط أجزاء هذه الأمة بعضها ببعض ، وجعل من شعوبها المتباينة الأصول والجذور أمة وسطا ، فإن ارتباط مولد الإسلام بالشرق جعل أهل المغرب يتجهون بقلوبهم وعقولهم إلى الشرق، حيث يقوم البيت العتيق الذى يمثل قبلة المسلمين ومطاف الحجاج الوافدين من مشارق الأرض ومغاربها. وبعبارة أخرى فإن المغاربة كان عليهم دائما أن يتجهوا بأفئدتهم نحو الشرق، فى

حين أن المشارقة لم يتجهوا إلى المغرب إلا فى حالات فردية لطلب علم أو كسب رزق . ولعل هذا هو السبب فى أن غالبية كتب الرحلة التى دونها رحالة مسلمون فى العصور الوسطى تحمل أسماء مغاربة وفدوا من المغرب على المشرق وليس العكس ، باستثناء حالات قليلة .

ولايعنى هذا أن المغرب لم يحظ بقدر كاف من عناية المشارقة واهتماماتهم فى ظل الدولة الإسلامية؛ فالمسلمون آمنوا دائما بأنهم أعضاء فى جسد واحد. والمسلم أينما حلّ فى أى بلد من بلاد الإسلام كان يحل أهلا وينزل سهلا . وكان يحس فى تنقلاته بين أرجاء العالم الإسلامى شرقا وغربا أنه إنما يتنقل بين ربوع بيت واحد ، عبر عنه بدولة الإسلام . ثم إن المشارقة لم يكتفوا بفتح أبواب بلادهم أمام المغاربة التازحين إلى ديارهم ، وتقديم كافة التسهيلات لهم، وإنما حرصوا على مساعدتهم وتوفير المأوى والمأكل والملبس والعلاج... وغير ذلك مما أشار إليه ابن جبير فى رحلته إلى الشرق على عصر صلاح الدين . وعندما تعرض المغرب للعدوان عصر الحروب الصليبية ، بادر المشرق - رغم الظروف القاسية وبعد المكان- بتقديم العون والمساعدة. وما زال التاريخ يذكر دور سلاطين المماليك فى مصر من جهة ، ثم الأتراك العثمانيين من جهة أخرى، فى التصدى للهجمات الشرسة التى شنها الغرب الأوربى ضد المغاربة المسلمين فى أواخر العصور الوسطى وفجر الحديثة .

* * *

حضرات الزملاء والزميلات

إن موضوع العلاقات بين المشرق والمغرب الإسلامية عبر عصور التاريخ، موضوع متشعب الاتجاهات متعدد الفروع ، يتطلب جهودا صادقة من الباحثين المتخصصين فى تاريخى المشرق والمغرب جميعا .

وإذا كنا فى ندوتنا هذه التى يعقدها اتحاد المؤرخين العرب قد أقدمنا على علاج هذا الموضوع : فإننا نأمل بعون الله، ثم بفضل جهودكم أن نفلح فى إلقاء أضواء جديدة على بعض جوانبه .

إن اجتماعنا فى هذين اليومين بالقاهرة ، تحت مظلة اتحاد المؤرخين العرب، ليس لمجرد إلقاء بحوث، والاستماع إلى آراء وأفكار، وإنما أيضا لإجراء مناقشات علمية حرة ، تستهدف استجلاء ما خفى من جوانب العلاقات التاريخية بين المشرق والمغرب الإسلامية وصدق الله العظيم إذ يقول «إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون» .

سعيد عبد الفتاح عاشور

د. على منصور نصر (*)

أضواء على الفتح الإسلامى للمغرب

أحوال بلاد المغرب السياسية والدينية والاجتماعية عندما وصلها العرب والمسلمون فاتحين

التسمية (المغرب) :

«بلاد المغرب» مصطلح يقصد به الكتاب العرب كل الأقاليم ، الواقعة غربى مصر[١]، والتى تشمل شمال القارة الأفريقية، وتتضمن حاليا البلاد الليبية بولاياتها الثلاث (برقة وطرابلس وفزان) ، وتونس ، والجزائر بصحرائها المترامية، إلى تخوم السودان ، وأخيرا المغرب- الذى كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش ، نسبة إلى عاصمته الجنوبية- ، ويمتد طبيعيا نحو الجنوب ، إلى تخوم السنغال والنيجر[٢]. وانطلاقا من هذا التعريف للبلاد المتفق على تسميتها «بالمغرب» ، نهج فريق من المؤرخين ، على تقسيمها إلى أربعة أقسام، ربما كان لها بعد إدارى اقتضته إجراءات الدولة فى ذلك الزمن :

١- برقة وطرابلس .

(*) أستاذ التاريخ والحضارة العربية الإسلامية المشارك - ورئيس قسم الدراسات العامة كلية الآداب- جامعة البحرين .

٢- المغرب الأدنى أو أفريقية ، وكانت القيروان العاصمة السياسية لهذا الإقليم فى أيام الأمويين ، ثم تغيرت مع التغيرات فى النفوذ السياسى.

٣- المغرب الأوسط ، وكانت (تاهرت) أشهر مدنه ، حيث اتخذها الخوارج الأباضيون عاصمة لدولتهم الرستمية، و(تلمسان) عاصمة بنى زيان ، وأخيرا الجزائر عاصمة بنى مزغنه .

٤- المغرب الأقصى، وهو الإقليم الثانى فى أقصى الولاية الأفريقية ، الذى يطل على البحر المتوسط شمالا ، والمحيط الأطلسى غربا، ومن أشهر مدنه (فاس) عاصمة الأدارسة، و(مراكش) عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين ، والرباط العاصمة الحالية للمغرب[٣].

أما لفظ «المغرب» ، فهو عند الإصطخرى يشمل كل ما يلى مصر غربا ، ويقسمه إلى قسمين: شرقى، ويشمل برقة وأفريقية، وتاهرت وطنجة والسوس ونوبلة، وغربى وهو الأندلس[٤].

وإذا كان الإصطخرى يدخل الأندلس فى المغرب ، فإننا نجد المقدسى يدخل مصر كذلك فى المغرب، على اعتبار أن المغرب ما يقابل المشرق من البلاد[٥].

أحوال المغرب السياسية قبيل الفتح :

بسقوط مدينة قرطاجنة بيد الرومان سنة ١٤٦ ق.م، دخل المغرب العربى تحت نير الاستعمار ، والقوى الأجنبية ، فسيطر عليه الرومان، ثم الوندال ، ثم الروم البيزنطيون.

وإذا كان المغرب قد تخلص من السيطرة الاستعمارية الرومانية، فقد وقع هذه المرة تحت نير غزاة آخرين ، تميزوا بخشونتهم، ووحشيتهم التى لاتحدها حدود ، فساءت الأحوال الاقتصادية ، وعمت الثورات عموم البلاد ، وافترق أمر الوندال فى زعمائهم ، وضعفت سلطانهم كثيرا[٦]، حتى تمكن الإمبراطور البيزنطى جستينان ، من إنفاذ حملة قادها «بلزا ريوس» سنة ٥٣٣م، تمكنت من القضاء على الوندال فى بلاد المغرب، ليعيدوا سيرة الاستعمار الرومانى، وليفرضوا على سكانه من الضرائب والمغارم ، ما لم يقر فى قانون أو شريعة .

ورغم سيطرة الروم البيزنطيين على الأمور، إلا أن نفوذهم وسلطانهم لم يعم بلاد المغرب بأكمله ، وإنما شمل قسما منه يبدأ بحدود مصر الغربية، ويضم برقة وطرابلس ، وحوض مجرده «تونس الحالية» وجبال أوراس ، ثم يأخذ فى الاقتراب من الساحل ، حتى ينتهى عند طنجة

وسبتة ، أما فى الجنوب فلم يتعد نصف امتداد أفريقية الرومانية ، فكان أقصى اتساعه سهل مجرده وهضبة الأوراس ، ووقفت حدوده الجنوبية عند تبسة، وسكولا ، وتقاد ، ولمبيزة ، وطهنة ، والمسيلة، أما فيما عدا ذلك فكانت حدوده ملاصقة للساحل ، لاتكاد تتعدى أرباض الموانئ ، من أمثال تبقش ، وقيصرية وتانس ووهران[٧].

وكان المغرب فى عهد الروم البيزنطية، ولاية مستقلة على رأسها حاكم هام، يتمتع بصلاحيات واسعة، ويشرف على تطبيق القوانين، والأحكام القضائية، وجمع الضرائب وتوزيع المصاريف، وله حق التصرف فى الأموال الإمبراطورية، ويعاونه عدد من المساعدين، يرجعون بالنظر إليه وحده، وكان له مستشارون ومختصون ، فى الشئون القضائية، إضافة إلى عشرة مكاتب ، تضم مائة وثمانية عشر موظفا ، وتسع تشكيلات «أو نقابات» للقيام ببعض الخدمات الإدارية والمالية[٨].

وعمل البيزنطيون على تقوية النظام الدفاعى فى بلاد المغرب، غير أن ذلك لم يمنع من قيام البربر بالثورات عليهم، مرات عديدة ، مما كان سببا فى كثرة وجود القلاقل، والاضطرابات ، وتوسل الحكام البيزنطيون بالقوة والعنف فى سبيل قمع هذه الحركات التحريرية ، ثم اتبعوا سياسة تقوم على نشر بذور الشقاق والتفرقة بين عنصرى السكان، البرانس والبتر ، فضربوا بعضهم ببعض، وضمنوا لأنفسهم السيادة على جميع البلاد ، فعمت الفوضى جميع أنحاء البلاد ، وتدهورت الثروة الأهلية، وأصبح الناس لايأمنون على أموالهم ولا على أرواحهم[٩].

وبدلا من أن تحسن بيزنطة فى سياستها تجاه سكان المغرب، عمدت ، ومنذ تولى موريس عرش بيزنطة (٥٨٢-٦٠٢م) ، إلى تنظيم الولايات البيزنطية ، فى المغرب العربى، بأسلوب يحقق لها المزيد من السيطرة والضغط على سكان البلاد ، ففصلت طرابلس عن أفريقيا، وضمتها إلى مصر، وكونت من موريطانيا السطيفية وموريطانية القيصرية ولاية واحدة، سميت باسم موريطانية الأولى، فى حين ضمت موريطانية الثانية كلا من سبته وجزر البليار، وما للبيزنطيين من أملاك فى أسبانيا ، وأنشأوا ولايات جديدة هى السردينية وكورسيكا[١٠].

أحوال بلاد المغرب الدينية قبيل الفتح :

كان التحول من ولاية إلى منطقة عسكرية ، بداية النهاية لانهيار الاستعمار البيزنطى ، فقد استمرت الثورات على البيزنطيين ، وظل الحكام البطارقة يمارسون سياسة نهب البلاد ، ويفرضون الضرائب، التى تزيد اقتصاديات البلاد إرهاقا ، وأصاب الخلل جميع المرافق الإدارية،

المدنية والعسكرية على حد سواء فيها، إضافة إلى انتشار الرشوة في دواوين الحكومة، وبيع المناصب لمن يدفع أكثر. كان هناك انهيار في القيم الخلقية، واستهتار من قبل الحاكمين، بمصالح البلاد والمواطنين، ولم تكن الكنيسة بعيدة عن مجال الفساد، الذي استشرى في أجهزة الدولة، فقد أصيبت هي الأخرى بالفساد وانتشرت السيمونية[١١١]، والمعاصي بين القساوسة[١١٢].

وعمت الخلافات المذهبية بين سكان البلاد، والسلطات الحاكمة، وجرت هذه الخلافات المذهبية إلى سياسة من الاضطهاد الديني، وإلى نتائج أصابت كيان الغزاة البيزنطيين في الصميم، وخرج كثيرون عن مذهب الإمبراطور، واعتنقوا المذهب المونوفيزيتي، وكان هذا الخصام المذهبي من الأسباب الرئيسية في اضمحلال البلاد، وانتشار عقد الدولة البيزنطية في بلاد المغرب[١١٣].

أن انتشار مذاهب وأديان السلطة الحاكمة، مسألة طبيعية حيث أن البيزنطيين مارسوا الإرهاب الديني على شعوب المغرب، وفرضوا ديانتهم على أهلها، وهذا لايعني عدم انتشار ديانات أخرى سواء كانت وضعية، أم سماوية فقيما يتعلق بالمجوسية، يذكر صاحب كتاب «روض القرطاس»: أن بعض قبائل منطقة فاس كان لهم بيت نار، وفيما يتعلق بالوثنية يذكر البكري: أن بعض قبائل ودان كان لها صنم من حجارة مبني على ربوة يسمى كرزة، يقربون له القرابين، ويستشفون به من أدوائهم ويتبركون به في أموالهم[١١٤].

وإلى جانب المعتقدات الوطنية الساذجة عرف المغرب الديانتين السماويتين السابقتين على الإسلام، فالأفكار اليهودية دخلت منذ وقت مبكر مع الفينيقيين ثم مع المهاجرين اليهود، أيام الاضطهاد الروماني، والظاهر أنها انتشرت في بعض القبائل، إلى جانب المعتقدات المحلية، ولقد انتشرت المسيحية هي الأخرى في وقت مبكر، وقصة انتشارها وثيقة الصلة بالحكم الروماني في المغرب، وذلك لأن المسيحية عندما خرجت من الشام فعلت ذلك بهدف غزو وهدم الإمبراطورية الرومانية[١١٥]. فبدأ القادة الكبار بالتمرد والانفصال، عن السلطة المركزية مستغلين الظروف السيئة التي تمر بها السلطات الحاكمة، بعد أن فقدت هيبتها وزادت الخلافات المذهبية والدينية بين قبائلها، مما أفقدها مكانتها، وسلطاتها الفعلية، ففي سنة ٦٤٦م أعلن جريجوريوس «جرجير» خلع طاعة الإمبراطور البيزنطي، والاستقلال بالمغرب، وتلقب بالإمبراطور، وضرب النقود باسمه، ونقل مقره من قرطاجنة إلى مدينة سبيطلة،

البعيدة عن الساحل كي يأمن جانب القوات البحرية البيزنطية، واستمر جرجير في حكم البلاد حتى مقتله في واقعة سبيطلة على يد القائد العربي عبدالله بن أبي سرح سنة ٢٨هـ-٦٤٨م[١١٦].

أحوال بلاد المغرب الاجتماعية والاقتصادية عندما وصلها العرب فاتحين :

العامل الاجتماعي : يشكل أساسه سكان المغرب أنفسهم، وكانوا يتألفون من ثلاث طوائف: وهم ١- الروم، البيزنطيون، ٢- الأفارق أو الأفارقة، وهم بقايا شعب قرطاجنة، وأخلاط من المستعمرين اللاتين، والوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية، وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لسادتهم البيزنطيين، ويشتغلون بالزراعة والصناعة، ٣-البربر وهم سكان المغرب، والبربر من Barbari، وهو اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب، لأنهم كانوا يعتبرونهم أعاجم على حضارتهم، فسموهم برابرة وعربت إلى بربر وبرابر، والبربر هم سكان المغرب الأصليون، وقد اختلف المؤرخون في إثبات وطنهم الأصلي[١١٧].

وينقسم البربر من الوجهة الاجتماعية إلى مجموعتين مختلفتين، بحسب أسلوب الحياة والطابع الحضاري وهما: البربر الحضر، ويسمون (بالبرانس)، ويسكنون السهول الخصبة، والمدن أو الهضاب المزروعة، ويتصلون بالحضارة القرطاجنية، واللاتينية ويعيشون على الزراعة والصناعة، ويسكنون بصفة عامة الشريط الساحلي والسفوح الشمالية لجبال الأطلس، أما المجموعة الأخرى من البربر فهم البربر البدو، ويسمون البتر، ويعيشون على الرعي، ويميلون للإغارة على السهول وما يجاورهم من عمران، وهم جند نسبيا حيث أقبلوا من الجنوب، وفي الغالب من الجنوب الغربي من قلب القارة الأفريقية، عن طريق وادي النيل، وقد نزلوا أولا إقليم برقة، ثم انتشروا غربا، وهم جنس أفريقي أسمر البشرة، اختلط بالسكان الأصليين، ومن اختلاطهما نشأ الجنس البربري، الذي استعرب بعد أن اختلط بالعرب وأصبح من أمم العروبة[١١٨].

ولم يكن البربر على وفاق، بل كانوا في نزاع مستمر، بسبب التفاوت والاختلاف في النواحي الاقتصادية والاجتماعية، وكان لهذا النزاع أثر كبير على الوحدة السياسية للبلاد، مما سهل غزوها واستعمار الشعوب الأخرى لها، فقد استغل كل من الرومان والبيزنطيين هذا الخلاف، وساندوا البرانس ضد البتر، وبثوا التفرقة بينهم، وألبوا بعضهم على بعض، من أجل أن يخلو لهم الجو، ويحكموا سيطرتهم على البلاد[١١٩].

وفيما يتعلق بالأوضاع الاقتصادية في المغرب ، فقد كان السكان يمارسون مهنة الرعي وتربية الأغنام ، لما كانت تتميز به أراضيهم من خصب وكثرة مزارع، إلى جانب ممارسة التجارة بشكل واسع مع المناطق المجاورة لهم، لاسيما مع مصر والسودان وصقلية، وكانت أهم تجارتهم هي الأغنام ، الصوف والزيت والعسل ، والشمع والقطران والفلفل والفواكه والحبوب كالشعير والحمص والعدس [٢٠]، إلى جانب بعض المعادن كالحديد والنحاس[٢١].

لقد كان الازدهار الاقتصادي الذي عاشته المغرب نسبيًا مما دفع بعض السكان المحليين المنتفعين من هذا الوضع ، سواء في مناطق الداخل أو في المناطق الساحلية، إلى الوقوف بوجه أي تغيير يمكن أن يحدث ، نتيجة لدخول قوة خارجية إلى المغرب لاعتقادهم أن ذلك سوف يؤثر سلبا في مصالحهم التجارية ويجعلهم يفقدون مزاياهم الاقتصادية التي ينعمون في ظلها، لاسيما التجارة، التي تعد المحور الأساسي لاقتصادهم. وهكذا لعب هذا العامل دوره الفاعل في مقاومة بعض السكان المحليين للجيش العربي الإسلامي، حال دخوله المغرب لأول مرة[٢٢].

فتح برقة وطرابلس :

كانت برقة وطرابلس قد انفصلتا عن ولاية أفريقيا، منذ عهد الإمبراطور البيزنطي موريس (٥٨٢-٦٠٢)، وأصبحتا رسميا تابعتين لمصر ، فلما أتم العرب فتح مصر بمعاهدة الإسكندرية في ١٩ شوال سنة ٢١هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢م، واستقر عمرو بن العاص في عاصمته الجديدة، الفسطاط ، بدأ ينهض للاستيلاء على برقة ، ففي أواخر سنة ٢٢هـ / أوائل ٦٤٣م، سار بنفسه إليها ، ووقع بينه وبين البرانس والهوارين قتال قصير ، ثم استسلموا للعرب وعقدوا مع عمرو بن العاص اتفاقا ، على أن يؤدوا له مبلغا قدره ثلاثة عشر ألف دينار في السنة، بصفة جزية، ثم عاد إلى مصر ، ونفهم من هذا أن برقة كانت جزءا من أرض أو ولاية مصر، فكان فتحها استكمالا لفتح مصر، وأن هذه الجزية أو الإتاوة كانت جزءا من خراج مصر العام[٢٣].

إن حملة عمرو بن العاص اتخذت طريقها إلى المغرب ، بعد إتمام فتح الإسكندرية كما تشير بعض المصادر ، ويعتقد أنها سلكت على الأرجح الطريق المحاذي للساحل إلى برقة ، التي كانت معقلا من معاقل البربر، خاصة لقبيلة (لواته) [٢٤]، والتي يبدو أنها مارست ضغطا على البيزنطيين ، الذين بدأ وجودهم ضعيفا ، أو متلاشيا في الطريق الذي سلكه المسلمون

لفتح أفريقيا أو لأن سقوط الإسكندرية أحدث ارتباكا في صفوفهم ، وحال دون القيام بدور ما، لمنع تقدم العرب في هذا الاتجاه[٢٥] .

ومن برقة تجهز عمرو بن العاص لتحرير مدينة طرابلس ، وتطلبت الضرورة العسكرية تجهيز قوتين، قوة رئيسية اتخذت الطريق الساحلي، وهدفها مدينة طرابلس وما يليها من المدن الساحلية، وقوة فرعية وجهتها المناطق الصحراوية الجنوبية ، أنيطت قيادتها إلى عقبة بن نافع الفهري[٢٦]، لتأمين المناطق الداخلية حتى زويلة، ولمنعها من القيام بأي عمل من شأنه أن يعوق تقدم القوات الساحلية، أو يهدد خطوط مواصلاتها .

سار عقبة إلى فزان ، ففتحها ونجح في مهمته ، وأصبحت المنطقة الداخلية مأمونة العواقب، لاخوف على الجيش الإسلامي أن يؤتى من قبلها، بعد أن استوثق من طاعة أهلها وحيادهم[٢٧].

وبينما كان عقبة يفتتح فزان ، كان عمرو يغزو إقليم طرابلس ، فبدأ بمدينة سرت (وتقع بين برقة وطرابلس) ، فاستولى عليها، ثم زحف على لبدة، فوجدها قليلة العمران ، فاستولى عليها، ثم مضى نحو طرابلس ، وكانت حصينة مسورة فضرب الحصار عليها ، لامتناعها عليه، وبعد شهر من حصارها تمكن الجيش الإسلامي من فتحها ، بعد أن اقتحم بعض المسلمين المدينة من ناحية[٢٨] البحر[٢٩] .

وأعقب عمرو بن العاص تحرير طرابلس بدخول مدينة سبرت (صبراته) وتحريرها من فلول الروم البيزنطية. كما بعث عمرو أثناء حصاره طرابلس قائده بسر بن أرطاة إلى ودان فافتتحها، وبذلك يكون عمرو قد أمن جنوب طرابلس كما أمن جنوب برقة حين استولى على فزان وزويلة[٣٠].

بعد أن أطمأن عمرو بن العاص إلى فتح برقة وطرابلس ، عاد إلى مصر ليشرف على تنظيم إدارتها ، مما جعلها جديرة بقيادة حروب التحرير العربية، في بلاد المغرب، بعد أن خلف في برقة حامية عسكرية ، على رأسها عقبة بن نافع الفهري [٣١].

مرقعة سبيطلة وفتح أفريقية [٣٢]:

عندما انصرف عمرو بن العاص عن طرابلس ، لم يهمل شأن هذه البلاد ، ولم يصرف النظر عن الاتصال بأحوالها ، وإنما كان يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون[٣٣].

ولم يكن المقصد من هذه الطلائع هو الغنائم ، كما يعلل ذلك بعض المؤرخين ، وإنما هو إشعار البلاد بقوة المسلمين ، ثم استطلاع الأخبار ، ومعرفة الأسرار ، حتى يتأتى أخذ الاستعداد الكامل لمواصلة الفتح .

وكانت الخطوة التالية من فتوح المغرب بعد ذلك ، بأربع سنوات ، وقعت على يد والي مصر بعد عمرو بن العاص ، وهو عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، والي عثمان بن عفان على مصر بعد عزله عمرا سنة ٢٤هـ / ٦٤٤م .

بدأ الوالي الجديد بعد استقراره في الفسطاط نشاطه الأفريقي ، بسلسلة من العمليات الاستطلاعية ، لدراسة الموقف عن كثب ، تمهيدا لاستئناف سياسة التوسع ، التي بدأها الوالي السابق، وإذ نصحح الصورة أكثر وضوحا ، يقوم عبدالله بن سعد برأسة الخليفة بشأن حملة جديدة إلى المغرب؛ وأخذ الإذن لمواصلة المسير في فتح المغرب، وبعد تردد أذن له الخليفة عثمان في ذلك [٣٤].

ويتفق ابن خلدون مع ابن الأثير في إرسال الجرائد إلى أطراف أفريقية ، بأمر عثمان ، وإن كان يضيف إلى ذلك : أن بعض هذه الجرائد كان على رأسها عبدالله بن أبي السرح ، وكان المسير له عمرو بأمر عثمان . يقول : وفي سنة خمس وعشرين سير عمرو بن العاص، عبدالله بن سعد أبي السرح ، إلى أطراف أفريقية غازيا بأمر عثمان ، وكان عبدالله من جند مصر، فلما سار إليها ، أمده عمرو بالجنود ، فغنم هو وجنده ، فلما عاد عبدالله ، كتب إلى عثمان يستأذنه في غزو أفريقية[٣٥].

وبعد أن تأكد عبدالله من قدرته على فتح أفريقية ، بعد توافر الجند الكافي لغزوها سار، ابن أبي السرح بجيشه إلى أفريقية سنة ٢٧هـ / ٦٤٧م، سالكا الطريق الساحلية، مارا بطرابلس التي كانت قد نقضت العهد بعد فتح عمرو بن العاص لها ، وتحصنت ، فلم يضيع ابن أبي السرح الوقت، وينهك جيشه عندها ، بل تركها ، بعد أن أصابت فيها طليعة جيشه مراكب للبيزنطيين راسية على الساحل، ثم مر بقابس [٣٦]. فوجد البيزنطيين قد تحصنوا فيها. فكره الوقوف وتركها وراءه [٣٧] ، ثم توجهت الحملة إلى سبيطلة [٣٨] ، حيث حاصرها عبدالله بن سعد حصارا محكما ، وتمكن من الاستيلاء عليها ، وغنم غنائم كثيرة. ثم بث جيوشه في البلاد ، فبلغت «قفصة» ، وسير عسكرا إلى حصن الأجم ، ويقع جنوبي القيروان ، وحاصره وفتحه على الأمان[٣٩].

بعد سبيطلة عاد عبدالله بن سعد إلى الفسطاط ، بعد غياب أكثر من ستة أشهر ، مكتفيا بما حققه من انتصار باهر ، دون أن تحمله نشوة النصر على الاستفادة من الظروف ، ومتابعة النشاط التوسيعي في هذه الجهات ، ويبدو أن عبدالله خشي من تطويق البيزنطيين له، وهو بعيد عن ولايته[٤٠].

ويبدو أن عبدالله بن سعد بن أبي سرح اكتفى بالانتصار في الموقعة التي خاضها ، ثم بفتح بعض الحصون ، والحصول على الصلح والجزية الكبيرة ، التي يعبر عنها البلاذري في رواية عبدالله بن الزبير بثلاثمائة قنطار من ذهب ، على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، وفي رواية ابن كعب، أن عبدالله بن سعد صالح بطريق أفريقية على ألف وخمسمائة ألف دينار. ويزيد المازني أنه رجع إلى مصر، ولم يول على أفريقية أحدا ، ولم يكن لها يومئذ قيروان ولامصر جامع [٤١]، لذا فقد اكتفى ابن أبي السرح بالانتصار الذي حققه ، وبالغنائم الكبيرة التي حصل عليها المقاتلون ، حيث تشير المصادر إلى أن نصيب الراجل بلغ ألف دينار والفارس ثلاثة آلاف دينار[٤٢] ، وعاد إلى مصر بعد أن قضى سنة وشهرين[٤٣] ، ويقال سنة وثلاثة أشهر[٤٤]، في هذه الحملة دون أن يقوم بأية إجراءات عسكرية أو إدارية من شأنها أن تثبت أقدام العرب الفاتحين هناك[٤٥].

غزوة معاوية بن حديج والقضاء على آمال الروم في استعادة أفريقية سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م.

شغل العرب عن أفريقية ، والفتوح عامة، بسبب فتنة عثمان ، ثم الحرب الأهلية بين معاوية وعلي، ولم يتجدد نشاط الفتوح مرة أخرى إلا بعد استقرار الأمر إلى معاوية عام٤١هـ/ ٦٦١م ، الذي يسمى عام الجماعة .

لقد تم انفصال المغرب عن مصر بعد موت عمرو بن العاص ، حيث أصدر معاوية قرارا بتعيين حاكم على الولاية المستجدة، هو معاوية بن حديج ، وأمره بالتحرك في السنة التالية ٤٥هـ / ٦٦٥م، إلى برقة لاستلام مهامه ، ومعه أوامر باستئناف الأعمال العسكرية في المغرب.

وبعد الفسطاط وقف معاوية بن حديج على دقائق الموقف ، في وقت كانت فيه الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور قسطنطين الثاني، تعمل على إعادة نفوذها إلى أفريقية ، بعد

الضربة التي كسرت شوكتها في سبيطلة ، فأخذت في حشد قوات كثيفة لاستعادة ما خسرته هناك[٤٦].

ويذكر المؤرخون ، أن بعض الظروف قد خدمت المسلمين ، ودفعتهم للإسراع باستئناف الفتح، وذلك بسبب خلاف نشأ بين الحاكم الجديد الذي ولاه هرقل على أفريقية، وبين رعاياه فيها ، حيث قد بالغ الحاكم الجديد ، في مطالبة رؤساء أفريقية، بأن يقدموا إليه من الأموال مثل ما دفعوا لابن أبي السرح في صلحهم معه، مما أدى إلى تذمر أهل أفريقية ، وكثرة النزاع والخصام بينهم وبين الحاكم الجديد ، مما دعاه إلى حبسهم[٤٧].

خرج معاوية بن حديج سنة ٤٥هـ / ٦٦٥م ، لاستكمال الفتوحات العربية في بلاد المغرب، على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ، إضافة إلى حامية برقة، سالكا الطريق الساحلي، مرورا بمدينة طرابلس، التي لم تبين المصادر موقفها من هذه الحملة[٤٨]، ومن المحتمل أنها قد استسلمت ونزلت عند حكم ابن حديج ، الذي ولى عليها رويفع بن ثابت الأنصاري[٤٩]، وقد تابع ابن حديج سيره، حتى دخل أفريقية فوجدها مضطربة تماما[٥٠]، ونزل بجيشه عند (قمونية) وهو موضع مدينة القيروان[٥١]، ثم رحل منها شمالا إلى جبل يقال له (القرن) ، أو جبل (عطور) [٥٢]، وفي هذا المكان وقعت معركة بين القوات العربية وقوات بقفور البيزنطية، التي كانت في ثلاثين ألف مقاتل ، أسفرت عن انهزامهم واعتصامهم بمدينة سوسه [٥٣]، ومن هناك أقلع بقفور هو ورجال جيشه في البحر، وولى هاربا ، بعد أن أنزل عبدالله بن الزبير الهزيمة بقواته[٥٤].

وقد عزز ابن حديج انتصاراته بنصر آخر، عندما أرسل سرية أخرى لفتح مدينة جلولاء التي تبعد عن القيروان نحو أربعة وعشرين ميلا ، ويبدو أن العرب لم يلاقوا صعوبة في اقتحام أسوار هذه المدينة وهدمها لأنها لم تكن على درجة كبيرة من القوة والمتانة[٥٥].

ولاحقت القوات العربية الروم البيزنطيين في البر والبحر، فدخلت مدينة بنزرت وقضت على عناصر المقاومة فيها[٥٦]، وأبحرت قوة بحرية إلى جزيرة صقلية سنة ٤٦هـ/ ٦٦٦م، قادها عبدالله بن قيس فتمكنت من تحقيق أهدافها وعادت سالمة[٥٧]، بعد أن أتمت الفتح .

وبانتهاء حملة ابن حديج على أفريقية ، تبدأ مرحلة جديدة من الفتح العربي الإسلامي ، للمغرب، تتميز عن المراحل السابقة ، بشكلها المنظم والمستقر ، وذلك على يد الفاتح الكبير عقبة بن نافع الفهري، الذي عهد إليه بولاية أفريقية بعد معاوية بن حديج.

جهود عقبة ونشاطاته في المغرب العربي قبل ولايته الأولى وبعدها .

كان نافع بن عبد قيس في الجيش الأول ، الذي قاده عمرو بن العاص في فتح برقة وطرابلس، وكان زوج أخت عمرو بن العاص تعهد إليه عمرو بعد أن فتح طرابلس، في أن يسير بقوة من الجند نحو الجنوب ، للاستيلاء على أقليم فزان. الواقع جنوبي طرابلس، على بعد ٨٠٠كم في الصحراء، ففعل وكان معه في هذه الحملة ابنه عقبة بن نافع بن عبد قيس ، وكان صبيا في العاشرة، وترك العرب في فزان حامية صغيرة ، من الجند كان من بينهم نافع بن عبد القيس، وابنه عقبة، والذي بدأ يتمرس بشؤون القتال والجهاد ، وتحول إلى شخصية عربية أفريقية ، شديدة الاتصال بشؤون المغرب، ووثيقة العلاقات بالعرب والبربر في نفس الوقت[٥٨].

ولما أن استقر الوضع لصالح معاوية بن أبي سفيان ، وبويع بالخلافة سنة ٤١هـ / ٦٦١م حتى قام بإعادة عمرو بن العاص إلى ولاية مصر ، واستأنف الأخير حملاته على المغرب. فوجه عقبة بن نافع ، للقيام بحملات ، أشبه ما تكون بأعمال استطلاعية لإخضاع قبائل مزاتة، ولواته[٥٩]، التي كانت قد أبدت العرب الفاتحين قبلا سبق، ولكنها نقضت العهد، وبدأت بمقاومتهم.

وفي سنة ٤٢هـ / ٦٦٢م، قام عقبة بحملة أخرى، افتتح فيها غدامس [٦٠]، وقاد سنة ٤٣هـ / ٦٦٣م حملة ثالثة لإخضاع قبائل هوارة [٦١]. وفي السنة نفسها افتتح ودان ومواضع من بلاد السودان[٦٢].

يعتبر عقبة أول فاتح عربي يدخل بلاد المغرب، على رأس جيش ، وفي ذهنه فكرة واضحة عما ينبغي عمله، لتحويل أعمال الفتوح في أفريقية ، من غزوات تروح وتعود بغنائم فحسب، إلى فتوح منظمة ، ترمي إلى إنشاء ولاية أفريقية، وعد حدود الدولة الإسلامية غربا، وإدخال البربر في الإسلام.

يتفق المؤرخون على أن الحملات العسكرية المنظمة ، التي استهدفت فتح المغرب، إنما بدأت مع عقبة بن نافع الفهري، الذي بدأ ولايته للمغرب العربي سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م . ومما لاشك فيه أن اختيار عقبة بن نافع لقيادة الفتح وقيادة المغرب، كان اختيارا موفقا . لرجل عاش قريبا من أفريقية أو هو فيها منذ توجه جند المسلمين إلى المغرب، وعاش كل هذه الفترة مشاركا في الفتح أو قريبا منه[٦٣].

عقبة بن نافع وبناء مدينة القيروان :

تعد ولاية عقبة بن نافع سنة - ٥٥هـ/ - ٦٧٠م حدا فاصلا بين عهد الحملات الاستطلاعية، والفتح المنظم للمغرب، فقد كانت جميع جهود المسلمين في فتوحاتهم تذهب سدى ، من دون أي أثر ملموس ، منذ عهد عمرو بن العاص إلى عهد معاوية بن حديج .

ويبدو أن عقبة قد استفاد من خطوة معاوية بن حديج، في اتخاذه معسكرا ، ليكون مستقرا لقراته، وقاعدة لانطلاقها، وبالتالي يعتبر معاوية بن حديج أول من فكر في اتخاذ معسكر ، ومدينة يستقر فيها الجيش العربي، ثم جاء عقبة بن نافع فحول هذه الفكرة إلى واقع عملي ببنائه لمدينة القيروان .

ولاشك أن عقبة أثناء قيامه ببناء مدينة القيروان كان يواصل تحسس أخبار عدوه، بإرسال الطلائع والحملات السريعة، التي تثبت قوة المسلمين، كما تقوم بالدور المهم الذي يملأ شغاف قلب عقبة وأصحابه ، وهو نشر الإسلام ، وتبيينه للناس ، وبذلك دخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها[٦٤].

بعد أن أتم عقبة بن نافع بناء القيروان ، توجه بعزله سنة ٥٥هـ/ ٦٧٤م[٦٥] . ولم تشر المصادر إلى أسباب العزل ، بيد أنها تذكر أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان ضم ولاية أفريقية إلى مسلمة بن مخلد، عامله على مصر، فأصبحت مصر والمغرب كلها بيده[٦٦]. وقام هذا الأخير بعزل عقبة بن نافع وتوليته مولاه أبا المهاجر دينار .

عرف أبو المهاجر دينار بسياسته المغايرة تماما لسياسة عقبة بن نافع ، والمصادر تمر مرا سريعا على ولاية وأعمال أبي المهاجر دينار، ولعل السبب في ذلك يعود إلى وقوع ولايته بين ولايتي عقبة بن نافع الأولى والثانية ، ولكننا نعلم أن أبا المهاجر كان بارعا في المحاورة، والاعتماد على الدبلوماسية[٦٧].

وكانت أبرز أعمال أبي المهاجر أثناء قيادته التي دامت خمس سنوات (٥٥-٦٠هـ / ٦٧٤-٦٧٩م)، ذلك الهجوم الذي شنه على مهاذل (أوربه) إحدى أقوى قبائل البربر من البرانس ، الواقعة في جبل أوراس ، بعد ذلك عاد أبو المهاجر أدراجه نحو القيروان ، ليقوم بأعمال عسكرية ضد البيزنطيين ، فينعطف شمالا باتجاه قرطاجنة ، ويشن عليها هجوما عنيفا

(٩٥هـ / ٦٧٩م)، ولم يرجع عنها إلا بعد أن تنازل الروم له عن شبه جزيرة (شريك) الواقعة جنوبي إقليم قرطاجنة . فاحتلها المسلمون ، وضيقوا الخناق على عاصمة أفريقية البيزنطية[٦٨].

استمرت ولاية أبي المهاجر دينار، سبع سنوات ، ولم تنته بعد إلا بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان سنة - ٦٠هـ / ٦٧٩م ، فأعاد الخليفة يزيد بن معاوية عقبة بن نافع ليتولى أمر أفريقية مرة أخرى.

لقد قضى عقبة وقتا طويلا في برقة، وعندما أسند إليه أمر أفريقية اختط القيروان لتكون قاعدة المسلمين، لكي يواصل تبليغ الدعوة في الشمال الأفريقي كله. وابتدأ بتعميرها وإعادتها إلى سابق عهدها ، وجعلها موطنا ومقرا للمسلمين ، فجدد بناء القيروان، وشيدها ونقل الناس إليها ، فعمرت وعظم شأنها[٦٩].

وبنى عقبة بعد ذلك بحملة كبرى على المغرب ، وهي حملة طويلة وسريعة ، وصل فيها إلى المحيط وقاتل الروم والبربر ، وانتصر على كل من لاقاه.

تميزت ولاية عقبة بن نافع الثانية بطابع جديد في تحرير المغرب، تمثل بالمقاومة الشديدة والعنيفة ، من قبل السكان المحليين ، وقد بدأت بالزاب، وتيهرت ، وانتهت بالفاجعة المؤلمة والكبرى في تهوذة ، أما قبل هذا العهد فلم يبد السكان المحليون نشاطا ملحوظا ومميزا، حيث اتخذوا موقفا محايدا من الفتوحات العربية الإسلامية في المغرب، باستثناء بعضهم ممن اعتنق الديانة المسيحية ، وتأثر بالحضارة الرومانية .

إن المعاملة السيئة التي عامل بها عقبة بن نافع كسيلة زعيم قبيلة أوربة ، كانت من ضمن أخطائه الجسيمة ، وابتعاد السكان عنه بالذات في ولايته الثانية، لأن كسيلة كان مسلما[٧٠]. ولم يأخذ عقبة بنصائح أبي المهاجر في حسن معاملة كسيلة ، فعقبة على ما يبدو كان يعتقد أن إسلام كسيلة ، كان إسلاما شكليا ، حاول من خلاله أن يحقق مطامعه السياسية، في حكم بلاد المغرب، بعد طرد النفوذ البيزنطي ، بمساعدة العرب والمسلمين، ولهذا بدأ التناقض واضحا بين طموحات عقبة وأهدافه ، وبين طموحات كسيلة ، وأهدافه ، فتعمق الخلاف بينهما، حتى أدى إلى تصادمهما فيما بعد، فتحالف كسيلة مع البيزنطيين[٧١].

بدأ عقبة في مغامرة طويلة المدى ، قليلة الأثر السياسي. تذهب المراجع إلى أنه انتهى فيها إلى ساحل المحيط عند «يفيران يطرف» ، ثم عاد ليلقى مصرعه عند تهوذه على يد البربر،

ونفر من أحلافهم من الروم سنة ٦٣هـ / ٦٨٣-٦٨٤م ، وقد استشهد مع عقبة في هذه الوقعة نفر كبير من رؤساء المسلمين ، فيهم أبو المهاجر دينار ، فلما تم ذلك لكسيلة سار بمن معه من البربر فاحتل القيروان، وتراجع من بقي من المسلمين إلى برقة يقودهم زهير بن قيس البلوي[٧٣].

زحف زهير بن قيس من برقة سنة ٦٩هـ / ٦٨٨م ، على رأس جيش كبير، وعندما بلغ كسيلة خبر زحف القوات العربية، جمع قوات فاقت كثيرا قوات زهير[٧٣]، وخرج بها، ونزل موضعا يمس في الوقت الذي وصلت فيه القوات العربية مشارف مدينة القيروان ، فعسكرت في قرية يقال لها فرشانه[٧٤]، ومنها خرج زهير بقواته ، وهو على تعبئة استعدادا للمعركة ، حتى وصل ممس ، وفيها والتحمت بين الطرفين معركة حامية الوطيس ، صبر لها الطرفان وانتهت بتمزيق صفوف قوات كسيلة، وقتله أثناء المعركة [٧٥]، وشقت قواته هاربة ، تلاحقها القوات العربية، حتى أجازوهم وادي ملوية[٧٦].

وتعتبر موقعة ممس من المواقع الحاسمة في تاريخ المغرب، لأنها أعادت مجد الانتصارات العربية، وأذلت الروم البيزنطية وأخمدت مقاومة البربر[٧٧]، وكسرت شوكة أوربة من بينهم خاصة[٧٨].

وفي سنة ٦٩هـ / ٦٨٩م، دخل زهير معركة غير متكافئة ، أدت إلى استشهاده . ولقد استاء عبدالملك بن مروان، الخليفة ، لاستشهاد زهير ، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة»[٧٩]. وعين حسان بن النعمان الغساني واليا على المغرب، وكانت خطة حسان العسكرية تقوم على تحقيق مهمتين أساسيتين ، الأولى : القضاء على قوة الروم وضرب معاقلهم ، والثانية : تطويع البربر، الذين تجمعوا تحت قيادة الكاهنة ملكة جبال (أوراس) واستطاع حسان أن يقضي على قوة الروم البيزنطيين، وتحرير قرطاجنة ، رمز كيانهم وتواجدهم في البلاد ، وتمكن باقتدار عال من القضاء على الكاهنة، وكسب أنصارها إلى جانبه . وأصبحوا قوة فاعلة في صفوف القوات العربية. وهكذا يمكن إعتبار حسان المحرر الحقيقي لبلاد المغرب[٨٠].

نتائج الفتح الإسلامي للمغرب

إن من أهم نتائج الفتح الإسلامي للمغرب العربي، انتشار الإسلام وسرعة الاستجابة له من قبل السكان ، على الرغم من المقاومة العنيدة، التي لقيها المسلمون من أهل المغرب، ومن طول أمد الفتح ، والملاحظ أن الاستجابة إلى الإسلام ربما كانت أسرع ، وأوسع انتشارا مما

حدث في المشرق وفي العراق والشام ومصر[٨١]. فقد كانت بالمغرب قبل الإسلام ثلاث ديانات وهي : المسيحية والمرسية والوثنية، ولكن الفرضي قبل الفتح وظلم السلطة البيزنطية في ذلك العهد، أضعف الروح الدينية إضعافا شديدا ، ولم يترك لها بعض الهيبة إلا في كنائس الأرذوكس التي كانت شديدة الصلة بالبابا[٨٢].

بدأ الإسلام ينتشر في المغرب ، منذ وقت مبكر ، فالنصوص التاريخية تشير إلى أن عمرو ابن العاص عندما انتهى من تحرير إقليم برقة وطرابلس ، كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد «ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب، فبلغ زويلة، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية»[٨٣].

وعندما قضى عبدالله بن أبي السرح على قوات جرجير في سبيطلة ، كان من نتائج هذه المعركة، أن دخل في الإسلام عدد من زعماء القبائل البربرية ، ومنهم وزمار بن صقلاب أمير قبائل مغراوة وسائر زناته . فيذكر ابن خلدون أن الزعيم المذكور أسر في واقعة سبيطلة وأرسل إلى الخليفة عثمان بن عفان ليرى أمره فيه، فأسلم على يديه وأمره على قومه للجهاد في نشر الإسلام وتحرير بلاد المغرب[٨٤].

وتوالت الحملات العسكرية على بلاد المغرب، فكانت هذه الحملات تضم بين فرقها عددا من الصحابة ، إضافة إلى التابعين ، وكان هؤلاء الصحابة والتابعون من أولى الدعاة الذين قاموا بجهد وافر وكبير ، في سبيل نشر الإسلام ، وبرز دورهم واضحا بعد تأسيس مدينة القيروان، والذي كان من بين أسباب تأسيسها نشر الإسلام وتعميم اللغة العربية، في بلاد المغرب ، وكان دورها في هذا الشأن كبيرا، فقد سكنها العديد من الصحابة والتابعين ، وكان لهؤلاء دور بارزا في نشر الإسلام وتعليم البربر أصوله، وقد ازداد عدد المسلمين زيادة ملحوظة في ولاية عقبة الأولى واتسعت خطة المسلمين[٨٥]، خاصة بعد دخول كثير من البربر في الإسلام .

ويعلل الدكتور حسين مؤنس إقبال البربر على الإسلام في هذه المرحلة المبكرة بعدائهم للروم من ناحية، وضعف تأثير المسيحية عليهم من ناحية ثانية، فيقول : إننا نعرف أن القبائل التي كانت تسكن الناحية التي أقيمت فيها القيروان أو تحيط بها، إنما هي لواته ونفزاوة ونفوسة وأن هذه القبائل معدودة من قبائل البدو، الذين لبثوا على عداء الروم ، زمنا طويلا ، ونعرف أن تأثير المسيحية في هذا الفريق من البربر ، كان ضعيفا جدا، فهل يكون ذلك مؤيدا لرواية إسلامهم السريع[٨٦].

وينقل لنا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور رأي الكتاب الغربيين تعليقا على تحول شمال أفريقية بعد ذلك إلى الإسلام، فالعروبة ، قائلا : حتى البربر الذين طالما أظهروا عنادا بسترعي الانتباه ضد الغزاة السابقين ، سرعان ما اندمجوا في تيار الحضارة، وأصبحوا مسلمين متحمسين ، وبذلك مرت سبعمائة السنة، التي سيطرت فيها أوربا على شمال أفريقية، دون أن تترك أثرا في تلك البلاد، سوى الأساطير والأطلال ، فالمسيحية اندثرت ، والحياة الرومانية ذبلت ، والمدن تركها الرومان، ليعودوا أدراجهم إلى أوربا [٨٧].

وتمكن أبو المهاجر دينار من كسب قبائل أوربة إلى الإسلام ، وكان هذا المكسب ثمرة من ثمرات قيام مدينة القيروان ، في بلاد المغرب ، ولم يكتف أبو المهاجر دينار بذلك بل يسر للمسلمين سبل الاستقرار ، في مدينة القيروان والمناطق القريبة منها، فعمر تيكروان لتستوعب المسلمين الجدد.

واضطردت خطى الإسلامي في المغرب ، في ولاية أبي المهاجر دينار، والذي حل محل عقبة بن نافع في المغرب ٥٥-٦٢هـ / ٦٧٤-٦٨١م ، والذي عرف طبيعة البربر ، فمال إلى سياسة الملاينة معهم، والتقرب إليهم، وقد نجحت هذه السياسة ، وآتت ثمارا طيبة في مجال تقريب الإسلام إلى عقول وقلوب البربر فازداد إقبالهم عليه[٨٨].

وفي ولاية عقبة بن نافع الثانية انتشر الإسلام ، في مناطق واسعة من بلاد المغرب، وكان هذا الانتشار مرافقا لخط سير حملة عقبة بن نافع الكبرى، فعقبة خلال حملته هذه لم يكتف بتحرير البلاد عسكريا، وإنما حررها معنويا ، فدخلت قبائل كثيرة في الإسلام ، وقامت المساجد في مدينة درعة وتفيس ، وإيجلي ، وماسه ، وخلف في بعض الأقاليم جماعة من أصحابه منهم شاكر الذي أقام رباطا حمل اسمه[٨٩].

وعن سرعة انتشار الإسلام في أوساط البربر، يقول المؤرخ بيرونس في ذلك : «احتار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في ديانتهم ، وعاداتهم وأخلاقهم ، وقد علل ذلك بالتقارب بين العربية والفينيقية ، بالاتحاد في النسب، الذي ينشأ تقارب عنه في الطبائع وفي ذلك بعض الحق، وقد ذكر لإقبال البربر على الإسلام ثلاثة أسباب وهي:

١- تساهل البربر في المعتقد. ٢- بساطة العقيدة الإسلامية التي فهمها وقبلها .

٣- انتشار الفوضى قبل الإسلام ، حتى لم تدع نفوذ العقيدة تقف في وجه دين جديد، أثر انقراض أمر البيزنطية بشمال أفريقية ، ويزيد المؤرخ (غروت) على ما سبق من الأسباب سببا يراه وجيها لانتشار الإسلام، وهو اشتماله على ما يحقق أهداف البربر ومطامعهم[٩٠].

لقد أسلم على يد عقبة بن نافع خلق كثير، من البربر ، منهم المصامدة الذين ترك فيهم عقبة بعض أصحابه ، يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام، منهم شاكر صاحب الرباط وغيره[٩١].

وعندما حوصر عقبة بن نافع في جبل دون من قبل قبائل المصامدة، نهضت قبائل زناتة المسلمة وفكت الحصار، عن عقبة ، وقاتلوا المصامدة حتى أجبروهم على الارتداد أمامهم[٩٢].

ورغم أن حملة عقبة بن نافع انتهت باستشهاده، في حدود سنة ٦٣ هـ/ ٦٨٣م فهذا لا يعني أبدا ارتداد القبائل التي دخلت الإسلام ، والعودة إلى سيرتها الأولى، وإنما تقف على خلاف ذلك ، فحسبي ابن عذاري صاحب قضية[٩٣]، على ذلك أسرى المسلمين ، الذين كانوا بيد كسيلة، وأرسلهم إلى زهير بن قيس البلوي في القيروان[٩٤]. وأشار المالكي أن أفريقية: انقلبت نارا بعد دخول كسيلة القيروان. وهذا يدل على قيام ثورة عظيمة ضد كسيلة، وأن الذين قاموا بها ما هم إلا من مسلمي البربر، لأن القوات العربية الإسلامية ، كانت قد انسحبت من القيروان إلى مصر وبرقة[٩٥].

وخلاصة القول أن خطى الإسلام قد انتظمت في المغرب ، منذ مطلع الفتوحات واضطردت مسيرته، وكان في كل يوم يكسب أرضا جديدة، حتى عم الإقليم كله وفاض على ما حوله[٩٦]، واكتملت للمغرب كل الأسباب وتهيأت كل الفرص ، من تشجيع الخلفاء وجهود الولاة والدعاة ، ليصبح بلادا عربية إسلامية خالصة، يحكمها عامل لخليفة المسلمين، واختفى المغرب القديم بأديانه ومذاهبه المختلفة، وحضارته الزاهية وحل محله المغرب الإسلامي[٩٧].

ومن نتائج الفتح الإسلامي للمغرب أيضا انتشار اللغة العربية تدريجيا بين البربر، مع انتشار الإسلام بينهم ، وذلك لكي يتمكنوا من قراءة القرآن، وتأدية الصلاة وفهم تعاليم الإسلام. فالبربر إذن قد تعربوا ، واكتسبوا ما تفيده تلك اللغة من تفكير وتعبير ، فصارت لهم نفس العقلية العربية، وصار يوجد فيهم الفقهاء والشعراء والخطباء ، والمذاهب السياسية والدينية المعروفة في الدولة الإسلامية ، كذلك صارت حياتهم ومعاملاتهم قائمة على أساس الشريعة الإسلامية[٩٨]. وأصبح البربر جزءا هاما من المجتمع العربي الإسلامي ، وساهموا مثل غيرهم من الموالي في الحضارة العربية الإسلامية مساهمة فعالة .

فقد وجد البربر في اللغة العربية أداة طيعة ، تمكنهم من التفاهم فيما بينهم ، خاصة وقد تعددت اللهجات ، وكانت العربية هي اللغة المكتوبة، التي يستطيعون عن طريقها تسجيل تراثهم .

وكان إقبالهم على اللغة العربية عظيما يدلنا على ذلك ما تروبه كتب الطبقات من رحيل الكثيرين منهم فى القرن الثانى الهجرى، إلى الشرق الإسلامى للاستزادة من العلم والتشبث من اللغة العربية[٩٩].

ثانيا : الإدارة العربية فى بلاد المغرب :

تعتبر أعمال حسان بن النعمان الغسانى، نقلة نوعية فى تاريخ المغرب العربى، فله يرجع الفضل فى ترطيد الأمور فى بلاد المغرب ، فقد تمكن من القضاء على القوتين الكبيرتين، وهما الروم البيزنطيون فى قرطاجنة والبربر البتر فى جبال أوراس، وعمر مدينة القيروان، وأولى مسجدها الجامع عناية كبيرة فزاد فى بنائه وتزيينه[١٠٠].

ويعتبر إقرار الإدارة العربية فى بلاد المغرب، من النتائج الهامة للفتح الإسلامى للمغرب، بما يتلاءم وخصوصية العهد الجديد ، فتم تدوين الدواوين ، وإقرار الجزية والخراج على الروم والنصارى، وتم إنطاع البربر المسلمين الأراضى، وجعلهم مسئولين عنها مسئولية مباشرة، ثم إدخالهم فى القوات العربية، وبشكل منظم . فقد انتظم فى عهد حسان بن النعمان إثنا عشر ألف رجل، من القوات الكاهنة لمقاتلة الروم، ومن كفر من البربر[١٠١].

ويعد بناء مدينة تونس سنة ٨٤هـ / ٧٠٣ م من أهم نتائج الفتح فى بلاد المغرب ، فقد أكملت مدينة تونس مهمة القيروان ، فى نشر الإسلام، وأمنت سواحل البلاد ضد هجمات الروم البيزنطيين، والأخطار الأخرى[١٠٢].

وقد عمرت تونس بالعمائر المهمة، وقامت بها المساجد وسكنها العديد من المسلمين، ودورها فى نشر الإسلام والثقافة العربية لايقل عن دور مدينة القيروان خلال هذه الفترة.

نظم العرب البلاد المحررة تنظيما إداريا يتلاءم وخصوصية الدولة العربية الإسلامية فنهض عمرو بن العاص على تنظيم إدارة ما تم تحريره من أقاليم برقة وطرابلس ، وعين عقبة بن نافع الفهرى نائبا عنه فى هذه الأقاليم[١٠٣]، وأقر شخصا يدعى ابن دياس عاملا على برقة[١٠٤].

ومع الفتح بدأت معالم النظم الإدارى بالظهور ، وأصبحت مدينة القيروان عاصمة الولاية الجديدة، ومركز الإشعاع الفكرى والروحى فى بلاد المغرب، وأصبح ولاة المغرب فى أغلب الأحيان يرتبطون ارتباطا مباشرا فى سلطانهم عليها بوالى مصر عندما يلى مصر أحد أمراء بنى أمية أو إحدى الشخصيات المقربة من الخليفة.

أشرك حسان بن النعمان البربر فى تحمل مسئوليات تحرير بلاد المغرب، وكانت ضمن قواته فرقتان كل فرقة منهما ضمت ستة آلاف مقاتل، ولم يكتف بإشراك هؤلاء فى العمليات العسكرية، وإعطائهم نصيبهم من الغنائم ، وإنما رتب لهم أعطيات تصرف لهم من بيت مال الولاية . وعلى ذلك سار موسى بن نصير بعده ، وقسم حسان المغرب خططا للبربر، واختص كل قبيلة بخطة تكون مسئولة عنها ، وتؤدى عليها ما يفرضه الشرع من مال. . وهذا يعنى أنه اعتبر أرض المغرب مفتوحة صلحا لاعنوة [١٠٥]. بينما اعتبر ما كان تحت يد الروم وحلفائهم من الأفارقة مفتوحا عنوة واعتبروا أهلها ومن وجدوه عليها موالى لهم، يتصرفون فى شئونهم كما يريدون .

ويقول د. حسين مؤنس: لم يكد الفتح يتم حتى عجل حسان بتنظيم أمور الولاية الجديدة، «فدون الدواوين وصالح على الخراج، وكتبه على عجم أفريقية، ومن أقام معهم . على دين النصرانية» ، وقسم البلاد خططا، لكل قبيلة خطة. وفرض على القبائل أن يقدموا للمسلمين عددا من الجنود يحاربون معهم[١٠٦].

وهكذا أرسى حسان قواعد النظام الإدارى فى بلاد المغرب، وظل الولاة على ذلك سائرين مع تطوير ما يحتاج إلى تطوير ، وتعديل ما يحتاج إلى التعديل وحسب متطلبات المرحلة والظروف .

وكان والى المغرب نائبا عن الخليفة، فى تسيير الإدارة المدنية والعسكرية ، فهو حاكم الولاة، وقائد جيوشها ، وإمام الصلاة . وإضافة إلى منصب الوالى، كان هناك منصب عامل، وصاحب الخراج يعين من قبل دار الخلافة ، ويعتبر من أهم مساعدى الوالى فى الشئون المالية[١٠٧].

وشرع حسان فى إقامة مدينة ساحلية ، تكون عونا للقيروان ، على شاطئ البحر، ومعسرا ترقب تحركات الروم، وترد عادياتهم ، كما تحتل المركز الممتاز الذى كان لقرطاجنة من قبل وتكون مدينة وميناء إسلاميا عوضا عنها بها المسلمون ويبنون بجوارها دار صناعتهم فتتحول إلى ميناء حربى وتجارى، يشرف على حوض البحر المتوسط «فحسان هو الذى فرق البحر إليها -أى تونس- وجعلها دار صناعة فأخرج إليها الماء، وأجراه من البحر إليها[١٠٨].

وقد كان لإنشاء دار الصناعة وتعميرها ، وجلب الخبراء إليها من مصر، بأسرهم هو الاستعداد الحقيقى للدور الكبير، الذى ستقوم به القيروان بأسطولها القوى من الإغارة على شواطئ الروم فى عقر دارهم وشغلهم عن بلاد الإسلام فى المشرق[١٠٩].

وإلى حسان بن النعمان يعود الفضل في حركة تعريب الدواوين، وتعريب العملات، كما ينسبون إليه القيام بغرس البذور الأولى للفن العربي الإسلامي، وإنشاء بحرية إسلامية في المغرب. وقد اختلف مؤرخو العرب في اسم مؤسس دار صناعة تونس، فبعضهم ينسبها إلى حسان بن النعمان ، وبعضهم ينسبها إلى موسى بن نصير ، وبعضهم إلى عبيدالله بن الحبحاب. غير أن عمل ابن الحبحاب في حقيقة الأمر لم يكن يعدو ترميم بناء دار الصناعة وتجديدها[١١٠].

ويرى د. السيد عبد العزيز سالم بأن موسى بن نصير إنما أكمل إنشاء دار الصناعة بتونس، وأضاف إليها ، ووسعها لتزيد في الإنتاج وأشرف على إنشاء عدد من السفن، وأن الذي بدأ في البناء هو حسان بن النعمان[١١١].

وكانت ولاية المغرب العربي في أوج السلطة المركزية مقسمة إلى أربعة أقسام هي:

١- برقة وطرابلس . ٢- المغرب الأدنى «أفريقية».

٣- المغرب الأوسط . ٤- المغرب الأقصى .

وقد قسمت هذه الأقسام الإدارية الكبيرة إلى أقسام إدارية أصغر، فباستثنا - إقليم برقة الذي كان يتبع والي مصر في أكثر الأحيان ، فإن إقليم طرابلس كان يشمل مناطق واسعة، ويضم مدنا مهمة منها ، صرت وسيرة ، إضافة إلى جبل نفوسه وقصباته. وإقليم قزان ، وجزء من كور في الجنوب ، وقاعدة هذا الإقليم مدينة طرابلس[١١٢].

أما المغرب الأدنى «أفريقية» فهو إقليم واسع ، ويضم هذا الإقليم بداخله أهم المدن المغربية، ومنها العاصمة القيروان ، وتونس ، والأربس ، وسبيبة، وقسطيلية، في الجنوب ، وإقليم الزاب بمدنه المعروفة[١١٣].

وأما المغرب الأوسط فقد كانت قاعدة مدينة تلمسان ، ويشمل نفوذه عموم المغرب الأوسط، وانتقلت قاعدة الإقليم من تلمسان إلى مدينة تاهرت[١١٤].

أما المغرب الأقصى ، فقد ، فقد كانت قاعدته مدينة طنجة . ثم قام عبيدالله بن الحجاب بتقسيم المغرب الأقصى إلى قسمين:

الأول : السوس الأدنى، وهو طنجة وما يلحق بها.

والثاني : السوس الأقصى ، حيث بعث حبيب بن أبي عبيدة الفهري، على رأس جيش تمكن في سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م من إخضاع القبائل المتمردة ، وتنظيم شئون هذا القسم ، وفقا للإدارة المركزية[١١٥].

وكان على كل قسم من هذه الأقسام، عامل ينوب عن الوالي، يعين من قبله مباشرة، ومقره قاعدة الإقليم ، وإضافة إلى ذلك ، فقد أفردت المدن المهمة بعمال آخرين ، وكان اختيارهم على الأغلب يتم من بين القادة العسكريين المعروفين، وتحت إمرة العمال حامية عسكرية تتحدد مهامها في ضبط الأمور ، والدفاع عن الولاية أو المدينة عندما تتطلب الضرورة ذلك.

وفي نهاية ولاية موسى بن نصير تنتهي فترة الفتح في تاريخ المغرب الإسلامي ، وهي فترة طويلة ، تصل إلى فوق السبعين سنة، بدءا من سنة ٢١هـ / ٦٤٢م حتى سنة ٩٨هـ / ٧١٦م، ولهذا فإننا نعتبر فتح المغرب عصرا قائما بذاته ، من عصور تاريخ المغرب، في حين أن فتح مصر استغرق سنتين ، وفتح الشام استغرق حوالي أربع سنوات ، وفتح العراق وفارس لم يستغرق أكثر من ثماني أو تسع سنوات، تنتهي بمعركة نهاوند التي تسمى بفتح الفتوح[١١٦].

كان فتح المسلمين للمغرب فتحا مميزا عن باقي الأقاليم التي حررها المسلمون ، ولعل العطاء من هذه المنطقة كان أيضا مختلفا ، لأننا نرى أن الشعب الذي قاوم المجاهدين المسلمين كثيرا، لم يلبث إلا قليلا حتى يعتنق الإسلام ويحمل راية الجهاد الإسلامي، ويقدم المسلمين وللإسلام ، نصرا عزيزا غاليا، حينما عبر زقاق البحر المتوسط لأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية، فقد مهد فتح المغرب الطريق إلى فتح إقليم أوربي هو الأندلس والتي أصبحت جسرا رئيسيا للحضارة العربية إلى أوروبا على مدى أكثر من ثمانية قرون[١١٧].

هوامش البحث

١- ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٦٤ .

٢- د. سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي، ج١ ، ص٣١ .

٣- د. إبراهيم بيضون ، الدولة العربية في أسبانيا ، ص٦١ .

٤- الإصطخري ، المسالك والممالك ، ص٣٣ .

٥- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢١٧-٢١٨ .

٦- د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢ ، ص١٢٥ .

٧- د. حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص١٤-١٥ .

٨- شارل أندريه جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج١ ، ص٣٦١ .

٩- د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص٢٤ .

١٠- د. حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب، ص٣٣ ؛ شارل أندريه جوليان، المصدر السابق، ص٣٧٧ .

١١- السمونية ، متاجرة القساوسة بالأدوات المقدسة، وهي نسبة إلى سيمون الساحر أراد أن يشتري من القديس بطرس القدرة على عمل المعجزات .

١٢- د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢ ، ص٧٢ وشارل أندريه جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج١ ، ص٣٧٨ .

١٣- د. السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص٢٤ .

١٤- د. سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي، ج١ ، ص١١٣ .

١٥- د. سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص١١٢ .

١٦- د. خليل إبراهيم السامرائي وآخرون ، تاريخ المغرب العربي، ص٤٨ .

١٧- د. السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص٤٧ .

١٨- د. حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢٤ .

١٩- د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢ ، ص١٣٩ ؛ إبراهيم أحمد العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص٢٢٥ .

٢٠- ابن حوقل ، صورة الأرض، ص٦٩ ؛ البكري، المغرب ، ص٥ ؛ مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، ص١٤٣ ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان، ص١٢٧ .

٢١- البكري، المغرب ، ص٦٩ .

٢٢- نهلة شهاب أحمد، عقبة بن نافع، ص٢١ .

٢٣- د. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٣١ .

٢٤- ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص٢٢٩ .

٢٥- د. إبراهيم بيضون ، الدولة العربية في أسبانيا ، ص٢ .

٢٦- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ، ص٢٢٠ ؛ د. سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي، ج١ ص١٣٣ .

٢٧- د. حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص٩٠ .

٢٨- لم تكن صبرة من ناحية البحر . طاهر الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص٤٧ .

٢٩- ابن خلدون ، العبر ، ج٢ ، ص٢٨ ، البلاذري، فتوح البلدان ، ص٢٢٩ .

٣٠- د. محمد محمد زيتون ، المسلمون في المغرب والأندلس، ص١٢ .

٣١- د. السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير، ج٢ ، ص١٥٢ .

٣٢- يعني بأفريقية هنا ما يسمى بتونس الآن .

٣٣- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص١٧٢ .

٣٤- د. حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٢ .

٣٥- ابن خلدون ، العبر ، ج٢ ، ص١١٩ وابن الأثير الكامل، ج٣ ، ص٤٣ .

٣٦- قابس ، مدينة كبيرة قديمة ، تقع على ساحل البحر المتوسط تحف بها الغابات من جميع جهاتها ، أنظر ابن حوقل ، صورة الأرض، ص٧٢ ، الإدريسي، ص١٠٩-١٠٧ .

٣٧- عبدالله بن صالح ، نص جديد عن فتح العرب المغرب، تحقيق بروفنسال ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، العدد ٢ ، ١٩٥٣ ، ص٢١٦ .

٣٨- سبيطلة : مدينة من مدن أفريقية ، وكانت بشابة عاصمة لها ، بدلا من قرطاجنة ، لأنها مقر الحاكم البيزنطي جرجير، وهي مدينة حسنة المنظر ، كثيرة المياه واليساتين والجنان ، أنظر الإدريسي، ص١٠ وياقوت الحموي ، ج٣، ص١٨٧ .

٣٩- ابن الأثير ، الكامل ، ج٣ ، ص٩٠ ، ٩١ .

٤٠- د. ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في أسبانيا ، ص٢٦ .

٤١- البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٦٨ .

٤٢- ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب، ص٢٤٧ وأبو العرب، طبقات علماء أفريقية والأندلس ، ج١،

ص٧١ ؛ ٧٢ والكندى ، الولاة والقضاة ، ص١٢ ؛ والذهبى ، العبر فى خبر من غبر، ج١ ، ص٣٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧ ، ص١٥٢ .

٤٣- المالكى، رياض النفوس ، ج١ ، ص١٧ وابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، ج١ ، ص١٣ .

٤٤- السلاوى، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١ ، ص٧٦ .

٤٥- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص٢٤٧ ، والبلاذرى فتوح البلدان، ، ص٢٢٩ ، قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة، ص٣٤٤ .

٤٦- د. ابراهيم بيضون ، الدولة العربية فى أسبانيا ، ص٣٩ .

٤٧- أنظر : الطبرى، تاريخ الأمم والملوك ، ج٥ ، ص٥١ .

٤٨- المالكى، رياض النفوس ، جـ١ ، ص١٧ ؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ص١٦ ؛ الدباغ، معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، ج١ ص٤٣ .

٤٩- ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص١٩٣ ؛ المالكى ، المرجع السابق ص١٨ ؛ الدباغ، المرجع السابق ، ص٤٣، ابن أبى دينار ، ص٢٧-٢٨ .

٥٠- ابن عذارى، المرجع السابق ، ص١٦ ، النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٢٢ ، ص٩ .

٥١- ابن عبد الحكم ، فتوح أفريقية والأندلس، ص٤٧-٤٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٣ ، ص٩٢ .

٥٢- ابن عذارى ، المرجع السابق ، ص١٨ الدباغ، المرجع السابق، ص٤٣ .

٥٣- ابن عذارى ، المرجع السابق، ص١٦ ؛ د. حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب، ص١٢١ .

٥٤- البكرى، المغرب، ص٣٤-٣٥ .

٥٥- جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج١ ، ص٣٦٣ .

٥٦- البكرى ، المغرب ، ص٨٥ ؛ الدباغ، المرجع السابق، ج١ ، ص٥٥ .

٥٧- ابن عذارى ، المرجع السابق، ج١ ، ص١٦-١٨ .

٥٨- د. حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص٣٥ .

٥٩- الكندى ، المرجع السابق، ص٣٢ ؛ ابن عبد البر، المرجع السابق، ج٣ ، ص١٠٧٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣ ، ص٤٠ ؛ ابن خلدون ، العبر، ج٣ ، ص١٠ .

٦٠- خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج١ ، ص٢٣٧ ؛ ابن عبد البر ، المرجع السابق، ج٣ ، ١٠٧٦ ؛ ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج٣ ، ص٤٠ ؛ ابن خلدون ، العبر، ج٣ ، ص١٠ .

٦١- الكندى، المرجع السابق، ص٣٢-٣٣ .

٦٢- خليفة بن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ج١ ، ص٢٢٨ ، ابن عبد البر، المرجع السابق، ج٣ ، ص١٠٧٦ ابن العماد، ج١ ، ص٥٣ ، السلاوى ، ج١ ، ص٨٦ .

٦٣- د. محمد زيتون ، المسلمون فى المغرب والأندلس ، ص٣٦ .

٦٤- ابن الأثير ، أسد الغابة، ج٣ ، ص١٨٤ .

٦٥- الدباغ، المرجع السابق، ج١ ، ص٤٧ ، ابن خلدون ، العبر، ج٤ ، ص١٨٦ .

٦٦- ابن عبد الحكم ، فتوح أفريقية والأندلس، ص٥٥؛ البلاذرى، فتوح البلدان ، ص٢٣٠ ؛ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك ، ج٥ ، ص٢٤٠ ؛ الكندى،الولاة والقضاة، ص٣٨ .

٦٧- د. أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص٤٢ .

٦٨- د. حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٤٠ .

٦٩- المالكى، رياض النفوس، ج١، ص٢٢ .

٧٠- د. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٨ .

٧١- نهلة شهاب أحمد، عقبة بن نافع ، ص١١٤ .

٧٢- د. حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٤١ .

٧٣- الدباغ، المرجع السابق، ج١ ، ص٥٧ ؛ ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، ج٤ ، ص٨-١؛ ابن عذارى، المرجع السابق، ج١ ، ص٢٢ .

٧٤- المالكى ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٠ .

٧٥- الرقيق القيروانى، تاريخ أفريقية والمغرب، ص٥١-٥٢؛ ابن الأثير المرجع السابق، ج٤ ، ص١٠٩ .

٧٦- الرقيق القيروانى ، تاريخ أفريقية والمغرب ، ص٥٢ .

٧٧- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٤ ، ص١٠٩ ؛ السلاوى، الاستقصاء ،ج١، ص٩١ .

٧٨- ابن خلدون ، العبر ، ج٩، ص١٤٧ .

٧٩- ابن عذارى البيان المغرب، ، ج١، ص٣٣ .

٨٠- د. خليل ابراهيم السامرائى وآخرون ، تاريخ المغرب العربى، ص٩٠ .

٨١- د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص٢٩٨ .

٨٢- ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار المغرب، ج١، ص٤٠ .

٨٣- البلاذرى ، فتوح البلدان، ص٣١٥ .

٨٤- ابن خلدون ، العبر ، ج٩ ، ص١٠٧ .

٨٥- ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج٣، ص٤٦٦ .

٨٦- د. حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب، ص٢٨٤ .

٨٧- د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ج١، ص١٤٣ .

٨٨- د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص٤٠٠ .

٨٩- ابن عذارى ، البيان المغرب في أخبار الأندلس، ج١، ص٤٢ .

٩٠- رابح بونار، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ص٢٣ .

٩١- ابن عذارى ، البيان المغرب في أخبار الأندلس، ج١ ، ص٤٢ .

٩٢- ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص١٠٨ .

٩٣- ابن عذارى ، البيان المغرب في أخبار الأندلس، ج١ ، ص٢٩ ؛ وابن خلدون ، العبر، ج٦، ص١٤٧ .

٩٤- المالكي، رياض النفوس ، ج١، ص٢٨ .

٩٥- قارن : د. حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب، ص٢٠٧ ومحمود شيت خطاب، عقبة بن نافع الفهري، ص١٤٩ .

٩٦- د. شكري فيصل ، المجتمعات الإسلامية ، ص١٨٠ .

٩٧- د. عبد الشافي عبد اللطيف ، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص٤٠٦ .

٩٨- د. أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس، ص٥٠ .

٩٩- د. محمد محمد الطيب ، الحياة السياسية في المغرب الإسلامي، ص٥٨ .

١٠٠- البكري، المغرب ، ص١٢ .

١٠١- الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، ص٤٦ ، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج٤، ص١٧٢ .

١٠٢- البكري ، المغرب ، ص٣٨ . التجاني، الرحلة ، ص٩٠ .

١٠٣- البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣١٥ .

١٠٤- ابن الحكم ، فتوح مصر والمغرب، ص٢٣٠ .

١٠٥- السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص٩٠ .

١٠٦- د. حسين مؤنس ، فجر الأندلس، ص٤٥ .

١٠٧- لقبائل مرسى، المغرب الإسلامي ، ص١٤٤ .

١٠٨- الدباغ ، معالم الإيمان، ج١ ، ص٦٨ .

١٠٩- الرقيق القيرواني ، تاريخ أفريقية والمغرب، ص٦٥ ، ٦٦ .

١١٠- البكري ، المغرب ، ص٢٨ ؛ ابن عذارى البيان المغرب في أخبار الأندلس، ج١ ، ص٥١ ؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٢ ، ص٢٨٥ ؛ ابن دينار القيرواني، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، ص١١ .

١١١- د. عبد العزيز سالم ودكتور أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص٣٤ .

١١٢- د. حسين مؤنس ، التنظيم الإداري، ص٧٨ .

١١٣- د. حسين مؤنس ، التنظيم الإداري، ص٧٩ ، ٨٢ .

١١٤- د. حسين مؤنس ، التنظيم الإداري ، ص٨٥ .

١١٥- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص٢٩٢ ؛ الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، ص١٠٨ .

١١٦- د. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص٥٥ .

١١٧- د. محمد عبد الحميد عيسى، الفتح الإسلامي للأندلس ، ص٩٩ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر الأولية

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣١هـ/ ١٢٣٣)

- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ٥ أجزاء ، لهران، ١٣٧٧م .
- الكامل في التاريخ، ١٢ جزء ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥-١٩٦٦م .

الإدريسي : أبو عبدالله محمد (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)

- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٦٨م .

ابن أبي دينار : محمد بن القاسم القيرواني (ت ١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م)

- المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق : محمد شمام ، المكتبة العتيقة تونس ، ١٣٧٨هـ .

البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)

- فتوح البلدان ، تحقيق : عبدالله أنيس الطباع مؤسسة المعارف، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

البكري: أبو عبيد (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)

- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب في كتاب المسالك والممالك ، نشر دي سلان، الجزائر ١٩٥٧م .

التجاني: عبدالله بن محمد (ت القرن الثامن الهجري/ القرن الرابع عشر الميلاد)

- رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، المطبعة الرسمية، تونس ١٩٥٨م .

الحموي : شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)

- معجم البلدان ، ٥ أجزاء ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٧م .

ابن حوقل : محمد (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)

- صورة الأرض ، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م .

ابن خلدون : عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)

- العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء، منشورات الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ١٩٧٩م.

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)

- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق : الدكتور أكرم العمري، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٩م.

الدباغ : عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)

- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، أكمله وعلق عليه: أبو الفضل أبو القاسم بن ناجي التنوخي تصحيح وتعليق: ابراهيم شبوح، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٦٨م .

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)

- العبر في خبر من غبر، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠م .

الرقيق القيرواني : أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم (ت ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م)

- تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس ١٩٦٨م .

السلاوي : أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م)

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٩ أجزاء ، تحقيق : جعفر الناصري، ومحمد الناصري الدار البيضاء ١٩٥٤م .

الإصطخري : أبو اسحاق ، ابراهيم (ت ٣٢١هـ/ ٩٣٣م)

- المسالك والممالك ، تحقيق: محمد جابر العال الحيني، ومراجعة : محمد شفيق غربال ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦١م .

الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)

- تاريخ الرسل والملوك ١٠ أجزاء ، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٠م .

ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م)

- فتوح أفريقية والأندلس ، تحقيق : عبدالله أنيس الطباع ، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٦٤ .

فتوح مصر وأخبارها، نشر : شارلس توري، نيوهيفن، ١٩٢٢م .

فتوح مصر والمغرب، لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٦١م.

ابن عبد البر : أبو عمر يوسف (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٥ أجزاء، تحقيق : علي محمد البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، الفجالة ، القاهرة ١٩٦٠م .

عبيد الله بن صالح : عبد الله بن صالح بن عبد الحليم (ت القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) .

- نص جديد عن فتح العرب للمغرب، تحقيق : ليفي بروفنسال ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية العدد ٢ ، مدريد ١٩٥٣ .

ابن عذارى : أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (ت أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) .

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر: كولان وليفي، بروفنسال ، ليدن ١٩٤٨م، أعادت نشره ، دار الثقافة ، بيروت ، بدون تاريخ .

أبو العرب: محمد بن أحمد (ت ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م)

- طبقات علماء أفريقية وتونس ، تحقيق : علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٦٨م .

ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحي (ت ٨٩-١هـ/ ١٦٧٨م)

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت بدون تاريخ .

أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)

- تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية، باريس ١٨٤٠م .

قدامة : قدامة بن جعفر (ت ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)

- الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق : محمد حسين الزبيدي، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨١م.

ابن كثير : أبو الفدا الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)

- البداية والنهاية ١٤ أجزاء، مكتبة المعارف ، بيروت ١٩٧٤م.

الكتبي : محمد بن يوسف (ت٧٥٠هـ/ ٩٦١م)

- الولاة والقضاة، مهذب ومصحح ، تعلم : رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ٨-١٩م .

المالكي : أبو بكر عبدالله (ت : نهاية القرن الرابع الهجري / القرن العاشر الميلادي)

- رياض النفوس ، الجزء الأول، تحقيق حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥١م .

مجهول المؤلف (من كتاب القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)

- الاستبصار في عجائب الأمصار تحقيق : سعد زغلول ، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م.

أبو المحاسن : يوسف بن تغردي بردي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)

-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٦م.

المقدسي : شمس الدين أبو عبدالله البشاري (ت ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م)

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٩م .

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)

- الخطط المقريزية، المسماة بالمواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، منشورات مكتبة العرفان - بيروت ، بدون تاريخ.

النويري : أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م)

- نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء الثاني والعشرون، القسم الثاني، نشره وترجمه إلى الأسبانية جاسبار راميرو تحت عنوان :

غرناطة Historia De Losmusumanes en espanai y Africa 1971

اليعقوبي : أحمد بن يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)

- تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .

ثانيًا : المراجع الثانوية

أحمد : نهلة شهاب

- عقبة بن نافع، دار الشئون الثقافية العامة ، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٨٩م.

أرنولد : توماس ووكر

- الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة : الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخرين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٠م .

أمين : أحمد

– ضحى الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٢م .

بروكلمان : كارل

– تاريخ الشعوب الإسلامية ، الطبعة الحادية عشرة، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٨م.

بونار : رابح

– المغرب العربي ، تاريخه وثقافته ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية، الجزائر ١٩٨١م.

بيضون : ابراهيم (الدكتور)

– ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩م .

الدولة العربية في أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة ، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠م .

بينز : نورمان بينز

– الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٥م .

جلوب : جون جاكوب

– الفتوحات العربية الكبرى، ترجمة : خيري حماد ، مكتبة المثنى، بغداد بدون تاريخ .

الجميلي ، رشيد (دكتور)

– محاضرات في التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولى، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد ١٩٦٩م .

جوليان ، شارل أندريه

– تاريخ أفريقيا الشمالية، الجزء الأول، ترجمة : محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٥م .

حسن : نهيلة (دكتورة)

– تاريخ الدولة العربية دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٩م .

حسن : حسن علي (دكتور)

– دراسات في تاريخ المغرب العربي، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٧٨م .

الخربوطلي: علي حسني (دكتور)

– مصر العربية الإسلامية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٣م .

خطاب : محمود شيت

– عقبة بن نافع الفهري، دار الإنسان ، القاهرة ١٩٧٩م .

الخطيب : محمد محمد عبد القادر (الدكتور)

– الحياة السياسية في المغرب الإسلامي، وآثارها في نشأة الدويلات خلال القرن الثاني الهجري ، الطبعة الأولى، مطبعة الحسين الإسلامية ، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م .

الدوري: عبد العزيز (دكتور)

– مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٢ .

رمضان : عبد العظيم (الدكتور)

– الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م .

الزاوي : الطاهر أحمد

– تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٣م.

زيدان : محمد محمد (دكتور)

– القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، دار المنار، الطبعة الأولى القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

– المسلمون في المغرب والأندلس ، دار الوفاء للطباعة ، القاهرة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

سالم : السيد عبد العزيز (دكتور)

– تاريخ الدولة العربية ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٨٨م .

- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١م.
- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، موسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية١٩٨٢م.
- المغرب الكبير، الجز الثاني، الدار القومية للطباعة والنشر، الاسكندرية١٩٦٦م .

السامرائي : خليل ابراهيم وآخرون

- تاريخ المغرب العربي، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

سرور : محمد جمال الدين (دكتور)

- الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م .

الشامي : أحمد (دكتور)

- الخلفاء الراشدون ، الطبعة الأولى، المركز العربي للثقافة والعلوم ، بيروت ١٩٨٢م .

الشريف : أحمد ابراهيم (دكتور)

- الدولة الإسلامية الأولى، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٥م .
- دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني الهجري ، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٨م .

صقر : محمد عبد المجيد عيسى (دكتور)

- الفتح الإسلامي للأندلس ، مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٨٥م .

عاشور : سعيد عبد الفتاح (دكتور)

- أوربا العصور الوسطى الجزء الأول التاريخ السياسي، الطبعة التاسعة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٣ م .

العبادي: أحمد مختار (دكتور)

- في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية ، دون تاريخ.

عبد اللطيف : عبد الشافي محمد (الدكتور)

- العالم الإسلامي في العصر الأموي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .
- تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة ، الجريس للكمبيوتر ، الطباعة التصوير القاهرة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

عبد الحليم : رجب محمد (دكتور)

- تاريخ عصر النبوة والخلافة الراشدة ، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٧م .

عبد الحميد : سعد زغلول (دكتور)

- تاريخ المغرب العربي، الجزء الأول، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٩م.

العدوي: ابراهيم

- الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية ، مصر بدون تاريخ

العروي : عبد الله (دكتور)

- تاريخ المغرب ، ترجمة د. دوقان قرقوط المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٧م.

علي : محمد كرد

- الإسلام والحضارة العربية، الطبعة الثالثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨م.

٧٠- عودات : أحمد (دكتور) وآخرون

تاريخ المغرب والأندلس ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، أربد ١٩٨٩م.

فليهاوزن ، ي

- تاريخ الدولة العربية، من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، مراجعة : حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٨م.

فيصل : شكري (دكتور)

– حركة الفتح الإسلامي، الطبعة الرابعة دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٤

كاشف : سيدة اسماعيل (دكتوره)

– مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤م .

لويس : برنارد

– العرب في التاريخ ، ترجمة : نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٤م.

ماجد : عبد المنعم (دكتور)

– التاريخ السياسي للدولة العربية، عصور الجاهلية ، والنبوة والخلفاء الراشدين، الطبعة الخامسة ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٥م.

مؤنس : حسين (دكتور)

– فجر الأندلس ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، الدمام ٥-١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

– التنظيم الإداري والمالي في أفريقية والمغرب، خلال عصر الولاة، مجلة كلية الآداب، جامعة الكويت ، العدد الأول سنة ١٩٧٣م.

– فتح العرب للمغرب ، مطبعة مصر، القاهرة ١٩٧٤م.

– معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار ومطابع المستقبل ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٠م.

مرسي : لقبال

– المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨١م، مطبعة البعث ، قسنطينة ١٩٦٩م.

وهبة توفيق علي

– الجهاد في الإسلام ، دار اللواء ، الطبعة الرابعة الرياض، ١٩٨١م .

ثالثا: المراجع الأجنبية

Abu Nasr : Jamil

- History of the Magrib , Cambridge 1971.

Dozy : Reinhart Pieter.

- Spnish Islam A history of the Moslems in Spain (English Edition) London 1913 .

- Encyclopaedia of Islam , New Edition Leiden. London 1971.

Goodchild: R. G.

- Byzantines. Bebers and Arabs in 7 the Century , Libya . Antiquity 1967 vol. 41 pp. 115-123 .

Irving : Washington

- Lives of Mahmet and his Successors , London , 1912 .

د. عبد الرحمن بن سليمان العجلان(*)

الأدارسة وأثرهم الحضاري في المغرب الأقصى

قيام دولة الأدارسة :

بعد هزيمة العلويين في معركة «فخ»[1] سنة ١٦٩هـ في عهد الخليفة العباسي الهادي بن المهدي، هرب عدد من العلويين المشتركين في تلك المعركة ، من بينهم إدريس بن عبدالله ابن الحسن، وذلك خوفا من الوقوع في قبضة العباسيين. وواصل إدريس بن عبدالله هربه حتى وصل إلى مصر ومنها إلى المغرب فدخل القيروان ثم تلمسان ثم طنجة ، ثم أخيرا استقر في مدينة وليلي قاعدة جبل زرهون وذلك في ربيع الأول سنة ١٧٢هـ [2].

وكانت الظروف السياسية في المغرب الأقصى مواتية جدا لآمال وتطلعات إدريس بن عبدالله ، فقد ضعفت تماما قبضة الدولة العباسية على المغرب الأقصى وتمكنت قبائل برغواطة[3] وزعيمهم طريف بن شمعون من السيطرة على تامسنا[4] وما حولها من بلاد المغرب الأقصى. وعلى الرغم من قوتها وسيطرتها على مناطق كثيرة فقد كانت القبائل البربرية تتمنى الخلاص من قبضتها لانحرافها وظلمها ، فضلا عن أنهم تبنوا دينا مخالفًا للشريعة الإسلامية.

(*) كلية العلوم الاجتماعية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

وكان أن أقام إدريس بن عبدالله وراشد مولاه في ضيافة زعيم قبيلة أوربة[٩] اسحاق بن عبدالله الأوربي وأخذ يدعو الناس إلى ضرورة إقامة دولة قوية على مذهب أهل السنة والجماعة تستطيع توحيد قبائل البربر ، ومحاربة البرغواطيين أصحاب البدع والانحرافات . ونظرا لحب البربر لآل البيت وتعلقهم بهم، بالإضافة إلى بلاغة وفصاحة إدريس وقوة تأثيره ، وحكمة وحنكة مولاه راشد ، استطاع إدريس أن يجمع حوله الأعداد الكبيرة من قبائل البربر التي تعظمه وتحبه وتأتمر بأمره، فلم يمض على وجوده بينهم ستة أشهر فقط حتى بايعه اسحاق الأوربي وقومه أميراً عليهم. وذلك في الرابع من شهر رمضان المبارك عام ١٧٢هـ، ٧٨٩م[٦].

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن العلويين بعثوا بدعاتهم إلى المغرب الأقصى من هؤلاء عيسى بن عبدالله ، وكذلك سليمان بن عبدالله[٧].

وقد اعتمد هذا المؤرخ على رواية لابن أبي زرع ذكر فيها أن محمد (النفس الزكية) ثار في عهد أبي جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ وأنه أرسل أخوته إلى الأمصار يدعون إلى طاعته وبيعته فبعث عيسى إلى أفريقية ويحيى إلى خراسان وسليمان إلى مصر وابراهيم إلى البصرة[٨]. وأقرب هؤلاء الدعاة إلى المغرب هو عيسى ولكن ابن أبي زرع ذكر أنه أرسل إلى أفريقية، وأفريقية في مصطلح المؤرخين تشمل المغرب الأدنى فقط. ثم إن أبي زرع لايشير إلى نتائج إيجابية حققها عيسى حيث يقول ولم يتم له الأمر. ولم يذكر ابن أبي زرع- ولاغيره فيما أعلم- أن محمد النفس الزكية أو غيره من العلويين أرسلوا دعاة إلى المغرب الأقصى مما يرجح أن دولة الأدارسة قامت بعد أن نجح إدريس بن عبدالله في الهرب في ميدان المعركة إلى المغرب الأقصى ، وساعدته الظروف في المغرب الأقصى على قيام الدولة ، وليس ذلك من قبيل المستحيل ، فقد قامت الدولة الأموية بالأندلس أيضًا في ظروف مشابهة لدولة الأدارسة.

وهكذا قامت دولة الأدارسة في بلاد المغرب الأقصى دون مقدمات سابقة أو دعايات كثيرة.

وما لبث قبائل كثيرة وقوية أن بايعت إدريس، مثل زواغة ، وزوارة ، ولمايه ، وسدراته ، وغمانه، ونفزه، ومكناسة، وغمارة. وكانت أوربة في ذلك الوقت أشد قبائل البربر وأقواها شكيمة وأحدها شركة وأكثرها عددا[٩].

وعندما استقام الأمر لإدريس خرج غازيا في سبيل الله- مما سوف نوضحه في الصفحات القادمة- حتى تمكن من فتح مدينة تلمسان وبنى فيها مسجداً ، فلما علم الرشيد بذلك وأنه فتح تلمسان ، عزم على محاربته ولكنه آثر استعمال الحيلة، فبعث له رجلاً تظاهر بمحبته وبالإخلاص له يقال له سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ وتمكن من قتله بالسم، كما تشير إلى ذلك معظم الروايات ، وكان ذلك عام ١٧٥هـ[١٠].

ولم يترك إدريس ولداً وإنما ترك جارية بربرية حاملاً اسمها كنزه، وهنا أيضا يتجلى إخلاص راشد للأدارسة وحبه لهم حيث جمع زعماء البربر وأخبرهم الخبر، وأشار عليهم بالانتظار حتى تلد الجارية فإن ولدت ذكراً كان هو الوارث لولاية أبيه، وإن كانت أنثى فالأمر لهم يولون على أنفسهم من يرونه ، فاقتنع الجميع بذلك، وتولى راشد أمورهم في تلك الفترة، وبعد ذلك وضعت الجارية مولوداً ذكراً سمي على اسم أبيه إدريس . وظل راشد يقوم بالأمر نيابة عن الطفل حتى بلغ الحادية عشرة من عمره . وفي عام ١٨٨هـ جدد البربر البيعة له بجامع وليلي[١١].

وتوالت الأحداث في دولة الأدارسة حيث قُتل راشد واتهم الأغالبة بقتله[١٢].

على أن الأمر استقام لإدريس الثاني على الرغم من وفاة راشد ، والتفت حوله قبائل المغرب، ووفدت عليه الوفود من خارج المغرب ، فعظم سلطانه وكثرت جيوشه، حتى ضاقت مدينة وليلي بجيوشه فأنشأ مدينة فاس . ثم أخذ في إخضاع المناطق التي لم تكن خاضعة لحكمه مثل بلاد المصامده والسوس الأقصى، وقبائل نفزه وأخيراً مدينة تلمسان . واستطاع أن يؤمّن حدود دولته الشرقية من تلمسان إلى نفيس . وذلك بعد أن اشتد خطر الإمارة الرستمية على دولة الأدارسة .

وعندما توفي إدريس الثاني سنة ٢١٣هـ، ٨٢٨م ، تولى بعده ابنه محمد بن إدريس الذي فرق إخوته في أنحاء البلاد، وولاهم على بعض المناطق ، فولى القاسم طنجة وما يليها . وولى عمر صنهاجه الهبط وعماره ، وداود هواره تامليت[١٣]، وعيسى على شالة وسلا وأزمور وتامسنا ، ويحيى مدينة البصرة وصدينه ، وأحمد مدينة مكناسة وبلاد فازازا ومدينة تادلة ، وعبدالله أغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة والسوس، وحمزة مدينة تلمسان وأعمالها ، أما الأخوة الصغار فإنهم بقوا عند أخيهم في فاس. ولم يَخْلُ عهد محمد بن إدريس من بعض الثورات فقد ثار عليه أخوه عيسى بن إدريس بمدينة أزمور ودعا لنفسه ، فأرسل إليه محمد بن إدريس أخاه عمر الذي تمكن من هزيمته وطرده . ثم وجهه أيضا لقتال القاسم حيث امتنع عن قتال عيسى فهزمه أيضا واستولى على ما بيد أخيه من بلاد[١٤].

ولي سنة ٢٢١هـ توفي محمد تاركًا ولده الصغير علي الذي كان قد استخلفه قبل موته . وتميز عهده بالرخاء والعدل، وسار بسيرة أبيه وجده في العدل والفضل، وإقامة الحق وقمع الأعداء، وضبط البلاد، إلى أن مات سنة ٢٣٤هـ، وخلفه أخوه يحيى بن إدريس الذي اتسعت

الدولة الإدريسية فى عهده، كما اتسعت مدينة فاس ، فبنى الناس الأرباض بخارجها وبنى الأمير يحيى الحمامات والفنادق للتجار وغيرهم . وفى أيامه بُنى جامع القرويين بفاس [١٥].

وتوفى يحيى فخلفه ابنه يحيى بن يحيى ولم يكن محمود السيرة فثار عليه أهل فاس ، فهرب. ثم ما لبث أن مات فاستقدم أهل فاس على بن عمر صاحب بلاد صنهاجه وغمارة وبايعوه ، فانتقلت الإمارة من بنى محمد بن إدريس إلى بنى عمر بن إدريس ، واستقام له الأمر إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الفهرى الخارجى، وكان من أهل وشقه من بلاد الأندلس، فانتصر عبد الرزاق ودخل مدينة فاس، فهرب منها على بن عمر إلى بلاد أوربة. ثم مالبث أهل فاس أن ثاروا على عبد الرزاق هذا، وبايعوا يحيى بن القاسم، وقتل يحيى بن القاسم هذا سنة ٢٩٢هـ، وخلفه يحيى بن إدريس بن عمر الذى أشاد به ابن خلدون ووصفه بأنه أعلى بنى إدريس ملكًا وأعظمهم سلطانا ، وكان فقيها عالمًا بالحديث ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى السلطة والدولة[١٦]، وقد انتهى عهده فى سنة ٣٠٥ هـ على يد القائد العبيدى مصالة بن حبوس الكتامى ، الذى استمر تابعًا للعبيديين حتى سنة ٣٠٩ هـ. ولكن أحد الأدارسة وهو الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام[١٧]، فاجأ فاس وقتل أميرها العبيدى ريحان الكتانى، واستقام له الأمر فى فاس، وما حولها ، ودخلت فى طاعته أكثر قبائل البربر، واستمر فى حكمها حتى سنة ٣١١هـ عندما استولى موسى بن أبى العافية على فاس ، وبذلك انتهى حكم الأدارسة فيها تمامًا .

وعلى الرغم من سقوط دولتهم فى فاس إلا أن حكمهم لم ينته تمامًا من المغرب، بل تفتت دولتهم إلى إمارات صغيرة أهمها إمارة البصرة التى يذكر ابن خلدون أن بعض الأدارسة نزلوا بها بعد أن تغلب على فاس موسى ابن أبى العافية، وأجلى محمد بن القاسم بن إدريس وأخاه الحسين، فنزلوا بالبصرة وولوا عليهم ابراهيم بن محمد بن القاسم، كما أنه كان لهم زعامة على قبيلة غمارة التى آزرتهم ونصرتهم فى تلك المرحلة، وانحدروا من قلعة حجر النسر التى أسسها ابراهيم بن محمد الإدريسى سنة ٣١٧هـ، عاصمة لهم ومرتز منهم فى تلك النواحى فرعان كبيران هما بنو محمد بن إدريس الذين كانت لهم السيادة فى مواطن غمارة من أعراز وهران إلى غساسة، وبنو عمر بن إدريس الذين كانت لهم سيادة على المناطق من غساسة وتيجاس إلى حجر النسر والبصرة[١٨].

وأثناء النزاع بين عبد الرحمن الناصر، بالأندلس والعبيديين فى المغرب حرص الناصر على امتلاك قواعد فى المغرب لتهديد العبيديين، ولما كانت مدينة سبتة ممتاز بموقع استراتيجى ممتاز فقد حرص على امتلاكها ، وتنازل له الأدارسة عنها سنة ٣١٩هـ ودخل الأدارسة فى المغرب الأقصى فى طاعة الناصر وظلوا على ولائهم للدولة الأموية بالأندلس، حتى أرسل العبيديون القائد الفتى ميسور الذى غزا المغرب الأقصى واستطاع إجبار الأدارسة على التخلى عن ولائهم للأمويين، ولكن الناصر أرسل قوة عسكرية سنة ٣٣٣هـ بقيادة وزيره قاسم بن محمد بن طملس واستطاعت هذه القوة أن تعيد ولاء الأدارسة مرة أخرى للأمويين، ولتأكيد هذا الولاء أرسل الأدارسة محمد بن أبى العيش ممثلا عن بنى عمر، كما أرسل بنو محمد بن عيسى بن أحمد والقاسم بن ابراهيم بن محمد (كنون) على رأس وفد إلى قرطبة فرحب بهم الناصر وأكرمهم[١٩].

ومن أشهر أمراء الأدارسة فى تلك المرحلة أبو العيش أحمد بن القاسم بن كنون الذى وصفه ابن خلدون بأنه كان فقيها عالمًا بالأخبار والأيام شجاعًا . ويعرف بأحمد الفاضل. وكان يميل للدولة الأموية فدعا للناصر، وخطب له على جميع منابر البلاد التابعة له[٢٠].

واستمر الأدارسة على وضعهم هذا حتى قضى الأمويون على تفوذهم واستسلم آخر زعيم من زعمائهم وهو الحسن بن كنون فى جمادى الآخرة سنة ٣٦٣هـ[٢١].

الأدارسة فى الأندلس (دولة بنى حمود) .

عرفت دولة الأدارسة فى الأندلس بدولة بنى حمود وقد بدأت هذه الدولة على يد على بن حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبدالله بن عمرو بن إدريس الثانى. وكان على قد اجتاز العدوة إلى الأندلس مع أخيه القاسم، فى جملة من اجتاز من البربر فى عهد المنصور بن أبى عامر الذى فتح لهم باب الهجرة على مصراعيه ، وانضم هؤلاء البربر إلى جيوش الأندلس ، واستطاعوا كسب ثقة العامريين، بالإضافة إلى ما يستفيده هؤلاء فى الحروب من أسلاب وغنائم . وانتشرت جموعهم فى قرطبة، وكانوا يعيشون فى وضع اجتماعى متميز. وكان على بن حمود وأخوه القاسم يعدون من البربر بالنشأة والعصبية والعلاقات ، مع أنهم من حيث الدم والأصل والنسب من الأدارسة . وهذا ما أعطاهم وضعًا اجتماعيًا مميزا بين البربر ، إذ كانت لهم على البربر زعامة ، وكان للبربر أثر كبير فى مساعدة الخليفة الأموى سليمان والمستعين

بالله» فى استعادة عرشه سنة ٣٠٠هـ كما كان على بن حمود وأخوه القاسم من أبرز قواده. وعندما أراد أن يكافئهم ولى عليا على سبته وطنجة والقاسم الجزيرة الخضراء[٢٢]. ولكن عليًا بن حمود كان صاحب أطماع وتطلعات. ساعده على ذلك ما كان يراه من ضعف السلطة المركزية فى الأندلس، وانتشار الفوضى والفتن. فرأى أن هذه فرصة لاتعوض لنيل الخلافة فى قرطبة. وأظهر للناس كتابا زعم أنه من الخليفة هشام المؤيد يوليه فيه ولاية العهد، ويوصى له بالخلافة من بعده. فسار من سبته يريد قرطبة، ذلك فى عهد سليمان المستعين الذى تلقب أيضا بالظافر بحول الله. وانضم إليه بعض حكام الثغور الجنوبية وبعض زعماء البربر مثل زاوى بن زيرى وحبوس الصنهاجى. وصارت هذه القوات المتحدة إلى قرطبة، فخرج للقائهم سليمان المستعين ووقعت بين الطرفين معركة كبيرة انهزم فيها سليمان، وقتل عدد كبير من أنصاره ودخل على أثرها حمود بن على قصر قرطبة فى الثانى والعشرين من محرم ٤٠٧هـ، ودعا الناس إلى مبايعته بالخلافة فبويع بها وتلقب بالناصر لدين الله.

ولما ولى على بن حمود الخلافة عزم على ضبط الأمور، وإشاعة العدل بين الناس. وقد أشاد المؤرخون بعدل على بن حمود فى بداية حكمه، فابن بسام يقول:

«فبرقت للعدل يومئذ بارقة خُلّب لم تكد تلمع حتى خبت، وتبين أن البرابر أطوع خلق الله لمن أخافهم»[٢٣].

أما ابن عذارى فقال:

«ولما صارت الخلافة له قهر البرابرة حتى صار أقل الرعية يرفع أعبائهم إلى الحكام بما شاء من وجوه الدعاوى، فتجرى عليهم الأحكام، فبرقت يومئذ للعدل بارقة خلب لم تكد حتى خبيت»[٢٤].

غير أن على بن حمود لم يستمر على هذه السياسة، عندما لمس ميل أهل قرطبة للثوار العامريين فى شرق الأندلس، الذين يتزعمهم أعبد الرحمن بن محمد بن عبداله بن عبد الرحمن الناصر) الذى تسمى بالمرتضى، فشدد الوطأة عليهم، والتفت إلى حزبه القديم البربر، فتغاضى عن تجاوزاتهم نحو أهل قرطبة مما أوغر الصدور عليه. فتآمر عليه ثلاثة من فتيان القصر العسقالبة، فقتلوه وهو فى الحمام، بينما كان يتجهز لقتال الثوار المجتمعين فى جيان بزعامة المرتضى[٢٥]، وقد تولى بعده أخوه القاسم بن حمود الذى كان واليا على أشبيلية من قبل أخيه، وذلك فى الثامن من شهر ذى القعدة سنة ٨٠٤هـ. وتلقب بالمأمون، ونادى بالأمان

لكل الناس، وأصدر عفوا عاما، حتى أحس الناس بالأمان فى هذا العهد الجديد. كذلك حاول اخماد الثورة التى حمل لواءها الفتيان العامريين، وتزعمها المرتضى، فعلى الرغم من هزيمتهم على يد زاوى بن زيرى الصنهاجى أمير غرناطة وقتل المرتضى، فإن المأمون حاول استمالة خيران العامرى لصفه اتقاء لشر العامريين واطفاء للفتن، ولكنه رفض وبقى معتصما بالمرية[٢٦].

ولكن الصراع على السلطة استمر فى الأندلس إذ طمع ابن أخيه يحيى بن على بن حمود فى الحكم، وأعلن أنه أحق بميراث أبيه من عمه، وتحالف مع خيران العامرى. وقوى أمره حتى اضطر عمه القاسم إلى أن يترك الحكم ويفر ليلاً من قرطبة. وكان ذلك ليلة السبت الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٢هـ. وبويع لابن أخيه يحيى بن على بن حمود، الذى تلقب بالمعتلى بالله، واستمر فى الخلافة حوالى السنة والنصف حتى فر من قرطبة فى منتصف ذى القعدة سنة ٤١٣هـ عندما أعلن البربر خلعه من الحكم. وعاد إلى الحكم القاسم (عمه) للمرة الثانية حيث كان يقيم بأشبيلية. غير أن أهل قرطبة، وما عرف عنهم من ميل للثورات والفتن أعلنوا خلع القاسم نظراً لمحاباته البربر على حسابهم. واستطاع أهل قرطبة إرغام القاسم والبربر على مغادرة المدينة، ولكنهم انقلبوا وحاصروا قرطبة واشتد الحصار لمدة خمسين يوما قاتل فيها أهل قرطبة قتال المستميت حتى هزموا البربر وفكوا الحصار عن مدينتهم، وكان أهل قرطبة قد سئموا حكم بنى حمود والبربر فردوا الأمر إلى بنى أمية وبايعوا عبد الرحمن بن هشام (المستظهر بالله) فى السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤هـ، ثم عاد يحيى بن على إلى قرطبة لمدة ثلاثة أشهر فقط، وبخروجه منها انقرضت خلافة الأدارسة الحموديين من قرطبة تماما، واستمر حكمهم فى مالقه والجزيرة ضعيفا إلى سنة ٤٤٩هـ حيث انهار حكمهم تماماً من الأندلس بعد أن حكموا أقل من نصف قرن[٢٧].

وهكذا نرى أن تاريخ الأدارسة السياسى مر بثلاث فترات متفاوتة فى الأهمية والأثر الحضارى، فالفترة الأولى حكمهم فى المغرب الأقصى وعاصمتهم فاس. وهذه الفترة من أهم حلقات تاريخهم حيث تميزت بالقوة والسيادة، وانتعاش حضارة المغرب، أما الفترة الثانية فهى التى يسميها المؤرخون مرحلة اغترابهم فى منطقة حجر النسر، وكانت فترة تقرق ومحافظة على البقاء وليس أكثر من ذلك وكان ولاؤهم فى معظم الأحيان للأمويين فى الأندلس، وأما الفترة الثالثة فكانت عندما نجح أحد الأدارسة فى السيطرة على الأمر وانتزاع الخلافة من الأمويين وإنشاء دولة لهم استمرت أقل من نصف قرن، وكانت مرحلة حافلة بالفتن والمؤامرات والدسائس نظرا لطبيعة الأوضاع فى تلك الفترة فى الأندلس عامة.

أثر الأدارسة في نشر الإسلام في المغرب الأقصى :

انتشر الإسلام في المغرب الإسلامي عبر وسائل كثيرة كانت الفتوحات الإسلامية إحداها، ولقد قام قادة الفتح الإسلامي الأوائل مثل: عمرو بن العاص وعبدالله بن سعد بن أبي السرح، ومعاوية بن حديج ، وعقبة بن نافع الفهري وأبو المهاجر دينار ، وزهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان وموسى بن نصير (رضي الله عنهم) بجهود مباركة من أجل نشر الإسلام . ولم تكن سيوف هؤلاء موجهة ضد البربر ، أو الشعوب بصفة عامة ، وإنما كانوا يدركون تمامًا طبيعة وأهداف القتال في الإسلام، وأنه ليس لإجبار أحد على الدخول في الإسلام بالقوة وإنما لإزالة العقبات والعراقيل التي تقف في سبيل انتشار الإسلام ووصوله إلى الناس، وهذه العقبات تمثلت في بلاد المغرب بالروم وبعض زعامات البربر، وبزوال هذه العقبات فإن الإسلام ينتشر بوسائله السلمية الكثيرة ، مثل القدوة الحسنة والتعامل الطيب ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ودولة الأدارسة من الدول الإسلامية التي كانت لأمرائها جهود كبيرة في سبيل نشر الإسلام، ليس فقط في المغرب الأقصى، وإنما أيضا في غرب أفريقيا، وينسب إليهم الفضل في دخول الإسلام إلى حوض السنغال[٢٨].

وعندما بويع إدريس بن عبدالله بالإمارة كانت هناك قبائل لاتزال على اليهودية والنصرانية والمجوسية ، ولقد امتنعت في حصونها وقلاعها المنيعة من المسلمين الأوائل الذين حاولوا نشر الإسلام في تلك المناطق . وكانت هناك زعامات منحرفة تشوه صورة الإسلام، وتحد من انتشاره . وتمثلت هذه التيارات في برغواطة ، التي بلغت درجة من القوة بحيث وصفها ابن خلدون بقوله: «وكان لبرغواطة في عصرهم دولة»[٢٩] لذا نجد أن إدريس لما تهيأت له أسباب الجهاد في سبيل الله اختار إقليم تامسنا الذي كانت تسير عليه برغواطة، وتفرض عليه دينا مخالفًا لدين الإسلام . فتصدت دولة الأدارسة بقيادة إدريس ابن عبدالله لهذه القبائل جميعًا ، واستثمر إدريس بن عبدالله التفاف قبائل أوربة وغيرها من القبائل حوله، وحماستهم للجهاد معه لنشر الإسلام وتصحيح معتقداته ، وكان أن سار على رأس جيش كبير إلى بلاد تامسنا حتى تمكن من فتح مدينة شاله ، وسائر بلاد تامسنا [٣٠]. ثم اتجه جنوبًا صوب بلاد تادله وتمكن من فرض سيطرته عليها، وتشير المصادر إلى عظم أثره في هذه البلاد ، فخرج بهم غازيا إلى بلاد تامسنا فنزل أولا مدينة شاله ففتحها ، ثم فتح بعدها سائر بلاد تامسنا ، وسار

إلى بلاد تادله وفتح معاقلها وحصونها . وكان أكثر هذه البلاد على دين النصرانية، والإسلام بها قليل فأسلم جميعهم على يديه»[٣١].

وفي صفر سنة ١٧٣ هـ خرج غازيًا ومجاهدًا في سبيل الله لنشر الإسلام بين القبائل التي ما زالت على اليهودية والنصرانية والمجوسية، أو المتأثرة بتعاليم البرغواطيين. وكانوا يتركزون في حصون تندلاوه وحصون مديونه وبهلولة وقلاع غياثه ، وبلاد فازاز ، فما زال بهم إدريس يجاهدهم حتى تمكن من بسط سلطانه عليهم ، فدخل معظمهم في الإسلام، وقد استغرقت هذه الغزوة أكثر من أربعة أشهر[٣٢].

واستمر الجهاد في سبيل الله في عهد إدريس بن إدريس بن عبدالله، فلما فرغ من بناء مدينة فاس، خرج في سنة ١٩٧ هـ لغزو أتباع برغواطة من بلاد تفيس وبلاد المصامدة ، فتمكن من فتح هذه البلاد ونشر الإسلام الصحيح فيها. ثم عاد إلى فاس سنة ١٩٩هـ، ثم خرج لغزو قبائل نفراوه حتى وصل إلى مدينة تلمسان[٣٣].

وفي عهد محمد بن إدريس خرجت الجيوش الإسلامية من فاس متوجهة إلى برغواطة وتمكنت هذه الحملة من اسقاط دولة برغواطة بعد معركة فاصلة بين الطرفين سنة ٢٢٠هـ . وخضع إقليم تامسنا لولاية عيسى بن إدريس الذي كان واليا من قبل أخيه محمد، واستمر سقوط هذه الدولة حوالي خمسين عاما عندما تمكن أبو عفير البرغواطي من هزيمة الأدارسة سنة ٢٧١هـ، وإحياء الدولة البرغواطية مرة أخرى[٣٤].

ومن ضمن الوسائل التي اتبعها الادارسة في سبيل نشر الإسلام بناء المساجد. ومعلوم ما للمسجد من أهمية ومكانة في الإسلام وما له من أثر كبير في انتشاره ، وقد أدرك الأدارسة ما للمسجد من أثر كبير في نشر الإسلام في المغرب، فإدريس بن عبدالله لما غزا مدينة تلمسان سنة ١٧٣ هـ ودخلها، أمر ببناء مسجد فيها، وعمل منبراً نصبه فيه . وكتب عليه «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة»[٣٥].

هذا بالإضافة إلى أن إدريس أسس جامع الشرفاء في عدوة القرويين بمدينة فاس، كما جدد بناء مسجد تلمسان الذي بناه والده من قبل، وفي عهد يحيى بن محمد (٢٣٤هـ) بنت فاطمة بنت محمد الفهري جامع القرويين، وأوقفت مالاً جزيلاً على المقصورة وجعلتها أشبه بالمكتبة . ويشير ابن خلدون إلى أهمية هذا العمل بقوله «فكأنما نبهت بذلك عزائم الملوك من بعدها»[٣٦].

وفي نفس الوقت بنت أختها مريم بنت محمد الفهري مسجداً جامعاً بعدوة الأندلسيين[١٣٧].

واتسع نطاق التعليم في جامع القرويين أيام الأدارسة ، وكثر الشيوخ والطلاب في المسجد، مما كان له أبعد الأثر في انتشار الإسلام واللغة العربية في أنحاء المغرب. وأصبح جامع القرويين بحق مفخرة مدينة فاس كما صار أشهر مساجد المغرب الأقصى حتى طغت شهرته على مسجد الأدارسة الأول وهو مسجد الشرفا»[١٣٨].

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في دولة الأدارسة القدوة الصالحة لأمراء الأدارسة ، فقد كان معظم أمرائهم على جانب كبير من الصلاح والتقوى والابتعاد عن الترف واللهو العبث «فإن غالبهم يمتدحون بالتقوى ومراقبة الله وإقامة مراسم الشريعة، والآذان الصاغية للمواعظ ولايخلو بيتهم من علم نافع »[١٣٩] ويصف ابن عذارى إدريس الأول بقوله : «وكان رجلاً صالحًا مالكًا لشهواته، فاضلاً في ذاته، مؤثراً للعدل مقبلاً على أعمال البر»[١٤٠].

وحينما حاد أمير من أمراء الأدارسة عن الطريق المستقيم- وهو يحيى بن محمد بن إدريس - ثار عليه الشامّ فهرب من فاس ومات غمًا وكمداً[١٤١]. ونظرا لصلاحهم وتقواهم فقد أحبهم الناس وأطاعوهم «والمغرب يسلّم بالكرامة لهذا السيد (يقصد أدريس الأول) حيًا أو ميتًا، حتى أن عامتهم يعتقدون أن سلطان المغرب حقيقة هو مولانا إدريس بمقتضى ما فيهم من الخير والسلاجة الإسلامية» [١٤٢].

وكان تعامل الأدارسة مع رعاياهم من عامة المسلمين وغيرهم يتصف بالعدل، وعدم تكليفهم مالايطيقون من الجبايات وغيرها مما دفع لأصحاب الديانات الأخرى من المجوس واليهود والنصارى إلى الدخول في الإسلام. ويشير ابن خلدون إلى أنه كان بالقرب من فاس قبائل ما زالت على اليهودية والنصرانية والمجوسية وأنها أسلمت جميعًا على يد إدريس ابن إدريس عندما شرع في بناء مدينة فاس[١٤٣].

وانتشر الإسلام بين البربر في المغرب الأقصى بسبب حسن معاملة الأدارسة للبربر ، وإعطائهم الحق في المشاركة في الحكم، وليس هذا بمستغرب لقد قامت دولة الأدارسة على أكتاف قبيلة بربرية مشهورة هي قبيلة أوربة . وأدركت دولة الأدارسة أن البربر هم السند القوي لها ، فتعاملت معهم على هذا الأساس، معاملة ترتكز على الشورى والمشاركة في الحكم ، فاكتسبوا احترام وحب الناس لهم .

وتنبه لهذه الحقيقة المؤرخ ابن خلدون ، وأشار إلى مشاركة زعماء البربر الكبيرة في الحكم، وذلك أثناء حديثه عن أول الأدارسة فقال : «فاستفحلت له ولبنيه بالمغرب الأقصى دولة إلى أن انقرضت على يد أبي العافية وقومه مكناسة أولياء العبيديين أعوام ثلاثة وثلثمائة حسبما نذكر ذلك في أخبار البربر وتعدد ملوكهم هناك واحداً واحداً وانقراض دولتهم ،وستوعب ذلك كله لأنه أعمى بالبربر فإنهم كانوا القائمين بدعوتهم »[١٤٤] فهو بذلك يرى أن الحديث عن دولة الأدارسة يندرج ضمن أخبار البربر لقيامهم بأمر الدولة، ويؤكد ابن خلدون هذه الحقيقة وهي مشاركة البربر للأدارسة في الحكم، أثناء حديثه عن مبايعة البربر لإدريس الثاني بقوله : «إلى أن بايعوا لإدريس- يقصد إدريس الثاني- فقاموا بأمره وعقدوا لأنفسهم ورسوم الملك بتجديد طاعته وافتتحوا بلاد المغرب كلها واستوثق لهم الملك بها »[١٤٥]. فابن خلدون يشير إلى أنهم جددوا لأنفسهم رسوم الملك، حتى استوثق لهم الملك، ويستمر ابن خلدون في تأكيد ذلك بقوله «واستقام له أمر الخلافة وأمر القائمين بدعوته وأمر العز والملك»[١٤٦].

وابن خلدون في كتاباته التاريخية يجيد انتقاء كلماته الدقيقة وعباراته الدالة على ما يريد قوله والتأكيد عليه .

هذه السياسة من قبل الأدارسة كان لها الأثر الكبير في استمالة قلوب البربر في جميع أنحاء المغرب وجذبها للإسلام ، فهم يشعرون أن هذه الدولة ليست متسلطة عليهم، بل هي دولتهم فهم الذين أقاموها، ويشاركون في الحكم فيها، مما جعلهم يقبلون على الالتفاف حولها ومحبتها والاستجابة لدعوتها للدخول في الإسلام .

ومن أسباب انتشار الإسلام في المغرب في عهد الأدارسة انتشار اللغة العربية والجنس العربي في البلاد، فقد حرص أمراء الأدارسة منذ عهد إدريس الأول على استقبال الوفود العربية سواء من الحجاز أو من القيروان أو من الأندلس. فبعد قيام دولة الأدارسة استقبل إدريس الأول عددا من العلويين كان أبرزهم أخوه سليمان بن عبدالله الذي استقل أبناؤه بالمغرب الأوسط فيما بعد[١٤٧].

أما في عهد إدريس الثاني فانفتح هذا الباب على مصراعيه وحفزت الهجرة العربية إلى المغرب الأقصى بتشجيع كبير من إدريس الثاني فوفدت أعداد كبيرة من المغرب «ونزع إليه كثير من قبائل العرب والأندلس»[١٤٨] بلغ عددهم أكثر من خمسمائة واتخذهم بطانة له دون البربر، فاستوزر مصعب بن عيسى الأزدي الملجوم [١٤٩]، كما عين عامر بن محمد بن سعيد

القيسي على القضاء ، وكان رجلاً صالحًا ورعًا وفقيهًا سمع من مالك وسفيان الثوري وردى عنهما كثيراً . وخرج إلى الأندلس مجاهداً ثم عاد إلى المغرب الأقصى . وكان من ضمن الوفود التي وفدت على إدريس الثاني[٥٠].

كذلك اتخذ إدريس الثاني كاتبًا عربيا هو أبو الحسن عبدالله بن مالك الخزرجي الأنصاري، هذا إلى أن الوصي الثاني عليه بعد وفاة راشد كان عربيًا هو أبو خالد بن إلياس العبدي.

وأخذت الوفود العربية من الحجاز والقيروان والأندلس تتوافد على مدينة وليلي ولا أدل على كثرتهم من ضيق المدينة بهم واعتزام إدريس الثاني الخروج منها إلى مدينة أخرى أكثر استيعابًا للقبائل العربية الوافدة .

ومن ناحية أخرى أجزل إدريس الثاني العطاء للوافدين العرب وقربهم ورفع منازلهم ، مما كان عاملاً مهما في تشجيع القبائل والأفراد على الهجرة إلى المغرب الأقصى في كنف الأدارسة[٥١].

ونظرا لكثرة الفتن في المغرب الأدنى ضد الدولة العباسية أو دولة الأغالبة ، فقد لجأ بعض هؤلاء العرب إلى دولة الأدارسة وكان معظم هؤلاء العرب من سلالة قادة الفتح الإسلامي، والذين يرافقونهم والذين عرفوا فيما بعد بالبلديين بينما جند الدولة الأموية بمصر بالشاميين. ولما قامت الدولة العباسية عُرف جند الدولة بالخراسانيين، ونظراً لكثرة هؤلاء العرب فقد أسكنهم إدريس الثاني على الضفة اليسرى من وادي فاس غرب مدينة فاس وسميت عدوة القرويين نسبة إلى المدينة التي جاؤا منها وهي القيروان .

كما لجأ ثوار الربض[٥٢] في الأندلس والذين ثاروا ضد الحكم بن هشام الأموي سنة ٢٠٢هـ إلى الأدارسة فرحب بهم إدريس الثاني وأسكنهم في المدينة التي أسست على الضفة اليمنى من نهر فاس . ونظراً لكثرتهم سميت هذه العدوة بعدوة الأندلسيين . ويذكر الناصري أن عدد المهاجرين من القيروان ثلاثمائة أهل بيت ، ومن الأندلس أربعة آلاف أهل بيت[٥٣].

ويشير بعض المؤرخين إلى أثر هؤلاء المهاجرين في انتشار اللغة العربية بين البربر بقوله «مدينة فاس قطب بلاد المغرب ويسكن حولها قبائل من البربر لكنهم يتكلمون بالعربية ، فهي حاضرة المغرب الكبرى ، وإليها تشد الركائب وتقصد القوافل»[٥٤].

ومن الطبيعي أن يحمل هؤلاء المهاجرون من القيروان ومن قرطبة مؤثرات ثقافية إسلامية أثرت تأثيراً كبيراً في المغرب الأقصى، خاصة إذا علمنا أن من ضمن هؤلاء كان العلماء

والفقهاء والأدباء ، والصناع وأصحاب الحرف. وهذا التأثير يتمثل في الجوانب الحضارية كانتشار الإسلام، وانتشار اللغة العربية وانتصار مذهب أهل السنة والجماعة وقيام المدارس . أما في الجوانب المعمارية ، فقد قاموا ببناء مساكن جديدة تحمل الطراز الأندلسي وبذلك أعطوا لهذه المدينة مظهراً جديداً يغلب عليه الطابع الأندلسي سواء في الصناعات المختلفة ، أو في شكل الأبنية ذات اللون الأبيض الناصع ، أو في إنشاء الحدائق المنزلية.

ولما تولى محمد بن إدريس الإمارة سنة ٢١٣هـ ساهم مساهمة كبيرة في تعريب المغرب الأقصى، وذلك بتوزيع أقاليم دولته على أخوته الثمانية ، فولى القاسم سبتة وطنجة وقلعة النسر ، وولى عمر بلاد صنهاجة وغمارة، وولى داود هواره وما حولها ، وولى يحيى مدينة البصرة ومدينة أصيلا، وأحمد مدينة مكناسة وجبال فازازا وتادلة . وولى عبدالله بلاد السوس الأقصى وبلاد نفيس ، وأغمات ، وولى عيسى مدينة شالة وأزمور وتامسنا ، وولى حمزة مدينة تلمسان[٥٥].

وعلى الرغم مما يأخذه بعض المؤرخين على هذا التوزيع وما ينطوي عليه من سلبيات تسببت في إضعاف الدولة، إلا أن ذلك يدل على عظم اتساع الدولة في عهد محمد بن إدريس ، كما أن هذا التقسيم كان عظيم الأثر في تعريب المغرب الأقصى، وكان أولئك الأمراء ينتقلون إلى مناطق ولايتهم بأولادهم ومرافقيهم وأتباعهم من العرب ، وغني عن البيان ما يتبع ذلك من امتزاج وتصاهر وقيام علاقات وثيقة بينهم وبين البربر ، وبالتالي فإنهم أسهموا إسهاماً كبيراً في عملية تعريب المغرب الأقصى ونشر الإسلام فيه .

ولم يكن أبناء إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة هم العاملون وحدهم في مجال تعريب المغرب لنشر الإسلام فيه، بل نجد أن هناك أفراداً من الأدارسة من غير أبناء إدريس الأول استطاعوا أن يستقروا ببعض مناطق المغرب الأوسط ويؤسسوا لأنفسهم إمارات صغيرة كان لها أثر كبير من الناحية الحضارية ومن هذه إمارة الحسنيين في تلمسان التي أسسها سليمان بن عبدالله ثم خلفه ابنه محمد وبعد محمد تفرق أبناؤه في قبائل البربر فكانت لهم زعامات في مدن ونواحي المغرب[٥٦].

كذلك تمكن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبدالله من إقامة إمارة صغيرة في قرية قريبة من تلمسان ، هي جراوة التي تطورت في عهد ابنه أبي العيش وأصبحت تسمى جراوة أبي العيش . أما تنس فاستقل بها ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبدالله وأرشكول لأخيه عيسى

بن محمد بن سليمان ، وفي مدينة صغيرة اسمها سوق إبراهيم أمّرَ البربر عليهم أحمد بن عيسى بن ابراهيم[٥٧].

وقد أشار ابن حزم إلى كثرة الأدارسة في المغرب، وكثرة إماراتهم فيه بقوله «وهم بالمغرب كثر جداً ، وكانت بها ممالك عدة وقد بطل جميعها ولم يبق منهم بها رئيس أصلاً»[٥٨].

ولعل تحسن العلاقات بين العرب والبربر وانسجامهم في شعب واحد كان من الدوافع القوية التي دفعت إلى سرعة تعريب المغرب الأقصى ، وكانت العلاقة بين البربر والمسلمين العرب قبل الأدارسة يشوبها بعض التنافر ، على الرغم من إسلام بعضهم ، بل أن بعض قبائل البربر كان لها جهود كبيرة في مناصرة ومؤازرة المسلمين في فتوحاتهم الإسلامية ، حيث كانوا يدلونهم على مسالك المغرب ومدنها وقراها.

ولما كان البربر على قدر كبير من الأنفة والعزة، مقارنين في ذلك للعرب فقد كانت العلاقات تسوء بين الطرفين عندما يشعر البربر بمعاملتهم كشعب محكوم ، وكان البربر يشعرون بهذا الشعور أحياناً إما نتيجة اجتهاد شخصي من قبل قائد مخلص كعقبة بن نافع الفهري، أو سوء معاملة من بعض الولاة بتصرف شخصي دون رضى الخلافة وعلمها ، مثل يزيد بن أبي مسلم الذي تولى سنة ٢ - ١هـ وكان قاسياً على البربر وأراد أن يطبق سياسة الحجاج في العراق على البربر، فتآمروا عليه وقتلوه وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك : «إنا لم نخلع أيدينا من طاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله ورسوله فقتلناه وأعدنا عاملك»[٥٩].

وكذلك عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (١١٠-١١٤هـ) كان قاسياً مع البربر ، ثم عبيد الله بن الحبحاب ، خاصة عامله على طنجة عمر بن عبيدالله المرادي، كان شديد الوطأة على البربر حتى نفر من حوله قلوبهم ، وأثقل كواهلهم بمطالب تعسفية كالأدم المسلبة، التي ربما أهلكت مجموعة من الغنم للحصول على جلد واحد من هذا النوع[٦٠].

ولقد وجد الخوارج في المغرب أرضاً صالحة لنشر مذهبهم نظراً لبعد المغرب عن مركز الخلافة، مستغلين سوء معاملة بعض الولاة للبربر ، فرفعوا شعارات براقة اغتر بها البربر مثل المساواة بين العرب والبربر والعدالة في الأحكام .

ولعل ثورة البربر بقيادة كسيلة في عهد عقبة بن نافع الفهري التي نتج عنها استشهاد عقبة وسيطرة البربر على القيروان، أول تعبير للبربر بعد إسلامهم عن موقفهم الغاضب تجاه

ولاة الدولة، أما صراع حسان بن النعمان الغساني مع الكاهنة فكان لوناً آخر من ألوان ذلك الموقف . وبعد انتشار مذهب الخوارج تحمس البربر، وشقوا عصا الطاعة ، وثاروا ضد الخلافة الأموية بقيادة ميسرة المدغري. وانتصر البربر على ولاة الدولة الأموية في معركة الأشراف سنة ١٢٣هـ ، وسميت بهذا الاسم لكثرة من قتل فيها من أشراف العرب، ثم والى البربر انتصاراتهم في معركة بقدورة سنة ١٢٣هـ، حتى تمكن حنظلة بن صفوان من هزيمة البربر في معركة الأصنام ثم القرن سنة ١٢٤هـ، واستمر الصراع بين العرب بقيادة حبيب بن عبد الرحمن الفهري والبربر بقيادة عاصم بن جميل زعيم برير ورفجومة حتى انتهى بسيطرة البربر على أفريقيا وهم على المذهب الخارجي الصفري، بينما سيطر البربر من - أنصار المذهب الخارجي الإباضي - على المغرب الأوسط، وبرغواطة وعلى تامسنا وما حولها . وبقي المغرب الأقصى في قبضة قبيلة أوربة البربرية . واستطاع القائد العباسي محمد بن الأشعث سنة ١٤٤هـ السيطرة على أفريقيا (المغرب الأدنى) فقط تاركاً ما سواها للبربر[٦١].

هذه الأحداث المتتالية والحروب الطاحنة بين العرب والبربر جعلت العلاقات بين الطرفين متوترة . ومقارنة هذه الأوضاع بالوضع بعد قيام دولة الأدارسة ومكنتهم من إقامة دولة عربية على أكتاف قبيلة بربرية ودعم من القبائل الأخرى ثم تشجيع الهجرة العربية إلى المغرب الأقصى وامتزاج العرب والبربر في شعب واحد يبدو الأثر العظيم لدولة الأدارسة في إزالة هذه الرواسب والأحقاد والسير بالمغرب الأقصى قدما إلى التعريب .

ومما ساعد على انتشار الإسلام في عهد الأدارسة ، ازدهار الناحية الاقتصادية وما يترتب عليها من تبادل التجارة واختلاط القبائل الأخرى وانطلاق التجار من المغرب الأقصى إلى مراكز الأسواق في جنوب الصحراء الكبرى، وجلب التجار من الأقاليم المجاورة بضائعهم إلى مدن المغرب الأقصى وخاصة فاس.

وقد حرص الأدارسة على ازدهار الناحية الاقتصادية لما لها من أثر فعال في نشر الإسلام ونشر اللغة العربية ، فاتخذوا الخطوات الكفيلة بذلك وعملوا على استتباب الأمن وتأمين طرق المواصلات[٦٢]. كذلك شجعوا الناس على زراعة الأرض، فأمرهم إدريس بغرس الأرض، وعمارتها، فغرسوا جانبي الوادي بالشجر والكروم والزيتون وضروب الثمار، فعمرت الأرض بالحراثة والغراسة وأينعت الثمار»[٦٣].

وكان للأدارسة دور كبير في نشر الإسلام في جنوب الصحراء الكبرى عن طريق التجارة والقوافل التجارية التي تجوب المناطق من فاس إلى جنوب الصحراء والعكس[٦٤].

ولإدراك الأدارسة دور القوافل التجارية فى نشر الإسلام فإنهم أسسوا مدينة نامدلت [٦٥]، التى أصبحت محطة للقوافل التجارية، إذ كانت تقع على أكثر طرق التجارة شهرة وهو الطريق الصحراوى الموصل للسودان الغربى، وبذلك أثّر الأدارسة على قبائل الصحراء ومن أهمها قبائل الملثمين الذين اعتنقوا الإسلام ، وترتب على ذلك انخراطهم تحت زعامة لمتونة . وكان ذلك تمهيداً لقيام دولة المرابطين التى كان لها الأثر الكبير فى انتشار الإسلام فى السودان الغربى [٦٦].

وبذلك يكون للأدارسة أثر واضح فى انتقال الإسلام إلى مناطق السودان الغربى.

إنشاء مدينة فاس :

يعد تأسيس مدينة فاس من أهم آثار الأدارسة وإنجازاً عظيماً من أهم إنجازاتهم، وذلك لما تركته هذه المدينة من آثار بعيدة فى حضارة المغرب وعروبته .

وهناك خلاف بين المؤرخين حول تاريخ تأسيس هذه المدينة ، فالمتداول عند معظم المؤرخين القدامى أنها بنيت فى عهد إدريس الثانى على مرحلتين فعدوة الأندلسيين بنيت سنة ١٩٢هـ وعدوة القرويين بنيت سنة ١٩٣هـ ويذكر ابن الأبار أن تأسيس عدوة القرويين كانت سنة ١٩٣هـ فى عصر إدريس الثانى [٦٧].

ويتفق معه ابن عذارى بقوله : فكان ابتداء بناء مدينة فاس سنة ١٩٣هـ، وذلك عدوة القرويين» [٦٨].

وابن أبى زرع يذكر أن عدوة الأندلسيين أسست سنة ١٩٢ هـ ثم بعدها بسنه (١٩٣هـ) أسست عدوة القرويين [٦٩].

ويحدد ابن الخطيب تأسيس المدينة بأول يوم من شهر ربيع الأول سنة ١٩٢هـ دون أن يحدد أى من العدوتين [٧٠].

أما ابن خلدون فيتفق مع ابن أبى زرع فى أن تأسيس عدوة الأندلسيين سنة ١٩٢هـ ، وعدوة القرويين سنة ١٩٣هـ [٧١].

ويتفق معهما فى هذا الرأى صاحب كتاب جنى زهرة الآس [٧٢]. وصاحب كتاب جذوة الاقتباس [٧٣]. وهكذا تتفق جميع هذه المصادر على أن تأسيس المدينة تم فى عهد إدريس الثانى وعلى مرحلتين ، مع اختلاف بسيط حيث أن بعض هذه المصادر لايذكر إلا مرحلة واحدة كابن عذارى وابن الخطيب.

وجاء بروفنسال بنظرية جديدة حول تأسيس هذه المدينة وتابعه فى ذلك بعض المؤرخين المحدثين [٧٤] - وهى أن فاس (عدوة الأندلسيين) أنشئت سنة ١٧٢ هـ وذلك فى عهد إدريس الأول ، واستدل على ذلك بأدلة مادية وتاريخية . فأما الأدلة المادية فهى عبارة عن دراهم وعملات إدريسية ذكر أنها ضربت بمدينة فاس سنة ١٨٥ ، ١٨٩ هـ . أما الأدلة التاريخية فمنها ما ورد فى كتاب الحلة السيراء لابن الأبار نقلاً عن المؤرخ القرطبى الرازى من أن إدريس بن عبد الله دخل المغرب سنة ١٧٢هـ فى شهر رمضان ونزل فى موضع يعرف بوليلى، وهناك اجتمعت إليه قبائل البربر وقدموه على أنفسهم وبنوا مدينة فاس وكانت أجمة شعرا [٧٥]. كذلك استدل برواية ابن سعيد المغربى ، وهى مدينتان إحداهما بناها إدريس بن عبدالله أول الخلفاء الأدارسة بالمغرب وتعرف بعدوة الأندلسيين ، والأخرى بنيت بعدها وتعرف بعدوة القرويين [٧٦] .

أما البكرى فيشير إلى وجود مدينة فاس قبل سنة ١٩٢هـ عندما ذكر أن إدريس الثانى جاء فى سنة ١٩٢هـ للاستقرار فى مدينة فاس [٧٧]. ولايوجد فى رواية البكرى دليل واضح على أن المدينة أسست قبل هذا التاريخ ، إذ من المحتمل أن يكون قصده هو أن إدريس الثانى أسس عدوة الأندلسيين سنة ١٩٢ هـ للاستقرار بها. هذا إلى أنه يذكر فى موضع آخر أن عدوة الأندلسيين أسست فى ١٩٢هـ وعدوة القرويين فى سنة ١٩٣ هـ فى ولاية إدريس بن إدريس [٧٨].

ويحاول بروفنسال أن يجد مخرجاً لما ورد فى المصادر الإسلامية المغربية - والتى لها وزنها التاريخى - المذكورة والتى أجمعت على أن تأسيس المدينة تم على مرحلتين سنة ١٩٢هـ، ١٩٣هـ، فيقول إنه من المحتمل جدا أن يكون ذلك نتيجة تصحيف وتحريف من قبل النساخ خاصة قبل وضع النقط على الحروف فهناك تشابه كبير بين مائة واثنين وسبعين، ومائة واثنين وتسعين.

ويوفق بروفنسال بين الروايات المتعارضة بالتوصل إلى النتيجة التالية، وهى أن إدريس بن عبدالله أسس مدينة فاس على الضفة اليمنى من وادى فاس- شرقى فاس الحالية، والتى عرفت فيما بعد بعدوة الأندلسيين . ثم بعد ذلك أسس إدريس الثانى عدوة القرويين غربى مدينة والده وأطلق عليها اسم العالية، نظرا لارتفاعها . ولكثرة سكانها من العرب - وخاصة من أهل القيروان- غلب عليها اسم عدوة القيروانيين ، ثم خفف الاسم إلى عدوة القرويين ، ثم

لما وفد ثوار الأندلس المصروفين بأهل الربض إلى المغرب الأقصى رحب بهم إدريس الثانى وأسكنهم فى مدينة والده. ونظراً لكثرتهم وطبعهم المدنية بطابعهم الأندلسى فقد سميت المدينة بعدوة الأندلسيين ، ثم اندمجت المدينتان فى مدينة واحدة أطلق عليهما معًا اسم فاس[٧٩].

ولقد وفق الأدارسة فى اختيار موقع المدينة التى جمعت بين مزايا عديدة ساعدتها على البقاء وبلوغ المجد الذى بلغته مدن قليلة كالقاهرة ودمشق وبغداد ، فهى تتمتع بموقع استراتيجى جيد وتتوفر فيها المياه الطبيعية بغزارة ، وهذه الميزة تعطى المدينة مزيداً من الأمن ضد الهجمات المعادية أو الحصار ، حيث أنها صمدت أمام حصار العبيديين سبعة أشهر ، كما أن توفر المياه كان عاملاً مهمًا فى ازدهار الناحية الاقتصادية ، فبعض الصناعات كالمدابغ تحتاج إلى توفر المياه، والمزارع تحتاج إلى المياه لإنتاج المواد الغذائية وغيرها[٨٠].

كذلك تميز نهر فاس بوفرة ثروته السمكية وتعدد أنواع السمك فيه، وبالقرب من فاس غابات كثيرة وكثيفة من أشجار الأرز تغطى جبال بنى يزغة، وتبعد عن فاس حوالى ثلاثين ميلاً فقط، ويقوم العمال بتقطيع هذه الأخشاب التى تمتاز بصلابتها ، وجودتها ويصنعون منها مواد البناء والأثاث وينقلونها إلى فاس[٨١].

وقد حرص الأدارسة على ازدهار مدينة فاس حتى تستطيع أن تؤدى وظيفتها فى المغرب الأقصى على الوجه المطلوب، وكعادة المسلمين الأوائل عند بناء المدن فأول ما اهتم به إدريس الثانى هو بناء المسجد نظراً لأهميته فى الإسلام والدور المنتظر منه فى نشر الإسلام ، والثقافة الإسلامية ، فبنى مسجد الشرفاء ثم بنى قصر الإمارة المعروف بدار القيطون[٨٢].

واهتم إدريس الثانى بالناحية الاقتصادية ولما لها من أثر فى ازدهار الحركة الثقافية فى البلاد ، وذلك لأن رخاء البلد وقوة اقتصاده وأمنه واستقراره يكون جاذبًا للتجار وطلاب العلم. وغنى عن القول ما لذلك من آثار كبيرة فى نشر الإسلام واللغة العربية فى البلاد لذا شجع إدريس الثانى الناس على عمارة المنازل وعلى غرس الأشجار بل استحثهم واستعجلهم على ذلك بقوله « من بنى موضعًا أو اغترسه قبل تمام السور فهو له هبة ابتغاء وجه الله ، فبنى الناس الدور وغرسوا الأشجار وكثرت العمارة[٨٣].

وبلغ حرصه على الأمن والاستقرار ولتكون الطرق إلى فاس سالكة، فإنه أمر بالقبض على قطاع الطرق الذين يخيفون الناس، ونفذ حكم الشرع فيهم. ويذكر ابن أبى زرع أصنافا كثيرة من الخضروات والفواكه التى تجود بها فاس[٨٥] كما يشير إلى رخص الأسعار فيها حيث أن الزرع كان لايباع ولايشترى لكثرته ، وبلغ ثمن وسق القمح بدرهمين، ووسق الشعير درهمًا ،

والكبش بدرهم ونصف والعسل خمسة وعشرين رطلا بدرهم. أما الفاكهة فلاتباع ولاتشترى لكثرتها[٨٦].

ونظراً للأمن والاستقرار فى فاس وازدهار الحركة التجارية وتنوع محاصيلها الزراعية فقد أصبحت مركز جذب للناس ولم تزل من يوم أسست مأوى الغرباء ، من دخلها استوطنها وصلح حاله بها[٨٧].

ويشير صاحب كتاب جنى زهرة الآس إلى إقبال الناس على الاستيطان بفاس والهجرة إليها ، فقد سكنها جملة من أصناف الناس وأهل الكور والأمصار ، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية «فليس من أهل بلد ولا إقليم إلا ولهم بها منزل، ومتجر وصناعة ومنصرف»[٨٨].

كما يشير المؤرخ نفسه إلى ازدهار حركة الملاحة فى نهر سبو القريب من فاس بقوله : «إنه كانت تسير فيه القوارب والسفن الصغار إلى البحر الأعظم (المحيط الأطلسى) وتصعد منه إلى ملتقى النهر مع وادى فاس»[٨٩].

وصحب هذا وذاك ازدهار الحركة الثقافية بها فأصبحت مثار اهتمام العلماء وقبلة طلاب العلم «وقد نزلها كثير من العلماء والفقهاء، والصلحاء، والأدباء، والشعراء، والأطباء، وغيرهم»[٩٠].

ويشير ابن خلدون إلى ازدهار الناحية العمرانية والتجارية وزيادة الهجرة إلى فاس فى عهد يحيى بن محمد (٢٣٤هـ) ، بقوله «وامتد سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه واستجدت فاس فى العمران ، وبنيت لها الحمامات ، والفنادق للتجار، وبنيت الأرباض ، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية»[٩١] واستقدم الأدارسة العلماء من مركز السنة فى القيروان . «فأصبحت فاس فى قلب المغرب الأقصى قاعدة للسنة والجماعة ، كما استقبلوا طوائف من أهل السنة والجماعة من المهاجرين الأندلسيين وأهل الربض ومن انضم إليهم»[٩٢] وهكذا أصبحت فاس فى عهد الأدارسة تحتل مركز حضارى مرموق[٩٣].

وقد شاء الله - عز وجل- أن تتحقق رغبة إدريس من بناء هذه المدينة عندما أشار إلى هدفه من بناء هذه المدينة وهو أن يتلى فيها كتاب الله، وتقام فيها حدوده ، وتعلم فيها أحكام الشرع، فصارت فاس دار علم ومقصد طلاب العلم وتأكد ذلك بظهور جامعة القرويين بفاس سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م والتى ظهرت قبل ظهور أقدم جامعة فى أوربا بحوالى ١٩١ سنة وهى جامعة سالرنو سنة ١٠٥٠ م فى إيطاليا[٩٤].

الخاتمة

ويعد فمن خلال هذا البحث عن الأدارسة توصلت إلى النتائج التالية :

إن دولة الأدارسة في بلاد المغرب قامت بدون ترتيب مسبق أو دعوة منظمة كالدعوة العباسية أو الدعوة العبيدية مثلاً، وهي تشبه في ذلك الدولة الأموية بالأندلس ، التي قامت أثر مطاردة قام بها العباسيون لفلول بني أمية .

استمر حكم الأدارسة في المغرب الأقصى حتى بعد قيام الدولة العبيدية وانتهاء حكمهم من فاس ، إذ استمر في إمارات البصرة وحجر النسر وغيرهما من الإمارات الصغيرة إلى سنة ٣٦٣هـ عندما قضى الأمويون في الأندلس على الأدارسة استسلم آخر زعمائهم وهو الحسن بن كنون .

أبلى الأدارسة بلاءً حسناً في سبيل نشر الإسلام في المغرب الأقصى، وفي سبيل تنقية تعاليمه التي شوهتها قبائل برغواطة، وفي سبيل الانتصار لمذهب أهل السنة والجماعة ، ونشره في المغرب الأقصى والأوسط بعد أن كان محصوراً في المغرب الأدنى فقط.

خطا الأدارسة خطوات واسعة في سبيل تعريب المغرب وكانت لهم جهودهم المميزة في هذا المجال ، فقد جعلوا من فاس والمغرب الأقصى عامة مراكز جلب للناس ، وذلك بالحرص على الأمن والاستقرار في البلاد ، وكذلك تنمية الناحية الاقتصادية والثقافية ، فأصبحت دولة الأدارسة دولة مفتوحة يقصدها جميع الناس فالوفود العربية التي أفرزتها الفوضى والاضطرابات في المغرب الأدنى يجدون الملجأ في المغرب الأقصى ، والفقهاء وغيرهم الذين اشتركوا في ثورة الربض تستقبلهم دولة الأدارسة، ومن يريدون التجارة أو طلب العلم يجدون كل ترحيب في فاس .

وبقيام دولة الأدارسة تحسنت العلاقات بين العرب والبربر ، وذلك بعد أن كانت تلك العلاقات يشوبها الحذر والتربص ، فانقلب ذلك إلى تعاون وتآزر واندماج في سبيل مصلحة الإسلام والمسلمين .

وبعد إنشاء مدينة فاس من أعظم حسنات دولة الأدارسة ، وأهم إنجازاتهم ، وذلك لما صار لهذه المدينة من آثار عظيمة في حضارة المغرب الأقصى ، حيث ازدهرت الحركة الثقافية بها

وأصبحت قبلة العلماء وطلاب العلم، واستقبل الأدارسة فيها علماء وفقهاء أهل السنة والجماعة – خاصة المذهب المالكي– فأصبحت فاس مثل القيروان قاعدة من قواعد السنة والجماعة ، ونتج عن ذلك انتشار الإسلام إلى بلاد المغرب الأقصى على المذهب المالكي .

كذلك ازدهرت الناحية التجارية والعمرانية بها ، فأصبحت القوافل التجارية تخرج من فاس إلى مراكز الأسواق الكبرى في الغرب الأقصى ، وجنوب الصحراء وأثر ذلك في انتشار الإسلام واللغة العربية .

الهوامش

١- فخ :

فخ واد في الطريق بين المدينة ومكة المكرمة ، ويبعد عن مكة ستة أميال وحدثت فيه المعركة المشهورة بين العلويين وجيش الدولة العباسية، وذلك في سنة ١٦٩ هـ ، واستطاع اثنان من رجالها الهرب، الأول يحيى بن عبدالله ، إلى بلاد الديلم، والثاني آخر إدريس بن عبدالله إلى المغرب الأقصى الذي استطاع تأسيس دولة الأدارسة التي أصبحت شجا في حلق الدولة العباسية.

راجع ابن كثير ، البداية والنهاية تحقيق أحمد بن ملحم، علي نجيب عطوي والأستاذ فؤاد السيد، الأستاذ مهدي ناصر الدين، الأستاذ علي عبد الساتر، نشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثالثة، ج١ ، ص١٦٢؛ د. حسن ابراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسي، ج٢ ، ص١١٤ .

٢- ابن أبي زرع ، الآنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، طبع المغرب ١٩٧٢م، ص١٩ ، وسوف أختصر اسم هذا الكتاب فيما بعد بـ « روض القرطاس » .

٣- برغواطة : اختلف المؤرخون في أصل هؤلاء فإن أبي زرع يرى أنهم أخلاط من قبائل كثيرة انضووا تحت زعامة صالح بن طريف الذي ادعى النبوة أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) وأصله من برباط من أعمال شذونه بالأندلس فلما سمي أتباعه برواطة ثم حرف إلى برغواطة .

روض القرطاس ص١٣٠ .

أما ابن خلدون فهو يرى أن برغواطة بطن من بطون المصامدة وأن أول زعيم لهم هو طريف أبو صبيح وهو الذي ادعى النبوة وشرع الشرائع المخالفة للإسلام ثم تولى بعده ابنه صالح الذي انسلخ من آيات الله ادعى النبوة كما ادعى أنه صالح المؤمنين ، وعند ابن خلدون الآراء التي ذكرت أنهم من زناته والتي ذكرت أنهم أخلاط اجتمعوا تحت زعامة صالح بن طريف الذي هو يهودي الأصل من ولد شمعون بن يعقوب وأصله من برباط بالأندلس وذكر أن ذلك من الأغاليط البينة لأنه لايتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل لمنقطع جنسه، دخيل في نسبه ، راجع العبر طبع بولاق ، القاهرة ١٢٨٤، ج٦ ، ص٢٠٧ وما بعدها .

٤- تامسنا : إقليم في المغرب الأقصى كان يمتد من نهر أبي رقراق إلى وادي أم الربيع ، وقد اندثر هذا الاسم ، ولم يبق إلا ما يذكر به فقط كباب تامسنا بالرباط.

انظر : عبد الوهاب منصور ، قبائل المغرب، طبع الرباط ١٣٨٨هـ، ج١ ، ص١١٧ .

٥- أوربة : تنتسب هذه القبيلة إلى أوربة بن برنس ، وكانت من القبائل الكثيرة العدد الشديدة البأس زمن الفتح الإسلامي وكان أميرهم أيام الفتح الإسلامي، سشربر بن رومي بن بازوت ثم كسيلة بن لمزم ولما فر إدريس بن عبدالله من معركة فخ، ونزل في وليلي كان زعيم أوربه في ذلك الوقت هو إسحاق بن محمد الذي جمع قبائل البربر على طاعة إدريس وساعده في قيام دولة الأدارسة .

ابن خلدون ج٦ ، ص١٤٩ ، ١٤٧ .

٦- ابن أبي زرع ، روض القرطاس، ص٢٠ .

٧- محمود اسماعيل ، الأدارسة في المغرب الأقصى- حقائق جديدة ، الطبعة الأولى، ص٤٨ .

٨- روض القرطاس ، ص١٥ .

٩- ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص١٤٦ .

١٠- ابن الخطيب ، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، والأستاذة محمد ابراهيم الكتاني، نشر دار الكتاب ، الدار البيضاء، ص١٩٤، ابن خلدون المصدر السابق، ج٤ ، ص١٢ وفي روض القرطاس أن وفاته في شهر ربيع الآخر سنة ١٧٧هـ، ابن أبي زرع ، ص٣٣ .

١١- ابن خلدون ، المصدر السابق، ج٤ ، ص٣ .

١٢- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

١٣- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج . س . كولان ، ليفي بروفنسال ، نشر دار الثقافة بيروت . ج١ ، ص٢١٦ .

١٤- ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص٥١ ، ٥٢ .

١٥- المصدر نفسه، ص٥٤ .

١٦- ابن خلدون ، العبر ، المصدر السابق، ج٤ ، ص١٦ .

١٧- سمي الهجام لأنه كان بينه وبين عمه أحمد بن القاسم بن إدريس حرب فحمل الحسن على فارس من أصحاب عمه فطعنه في موضع المحاجم ، ثم حمل على ثان فطعنه أيضا في موضع المحاجم ، ثم ثالث، فقال عمه إن ابن أخي لهجام ، فأصبح يعرف بذلك وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

سميت حجاما ولست بحجام ولكن لطعني في مكان المحاجم

أنظر : الناصري ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، طبع المغرب ١٣٧٣هـ، نشر دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ج١ ، ص١٦٧ .

١٨- ابن خلدون ، العبر، ج٤، ص١٧ ، ج٦ ، ص٢١٧ ؛ حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ، ص٣٩٦ .

١٩- ابن خلدون ، المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

٢٠- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها ، تحقيق محمد بن سعيد العريان ، طبع القاهرة ١٣٨٣هـ .

٢١- المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٩٠ ؛ ابن خلدون المصدر السابق، ج٦ ، ص٢٢١ .

٢٢- ابن عذاري، المصدر السابق ، ج٣، ص١٢٠ ؛ محمد عبدالله عنان دولة الإسلام في الأندلس - الخلافة الأموية والدولة العامرية . العصر الأول- القسم الثاني، ص٦٥٧ .

٢٣- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . القسم الأول، المجلد الأول تحقيق إحسان عباس ، طبع بيروت ص٩٧ ، ٩٨ .

٢٤- البيان المغرب ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٢١ .

٢٥- المصدر نفسه ، ص١٢٣ .

١٢٦- المصدر نفسه ، ص١٢٥ ؛ عنان ، المرجع السابق ص٣٦٢ .

٢٧- ابن عذاري، المصدر السابق ، ص١٤٤ وما بعدها ؛ ابن خلدون المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٥٣ وما بعدها ؛ ابن الخطيب أعمال الأعلام، تاريخ أسبانيا الإسلامية، ص١٤٢ .

٢٨- د. حسن أحمد محمود ، ابراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، الطبعة الثالثة ، ص٤١٢ .

٢٩- العبر، المصدر السابق، ج٦، ص٢٠٦ .

٣٠- ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص٢٠ .

٣١- المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

٣٢- المصدر نفسه ، ص٢١ .

٣٣- ابن القاضي ، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، طبع الرباط ١٩٧٣م، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة ص٣٩؛ ابن الخطيب ، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، ص٢٠٦ .

٣٤- د. محمود اسماعيل ، الأدارسة في المغرب الأقصى، ص١٤٧ .

٣٥- الناصري، الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج١ ، ص١٤٢ .

٣٦- العبر، المصدر السابق، ج٤ ، ص١٥ .

٣٧- د. حسين مؤنس ، تاريخ المغرب العربي وحضارته ، ص٤١٥ .

٣٨- د. سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي، ص٥١٢ .

٣٩- أحمد بن أبي الضياف ، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ج١ ، ص٣٦ .

٤٠- البيان المغرب، المصدر السابق، ج١ ، ص٨٤ .

٤١- ابن خلدون ، المصدر السابق، ج٤ ، ص١٥ .

٤٢- ابن أبي الضياف ، المرجع السابق ، ص٣٦ .

٤٣- العبر، المصدر السابق، ج٤ ، ص١٣ .

٤٤- المصدر نفسه، ص٨ .

٤٥- المصدر نفسه، ج٤، ص١٣ .

٤٦- المصدر نفسه، نفس الصفحة .

٤٧- المصدر نفسه، ص١٢ .

٤٨- المصدر نفسه، ص١٢ .

٤٩- المصدر نفسه، الصفحة نفسها؛ وفي روض القرطاس أن الذي استوزره اسمه: عمير بن مصعب الأزدي، ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص٢٩ .

٥٠- ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص٢٩ .

٥١- المصدر نفسه، ص٣٠ .

٥٢- قامت هذه الثورة سنة ٢٠٢هـ وفي عهد الحكم بن هشام الملقب بالربضي، وكان الفقهاء قد أخذوا على الحكم بعض المآخذ فصاروا يعرضون به، حتى كرههم الناس، واملأت قلوبهم غيظاً عليه. ثم حدثت الشرارة التي أشعلت الثورة وهي أن جنديا من جنود الأمير ذهب إلى حداد (صقلبي) يسمى الربض ليصلح سيفه فتباطأ الحداد وحدث بينهما جدال عنيف انتهى بقتل الحداد على يد الجندي، فثار أهل الربض وأغلقوا محلاتهم واتجهوا إلى قصر الإمارة فحاصروه يريدون اقتحامه، وخلع الحكم ولكن الحكم وجنوده انتصروا عليهم بعد أن أرسل من يحرق بيوتهم بالحي المتمرد ، فانهزموا . وهدم الحكم دورهم وأجلاهم عن الأندلس فمنهم من فر إلى فاس ، ومنهم من ذهب إلى الإسكندرية ولقب بالربضي نسبة إلى هذه الثورة.

راجع : أخبار مجموعة ، لمؤلف مجهول، ص١٣٠؛ ابن عذاري، المصدر السابق ج٢ ، ص١١٤ ؛ المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص٤٤ .

٥٣- الاستقصا ، ج٢ ، ص١٥١ .

٥٤- الحميري، الروض المعطار ، ص٤٣٠ .

٥٥- ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص٢١١ ؛ ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ص٢٠٣، ٢٠٤ .

٥٦- ابن خلدون ، المصدر السابق، ج٤ ، ص١٧ .

٥٧- المصدر نفسه، ص١٨ .

٥٨- ابن عبد الحكم ، فتوح أفريقية والأندلس، ص٥١ ، ٥٢ ؛ المالكي ، رياض النفوس ، ص١١ .

٥٩- الناصري، المرجع السابق، ج١ ، ص٩٢ ، والمراد بعامله هو محمد بن يزيد القرشي الذي كان عاملاً عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم .

٦٠- المرجع نفسه، ص٥٩ .

٦١- عن هذه الأحداث ، راجع : ابن عبد الحكم ، فتوح أفريقية والأندلس، ص٩٤ وما بعدها؛ ابن عذارى، المصدر السابق ،ج١ ، ص٥٩ وما بعدها ؛ أخبار مجموعة لمؤلف ، مجهول ، ص٣١، وما بعدها؛ د. السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص٢١٥ وما بعدها .

٦٢- ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص٤٦ .

٦٣- المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

٦٤- د. حسن علي حسن ، دراسات في تاريخ المغرب العربي، ص١٠١ .

٦٥- تامدلت : من بلاد السوس بالمغرب الأقصى أسسها عبدالله بن إدريس العلوي وهي مدينة سهلية كثيرة العمارة كثيرة الأسواق ، وهي على رأس نهر درعة .

انظر الحميري، الروض المعطار، ص١٢٨ .

٦٦- الأمين محمد عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغي ، الطبعة الأولى، ص٣١ .

٦٧- الحلة السيراء ، الجزء الأول ، ص٥٣ .

٦٨- البيان المغرب، ج١ ، ص٢١٩ .

٦٩- روض القرطاس ، المصدر السابق، ص٣٨ .

٧٠- تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، المصدر السابق ، ص١٩٩ .

٧١ - العبر، ج٤ ، ص١٣ .

٧٢- علي الجزنائي ، ص٢٤ ، ٢٥ .

٧٣- أحمد بن القاضي الكناسي، ص٦٤ .

٧٤- د. السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص٤٠١ ، وما بعدها .

٧٥- الحلة السيراء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، جـ١ ، ص٥٤ ، ٥٥ .

٧٦- نقلاً من : بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور سيد محمود عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين علمي، مراجعة لطفي عبد البديع، نشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية - ١٩٩٠م ، ص٢٢ .

٧٧- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، ص١٢٣ .

٧٨- المصدر نفسه ، ص١١٥ .

٧٩- الإسلام في المغرب والأندلس، ص٣٠٠ - ٤٠٠ ؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص٤١٠ .

٨٠- اسماعيل العربي، دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة ص١٠٨ .

٨١- المرجع نفسه ، ص١١١ ؛ الجزنائي ، زهرة الآس، ص٢٣ .

٨٢- ابن الخطيب ، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، ص٢٠١ .

٨٣- ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ص٣٢ ؛ ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص٣٩ .

٨٤- ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص٣٩ .

٨٥- المصدر نفسه ، ص٤٤ ، ٤٥ .

٨٦- المصدر نفسه ، ص٥٠ .

٨٧- المصدر نفسه، ص٣٦ .

٨٨- علي الجزنائي ، المصدر السابق، ص٣٩ .

٨٩- المصدر نفسه ، ص٢٧ .

٩٠- ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص٣٦ .

٩١- العبر ، المصدر السابق، جـ٤ ، ص١٥١ .

٩٢- د. حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ، ص٣٥٣ .

٩٣- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص٤١٣ .

٩٤- محمد المنصور الكتاني، فاس عاصمة الأدارسة ، ورسائل أخرى، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ، ص٤٨ .

أ. د. محمد أحمد زيوده(*)

العلاقات السياسية بين الفاطميين والأمويين

تبدو لنا من خلال الحديث عن العلاقات السياسية بين الخلافتين الفاطمية في المغرب والأموية في الأندلس، حقيقة الأحداث التي كانت تجري في جوف الدولة الإسلامية الكبرى وما شابها من تشابك المصالح والاتجاهات في تلك المرحلة من مراحل التاريخ الواقع إن الصراع الأموي الفاطمي يمثل صفحة مظلمة من تاريخنا لايجوز أن نقف إزاءها غير مبالين.

ومن المعلوم أن التوسعات الفاطمية في المغرب والأندلس ومصر وغيرها استندت على معتقدات وتوجهات ودعوة مذهبية ، عمل الفاطميون بمختلف السبل على تحقيقها ، وحققوا نجاحًا في بعض الأقاليم، وفشلاً في أقاليم وجهات أخرى.

* * *

ذلك أن الأطماع الفاطمية وتطلعاتهم التوسعية ظهرت في الأندلس قبل قيام دولتهم في المغرب بدافع عوامل كثيرة ومتعددة ، ولذلك كانت المجابهة الأموية لهذا التوسع نتيجة طبيعية محكمة، وقادت إلى تحالفات عسكرية وسياسية بين قوى مختلفة كل منها سار مندفعًا وراء مصالحه الخاصة ورغباته الآنية، ضاربًا بعرض الحائط بالمصالح العليا للأمة العربية الإسلامية.

(*) أستاذ بكلية الآداب- جامعة دمشق .

ومن ناحية أخرى فإن الصراع بين الأمويين والفاطميين غدا نقطة سوداء في تاريخهما لأنه حدث بين أخوة في الدين واللغة والتاريخ المشترك .

وقد ظهرت المعتقدات والتوجهات الفاطمية أثر انشقاق الإسماعيلية عن طائفة الاثني عشرية، واعتقادهم بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق وابنه محمد من بعده. ولن نقف كثيرا عند هذا الحدث، أو عند النسب الفاطمي، لأن ذلك أشبع دراسة ولم يصل المؤرخون فيه إلى حد الفصل[١] . ومن المعلوم أن العلويين بجميع فرقهم يعتقدون أن العباسيين ومن قبلهم الأمويين مغتصبون للخلافة من أصحابها الشرعيين بوصفهم أبناء علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء، وقد تمسك الفاطميون بهذا الاعتقاد وآمنوا به وعملوا بكافة السبل على استعادة حقهم الشرعي في الخلافة والحكم.

وكان أن نجحت بعض الفرق العلوية، في كسب الود والتأييد الشعبي في بعض أرجاء العالم الإسلامي، ومنها بلاد المغرب حيث أقاموا الإمارات العديدة[٢] ومنها الدولة الفاطمية على أرضه.

ولابد هنا من الإشارة إلى دور الداعي الإسماعيلي أبو عبدالله الشيعي الذي قال عنه المقريزي[٣]: (كان أبو عبدالله من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون ، أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال).

ومن الواضح أن التوجه الفاطمي إلى الأندلس ومصر وغيرهما وأطماعهم وتطلعاتهم التوسعية فيها جاءت مع منطق التاريخ والأحداث الذي يتطلب من الدولة الوليدة أن تتجه للتوسع والبحث عن منافذ جديدة. ولم يشذ الفاطميون عن تلك القاعدة فتوجهوا بنشاطهم صوب الأندلس وغيرها مدفوعين بمعتقدات مذهبية وعملوا بدون كلل على نشرها وتحقيقها . وفي الوقت نفسه الذي وجه المهدي الفاطمي حملاته العسكرية إلى مصر أرسل دعاته إلى الأندلس لنشر دعوته [٤]. والتمهيد لقبول المذهب الإسماعيلي ، وكسب الأنصار تمهيداً للشروع في الغزو المرتقب والتوسع المطلوب.

وهكذا كان التوجه الفاطمي إلى الأندلس قضية استراتيجية، ونظرة مستقبلية هادفة تدخل ضمن المعتقدات الفاطمية، وهذا ما يؤكد الرأي القائل بأنهم عملوا منذ قيام خلافتهم في المغرب بالتوجه إلى كل من مصر والأندلس، ويوضح أيضاً لماذا سبق دعاتهم وعيونهم إلى أرض الأندلس، وصول المهدي إلى المغرب في سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م . وتأكد هذا التوجه والعزم أثر قيام الخلافة الفاطمية في عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م .

ومعلوم أن الفاطميين حققوا نجاحات كبيرة وواضحة في بلاد المغرب العربي . غير أن نجاحهم في الأندلس كان محدوداً ، إذ لم يحققوا النجاحات المرجوة، غير أن الفاطميين تمكنوا في بلاد الأندلس من شد الانتباه الأموي واستثاروا مخاوفهم الكبيرة وأيقظوا فيهم الشعور الحذر حيال أية قوة تقوم في بلاد المغرب، وخاصة بعد أن تمكن الفاطميون من التأثير في سير الأحداث السياسية في الأندلس ، وعملوا على توجيه بعض الثائرين فيها، وكسبوا تأييد بعض القوى وأثاروها ضد حكام قرطبة ، واستفادوا من حالة الفوضى والاضطرابات في الأندلس ، وأيدوا كل ثائر ومتمرد على الحكم الأموي، ومن هؤلاء الثائر الأندلسي (عمر بن حفصون)[٥] الذي اتجه الفاطميين وتظاهر باعتزازه بقيام خلافتهم ، كما دعا للخليفة الفاطمي في جميع المساجد الواقعة تحت نفوذه . وقد أمده المهدي الفاطمي (عبدالله ٢٩٧هـ/ ٣٢٢هـ/ ٩٠٩-٩٣٤م) بأنواع العتاد والأسلحة والذخيرة، كما أرسل دعاته إلى حضرته وأقاموا في مجلسه وزوده بكل توجيه وعون ممكنين[٦].

كذلك كسب الفاطميون إلى جانبهم مجموعة من القادة والأدباء أمثال علي بن حمدون الجذامي[٧] المعروف بابن الأندلسي، والشاعر ابن هانئ الغرناطي الأندلسي الذي يعد شعره من الوثائق المهمة في دراسة العقيدة الإسماعيلية[٨]. وغيرهم كثيرون ممن يعتبرون شهود إثبات على النشاط الإسماعيلي وتطلعاتهم التوسعية .

وكذلك نشط الدعاة الإسماعيليون في بلاد الأندلس، ويعد ابن حوقل النصيبي ، الجغرافي المشهور صاحب الكتاب المعروف (صورة الأرض) أو المسالك والممالك من أهم أنصارهم ودعاتهم الذين جابوا بأرض الأندلس وتعرفوا عليها وتجسسوا لتسهيل السيطرة الفاطمية على الأندلس، وكان من أهم المستطلعين لأخبارها والعارفين بأوضاعها ، وممن سجلوا ملاحظاتهم ولا سيما أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية[٩].

أما معوقات هذا التوجه الفاطمي وعوامل إحباطه في بلاد الأندلس فإنها تعود إلى المجابهة الأموية، وردود الفعل السريعة والقوية والمحكمة، حيث وقفوا بالمرصاد للفاطميين ورصد مخططاتهم ومن ثم مجابهة حركتهم وهي في طور التكوين وأدى هذا وذاك إلى إيجاد تحالفات عسكرية وسياسية بين قوى مختلفة المشارب والمذاهب في بلاد المغرب والأندلس ، واندفعت جميعها وراء مصالحها الخاصة ورغباتها الآنية ، ضاربة بالمصالح الوطنية والقومية والإسلامية عرض الحائط ، وقاتلت بعضها بعضاً بمختلف الأسلحة المتاحة[١٠].

وقد أدى كل ذلك إلى مجموعة كبيرة من النتائج تستحق الدراسة والمناقشة بوصفها من عوامل تعويق القوى المتينة للحضارة العربية الإسلامية، ومسيرة المسلمين في المغرب والأندلس، كما مكنت الأعداء من اختراق المسيرة الإسلامية ومهاجمتها بدءاً من المغرب وانتهاءً بالشرق.

وباستعراض ما جرى على أرض الواقع في المغرب والأندلس، ثم في مصر فيما بعد من أحداث نجد صوراً كثيرة تؤكد ما توجهنا إليه من قول. وتوضح طبيعة التحالفات السياسية والعسكرية، فعلى أثر نجاح الأدارسة في المغرب- وقبيل قيام الخلافة الفاطمية- توجه الأمويون نحو ما كان منها مخالفاً لهم في النواحي المذهبية، كدولة بني رستم[١١٥] الخارجية في تاهرت، وذلك بهدف إضعاف جيرانهم وأعدائهم الأدارسة ومن ثم الفاطميين.

أما الأندلسي الخارج (عمر بن حفصون) الذي كان قد أعلن ولاءه المطلق للفاطميين، فإنه سرعان ما تخلى عنهم وعن دعمهم ودعوتهم كغيره من الزعماء المتطلعين إلى السلطة. وكانت لاتهيء العقائد إلا بقدر ما تحقق له من منفعة، فإذا ما تعارض ذلك مع مصلحته فإنه سرعان ما يتخلى عن موقفه، ولم يخرج ابن حفصون عن هذه القاعدة، إذ لم يكن مخلصاً للدعوة الفاطمية، ولم يتمسك بها إلا بقدر ما تحقق له من تأييد سياسي وكسب عسكري حيال عدوه الأموي، ولم يتوجه الفاطميون إليه إلا ليكيدوا به أمويي الأندلس ولذا فإنه استغنى عنهم في آخريات أيامه، عندما أدرك أنه لا حاجة له بهم، ولابدعوتهم. لذلك طلب من الدعاة العودة إلى المهدية وأخرجهم من قصره[١١٦]، ولم يؤد هذا التعاون إلى نتائج هامة سوى إثارة التوتر وزيادة الأحقاد على أرض الأندلس والمغرب.

كذلك فإن المصالح السياسية المشتركة قضت بأن يتصالح أعداء الأمس الأدارسة مع الأمويين للوقوف بوجه الطامع الجديد الذي يهددهم على السواء، بأهدافه الكبيرة المتطلعة لابتلاع المغرب والأندلس وجميع القوى والدول فيهما[١١٧] لهذا كان النجاح الفاطمي بداية لعلاقات أموية إدريسية، وتحول العداء بين الأمويين في الأندلس والأدارسة إلى وئام، وتشكلت جبهة معادية للفاطميين برئاسة الناصر لدين الله، مما دعم موقف الأدارسة في المغرب[١١٨]، فلم يستطيعوا بسهولة لأبناء عمومتهم الفاطميين. وكل ذلك أدى إلى زيادة الحركات والخروج على الفاطميين وتهديد سلطانهم. ولم يكن للتقارب الأموي الإدريسي من سند قوي أو جذور عميقة إلا هذا الوضع الجديد الذي نشأ إثر قيام الخلافة الفاطمية وتهديدها

للأدارسة والأمويين والقوى المحلية على السواء، وخططهم الهادفة إلى جعل الأقاليم المغربية والأندلسية خاضعة للعاصمة المهدية، وضمها إلى التبعية الفاطمية.

أما عن حركة «موسى بن أبي العافية»[١١٩] الذي كان من المؤيدين للفاطميين وأحد زعماء قبيلة مكناسة القوية في بلاد المغرب فقد تمكن بدعم من القائد الفاطمي «مصالة بن حبوس» من الوصول إلى حكم المغرب الأقصى والسيطرة عليه، وأسندت إليه جميع الأقاليم التي أخذت من الأدارسة باستثناء مدينة «فاس» ثم كان أن شرع في التمرد والاستقلال عن الفاطميين نتيجة للتدخل الأموي في المغرب وسماعه صليل السيوف الأموية وهي تقترب منه محاولة السيطرة على الثغور المغربية. وهكذا دفعه خوفه ومصلحته الخاصة، وحبه للحكم إلى إعلان الولاء للناصر الأموي سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م وخلع الطاعة الفاطمية. وتلقى «ابن أبي العافية» المساعدات المادية والمعنوية من خليفة قرطبة بما مكنه من التصدي للمهدي الفاطمي وقواته وأقلق العاصمة المهدية[١٢٠].

وقد أكدت كافة القوى في المغرب وعلى رأسها الأدارسة صحة ما اتجهنا إليه من أنهم كانوا جميعاً ينطلقون كل دعم ممكن من الناصر الأموي بهدف التمرد والثورة على الحكم الفاطمي، كما أنهم كانوا جميعاً يتحازون بالتجاه مصالحهم وتطلعاتهم الخاصة، وكانوا يتوجهون بولائهم إلى الخلافة الأموية تارة، وأخرى إلى الخلافة الفاطمية. وكل ذلك يؤكد أن الحكم والسلطة والتوجهات المستمرة للأدارسة وغيرهم لم تنطلق من تأثيرات دينية أو عقائدية أو اجتماعية بقدر ما تأثرت بالمواقف السياسية والمصالح المتعلقة بالسلطة والنفوذ[١٢١].

وكان الأدارسة كغيرهم يعقدون ولاءهم وفق مصالحهم الخاصة، وتوجهاتهم السياسية.

ولابد لنا من الإشارة إلى أن ردة الفعل القوية ضد الفاطميين جاءت من جانب الناصر الأموي، الذي كان وجوده على رأس السلطة في الأندلس كرجل قوي الشخصية، قد أوصد الطرق كافة أمام التوسع الفاطمي[١٢٢]، ولم يكن إعلانه الخلافة الأموية في سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٩م في قرطبه إلا ردة فعل على قيام الخلافة الفاطمية، وبذلك أعطى الدعم السياسي والمعنوي والديني لقرطبة، وأعلن أحقيتها في أن تتعادل مع بغداد والمهدية، ومنعها الحق في مقاومة الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب والمشرق وقد اعتبر الفاطميون هذا العمل تعدياً على حقوقهم ولذلك وجب قتال الأمويين واستحلال دمائهم[١٢٣].

ثم أن التخوف من الفاطميين كان دافعًا للأمويين لتقوية أسطولهم البحرى وشحن الموانئ والمدن الأندلسية المواجهة للمغرب بالسفن الكبيرة والعتاد الحربى والعساكر القادرة على ردع أية قوة تأتيهم بحرًا من جانب الفاطميين وغيرهم . وهكذا قوى الأسطول العسكرى الأندلسى وغدا من الأساطيل البحرية القوية فى ذلك الوقت إلى جانب أساطيل البيزنطيين والفاطميين ، واستكمالاً للخطط الأموية وردًا على الأطماع الفاطمية أقدم الناصر على احتلال كل من سبته ومليله وطنجة وهى من الثغور المغربية المواجهة للأندلس [٢٠] . وهكذا أصبحت البحرية الأموية قادرة على الملاحة فى مضيق جبل طارق بحرية وعلى التدخل فى سياسة المغرب الداخلية ، وعامل إثارة للقبائل والقوى ضد السلطة الفاطمية ، وإرهاب ولاتهم ، وكل ذلك شجع على الثورات والحركات ضد السلطة الفاطمية وأقلقها .

وعندما انتقل الناصر من الدفاع إلى الهجوم ، نفذ بقراته إلى شمال المغرب الأقصى ، وأخذ يشكل عامل ضغط كبير على السياسة الفاطمية، بحالفته ومصانعته العديد من القوى، التى كانت قد تأذت من الوجود الفاطمى، كالأدارسة ، وقبائل زناته ، وإمارة نكور مركز التجمع الكبير لبنى صالح من العرب، ومن حمير، والمتعصبين ضد التيارات الإسلامية الأخرى كالخوارج والشيعة لكونهم من المالكية . وقد أمد الناصر هذه القوى جميعها بالمال والسلاح وخطط لها عملها الثورى ضد الفاطميين .

كذلك عمل الناصر على إحياء التناقضات الكبيرة فى البنية الاجتماعية فى بلاد المغرب ، وتنمية الأطماع السياسية المعقدة الأطراف، وظهرت نتائج كل ذلك بقيام أكبر ثورة زناتية قرية فى بلاد المغرب، وغطت نفسها بغطاء مذهبى وتجمعت حول رجل عنيد خلقته تلك الظروف والأجواء المعقدة فى المغرب وهو (أبو يزيد مخلد ابن كيداد) الذى ثار ضد الخلافة الفاطمية وظهر منذ ٣١٦هـ / ٩٢٨م[٢١] كأخطر قوة ضدها فى بلاد المغرب إذ سعى إلى اقتلاعها من الجذور وإبعادها عن المغرب بأكمله، وهذه القوة الخارجية المدعومة من قوى محلية مغربية كبيرة ومتنوعة أيدها الناصر الأموى بكافة إمكاناته الواسعة ووسائله المختلفة ولاسيما تمويلها ، حيث تؤكد النصوص والنقود أيضًا أن جل تموين هذه الثورة كان من قرطبة. وهناك دنانير تأكد أنها كانت تضرب فى قرطبة باسم هذا الثائر (أبى يزيد) . وربما يفسر ذلك نجاح هذه الثورة فى التصدى للفاطميين فى المغرب وفى عدته وبوادره . وشملت هذه الثورة جزءا كبيرًا من بلاد المغرب ، وشغلت الفاطميين ، وكادت تدك معالم الدولة الفاطمية وتنهى وجودها . واستمرت

دون توقف طيلة فترة حكم خليفتين هما القائم والمنصور، واستمرت حتى سنة ٣٣٦هـ ٩٤٧م، ووصلت إلى أسوار المهدية وأجبرت الكثير من الأهالى على الهجرة إلى الشرق والغرب. ولولا تغير الظروف المحيطة بقائدها ، وتحول بعض مؤيديه للفاطميين[٢٢]، وأمور أخرى أدت إلى مقتل هذا الثائر وانتهاء ثورته ، لتغيرت مسيرة الدولة الفاطمية وانهارت منذ ذلك التاريخ الذى انحصرت فيه هذه الثورة التى خلقت جوًا مكفهرًا مليئًا بالتشابك والتعقيد للفاطميين . ولم يكن هذا التحالف الأموى الخارجى يقوم على أساس عقائدى بقدر ما كان يستند إلى المصالح السياسية والصراعات القائمة . وتدلنا السفارات التى كان يرسلها (أبو يزيد) إلى الناصر الأموى يخبره فيها بهزائم الجند الفاطمى وبانتصاراته ومن ثم الدعاء له فى جميع البلدان التى خضعت له ، والتى شملت معظم الأملاك الفاطمية ، على عمق العلاقات ومدى التعاون الكبير على الرغم من العداء الأموى الخارجى العقائدى القديم والجديد الذى لايمكن أن يحقق أى انسجام فكرى مشترك .

ومن الواضح أن هذا التعاون قام ضد عدو مشترك وكان يشكل لكل من الطرفين الأموى والخارجى عمقًا كبيرًا ومرتعًا خصبًا . فالأندلس تشكل العمق الواسع لثورة أبى يزيد وقدها بكل وسائل المساعدة والقوة، ولهذا كان توجهه منسجمًا مع مصالحه الخاصة والوطنية لا إيمانًا بالأفكار الأموية ونظرتهم السياسية والفكرية .

هذا إلى أن القوى المحلية من مالكيه وغيرها لم تساعده إيمانًا واقتناعًا وحبًا له بل انسجامًا مع مصالحها وعدائها للفاطميين وتوجهاتهم .

وربما كانت أكبر مأساة لهذا الصراع الأموى الفاطمى التحول إلى الصراع العسكرى ومهاجمة الأساطيل البحرية الفاطمية والأموية بعضها بعضًا وغزوها للموانئ الإسلامية فى كل من الأندلس والمغرب .

غير أن أكبر الأخطاء الأموية وأعظمها تأثيرًا وأخطرها ضررًا على المصالح العامة العربية والإسلامية نجوء الناصر وغيره من الخلفاء الأمويين فى الأندلس إلى سياسة مصاهاة العدو البيزنطى وإقدامهم على عقد التحالفات مع أعداء الدولة الفاطميين ، من ملوك أوربا والشرق[٢٣] .

ولم يقف هذا التعاون بين الناصر وخلفائه على إبرام الاتفاقات مع ملوك الدول المعادية للفاطميين أمثال ملك إيطاليا (هوج دى بروفانس) ، ومع الامبراطور البيزنطى (قسطنطين

السابع) الذى عظم حقده على الفاطميين، وكان يأمل بعودة سيطرته ونفوذه فى البحر المتوسط كامله وعلى جزره كافة[٢٤] وبخاصة صقلية أهم وأكبر وأعظم جزيرة تأثيرا على الملاحة والتجارة فيه.

وإذا كانت المصادر الأندلسية تكتفى بالإشارة إلى التحالفات السياسية والاستقبالات الفخمة والهدايا الكبيرة للناصر وخلفائه لرسل بيزنطة فى سنتى (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م (٣٤٨هـ / ٩٥٠م) فإن المصادر الفاطمية الإسماعيلية تؤكد وجود اتفاقات عسكرية وحربية مشتركة بين الأمويين والبيزنطيين [٢٥].

ولم تهدأ المنازعات بين الأمويين والفاطميين ، إذ استمر الناصر يثير المتاعب ضدهم ويحد من نشاطهم ، ومنعهم من الاستقرار حتى قيل عن الخليفة المنصور أنه لم ينعم بيوم واحد طيلة فترة خلافته ، وكل ذلك توخى الحكم الفاطمى ووقف حائلاً حيال تحقيق أهدافه ، وأجبره إلى صرف الإمكانات الكبيرة لإخماد الفتن والثورات كما عدل الفاطميون عن التوجه إلى الأندلس، وشعروا باستحالة ذلك، واقتنعوا بأن وجودهم فى المغرب العربى أمر محفوف بالمخاطر وأن الاعتماد عليه ضرب من المحال . لهذا أخذوا يعملون جديًا بالتوجه نحو الشرق ، وبدأ الخليفة المعز يعيد سياساته وخططه[٢٦].

وقد يكون من أولى النتائج المباشرة لهذا التناقص الأموى الفاطمى احتدام حدة الثورات ضد الفاطميين وبخاصة الخارجى منها ، وهى التى أنهكت القوة الفاطمية واستنفدت الأموال الباهظة التى صرفت لإعداد الجيوش . كما ساهمت هذه الثورات بالقضاء على نخبة ممتازة من القادة العسكريين ، وجعلهم هلكوا فى عاصفة ثورة أبى يزيد ، ولم يبق منهم إلا قلة وعلى رأسهم القائد جوهر ، وبعض العناصر من جند صنهاجة وقائدهم «بلكين بن زيرى »[٢٧].

وكانت الخطط الفاطمية الجديدة فى عهد المعز تقوم على أساس التفكير بجمع قوة عسكرية كبيرة والإكثار من الجيوش ، وزيادة القروض والضرائب المالية لتعويض ما ضاع ، ولسد الحاجة الناجمة عن الرغبة فى تجييش الجيوش وإخماد الفتن ، والتوجه نحو مصر . وكل ذلك دفع بالخلافة الفاطمية إلى ممارسة عمليات الغزو والسلب[٢٨]. وهذه السياسة المالية والعسكرية أربكت الحكم الفاطمى ووضعته فى حرج ، وزادت فى اتساع الفجوة بينهم وبين أهالى المغرب، ورغب كل من الطرفين فك العقد فيما بينهم ، حتى نجح الفاطميون فى غزو مصر .

واستمرت العلاقات بين الفاطميين فى مصر والأمويين فى الأندلس على حالتها من العداء ، فى حين سمحت هذه النقلة الفاطمية إلى مصر للأمويين أن يتنفسوا الصعداء ، وتهدأ خواطرهم وهواجسهم من جانب الفاطميين ، ويتحركوا بحرية، ويتسع نفوذهم فى المغرب. وظهر ذلك فى الحملة العسكرية التى أرسلها الحكم الأموى من قرطبة فى سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط للقضاء على الدعوة الفاطمية ، وإنهاء الوجود الفاطمى، حيث تمكنت هذه الحملة من بسط سلطان الأمويين إلى حين على تلك المناطق ، وخرجت معظم القوى على الطاعة الفاطمية وعلى رأسها مغراوة ومكناسة ، وأقام هؤلاء وغيرهم الدعوة للخليفة الأموى وخطبوا له فى مساجدهم[٢٩].

وقد أرسل الخليفة الأموى الناصر الكتب والرسل إلى حاضرة الخلافة الفاطمية المهدية فى المغرب ، يدعوهم إلى الصلح والموادعة ، ولكن الخلافة الفاطمية لم تستجب إلى الطلب الأموى، وكان رد الخليفة المعز قويًا معبراً عن أحقيتهم بالخلافة ، وعلم الاعتراف بالخلافة الأموية وشرعيتها سواء فى دمشق أو قرطبة، وقد رد المعز على خطاب الناصر بكتاب جاء فيه : (وهو يزعم أنه أمير المؤمنين – كما تسمى دون من سلف من آبائه، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله ونحن نقول : إننا أهل ذلك دونه ودون سواه.. وما أنا بالمراهن فى دين الله ولا بالراكن بالمودة إلى أعداء الله ... فما له عندى سواء ، وما لى من الأمر من شئ ، إن الأمر كله لله ...) [٣٠].

وكذلك أرسل الحكم المستنصر ابن الناصر الأموى إلى الفاطميين وإلى العزيز بن المعز فى مصر كتابًا يدعوه فيه إلى الموادعة ، غير أن الخليفة العزيز رد عليه رداً قبيحًا ، وعندما وصل جوابه إلى الحكم المستنصر كتب إليه الخليفة الأموى قائلاً له[٣١]: (وقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك) مشيراً بذلك إلى النسب الفاطمى والطعن فيه.

واستمر الأمويون فى الأندلس يعملون بكل جهودهم لإضعاف الفاطميين وحصارهم ، ولم يتركوا فرصة سانحة إلا واستغلوها من أجل ذلك . ولقد تجلى ذلك فى أقوى صور التدخل المباشر فى الثورة التى أشعل نارها (أبى ركوة)[٣٢] الوليد ابن هشام بن عبدالملك بن عبدالرحمن الأموى ، وهذا الثائر الأندلسى المولد والنشأة ، تنقل فى المغرب ومصر حتى استقر فى إقليم البحيرة مستفيداً من العداء بين بنى قرة والحاكم الفاطمى ٣٨٦- ٤١١هـ / ٩٩٦-١٠٢٠م) وهناك أعلن ثورته متطاولاً على الخلافة الفاطمية ، وبايعه بنو قرة بالخلافة

فاقطعهم أعمال مصر ودمياط وتنيس والمحلة . والتف حوله حشد كبير من الأعوان والأعراب واليدو، وضرب السكة باسمه وأظهر الرفق والعدل وهرعت له الوفود، وكما هددت ثورة أبي يزيد الخارجية الوجود الفاطمي في بلاد المغرب وكانت شرة الصراع الفاطمي الأموي، كذلك كانت ثورة أبي ركوة في مصر حيث أقلقت «الحاكم» وهددت حكمه ، وأخافت الناس وأنزلت الرعب في القلوب وخشي «الحاكم» على نفسه وحكمه وتوارى عن الأنظار ، ولم تنته هذه الثورة إلا بعد أن لجأ الحاكم إلى الحيلة ، كما أن نتائجها الاجتماعية والسياسية والعسكرية والاقتصادية كانت مشابهة للثورة الخارجية في بلاد المغرب ، وربما كان تأثيرها في مصر أعظم وأهم على النواحي الاقتصادية والبشرية، كونها هددت الأمن والاستقرار وذهب ضحيتها المقاتلون الكبار أمثال نيال الطويل التركي وأعداد غفيرة من جيشه ، وقطعت المؤن عن الفسطاط والقاهرة، وهددت الطرق التجارية في مصر وزادت في الأزمة الاقتصادية وشدتها في عهد الحاكم الفاطمي .

وقد رافق هذا التنافس بين الفاطميين والأمويين استنزاف الأموال الكثيرة وصرفها بغية تمويل هذه الحروب ودعمها والإنفاق عليها، وصرف الأموال الطائلة على أثر هذه السياسة مما أثر تأثيراً كبيراً على مالية الدولة الأموية ، وعمل على زعزعة جبهتها الداخلية[٣٣].

ولأول مرة تتوجه الثغور الإسلامية لمواجهة بعضها بعضاً[٣٤]. وشهدت هذه الحروب في المغرب الأوسط والأقصى أشبه باستنزاف كبير يبتلع الأموال والرجال من دون نتيجة ، وتفرقت السبل بهاتين الخلافتين، ومضت كل منهما في اتجاه مختلف متوهمة أنه يؤمن لها مصلحتها ، وربما دفع هذا التنافس بأوربا لتحلم باستعادة الأندلس وتتطلع إلى الشرق وغزوه .

وأقدم الفاطميون في المغرب على تسخير إمكاناته البشرية والمادية لتنفيذ مآربهم التي استنفدت الطاقات المختلفة ، مما دفع ببعض الباحثين إلى الحكم عليهم فوصفهم بالقسوة والعنف[٣٥] ، وبتفتيت المغرب وقبائله ، وعدهم مارقين عليه وعلى تاريخه ، ورأى أنهم عصفوا بكل ما فيه[٣٦].

وكانت النتيجة الحتمية لكل ما سبق توسيع الخلاف القبلي وتعميقه مما أثر في مجريات الأحداث التاريخية اللاحقة. وبذلك غرس كل من الأمويين والفاطميين البذور الكثيرة التي أنبتت المزيد من التشتت والانقسام لشعب المغرب والمشرق وزادت في مشاكله[٣٧].

كذلك كان من نتائج هذا التنافس تنامي القوى المحلية نتيجة للحاجة لها فتطلع قادتها إلى السلطة وتلذذوا بطعمها . وهكذا ظهر العديد من الحكام والأفراد المحليين ومن أهل البلاد الأصلية وتفوقوا على الحكام من المشارقة وغدا جميع حكام المشارقة والمغاربة يستمدون سلطتهم الشرعية من خليفة فاطمي أو أموي .

هذا فضلاً عن أن هذا الخلاف أجج الصراع المذهبي ، وساهم مساهمة فعالة في تعميقه وكل ذلك زاد في حدة الصراع والتناقض والانقسام .

ولاشك أن التوجه الأموي صوب المغرب، واختلاط جيشهم بالمغاربة وقواه زاد في التعرف على العديد من القادة والقوى العسكرية المحلية، وانخراط العديد منهم في الجيش الأموي، وشكل هؤلاء قوة فعالة قامت بدورين هامين الأول الاشتراك في القتال كقوة مساندة ، ومؤازرة للجيش الأموي المقاتل في الشمال الأندلسي ، وتحقيق بعض الانتصارات ضد قوى الاسترداد الأندلسية الشمالية . والثانية المساهمة في تفتيت الجيش الأموي وضرب لحمته وظهور فئة جديدة أسهمت في زيادة فتنته واضطراباته ، مما أدى في النهاية إلى ضعفه[٣٨].

ولم تكن أسباب هذا الصراع وجيهة ومقبولة لأنها تذرعت بالدين . وما يرتبط به من اجتهادات وتفسيرات هي في جوهرها بعيدة عن أرض الواقع والحقيقة. وربما كان هذا التنافس من أسوأ الأحداث تأثيراً في التاريخ العربي الإسلامي، لما رافقه فيما بعد من نتائج أسهمت في تحقيق المصالح الأجنبية على حساب المصالح الإسلامية.. وكانت المصلحة العربية الإسلامي تقتضي توحيد الجهود المشتركة ضد الأعداء المتربصين بالأمة والمتطلعين لإنهاء النشاط الفاطمي والأموي على حد سواء .

لقد كانت المجابهة الإسلامية لجميع الأعداء رغم كثرتهم ممكنة، ومستطاعة ، وذلك بعد عملية توحيد المغرب من قبل الفاطميين، والسيطرة على الأندلس تحت ظل النفوذ الأموي، لكن بدلاً من السير والتوجه على هذا الطريق، الذي يجمع ويوائم بين القوتين، بدأت المنافسة وحل التنابذ بين الطرفين ، ولم يتذكر هؤلاء أنهم أبناء رسالة جعلت منهم أمة تقوم أساساً على رابطة الإخاء والعقيدة الإسلامية لا على رابطة العداء والدم والقتال .

وكانت المحصلة النهائية على حساب الصراع الفاطمي البيزنطي في حوض البحر المتوسط والسيطرة على جزره ولاسيما كريت وصقلية ، وكذلك على حساب النزاع بين الأمويين والممالك المسيحية والفرنجية في الشمال الأندلسي من ناحية أخرى .

المصادر والمراجع

١- أنظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ، ومصر ، وسورية، وبلاد العرب. ص٣١ ، ٣٧ ، ٣٨ ، مكتبة النهضة المصرية ط١ ١٩٨١- وعبدالله المهدي ، ص٤١ ، ٤٤ .

- عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ص٧٠ وما بعدها، دار الفكر العربي ط٤ ١٩٩٤ .

- محمد جمال الدين سرور : تاريخ الدولة الفاطمية ص١٩ وما بعدها (دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٥) .

- مصطفى غالب : أعلام الإسماعيلية تاريخ وعقائد ص٤٦ / ٥٥ (لاهور باكستان إدارة الترجمان).

- عارف تامر : الإمامة في الإسلام ص٨٨ منشورات دار الكتاب العربي ومكتبة النهضة ببغداد- والمهدي ص١٢ / ١٣ / ١٤ / ١٥ / ١٦ دمشق ١٩٨٠ .

وانظر : للقريزي اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ص٢٢ إلى ٥٤ تحقيق الشيال ج١٢ القاهرة ١٩٦٧- ابن الأثير: الكامل : ج٨ ص١٠ وما بعدها .

ابن كثير البداية والنهاية ج١١ ص٣٤٦ .

- برنارد لويس : الدعوة الإسماعيلية الجديدة . ترجمة سهيل زكار بيروت ١٩٧١ .

- أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية تفسير جديد ص٣٠ / ٤٤ ط١ الدار المصرية اللبنانية١٩٩٢ .

٢- أنظر المصادر والمراجع السابقة وأنظر :

- أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية تفسير جديد ص٤٤ نقلاً عن اليعقوبي : كتاب البلدان (دار إحياء التراث العربي بيروت ط١٩٨٨) الصفحات ، ١٠٨-١٠٩-١١٢ . حيث يذكر أن العلويين أقاموا أكثر من عشر إمارات في بلاد المغرب .

٣- المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا الكتاب الثاني عشر ص٦٨ تحقيق الشيال القاهرة ، ١٩٦٨ كما يجب أن نتذكر كل من الداعيين الحلواني وأبو سفيان اللذين مهدوا الأمر لأبي عبدالله الشيعي وهم الذين غرسوا الأرض له : أنظر المقريزي: اتعاظ: الكتاب الثاني عشر ص٤١ هامش .

٤- أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص٢٣٥ (دار الفكر العربي بيروت ١٩٧١) ودراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص٥٢ الإسكندرية ١٩٦٨- وسياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد المجلدة الخامسة لسنة ١٩٥٧ .

- محمد علي مكي: التشيع في الأندلس ص١١١ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد لسنة ١٩٥٤ .

٥- وعن هذه الثورة أنظر : ابن خلدون العبر ج٤ ص٢٩٣- ٣٠٣ .

٦- العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص٦٨ وفي التاريخ العباسي والفاطمي ص٢٣٧ .

٧- ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب جزآن : تحقيق س كولان وليفي بروفنسال ط بيروت ١٩٨٣] ج١ ص٢٦٨ .

- عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الكبير ج٢ العصر الإسلامي (ط بيروت ١٩٨١) ج٢ ص٦٠٨ / ٦٠٩ .

- والعبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي ص٢٣٧ .

٨- راجع ديوان ابن هانئ الأندلسي ، تحقيق وشرح اليستاني ط. بيروت ١٩٥٢] وقد مات هذا الشاعر وهو في طريقه إلى مصر صحبة الخليفة المعز الفاطمي الذي حزن على وفاته وقال كنا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق. أنظر ص٢٣٧ العبادي المرجع السابق. دراسات ص٦٨ والسيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ج٢ ص٩-٦٠ . وأنظر كذلك : محمود مكي : التشيع ص١١١- عارف تامر : القائم بأمر الله ص١٠٩ الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين (دمشق ١٩٨٠) .

٩- أنظر : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب ج٢ ص١٠٨ - ومكي المرجع السابق ص١١٤- ابن حوقل : صورة الأرض ص١٠٤- ١٠٥ - العبادي: في التاريخ العباسي ص٢٣٦- ابراهيم بيضون : الدولة العربية في أسبانيا ص٢٩٠- ٢٩٣ بيروت ١٩٨٦ .

١٠- أنظر هذه الأحداث والتحالفات في كل من : ابن خلدون : العبر ج٦ ص١٥٥ وج٦ ص٩٠- ابن عذاري : البيان ج١ ص٢٧٨ - محمد بن تاويت : بزوغ الثقافة العربية في المغرب : مجلة تيودا تطوان ١٩٥٦- العبادي: دراسات ص٤٧ - ٩٤ - ١٩٤ السيد عبد العزيز سالم : المغرب ج٢ ص١٣٧ - ١٣٧٢- ٤٠٦ - ٤٦٧ - ٥٦٩- ٤٦٩- ٤٧٠- ٤٧١ .

- التشيع في الأندلس صحيفة المعهد المصري بمدريد ص١٢١ لسنة ١٩٤٥ - والاستقصا : ج١ ص٦٥ . والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ص١٣ (تحقيق محمد بن أبي شنب الجزائر ١٩٢٠).

١١- قامت الدولة الرستمية الخارجية الإباضية في المغرب الأوسط سنة ١٦٠هـ / ٧٧٧م ومؤسسها رجل فارسي الأصل هو عبدالرحمن بن رستم ، واتخذ الرستميون تاهرت عاصمتهم وتقع في مكان تيارت الحالية في ولاية وهران غربي الجزائر : أنظر سليمان الباروني النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة

وملوك الإباضية ج٢ ص١٤ / ٤٥ – ابن خلدون : العبر ج٦ ص١٥٥ – ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص٢٧٨ – محمد بن تاويت، بزوغ الثقافة العربية بالمغرب مجلة تطوان ١٩٥٩– العبادى : دراسات ٤٧ – السيد سالم: المغرب ج٢ ص٥٦٩ .

– والتشيع في الأندلس صحيفة المعهد المصري بمدريد ص١٢١ لسنة ١٩٤٥ – الشماخي: سير علماء جبل نفوسة ص١٢٣ .

١٢– العبادى : دراسات ص٦٨ – وفى التاريخ ص٢٣٧ .

١٣– ابن أبى زرع الفاسى : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار الملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس تحقيق (نشرة تورنبرج أبسالا ١٨٤٣م) – ابن الخطيب : أعمال الأعلام : ص٢١٠ (نشر ليفى بروفنسال القسم الخاص بالأندلس بيروت ١٩٥٦م) – عارف تامر: عبدالله المهدى: ص٩٠–٩١ – ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص٢٦٢– ابن خلدون العبر ج٤ ص١٦ ج٦ ص١٣٤ – البكرى: المغرب ص١٢٥ تحقيق دى سلان– الجزائر ١٩١١م– سعدون نصر الله : دولة الأدارسة فى المغرب والأندلس ص٢١ (بيروت ١٩٩٦) الاستقصاء :ج١ ص١٨٠– حسين مؤنس: تاريخ المغرب ص٤٢٨ .

١٤– أنظر المصادر والمراجع السابقة . سعدون نصر الله : دولة الأدارسة ص١٦ / ١٩ / ٢١ – حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته (طبعة بيروت ١٩٩١ وطبعة القاهرة ١٩٩٢) جـ١ ص٤٠٤ / ٤٠٥ / ٤١٩ وما بعدها – البكرى: المغرب ص١٢٥ – روض القرطاس : ص٨٠ – الاستقصاء ص١٨٢ – عارف تامر: عبدالله ص٩٢ .

١٥– أنظر : البكرى : المغرب ص١٢٥–١٢٦ – ابن عذارى : البيان ج١ ص٢١٢ : الاستقصاء : ج١ ص١٨٠ / ١٨٢ – العبر : ج٤ ص١٦ و ج٦ ص١٣٥ سعدون نصر الله : دولة الأدارسة ص٢٣ / ٢٥ / ٣٠ / ٣١ روض القرطاس: ص٨٠ / ٨١ / ٨٢ / ٨٤ .

١٦– ابن خلدون : العبر ج٦ ص٤٠ / ١٣٥ – روض القرطاس : ص٨٢ / ٨٥ / ٨٩ – أعمال الأعلام ص٢١٥ – سالم : المغرب ج٢ ص٤٩٦– عارف تامر : عبيدالله ص٩٤ . البكرى : المغرب ص١٢٨ – سعدون نصر الله : المرجع السابق ص٣٥ .

١٧– هذا ما تؤكده الأحداث السياسية والتحالفات الكثيرة بين القوى أنظر المصادر والمراجع السابق والتحالفات المختلفة .

١٨– ابن عذارى : البيان ج١ ص١٦٩– سالم : المغرب ص٦١٠ نقلاً عن البيان ج١ ص١٥٠– ٢٦٢ .

١٩– راجع القاضى النعمان بن حيون : المجالس والمسايرات ص١٦٨ ط تونس ١٩٧٨ – تحقيق الحبيب الفقيه ورفاقه . العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ص٢٣٩ .

٢٠– ابن عذارى : المغرب ج١ ص٢٨٢– سالم المغرب ج٢ ص٦١٠ / ٦١١ – العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ص٢٤٠ / ٢٤١ . ودراسات ص٧٢ – ثم احتلال مليلة سنة ٣١٤هـ– وسبتة سبتة وطنجة سنة ٣١٩هـ (نفس المرجع أن الناصر استولى على سبته فى عام ٣١٩هـ وعمل على تحصينها فشكها بالرجال واتقنها بالبنيان وبنى سورها بالكزان) أنظر رضوان البارودى : مقال فى التاريخ العباسى لمدينة سبتة : المجلة التاريخية المصرية مجلد ٣٦ سنة ١٩٨٩ ص٤٣ – وأنظر ابن عذارى: المغرب ج٢ ص٢٠٤ – أما مليلة– فيروى البكرى أنه استولى عليها منذ سنة ٣١٤هـ / ٩٢٧م .

٢١– ابن عذارى : البيان ج١ ص١٩٤ وج٢ ص٣١٩ / ٣٢٢ – أحمد بدر : تاريخ المغرب والأندلس ص١٣١ – حسين مؤنس : تاريخ المغرب ج١ ص٤٩٧ السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ج٢ ص٦٢٢ .

٢٢– ابن عذارى : البيان ج١ ص١٩٤ وما بعدها ج٢ ص٣١٩ / ٣٢٢ – أحمد بدر : تاريخ المغرب والأندلس ص١٣١ وما بعدها – العبادى: سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس – حسين مؤنس : تاريخ المغرب ج١ ص٤٩٧ – سالم : المغرب ج٢ ص٦٢٢ .

٢٣– القاضى النعمان : المجالس : ص١٦٤ / ١٦٥ – سالم : المغرب ج٢ ص٦١٢ / ٦١٣ – العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ص٢٤٤ نقلاً عن ميشيل أمارى المكتبة العربية الصقلية ص٣١٢ .

٢٤– ابن عذارى : البيان ج٢ ص٣١٨ / ٣٢٢ – العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ص٢٣٤– القاضى النعمان : المرجع السابق ص١٦٦ / ١٦٢ / ١٧٤ / ١٧٩ – حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص٤٠ .

٢٥– أنظر : المصادر والمراجع السابقة . القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ص١٦٩ / ١٧٤ / ١٧٦ – العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ص٢٤٣ .

٢٦– القيروانى : اتعاظ الحنفا ص٩٥ .

٢٧– وعن هذه الثورة أنظر : ابن عذارى: البيان ج١ ص١٩٤ . وج٢ ص٣١٩ / ٣٢٢– حسين مؤنس : تاريخ المغرب ج١ ص٤٩٧ – السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج٢ ص٦٢٢– أحمد بدر : تاريخ المغرب والأندلس ص١٣١ – أحمد مختار العبادى: سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس معهد الدراسات الإسلامية مدريد المجلد الخامس ١٩٥٧ .

٢٨– حسين مؤنس : المرجع السابق ج١ ص٤٨٨، وعن سياسة الفاطميين المالية تجاه المغاربة يمكن العودة إلى: محمود إسماعيل : ودود الفصل المغربية تجاه سياسة الفاطميين المالية، مكناس ١٩٨٤– وأنظر

سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج٣ ص١١٦ / ١٢٤ الإسكندرية ١٩٩٠ - القاضي النعمان : المجالس : الصفحات السابقة وما بعدها .

٢٩- ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٤٦ / ١٤٧ .

٣٠- القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ص٢٣٠ / ٢٣٤ .

٣١- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص١٥٢ .

٣٢- وعن هذه الثروة وأحوالها ونتائجها يمكن العودة إلى أبي الفداء : المختصر ج٤ ص٣١ وبيروت ١٩٦٠) - ابن الجوزي: المنتظم ج٧ط تركيا ١٣٥٨هـ)- أبو المحاسن : النجوم ج٤ ص٢١٥ / ٢١٧ - المقريزي : اتعاظ ج٢ ص٦٠ ، القاهرة ١٩٧١م - الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٣ ص٦٢ وتحقيق أيمن فؤاد سيد ، الكويت ١٩٦١م - ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٢١ ، بيروت ١٩٨٣م - الكامل ج٩ ص٢٠١ / ٢٠٢ - النويري : نهاية الأرب ج٢٦ ص٥٤ / ٥٥ - المخطي الآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة : ص٣٩ وط١ منشورات معهد المخطوطات الكويت سنة ١٩٨٥م.

٣٣- حسن مؤنس : تاريخ المغرب ج١ مجلد١ ص٤٨٨ بيروت ١٩٩٢ .

٣٤- ابن عذارى : المغرب ج١ ص٢٨٢ ج٢ ص٢٠٤ - سالم - المغرب ج٢ ٦١٠ / ٦١١ / ٦١٣- العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص٢٤٠ / ٢٤١ - ودراسات ص٧٣ - وضوان الباروني: مقال التاريخ السياسي لمدينة سبتة المجلة التاريخية المصرية مجلد ٣٦ سنة ١٩٨٩ ص٤٣ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص٩٢ ، ط٤ ١٩٨١ القاهرة - القاضي النعمان : المجالس ص١٦٤ / ١٦٥ - محمد جمال سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص٣٠ القاهرة ١٩٧٧ .

٣٥- حسن مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ص٤٤٩ بيروت ١٩٩٢ .

٣٦- اتعاظ الحنفا : ج١ ص١٠ وما بعدها جمال سرور : الدولة الفاطمية ص١٥٤ وما بعدها - عارف تامر : المهدي ص١٢ دمشق ١٩٨٠ ، المجالس والمسايرات ، ومن كتب عن الفاطميين ...

٣٧- أنظر : موقف ابن حفصون من الفاطميين ، توجه الأمويين إلى الخوارج ، ثورة أبي يزيد- توجه الأدارسة إلى الأمويين ضد الفاطميين .. الخ .

٣٨- أنظر المراجع السابقة : حسين مؤنس : ص٤٨٨ وما بعدها ، السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ص٦١٢ وما بعدها .

د محمد بركات البيلي(*)

استيلاء الفاطميين على مصر

ارتبطت بلاد المغرب ومصر في العصر الإسلامي بعرى وثيقة دينية وثقافية واجتماعية واقتصادية ، لكن العلاقات السياسية بينهما قبل العصر الفاطمي لم تزد كثيراً عن اشتراكهما في التبعية للدولة الخلافة الإسلامية كولايتين من ولاياتها ، وعلى الرغم من أن بلاد المغرب قد فتحت من جهة مصر وشارك المصريون في فتح المغرب جنداً وقادة ، وكان موسى بن نصير - فاتح المغرب- تابعاً لعبد العزيز بن مروان أمير مصر، فقد قطع موسى بن نصير هذه التبعية عقب وفاة مولاه عبد العزيز واستقل بولاية المغرب عن عبدالله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر وجعل ولاية أفريقية والمغرب تابعة لدولة الخلافة رأساً وأقره على ذلك الخليفة الوليد بن عبد الملك[1] ولم تعد بلاد المغرب إلى التبعية لمصر بعد ذلك- ولأكثر من قرنين - إلا نظرياً حينما كان بعض الخلفاء يجمعون لبعض الولاة ولاية مصر وأفريقية[2] لكن عمل مصر من الناحية الفعلية لم يتعد إدارياً حدود برقة التي ضمها يزيد بن حاتم المهلبي إلى مصر سنة ١٤٨ هـ[3]، ويرجع الفضل إلى الفاطميين في وضع العلاقات السياسية بين بلاد المغرب ومصر على المستوى اللائق بجوارهما الجغرافي من ناحية، وما بينهما من أواصر عديدة من ناحية أخرى .

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب- جامعة القاهرة .

وإذا كان الفاطميون قد بدأوا دولتهم في بلاد المغرب لاعتبارات عديدة منها بعدها عن مركز الخلافة العباسية في العراق وضعف قبضة العباسيين على بلاد المغرب لبعدها عن مركز دولتهم من ناحية واهتمام العباسيين بالمشرق الإسلامي على حساب المغرب من ناحية أخرى. وفضلاً عن هذا فقد كان الفاطميون يدركون مدى جنوح البربر إلى الثورة بعد طول تجاهل لطموحاتهم السياسية، لكن الفاطميين كانوا يضعون مصر نصب أعينهم منذ بداية دولتهم في أفريقية بل يمكن القول إن اهتمامهم بمصر سابق على قيام الدولة الفاطمية .

كان اهتمام الفاطميين بالاستيلاء على مصر راجعاً إلى عدة عوامل منها تمتع مصر بموقع استراتيجي هام في قلب العالم الإسلامي، فإذا كانت بلاد المغرب قد صلحت لابتداء الدولة الفاطمية باعتبارها من بلدان الأطراف في العالم الإسلامي فإنها لم تكن تصلح بأي حال من الأحوال كمركز لتحقيق الطموحات الفاطمية في منافسة العباسيين والإطاحة بهم ليحل الفاطميون محلهم في زعامة العالم الإسلامي ويتقلدوا الخلافة التي يرى الفاطميون أنفسهم أحق بها من العباسيين، ولم يكن يصلح لتحقيق هذا الطموح الفاطمي سوى موضع من قلب العالم الإسلامي يسهل منه التواصل مع سائر الأمصار الإسلامية[٤] ولما كانت معظم بلدان القلب الإسلامي قد شغلت من قبل بدول الخلافة ، فكان الحجاز مقراً للخلافة الراشدة وكانت بلاد الشام مقراً للخلافة الأموية وبلاد العراق مقراً للخلافة العباسية ، فلم يبق إذن من بلدان القلب الإسلامي سوى مصر ومن ثم كانت مصر موضع اهتمام الفاطميين حتى قبل قيام دولتهم في بلاد المغرب كما سبق أن ذكرنا ، ونزعم أن اختيار بلاد المغرب دون غيرها من الأطراف الإسلامية لتشهد بداية الدولة الفاطمية كان مقصوداً لسبب أساسي هو إمكانية التوجه منها بسهولة إلى مصر التي تطلع الفاطميون إلى أن يتخذوا منها المقر الدائم لخلافتهم وعلى ذلك فقد كانت أفريقية لدى الفاطميين مدخلاً إلى مصر مثلما كانت خراسان لدى العباسيين مدخلاً إلى العراق، وهذا يفسر اتجاه عبيد الله المهدي بعد فراره من سلمية إلى المغرب على الرغم من أن داعي دعاته المسمى فيروز كان يريد الذهاب إلى اليمن التي أقام فيها ابن حوشب كيانا اسماعيليا سابقا على الدولة التي أقامها أبو عبد الله الشيعي في أفريقية .

وفضلاً عن موقعها في قلب العالم الإسلامي فقد كانت مصر تتمتع بإمكانيات اقتصادية وبشرية قلما تتوافر مثلها في مصر إسلامي آخر، وكان أهلها يميلون إلى الدعة والصبر على الحكام على النحو الذي جعل عصر الولاة فيها يمتد أطول بكثير من عصور الولاة في سائر

الأمصار الإسلامية ومن ثم كان الفاطميون يتشددون في مصر الأمن والاستقرار الذي افتقدوه في بلاد المغرب منذ أول دولتهم يضاف إلى ما سبق أن الفاطميين كانوا يدركون أن الاستيلاء على مصر هو مفتاح السيطرة على نواح أخرى هامة من العالم الإسلامي كبلاد الشام بموقعها وإمكانياتها والحرمين الشريفين مكة والمدينة اللذين روج الفاطميون بشأنهما مقولة أن الخلافة الحقة هي التي تسيطر على الحرمين الشريفين .

لهذه الأسباب لم يتوان الفاطميون عن توجيه جهودهم للاستيلاء على مصر حتى أن أول خلفائهم عبيدالله المهدي أرسل إليها أولى حملاته بعد نحو أربعة أعوام فقط من تسلمه مقاليد الحكم . ولقد شكلت الحملات الفاطمية على مصر منذ بدايتها حتى استيلائها على مصر موجتين كبيرتين تشمل كل موجة منهما عدة حملات وتفصل بين انحسار الموجة الأولى وبداية الموجة الثانية فترة توقف اضطراري طالت لأكثر من ربع قرن بسبب انشغال الفاطميين بشئون المغرب ، ومع أن الموجة الأولى كانت أطول زمنيًا فقد كانت أقل فعالية من الموجة الثانية التي استفادت من عثرات الموجة الأولى وخبراتها .

بدأت الموجة الكبيرة الأولى من الحملات الفاطمية على مصر أول خلافة عبيدالله المهدي في سنة ٣٠١هـ . ولدينا عن هذه الموجة الأولى عدة روايات سنية واسماعيلية لكن الرواية الإسماعيلية جاءت أقل بكثير من المنتظر منها، فالقاضي النعمان في افتتاح الدعوة لم يزد عن إشارة عارضة في جملة قصيرة مجملها، أن القائم بن المهدي غزا مصر غزواتين ولم يحل بينه وبينها إلا النيل [٥]. وبينما أمدنا الداعي المطلق الاسماعيلي إدريس عماد الدين ببعض التفاصيل عن حملة سنة ٣٠١ هـ، فقد تجاهل ذكر الحملات التالية من هذه الموجة الأولى ولم يشر إليها إلا بأنه قد قيل إن القائم قد خرج إلى مصر مرة أخرى سنة ٣٠٩ هـ[٦] مع ملاحظة أنه خلط فيما رواه بين حملتي ٣٠١ ، ٣٠٩هـ . ولعل شح الرواية الإسماعيلية راجع إلى الإخفاقات التي لحقت بالحملات الفاطمية في هذه الموجة الأولى لكنها بذلك تركتنا نعتمد اعتماداً رئيسيًا على الروايات السنية مشرقية كانت أو مغربية .

مهد عبيد الله المهدي لأولى حملاته على مصر بتأكيد سلطة الفاطميين على طرابلس التي شقت عصا الطاعة عليهم سنة ٣٠٠هـ، فوجه ابنه القائم إليها في السنة المذكورة على رأس جيش تدعمه من البحر خمسة عشر مركبًا هي بعض الأسطول الذي ورثه الفاطميون عن الأغالبة ، لكن مراكب أهل طرابلس استطاعت حرق المراكب الفاطمية[٧] فلم يستطع القائم

إحكام حصاره لطرابلس فطال لنحو ستة أشهر[١٨] حتى تمكن من اقتحامها ثم عاد إلى أفريقية تاركا في طرابلس حامية فاطمية كان من كبار قادتها حباسة بن يوسف الكتامي .

وبعد أن أمنَّ الفاطميون باستيلائهم على طرابلس طريق الحملات إلى مصر وجه عبيدالله المهدي أولى تلك الحملات (٣٠١-٣٠٢هـ / ٩١٤-٩١٥م) وينتاب أخبار هذه الحملة خلط غير قليل[١٩] لكننا نستطيع القول- وفقا للرواية الإسماعيلية - أن عبيد الله المهدي أرسل الحملة في البداية بقيادة حباسة بن يوسف الذي كان قائداً لحامية طرابلس، فأمده المهدي بجيش وأسطول كبيرين فخرج بهما من طرابلس متوجها إلى مصر في ٢٥ جمادى الآخرة ٣٠١هـ[١٠٠] فاستولى حباسة في سرعة على سرت وأجدابية ثم دخل برقة في السابع من رجب من نفس العام[١٠١]، ويبدو أن هذا الاستيلاء السريع على برقة أنعش أمل المهدي في الاستيلاء على مصر فعجل أن يتحقق ذلك على يد ابنه القائم فأرسله ليتولى قيادة الحملة بدلاً من حباسة الذي مكث في برقة بضعة أشهر بينما خرج القائم من أفريقية في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٠١هـ ووصل إلى طرابلس في السادس من المحرم ٣٠٢هـ، ومنها كتب إلى حباسة أن لايبرح برقة حتى يصل إليه، لكن حباسة أراد أن يسبقه إلى شرف الاستيلاء على مصر فخرج إلى الإسكندرية ودخلها في الثاني من صفر ٣٠٢هـ وتوغل جنده في الداخل حتى أن خيله وصلت ذات الساحل[١٠٣] بينما كان القائم لايزال في سرت ولكنه وصل إلى الإسكندرية في فترة يسيره في منتصف ربيع الآخر ٣٠٢هـ[١٠٤] ويبدو أن حباسة قد استقبله خارج الإسكندرية مما جعل ابن عذارى يقول أن القائم دخل الإسكندرية ومعه حباسة القائد[١٠٥].

أصبحت قيادة الحملة- بطبيعة الحال- في يد القائم بن المهدي الذي بنى خطته على تقسيم الجيش الفاطمي إلى جناحين ، أحدهما- وهو الرئيسي- بقوده حباسة بن يوسف ليحارب المصريين من الموضع الذي وصلت إليه خيوله سابقا- ذات الساحل - ولذلك ترحل حباسة بين منشول وسقط[١٠٦] مما جعل الكندي- وهو المؤرخ المصري المعاصر للأحداث[١٠٧] يعتبر حباسة القائد الفعلي- بله الأوحد - لتلك الحملة الفاطمية . أما الجناح الثاني- وهو الأصغر- فقد ترلى قيادته القائم وتوجه به إلى الفيوم واستولى عليها لبحرم المصريين من مواردها تضييقًا عليهم من ناحية وليضع القوات المصرية بين فكي الكماشة من ناحية أخرى .

التقى حباسة بتكين أمير مصر يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الآخرة ٣٠٢هـ فيما بين الظهر والعصر، وقد انضم إلى جيش تكين كثير من المطوعة المصريين من الخاصة

والعامة على الرغم من الجهود التي بذلها دعاة الفاطميين وعيونهم لاستمالة المصريين إلى جانب الفاطميين ، وانتصر المصريون في بدء الجولة وفر أمامهم جند حباسة فاندفع جمع من المصريين خلفهم وعبروا خلفهم خليج برهة[١٠٨] فتمكن لهم جند حباسة وقتلوا منهم في ظلمة الليل نحواً من عشرة آلاف لكن كثرة القتلى لم تفت في عضد المصريين فأصبح الجند على مصافهم في اليوم التالي[١٠٩] ويبدو أن المواجهة بين تكين وحباسة قد استمرت أسبوعًا آخر قبل أن ينهزم حباسة ويقتل من جنده سبعة آلاف فيعود إلى بلاد المغرب يوم الخميس سلخ جمادى الآخرة[١١٠].

أثارت هزيمة حباسة أمام المصريين خلافًا في صفوف الجيش الفاطمي أدى إلى انسحابه عائداً إلى المغرب[١١١] حيث لقي المصير الذي توقعه ابن مهران الشاعر[١١٢] . ويذكر ابن عذارى أن القائم بعث من الفيوم قائداً يدعى أبو فريدن ليحل محل حباسة في القيادة على أن يلحق حباسة بالقائم في الفيوم فغضب حباسة لخلعه من القيادة عند أول كبوة ورحل إلى المغرب[١١٣] لكن الداعي الاسماعيلي إدريس يذكر أن القائم أرسل إلى حباسة يأمره بالتوقف عن الانسحاب لأن الخرب لم تبلغ إلى الهزيمة بعد فلم يأبه له حباسة[١١٤] . فارتبك الجيش الفاطمي في الوقت الذي وصل فيه مؤنس الخادم إلى مصر في رمضان ٣٠٢هـ فلم يجد القائم بداً من الانسحاب إلى أفريقية فرحل إليها بعد أن هاجم المصريون ساقته فأخذوا مضاربه وسلاحًا كثيراً [١١٥]. غير أن الداعي إدريس حاول مواراة هزيمة القائم فأطال بقاءه في مصر إلى سنة ٣٠٣هـ وخلط بين أعمال القائم في حملة ٣٠١-٣٠٢هـ وأعماله في حملة ٣٠٧-٣٠٩هـ، وزعم أن القائم قتل من المصريين خمسين ألفا ثم رحل إلى الإسكندرية في رجب ٣٠٢هـ وأقام بها بقية العام حتى وصل مؤنس الخادم في ٢٧ محرم ٣٠٣هـ (هكذا) فخرج القائم إلى الفيوم مرة أخرى في ربيع الأول ٣٠٣هـ ووافق ذلك موت ابراهيم بن كيغلغ (هكذا) فأقام بالفيوم وإلى أن ورد عليه كتاب المهدي يستنهضه إلى رقادة فرحل من الفيوم »[١١٦].

ظل عبيد الله المهدي على تطلعه إلى مصر وأخذ بعد المدة لإرسال حملة جديدة إليها فعمل على إثارة الاضطراب في أحوال مصر السياسية بواسطة أتباعه الذين قطن ذكا الأعور أمير مصر حينذاك إلى وجودهم فأخذ في ملاحقتهم وإنزال العقاب بهم فأقدموا على سب الصحابة على جدران المساجد مما أوقع الخلاف بين أهل مصر ولم يحسن ذكا الأعور معالجة الأمر فقصدت علاقته بالرعية[١١٧]، وبتحريض من المهدي وقع خلاف بين برير البحيرة وعامل الإسكندرية

المظفر بن ذكا[٢٥] مما زاد أحوال مصر السياسية اضطرابا ، وبادر المهدى فى سنة ٣٠٤هـ إلى الاستيلاء على برقة لتكون قاعدة انطلاق الجيوش الفاطمية إلى مصر بدلا من طرابلس ونجح قائده أبو مدين بن فروخ اللهيصى فى دخول برقة بعد أن حاصرها ثمانية عشر شهراً[٢٦] وأنزل بها عقابا شديداً خاف منه أهل لوبية وهراتية (د) فرحلوا إلى الإسكندرية مما زاد أمور مصر اضطرابًا واضطر ذكا الأعور إلى تكثيف الدفاع عن الإسكندرية[٢٧] ترقبا للخطر القادم من المغرب. وبعد أن أيقن المهدى من ملاءمة الأحوال فى مصر وأن الطريق إليها أصبح ممهداً أخرج ابنه القائم على رأس حملة فاطمية ثانية على مصر فصلت عن أفريقية فى مستهل ذى القعدة ٣٠٦هـ/ ٩١٩م، وحشد الفاطميون لهذه الحملة جيشًا وأسطولاً كبيرين أملا فى النجاح هذه المرة .

وانطلقت الحملة الفاطمية من برقة وعلى مقدمتها سليمان بن كافى الذى كانت له خبرة سابقة بمصر من خلال مشاركته فى الحملة الفاطمية السابقة ، واندفع سليمان بن كافى نحو الاسكندرية ففاجأ أهلها قبل أن يأخذوا أهبتهم فهربوا من المدينة بعد أن أدركوا عجز عاملها المظفر بن ذكا عن الدفاع عنها بسبب خلافه مع بربر البحيرة من ناحية وعدم وصول الإمدادات إليه من أبيه بسبب تمرد الجند وشغبهم عليه من ناحية أخرى فأخلى المظفر الإسكندرية ليدخلها سليمان بن كافى دون مقاومة فى الثامن من صفر ٣٠٧هـ[٢٨] ولحق به القائم فى معظم جند الحملة فنهبوا المدينة وأرسل إليه المهدى الإمدادات حتى اجتمع لديه من الجند «عدد يجل عن الإحصاء» على حد قول ابن عذارى[٢٩].

انتهج القائم خطة مشابهة لخطته فى الحملة السابقة فوجه سليمان بن كافى إلى الفيوم ولحق سليمان بالأطعمة فى الأنادر بعد الحصاد لم تخزن فانتهبها فى وقت كانت البلاد تعانى فيه من شدة اقتصادية فتفاقمت الشدة وغلت الأسعار فى الفسطاط والعسكر ووقع الوباء فى الناس رجلا كثير منهم[٣٠] خاصة أهل القوة واليسار الذين هربوا نحو الشام برًا وبحرًا[٣١] وازدات الأمور سوءا لمرض الأمير ذكا الأعور ووفاته فى الحادى عشر من ربيع الأول ٣٠٧هـ[٣٢] فظلت مصر بلا أمير يتصدى للحملة الفاطمية طيلة خمسة أشهر حتى قدوم تكين واليها عليها للمرة الثانية فى الحادى عشر من شعبان من نفس العام[٣٣] وتولى تصريف الأمور فى تلك الفترة عامل خراج مصر الحسين بن أحمد الماذرائى الذى داهن القائم وكتب إليه فى الإسكندرية يعده بتسليم مصر إليه بينما كتب إلى كل من تكين فى دمشق ومؤنس الخادم

فى العراق يستقدمهما إلى مصر بالجيوش للدفاع عنها[٣٤] . وبدلاً من أن يركز القائم جهده للاستيلاء على مصر التى ظن أنها لم تعد بعيدة المنال تطلع إلى الاستيلاء على غيرها فكتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى طاعته فلم يقبلوا[٣٥] إذ كانوا مستفزين ضد الفاطميين بسبب الدعاية المضادة التى روجها فى مكة نفر من المغاربة المعارضين للفاطميين مثل أبى عبدالله السدرى الذى جاهد الفاطميين فى أفريقية ثم هرب منهم إلى مكة فأقام بها يستنفر أهلها ومن يفد إليها فى الموسم ضد الفاطميين[٣٦] . وبينما كان القائم مشغولاً بدعايات الماذرائى ومكاتبة أهل مكة كانت الإمدادات العباسية تتوالى على مصر[٣٧] حتى وصل أبو منصور تكين فبادر إلى تجهيز الاستحكامات بالجيزة لمقاومة الحملة[٣٨] فى حين وصل الأسطول الفاطمى إلى الإسكندرية فى ثمانين مركبًا بقيادة سليمان الخادم الصقلى ويعقوب الكتامى[٣٩] لتدعيم الحملة الفاطمية، لكن الأسطول الفاطمى تلقى ضربه قاصمة تحطم فيها جميعًا حينما وصل أسطول عباسى صغير من خمس وعشرين مركبًا قادما من طرسوس بقيادة ثمل الخادم فتمكن هذا الأسطول العباسى الصغير بمعاونة من الريح من تحطيم الأسطول الفاطمى عند رشيد فى ٢٠ شوال ٣٠٧هـ / مارس ٩٢٠م[٤٠] وأسر ثمل الخادم قادة الأسطول الفاطمى وسائر رجاله فأطلق أهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقلية وأذن فى قتل الأسرى من كتامة وزويلة فقتل الجند والعامة منهم نحواً من سبعمائة[٤١] فانخفضت معنويات الجيش الفاطمى وتحرج موقف القائم فى الإسكندرية بعد أن قل الطعام فيها[٤٢] ولم يستطع القائم أن يختار من أفريقية بسبب تحطم أسطوله من ناحية ومن ناحية أخرى ما كانت تعانيه أفريقية عامذاك من شدة اقتصادية إذ كان بأفريقية وما والاها إلى مصر طاعون شديد وغلاء سعر[٤٣] فرأى القائم أن ينقل مركز عملياته إلى الفيوم فرحل إليها[٤٤] وجبى خراجها وغيرها من النواحى التى يبده[٤٥] بينما نشط أعوان الفاطميين فى مصر لمعاونته حتى أن جماعة منهم تعاقدوا على إشعال ثورة بالفسطاط فى آخر رمضان ٣٠٨هـ «لولا أن كشف أمرهم أمصر مصر تكين وتعقبهم»[٤٦].

اكتملت القوات العباسية فى مصر بوصول مؤنس الخادم فى الخامس من المحرم ٣٠٨هـ فتولى القيادة العليا وأخذ فى التصدى للحملة الفاطمية فى جبهتى الفيوم والإسكندرية فى آن واحد فبعث جنداً إلى الأشمونين بقيادة ابراهيم بن كيغلغ لكن ابراهيم فأجابته المنية فى مستهل ذى القعدة ٣٠٨هـ فأرسل مؤنس جنداً آخر إلى الفيوم بقيادة أبى قابوس محمود بن حمك الذى تمكن من قتل نفر من البربر وغنم بعض الغنائم ثم عاد إلى الجيزة ٣٠٩هـ[٤٧] وعلى الجبهة

الأخرى مضى ثمل الخادم فى مراكبه إلى الإسكندرية التى كان القائم قد ترك عليها فتح بن ثعلبة[٤٨] وأمره أن يتخذ من وسائل الدفاع ما يمنع عبور المراكب العباسية إلى الإسكندرية[٤٩] لكن ثمل الخادم نجح فى الدخول إلى الإسكندرية فهرب منها ابن ثعلبة فى المحرم ٣٠٩ هـ وعاد ثمل الخادم إلى الفسطاط[٥٠] ليشارك فى الهجوم الشامل الذى قرر مؤنس الخادم أن يشنه على القائم فى الفيوم براً ونهراً ، فأخرج ثمل الخادم فى مراكبه إلى اللاهون بينما سار مؤنس ومعه تكين فى عسكرهما إلى الفيوم وعلى مقدمتهما جنى الصقرانى، ولم يجد القائم بوسعه التصدى لهذا الهجوم الشامل فانسحب غرباً إلى تنهمت وأقنى[٥١] ثم رحل إلى برقة ومنها عاد إلى أفريقية[٥٢] فى رجب ٣٠٩هـ بعد أن ساءت أحوال جنده وعانوا من الغلاء والوباء ومات أكثر خيله ورجاله[٥٣] لتنتهى بذلك الحملة الفاطمية الثانية على مصر ٣٠٦-٣٠٩هـ .

وظلت نفس القائم معلقة بمصر فلم يكد يتولى الخلافة بعد وفاة أبيه المهدى سنة ٣٢٢هـ حتى أظهر اهتماماً عظيماً بإرسال الحملات إلى مصر، ففى غضون عام واحد من توليه الخلافة أرسل حملة بقيادة مولاه زيدان الخادم، وبالغ القائم فى تجهيز هذه الحملة والنفقة عليها، فانطلقت من برقة بعد أن انضم إليها جند الفاطميين هناك ودخلت الإسكندرية لكن محمد بن طغج الذى وصل إلى مصر والياً عليها فى رمضان ٣٢٣هـ / ٩٣٤م بادر بتوجيه أخيه الحسن بن طغج فى جيش من خمسة عشر ألفا تمكن من هزيمة هذه الحملة وأسر كثيراً من رجالها[٥٣] بينما عاد قائدها زيدان مفلولاً إلى أفريقية[٥٤] لكن القائم لم يتوان عن توجيه حملة أخرى فى العام التالى ٣٢٤هـ ليفيد من اضطراب أحوال مصر السياسية، إذ اتفق معارضوا أمير مصر محمد بن طغج وهم : جيشى بن أحمد قائد المغاربة بمصر وبجكم الأعور قائد المشارقة ونفر من القادة على اللحاق ببرقة وكتبوا إلى القائم يستأذنونه فى الدخول فى عمله ويسألونه أن يبعث إليهم بجيش يأخذون به مصر فإنهم يعلمون وجوه الحرب وكيف الوصول إليها[٥٥] فاغتنم القائم الفرصة وأرسل جيشاً بقيادة يعيش الكتامى، لكن جيشى بن أحمد توفى بناحية الرمادة[٥٦] فى صفر ٣٢٤ هـ قبيل وصول يعيش إلى برقة وتلقى بجكم الأعور الحملة الفاطمية وسار على مقدمتها حتى دخل الإسكندرية ، ثم تقدمت الحملة نحو داخل البلاد فتصدى لها الحسن بن طغج على مقربة من تروجة[٥٧] فى الخامس من جمادى الأولى ٣٢٤هـ وهزمها وقتل قائدها يعيش الكتامى وأسر من جندها الكثير بينما هرب بجكم الأعور ومن معه إلى برقة فسكن رمادة من عمل القائم الفاطمى[٥٨].

كانت حملة يعيش الكتامى ٣٢٤هـ نهاية للموجة الأولى الكبيرة من الحملات الفاطمية على مصر بغير نجاح ويرجع فشل هذه الموجة الأولى فى تحقيق أهدافها إلى عدة عوامل تخص كافة أطراف النزاع، فقد كانت الخلافة العباسية لاتزال قادرة على توجيه النجدات العسكرية لمساعدة ولاة مصر على التصدى للحملات الفاطمية ولم يكن أكثر المصريين قد تنطوا بعد من تردى أحوال بلادهم سياسياً واقتصادياً إلى الدرجة التى تجعلهم يقعون تحت تأثير الدعاية الفاطمية ويرون فى الفاطميين خلاصاً من ولاة العباسيين . ولم تكن ظروف الفاطميين فى بلاد المغرب لتساعدهم على النجاح فى هذه الموجة الأولى، فقد كانت قواهم موزعة بين هذه الحملات وإخماد الثورات العديدة التى اندلعت فى بلاد المغرب ولم تكن عوامل النجاح التى تهيأت لهم فيما بعد قد توفرت فى هذه المرحلة المبكرة من الحملات الفاطمية على مصر وما لبث القائم أن انشغل عن إرسال حملات جديدة إلى مصر بأحوال بلاد المغرب المضطربة خاصة ثورة صاحب الحمار أبى يزيد مخلد بن كيداد، لكن انشغال القائم عن إرسال حملات عسكرية لم يمنعه من محاولة تحقيق أطماعه فى مصر بوسيلة أخرى، فقد انتهج القائم سياسة التودد إلى الإخشيد ومحاولة استمالته بالمراسلات من ناحية وتنشيط الدعوة الفاطمية السرية بين المصريين من ناحية أخرى[٥٩]. فكتب إلى محمد بن طغج الإخشيد يستميله ويغريه بخلع طاعة العباسيين والدخول فى طاعة الفاطميين وبلغ فى إغرائه أن كتب له «شهد الله على ميلى إليك ورابشارى لك ورغبتى فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى»[٦٠] لكن الإخشيدى لم يغتر بهذا الكلام المعسول وتمهل فى الرد على العرض الفاطمى وإن كان غضبه من تزايد قوة محمد بن رائق الخزرى الطامع فى أملاكه وعجز الخليفة العباسى الراضى بالله عن ردعه جعل الإخشيد يفكر فى قبول العرض الفاطمى ورأى الإخشيد أن يختبر فكرة المشاركة التى عرضها القائم الفاطمى فعرض عليه تزويج ابنته من ولى عهده المنصور فكتب القائم إليه بقبول المصاهرة وأمره أن يمنح ابنته «من بيت مالنا قبلك مائة ألف دينار»[٦١] فأيقن الإخشيد أن القائم يريده تابعاً لاشريكاً ، وآثر الإخشيد مصلحته السياسية وتأثر بنوازعه المذهبية فظل على ولائه للخلافة العباسية الضعيفة ومهادنة الخلافة الفاطمية الطموحة ، ولعله كان من بين أهدافه وراء محاولة نقل الخلافة العباسية إلى مصر أن تكون سنداً له فى مواجهة الأطماع الفاطمية ولكن فشل المحاولة جعله يلتزم سياسة الموازنة بين الخلافتين ، والتزم كافور الإخشيدى من بعده بنفس السياسة فكان يداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء[٦٢].

ولم يهد المنصور بن القائم بعد توليه الخلافة اهتماماً كبيراً بالاستيلاء على مصر ، وكذلك فعل ابنه المعز لدين الله في أول خلافته، ولم يكن ذلك لأنهما مغربيا المولد والنشأة والميول كما يذهب البعض[٦١] ولكن لانشغالهما بتوطيد أركان الدولة الفاطمية التي زعزعتها ثورة صاحب الحمار مخلد بن كيداد وضبط أمور المغرب قبل التوجه إلى المشرق ، وهو الأمر الذي لم يغب عن فهم ابن خلكان فذكر أن المعز لدين الله أمر جوهر الصقلي أن «يتجهز للخروج إلى مصر فخرج أولاً إلى جهة المغرب لإصلاح أموره»[٦٢].

على أي حال ، فقد استأنف المعز أواخر خلافته جهود أسلافه للاستيلاء على مصر فيما يمكن تسميته بالموجة الثانية من الحملات الفاطمية على مصر وهي موجة كانت أقصر زمناً لكنها أكثر توفيقاً من الموجة الأولى وتكللت بالنجاح في تحقيق الأمل الفاطمي المنشود في الاستيلاء على مصر، لكن هذا النجاح كان رهينة ما جد من أوضاع في العالم الإسلامي .

فالدولة العباسية أصبحت عاجزة تماماً عن التدخل في مصر أو مد يد العون لمساعدة الإخشيديين والتصدي لأطماع المعز لدين الله الفاطمي في مصر كما فعلت قبلاً مع أسلافه إذ كانت الخلافة العباسية أسيرة نفوذ بني بويه الشيعة الذين يعتقدون أن العباسيين اغتصبوا الخلافة من العلويين كما دعا معز الدولة البويهي إلى التفكير في نقل الخلافة إلى العلويين لولا خشيته على سلطانه[٦٣] وليس أدل على عجز الخلافة العباسية من قول الخليفة المطيع العباسي لمعز الدولة بختيار البويهي – حين طلب الأخير منه مالاً بدعوى مجاهدة الروم – «ما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر فيه الأئمة وإنما لكم من هذا الاسم الذي تخطبون على منابركم تسكنون به رعاياكم فإن أحببت أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضاً وتركتكم والأمر كله»[٦٤] ومن ثم كان على الإخشيديين أن يتحملوا وحدهم عبء التصدي للفاطميين .

وأما المعز لدين الله الفاطمي فقد حرص قبل استئناف الحملات على مصر على تنشيط الدعوة الفاطمية في مصر من ناحية وجمع المعلومات عن مصر ومعرفة أخبارها أولاً بأول من ناحية أخرى، فبث الدعاة والعيون والجواسيس ، فكان الدعاة ينشرون الدعوة الفاطمية ويستميلون إليها العامة والخاصة[٦٥] واستعانوا على ذلك بالأموال والكسى، فقد عثر على دنانير فاطمية مضروبة في مصر قبل استيلاء الفاطميين عليها[٦٦] ويبدو أنها ضربت بواسطة الدعاة لاستمالة المصريين، ووجدت طرز فاطمية صنعت بمصر باسم المعز قبل استيلائه عليها[٦٧] أما العيون والجواسيس فكانوا يكتبون إلى المعز بأخبار مصر، وقد ذكر المعز أنه

كانت ترد إليه كتب من المشرق والمغرب يرد عليها بنفسه[٦٨]. وكان بلاط المعز لايخلو من رسل يفدون عليه يحثونه على غزو الشرق فيخبرهم أنه ينتظر الوقت المناسب[٦٩] وتسلل جواسيس المعز إلى داخل القصر الإخشيدي نفسه وأمدوه بأدق المعلومات[٧٠] ولم يكتف المعز بتلك المعلومات التي وصلت إليه عن طريق دعاته وعيونه وإنما أراد أن يختبر دفاعات مصر بطريقة عملية وأن يجرب طريقاً بديلاً للطريق المعتاد إلى مصر فأرسل في سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م حملة عن طريق الواحات يبدو أنها كانت حملة استطلاعية ومع أن كافور الإخشيدي تصدى لهذه الحملة وأجبرها على التراجع[٧١] إلا أنها لم تكن بغير فائدة ، فقد أدرك كافور الإخشيدي الخطر المحدق به من المغرب فأخذ يتودد إلى المعز الفاطمي ويهاديه[٧٢] وسمح لدعاته بمزاولة نشاطهم في مصر[٧٣] وبادر إلى أم المعز حينما علم بمرورها بمصر متخفية في طريقها للحج «فخدمها وحمل إليها هدايا وبعث في خدمتها أجناداً فلما رجعت من حجها منعت ولدها عن غزو بلاده»[٧٤].

توقف المعز عن إرسال حملات إلى مصر بعضاً من الوقت ولم يكن ذلك استجابة لرغبة أمه ولكن لأنه كان يعد العدة لإرسال حملة كبيرة فاصلة، ففي عام ٣٥٥هـ وبعد أن أدرك صعوبة اختراق مصر من جهة الواحات ، أمر المعز بحفر الآبار في الطريق المعتاد للحملات الفاطمية على مصر وأن يبنى في كل مرحلة قصراً[٧٥] والقصر بالمفهوم المغربي نوع من الحصون أي أن المعز كان يستعد لحرب لاتراجع فيها وأن يقاتل من مرحلة إلى أخرى إذا لزم الأمر «وأخذ المعز يدخر المال اللازم للإنفاق على هذه الحملة الكبيرة[٧٦] ثم أخرج جوهر الصقلي في سنة ٣٥٧هـ إلى جهة المغرب لإصلاح أموره وترسيخ السلطة الفاطمية فيه وتأمين ظهر الفاطميين من ناحية وجمع الجند للمشاركة في الحملة الفاطمية الكبرى على مصر من ناحية أخرى .

وبينما كان المعز لدين الله يعد العدة على هذا النحو انتظاراً للحظة المناسبة وصلته الأخبار بوفاة كافور الإخشيدي، الحجر الأسود الذي كان شيعة المعز بمصر يقولون إنه إذا زال «ملك مولانا المعز الدنيا كلها»[٧٧]. وقد أدت وفاته إلى اضطراب أحوال مصر السياسية والاقتصادية[٧٨] فمن الناحية السياسية تولى إمرة الإخشيديين غلام صغير لم يكمل الحادية عشرة من عمره هو أبو الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد الذي أصبح ألعوبة في أيدي البلاط ورجال الدولة واستبد بالحكم الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات الذي اختلف مع شمول الإخشيدي قائد الجند وطالب الجند الوزير أبا الفضل بأرزاقهم في الوقت الذي لم يؤدوا إليه ما

عليهم من أموال الضمانات فعجز عن إدارة الدولة وتخفى نحو شهرين ولم يعد إلى تصريف الأمور إلا بعد أن أخذ مراتيق الجند على الطاعة[٧٩] ولكنه أساء السيرة وقبض على جماعة وصادر أموالهم كان منهم يعقوب بن كلس الذى هرب إلى المغرب وحث المعز على غزو مصر وأخبره بكثير من عوراتها[٨٠] وكتب كثير من أهل مصر وجندها إلى المعز يحثونه على المسير إلى مصر وأخذها لعدم كفاية من يدير شئونها ، وكان الوزير أبو الفضل بن الفرات نفسه ممن كاتبوا المعز مداراة له[٨١] بل قيل إن منهم الحسن بن عبيدالله بن طغج – زوج فاطمة بنت الإخشيد وآخر من تولى تدبير أمور مصر من الإخشيديين – وقد قيل إنه دخل الدعوة الشيعية بتأثير الداعى أبى جعفر بن نصر أحد دعاة المعز بمصر[٨٢].

أما الأحوال الاقتصادية فى مصر فقد وصلت إلى أسوأ حالاتها فى السنوات الأخيرة من عمر الدولة الإخشيدية خاصة بعد وفاة كافور الإخشيدى التى فتحت باب الفوضى على مصراعيه فكثرت الفتن ونهبت الأسواق وأفرط الغلاء[٨٣] وتعذر القوت حتى بلغ الخبز كل رطل بدرهمين وبيع القمح كل ويبة بأكثر من دينار[٨٤] ويصف المقريزى حالة مصر فيقول : « كان فى عامة أرض مصر حينئذ من الشدة والغلاء والوباء أمر لم يعهد قبله مثله بحيث إنه أحصى من مات فى أيام يسيرة فكانوا ستمائة ألف إنسان ، وكانوا يلقون الغرباء فى النيل، وبلغ الفروج ديناراً والبيضة درهما وبيع الإردب من القمح بثمانين ديناراً مع كثرة الفتن وتغلب كل أحد من العمال وغيرهم على ما يليه واختلاف أهل الدولة بمصر من الإخشيدية والكافورية وكثرة تحاسدهم وعظم الخوف من هجوم القرامطة على مصر وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام فاختلت من أجل هذا وشبهه الأحوال بديار مصر واضمحت أمور الناس وتغيرت نياتهم وساءت معاملاتهم وفسدت أكثر أوضاعهم وشمل الخراب عامة أرض مصر لموت أهلها وقلة أموالها وتعذر وجود الأقوات وكثرة الخوف »[٨٥].

أدرك المعز أن الظروف قد أصبحت مواتية لإرسال حملته الفاصلة فجهز لها جيشاً قوياً وافر العدد والعدة يزيد على مائة ألف من كتامة وأصدق البربر فضلاً عن بعض العرب، احتشدوا خارج المنصورية وفتح المعز خزائنه وأغدق عليهم الأموال كل حسب منزلته فتراوحت أعطياتهم ما بين ألف دينار إلى عشرين دينار للفرد[٨٦] اشتروا بها حوائجهم من أسواق القيروان والمنصورية[٨٧] وجعل المعز على قيادة هذه الحملة أمهر قواده وأكثرهم كفاءة جوهر الصقلى الذى بلغت ثقة المعز فيه أن قال « لو خرج جوهر هذا وحده بسوطه لفتح مصر »[٨٨] وخرجت

الحملة من أفريقية فى وقت ملائم فى شهر ربيع ٣٥٨هـ فبراير ٩٦٩م[٨٩] وهو آخر فصل الشتاء لتقطع الحملة وحلتها حتى مصر فى فصل الربيع فلا تكابد برد الشتاء ولا حر الصيف. وأحاط المعز الحملة بمظاهرة دعائية فخرج لتوديع قائدها وأمر أولاده وأخوته وسائر رجال دولته أن يمشوا بين يدى جوهر وهو راكب وكتب إلى جميع من يمر عليه من العمال أن يترجلوا عند لقائه ويمشوا فى خدمته. وأنشد ابن هانئ الأندلسى شاعر المعز فى حفل خروج جوهر قصيدة عينية[٩٠] وأنفذ المعز إلى دعاته بمصر بنوداً ليقرؤوها فى أتباعهم وليبشروها حينما يقترب جيش جوهر من مصر[٩١] وسار جوهر فى الطريق المعتاد حتى تخطى الإسكندرية[٩٢] ويبدو أن الدعاية التى واكبت الحملة آتت ثمارها فقد وصل خبر الحملة إلى مصر وحينما قربت من الإسكندرية اجتمع الوزير أبو الفضل بن الفرات بوجوه الناس فى داره واتفقوا على مفاوضة جوهر وأرسلوا إليه وفداً بعض ممثلى الأشراف ورجال العلم : الشريف أبا جعفر مسلم الحسنى والشريف أبا إسماعيل إبراهيم الرسى الحسنى وأبا الطيب العباس بن أحمد العباسى والقاضى أبا الطاهر محمد الذهلى فالتقوا بجوهر الصقلى عند تروجه فى شعبان ٣٥٨هـ / ٩٦٩م وفاوضوه على تسليم مصر على أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم وأن يقيموا على مذاهبهم وشعائرهم فأجابهم جوهر إلى ما طلبوا وكتب لهم أماناً تعهد فيه بحرية العقيدة لكافة المصريين وبأن يصلح أحوال مصر وينشر فيها العدل ويقوم على حمايتها من المغيرين عليها[٩٣]. ولكن الجند الاخشيدية والكافورية رجعوا عن الرغبة فى مصالحة جوهر وعزموا على قتاله ظناً منهم أنهم يستطيعون مقاومة الجيش الفاطمى فنزلوا الجزيرة وسيطروا على جسرى الفسطاط والجيزة ليمنعوا عبور جوهر وجيشه إلى الفسطاط[٩٤] فوضع جوهر خطة محكمة لقتالهم وبدأ بإظهارهم بمظهر من يمنعونه عن المضى قدماً لمجاهدة الروم البيزنطيين ، واستصدر بذلك فتوى من القاضى الذهلى تحل قتالهم[٩٥] فتفكك الإخشيدية والكافورية تعاطف المصريين معهم ومعاونتهم فى قتال جوهر فلم نقرأ عن خروج العامة كما كان يحدث فى الموجة الأولى، وعبر بعض جند جوهر بقيادة جعفر بن فلاح النيل عند مخاضة منية شلقان وأخذوا المراكب الواردة من تنيس ودمياط والوجه البحرى[٩٦] فامتنع وصول المؤن إلى الفسطاط من هذه الناحية بينما أرسل جوهر جنداً بقيادة عبد العزيز بن هيج الكلابى فاستولى على الفيوم[٩٧] ليفرض جوهر بذلك ما يمكن تسميته حصاراً اقتصادياً فضج المصريون بعد أن عجز الكافورية والإخشيدية عن الدفاع عنهم وانهزموا عند أول لقاء بجند جوهر ففر بعضهم إلى المشرق واستأمن البعض الآخر[٩٨] فتزاحم المصريون على دار الشريف أبى مسلم الحسنى وطالبوه أن يسأل جوهراً إعادة

الأمان الذى سبق أن منحهم إياه، واستجاب جوهر لذلك حرصًا منه على استمالة المصريين وأرسل رسولاً من قبله طرف بالفسطاط مع صاحب الشرطة السفلى وجابر بن محمد الداعى فى موكب تدق فيه الأجراس ويرفرف عليه بند فاطمى كتب عليه اسم المعز ليعلن فى الناس الأمان[٩٩].

وفى السابع عشر من شعبان ٣٥٨هـ/ ٦يونيه ٩٦٩م، خرج الشريف أبو جعفر مسلم الحسينى والوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة وأهل العلم والشهود ووجوه التجار والرعية إلى الجيزة لاستقبال جوهر الصقلى[١٠٠] وعند زوال الشمس دخل جوهر الصقلى على رأس جيشه مدينة الفسطاط فى طبوله وبنوده ونزل بالموضع الذى بنيت فيه القاهرة، وتوالى دخول عسكره حتى تم فى سبعة أيام[١٠١]، وبذلك حقق الفاطميون أملهم فى الاستيلاء على مصر لينتقل إليها المعز لدين الله بعد نحو أربع سنوات ويتخذها مقراً للخلافة الفاطمية.

الهوامش

١- الكندى : الولاة والقضاة ، ص٦-٦٢ .

٢- نفس المصدر، ص١٠٣ .

٣- نفس المصدر، ص١١٦ .

٤- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص١١٢-١١٣ .

٥- افتتاح الدعوة ص٣٢٦ .

٦- الداعى إدريس : عيون الأخبار ، سبع ٥ ، ص١٣٦ .

٧- ابن عذارى : البيان المغرب، جـ١ ص١٦٩ .

٨- الداعى إدريس : المصدر السابق، سبع ٥ ، ص١٢٥ .

٩- تخلط المصادر بشأن قيادة الحملة، فالرواية المشرقية فى بعض مصادرها كابن الأثير (الكامل جـ٧ ص١٤٧) وابن خلكان (وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٩) والمقريزى (اتعاظ الحنفا ، ص٩٨) تجعل من تلك الحملة حملتين قاد أولاهما القائم بن المهدى سنة ٣٠١هـ الذى عاد مهزومًا فجاء بعده جياسة بن يوسف عن طريق البحر ٣٠٢هـ . لكن المقريزى (فى المقفى ص٣٩) يذكر أن جياسة دخل الإسكندرية فى ٨ محرم ٣٠٢هـ بعد أن استغرق وقتا غير قليل فى قتال عمال العباسيين على برقة وما حولها أى أنه خرج فى سنة ٣٠١هـ ، بينما يذكر أن القائم استولى على برقة فى ذى الحجة ٣٠١ (المقفى ص١١٥ والاتعاظ ص٩٨) وفى هذا تداخل بين الحملتين . لكن الكندى (الولاة والقضاة ص٢٦٨-٢٦٩) لايذكر القائم على الإطلاق ويجعل قيادة الحملة لجياسة بن يوسف دون غيره، وبينما يذكر الطبرى جياسة كقائد للحملة (تاريخ الطبرى جـ١٠ ص١٤٨-١٥٠) فإنه يشير إليه باعتباره قائد وصاحب ابن البصرى، وإذا فهمنا أن ابن البصرى هنا عبر القائم بن المهدى على النحو الذى يتضح من عبارة «جيش عبيدالله مع ابنه وقائده جياسة» الذى عرب بن سعد (صلة تاريخ الطبرى ص٥١) . عرفنا أن القائم وجياسة كانا معًا فى حملة واحدة . ويمتد الخلط إلى اسم القائد العباسى الذى تصدى لهذه الحملة، فهو عند ابن الأثير (الكامل جـ٧ ص١٤٧) والمقريزى (اتعاظ الحنفا جـ١ ص٩٨) مؤنس الخادم لكن المقريزى (المقفى ص١١٥) يذكر اسم تحرير الخادم بدلاً من مؤنس غير أننا نفهم من الكندى (الولاة والقضاة ص٢٦٩) أن تحرير الخادم وصل إلى مصر فى ربيع الأول ٣٠١ قبل قدوم الحملة الفاطمية وفى مهمة أخرى لاتتصل بالحملة ثم قدم القاسم بن جياسا إبان وجود الحملة بمصر فى ٢٠ صفر ٣٠٢هـ بينما لم يصل مؤنس الخادم إلا فى نصف رمضان ٣٠٢هـ فى آخر مراحل الحملة لأنه

لم يخرج من بغداد إلا في ربيع الأول من نفس العام وفقا لما ذكره مريب بن سعد (صلة تاريخ الطبري ص٥١) والهمداني (تكملة تاريخ الطبري ص٢٠٥) وقبله قدم إلى مصر أحمد بن كيغلغ في ٧ ربيع الأول ٣٠٢ هـ فشهد مع تكين أمير مصر واقعة حباسة بجيزة مصر (المقريزي: المقفى ص١٠٩) وفضلاً عن هذا فالتواريخ المذكورة فيها اختلاف كثير .

١٠- غمر البعض كالطبري (تاريخه جـ١٠ ص١٤٩) والمقريزي (المقفى ص٣٩) هذا الأسطول بمائتي مركب وفي هذا قدر كبير من المبالغة لاسيما وقد ذكر ابن عذاري (البيان المغرب جـ١ ص١٧١) أن محمد بن قرهب أحرق جميع مراكب عبيد الله المهدي بمرسى لمطة سنة ٣٠١هـ ومن قبل لم يزد الأسطول الفاطمي الذي صحب القائم في حملته على طرابلس سنة ٣٠٠هـ عن خمسة عشرة مركبًا .

١١- الداعي إدريس : المصدر السابق، سبع ٥ ص١٢٥ .

١٢- المقريزي : المقفى ص١١٥ .

١٣- الداعي إدريس : المصدر السابق، سبع ٥ ص١٢٦ .

- ذات الساحل قرية قرب رأس الشقا بين الجيزة وترنوط انظر عنها : ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٨٤ ، وابن حوقل صورة الأرض ص١٢٨) .

١٤- الداعي إدريس : المصدر السابق سبع٥ ص١٢٧ .

١٥- ابن عذاري: المصدر السابق جـ١ ص١٧١ .

(أ) مشتول وسقط : قريتان على مقربة من الجيزة . ويبدو أن مشتول زلبتة على مقربة من شطنوف قال عنها الإدريسي أنها قرية تجتمع بها مراكب الصيد. أما سقط فهي سقط أبي جرجا شرقي النيل ولعلها المعروفة الآن بسقط اللبن .

(ب) ولد الكندي سنة ٢٨٣هـ أي أنه كان قد تخطى التاسعة عشرة من عمره وقت قدوم الحملة إلى مصر.

(جـ) ذكر محمد البهلاوي فيما حققه من المقفى الكبير للمقريزي (ص٤٠) أنه لم يتعرف على خليج برهة لكن ابن حماتي في قوانين الدواوين ذكر اسم برهة أسفاس من أعمال الشرقية مما يرجح أن برهة موضع مسرح الأحداث قرب مشتول وسقط .

١٦- الكندي : الولاة والقضاة ص٣٧٠-٣٧٢ والمقريزي : المقفى ص٤٠-٤٢ .

١٧- الطبري : تاريخه جـ١٠ ص١٥٠ .

١٨- الطبري : المصدر السابق جـ١٠ ص١٥٠ .

١٩- قال : قفل خياسة إن كنت عنا مشت فإن تتلك ليس يعلى.

٢٠- ابن عذاري : البيان المغرب، جـ١ ص١٧٢ .

٢١- الداعي إدريس : المصدر السابق، سبع ٥ ص١٢٨ .

٢٢- ابن عذاري : المصدر السابق ص١٧٢ .

٢٣- الداعي إدريس : المصدر السابق ص١٢٨-١٣٥ .

- كان وصول مزنس إلى مصر في رمضان ٣٠٢هـ وكانت وفاة ابراهيم بن كيغلغ باليمن في ذي القعدة ٣٠٨هـ إبان حملة القائم الثانية على مصر .

٢٤- الكندي : المصدر السابق ، ص٢٧٤ والمقريزي : خطط جـ١ ص٦١٥ .

٢٥- الكندي: المصدر السابق ص٢٧٥ .

٢٦- ابن عذاري : المصدر السابق جـ١ ص١٧٣-١٧٥ .

(د) لربية وسراقية : مدينتان بين الإسكندرية وبرقة، وسراقية جهة الإسكندرية ولربية جهة برقة (أنظر ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٥ ص٢٥ ، ص٩٤) .

٢٧- الكندي : المصدر السابق، ص٢٧٥ .

٢٨- البيان المغرب ، جـ١ ص١٨١ .

٣٠- نفس المصدر ، جـ١ ص١٨٢ .

٣١- الكندي: المصدر السابق ، ص٢٧٥ والمقريزي: المقفى ص١١٦ .

٣٢- الكندي: المصدر السابق، ص٢٧٦ .

٣٣- نفس المصدر ص٢٧٦ .

٣٤- المقريزي، المقفى، ص٤٠ - ٤٨ .

٣٥- مريب بن سعد : المصدر السابق ص٧٧ وابن الأثير : الكامل جـ٦ ص١٦١ وابن الآبار الحلة السيراء جـ١ ص٢٨٧ ، وابن خلدون : العبر جـ٤ ص٤٧ والمقريزي : اتعاظ جـ١ ص٣-١ . والمقفى ص١١٦ .

٣٦- المالكي: رياض النفوس ، جـ٢ ص١٧٠ .

٣٧- وصل أبو قابوس محمد بن حماد ثم ابراهيم بن كيغلغ (الكندي: المصدر السابق ص٢٧٦) .

٣٨- الكندي: المصدر السابق ص٢٧٦ .

٣٩- ابن الأثير : الكامل جـ٦ ص١٦١ وابن خلدون : العبر جـ٤ ص٤٧ والمقريزي: المقفى ٤٥ ، ص١١٦ .

٤٠- الكندي: المصدر السابق ص٢٧٦ وابن خلدون : العبر ، جـ٤٧ والمقريزي: المقفى ص٥٢ .

٤١- الكندي: المصدر السابق، ص ص٢٧٦-٢٧٧ .

٤٢- ذكر الداعي إدريس (عيون الأخبار سبع ، ص١٣٣) قلة الطعام أثناء خلطه بين أخبار هذه الحملة والحملة السابقة .

٤٣- ابن عذاري : المصدر السابق ، جـ١ ص١٨١ .

٤٤- المقريزي : المقفى ، ص١١٧ .

٤٥- عريب بن سعد : المصدر السابق، ص٧٥ .

٤٦- الكندي: المصدر السابق، ص٢٧٧ .

٤٧- المقريزي: المقفى، ص١١٧ .

٤٨- ذكر الداعي إدريس في خلطة اسم فتح بن تعلبة لكن الكندي بذكره ابن بعلة .

٤٩- الداعي إدريس : المصدر السابق، سبع ٥ ص١٣٣ .

٥٠- الكندي : المصدر السابق ص٢٧٧ والمقريزي: المقفى ص٤٥-٤٦ .

(ها تنيست وأقفي: قريتان غربي مدينة الفيوم كانت تعرف بهما البحيرة التي تسمى الآن بحيرة قارون (ابن حوقل صورة الأرض ص١٤٧) .

٥١- الكندي: المصدر السابق، ص٢٧٧ وعريب بن سعد المصدر السابق ص٧٨ .

٥٢- المقريزي: اتعاظ ، جـ١ ص١٠٤ ، والمقفى ص١١٨ .

٥٣- ابن عذاري : المصدر السابق جـ١ ص٢٠٩ وابن الأثير والكامل جـ٦ ص٢٣٨ وابن خلدون : العبر ، جـ٤ ص٤٩ .

٥٤- المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص١٠٨ والمقفى ص١١٩ ، ص١٣٦ .

٥٥- الكندي : المصدر السابق ص٢٨٧ .

(أ) الرمادة : بلدة بين برقة والإسكندرية وهي أقرب إلى برقة (ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص٦٦) .

(ب) تروجة : قرية بمصر من كورة البحيرة (ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص١٢٧) .

٥٦- الكندي: المصدر السابق ص ص٢٨٧-٢٨ والمقريزي . المقفى ص١٠٧، ص١٣٢، ص١٣٩ .

- ذكر الكندي اسم عامر المجنون بين الأسرى وقد ذكره ابن عذاري في حملة زيدان الخادم وذكر اسم أبي زرارة الذي قد يكون هو أبو تازروت الذي ذكره الكندي في حملة يعيش مما يدعوا إلى القول بأن هناك تداخلا بين الحملتين لتقربهما زمنيًا أو لعل إحداهما امتداداً للأخرى بكونان حملة واحدة تمتد بين ٣٢٢-٣٢٤هـ .

٥٧- سيده اسماعيل كاشف : مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين ، ص٢١٦ .

٥٨- ابن سعيد «العيون الدامع في حلى دولة بني طفج ص ص٢٥-٢٦ .

٥٩- نفس المصدر، ص٢٧ . ومحمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ص٦٣-٦٤ .

٦٠- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٦ .

٦١- Dachraoui. F . Le califat Fatimide au Maghreb 296-- 362 / 909-973- Tunis, 1981, pp. 250-269 .

٦٢- وفيات الأعيان ، جـ٥ ص٢٢٦ .

٦٣- ابن الأثير ، المصدر السابق جـ٨ ص١٤٩ .

٦٤- مسكويه ، تجارب الأمم جـ٢ ، ص٣٠٧ .

٦٥- المقريزي: المقفى، ص٣٣٢ .

٦٦- Miles. G. Fatimid Coins, New York, 1952, p. 51 .

٦٧- أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر . ص٦٢ .

٦٨- المقريزي: اتعاظ جـ١ ص١٣٧ والخطط جـ٢ ص٢٥ .

٦٩- القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ، ص ص٤٧٥-٤٧٦ .

٧٠- المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٤٣ ، الخطط ، جـ٢ ، ص٢٧ .

- ذكر المقريزي أن أم الأمراء- زوج المعز- وجهت صبية ريتها لتباع في مصر وطلب فيها وكيلها ألف دينار كيلا تفتر العامة على شرائها ثم قبل أن يبيعها لابنة الإخشيد بستمائة دينار وعاد الوكيل إلى إفريقية وأخبر المعز ببيع الجارية . ومع أن المعز أول ذلك على أنه دليل على فساد الإخشيديين ونذير بضعف دولتهم وسقوطها فإننا نعتقد أن أم الأمراء لم تكن لتهتم بشريبة جارية لتباع في مصر دون غيرها من البلدان وللخاصة دون العامة وأن يهتم المعز بخبر بيع هذه الجارية إلا إذا كان لهذه الجارية شأن خاص هو التجسس على القصر الإخشيدي .

٧١- حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ص١٢٥ .

٧٢- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٦ .

٧٣- المقريزي: خطط جـ٢ ص٢٧ .

ومحمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص٦٥ .

٧٤- أبو المحاسن : المصدر السابق جـ٤ ص٧١ .

٧٥- ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص٧٥ والمقريزي: اتعاظ جـ١ ص١٣٨ .

٧٦- ذكر المقريزي (المقفى ص٣٢٨) أن المعز أمر جوهراً حينما أخرجه إلى المغرب ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م أن يأخذ على كل كورة مر عليها عدداً معلومًا كانت على حد تعبير ابن خلكان (وفيات الأعيان جـ٥ ص٢٢٦) فطابع على البربر ، وأمر المعز جوهراً في ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م أن يجبى من البربر خمسمائة ألف دينار (المقفى ص٣٢٩) ولذلك كثرت مدخرات المعز حتى أنه أودع لدى صاحب بيت المال صناديق بها عشرات الملايين من الدنانير أنفقت كلها على حملته الكبرى على مصر (المقريزي : اتعاظ جـ١ ص١٣٩ والخطط جـ٢ ص٢٦) .

٧٧- أبو المحاسن : المصدر السابق جـ٤ ، ص٧٢ .

٧٨- ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ص٥٧ .

٧٩- ابن خلكان : وفيات ، جـ١ ص٣٤٦ والمقريزي: المقفى، ص٣٨١ .

٨٠- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٢١ .

- لم يكن يعقوب وحده الذي هرب إلى المغرب فقد ذكر المقريزي(المقفى ص٣٢٢) أن تبعه عبيدالله بن الحسين بن طاهر الحسيني، وذكر أيضًا (ص٣٨٢) أن طائفة خرجت إلى المغرب .

٨١- ابن خلكان : وفيات ، جـ١ ص٣٧٦ والمقريزي : المقفى ص٣٨٢ وأبو المحاسن :النجوم جـ٤ ص٣٠ .

- م يكن الوزير أبو الفضل مخلصاً في كتابته لأنه أرسل أهله إلى الأشمونين خوفًا عليهم. (المقفى ص٣٨٣) .

٨٢- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٧٣ .

٨٣- ابن سعيد : المصدر السابق ص٢٧ وابن خلكان : وفيات جـ٥ ص٢٢٦ .

٨٤- عند ابن الأثير (الكامل جـ٧ ص٣٠) بدينار وسمس وعند المقريزي(اغاثة الأمة ص١٣) بدينار .

- عندما يكون السعر رائج يباع التسع كل خمسة أرادب بدينار وقد يصل إلى عشرة أرادب بدينار مثلما حدث في زمن أحمد بن طولون (خطط ، جـ١ ص١٢١) .

٨٦- المقريزي: المقفى، ص٣٣٠ .

٨٧- ابن خلكان ، وفيات ، جـ٥ ص٢٢٦ .

٨٨- المقريزي: المقفى ص٣٣٠ .

٨٩- نفس المصدر ، ص٣٣٠-٣٣١ وأبو المحاسن : النجوم ، جـ٤ ص٢٨ .

٩٠- المقريزي : المقفى ص٣٣٠-٣٣١ .

٩١- نفس المصدر ، ص٣٣٢ .

٩٢- أنشد بن هانئ الأندلسي:

يقول بنو العباس هل فتحت مصر ... فقل لبني العباس قد قضي الأمر

وقد جاوز الاسكندرية جوهر ... تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

٩٣- المقريزي: المقفى ص٣٣٢-٣٣٦ .

٩٤- نفس المصدر ، ص٣٢٩ وأبو المحاسن : النجوم ، جـ٤ ، ص٣٠ .

٩٥- المقريزي : اتعاظ ، جـ١ ص١٥٤ .

٩٦- نفس المصدر ، جـ١ ص١٥٥ والمقفى ص٣٣٨ .

٩٧- المقفى ص٣٣٧ .

٩٨- أبو المحاسن : النجوم ، جـ٤ ص٣١ .

٩٩- نفس المصدر ، نفس الصفحة والمقفى ص٣٣٨-٣٣٩ .

١٠٠- المقريزي: اتعاظ جـ١ ص١٥٦ ، والمقفى، ص٣٤٠ .

١٠١- المقريزي: اتعاظ جـ١ ص١٥ ، وأبو المحاسن : النجوم ، جـ٤ ص٣١ .

أ. د. عبد المنعم ماجد(*)

استرداد الفاطميين بلاد المغرب
من واقع السجلات المستنصرية

اهتم المؤرخون المسلمون منذ كتاباتهم فى علم التاريخ، بما اصطلحوا على تسميته بالصنعة التاريخية[1]، التى جعلوا أساسها التوثيق الذى اهتموا به اهتمامهم بالمتن، وأوجدوا له تقنيته، وطرائقه، وقوانينه؛ ومن لم يقم به يخرج بالضرورة من زمرة المؤرخين، ويطلق على ما يكتبه المصطلح الحديث: التاريخ الثقافى : ولحسن الحظ توافرت لتاريخ الخلافة الفاطمية مجموعة كبيرة من الوثائق : عُرفت باسمها الطويل : سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، إلى دعاة اليمن وغيرهم ، قدس الله أرواح جميع المؤمنين»، وباسمها المختصر : «السجلات المستنصرية» ؛ لنسبتها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى : لأن أغلبها من عهده ، وإن اشتملت أيضًا على سجلات من عهد ابنه الخليفة المستعلى بالله فى أوائل خلافته، وهى عبارة عن ستة وستين سجلاً : منقولة عن الأصل الذى ضاع ، أرسلها ديوان الإنشاء الفاطمى بالقاهرة إلى عمال الخلافة فى اليمن : لفترة أربعة وأربعين عامًا ، من ٤٤٥ إلى ٤٨٩هـ/ ١٠٥٣-١٠٩٦م : حيث حرص الخليفة الفاطمى على إخبارهم بجوانب سياسته الداخلية والخارجية: ليكونوا على علم بها.

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى بقسم التاريخ بكلية الآداب، والخبير الوطنى لمركز الدراسات البردية ، فى جامعة عين شمس .

والواقع أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، الذى نقل قاعدة الخلافة الفاطمية من المغرب إلى مصر ؛ لجعل مصر مقرها الدائم فى المشرق، كان قد تردد فى كيفية حكم المغرب إذا ما تركه إلى مصر، وخصوصاً أن المغرب لم تكن قد حكمته أسر مغربية مع كثرة ثورات أهله منذ الفتح العربى، وإنما حكمته أسر أتته من الخارج ، فأراد الخليفة المعزّ أن يعبر عن جميله لهم، وكانوا قد ساعدوا دولته منذ نشأتها ؛ بترك شئونه إلى أهله، وأسند حكمه إلى أسرة الزيريين وهى من صنهاجه ، التى لم تكن مجرد قبيلة ، وإنما شعب عظيم يتألف من بطون بلغت السبعين، معظمهم من الحضر، أو ما عرفوا بالبرانس .

بيد أنه بعد استقرار خلافة الفاطميين فى مصر ؛ ظهرت بوادر فتور ، ومواقف غامضة ؛ من الأسرة الزيرية نحو الفاطميين، ومع أن المعزّ بن باديس الزيرى، الذى يظهر من اسمه اخلاصه لهم ، قُتل على اسم الخليفة المعزّ ، الذى نقل مقر الخلافة الفاطمية إلى مصر، إلا أنه سعى إلى الاستقلال عنهم ، وفك رباط الود التقليدى معهم ، فأسقط الخطبة من منابر المساجد فى بلاده للخليفة الفاطمى فى وقته، وهو المستنصر بالله، خامس خلفاء الفاطميين فى مصر ، وذلك بعد مائة وخمس وأربعين سنة ابتداء من ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ؛ بحيث أطلق المستشرق الفرنسى مارسيه "Marçais" على قطيعته مع الفاطميين؛ الطلاق بين الشرق والغرب [٣].

ونجد فى السجلات المستنصرية ما يفيد عودة النفوذ الفاطمى إلى المغرب ؛ على الرغم من وقوع القطيعة بين الزيريين والفاطميين، بمعلومات مباشرة أحيانًا أو غير مباشرة حينًا آخر؛ لطبيعة الصياغة الإنشائية بعامة فى الترسل ؛ إذ أن السجلات المستنصرية رسائل إنشائية وليست سردًا تاريخيًا ، فنجد فى سجل (٥) ، المرسل من قبل الخليفة المستنصر بالله إلى واليه على بن محمد الصليحى فى اليمن ، والصادر عن ديوان الإنشاء الفاطمى بالقاهرة بتاريخ ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م [٤]، تفاصيل لاتوجد فى مصادر تاريخية أخرى عن عودة نفوذ الفاطميين إلى المغرب؛ حيث يبرز هذا السجل بالذات صورة حية لأشهر القبائل العربية، التى حاربت فى المغرب لعودة النفوذ الفاطمى إليه، ومنها القبائل الرياحية والزغبية[٥]، وهى فروع من قبيلة بنى هلال الكبرى[٦] ، وكانت قد سكنت فى صعيد مصر منذ بداية قيام الدولة الفاطمية فى مصر وتكاثروا فيه ، وصاروا صعايدة مثل أهل الصعيد فسمحت لهم الخلافة الفاطمية بمجاز النيل إلى المغرب، ولكنهم ما لبثوا أن اختلفوا فيما بينهم قبل دخولهم إلى أعمال إفريقية ، التى تعتبر بوابة بلاد المغرب.

حينذاك أرسل إليهم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وسيلاً من قبله ليؤلف بين قلوبهم على حسب قول السجل (٥) . وهو الأمير أمين الدولة ومكينها الحسن بن على بن ملهم [٧]، الذى وصف فى مصادر تاريخية أخرى[٨]، برجحان العقل وسلامة الحجة واشتهر بامكاناته القتالية الكبيرة فى حروبه مع الروم فى الثغور الشامية ، وصموده فى مدينة حلب أمامهم ؛ حيث أضيفت إلى ولايته فيها قلعتها الشهيرة باسم : حلب الشهباء، وهى قلعة حصينة شيدت على الصخر فوق ربوتها العالية بأبراج وأبواب حديدية ضخمة ، وكان بداخلها جبلان ينبع منهما الماء العذب ؛ فزاد بن أبى ملهم فى ولايته لحلب مبان أخرى فى القلعة قويت من مناعتها . فلى ولاية ابن ملهم توحد الشام كله مع مصر ؛ وذلك فى ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م .

ويبدو أن مصالحة ابن ملهم للعرب المصرية : الرياحية والزغبية وقعت قبل دخولهم إلى أعمال إفريقية ؛ إذ تذكر بعض المصادر التاريخية غير السجل (٥) ؛ أن مؤنس ابن يحيى الرياحى : قد تمكن من الاستيلاء على القيروان[٩]، وهى قضية إفريقية الكبرى من المعز بن باديس ؛ بناء على خطة محكمة [١٠]. ومع ذلك فمصالحة ابن ملهم بينهم لم تنه الاختلاف فيما بينهم بسبب أنها استمرت لفترة طويلة ، حتى أن الوزير اليازورى هو الآخر ، الذى اعتبر من أعظم وزراء الفاطميين دهاءً ، كان قد تدخل بينهم بالصلح قبل خروجهم إلى المغرب ، ومدحه بسبب ذلك الشاعر الكبير ابن خيرس (٣٩٤-٤٧٣هـ/ ١٠٠٣-١٠٨٠م) فى إحدى عشرة قصيدة[١١] كما عادت عداوتهما من جديد بعد عودة النفوذ الفاطمى إلى المغرب فقامت حروب شديدة بينهما فى عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م [١٢].

ولكن أهمية مصالحة ابن ملهم بينهم تكمن بالذات فى أنها حققت الهدف من إرسال العرب المصرية إلى المغرب ، وأتت بثمرتها المباشرة للفاطميين بعودة المغرب لنفوذهم فيه، وتمكن أيضًا من أن يكون منهم ومن عرب إفريقية جيشًا حاشدًا واحدًا ، بحكم ميل العرب بطبيعتها إلى بعضها البعض ، حيث وصف سجل (٥) ، هذا الجيش بالجحافل ، وأنه تحت أمره ونهيه . ويتحمل الأعلام والبنود المصرية، مما ينفى تمامًا عن حملة العرب فى المغرب مقولات المؤرخين القدامى والحديثين بأنها كانت مجرد هوجة أو غارة طارئة قام بها عرب منشردون شبهوا بالجراد[١٣]. ومما يؤكد أن حملة العرب الأولى فى المغرب بقيادة ابن ملهم كانت حملة منظمة أن الخلافة الفاطمية زودت العرب المصريين قبل مغادرتهم مصر ومجازهم النيل إلى المغرب بالسلاح والعتاد والمال ، كما يذكر نص سجل (٥) .

وعلى كل حال تمكن ابن ملهم بجيش العرب الموحد من مصر وإفريقية من الاستيلاء على مدن كثيرة في أعمال إفريقية ، من حصون البر والبحر ، فكانت هذه المدن بعد سقوطها تعلن فيها الخطبة للمستنصر بالله من على منابرها ، ويتعامل أهلها بالسكة ، وهي العملة - المستنصرية ، ويعين عليها ولاة من قبل الخلافة الفاطمية . فكان المعز بن باديس ، وسماه السجل (٥) باللعين ، ونعته بالخائن يهرب من أمام ابن ملهم ، الذي حاصره حصاراً شديداً في حصن تحصن فيه أصبح فيه منفيًا ، وأنه على وشك السقوط ، بحيث لم يمكنه ابن ملهم فيه من أن يبل له ريقا ، وسد لأنفاسه طريقًا ، على حسب النص في السجل المذكور حقًا إن سجل(٥) لم يذكر اسم هذا الحصن ، ولعله كان مدينة المهدية ، العاصمة الأولى للفاطميين بالمغرب، ولكن المؤرخ عماد الدين ابن الحسن (ت٨٣٧هـ/ ١٤٣٤م) وذكر في مخطوط له بعنوان : عيون الأخبار [١٤]، ويوجد تصوير له بمكتبتي الخاصة عن مخطوطة للهمداني، أن ابن باديس تاب وعاد إلى طاعة الخلافة الفاطمية ، أما ابن الأثير في كتابه : الكامل : أن ابن باديس مات بمرض البرص [١٥]. ومع ذلك نرجح أن نهاية ابن باديس كانت بعد تاريخ سجل(٥) ، المؤرخ في نهايته في ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م ، إذ لدينا عملات من المهدية التي رجحنا أنها المدينة التي حوصر فيها باسم المستنصر بالله ، من ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م إلى ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م [١٦].

وإبان حصار ابن ملهم لابن باديس في حصنه ، تمكن من الاستيلاء على قابس المجاورة للمهدية [١٧]، وإن كان النص في السجل يذكر مدينة فاس التي تقع في المغرب الأقصى. وفي رأينا أنها قابس ، وليست فاس ، لأن ابن ملهم لم يصل بالعرب تحت قيادته إلى المغرب الأقصى ، وكان نشاطه القتالي يقتصر على أعمال إفريقية . فلما استولى ابن ملهم على قابس ولى عليها من قبل الخلافة الفاطمية ابن يلمر الذي كان مع ابن باديس في أثناء حصاره، حيث يصف السجل (٥) ابن يلمر بأنه كان مقدم قومه وأهله ، ويقصد بهم صنهاجة حليفة الفاطميين منذ قيام دولتهم بالمغرب ، كما أن بعض أفراد أسرة ابن باديس استسلموا له، مثل ابن بتكين صهر ابن باديس على أخته ، وابن حماد أخو صاحب قلعة كتامة ، التي تقع في جبل أوراس الوعر .

وبعدها عاد ابن ملهم إلى مصر، بعد نجاح مهمته في مصالحة العرب، وعودة المغرب إلى النفوذ الفاطمي ، وفي صحبته ابن بتكين المذكور ، ومشايخ الأعمال الإفريقية الذين أبدوا رغبة شديدة في شرف الوصول إلى حضرة الخليفة الفاطمي، المستنصر بالله، ومعه خلق كبير

من الحجاج المغاربة وكانوا قد انقطعوا عن الحج : بسبب قطيعة ابن باديس مع الفاطميين ويبدو أنه أرسل إلى القاهرة تحفًا وأسلحة وعدة وآلات وخيام وغيرها أخذت من قصور ابن باديس [١٨]، مثلما كان حدث في عهد الخليفة المستنصر بالله لما نجحت ثورة البساسيري في العراق، وكان دخولها القاهرة أمر عظيم من اجتماع الناس، وبسبب انتصار ابن ملهم الكبير على ابن باديس ، وعودة النفوذ الفاطمي إلى المغرب[١٩]. طلب المستنصر بالله من واليه على بن محمد الصليحي ، نشر هذه البشارة في أنحاء الجزيرة العربية على البوادي والحواضر، وإعلانها من على فروق المنابر .

إضافة إلى أن صفحات سجل (٥) ، تبرز هدف الفاطميين الدائب في السعي لتحقيق الوحدة الإسلامية الكبرى ، والحرص على تماسكها ، بجميع بلدانها بما فيها المغرب ، لتسير شعوبها في طريق واحد، وهي الوحدة التي أضاعتها الخلافة العباسية ، وتحولت في مجموعها إلى دول شبه مستقلة ، كما أبرزت أن المغاربة أنفسهم كانوا بدورهم تواقين إلى العودة إلى الفاطميين ، بعد القطيعة الطارئة التي أجبرهم عليها المحرك لها المعز بن باديس الزيري، الذي كون لنفسه جيشًا من العبيد بلغ ثلاثين ألف مملوك [٢٠]، ليعتمد عليهم بدلاً من صنهاجة ، وكان المعز نفسه شخصية مهزوزة [٢١]، فتخرج من بين يديه السباع في قصره ، ودفع إلى أحد الشعراء في وقت واحد مائة ألف دينار .

* * *

وبعد ، فهذه السجلات المستنصرية في يقيني تعتبر وثائق فاطمية مليئة بمعلومات وأحداث جديدة ، لاتوجد تفاصيلها في مصادر سرية أخرى مثلما ألقى سجل (٥) ضوءاً إضافيًا على شخصية الأمير الحسن بن ملهم ، قائد الحملة العربية الأولى في المغرب كشخصية لها حنكة سياسية، وانجازات قتالية كبيرة . مما كان سببًا في عودة المغرب إلى النفوذ الفاطمي بعد قطيعته مع مصر على يد المعز بن باديس ، وهي معلومات تاريخية موثقة من أصولها المعاصرة. بينما شخصية أخرى كان لها دورها الكبير في حروب العرب مع البربر، وهي شخصية أبي زيد الهلالي، التي ظهرت في أواخر العصر الفاطمي ، وفي وقت بداية الحملات الصليبية الأولى على الشرق، وعاشت في وجدان المصريين لتحمل لهم القيم الإنسانية من الحق والخير والمروءة والشجاعة والجمال ، إلا أن أغلب معلوماتنا عنها مستمدة من الحكايات والتراكم الفولكلوري الأسطوري ؛ مما يبرز أهمية الوثيقة في عصرنا الحديث في الصنعة التاريخية .

الهوامش

١- ابن خلدون ، المقدمة ، طبع القاهرة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م ، ص٢٣ س١٧ .

٢- تقديم وتحقيق ماجد ، الطبعة الثانية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨٥ .

٣- أنظر La Berbérie musulmane et l'Orient; au Moyen Age. Paris. 1946, p. 136 .

٤- السجلات المستنصرية ، سجل (٥) ص٤٢ ، ٤٥ .

٥- عنها بتفصيل : Ency de l'Isl (art Rly 7th) l'ed: ☐. p. 242 .

٦- عنها بتفصيل : Ibid (art Hil 2l) ☐, p. 206 ; 2 ed , ☐ , p. 398-400

كحاله ، قبائل العرب (هلال) ٣ ص٣٢١ .

٧- تصحيح في سجل (٥) ، قيداً بوصليم في الهامش ، تصحيح في المتن ابن سليم .

٨- ذكر ذلك المقريزي في مخطوط له بمكتبة طوبقبو سراي.

٩- بالأولى لي كتب الرحالين مثل سفر نامه لناصر خسرو .

١٠- المقفى ، ٣ ص٤٢٤ وما بعدها .

١١- عُني بنشر ديوانه وتحقيقه خليل مردم ، في جزءين ، من مطبوعات المجمع العلمي بدمشق .

١٢- الدباغ ، معالم الإيمان ، ٣ ص ٢٥٢ ؛ أنظر ، ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ط٤ ، ص٢٢٨ .

١٣- أنظر هذه المقولات في مقالة :

Ency de l'Isl. (art al - Mustaṣṣir) éd. ☐ , p. 832 .

١٤- في الجزء ٧ ، ورقة ٧٥ .

١٥- الكامل ، ٨ ص١٥٨ س٣٢ .

١٦- أنظر . Hist of Egypt, ; Lane - poole p. 138 n (1)

١٧- عنها : معجم البلدان ، ٧ ص٢-٣ ؛ أنظر : ماجد واليا ، أطلس الإسلام التاريخي في العصور الوسطى ، ط٢ ، خريطة بلاد المغرب .

١٨- أنظر ، مختار العبادي ، السياسة الفاطمية ، ص٢٢٤ يعتمد على مخطوطة بتركيا في مكتبة طوبقبو سراي.

١٩- أنظر مقالة : Sur le retour : H.R. Idris de, Ziri des 'a l'Obéissance fatimide dans A.I.E.O. XI. 1935. p. 25qq.

٢٠- الكامل ، ٨ ص٥٥ (في آخر الصفحة) .

٢١- ابن عذارى ، البيان ، ٤٠٢ ، ٤٥٦ .

أ.د إبراهيم سعيد فهيم محمود(*)

صقلية البيزنطية
بين
معاوية بن أبي سفيان ومعاوية بن حديج

يرجع الفضل في إنشاء الأسطول الإسلامي إلى معاوية بن أبي سفيان حينما كان عاملاً على الشام في خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما. فلقد كان أول من فطن من بين القادة المسلمين إلى أهمية الأساطيل في الدفاع عن السواحل أثناء قيام يزيد بغزو مدن الشام البيزنطية . وهيأ ذلك لحمل راية الجهاد البحري ضد بيزنطة [١].

ولقد بدأ معاوية ذلك الجهاد في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- الذي أمره بمرمة حصون المدن الشامية ، وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظرها ، واتخاذ المراقيد لها ، ولكنه لم يأذن له بالغزو في البحر [٢].

ونتيجة لتعرض الساحل الشامي سنة ٢٣هـ/ ٦٤٤م، والساحل المصري سنة ٢٥هـ/ ٦٤٦م للخطر البحري البيزنطي، عزم معاوية على المسير في تنفيذ خطته التي تهدف لإنشاء أسطول بحري ، حتى يتسنى له فتح الجزر المواجهة لساحل الشام، لكي يتخذها ، فيما بعد- مراكز أمامية لتوجيه الحملات البحرية ضد بيزنطة [٣].

(*) مدرس تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب- جامعة الإسكندرية .

وكان لمعاوية ما أراد ، فقد تمكن من غزو جزيرة قبرص سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م، وجزيرة أرواد في العام التالي. كذلك أرسل أسطولا سنة ٣٣هـ / ٦٥٤م ، استطاع غزو جزيرة رودس . وتوج معاوية نشاطه البحري بمعركة ذات الصواري البحرية سنة ٣٤هـ / ٦٥٥م، التي ترتب عليها أن أخذت السيادة البحرية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في الانتقال إلى جانب المسلمين[٤].

وهكذا كانت سلسلة الانتصارات البحرية الأولى، والغارات البحرية الموفقة التي شنها الأسطول الإسلامي على الجزر البيزنطية في البحر المتوسط ، حافزا شجع معاوية بن أبي سفيان على القيام بمشاريع بحرية أخرى[٥].

وكانت إحدى هذه المشروعات محاولة الاستيلاء على جزيرة صقلية التي كانت تمثل أهمية كبرى آنذاك للإمبراطورية البيزنطية . وقد تضاربت أقوال المؤرخين حول تاريخ وتفاصيل هذه المحاولة الإسلامية الأولى لغزو الجزيرة . وينصب هذا البحث على تقصي ما جاء في المصادر العربية والبيزنطية بشأن تلك الحملة، وذلك في دراسة مقارنة تحليلية تهدف للوصول إلى ما يقرب من الحقيقة فيما يتصل بهذه الوقعة التاريخية الهامة التي جمعت حروب الدولة الأموية في الشام والشمال الإفريقي أي في المشرق والمغرب الإسلامي ضد الإمبراطورية البيزنطية وصقلية في عصر الفتوحات الإسلامية .

وقبل أن نتناول أمر هذه الغزوة بالنقاش علينا أن نتعرف على الأوضاع التي كانت تسود جزيرة صقلية قبل غزوها للمرة الأولى من قبل المسلمين . فجزيرة صقلية أشبه بمثلث ضخم ، وهي محاطة بثلاثة بحار هي البحر الأيوني شرقا ، والبحر التيراني شمالا ، والبحر المتوسط جنوبا وغربا. وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على الموقع الاستراتيجي للجزيرة في قلب حوض البحر المتوسط ، ولذا كانت الإمبراطورية البيزنطية حريصة على أن تكون الجزيرة جزءا من ممتلكاتها [٦].

وبالعودة قليلا إلى الوراء ، نجد الجزيرة كانت قد وقعت في أيدي الجرمان عندما أخذت غزواتهم تعمل في هدم صرح الإمبراطورية الرومانية . ولكن الإمبراطور البيزنطي جستنيان Justinian (٥٢٧-٥٦٥م) الذي كانت سياسته تهدف لاسترداد ولايات الإمبراطورية الرومانية القديمة ، أرسل إلى صقلية قائده بليزاريوس Balisarius سنة ٥٣٥م، على رأس جيش لم يجد عناء في استرداد صقلية من أيدي القوط [٧].

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت صقلية إحدى مقاطعات الإمبراطورية البيزنطية تحت إدارة حاكم يلقب بالاستراتيجوس Strategos . وسرعان ما وجد السكان أنفسهم يدفعون الضرائب الفادحة لخزينة الإمبراطورية . ولم تكن الدولة هي المستغل الوحيد في صقلية ، وإنما كانت الكنيسة تشاركها النفوذ والسلطان لكثرة أملاكها فيها .

أما حال الجيش فيعبر عن بؤس صقلية حينئذ . ذلك أن الجند كانوا خليطا من شعوب عدة، ولم تكن الموارد الاقتصادية تكفي لإمدادهم بما يقوم بحاجياتهم ، فلجأ الحكام والقادة إلى طريقة خطيرة النتائج لحل هذه المشكلة : إذ أخذ القادة يعهدون بأراضيهم إلى هؤلاء الجند لكي يفلحوها ، ويفيدوا من حاصلاتها. وهكذا تحول الجند إلى أدوات للقادة[٨]. ذلك هو حال الجزيرة بين أطماع الحكومة والكنيسة وفساد الجيش في ظل الإمبراطورية البيزنطية . ولقد شجعت تلك الأوضاع المتردية للجزيرة في فترة الفتوحات والتوسعات الإسلامية المسلمين على غزوها من ذلك ما يذكره البلاذري من أن معاوية بن حديج الكندي غزا « أيام معاوية بن أبي سفيان صقلية وكان أول من غزاها ولم تزل تغزى بعد ذلك ». ويضيف في موضع آخر قوله « سبى عبدالله بن قيس بن مخلد الدزتي سقلية فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجوهر فبعث بها إلى معاوية فوجه بها معاوية إلى البصرة لتحمل إلى الهند فتباع هناك ليشتري بها »[٩].

وأورد النويري أن « أول من غزا جزيرة صقلية في الإسلام هو عبدالله بن قيس الفزاري من قبل معاوية بن حديج ، وكان قد بعثه من إفريقية في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ففتح وسبى وغنم . وكان مما غنم أصناما من ذهب وفضة مكللة بالجوهر . فحملها إلى معاوية بن أبي سفيان ، فأنفذها معاوية إلى الهند لزيادة ثمنها فأنكر المسلمون ذلك عليه »[١٠].

وقال ابن أبي دينار القيرواني في حوادث سنة ٣٣هـ/ ٦٥٤م، في كتابه «المؤنس في أخبار افريقية وتونس » : « وأرسل معاوية بن حديج جيشا في البحر مايتي مركب إلى صقلية فسبوا وغنموا وأقاموا شهرا، وانصرفوا بغنائم كثيرة، وبعث معاوية بالخمس إلى معاوية بن أبي سفيان »[١١].

وجاء عند ابن الخطيب في مصنفه « أعمال الأعلام » قوله « قال أرباب التاريخ : كان أول من غزا جزيرة صقلية من أمراء إفريقية الموجهين إليها من قبل الخليفة عثمان رضي الله عنه ، ثم معاوية بعده ، الأمير معاوية بن حديج الكندي. فلم تزل تغزى بعد ذلك. وكان معاوية ، حين

الله قد بعث إليها عبدالله بن قيس الفزاري، ففتحها وغنم ، وأصاب فيها أصناما من ذهب وفضة مكللة بالجوهر . فحملت إلى معاوية بن أبي سفيان ، فرأى بيعها قاصمة أكثر لشمنها ، فبعثها إلى الهند . فأنكر الناس عليه ذلك إنكارا شديدا . وكان غزو معاوية بن حديج في سنة خمس وثلاثين أو سنة أربع قبلها »[١٢].

أما ابن عذارى المراكشي فقد أشار إلى تلك الواقعة في موضعين ، أولهما ضمن حوادث سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م، في قوله «أغزى معاوية بن حديج جيشا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب فسبوا وغنموا وأقاموا شهرا ، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة ، ورقيق، وأصنام منظومة بالجوهر فاقتسموا فيهم . وبعث ابن حديج بالخمس إلى معاوية بن أبي سفيان» [١٣]. وكذلك في سنة ٤٦هـ / ٦٦٦م، نقل عن البلاذري روايته أن «أول من غزا صقلية معاوية بن حديج ، بعث إليها عبد الله بن قيس فنتحها . وأصاب فيها أصناما من ذهب وفضة مكللة بجوهر ، فحملت إلى معاوية بن أبي سفيان . فبعث بها إلى الهند: فأخذ ثمنها . فأنكر الناس عليه ذلك إنكارا كليا. وكان العامل على بلاد إفريقية من قبل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج الكندي»[١٤].

هذا فيما يتعلق بالمؤرخين المسلمين ، أما فيما يتعلق بالمؤرخين البيزنطيين فنجد في رواية ثيوفانس أنه في فترة ما بين الأول من سبتمبر سنة ٦٦٣م / الموافق الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة ٤٣هـ، وحتى الأول والثلاثين من أغسطس سنة ٦٦٤م / الموافق الثاني من جمادى الآخرة سنة ٤٤هـ ، «تم الاستيلاء على جزء من صقلية ، وتم توطين (إنزال) سكانه في دمشق بناء على رغبتهم»[١٥].

ومن العرض السابق لروايات المصادر نجد أنها اختلفت فيما بينها في تحديد تلك الغزوة الإسلامية الأولى على جزيرة صقلية، ففي حين لم يحدد البلاذري والنويري تاريخا معينا للغزوة ، عين ابن أبي دينار القيرواني ، عام ٣٣هـ/ ٦٥٤م تاريخا لها ، بينما ذكر ابن الخطيب وقوعها عام ٣٤هـ/ ٦٥٥م، أو العام الذي يليه. أما المؤرخ البيزنطي ثيوفانس فقد ذكر الحادثة فيما بين سنتي ٦٦٣-٦٦٤م / ٤٣-٤٤هـ، في الوقت الذي أشار إليها ابن عذارى مرة ضمن وقائع عام ٤٥هـ/ ٦٦٥م، وثانية في أحداث سنة ٤٦هـ/ ٦٦٦م . ولقد أدى تضارب المصادر في تحديد تاريخ هذه الغزوة إلى اختلاف آراء بعض المراجع الأجنبية[١٦] والعربية الحديثة[١٧] بدورها حول هذا التاريخ ، الأمر الذي يدفعنا إلى إعادة قراءة المصادر العربية

ومقارنتها بالمصادر البيزنطية بشكل متأن في محاولة منا لتحديد تاريخ تلك الغزوة والملابسات التي أحاطت بها .

* * *

الواقع أنه يمكن القول بأن هذه الغزوة لم تقع في عام ٣٣هـ/ ٦٥٤م ، استنادا على الحقائق التالية :

١- كان معاوية بن أبي سفيان في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ بناء البحرية الإسلامية وبصفته واليا على الشام يهدف إلى تأمين بلاد الشام بالاستيلاء على جزر البحر المتوسط القريبة منه كقبرص وأرواد التي يسمح لها قربها بتهديد الساحل الشامي، ولم يكن هذا ينطبق على جزيرة صقلية البعيدة جدا عن ساحل الشام، ومن ثم فمن الطبيعي ألا يفكر معاوية في غزوها في تلك المرحلة المبكرة .

٢- تذكر الروايات التاريخية أن معاوية بن حديج أرسل بأسلاب الجزيرة إلى معاوية بن أبي سفيان الذي قام ببيعها . ومن غير الممكن حدوث ذلك سنة ٣٣هـ/ ٦٥٤م، لأن عثمان بن عفان كان لايزال حتى هذه السنة خليفة المسلمين. ولم يكن باستطاعة معاوية بن أبي سفيان التصرف في الأسلاب دون الرجوع إليه ، إلا إذا كانت الخلافة قد آلت إلى معاوية بن أبي سفيان ، وهذا لم يتسن له قبل عام ٤١هـ/ ٦٦١م .

ويدعم هذا القول أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لم يكن يتساهل في أمر الغنائم حتى مع أقرب الأقربين إليه . إذ يذكر ابن عذارى نقلا عن الطبري قوله «كان عثمان رحمه الله قال لعبد الله بن سعد «إن فتح الله عليك إفريقية فلك ما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس نفلا» . فلما فتح إفريقية في هذه السنة . وهي سنة ٢٧هـ ، قسم عبدالله الفيء على المسلمين ، فأبقى الخمس لنفسه، وبعث بأربع أخماسه إلى عثمان ، وضرب فسطاطه على أرض القيروان : فوفد وفد على عثمان ، يشكون بابن أبي سرح فيما أخذ من الخمس : فقال لهم عثمان «أنا نفلته إياه : وذلك الآن إليكم فإن رضيتم ، فقد جاز ، وإن غضبتم فهو رد» . قالوا «فإن نسخط» ، فكتب عثمان إلى ابن سعد يرد ذلك. قالوا : «فأعزله عنا فإنا لانريد أن يتآمر علينا ، وقد وقع ما وقع» . فكتب إليه أن «استخلف على إفريقية رجلا ترضاه ويرضونه ؛ واقسم خمس الخمس الذي كنت نفلتك في سبيل الأخماس ؛ فإنهم قد سخطوا النفل» ، ففعل ذلك عبدالله، ورجع إلى مصر ، وقد فتح الله إفريقية. فما زالوا من أسمع أهل الأقاليم

وأطوعهم إلى زمن هشام بن عبدالملك . ثم ورد الخمس على أمير المؤمنين عثمان [٢٨]. وانطلاقا من هذا المبدأ فى أفعال عثمان فلو كانت غزوة صقلية قد تمت فى خلافته لكانت الغنائم قد أرسلت إليه وليس إلى معاوية بن أبى سفيان، الأمر الذى يؤكد أن هذه الغزوة قد تمت فى خلافة الأخير .

٣- أورد ابن أبى دينار وابن عذارى أن القوات الإسلامية هاجمت الجزيرة فى مائتى مركب، وإذا ما قارنا- بتحفظ - عدد هذه السفن بتلك التى اشتركت فى معركة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م، لوجدنا أنهما متساويين [١٩]. ولكن يجب أن نلاحظ هنا أن الأسطولين الشامى والمصرى كانا متحدين فى هذه المعركة ، بينما لم تشر الرواية إلى أى اتحاد بين الأسطولين إزاء غزو صقلية . وبذلك يمكن القول بأن هذه الحملة تمت فى مرحلة تالية كان حجم الأسطول الذى كان تحت إمرة معاوية بن أبى سفيان قد ازداد فيها عدد سفنه ، ولم يتحقق ذلك له إلا بعد توليه خلافة المسلمين ، ولقد تيسر هذا بعد عام ٣٣هـ/ ٦٥٤م .

٤- رأينا أن حجم الأسطول المهاجم كان مائتى سفينة ، وإذا افترضنا أن متوسط جنود كل سفينة كان حوالى ثلاثين رجلا، لأدركنا أن القوة التى هاجمت صقلية كانت لاتقل عن ستة آلاف رجل بأى حال من الأحوال . ومن غير المعقول أن يدفع معاوية بهذا العدد من قواته إلى مغامرة مجهولة النتائج فى وقت كان يسعى إلى تدعيم نفوذه فى الشام .

٥- تشير الروايات كذلك أن الذى أرسل السفن لغزو الجزيرة هو معاوية بن حديج عامل إفريقية من قبل معاوية بن أبى سفيان. ومن المعروف أن ابن حديج ظل يأتمر بإمرة والى مصر عبدالله بن سعد حتى سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م[٢٠]، ولم يصبح عاملا أو قائدا على إفريقية من قبل معاوية بن أبى سفيان قبل عام ٤١هـ / ٦٦١م ، على الأقل [٢١].

٦- يدفعنا كذلك بعد المسافة بين الشام وصقلية إلى استبعاد حدوث هذه الغزوة سنة ٣٣هـ/ ٦٥٤م . وذلك لعدم وجود قواعد إمداد وقوين للمسلمين فى الشمال الإفريقى فى تلك الفترة. إذ أن المسلمين كانوا قد شغلوا عن فتح إفريقية بعد حملتى عمرو بن العاص سنة ٢٢هـ/ ٦٤٢م، وعبدالله بن سعد بن أبى سرح سنة ٢٧هـ/ ٦٤٧م. كما أن البيزنطيين كانوا قد نجحوا آنذاك فى استرداد المواقع التى استولى عليها المسلمون فى الحملتين السابقتين ، وعادت لهم السيطرة الكاملة على ساحل الشمال الإفريقى [٢٢].

٧- فضلا عما تقدم فمن غير المعقول أن يخرج الأسطول الإسلامى لغزو صقلية ويسير فى البحر كل هذه المسافة الطويلة دون أن يعلم بذلك الأسطول البيزنطى فيواجهه ، فقد كان التفوق البحرى فى جانبه فى تلك الفترة ؛ إذ أن ميزان السيادة البحرية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط لم يبدأ فى الميل للجانب الإسلامى إلا بعد معركة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م[٢٣].

كذلك فلايمكن القبول بعام ٣٤هـ/ ٦٥٥م، أو العام الذى يليه تاريخا لتلك الغزوة كما ورد عند ابن الخطيب ، وذلك لمعظم الأسباب التى لم يتم استبعادا عليها قبول سنة ٣٣هـ/ ٦٥٤م، تاريخا لها. يضاف إلى هذا أنه بالنسبة إلى عام ٣٤هـ/ ٦٥٥م، فقد ذكر ابن عبد الحكم بالتفصيل قيام معاوية بن أبى حديج بغزو إفريقية فى ذلك العام، ومع هذا لم يورد أى إشارة لإرساله مثل هذه الغزوة إلى صقلية آنذاك [٢٤]. ويدوره ذكر ابن عذارى أنه فى سنة ٣٤هـ / ٦٥٥م، «غزا معاوية بن حديج إفريقية : وهى أول غزواته إلى المغرب ، ثم انشغل الناس بعد ذلك بأمر عثمان- رضى الله عنه- ووقائع الجمل وصفين وغيرهما ، إلى أن اعتدلت الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان»[٢٥]. وهكذا فقد أوضح نص ابن عذارى انشغال كل من معاوية بن أبى سفيان ومعاوية بن حديج بداية من سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م، بأحداث الفتنة الكبرى وما تلاها من أحداث- باعتبارهما من كبار أنصار الحزب العثمانى- عن مواصلة فتح إفريقية أو القيام بإرسال أى حملات أو غزوات خارجية، مما يعنيه ذلك من عدم قيامهما بغزو صقلية فى سنة ٣٥هـ/ ٦٥٦م، وفق ما ذكر ابن الخطيب .

ويتضح من هذا العرض أن الغزوة الإسلامية التى أرسلها معاوية بن أبى سفيان على جزيرة صقلية لم تقع فى سنة ٣٣هـ / ٦٥٤م، أو قبلها أو بعدها بعام أو بعامين كما ذكرت بعض المصادر ونهجت نهجها بعض المراجع الحديثة .

أما تحديد المؤرخ البيزنطى ثيوفانس لفترة ما بين عامى ٦٦٣-٦٦٤م / ٤٣-٤٤هـ، تاريخا لوقوع تلك الغزوة ، فيمكن الرد عليه بأن معاوية بن حديج الذى أجمعت المصادر الإسلامية على أنه هو الذى أرسل تلك الحملة بصفته واليا على افريقية من قبل معاوية بن أبى سفيان، لم يكن قد تولى أمر افريقية بعد فى ذلك التاريخ ، وإنما كان يتولى أمر غزوها آنذاك عقبة بن نافع الفهرى[٢٦]. وذلك فضلا عن سببين آخرين سيتم الإشارة إليهما عند مناقشة روايتى ابن عذارى فيما يختص بتاريخ الحملة فى الفترة التالية . وبذلك لايمكن الأخذ بهذا التاريخ بدوره تحديدا للحملة الإسلامية الأولى على صقلية .

وفيما يتعلق بسنتى ٤٥هـ/ ٦٦٥م، و٤٦هـ/ ٦٦٦م، اللتين ذكرهما ابن عذارى تاريخا لوقوع تلك الغزوة، فيمكن القول بأن الغزوة لم تتم فى أى من هذين التاريخين أيضا لأنه من غير المعقول أن يغامر معاوية بن حديج بإرسال تلك الحملة إلى صقلية فى أى من هذين التاريخين لسببين : أولهما أن ابن حديج خرج من مصر لفتح إفريقية سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م، فى جيش مؤلف من عشرة آلاف جندى فقط [٢٧]، وغير مقبول للعقل أن يقوم بإرسال حملة لغزو صقلية ، وهو لم يستكمل بعد فتح إفريقية ، وما زال الخطر يتهدده من جانب بيزنطة من الداخل. وثانى الأسباب أنه من المؤكد أن معاوية بن حديج كان يعلم تمام المعرفة أن الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى Constance II (٦٤١-٦٦٨م / ٢٠-٤٨هـ) قام فى سنة ٦٦٣م / ٤٣هـ ، بنقل عاصمة الإمبراطورية من القسطنطينية إلى مدينة سرقسطة Siracusa فى جزيرة صقلية ، وليكون فى منأى عن هجمات المسلمين ، وفى موقع استراتيجى يتيح له بسهولة إرسال القوات البيزنطية لوقف الزحف الإسلامى على الشمال الإفريقى، والدفاع عن صقلية ضد أى غارات إسلامية محتملة عليها. واستمر ذلك الوضع حتى سنة ٦٦٨م / ٤٨هـ [٢٨]. وفى ظل وجود الإمبراطور البيزنطى والجزء الأكبر من جيشه فى صقلية، لم يكن ابن حديج ليقامر بإرسال هذا العدد من جنده الذى كان سيصبح ضئيلا – أيا كان حجمهم- بالمقاومة مع الجيش البيزنطى الذى كان سيقابله الجيش الإسلامى فى حالة مهاجمته للجزيرة فى عام ٤٥هـ/ ٦٦٥م، أو فى العام الذى يليه، وإلا كان الأمر قد انتهى بكارثة بالنسبة للجند المسلمين.

يستدل مما سبق أن الأمر كان يحتاج لظروف خاصة تهيأ للمسلمين غزو صقلية للمرة الأولى مع وجود الإمبراطور البيزنطى وجيشه فى الجزيرة ، وهو ما كان بالفعل. فقد كان للاستبداد والتصلب الذى نهجه الإمبراطور قنسطانز الثانى أكبر الأثر فى تنفير القلوب منه؛ ولعل ذلك يفسر الكارثة التى وقعت له أثناء إقامته فى صقلية . إذ تم التآمر عليه بين حاشيته وانتهى الأمر باغتياله فى الخامس عشر من سبتمبر سنة ٦٦٨م / الثانى من شعبان سنة ٤٨هـ ، وذلك فى حمامه بواسطة أحد حجابه . وعندئذ اجتمعت رؤوس الأسر البيزنطية والأرمينية فى الجزيرة، حيث وقع اختيارها على أرمينى يدعى ميزيزيوس Mizezius لتنصيبه إمبراطورا مما أدى إلى انفجار الثورة والاضطرابات فى صقلية وفى بقية أنحاء الإمبراطورية [٢٩].

ومن المؤكد أن معاوية بن حديج استغل هذه الفرصة السانحة لتوجيه ضربته إلى صقلية . ولعل خير ما يؤيد ذلك ، النص الذى أورده الواقدي فى مصنفه «فتوح الشام ومصر» نقلا عن

أحد رواته أن «ابن هرقل أنقذته الريح إلى جزيرة سقلية ، وخرجت إليه أهلها وقالوا لقد أهلكت دين النصرانية ورأيتمت الأطفال فسكت، ثم طلب منهم الدخول إلى الحمام. فلما دخل الحمام فتحت عليه القوم بالحناجر وقالوا لقد أهلكت جميع أهلنا وترجع أنت سالم إلى ديارك فهذا شئ لايكون فقتلوه »[٣٠].

ويضيف الواقدى «قال الراوى ثم نهضت المسلمون لفتح صقلية» [٣١]، ثم يذكر بعد ذلك نصا بتفاصيل تلك الغزوة أوردناه فى الهامش لطوله [٣٢]. وهو يكشف بوضوح أن الحملة الإسلامية الأولى على جزيرة صقلية قد وقعت عقب اغتيال ابن هرقل- الذى أشار إليه المصدر باسم قسطنطين ، والمقصود به قنسطانز الثانى- فى سقلية . ولما كان من الثابت تاريخيا أنه اغتيل فى سبتمبر سنة ٦٦٨هـ/ شعبان سنة ٤٨هـ، فمن المؤكد أن الحملة الإسلامية على الجزيرة قد حدثت فى وقت لاحق لهذا التاريخ وبالتحديد فى خريف سنة ٤٨هـ / ٦٦٨م، أو فى ربيع سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م، وذلك لتوافر الظروف المناسبة لإبحار الأساطيل فى تلك المواسم .

ويدعم هذا القول أن عبيدالله ابن صالح والنويرى يؤكدان أن معاوية بن أبى سفيان عزل معاوية بن حديج عن إفريقية بعد أن غزا صقلية ، فيقول أولهما لما أفضت الخلافة إلى معاوية، قام بأمور المسلمين. «وولى معاوية معاوية بن حديج على إفريقية؛ ثم عزله بعد أن غزا صقلية. وولى معاوية على إفريقية عقبة بن نافع بن عبدالقيس الفهرى»[٣٣]. فى حين تذكر رواية ثانيهما نقلا عن البلاذرى أن «أول من غزا صقلية معاوية بن حديج ، بعث إليها عبدالله بن قيس . قال : ثم انصرف معاوية بن حديج إلى مصر . فأقره معاوية بن أبى سفيان عليها، وعزله عن إفريقية ، وأفردها عن مصر ، واستعمل عليها من قبله »[٣٤]. ولما كانت الرواية التاريخية تشير إلى أن معاوية بن حديج عزل عن ولاية إفريقية سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م [٣٥]، فيستنتج من النصين السابقين أن غزوة المسلمين الأولى لجزيرة صقلية قد تمت فى تاريخ سابق مباشرة لعزل معاوية بن حديج عن ولاية إفريقية ، أى فى أواخر سنة ٤٨هـ/ ٦٦٨م، أو فى سنة ٤٩ هـ/ ٦٦٩م .

ويؤكد ذلك أيضا ثلاثة نصوص لاتينية أوردها المستشرق الإيطالى ميشيل آمارى، قمنا بترجمتها إلى العربية لأهميتها البارزة للبحث وألحقناها بآخره لكى يتسنى للباحثين الرجوع إليها. وهى تشير بما لايدع مجالا للشك إلى أن المسلمين قاموا بمهاجمة صقلية انطلاقا من الإسكندرية ، وذلك عقب اغتيال قنسطانز الثانى سنة ٦٦٨م/ ٤٨هـ[٣٦].

ولقد هيأ لمعاوية بن حديج القيام بتلك الحملة البحرية انطلاقا من إفريقية ومستعينا بأسطول مصر، كون هذا الأسطول قد أصبح تحت إمرته بعد أن آلت إليه ولاية مصر سنة ٤٧هـ/ ٦٦٧م ، ليصبح واليا عليها وعلى إفريقية معا [٣٧]. وربما تكون هذه الحملة هي التي نسب ابن عذارى قيادتها لعقبة بن نافع سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م، بدلا من عبدالله بن قيس في قوله « غزا عقبة بن نافع الفهري الروم في البحر بأهل مصر» [٣٨]، إذ لم يكن عقبة بن نافع قائدا بحريا .

واستنادا إلى الحقائق السابقة فلايمكن أن تكون الحملة الإسلامية الأولى على صقلية قد تمت في خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - كما أشارت بعض المصادر والمراجع بذلك، وإنما تمت في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وبالتحديد في خريف سنة ٦٦٨م / ٤٨هـ ، أو ربيع سنة ٦٦٩م/ ٤٩هـ . وهي الحقيقة التي أمكن التوصل إليها من خلال الدراسة المقارنة للمصادر الإسلامية والبيزنطية .

والواقع أن المصادر والمراجع - كما سبقت الإشارة- ومنذ اختلفت في تحديد تاريخ هذه الحملة، اختلفت أيضا في بعض تفاصيلها ، والجهة التي انطلقت منها السفن الإسلامية. غير أنه استنادا إلى روايات المصادر التي تم إيرادها ، والحقائق التي تم استنتاجها، يمكن إعادة رسم الوقعة في شكلها الذي حدثت به بالفعل .

ففي سنة ٤٨هـ/ ٦٦٨م ، كان قد أمكن للعرب بقيادة معاوية بن حديج فتح جزء كبير من إفريقية وفرض السيادة الإسلامية عليه. وقبل هذا التاريخ بستة أعوام كان الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني قد قام بنقل عاصمة ملكه من القسطنطينية إلى مدينة سرقوسة في جزيرة صقلية ، وذلك لكي يكون في موقع استراتيجي يتيح له إرسال قواته لدفع الخطر الإسلامي عن ممتلكاته في الشمال الإفريقي .

من أجل ذلك كان معاوية بن حديج يحارب في إفريقية وعيناه على جزيرة صقلية، القلب الجديد للإمبراطورية البيزنطية ، والملجأ الذي فر إليه مواطنو إفريقية البيزنطيون بعد فتحها على أيدي المسلمين[٣٩]. وبطبيعة الحال كان لايمكنه مهاجمة الجزيرة التي باتت تحوي الجزء الأكبر من الجيش البيزنطي. وأخذ معاوية بن حديج يتحين فرصة سانحة لمهاجمة الجزيرة التي كانت تتهدد فتوحاته في إفريقية. وتهيأت تلك الفرصة لابن حديج عندما اغتيل الإمبراطور قنسطانز الثاني في الخامس عشر من سبتمبر سنة ٦٦٨م / الثاني من شعبان سنة ٤٨هـ ،

على يد أحد أفراد حاشيته . ووقع اختيار رؤساء الأسر البيزنطية والأرمينية في الجزيرة على أرمينى يدعى ميزيزيوس ليخلفه في حكم الجزيرة .

وعلم معاوية بن أبي سفيان بنبأ اغتيال قنسطانز الثاني، واندلاع الثورة في صقلية، فعمد لاستغلال الفرصة لمهاجمتها ظهيرا لفتحها ووضعها تحت السيادة الإسلامية تأمينا للفتوحات الإسلامية في إفريقية من ناحية ، وحرمان بيزنطة من قاعدة هامة تستطيع تقديم مساعدة جوية لها في الصراع الأمري البيزنطي من ناحية أخرى. وربما رأى معاوية بن أبي سفيان في غزو صقلية آنذاك فرصة لن تتكرر ، بغية تطويق القسطنطينية من الشرق والغرب في آن واحد. حيث كان قد أرسل عليها حملة في نفس الوقت بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري[٤٠]. وربما يكون معاوية بن أبي سفيان قد هدف من حملته على صقلية إلى تشتيت جهود البيزنطيين في جبهتين ، الأمر الذي يضعف مقاومتهم لحملة عبادة .

وأيا كان الأمر، وانتهازا لتلك الفرصة السانحة فقد جهز معاوية بن أبي سفيان أسطولاً مصريًا تألف من مائتي أو ثلاثمائة سفينة على اختلاف الروايات ، وشحنه بالرجال ، ثم أرسله من ميناء الإسكندرية إلى معاوية بن حديج في إفريقية . وهناك أعيد تموينه بالمؤن وإمداده بالمزيد من الرجال اللازمين للقيام بالهجوم على صقلية . وبالفعل أبحرت السفن من أحد موانئ إفريقية- ولعله ميناء سوسة الذي استولى عليه بن حديج سنة ٤٥هـ- بقيادة عبدالله بن قيس بن مخلد الفزاري لترسو على ساحل صقلية . ولم يفاجأ ميزيزيوس حاكم صقلية المغتصب بوصولهم ، فقد كان قد علم عن طريق عيونه في إفريقية بخبر هذا الأسطول، بيد أنه لم يكن يتوقع وصوله بهذه السرعة إلى شواطئ الجزيرة ، ولذا لم يتخذ أي إجراء دفاعي لمقاومته وبالنظر إلى قوة الأسطول الإسلامي، أرسل حاكم صقلية طالبا متحدثا باسم المسلمين لكي يستعلم منه عن هدف الأسطول الإسلامي من هذه الحملة. ولقد أخبره المبعوث بواسطة ترجمان مصاحب له عن أن هدف الحملة هو فتح الجزيرة لنشر الإسلام بين مواطنيها ، وإلا فعليهم دفع الجزية إذا ما تمسكوا بدينهم ، وإذا لم يقبلوا هذا ولا ذاك فهي الحرب. ولقد أبى حاكم صقلية إلا الخيار الأخير ، فانطلق الجند المسلمون يهاجمون الجزيرة وبخاصة مدينة سرقوسة بعاونهم رماة الأحجار الذين أخذوا في ضرب الجزيرة بواسطة المنجنيقات التي نصبوها على متن السفن .

ولم تفلح جهود حاكم صقلية المغتصب ورجاله في صد الهجوم الإسلامي على الجزيرة. فانتشر المسلمون في الجزيرة مدة شهر يملئون أيديهم بالغنائم والأسرى. وبالرغم من ذلك لم يكن

باستطاعة حاكم صقلية الاستعانة بالإمبراطور الشرعي قنسطنطين الرابع Constantine IV (٦٦٨- ٦٨٥م / ٤٨-٦٦هـ) الذي خلف والده المقتول قنسطانز الثاني على عرش بيزنطة . ولكن قنسطنطين الرابع لم يكن ليبكت على ضياع صقلية سواء في أيدي الثوار، أو في أيدي المسلمين. وما كان منه إلا أن أعد حملة بحرية من ستمائة سفينة لإعادة النظام والسيادة البيزنطية على الجزيرة .

وكان أن رأى عبدالله بن قيس قائد الأسطول الإسلامي أن يعمل بمشورة رجاله وأنه ليس من الحكمة انتظار وصول الأسطول البيزنطي ومقاتلته ، فاكتفى بما حققته الحملة من انتصارات، وما غنمته من غنائم وأسرى ، وانسحب في جنح إحدى الليالي عائداً بأسطوله إلى إفريقية. وهناك اقتسم معاوية بن حديج الفيء بين جند الحملة ، ثم أرسل بالخمس المتبقي من الفيء والأسرى إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان في دمشق. ولم يلبث الأول أن عزل الأخير من ولاية إفريقية وأقره على ولاية مصر عقب الهجوم على صقلية مباشرة . أما فيما يتعلق بصقلية فقد نجح الإمبراطور قنسطنطين الرابع في إعادتها إلى حظيرة الإمبراطورية بعد أن قضى على الثورة بها ، وأعدم جميع المسئولين عن اغتيال أبيه. وبهذا الشكل انتهت الغزوة الإسلامية الأولى لجزيرة صقلية .

ملاحق البحث

ترجمة عربية لثلاثة نصوص باللاتينية عن محاولة المسلمين لغزو صقلية عقب اغتيال الإمبراطور قنسطانز الثاني بالجزيرة سنة ٦٦٨م / ٤٨هـ .

والنصوص اللاتينية منقولة عن :

Amari, M., Storia dei Musulmani di Sicilia , seconda edizione modificata accresciuta dall autore , pubblicato e con note a cura di Carlo Alfonso Nallino , Catania. 1933, vol .I., p. 217 .

النص الأول باللاتينية

"Hase au- diens gens Saracenorum (la morte di Costanzo e la punizione di Mizize narrati nel cap. 12) quae iam Alexandriam et Aegyptum per-

vaserat. subito eum multis navibus venientes, Sicilliam invadunt . Syracusas ingre- diuntur. multamque stragem faciunt populorum , vix paucis evadentibus, qui per munitissima castra et ruge confugerant montium, auferentes quoque praedam nimiam et omne illud quod Constans Augustus a Roma abstulerat ornatum in aere et diversis speciebus; sicque Alexandriam reversi sunt" .

الترجمة العربية

عندما علم المسلمون بذلك (وهو موت قنسطانز ومعاقبة ميزيزيوس التي سبق روايتها في الفصل الثاني عشر) وانتشر الخبر بالفعل في الإسكندرية ومصر ، قدموا فجأة في سفن عديدة لمهاجمة صقلية ، حيث شنوا هجوما على سرقوسة ، ودبروا خطة كبيرة لمواجهة المواطنين الذين كانوا قد تفرقوا ، ولجأ البعض منهم إلى القلعة الحصينة ، واحتمى البعض الآخر بالمنخفضات الواقعة بين الجبال. كما استولوا على غنائم كبيرة منها كل ما كان قنسطانز قد أحضره من روما لتزيين المدينة ، بالإضافة إلى منقولات أخرى متنوعة ، ثم عادوا إلى الإسكندرية .

النص الثاني باللاتينية

"Huius Adeodati papae et Constantini imperatoris tempore gens Saracenorum quae iam Alexandriam et Aegyptum pervaseat audita morte Constantii imperatoris subito cummultus navibus venientes Siciliam invadunt , Syracusas ingrediuntur multamque stragem faciunt populorum , vix paucis evadentibus qui per munitissima castra et iuga confugerant montium auferentes quoque praedam nimiam et omne illud quod Constans Augustus a Roma abstulerat ornatum in aere et diversis speciebus , sicque Alexandriam reversi sunt" .

الترجمة العربية

في عهد البابا أديوداتوس وحكم الإمبراطور قنسطنطين ، قام المسلمون الذين أتوا إلى الإسكندرية ومصر عندما علموا بموت الإمبراطور قنسطانز ، قاموا بالتوجه فجأة في عدد كبير من السفن إلى صقلية وهاجموها. ودمروا خطة كبيرة لمهاجمة سرقسطة ومواطنيها الذين تفرقوا وترجه بعضهم إلى القلاع الحصينة أو شعاب الجبال . كما استولوا على غنائم كبيرة مما كان الإمبراطور قنسطانز أغسطس قد جلبه من روما لتزيين البلاد ، بالإضافة إلى منقولات أخرى ، وعادوا بعد ذلك إلى الإسكندرية .

النص الثالث باللاتينية

"Adeodatus (672-676). Huius temporibus Mezerius qui erat in Sicilia cum exercitu orientali intartizavit et arripuit regnum ... Postmodum venientes Sarraceni Siciliam obtinuerunt praedictam civitatem et multa occisione in populo qui in castris seu non lanis confugerant fecerunt et praeda nimia vel aere qui ibidem a civitate Homana navigatum fuerat secum abstollentes Alexandriam reversi sunt".

الترجمة العربية

في عهد البابا أديوداتوس (٦٧٢-٦٧٦) وحكم ميزيزيوس الذي جاء إلى صقلية وتآمر مع جيش من الشرق واستولى على الحكم ... غزا المسلمون صقلية عقب ذلك مباشرة ، وبعد تهديد المدينة وقتل عدد كبير من أهلها الذين احتموا بالقلاع والجبال، استولوا على غنائم كثيرة كانت قد جلبت بطريق البحر من مدينة روما ، ثم حملوها معهم وعادوا إلى الإسكندرية .

هوامش البحث

١- Vasiliev , A.A., History of the Byzantine Empire 324-1453, Madison, 1952. p. 212; Ostrogorsky, G., Histoire de l' Etat Byzantine , traduction française de . J Gouillard, Préface de Paul Iemerle, Paris, 1969, p. 146 .

٢- لمزيد من التفاصيل ، أنظر : البلاذري : فتوح البلدان، عني بمراجعتها والتعليق عليها رضوان محمد رضوان ، بيروت (دار الكتب العلمية) ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص١٣٤-١٣٥ ، وكذلك : ابراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون ، البحر المتوسط بحيرة إسلامية ، ط٢، القاهرة (الدار القومية للنشر) ١٣٨٣هـ- ١٩٦٣م، ص٨١-٨٥ .

٣- لمزيد من التفاصيل ، أنظر البلاذري: المصدر السابق، ص٢٢٣ ؛ ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها، ط١ ، القاهرة (مكتبة مدبولي) ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص١٧٥-١٧٨ . وكذلك : السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، ٢ ج، الإسكندرية (مؤسسة شباب الجامعة) ١٩٨١م، ج١ ، ص١٥-٢١ .

٤- Theophnes, The Chronicle of Theophanes, an English Translation of Anni Mundi 6095- 6305 (A.D. 602-813) with introduction and notes by . Hary Turtledove , Pennsylvania , 1982 , pp. 43-45 . Cf. also : Vasiliev, A.A., Op. cit., Loc. cit. Ostrogorsky, G., op. cit, Loc. cit .

وأنظر كذلك : المنجي : المنتخب من تاريخ المنجي ، انتخبه وحققه عمر بن عبدالسلام تدمري، طرابلس (دار المنصور) ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٥٥-٥٦ ، ٥٩-٦١ .

٥- Ostrogorsky , G., Op. cit., p. 147 .

٦- إحسان عباس : العرب في صقلية ، القاهرة (دار المعارف) ١٩٥٩م، ص٢٥-٢٩ .

٧- Procope de Césarée , La Guerre contre les Vandales, Guerre de Justinien, Livres III et IV , traduit et commenté par Denis Roques, Préface de philippe Muray Paris 1990, p. 163. Cf. also: Ostrogorsky , G., Op., cit. p. 100 ; Vasiliev, A.A., Op, cit. p. 137 .

٨- إحسان عباس : نفس المرجع والصفحات السابقة .

٩- البلاذري : المصدر السابق ، ص٢٣٧ .

١٠- النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء الرابع والعشرون، تحقيق د. حسين نصار ، ومراجعة

د. عبد العزيز الأهواني ، القاهرة (الهيئة العامة للكتاب) ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، ص٣٥٣ . وجدير بالذكر أن النويري لم يعين تاريخا لهذه الغزوة ، وإن كان المحقق لروايته هذه أشار في الحاشية رقم (٤) في نفس الصفحة السابقة أن هذه الغزوة كانت في سنة ٣٣هـ . وكان قد سبقه إلى ذلك المستشرق الإيطالي ميخائيل أماري عندما قام بنشر هذا النص. راجع هذا النص عند : ميخائيل أماري: المكتبة العربية الصقلية، نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع ، جمعها وحققها المستشرق الإيطالي ميخائيل أماري، أعادت طبعها مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة ليبسك ١٨٥٧م، ص٤٢٥-٤٢٦ .

١١- راجع هذا النص عند : ميخائيل أماري: المصدر السابق، ص٥٢٥-٥٢٦ .

١٢- ابن الخطيب ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام للوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب، تحقيق وتعليق الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني تحت عنوان تاريخ المغرب في العصر الوسيط، الدار البيضاء، (دار الكتب) ١٩٩٤م، ص١٠٨ .

١٣- ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول ، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان، و أ. ليفي بروفنسال ، ط٣ ، بيروت (دار الثقافة) ١٩٨٣م، ج١ ، ص١٦-١٧ .

١٤- ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق، ج١ ، ص١٨ .

١٥- Teophanes, Op. cit, p. 47 .

١٦- يرى المستشرق الإيطالي ميشيل أماري أن هذه الغزوة حدثت في تاريخ ما فيما بين شهر أكتوبر سنة ٦٤٩م / المحرم – صفر سنة ٢٩هـ ، وشهر يونيو سنة ٦٥٣م/ شوال – ذو القعدة سنة ٣٢هـ ، مع ترجيح عام ٦٥٢م/ ٣١هـ ، تاريخا لوقوعها . ويضيف أنها ضمت بضعة آلاف من المسلمين الذين انطلقوا في سفنهم من الساحل الشامي إلى البحر التيراني. غير أنه لايمكن القبول بما ذهب إليه أماري لأسباب سيرد تفصيلها في المتن . فضلا عن سبب آخر ذو دلالة هامة للغاية وهو أن العام الذي رجحه أماري لتلك الغزوة قد شهد انشغال معاوية ابن حديج بأمر غزو النوبة . إذ يقول ابن عبد الحكم وكان عبدالله بن سعد بن أبي سرح عامل عثمان على مصر في سنة احدى وثلثين فقاتلته النوبة. قال بن لهيعة وحدثني الحرث بن يزيد قال اقتتلوا قتالا شديدا وأصيبت يومئذ عين معاوية بن حديج وأبى شمر بن أبرهة وجبريل بن ناشرة فيومئذ سموا رماة الحدق فهادنهم عبدالله بن سعد إذ لم يطقهم. وهكذا فليس من المعقول أن نجد معاوية بن حديج سنة ٣١هـ / ٦٥٢م، وهو يحارب في أقصى الجنوب المصري ويصاب في عينه، وفجأة ووفق رأي أماري يترك ذلك كله ويتجه في حملة بحرية لغزو صقلية. عن الروايتين أنظر : ابن عبد الحكم، المصدر السابق ، ص١٨٨ . وكذلك :

Amari, M., Storia dei Musulmani di Sicilia, seconda edizione modificata e accresciuta

dall' autore , pubblicato con note a cura di Carlo Alfonso Nallino , Catania , 1933, vol . I, p. 194 .

١٧- يذهب الأستاذ الدكتور حسين مؤنس إلى أن هذه الغزوة وقعت في وقت ما بين سنتي ٢٩-٣٠هـ / ٦٤٩-٦٥٠م، بادئة من ساحل الشام. في الوقت الذي يأخذ فيه الدكتور تقي الدين عارف برأي ميشيل أماري بأن هذه الغزوة حدثت فيما بين عامي ٦٤٩-٦٥٣م/ ٢٨-٣٢هـ ، انطلاقا من الشام في حين يتفق الأستاذ الدكتور ابراهيم أحمد العدوي ، والدكتور عزيز أحمد مع أرشيبالد. ر. لويس في أن الغزوة تمت سنة ٦٥٢م / ٣١هـ ، بداية من الشام أيضا . أما الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي فقد التزم رواية ابن الخطيب بأن الحملة قام بها معاوية بن حديج سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م، أو السنة التي تليها. ونهج الدكتور علي محمد فهمي نهج المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس الذي ينسب الحملة إلى سنة ٦٦٤م/ ٤٤هـ . ويميل الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم إلى ترجيح سنة ٤٦هـ / ٦٦٦م، تاريخا للغزوة . وسوف يتم مناقشة هذه التواريخ كل على حدة في المتن . راجع : حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، القاهرة (مكتبة الثقافة الدينية) د.ت. ص١٢٥-١٢٩ ، تقي الدين عارف الدوري: صقلية ، علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي ٢١٢-٤٨٤هـ / ٨٢٧-١٠٩١م، سلسلة دراسات ، العدد ٢٤ ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام- الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م، ص٢١-٢٢ : ابراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون ، ص٩٨ : عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ، نقله إلى العربية وقدم له مع إضافة حواش وتعليقات متاسبة الدكتور أمين توفيق الطيبي، طرابلس الغرب (الدار العربية للكتاب) ١٩٨٠م، ص٨-٩ ؛ أرشيبالد. ر. لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال ، القاهرة (مكتبة النهضة المصرية) ، ١٩٦٠ ، ص٩١ ؛ أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية (مؤسسة شباب الجامعة) ١٩٩٧م، ص٦-٧، ٣٦ السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ، العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية ، القاهرة (الدار القومية للطباعة والنشر) ١٩٦٦م ، ص١٨٤-١٨٧؛ السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية ، ج٢ ، ص٢٥-٣٦ وكذلك :

Aly Mohamed Fahmy , Muslim Sea- Power in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century A. D., 1950 , p. 64 .

١٨- ابن عذاري : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٣-١٤ .

١٩- فيما يتعلق بأعداد السفن التي شاركت في معركة ذات الصواري، أنظر : ابن عبد الحكم : المصدر السابق، ص١٨٩-١٩١ . وكذلك : السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي : المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٨ .

٢٠- يذكر ابن عبد الحكم أن معاوية بن حديج قام بغزو إفريقية سنة ٣٤هـ / ٦٥٥م، ثم عاد إلى مصر بالغنائم . مما يؤكد ما ذكر في المتن من أنه كان حتى ذلك التاريخ يأتمر بأمر والي مصر، وليس بأمر معاوية بن أبي سفيان والي الشام آنذاك. أنظر : ابن عبد الحكم كالمصدر السابق، ص١٩٢-١٩٤ .

٢١- أوره ابن عبد الحكم أن معاوية بن حديج قام بغزو إفريقية ثلاث مرات ، الأولى سنة ٣٤هـ / ٦٥٥م، والثانية سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠م ، والثالثة سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م . ويتفق معه ابن عذارى في تاريخ الحملة الأولى في حين يذكر أنه غزا بحملته الثانية سنة ٤١هـ/ ٦٦١م ، والثالثة سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م، ويضيف أن أمر إفريقية آل إليه بعد حملته الأخيرة . راجع : ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص١٩٢-١٩٤ ؛ ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٤-١٨ .

٢٢- لمزيد من التفاصيل عن تلك الحملتين وعن انشغال المسلمين عن استكمال فتح إفريقية بعدهما ، أنظر : ابن عبد الحكم : المصدر السابق، ص١٧٠-١٧٣، ١٨٣-١٨٧ ، ابن عذارى: المصدر السابق ، ج١ ، ص٨ . وكذلك : عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي : المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٩ ، ج٢، ص٢١-٢٢ ، عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص٢٨ .

٢٣- عن هذه المعركة ، راجع : عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي: المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٩ . وكذلك :

Amari, M., Op. cit., vol. I, p. 194 .

٢٤- ابن عبد الحكم المصدر السابق ، ص١٩٢-١٩٤ .

٢٥- ابن عذارى: المصدر السابق ، ج١ ، ص١٤-١٥ .

٢٦- لمزيد من التفاصيل عن غزو عقبة بن نافع لإفريقية في تلك الفترة ، راجع : السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ، ص١٧٥-١٧٦ .

٢٧- لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة، أنظر : البلاذري ، المصدر السابق، ص١٦ . وكذلك : السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير، ص١٧٦-١٨٤ .

Theophanes, Op. Cit., p. 50 . Cf. also: Ostrogorsky, Op. Cit., p. 153; Vasiliev, A. A., Op. Cit., p. 221 .

٢٩- المنجي: المصدر السابق ، ص٧٠-٧١ . وكذلك :

Theophanes, Op. Cit., pp. 50-1 . Cf also: Ostrogorsky, Op. Cit.; Vasiliev, A. A., Op. Cit., p. 222 .

٣٠- راجع النص عند : ميشيل أمارى: المصدر السابق ، ص١٩٩ . كذلك أورده ابن عبد الحكم ، والبكري، والحميري ، روايات مشابهة لرواية الواقدي عن مقتل قنسطانز الثاني. وإن كانت كل هذه المصادر قد أشارت إليه باسم قسطنطين . راجع : ابن عبد الحكم : المصدر السابق، ص١٩١ ، البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا ، من كتاب «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) ، تحقيق د. عبد الرحمن علي الحجي ، بغداد (دار الإرشاد) ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م، ص٢١٧-٢١٨ ؛ الحميري: كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت (مؤسسة ناصر الثقافية) ، ١٩٨٠م، ص٣٦٨ .

٣١- أنظر النص عند : ميشيل أمارى: المكتبة العربية الصقلية، ص٣٠٠ .

٣٢- راجع النص عند : ميشيل أمارى : المكتبة العربية الصقلية، ص٢٠٠-٢٠٥ . وقد جاء فيه وقال الراوي وكانت سقلية عظيمة الشأن ، تحل وإنما كان ملك الروم في ثلاثة مواضع من أرض الروم في سقلية وورمية والقسطنطينية من قديم الزمان إلى يومنا هذا . وقال وكانت جزيرة سقلية جزيرة خصبة مسيرة ثلاثة أيام في مثل ذلك ، وفيها عيون غدقة وأشجار بأثمار مرتفقة ، قال فعزم معاوية على غزوها وكتب إلى عثمان بن عفان - رضي الله عنه- في ذلك. قال وبلغ في ذلك لأهل إفريقية فبعثوا إلى أهل سقلية أن العرب قد عزموا على حربكم فكونوا على حذر من ذلك . قال واتصل الخبر بصاحب سقلية فغضب لذلك وقال أتحسب العرب أننا مثل غيرنا من أهل إفريقية. قال وأقلعت المسلمون من ساحل البحر في ثلاثمائة مركب . ولم يشعر أهل سقلية إلا ومراكب المسلمين قد طلعت عليهم تنظرها إليها . قال وبلغ ذلك ملك سقلية فأشرف من قصره ونظر إلى مراكب المسلمين وقد أقبلت وعليها الرايات والأعلام ، وفيها الرجال بالسلاح الشاك الذي لم ير مثله . قال فنظر صاحب قيسارية وكان عنده إلى المراكب ، وكان لما هرب من قيسارية نزل في جزيرة سقلية . وكان يحدث صاحب صقلية عن العرب وما فتحت من الشام ومن مدنها ومن سواحلها ، فلما كان ذلك اليوم التفت صاحب صقلية إلى صاحب قيسارية وقال له أنا أكثر من هؤلاء . هم الذين كانوا بأرض الشام ، قال صاحب قيسارية أيها الملك إنما الذين دخلوا الشام أكثر من هؤلاء وكانوا قوما صالحين أصحاب ثبات وبصائر يقاتلون على نية ودين وحسن يقين، وهؤلاء أظنهم ما يريدون إلا الدنيا فلو أن الملك أعطاهم شيئا لدفعهم عن بلده لكان ذلك عندي هو الرأي . قال فغضب صاحب سقلية من ذلك ثم قال له أنت رجل مرعوب من العرب لأنك رأيت منهم بقيسارية ما قد رأيت . وفي سقلية اليوم من العدد والرجال مثل ما في الشام ومثل ما في أرض مصر وإني لأعرضهم على مائة عارض فتمكثون سنة يتعرضون ، فقال له صاحب قيسارية صدقت أيها الملك؛ ولأجل ذلك فارقت ابن هرقل وصرت إليك لما أعلم من عزمك وكثرة رجالك ، وأن سقلية تقاس برومية . قال فسر صاحب سقلية وفرح . قال وإنما كان الكلام خداع لأجل ما رآه قد غضب من قوله فخشي . قال ورأيت مراكب المسلمين على الساحل ، قال

فأرسل إليهم ملكهم أن ابعثوا منكم رجلا حتى أكلمه بما أريد . قال فبعثوا المسلمون رجلا منهم ترجمان يخبره بما تقول الروم ، فأقبل حتى وقف قدامه . فقال الملك ما أنتم ، فقال المسلم من العرب الذين بلغت دعوتهم أطراف الأرض وأكناف الجبال وأقطار البحار، وأن الله عز وجل بعث إلينا رسولا هو أفضلنا بيانا وأصدقنا حديثا وأكرمنا نفسا، فدعانا إلى الله عز وجل ، فأجبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآمنا به بعضنا وأبى منا آخرون، فقاتل من أبا عليه بالذين آمنوا به حتى أظهر الله العرب قاطبة . ولقد أقر له هرقل ملك الروم قبل اليوم بالنبوة وشهد له بالرسالة . وإن ينكر له ذلك . ولقد خبرنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من قبل وقائه أن الله يفتح علينا وينصرنا على جميع الأديان ويظهرنا . ولقد بلغك ما كان منا بأرض الشام ونحن على ما عليه من النصف وقلة المال والسلاح . حتى هرب منا هرقل إلى القسطنطينية مرعوبا ، فلم يزل كذلك حتى مات بحمرنا ، ثم قام من بعده قسطنطين (والمقصود به قسطنطين الثاني) ، ولده ، ولقد بلغ ما نزل به وبأصحابه أخذتهم الريح وأتخنوا بالجراح ، حتى سار إليكم وشتم به ، وهذا حديثنا . قال فقسم صاحب سقلية ثم قال صدقت نحن قتلناه لأجل ما قتل من أهل دين النصرانية بقلة تدبيره ، ولم يسمع من رأى غيره. قال ثم أقبل صاحب سقلية على المسلم وقال له خبرنا الآن عنكم إذ قصدتمونا في مثل هذا البحر . فقال اعلم إنما قصدناكم ألا أنكم تدخلون في ديننا ، وتؤمنوا بالله ورسوله ، وتقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، وتطيعوا الله في أمره ونهيه ، وتأمنوا على دياركم وأموالكم ، وتولى عليكم رجلا منا يحكمكم شرائع ديننا . وإن أبيتم الدخول في ديننا قاتلوا عهدنا وذمتنا وأدوا الجزية إلينا وقروا في دياركم آمنين وإن أبيت ما عرضناه عليكم فقد أنذرناكم وأعذرناكم واعلموا إنا بعد ذلك ألا السيف ، فإن قتلنا فكفا على بينة من ربنا بأن الجنة مثوانا وإن قتلناكم فإني النار مثواكم كما قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال صاحب سقلية قل لأميركم أن سقلية ليست كصدائن الروم فتحتشموها ، وليس الأمر كما زعمتم وأن سقلية آمنة من ذلك ، وأنتم فقد تدمتم على عبوركم إلينا عندما رأيتم من جمعنا وكثرة سلاحنا ، ولم يفزنا قط أحد من قبلكم إلا ذل وخضع ، وإنا لنغزوا جميع أهل الأديان في ديارهم فنسبيهم ونذلهم ونأتي بهم إلى جزيرتنا أذلة أسارى صاغرين وأما ما عرضتم علينا من إتباع دينكم فهذا لا يكون ولست أفارق ديني ودين آبائي وأجدادي وأما ما سألتمونا من الجزية فقد يجب عليكم أن ترضوا بالمسالمة والمتاركة أن لا تغزوكم في بلادكم . قال فلما سمع المسلم كلام صاحب سقلية قال أفرغت من قولك قال نعم قال نحن قوم لا نرى القتل خزي ولا الفرت عارا ، والقتل إلينا أحب من الحياة . قال فبينما المسلم يكلم صاحب سقلية وإذا ببطريق قد تكلم وقال أيها العربي من يبارزني منكم ، فقال المسلم يبارزك أدنانا وأخمصنا في نفسه. قال فغضب البطريق من كلامه ثم أنه بادر وخرج من باب القصر وفي يده سيف مسلول ودرقة منتبة نحو المسلمين وطلب البراز ، فبرز إليه رجل من إفريقية من أسلم فاختلف بينهما ضربتان فسبقه الإفرنجي بالضربة فجاءت على أم رأسه

فسقط البطريق قتيلا ، ثم وقف الإفرنجي ونادا بأعلى صوته على من مبارز . فقال صاحب سقلية هذا الرجل من العرب فقالوا هذا من أهل إفريقية قد رجع إلى دينهم ، قال فرجع الملك إلى قصره مغموما . وخرجت المسلمون وغاروا على أطراف سقلية وقتلوا ، ثم أخرجوا منجانيق كانت معهم في المراكب ، فنصبوها على حصونهم ورموهم رميا متداركا . ووفق الله المسلمين من اعتدال حجارتهم وقصروا بها حصون الكفار شيا عجيبا . قال وضربت الروم بالمدافع فلم يكن لمرادانهم تكاية . قال وقهروهم المسلمون حتى أخرجوهم من دورهم قال فعندها خرج صاحب سقلية من قصره وقد اجتمعت أهل مملكته وعطمطوا وتفخموا في البرقات ، وأظهروا ما تدروا عليه من آلة السلاح ، ووقفت المسلمون صفوفهم وأظهروا سلاحهم . قال واقتحمت الروم على ميسرة المسلمين فكشفوهم وثبتت الميسنة والقلب ودام الحرب بينهم يومهم ذلك ، فقتل من الفريقين جماعة ثم افترقوا عند المساء فلما كان عند ثلث الليل غارت بعض المسلمين على بعض قرى سقلية ، فأخذوا منها شيا عظيما ثم رجعوا إلى مراكبهم . وبلغ ذلك صاحب سقلية فاغتم لذلك ثم أرسل إلى مقاتلته فدعاهم وقال ما بالكم لا تغيرون عليهم كما غاروا عليكم تبا لكم لقد خشيت أن تؤخذ سقلية منكم كما أخذ الشام من قبل . قال فكتب للروم ولم يردوا جوابه . فقال صاحب سقلية أشير عليك أيها الملك أن تكتب لأمير هؤلاء العرب وتقول له أن يؤخر القتل حتى نرى ما يكون منه من الرأي ، فإذا اجتمع عن المرب نسير إلى الملك الأكبر ونسأله المدد ، قال لا فعلت أبدا ولو أخذت سقلية من يدي . قال فلم يزل المسلمون في المحاربة حتى ملوا أيديهم من القتائم ، وتعلوا منهم خلقا كثيرا . قال وبلغ ذلك ملك الروم فجهز إلى سقلية ستمائة مراكب فيها المقاتلة والسلاح . قال واتصل الخبر بالمسلمين قبل أن يصل إلى سقلية من كلب الروم عدد ، فرأوا من الرأي أن يرحلوا . فقال أميرهم ليس من الرأي أن ترحلوا نهارا فإنا لا ندري ما يكون من الحدثان ، ولكن أخروا هذا إلى الليل، فقالوا ذلك إليك أيها الأمير. قال فلما هدأ الليل ونامت العيون قصدت المسلمين في المراكب وأخلوا من ساحل سقلية ، وهبت الريح فرفعوا الشراعات وسارت المراكب والله يراعيهم وهم سايرون بلا هول ولا فزع حتى أصبحوا على بعد من سقلية ، وساروا حتى وصلوا إلى ساحل الشام. قال فأرسلوا مراكبهم وأخرجوا تلك الغنائم وذلك السبي حتى وصلوا إلى دمشق ، وحضروا بين يدي معاوية ، فأخرج من ذلك كله الخمس ووجهه إلى عثمان - رضي الله عنه- وكتب إليه يخبره بسلامة المسلمين وما كان من سقلية . قال فسر عثمان بذلك وفرح بسلامة المسلمين».

٣٣- عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب، حققه وقدم له ليفي بروفنسال ، ترجمة مقدمة التحقيق وعلق على النص د. حسين مؤنس ، فصلة في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني، العدد ١-٢ ، مدريد ١٣٧٣هـ- ١٩٥٤م ، ص٢١٨ .

٣٤- النويري : المصدر السابق ، ج٢٤ ، ص٢١ .

٣٥- ابن عذارى : المصدر السابق، ج١ ، ص١٩ . وكذلك : السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص١٨٧ .

٣٦- أنظر هذه النصوص عند : Amari , M ., Op. Cit., p. 217 .

٣٧- ابن عذارى : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٨ .

٣٨- ابن عذارى : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٩ .

٣٩- أنظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، خمسة أجزاء ، بيروت (دار صادر) ١٩٧٩م، ج٣ ، ص٤١٧ . وكذلك : حسين مؤنس : المرجع السابق، ص٦٤ .

٤٠- عن هذه الحملة راجع : ابراهيم أحمد العدوى: الأمويون والبيزنطيين، ص١٦٣-١٦٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى: تاريخ البحرية الإسلامية ، ج١ ، ص٣٢ .

د. سهير محمد ابراهيم نصيف(*)

صقلية بين بيزنطة والمغرب العربى

منذ بداية الفتح العربى للمغرب حتى تمام فتح صقلية

حظيت جزيرة صقلية بأهمية تاريخية كبيرة[١]، فهى بحكم موقعها المتوسط بين أوروبا وأفريقية غدت محط أنظار العالم من الشمال والجنوب ، فتتابعت عليها الحضارات اليونانية والفينيقية والرومانية والبيزنطية[٢]. فكانت بمثابة المحطة التى تستقر فيها المؤثرات الحضارية من تيارات سياسية أو تجارية أو ثقافية ، تنتقل منها إلى ما وراءها من البلاد ، واجتمعت فيها مختلف الأجناس على مر العصور[٣].

ولم يكن موضع صقلية الجغرافى بين الشرق والغرب المصدر الوحيد لأهميتها التاريخية فقد جلبت لها ثروتها الطبيعية شهرة واسعة من قديم الزمن ، فهى غنية بالمحاصلات الزراعية مثل القمح والحبوب الزيتية والكروم والموالح والتين وجميع الفواكه على اختلاف أنواعها ، كما تكثر بالجزيرة المعادن مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وهى غنية بعنصر الكبريت[٤].

(*) مدرس تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب- جامعة الإسكندرية .

أدرك المسلمون إبان موجة فتوحاتهم الأولى أهمية موقع الجزيرة، فعقدوا العزم على امتلاكها وضرب ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية فى تلك الناحية ، وهذا ما سوف نتعرض له من أحداث للوقوف على الاستراتيجية التى اتبعها العرب فى ذلك الوقت وعما إذا كان غرضهم من الإغارة على صقلية نوعا من أنواع التمويه وأن جهودهم الحقيقية قد اتجهت ناحية القسطنطينية نفسها باعتبارها مركز الإمبراطورية البيزنطية[٥]. وتؤكد المصادر الإسلامية على تعرض جزيرة صقلية لمحاولات كثيرة من جانب المسلمين للاستيلاء عليها منذ وقت مبكر، واستمرار هذه المحاولات حتى تمكنوا من فتحها فى النهاية فى أوائل القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) وسوف نتعرض فى هذا البحث إلى هذه المحاولات ورد فعل الإمبراطورية البيزنطية وأهالى الجزيرة ومحاولات بيزنطة المستمرة لاستردادها .

كانت أولى هذه المحاولات فى سنة ٦٥٢م / ٣٣هـ وهى الغزوة التى قام بها عبد الله بن قيس الفزارى من قبل معاوية بن حديج والى إفريقية[٦]. واختلفت المصادر الإسلامية فى تحديد تاريخ هذه الغزوة ، ولكنها اتفقت على شخصية عبدالله بن قيس الفزارى[٧] الذى تألفت حملته من مائتى سفينة أغارت ورجعت محملة بغنائم عظيمة [٨].

وفى سنة ٦٥٤/ ٣٥هـ[٩] استطاع المسلمون مهاجمة جزيرة قبرص وفرض الجزية على أهلها فتسبب ذلك فى وقوع الصدام بين البيزنطيين والمسلمين فى موقعة ذات الصوارى الشهيرة هى الموقعة التى هزم فيها البيزنطيون شر هزيمة [١٠]. وكان لانتزاع المسلمين الشام ومصر وانتصاراتهم البحرية فى هذه الموقعة أثره فى فقدان بيزنطة قدرا كبيرا من مكانتها البحرية[١١].

أما عن إغارات المسلمين على جزيرة صقلية فقد توقفت مدة من الزمن مع توقف العمليات الحربية بين بيزنطة والمسلمين، ويرجع ذلك إلى المشاكل الداخلية لكل من الجانبين ؛ ففى الجانب الإسلامى شغل معاوية بن أبى سفيان بنزاعه المعروف مع على بن أبى طالب حول الخلافة الإسلامية[١٢] وفى الجانب البيزنطى سادت الاضطرابات إقليم البلقان وباقى أقاليم الدولة فى الغرب [١٣]. فخرج أهالى صقلية عن طاعتهم للدولة البيزنطية بسبب عدوانهم لمذهب الطبيعة الواحدة، وتحرك اللمبارديون واستولى ملكهم على جنوة ومعظم إقليم لمبجوريا البيزنطى عام ٦٤٢م / ٢٢هـ [١٤]. ولم يلبث أن اتخذ الإمبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١-٦٦٨م) خطوة جريئة لم تتخذ من قبل هى نقل عاصمته وجانب كبير من أسطوله وحوالى عشرين ألفا من

رجال جيشه من الأسيويين إلى مدينة سرقوسة (سيراكوز) بصقلية [١٥]: وقد علل المؤرخين المحدثين لهذه الخطوة من جانب الإمبراطور البيزنطى بأنها جاءت نتيجة الاضطرابات التى قامت فى الممتلكات الغربية فى إيطاليا وصقلية ورغبته فى القضاء عليها وإعادة الهدوء إلى هذه الممتلكات ، كما أنه أدرك الدور الذى يمكن أن تقوم به ممتلكاته الغربية فى حماية امبراطوريته من الناحية البحرية [١٦]، وفى الحقيقة أننا لانستطيع الأخذ بهذه التحليلات كقضية مسلم بها ، ولنا أن نتساءل : لماذا لم يقم أباطرة بيزنطة بهذه الخطوة من قبل لدرء الخطر الذى تعرضت له الممتلكات الغربية فى إيطاليا ، وهو الخطر الذى وصل إلى حد فقدان هذه الممتلكات، وإنما اكتفوا بإرسال القواد لإخضاع هذه الممتلكات أو محاولة استعادتها[١٧]!؟ إذ يتضح منها وجود مشاكل واضطرابات فى الممتلكات الغربية لم يكن بالشئ الجديد، وإنما الجديد هنا هو ظهور قوة المد الإسلامى الذى استطاع فى فترة وجيزة من الزمن الاستيلاء على ممتلكات بيزنطة فى الشام ومصر والمغرب ، كما نمت قوة المسلمين البحرية حتى أخذت تتحرش بأكبر قوة بحرية موجودة فى حوض البحر المتوسط فى ذلك الوقت وهى البحرية البيزنطية ثم توالى لهجمات المسلمين فى الإغارة على جزر البحر الأبيض المتوسط وانتزاعها من بيزنطة[١٨]. فهل جاءت هذه الأمور مصادفة أم وفق خطة واستراتيجية هدفت إلى السيطرة السياسية بصفة عامة والسيطرة الاقتصادية بصفة خاصة ؛ لكى تتحقق لهم هذه السيطرة كان لابد لهم من امتلاك مراكز تقع على الطرق التجارية العالمية فى البحر الأبيض المتوسط مثل جزيرة صقليه وقبرص وكريت وسردنية . هذا إلى جانب ضغطهم على القسطنطينية الحصينة التى تصب فيها الطرق التجارية الآتية من الشرق الأقصى. وإذا وضعنا فى اعتبارنا الوضع الذى نجم عن استيلاء العرب على مصر الغنية بالقمح ومصدر تموين القسطنطينية بد، لأدركنا مدى الخسارة التى منيت بها بيزنطة ، فكان عليها إيجاد مصادر جديدة للقمح[١٩] وكانت صقلية من أهم هذه المصادر وتعد هذه ميزة كبيرة للجزيرة تضاف إلى موقعها على الخطوط البحرية التجارية، والتى استغلته بيزنطة فى سياستها الاحتكارية وحربها الاقتصادية التى خاضتها ضد المسلمين والتى أدت فى سنة ٧١٨م / ١٠٠هـ إلى ثورة حاكم صقلية[٢٠] وأدركنا أيضا طبيعة الصراع فى ذلك الوقت فقد استخدمت بيزنطة فى حربها مع المسلمين وسائل الحرب البحرية والاقتصادية لإحراز النصر وذلك فى المدة من ٧١٥-٧٥٢م / ٩٧-١٣٥هـ[٢١] واستطاعت بالفعل استعادة مكانتها البحرية فى النصف الثانى من القرن الثامن حتى أصبحت أكبر قوة بحرية فعالة فى البحر المتوسط وقد واحتفظت

بصيادتها البحرية التي استعادتها سنة ٧٤٧م/ ١٣٠هـ [٢٢]، ولم يعد لأساطيلها في بحر إيجة وصقلية أي منافس كما سيطرت على جزائر صقلية وكريت وقبرص وسردينية وجزر البليار، وتحكمت في المضايق الهامة الواقعة على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، وبذلك عرقلت استخدام العرب المنافسين لمياه البحر المتوسط[٢٣]. وأصبح أسطول صقلية يحرس الخطوط الملاحية من ناحية الغرب ويقطع الطريق على مراكب التجار التي يصادفها في المنطقة[٢٤].

وفي ضوء هذه الحقائق نستطيع أن ندرك أهمية الخطوة التي اتخذها قسطنطين الثاني وعلينا إذن أن نعطيه حقه في فهم الأوضاع السياسية والاقتصادية في ذلك الوقت . فقد تمكن في مدة عشر سنوات التي أقامها في صقلية من إعادة تثبيت دعائم الحكم البيزنطي في الغرب فساد السلام صقلية وسائر الجزر المملوكة للدولة البيزنطية في الغرب على أن القدر لم يمهله ، فتعرض للقتل على يد أحد قواده في صقلية[٢٥] الأمر الذي شجع معاوية على إرسال حملة لغزو صقلية في عام ٦٦٩م / ٤٩هـ[٢٦] مستغلا أوضاع بيزنطة بعد مقتل قسطنطين وعودة خليفته قسطنطين الرابع إلى القسطنطينية . وفي نفس الوقت أغار معاوية على خلقدونية[٢٧] وهوجمت جزيرة كريت في سنة ٦٧٢م / ٥٢ هـ. ثم حوصرت القسطنطينية مدة سبع سنوات من (٦٧٣م-٦٧٩م) (٥٣-٦٠هـ) [٢٨].

وبعد استقرار الأمور للمسلمين في المغرب بصفة نهائية وانتهاء الوجود البيزنطي من شمال أفريقيا[٢٩] أمر الخليفة عبد الملك بن مروان وإلى إفريقية حسان بن النعمان الغساني إنشاء قاعدة بحرية هناك وأرسل له من يعاونه في بناء الأسطول من أقباط مصر ممن يتقنون مهنة بناء السفن[٣٠] . وبذلك أصبحت مدينة تونس التي تأسست في سنة ٧٠٣م / ٨٤هـ قاعدة بحرية بفضل المراكب الخربية التي كانت تصنع بدار صناعتها ، وأخذت تعترض الأسطول البيزنطي وتغير على جزر البحر، خاصة على صقلية وسردنية، ثم تمكن المسلمون من الاستيلاء على جزيرة قوصرة[٣١] التي تقع قرب الشاطئ الأفريقي ؛ فسيطروا بذلك على المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية[٣٢].

وفي عام ٧٠٣م / ٨٥هـ قام أسطول من مصر بالإغارة على صقلية ورجعوا محملين بالغنائم . وفي طريق العودة تعرضت سفنهم لعاصفة شديدة مما اضطرهم إلى اللجوء للقاعدة البحرية الجديدة في تونس[٣٣]. وأعقبت هذه غارة أخرى في عام ٧٠٤م / ٨٦هـ حيث أرسل

موسى بن نصير أسطولاً من قاعدته الجديدة في تونس للإغارة على صقلية وسردينية. كما استخدم أسطوله في الإغارة وتهديد الأسطول البيزنطي في قواعده بصقلية وسردينية وجزر البليار[٣٤] ويبدو أن موسى بن نصير كان يعمل على حماية خطوط مواصلاته البحرية ومرافئ الأسطول البيزنطي في جزيرة سردينية وصقلية[٣٥] أو بمعنى آخر فإن تونس أصبحت القاعدة البحرية الإسلامية التي كانت تشن منها الغارات على صقلية. وفي عام ٧٢٠م / ١٠٢هـ انتهز المسلمون فرصة عصيان حاكم جزيرة صقلية في عام ٧١٨م / ١٠٠هـ وأغاروا على الجزيرة[٣٦].

في تلك الفترة ساءت أحوال صقلية وإيطاليا بسبب الاضطرابات التي تسببت عن معارضة الحركة اللاأيقونية ورفض الأهالي القرارات الدينية التي أصدرها الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الأيسوري (٧١٧-٧٤١م) ، فاندلعت الثورات في إيطاليا عندما حاول الموظفون البيزنطيون فرض هذه القرارات الدينية بالقوة، مما أتاح الفرصة للمباردبين لضم أجزاء جديدة من إيطاليا لأملاكهم. وعاقب ليو الثالث البابا بمصادرة الأملاك البابوية في جنوب إيطاليا وصقلية وأخرج صقلية من نطاق النفوذ البابوي وأمر بمصادرة ما كانت تؤديه الجزيرة من خراج لروما[٣٧].

وقد استغل المسلمون في المغرب هذا الوضع المتدهور وعاودوا الإغارة على جزيرة صقلية وسردينية ، ففي عام ٧٢٧م / ١٠٩هـ قام بشر بن صفوان الكلبي والي إفريقية بالإغارة على قبرص وعاد محملا بالغنائم والسبايا [٣٨]. وقد تميزت هذه الفترة الزمنية بتوالي حملات المغرب على صقلية وسردينية ، أو بمعنى آخر شهدت جزيرة صقلية ضغطاً بحرياً متوالياً في الفترة من سنة ٧٢٧-٧٤٠م / ١٠٩ هـ- ١٢٢ هـ فكانت في سنة ٧٢٨ / ١١٠هـ حملة[٣٩] وفي سنة ٧٢٩ / ١١١هـ [٤٠]. وفي سنة ٧٣٠ / ١١٢هـ[٤١] وسنة ٧٣٢م / ١٤[٤٢] هـ وسنة ٧٣٣م / ١١٥هـ[٤٣]. وفي سنة ٧٣٥م / ١١٦هـ نجحت حملة بقيادة عثمان ابن أبي عبيدة الفهري من النزول على أرض جزيرة صقلية ورجعت محملة بالغنائم ولكن حدث في طريق عودتها أن اعترضتها بعض قطع الأسطول البيزنطي وتقاتلا ولكن الأسطول البيزنطي من إصابة بعض مراكب الحملة وأسر عددا كبيرا من الأعيان[٤٤].

ولكنهم في النهاية انتصروا على البيزنطيين وقفلوا راجعين إلى تونس . ولم يعالفهم الحظ بعد ذلك في حملة سنة ٧٣٧/ ١١٨هـ فلم تتمكن هذه الحملة من تحقيق أغراضها[٤٥] . ثم

كانت حملة حبيب بن أبي عبدة في سنة ٧٤٠ / ١٢٢هـ وولده عبد الرحمن بن حبيب الذي سار إلى سرقوسة، وضرب بابها بسيفه، وحقق انتصارات هائلة، وأرغم أهل سرقوسة على دفع الجزية، حتى أنه عزم على البقاء بالمدينة إلى تمام فتحها لولا ثورة ميسرة[١٤٦] بولاية إفريقية.

بعد أن استقل عبد الرحمن بن حبيب عاد ثانية لغزو الجزيرة في سنة ٧٥٤ / ١٣٥هـ وفرض على أهل الجزيرة الجزية مرة أخرى[١٤٧]. وصمتت المصادر العربية عن ذكر قيام حملات على جزيرة صقلية بعد هذه الحملة، إذ يبدو أن غارات المسلمين على صقلية دخلت في مرحلة هدوء مدة تقترب من نصف القرن، ولابد من وجود تفسير لهذا الأمر من الجانبين المتصارعين، ففي الجانب الإسلامي نجد ولاة إفريقية وقد انشغلوا بالفتن الداخلية والثورات[١٤٨]، في نفس الوقت تمكنت بيزنطة من استعادة مكانتها البحرية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي/ النصف الثاني للقرن الثاني الهجري. واحتفظت بيزنطة بهذه السيادة التي استعادتها بعد عام ٧٤٧م[١٤٩] / ١٣٠هـ، فسيطرت على جزائر صقلية وكريت وقبرص وسردينية وجزر البليار، وتحكمت في المضايق الهامة الواقعة على طريق التجارة وحالت دون استخدام العرب المنافسين لها في مياه البحر المتوسط[١٥٠]. وأصبح أسطول صقلية يحرس الخطوط الملاحية من ناحية الغرب وعمل على الإحالة دون وصول سفن التجار المصريين والسوريين إلى غرب البحر المتوسط. وبمعنى آخر فإن بيزنطة أغلقت غرب البحر المتوسط في وجه المسلمين[١٥١].

مع حلول القرن التاسع الميلادي (أواخر الثاني وأوائل الثالث الهجري) أخذ الموقف داخل الإمبراطورية البيزنطية في التغيير فقد أهملت قوتها البحرية كما اجتاحتها الفتن والاضطرابات لاسيما في أواخر عهد الأسرة الأيسورية[١٥٢] في نفس الوقت الذي شهدت شمال إفريقية قيام دولة الأغالبة الذين حرصوا على دعم قوتهم البحرية، وأغراهم وضع بيزنطة الذي سبق الإشارة إليه على القيام بأعمال بحرية انتهت بعقد اتفاقية بين بطريق صقلية والأغالبة مدتها عشر سنوات، جددت لمدة عشر سنوات أخرى[١٥٣]. ولم يلتزم الأغالبة بهذه الاتفاقية فقاموا بغارات على جزيرة سردينية في أعوام ٨١٢م / ١٩٧هـ، ٨١٣م/ ١٩٩هـ[١٥٤] ومهاجمة صقلية : سنة ٨٢٠م / ٢٠٥هـ[١٥٥]. واستولوا في سنة ٨٢١م / ٢٠٦هـ على سردينية[١٥٦].

* * *

وتدل الاستعدادات التي قام بها الأغالبة لتقوية أسطولهم وزيادته على أنهم عقدوا العزم على فتح صقلية، وأن انتظارهم إنما كان لتحين الفرصة المناسبة للقيام بهذا العمل، وبالفعل واتتهم هذه الفرصة عندما حضر القائد البيزنطي أوفيميوس Euphemius - الخارج على الإمبراطور البيزنطي- مع أنصاره يطلب المساعدة من زيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب الأمير الأغلبي للوقوف في وجه البيزنطيين[١٥٧]. وبمعنى آخر فإنه كان يأمل في معونة عربية تساعده في الاستقلال بالجزيرة عن الحكم البيزنطي. وربما لجأ في سبيل تحقيق ذلك إلى ذكر بعض الأخبار الكاذبة عن نقض البيزنطيين للهدنة، واحتجاز عدد من أسرى المسلمين[١٥٨]، هكذا جاءت الفرصة التي كان ينتظرها الأغالبة فقرروا غزو صقلية[١٥٩].

في منتصف شهر يونيو سنة ٨٢٧م / نصف ربيع الأول سنة ٢١٢هـ وصل إلى صقلية أسطول كبير مكون من ٧٠- ١٠٠ سفينة محملة بسبعمائة فرس[١٦٠]. وحوالي عشرة آلاف راجل[١٦١] وكان على رأس هذا الجيش القاضي أسد بن الفرات قاضي إفريقية الذي تذكر المصادر العربية أن ذلك تم بناء على طلبه من الأمير زيادة الله بن الأغلب[١٦٢]. وخرجت معه نخبة كبيرة من أشراف إفريقية من العرب والجند والبربر والأندلسيين وأهل العلم[١٦٣].

على أية حال وصل الأسطول إلى ساحل مازر صباح يوم الثلاثاء ١٦ يونية / ١٣ من ربيع الأول. وبعد ساحل مازر أقرب نقطة من سواحل صقلية إلى إفريقية، كما كان يبعد عن مركز القوات البيزنطية في الجزيرة، واستولى أسد بن الفرات وقواته على مازر حيث غنم المسلمون الكثير وتم أسر أعدادا كبيرة[١٦٤]. ورحل الجيش من مازر حيث واصل طريقه إلى مرج -ينسب إلى بلاطة[١٦٥]- حيث تقاتل جيش المسلمين مع جيش بلاطة، الذي قتل من أصحابه الكثير، فخاف بلاطة وهرب إلى قصريانة Castrgiovanni ولكن الخوف غلبه فخرج منها متوجها إلى قلوريه Calabria فحاصره المسلمون وقتلوه[١٦٦].

واستطاع أسد بن الفرات مع قواته التخلص من بعض المعوقات وهو في طريقه إلى سرقوسة التي حاصرها ولكنه لم يتمكن من فتحها، إذ مرض مرضًا شديداً ثم جاز إلى ربه في النهاية[١٦٧]. وكان ذلك في نفس الوقت الذي تنبهت القسطنطينية للخطر، فجمعت قوة بحرية، وطلبت المساعدة من البندقية؛ ثم وصل الأسطول البيزنطي إلى سرقوسة حيث يحاصرها المسلمون[١٦٨]. واستطاع الأسطول البيزنطي إنزال الهزيمة بالسفن الإسلامية وإجبار المسلمين إلى الالتجاء لميناء سرقوسة، ولما عجز المسلمون عن الفرار بباقي سفنهم أحرقوها وانسحبوا

إلى قلعة مينار Minao وتحصنوا بها [٦٩]، وفي سنة ٨٢٩م / ٢١٤هـ تمكن المسلمون من الاستيلاء على مازر التي نزلوها في أول الأمر بمساعدة النجدة الأندلسية تحت قيادة فرغلوش وقد استطاع فرغلوش تخليص المسلمين المحاصرين في قلعة مينار ، كما قام بهدم أسوار القلعة[٧٠] ثم جد في السير مع باقي الجيش وحاصروا مدينة بلرم الهامة الواقعة على الشاطئ الغربي لصقلية [٧١]. وكان أن تم الاستيلاء على بلرم سنة ٨٣١م / ٢١٥هـ وصارت أهم قاعدة حربية وأعظم مراكز القوة الإسلامية بصقلية وتمتعت بنوع من الحكم الذاتي، وكانت تابعة إسميا لشمال إفريقية فأصبحت مركزاً للأساطيل الإسلامية التي قامت بالإغارة على شواطئ إيطاليا وباقي ممتلكات بيزنطة في جزيرة صقلية[٧٢].

وتولى بعد ذلك سقوط قلاع جزيرة صقلية ومدنها ، ففي سنة ٨٣٩م / ٢٢٥هـ كان المسلمون يمتلكون جرجنت [٧٣]، وقلعة البلوط[٧٤]، وابلاطنوا [٧٥]، وقلعة قالون[٧٦] ، ومرينانو[٧٧] وغير ذلك من القلاع . وفي سنة ٨٣٥م / ٢٢٠هـ تمكن المسلمون من الاستيلاء على جزيرة قوصرة[٧٨] وبذلك أصبح الطريق بين الجزيرة وإفريقية مفتوحا بعد زوال الخطر. وترتب على ذلك إرسال الإمدادات إلى جزيرة صقلية بسهولة أكثر من قبل وقوى مركز المسلمين تحالفهم مع مدينة نابلي[٧٩]. وهو التحالف الذي زاد من قوة الأسطول العربي ، مما أدى إلى إضعاف قوة أسطول بيزنطة في تلك الناحية من مياه البحر المتوسط .

ومن بلرم حاول أميرها في سنة ٨٣٨م / ٢٢٤هـ الهجوم على قلعة شلفودة البحرية الواقعة على ساحل الجزيرة من الشمال ، لكن هجومه انتهى بالفشل ، بسبب نجدة أسطول القسطنطينية الذي أجبر المسلمين على الانسحاب [٨٠]. وهكذا واصل المسلمون في صقلية كفاحهم من أجل تمام فتح الجزيرة واستطاعوا في سنة ٨٤٣م / ٢٢٩هـ الاستيلاء على مسينا[٨١] وبذلك أصبحت لهم السيطرة على موقع استراتيجي هام أتاح لهم التفوق على الأسطول البيزنطي الذي لم يكن متواجداً بشكل يكفي لحماية هذا المركز الهام من السقوط في يد العرب المسلمين. وأعقب هذا النصر ، نصر آخر ، إذ تمكن المسلمون من أخذ شلفودة[٨٢] بعد حصارها براً وبحراً وهزمة الأسطول البيزنطي، الذي كان يتكون من أربعين سفينة . وقد أدت هزيمتها هذه إلى إرسال أسطول كبير من الشرق إلى سرقوسة تكون من ثلثمائة سفينة وعبر هذا الأسطول مضيق مسينا لاستعادة شلفودة ، والتقى الأسطولان العربي والبيزنطي في اتجاه الساحل الشمالي لصقلية ، وكانت النتيجة انتصارا عظيما للمسلمين وفقدان بيزنطة لحوالي مائة سفينة . وتعد هذه أكبر هزيمة لحقت بالقوات البيزنطية[٨٣].

ومما لاشك فيه أن هذه الانتصارات العظيمة قد رفعت من معنويات العرب في صقلية وزادتهم قوة ساعدتهم على مواصلة الفتوحات ، ففي سنة ٨٤٤م/ ٢٢٩هـ استطاع المسلمون إلحاق الهزيمة بأهل صقلية في مدينة بشيرة (Butera) فتركوا في أرض المعركة أعداداً كبيرة من قتلاهم في مقابل خسائر طفيفة من الأنفس في الجانب الإسلامي[٨٤]. وفي السنة التالية (٨٤٦-٨٤٧م / ٢٣٢هـ) استولى المسلمون على مدينة لنتيني على الساحل الشرقي لصقلية شمال سرقوسة حيث ضرب عليها الحصار وانتهت المعركة مع أهلها تسليم مدينتهم إلى العرب في مقابل الأمان لأنفسهم وأموالهم [٨٥]. وسلمت كذلك أرغوس[٨٦] بالأمان للعرب في السنة التالية ٨٤٨م / ٢٣٤هـ .

وعندما تولى العباس بن الفضل الأمر في صقلية بعد وفاة أبي الأغلب ابراهيم بن عبدالله، أخذ في ممارسة نشاط مكثف في سبيل إتمام فتح الجزيرة وإنهاء الوجود البيزنطي بها، فبث السرايا في الأماكن المحيطة ، بقصريانه ، وخرج بنفسه إلى قصريانه سنة ٨٥٧م / ٢٤٣هـ وهزم أهلها حينما خرجوا للقائه ، ثم تابع مسيرته إلى سرقوسة وطبرمين حيث نهب وخرب وأحرق على طول الطريق حتى نزل عند الحصن الجديد الذي كان قد بناه الروم في طبرمين واستطاع الاستيلاء على الحصن بعد أن فرض شروطه على الروم المتحصنين به [٨٧].

وفي سنة ٨٥٩م / ٢٤٤هـ تمكن المسلمون من محاصرة سرقوسة من ناحيتي البر والبحر والتقى أسطول العرب بالأسطول البيزنطي الذي كان يتكون من أربعين شلنديا[٨٨] تحت قيادة شخص يدعى الكريتلي[٨٩] وانتهى القتال البحري بانتصار المسلمين وأسر عشرة شلنديات برجالها ، وعاد الجيش البري والأسطول العربي إلى قواعده في بلرم محملا بالمغانم والسبي[٩٠].

ثم ما لبث أن حلت بالقوات البيزنطية هزيمة أخرى كبرى حينما نجح المسلمون في صقلية في الاستيلاء على حصنها البري قصريانة عام٨٥٩م / ٢٤٤هـ [٩١]. وأصبح المسلمون بهذا النصر يمتلكون ثلثي جزيرة صقلية، بينما اقتصرت ممتلكات بيزنطة في صقلية على الساحل الشرقي، فيما حول سرقوسة وبعض الجهات الداخلية. وبعد حوالي ثمان سنوات قرر المسلمون إتمام فتح صقلية، فأرسل والي بلرم جيشا بريًا وحراقات [٩٢]، إلى سرقوسة . واستطاعت نجدة من الأسطول البيزنطي أن ترد المهاجمين على أعقابهم في سنة ٨٦٨م / ٢٥٤هـ [٩٣]، فلم ييأس المسلمون وتوالى ضغطهم على سرقوسة حتى تمكنوا في سنة ٨٧٧م/ ٢٦٤هـ من الاستيلاء عليها في النهاية[٩٤]. وبذلك دانت معظم جهات الجزيرة للمسلمين ولم يبق لبيزنطة سوى

طبرمين وجزء متنيل على المضيق تجاه ريو. واستمر الضغط على هذه الأماكن ، ففي سنة ٨٧٨م / ٢٦٥هـ تمام صاحب صقلية الحسين بن رباح بإعادة الكرة على طبرمين، ودارت معركة قتل فيها من المسلمين أعداد كبيرة، ثم كانت لهم كرة أخرى وقتل أعداد كبيرة من أهل طبرمين والحامية البيزنطية[٩٥].

وفي عام ٨٨٠م / ٢٦٧هـ ظهر أسطول بيزنطي في مياه صقلية وهدد طريق التجارة بين المسلمين وبين مدن جنوب إيطاليا، واستطاع أن يستولي على كميات كبيرة من زيت الزيتون ، وتعد هذه العملية دليلاً واضحًا على ممارسة القسطنطينية لعمليات القرصنة البحرية[٩٦] وقام هذا الأسطول بتهديد بلرم وانتهى به الأمر بعقد هدنة مع المسلمين في عام ٨٨٥م / ٢٧٢هـ[٩٧].

وفي عام ٨٨٦م / ٢٧٣هـ تمكن المسلمون من الاستيلاء على قلورية ، وحينما حاول الأسطول البيزنطي التصدي للمسلمين واسترجاع قلورية انهزم شر هزيمة وتحطمت سفنه[٩٨]. ثم كانت الضربة الكبرى التي وجهها الأغالبة ضد البيزنطيين في صقلية، حيث وجهت حملة بحرية وبرية بقيادة ابراهيم بن الأغلب في سنة ٩٠٢ / ٢٩٠هـ من بلرم ضد المواقع المملوكة لبيزنطة في صقلية مثل طبرمين والجهات المحيطة بها. وانتهت الحملة بسقوط المنطقة كلها في أيدي المسلمين ولم يبق غير موضع واحد هو طبرمين الجديدة Taormina[٩٩] .

هكذا وقعت صقلية كلها في قبضة المسلمين بشمال إفريقية ، على الرغم من الكفاح الطويل لبيزنطة للحيلولة دون ذلك، فقد استطاع البيزنطيون تأخير إتمام فتح الجزيرة مدة تصل لحوالي خمسة وسبعين عاما. وكان أن أصبحت صقلية القاعدة الإسلامية البحرية التي تسيطر على الطرق التجارية في تلك الناحية بعد أن انهارت سيطرة بيزنطة على البحر المتوسط[١٠٠]. وقد سيطر المسلمون على الجزر ذات المواقع الهامة لأغراض دفاعية في أول الأمر وانتهت بتحقيق الأغراض التجارية والدفاعية في وقت واحد، وبذلك أصبح للدولة الإسلامية ثلاثة مراكز قوية[١٠١] تدعم العالم الإسلامي وتحمي طرق تجارته ، وتعد صقلية أهم هذه المراكز القوية . ارتبطت صقلية بشمال إفريقية تحت حكم الأغالبة حتى عام ٩٠٩م / ٢٩٦هـ عندما انتقل الإشراف عليها إلى الفاطميين[١٠٢].

وفي الوقت الذي ازداد النشاط البحري للإمبراطورية البيزنطية وبالتحديد في النصف الثاني من عهد الأسرة المقدونية ، فقد استطاع نقفور فوقاس (٩٦٣-٩٦٩م) الاستيلاء على طرسوس وضمها ثم كان توغله في الشام بعد ذلك واستيلاءه على أنطرسوس ومرقية وجبلة

واللاذقية[١٠٣] وأنطاكية[١٠٤]. ثم توجه بعد ذلك ناحية الغرب محاولا استعادة صقلية من قبضة المسلمين وواتته الفرصة حينما استنجد به أهل رمطة عندما حاصرهم المسلمون وقطعوا عنهم المياه سنة ٩٦٥م / ٣٥٣هـ[١٠٥] وكان المسلمون قد تمكنوا من استعادة طبرمين في سنة ٩٦٣م / ٣٥١هـ[١٠٦] وقاموا بعدها بحاصرة رمطة. وضيقوا عليها الخناق ، وعلى الفور جهز الإمبراطور البيزنطي نقفور أسطولا قويا يتكون من عدد كبير من السفن الحربية ونحو أربعين ألفا من المقاتلين ، وأرسله إلى الجزيرة التي وصلها في نفس الوقت الذي كان المسلمون يحاصرون رمطة ويضيقون عليها الخناق . وكان أمير صقلية قد استنجد بالخليفة الفاطمي المعز لدين الله في شمال إفريقية يطلب المعونة ، وأجابه المعز إلى ذلك . وسير حملة لمساعدته فنزل جزء منها لمعاونة محاصري رمطة في حين انضم الباقي إلى جيش الجزيرة[١٠٧]. وعندما التقى الأسطول البيزنطي بأسطول صقلية والأسطول الفاطمي عند مضيق مسينا ، عجزت القوات البيزنطية عن أن تكون ندا للقوات الإسلامية ، ودارت معركة كبيرة لقي فيها قائد الحملة البيزنطية مصرعه وانهزم البيزنطيون هزيمة منكرة ، مثلما انهزموا من قبل عند نفس المضيق في عام ٨٥٩، ٨٨٨م . ٢٤٥ ، ٢٧٥هـ[١٠٨] بفضل استخدام المسلمين للخطاطيف وما يشبه النار الإغريقية ، واستطاعوا تحطيم السفن البيزنطية والقضاء على محاولتها للسيطرة على الجزيرة. وقد تم عقد صلح بين البيزنطيين والمسلمين في صقلية. وجنح حكام الجزيرة المسلمون إلى السلم مع بيزنطة، وذلك بسبب ما ابتليت به صقلية من مشاكل بين العرب والبربر ، وفي عام ١٠٣٥م / ٤٢٧هـ اعترف أميرها وهو أحد أفراد الأسرة الكلبية بسيادة النفوذ البيزنطي[١٠٩]. وأعقب ذلك نشوب ثورة بالجزيرة بتأييد من بني زيري في شمال إفريقية، واستطاع الثوار تنحية الأمير الموالي للبيزنطيين عن الحكم وإحلال أخيه محله في حكم جزيرة صقلية[١١٠]. وعلى إثر ذلك قام البيزنطيون بتجهيز جيش كبير بقيادة جورج منياس وأسطولا بقيادة ستيفن كان، ونزل منياس في عام ١٠٣٨م / ٤٣٠هـ[١١١] هو والقوات البرية على أرض صقلية، وتمكن من الاستيلاء على سرقوسة وسائر بلاد القسم الشرقي من الجزيرة ، لكن البحرية الإسلامية استطاعت اختراق الحصار البحري وخلصت شلفودة وانتهى أمر هذه الحملة بموت قائدها منياس[١١٢].

وبانتهاء هذه المحاولة انتهت صفحة الصراع البيزنطي الإسلامي حول جزيرة صقلية وفقدت بيزنطة الأمل في إعادة السيطرة على صقلية وجنوب إيطاليا. على أن الجزيرة قد دخلت مرحلة أخرى من الصراعات الداخلية والفتن مما أدى بها في النهاية إلى سقوطها في يد النورمانديين في سنة ١٠٩١م / ٤٦٥هـ[١١٣]، مما أنهى حكم المسلمين لصقلية .

هوامش البحث

١- صقلية من جزائر البحر المتوسط تقع مقابلة لمدينة تونس (إفريقية) في المغرب وهي مثلثة الشكل طولها سبعة وسبعون ميلا وعرضها مائة سبعة وخمسون ميلا ومحيطها ثمانمائة ميل ، راجع : الحميري (محمد عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م ص٣٦٧ ؛ ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبدالله) معجم البلدان ، بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ج٣ ص٤١٦؛ أبي الفداء (عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر) تقويم البلدان، باريس ، ١٨٤٠م ص١٩٤ ؛ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) نهاية الأرب في فنون الأدب ، بدون تاريخ ج١ ص٢٢٤ ويذكر البكري أن اسم المدينة نسبة إلى سيقلو أخو إيطال الذي سميت به إيطاليا ، راجع البكري في المكتبة الصقلية (المكتبة العربية الصقلية) تعريب في التاريخ والبلدان والتراجم جمعها وحققها ميخائيل آماري، طبعة سعادة بالأوفست ، مكتبة المثنى ببغداد ١٨٥٧م ص ٢١ .

٢- امتلك ثيودوريك ملك القوط الشرقيين جزيرة صقلية إلى جانب إيطاليا فأضافت رخاءً إلى إيطاليا نظرا لما تمتعت به صقلية من وفرة في الحبوب إلى جانب موقعها التجاري المتميز ، وفي سنة ٥٣٥م تمكن بلزاريوس من استرجاع صقلية إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية ، راجع :

Procopius. History of the Wors ed Dewing - New - York (1914-1940) III, p. 167 ; Hodgkin , Fiheodoric the Goth. New York 1897. PP. 97-206 ; Canon, N. F: Med. Hist. (New York 1964) p. 161 ;

محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، طبعة ثانية ١٩٩٧م، ص٤٨

٣- ابن سعيد (كتاب الأخبار المطربة في حلى جزيرة صقلية في الذكرى المئوية لمشيل آماري ص٢٩٣ في ابن الخطيب (لسان الدين الوزير الغرناطي) كتاب أعمال الأعلام (القسم الثالث) (المغرب العربي في العصر الوسيط) تحقيق د. أحمد مختار العبادي، الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني الدار البيضاء، ١٩٦٤م ص٢٦ حاشية رقم (٢) ؛ إحسان عباس ، العرب في صقلية ، دار المعارف ١٩٥٩ ص٢٥ .

٤- ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي) صورة الأرض ، بيروت بدون تاريخ ص١١٣-١٢٥ ؛ الحميري ، المصدر السابق ، ص٣٦٧ وصقلية في اللسان القديم بمعنى ثيز وزيتون ؛ ياقوت ، المعجم ، ج٣ ص٤١٧ ؛ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) نهاية الأرب في فنون الأدب ، (السفر الأول) القاهرة بدون تاريخ ص٢٣٤؛ القزويني(زكريا بن محمد بن محمود) آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت بدون تاريخ ص٢١٥-٢١٦ .

Theophanes : The Chronicle of Theophanes, by Harry Turtedove, Persylvnia 1982 , p.45 .

Wiet (Gaston), Histoire la nation Egyptienne L'Egypte Arab . Paris 937, p. 38 :

ارشيبالد . ر . لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال ، ص٩٦ .

٦- يذكر البلاذري هذه الغزوة في خلافة معاوية بن أبي سفيان لم يحدد سنة لهذه الغزوة ويذكر في نفس الوقت اسم معاوية بن حديج الكندي الذي أرسل عبد الله بن قيس الفزاري إلى صقلية راجع ؛ البلاذري (أبي الحسن البلاذري) فتوح البلدان ، القاهرة ط (١) ١٣٥ هـ. ١٩٣٢م، ص٢٣٧؛ ابن عذارى المراكشي (البيان المغرب في أخبار المغرب، بيروت جزءان بدون تاريخ ، ج١ ص١٢ ؛ النويري، نهاية الأرب ج٢٤ ، ص٢٥٣ وأيضا حاشية رقم (٤) .

٧- قارن كل من البلاذري والنويري وابن عذارى في الصفحات السابقة فكل من المصادر الثلاثة تتفق على اسم عبدالله بن قيس الفزاري وأن غزوته كانت أول غزوة ولكنها في نفس الوقت تختلف في تحديد تاريخ هذه الواقعة أو تصمت عن تحديد التاريخ مكتفية بأن هذه الواقعة كانت في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، فإذا كان هنا صحيحا فإن التاريخ الذي أتى به ابن عذارى ليس صحيحا لأن معاوية لم يكن قد أصبح بعد خليفة إذا كان يقصد فترة ولايته للشام تستطيع في هذه الحالة الأخذ بهذا التاريخ قارن ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر، القسم التاريخي، طبعة المنيرة ، بدون تاريخ ص٢٦١ . وهو يذكر غزوات معاوية بن حديج في المغرب في سنة ٣١هـ. ولم يأت بذكر صقلية وقارن أيضا مناقشات هذه التواريخ وتناقضها نهائي .

Cheira M. A., le Loute entre Arabes et Byzntins la conquête et l'organisation des frontiéres aux XVII et VIII siecle, p. 83 et n.2 .

٨- ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج١ ص٢ ؛ النويري، ج١٤ ، ص٣٥٣؛ يذكر النويري فتح وسبي وغنم فكان مما غنم أصنام من ذهب وفضة مكللة بالجواهر فحملها إلى معاوية بن أبي سفيان فأنفذها معاوية إلى الهند لزيادة تبنها ، فأنكر المسلمون ذلك عليه ؛

Amari Storia dei Musulman di Sicilia nw ed catani 933 I PP. 95-96 .

٩- البلاذري ، المصدر السابق، ص١٥٣ .

Michael the Syrian Chroolcle ed Chabot II P. 441 ; Lane- Poole: A History of Egypt in Middle Ages . New York (1901) , p. 23 ;

سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص٩ .

١٠- ابن عبد الحكم ، المصدر السابق، ص٢٥٥ ، ٢٥٦ ؛ المنبجي (أغانيوس بن قسطنطين) المنتخب من تاريخ المنبجي ، حققه وانتخبه أ.د. عمر عبد السلام التدمري، طرابلس - لبنان ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ص٦١ ؛ عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم، بيروت ١٩٧٢م ص٢٨ .

١١- أرشيبالد لويس ، المرجع السابق ، ص٩٣ .

١٢- السيد الباز العريني ، تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٥م، ص١٤٢-١٤٣ ، فشر [تاريخ أوربا في العصور الوسطى] ترجمة زيادة والعريني والعدوي جزءان ص٦٥ ؛ محمد الشيخ ، الإمبراطورية البيزنطية، ص٩٦-٩٧ وللمزيد من المعلومات عن جهود معاوية في إصلاح أمور دولته الداخلية وتجهيز قدراته للوقوف في وجه بيزنطة راجع : ابراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون [البحر المتوسط بحيرة إسلامية] القاهرة ١٣٧٢-١٩٥٣م ص٥٦-٦٤ .

١٣- Vasiliev , A. History of the Byzantine Empire "Medison" 2 vols 1971-73 , vol . I . P. 97 ' Osurogorsky , G: Histori de L'Etat Byzantin. traduction Francaise de J. Gouillard payot Paris 977. PP. 152-53;

وسام فرج ، دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية من (٣٢٤-١٠٢٥م) (١) ١٩٨٣م ص١٦٢ .

١٤- عن الاضطرابات التي شهدتها صقلية من جراء ظلم أباطرة بيزنطة راجع :

Bur, J.B. A History of the eastern Roman Empir (London 1972 II P. 226-27' Vassiliev, op. cit, 1, 137-42 , 334-9, 342-59 ; Amari . Storia op. cit. II p. 332 .

وقد نقل لنا المؤرخ ميشيل قموء القديس جريجوري في معرض كلامه عن أحوال أهل صقليه خلال فترة الحكم البيزنطي في الفترة التي سبقت الفتح العربي للجزيرة- تحتاج إلى مجلد لتفصيل الجور الذي سمعنا به في هذا القبيل) .

١٥- Ostrogorsky : op. cit., Vasiliv : op. cit., I P. 224 , P. 153 .

١٦- أرشيبالد لويس ، المرجع السابق ، ص٩٤-٩٦ ؛ وراجع أيضا :

Bur. J.B, The Noval Policy of the Roman Empiree in rediation of the 9 th Century Centenrio della Nacitia di michel Amari , Vol II . P. 21-34 (1910) .

لي أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ط. أولى ١٩٦٨، ص٥ ، ٦ وحاشية رقم(١) في ص٦ .

١٧- توجد أمثلة كثيرة في التاريخ البيزنطي نذكر منها كمثال في (عهد الإمبراطور جستنيان) عندما استعاد الممتلكات الغربية من يد القوط الشرقيين والوندال فأرسل قواده الذين استطاعوا استرجاع معظم أملاك الإمبراطورية الرومانية التي فقدتها على يد البرابرة الجرمان. راجع في ذلك :

Procopius , Bellovandelicoli C. Folso Dello Gothicor Bury , Roman Empire, II P. 170-2 ;

وسام فرج، المرجع السابق ، ص٦٩-٧٥ ؛ محمد الشيخ ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ وصفحات أخرى .

١٨- البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٣٧ ؛ راجع أيضا : العدوي ، المرجع السابق في صفحات متفرقة ؛ عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية ص٢٣ ، ٢٤ .

١٩- Chron Paschale ed Dindor (Bonnn 832) I P. 71 ; op . cit ,

ارشيبالد لويس، المرجع السابق ، ص٧١ ، ١٢٥ .

٢٠- Theophanes , PP , 90-91 ,

٢١- يمكن تفسير رد الفعل البيزنطي تجاه المد الإسلامي أنه كان نتيجة تعرضها لضغط عنيف من الجانب الإسلامي منذ منتصف القرن السابع للبلاذري وحتى حصار العرب الثاني للقسطنطينية في سنة ٧١٨م ومنذ ذلك الحين عولت بيزنطة على شن حرب اقتصادية ضد المسلمين مدة تقترب من نصف القرن وربما أدى هذا الحصار المفروض منه فقد تدهورت أحوال الخلافة الأموية ربما لتدهور الأحوال الاقتصادية أو ربما يعد ذلك ضمن العوامل الهامة التي أدت إلى ذلك التدهور.

Wiet, L'Egypt Arabe, P. 68-72 ; Runciman : Byzantine Civilization London 1933, ; راجع PP. 166-7 ,

راجع رنسيمان (ستيفن) الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويش ، مراجعة زكي علي، ص١٧٨-١٧٩ .

٢٢- حيث انتصرت على القوات الإسلامية عندما حاولت الاستيلاء على جزيرة قبرص وقد انتهت هذه الحملة بمكارثة فلم تقم حملة أخرى كبيرة من القواعد الإسلامية ضد قبرص مدة طويلة من الزمن ، راجع- عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص١٢ وحاشية رقم (٢) .

٢٣- Brooks. E.N "The Relations between the Empire and Egypt from a New Source" in Byz. Zeit (913) XVII, 383-4 .

٢٤- ابن الأثير في المكتبة الصقلية ص٢٠٠ . ٢١٩ ، وعبرها الروم من جميع الجهات وجددوا ما كان فيها من الحصون والمعاقل، النويري، المصدر السابق ج٢٤ ص٣٥٤ وقارن خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، نشر أكرم العمري، في جزئين بغداد ١٩٦٨ ج٢ ص٣٦٩ ؛ Cheira. op cit, PP. 143-4 .

٢٥- تاريخ المنجمي ، المصدر السابق ، ص٣١ ؛ Vasiliev , op. cit., P. 224 .

٢٦- يذكر أماري هذه الغزوة بهذا التاريخ ولكن ابن عذارى ذكرها في سنة ٣٦هـ نقلا عن البلاذري الذي لم يذكر تاريخا لهذه الغزوة ولكنه ذكر اسم معاوية بن حديج من قبل معاوية بن أبي سفيان والذي سبقت الإشارة إلى هذه الاختلافات في الصفحات السابقة في معرض كلامنا عن أول غزوة كانت على صقلية . ولكن راجع : Amari Storia, 25-22 .

وقارن : البلاذري المصدر السابق ، ص٢٣٧ . ابن عذارى المصدر السابق ج ص١٢ .

٢٧- Osuegorsky: op . cit. p. 54 ; Canard. M., les expédition des Arabes conre Constantinople , Journ, Asiatique, 108 (1926), PP. 61-2 (Voiraussi la bibilgraphie citée plus haut pour l'histoire de l'invsionArabe) .

٢٨- العدوي، المرجع السابق، ص٦٥-٦٦، وتعرضت سفن المسلمين لعاصفة مدمرة أدت إلى تحطيمها ، راجع : العريني: المرجع السابق ، ص١٥ .

Michael the Syrian Chron II, p. 455 .

٢٩- ابن عذارى ، المصدر السابق، ج١ ، ص٣٦ . ٣٧ ؛ النويري، المصدر السابق ، ج٢٤ ، ص٣٥ ، ٣٨ . ٣٩ . سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال منشأة المعارف ١٩٧٩ م ص٢٣٨-٢٤٧ .

٣٠- راجع البكري (أبي عبيد البكري) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، بغداد بدون تاريخ . ٣٨ - ٣٩ .

٣١- قوصرة جزيرة تلي مدينة مازر من صقلية بينهما مجرى وتقع إلى الشرق من جزيرة مالطة . راجع: الحميري، المصدر السابق، ص٤٨٥ ، ٤٨٦ .

٣٢- ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم) الإمامة والسياسة ، جزءان ، القاهرة ١٨٣٢هـ ج٢ ص٥٩؛ البكري ، المصدر السابق ص٣٨-٣٩ .

٣٣- ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ج٢ ص٥٧ . ٥٨ ؛ المقري : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، عشرة أجزاء تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣-١٣٧٢هـ ج١ ص٢٥٩ ، ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس وتحقيق مختار العبادي، طبعة مدريد ١٩٧١م القسم الخاص بالأندلس ص٢٩ ، وقارن ابن عبد الحكم المصدر السابق ص٢٠٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ص٧٢ ، ٧٣ ، حيث يذكر أنهم غرقوا .

٣٤- ابن عذارى ، المرجع السابق ، ج١ ص٢٣ ، ابن الأثير ج٣ ص٢٧٣ ؛ أرنيبالد لويس ، المرجع السابق، ص١٠٢ .

٣٥- ابن عذارى ، المصدر السابق والصفحة نفسها، ابن الأثير ، نفس المصدر والصفحة نفسها سجل لنا خليفة بن خياط الغزوات التي كانت بين سنة ٢هـ - ٢٢هـ كانت أكثر من ١٤ غزوة بحرية على كل من جزيرتي صقلية وسردينية راجع فيه ج٢ ص٣٤٩ .

٣٦- ابن عذارى ج١ ص٤٧ ؛ النويري، المصدر السابق، ٢٤ ص٣٥٣ ؛ Theophanes, op. cit, PP. 90, 91 .

ولكن قارن التسمية عند كل من ابن عذارى والنويري نفس الصفحات حيث يسمي النويري صاحب الغزة محمد ابن إدريس بينما يطلق عليه ابن عذارى محمد بن أوس الأنصاري ويقول : «كان غازيا بصقلية، فلم يبق إلا يسيرا حتى قدم بغنائم أصابها» ابن عذارى ج١ ص٤٧ .

٣٧- ج.م . هسي ، العالم البيزنطي ، ترجمة وتعليق وتقديم دكتور رأفت عبد الحميد ، دار المعارف ط٢، ١٩٨٢ ص١٣٨ ؛ محمد الشيخ ، المرجع السابق، ص١٢٥، ١٢٦ .

٣٨- الرقيق (ابراهيم بن القاسم) تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق المنجي الكعبي طبعة تونس ١٩٦٧ ص١٠٢؛ قارن ابن الخطيب أعمال الأعلام ، ص١٠٨ حيث أورد هذه الغزوة في حوادث سنة ١٠٩ هـ؛ وأن وفاة بشر كانت بسبب غزوته، ابن عذارى، المصدر السابق ، ج ١ ص٤٨ (أوردها في حوادث سنة ١٠٥هـ ؛ النويري ، المصدر السابق، ج٢٤ ، ص٣٥٣ .

٣٩- تمت هذه الحملة في ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، الذي سير هشام ابن أبي عبيدة الفهري في المراكب على رأس ٧٠٠ مقاتل لغزو سرقوسة عاصمة صقلية وانتهت الحملة بنجاح يؤكده وقوع قائد البيزنطيين أسيرا . راجع : ابن خياط ص٣٦٣-٣٦٤ .

٤٠- كانت الحملة بقيادة المستنير بن الهجاب الخرشي وخرج في ١٨٠ مركب ونزل على سرقوسة وضرب عليها الحصار وأخذ في جمع الغنائم ، فدخل عليه الشتاء وتعرض أسطوله للعواصف الشديدة ، فغرقت مراكبه ولم ينج منها إلا سبعة عشر مركبا وجنحت مركب القيادة إلى طرابلس حيث أرسل عبيدة إلى والي طرابلس وأعاد المستنير فحبسه وجلده. راجع : ابن خياط ج٣٣٥، وابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص٢١٦ .

٤١- كانت الحملة بقيادة ثابت بن خيثم الأردمي. راجع خليفة ، المصدر السابق، ج٢ ص٣٥٧ .

٤٢- بقيادة عبد الله بن قطن راجع المصدر السابق ، نفس الصفحة .

٤٣- بقيادة بكر بن سويد ، المصدر السابق ص٣٦٠ وعن تفاصيل هذه الحملة راجع ، سعد زغلول ، المرجع السابق ج ص٢٧٦ ، ٢٧٧ .

٤٤- راجع خليفة بن خياط ، المصدر السابق ج٢ ص٣٦٢ . وكان ممن أسرهم الروم ابنا قائد الحملة عثمان بن أبي عبيدة نفسه وهما عمرو وسليمان وكذلك عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم وأنهم لازالوا في أيدي الروم حتى ولاية عبد الرحمن حبيب سنة ١٢٧هـ الذي فدى عمه وناسا من أسارى المسلمين .

٤٥- كان قائد هذه الحملة قثم بن عوانة الكلبي الذي نزل على مدينة أولبة وأحاط به الروم وفي السنة التالية قام قثم بحملة أخرى لم يكتب لها النجاح ومات غريقا مع مركب القيادة وبعض سفنه . راجع المصدر نفسه ج٢ ص٣٤٦ .

٤٦- راجع : ابن عذارى ، المصدر السابق، ج١ ص٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤-٥٥ ؛ ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص٢١٩ ، وقارن خليفة بن خياط المصدر السابق ، ج٢ ص٣٦ ؛ ولمزيد من التفاصيل راجع : سعد زغلول، المرجع السابق ، ج ص٢٨٦- ٢٩٠ .

٤٧- راجع : ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج١ ص٢٣ ؛ ابن الأثير المكتبة الصقلية ، ص٢٢ ، النويري، المصدر السابق ، ج٢٤ ص٣٥٤ قارن ابن عذارى نفس المصدر والصفحة نفسها حيث جعل هذه الغزوة سنة ٣٠هـ . وقد توقف لسان الدين ابن الخطيب عن ذكر أحداث الغزوات العربية على صقلية بعد غزوة سنة ١٢٢هـ حيث تجاوز عن ذكر أحداث حوالي مائة سنة ، حيث بدأ الكلام عن غزوات المسلمين في صقلية بعد قيام دولة الأغالبة في شمال إفريقية وتجاوز عن ذكر الحملة الكبرى التي قام بها أسد بن الفرات ٢١٢هـ (حملة الفتح) حيث أكمل الأحداث منذ سنة ٢٢١هـ راجع : لسان الدين بن الخطيب ، المصدر السابق ، ص١٠٩، ١١٠ .

٤٨- لمزيد من التفاصيل عن هذه الفئة والثورات ، راجع : سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص٢٨٦- ٢٩٠ وصفات أخرى .

٤٩- ارشيبالد لويس ، المرجع السابق، ص١٥٨ ؛ راجع فيما سبق ص٨ حاشية رقم (١) .

٥٠- ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص٢٩- ٣٢ ، وعمرها الروم من جميع الجهات وعسروا فيها الحصون والمعاقل وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطرق بالجزيرة وتنهب عنها وبها صادفوا تجارا من المسلمين فيأخذونهم ، النويري ، المصدر السابق ، ج٢٤ ص٣٥٤ ؛ مختار العبادي، دراسات ، ص٦ .

٥١- ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: بولاق ١٢٨٤هـ ج٤ ، ص١٩٨ ؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج٥ ص١٨٦ .

٥٢- الكندي (أبو عمر محمد يوسف): الولاة والقضاة ، طبعة روفن جست ، بيروت ١٩٠٨ م، ص١٨ ؛ Bury , A History of the eastern Roman Empire, London 192 , P. 60 ;

فازيلييف ، العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ، ص٤٨ ؛ حسنين ربيع دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٨٣م ، ص٣٠-١٣٥ .

٥٣- Vasiliev , op. cit, P. 64 ; Amari, Storia PP. 332-355 .

حرص الأغالبة على تأمين الملاحة العربية في البحر المتوسط وتأمين التجار المسلمين فعقدوا صلحا مع قائد الأسطول البيزنطي في صقلية لمدة عشر سنوات (بين ابراهيم بن الأغلب أمير إفريقية مع القائد قسطنطين) وحملوا في نفس الوقت على الاهتمام بالأسطول وتقويته مما لفت أنظار البيزنطيين في صقلية. فاضطر الأغالبة إلى تجديد الاتفاقية السابقة لمدة عشر سنوات أخرى وكانت بين أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب وبين جريجوري القائد البيزنطي في صقلية في سنة ٨١٣م وتم تجديدها إثرها تبادل الأسرى كما تقرر تأمين سلامة التجار من الجانبين. راجع في هذا المصادر العربية : المالكي (أبو عبدالله بن أبي عبدالله) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ، نشر حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٤٢م ص٨٥ ، ٨٦ .

٥٤- يجعل ابن الأثير هذه الغزوات في سنة ٢٠١هـ / ٨١٦ م بينما يذكر ابن عذارى لسنة ٢٠٦ هـ ولكن قارن ابن الأبار (أبو عبدالله محمد القضاعي البلنسي) الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس، في جزئين القاهرة ١٩٦٣، ج١ ص١٨١ والمكتبة ، ص٣٢٧ وقارن Amari , Storia. I . PP. 58-9 .

٥٥- يذكرها صاحب الحلة السيراء، في سنة ٢٠٤هـ، المصدر السابق والصفحة نفسها .

٥٦- ابن عذاري المصدر السابق ، ج١ ص١٢٤ .

٥٧- راجع النويري، المصدر السابق ج٢٤ ، ص٣٥٤ ، ٣٥٥ .

٥٨- يروي النويري قصة قيمي مع مقدم البطارقة الذي عينه الإمبراطور البيزنطي ويدعى قسطنطين الذي عند أسطولا وأرسله إلى بر إفريقية وولى على هذا الأسطول قيمي (القيسيوس) الذي خطف (مجازا) - ولكنها مجازا كما جاءت في المكتبة الصقلية- وبقي مدة في البحر فوصل خطاب الإمبراطور (ميخائيل الثاني المعروف في ذلك الوقت- ٨٢٠-٨٢٩م) يأمر قسطنطين بعزل قيمي وتعذيبه لشيء بلغه عنه . وحينما علم قيمي حادث قسطنطين وقتله وأعلن نفسه ملكا على صقلية وولى واحدا من الأرمنيين يدعى بلاتا على ناحية من جزيرة صقلية الذي قام بدوره بمحاربة قيمي وقتل عددا من أصحابه بلغ (ألف رجل) ودخل بلاطة مدينة سرقوسة بينما خرج قيمي يستنجد بالمسلمين في إفريقية . راجع: النويري المصدر السابق، والصفحات نفسها. وقارن أيضا : ابن الأثير ؛ المكتبة الصقلية ، ص٢٢١ ، ٢٢٢ ؛ ابن خلدون ج٤ ص١٩٩ ، المكتبة ص٤٦٦ .

٥٩- ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ص١٣٢ .

٦٠- ابن عذاري ، المصدر نفسه والصفحة نفسها، ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ص١٩٨ ، ١٩٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ج٥ ص١٨٦ ؛ فازيليف ، العرب والروم، ص٧٢ .

٦١- فازيليف ، المرجع السابق ، والصفحة نفسها ص١٢٢ ؛ بعد زغلول ، المرجع السابق، ج٢ ص٢١٥ .

٦٢- ابن عذاري ، المصدر السابق، ج١ ص١٣٢ ؛ سعد زغلول ، المرجع السابق ، ج٢ ص٢١٥ .

٦٣- ابن عذاري ، المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٦٤- النويري ، المصدر السابق ج٢٤ ص٣٥٦ .

٦٥- النويري ، المصدر السابق ، ج٢٤ ص٣٥٦ .

٦٦- خرج بلاطة من قصريانة بعد أن تملك القلوف، وعبر إلى قلورية في جنوب إيطاليا ، ربما من أجل إحضار نجدة لمقاومته ولكنه قتل هناك ؛ راجع : المالكي، المصدر السابق، ج١ ص١٨٨ ؛ ابن خلدون ، المكتبة ، ص٤٩٦ ؛ النويري، المصدر السابق والصفحة نفسها.

٦٧- بعد وفاة أسد بن الفرات ولى المسلمون عليهم محمد بن أبي الجواري، فواصل محاصرة سرقوسة لفتحها . راجع : ابن عذاري ، المصدر السابق، ج١ ص١٣٥ ؛ ابن خلدون ، العبر ج٤ ص١٩٩ ؛ المالكي ، رياض النفوس ، ص١٨ .

٦٨- النويري، المصدر السابق، ص٣٥٨ ؛ Vasiliev, Byz., I, 3-4 .

٦٩- النويري ، المصدر السابق والصفحة نفسها وقارن ؛ ابن الأثير، المكتبة الصقلية، ص٢٢٤ ؛ البكري (جغرافية الأندلس وأوربا) تحقيق عبد الرحمن حجي، بيروت ص٢١ .

٧٠- ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ص١٣٤ .

٧١- النويري ، المصدر السابق، ص٣٦٠ ؛ ابن خلدون ، ج٤ ص١١٩ حيث يذكر أن فتح بلرم كان في سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢م ؛ المكتبة ص١١٦ ؛ قارن ابن عذاري المصدر السابق ص١٣٧ . فهو يجعل فتح بلرم في سنة ٢٢٠هـ .

٧٢- ابن الأثير في المكتبة ص٢٢٤-٢٢٥؛ تاريخ صقلية من حيث دخلها المسلمون ... المكتبة ، ص٦٦: قارن النويري، المصدر السابق ، ج٢٤ ، ص٣٦٠ . ولكن قارن ابن الأثير، المصدر السابق ، ج٥ ص١٨٨ حيث يذكر الاستيلاء على بلرم في رجب سنة ٢١٦هـ .

٧٣- النويري، نفس المصدر والصفحة نفسها؛ لكن قارن المكتبة الصقلية، ص٤٣٩ حيث رجحت أنها جرجة Giragia.

٧٤- النويري، المصدر السابق والصفحة نفسها .

٧٥- النويري، المصدر السابق والصفحة نفسها .

٧٦- ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ص٥٣ ؛ رجحت المكتبة Corleone وهي في الأصل قاروب ، راجع : النويري، المصدر السابق والصفحة نفسها وحاشية رقم (٥) .

٧٧- أكدت المكتبة على هذا الاسم (مرناو Marineo) ص٤٣١ .

٧٨- هذه الجزيرة تلي مدينة مازر بصقلية بينهما مجرى وهي في شرق جزيرة مفطية وهي من جزيرة الراهب بين جنوب وشرق وترازي الشافه ومازر وبينهما مجرى، وكذلك من قرصة إلى بر إفريقية مجرى، وهي متقطع للخشب الجيد يحمل منه إلى صقلية وهي جزيرة صغيرة وحصينة فيها آثار وأشجار ولها من جهة الجنوب مرسى مأمون يكب من رياح كثيرة . راجع : الحميري، المصدر السابق ، ص٤٨٥-٤٨٩ .

٧٩- ابن الأثير ، ج٦ ، ص٢٣٩ / ٢٤٠ . فهو يذكر أن الأسطول البيزنطي كان يحمل دون وصول الحاكم الجديد للجزيرة ؛ وعن هذا التحالف ، راجع ك أسد المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، ص٧١ Vasiliev, I, 177-8; حيث يذكر أن تحالف نابلي مع العرب كان يهدف مقاومة الخطر الذي تهددهم من جانب أهل بنفنت (بنفينتو Benevento) ومنذ ذلك الوقت استقر المقاومة في قلب إيطاليا وكونوا مملكة مستقلة عن الأغالبة في صقلية ، وكان من بين شروط الصلح أن تدفع نابلي مبلغا من المال كجزية سنوية وتساعدهم على أخذ مسينا .

٨٠- راجع : ابن عذارى، المصدر السابق، ص١٤٥ ؛ ابن الأثير الكامل، ج٧ ص٤٢ .

٨١- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص٣ ؛ ابن خلدون ، ج٤ ص٢٠١ وقد تمكن العرب من أخذ مدينة لنتيش في العام الثاني .

٨٢- راجع : ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص١٤٥ ؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧ ص٢ .

٨٣- ابن الأثير : ، ج٧ ، ص٢ ؛ قارن ابن عذارى ج١ ، ١٤٧؛ Amari , Storia. II , 182

٨٤- ابن الأثير ، المصدر السابق، ج٧ ، ص٢ ؛ المكتبة ص٢٢٩ .

٨٥- ابن الأثير ، المصدر السابق ص٣ ؛ ابن خلدون المصدر السابق، ج٤ ص٢٠١ .

٨٦- ابن خلدون ، المصدر السابق، ج٢ ، ص٢٠٢ .

٨٧- ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧ ص٢٤ ؛ قارن ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص١٤٥ .

٨٨- النويرى ، المصدر السابق، ج٢٤ ص٣٦١: عن اسم المراكب شلنديات مفردها شلند، نوع من السفن الحربية كبيرة ومسلحة لحمل المقاتلين والأسلحة راجع : درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، الإسكندرية ١٩٧٤، ص٧٨-٨١ .

٨٩- النويرى ، المكتبة ص٤٣٢ بحيث يذكره باسم الافريطي.

٩٠- ابن الأثير ، المصدر السابق والصفحة نفسها ، قارن ابن عذارى، ج١ ص١٤٢ .

٩١- النويرى، المصدر السابق والصفحة نفسها ج٢٤ ص٣٦١ ويذكر النويرى أن الروم انتقلوا إلى قصريانة لحصانتها وجعلوها دار ملكهم قارن ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص١٤٨ ، ١٥٠ التي جعل غزوة قصريانة سنة ٢٥٠هـ .

Bury , East-Roman Empir, P. 397-98 .

٩٢- حراقات جمع (حراقة) وهي نوع من السفن الحربية التي ترمى بالنيران ، استعملها المسلمون في العصور الوسطى. وقد ورد ذكرها في المعاجم العربية على أنها من سفن البحرة ، فيها نيران يرمى بها العدو في البحر، وصفها البستاني بأنها سفن حربية كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الأغريقية ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو . راجع : درويش النخيلي المرجع السابق ص٣٢ .

٩٣- ابن الأثير ، المصدر السابق، ج٧ ص٤٠ ، ٤٢ . كان والي بلرم في ذلك الوقت خفاجة بن سفيان وولده محمد : ابن عذارى ، ص١٥٠-١٥١ .

٩٤- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٧ ص١٢٧ . حاصرها المسلمون تسعة أشهر ، فشجعت بعدها وقتل من أهلها الألوف ، وأخذ المسلمون منها مغانم كثيرة لم تزخذ من مدينة أخرى، ثم أقاموا فيها بعد فتحها مدة شهرين وقاموا بهدمها بعد ذلك : ابن عذارى، المصدر السابق، ص١٥٥ .

٩٥- ابن عذارى، المصدر السابق ج١ ص١٥٥ ، ١٥٦ وقد تمكن الأغالبة من الاستيلاء على جزيرة مالطة انتقاما من الهزيمة الأولى وبذلك أصبح لهم السيطرة على المضايق الواقعة بين صقلية وتونس.

راجع : المكتبة الصقلية ص١٦٦ ؛ قارن ابن الخطيب، أعمال الأعلام، قسم ١٣ ص٢٦ .

٩٦- ابن عذارى، المصدر السابق، ج١ ص١٥٢ ؛ ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٧ ص١٢٧ .

٩٧- يذكر ابن الأثير أن الهدنة كانت بين سوادة أمير صقلية وأرلوم، المصدر السابق ج٧ ص١٦٧ ، حيث يقول « فأتاه رسول بطريق الروم يطلب الهدنة والمفاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه بالثمانية أسير من المسلمين، فرجع سوادة إلى بلرم» ، قارن ابن عذارى ج١ ص١٧٣ .

٩٨- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص١٦٩ ؛ ابن عذارى، ج١ ص١٥٩ .

٩٩- راجع ابن الأثير ، المصدر السابق، ج٧ ص١١٣ ؛ قارن النويرى، المصدر السابق ج٢٤ ص٣٧ . فتحت تورمينا الجديدة سنة ٨٠٩م / ٢٩٦هـ .

١٠٠- Marcais: La berberie Musulman et l'orient on Moyen Ages, Paris 1946. P. 215 .

١٠١- القوى البحرية الثلاث هي الشام، ومصر وشمال إفريقية .

١٠٢- كان أواخر حكم الأغالبة في صقلية يموج بالفتن والقلاقل والصراعات إلى أن انتهى الأمر بأن خلع الصقليون طاعة الأغالبة واعترفوا بأبي عبدالله الشيعي الذي فاز بافريقية في سنة ٢٩٥هـ، وفي سنة ٢٩٦هـ وثب أهل صقلية على الوالي الأغلبي أحمد بن الحسين بن رباح وحبسوه وسرقوا ماله وولوا على أنفسهم علي بن أبي الفوارس في ١٠ من رجب سنة ٢٩٦هـ/ ١٥ أبريل ٩٠٩م، راجع سعد زغلول ، المرجع السابق، ص٢٨٥-٢٨٦ .

١٠٣- Canard, M : Historie de Hamdanides de Jazira et de syrie (Paris 1953) P. 831 .

١٠٤- مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد) تجارب الأمم (نشر أمدروز ط القاهرة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م ج٢ ص٢٥٣ .

١٠٥- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٢١٩ :

Schlumberger , G : un Empereur Byzantin an dixieme siecle Nice phore phocas, Par-s 1890 PP. 344-56 .

١٠٦- ابن الأثير ، المصدر السابق، ج٨ ص٢١٤ ؛ النويرى: المصدر السابق، ج٢٤ ص٣٧٠ .

كان المسيحيون في طبرمين ورمطة قد استسلما من قبل للمسلمين في صقلية وقاموا بدفع الجزية نظير بقائهم في مدنهم . وكان رفض أهل صقلية دفع الجزية أمراً أثار المسلمين وكان ردهم أن قاموا بحصار طبرمين وحولوا المياه عنها فطلب أهلها الأمان تأجيراً إلى ذلك واحتلك المسلمون القلعة . راجع : ابن الأثير، المصدر السابق ص٢١٤ ، ٢١٩ .

١٠٧- Schlumberger , op. cit, PP. 446-7 .

١٠٨- ابن الأثير ، ج٨ ص٢١٩ ؛ Schlumberger , op. cit pp. 455-6 .

سعيد عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى، جزءان القاهرة ، ١٩٦٦م، ج١ ص٤٢٢ .

١٠٩- النويرى ، المصدر السابق ، ج٢٤ ص٣٧٣ راجع تفاصيل هذه الحرب في نفس المصدر في صفحات ٣٧٠- ٤٧٤ ؛

Schlumberger , op. cit PP. 463-4 .

١١٠- ابن الأثير ، المصدر السابق، ج٨ ص١٥٧ ؛ Viet , op. cit , P. 277

١١١- Osstrogorsky, op. cit. P. 355 ؛ ارشيبالد لويس ، المرجع السابق ، ص٣٠ ، ٣١ .

١١٢- Osstrogrsky, op. cit, P. 355

١١٣- النويرى ، المصدر السابق ، ج٢٤ ، ص٣٨١ ؛ Amari , storia , III . P. 650 .

أولا : المصادر العربية

ابن الأبار (أبو عبدالله محمد القضاعى البلنسى- ت سنة ٦٥٨هـ)

- الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، في جزئين القاهرة ١٩٦٣م .

ابن الأثير (أبو الحسن عز الدين على بن أبى الكرم محمد بن محمد ... الشيبانى الجزرى)

- الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزء، الطبعة الأولى، الطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة ١٣٠١هـ .

البكرى (الوزير الفقيه أبى عبيد الله بن عبد العزيز البكرى الأندلسى) ت ٤٨٧هـ .

- كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، جزء من كتاب المسالك والممالك، طبع رسلان الجزائر .

- جغرافية الأندلس وأوربا ، تحقيق عبد الرحمن حجى الجزائر ١٩٩١م .

البلاذرى (أبى الحسن البلاذرى)

- فتوح البلدان ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٥٠هـ .

التيجانى (أبو محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم التيجانى)

- الرحلة، تونس ١٩٥٨م .

ابن حوقل (أبو القاسم النصيبى) ت فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى

- كتاب صورة الأرض، قسمان فى مجلد واحد، منشورات مكتبة الحياة بيروت، بدون تاريخ .

الحميرى(محمد بن عبد المنعم الصنهاجى)

- الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، لبنان ، ط. ثانية، ١٩٨٤م .

ابن الخطيب (لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبدالله) ت ٧٧٦هـ .

- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإسلام من ملوك الإسلام، الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية، نشر أحمد مختار العبادى ، الكتانى، الدار البيضاء ١٩٦٤م .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، ١٤ جزء، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨٣ .

خليفة بن خياط (ت سنة ٢٤٠هـ)

– تاريخ خليفة بن خياط ، نشر أكرم العمري، في جزئين ، بغداد ١٩٦٨ .

الرقيق (ابراهيم بن القاسم) ت بعد سنة ٤١٧هـ .

– تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنيجي الكعبي، طبع تونس، ١٩٥٧م .

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري) ت ٢٥٧هـ.

– فتوح مصر والمغرب ، القسم التاريخي، تحقيق عبد المنعم عامر بدون تاريخ .

– فتوح إفريقية والمغرب، حققه وقدم له عبد الله أنيس الطباع، بيروت١٩٦٤م.

ابن عذارى المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد) عاش في القرن الثامن الهجري .

– البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جزءان بيروت، ١٩٥٠م .

ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم) ت سنة ٢٧٦هـ .

– الإمامة والسياسة ، في جزئين ، طبعة القاهرة ١٣٢٨هـ .

ابن الكردبوس

– تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، طبع مدريد ، ١٩٧١م .

الكندي: (أبو محمد محمد بن يوسف) ت ٣٥٠هـ .

– كتاب الولاة والقضاة ، نشر رفن جست بيروت ، ١٩٠٨ .

المالكي: (أبو عبدالله بن أبي عبدالله) ت في منتصف القرن الخامس الهجري.

– رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ، نشر حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٠م .

مسكوية (أبو علي أحمد بن محمد)

– كتاب تجارب الأمم ، نشر هـ . ف أمدروز ، جزءان ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ، مصر ١٣٣٢هـ– ١٩١٤م و١٣٣٣هـ – ١٩١٥م .

المنيجي (أغاثيوس بن قسطنطين) عاش في القرن ٤هـ / ١٠م .

– تاريخ المنيجي، تحقيق د. عمر عبد السلام التدمري، طرابلس– لبنان ط. أولى١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

النويري (شهاب الدين أحمد) ت ٧٣٣هـ .

– نهاية الأرب في فنون الأدب– الجزء الأول، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة، وزارة الثقافة والإرشاد ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة القاهرة بدون تاريخ .

– الجزء ٢٤ تحقيق د. حسين نصار مراجعه د. عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٣-١٤هـ– ١٩٨٣م .

ياقوت الحموي (شهاب الدين عبد الله بن عبدالله الرومي البغدادي)

– كتاب معجم البلدان – ٥ أجزاء، بيروت ١٩٧٧م .

اليعقوبي (أحمد يعقوب بن جعفر بن واضح)

– كتاب البلدان ، ليدن المحروسة ١٨٩١ .

– تاريخ اليعقوبي، ثلاثة أجزاء نشرات المكتبة المرتضية في النجف ، مطبعة الغري، النجف ١٣٥٨هـ.

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية

Canard (Marius) Say F-al Daula. Alger la Alger 1934 .

- Hmadani des de Jazura et de Syrie. Paris, 1953 .

Michael le syrien, chronique de Michel la syrien, Patriarche Jacobite d'Antiochec 1100-1199) Editée en Francais par J.B chabot, I. II, II Paris 1905.

Procopius , History of the Wars ed Dewing New York 1914-1940 .

Theophanes; the chronicle , An English translation of anni mundi (1095-6305 (A.P. 602-813) , with introduction an notes. by Harry urtl le dove , Pennsylvania Press 1982 .

Amari . M. Storia dei Muslman di sicilia nw ed Catonia 1933 .

Brehler. L. vie et mort de Byzance. Paris 1947 .

Bury . J. B. the Invasion of Europe by the barabrians 1928 .

- Centenario della Nascita dei Michel Amari tone I, P. 293 in Ency . of Ilam art sicile par des Crouher Gordon .

- A History of the eastern Roman Empire (London 1912) .

Cantor N. F., Medieval History (New York 1964)

- The Medieval World 300-1300 ed by cantor N. Y. 1968 .

Cheira, M. A., la lutte entre Arabes et Byzantins la conqfiecre et l'organisation des vontieres aux VI et VIII siecle.

Chron. Paschale ed Dindor (Bonn 1832).

Dichl et Marcias ; le monde oriented de 395 a Paris 1081.

- Histore du Mayeer Age , Paris 1936 .

Paul - The Decon History of the Lanngobards tran (W. Foulkephila 1907) .

Lewis, A.R., Nava, Power and trade in the Mediterranean. A. D. 500-1100 Princeton 1954 .

Marcias: E. J.. A History of the Inconoclasuc controversy.

- Story of the Byzantine Empire (New York).

Ostrogorsky . G.,

- Historie de L' Etat Byzantin traducation Franaise de J. Gouillard. Paris 1977 .

Runcinan, S. Byzantine Civilization , London 1933.

Schlumberger: G., Un Empereur Byzantin au dixieme siecle Nicephor phocas (Paris1890) .

Vasiliev, A., the Byzantine Empire (Mandison1971-73) .

Wiet, W; L' Egypt Arabe Historie de Nation Egyptienne IV Paris 1937 .

ثالثا : المراجع العربية الحديثة والمعربة

ابراهيم أحمد العدوى (دكتور)

- الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣م .

أحمد توفيق المدنى

- المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الجزائر ١٣٦٥هـ

إحسان عباس (دكتور)

- العرب فى صقلية ، دراسة فى التاريخ والآداب، دار المعارف مصر ١٩٥٩م .

أحمد مختار العبادى (دكتور)

- دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ط. أولى ١٩٦٨م .

ارشيبالد لويس

- القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة غربال- القاهرة، ١٩٦٠ .

أمارى ، ميشيل

- المكتبة العربية الصقلية - ليبسك ١٨٧٥م .

حسنين ربيع (دكتور)

- دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية القاهرة ١٩٨٣م.

درويش النخيلى (دكتور)

- السكة الإسلامية على حروف المعجم ، الطبعة الأولى، جامعة الاسكندرية ١٩٧٤م.

رنسيمان ستيفن

- الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة زكى بدر ١٩٦١م .

سعد زغلول عبد الحميد (دكتور)

- تاريخ المغرب العربى، جزءان ، منشأة المعارف ١٩٧٩م.

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

- أوروبا العصور الوسطى جزءان ، القاهرة ١٩٦٦م.

- نهرص والحروب الصليبية مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٥٧م .

السيد الباز العرينى (دكتور)

- تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٥م.

السيد عبد العزيز سالم (دكتور)

- تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، بالاشتراك مع د. أحمد مختار العبادى، بيروت ١٩٧٢م.

فازيليف

- العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادي شقيرة ، نشر دار الفكر العربي، القاهرة بدون تاريخ.

فشر

- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة زيادة والعريني والعروي جزءان.

كانتور (نورمان)

- التاريخ الوسيط ترجمة د. قاسم عبده قاسم

محمد محمد مرسي الشيخ (دكتور)

- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٤م.

- ج .م. هسي العالم البيزنطي ، ترجمة وتعليق د. رأفت عبد الحميد ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م.

وسام عبد العزيز فرج (دكتور)

- دراسات في تاريخ الحضارة الإمبراطورية البيزنطية إلى الإسكندرية ١٩٨٣م.

د. عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي(*)

الوجود الإسلامي في فرنسا خلال العصور الوسطى

فكرة فتح بلاد الفرنجة :

تباينت وجهات النظر لدى المؤرخين حول أسباب انتشار الإسلام ، فمنهم من حصرها بالأهداف الإقتصادية ، بالنظر إلى جدب الصحراء العربية ، وتطلع العرب الى أراض خضراء يتوافر فيها الماء والكلأ ، وقالت أصحاب هذه النظرية الاقتصادية أن الذين أسهموا بمجهود كبير في فتح الأندلس ، وحاولوا فتح بلاد الفرنجة كانوا - في معظمهم - من البربر ، وبلادهم غنية بالأنهار والأشجار ، ولا تختلف كثيراً في طبيعتها عن أوروبا .

ومن المؤرخين من ركز على الغايات السياسية وراء فتوح البلدان ، وهي التي تمثلت بسعي الأمويين نحو إقامة دولة أموية في الغرب ، بدلاً من دولتهم التي أسقطها العباسيون في الشرق . ونسي أصحاب هذا الرأي أن حركة الفتح في الأندلس ، وجنوب فرنسا بدأت قبل مجيء عبد الرحمن الداخل بأكثر من ثلاثين عاماً .

وقليل من المؤرخين المسلمين من علل لحرص مسلمي الأندلس على فتح بلاد الفرنجة ومن هؤلاء المقري ، الذي يرجع ذلك الى أن موسى بن نصير كان يؤمل أن يخترق مابقي عليه

(*) عضو البحث العلمي بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

من بلد افرنجة ، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس الى الشام . مؤملاً أن يتحوز مخترقه بتلك الأرض طريقاً مهيعاً يسلكه أهل الأندلس فى مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لايركبون بحراً "... وأضاف المقرى : "وقيل إنه أوغل فى أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة . وأرض سهلة ذات آثار"[١]. ولكن نلاحظ أن هذا النص يوحى بأن فكرة موسى بن نصير للوصول إلى الشام برآ ، جاءت بعد أن بدأت عملياتها العسكرية فى بلاد الفرنجة لاقبل ، بدليل قول المقرى : "مايقى عليه من بلد افرنجة" .

والواقع أن اهتمام المسلمين بهذه البلاد ، منطلق من حرصهم على نشر الإسلام ، لأنهم كانوا لايدركون أن وراء المحيط الأطلسى قارة ، لذلك جندوا طاقاتهم لعبور مضيق جبل طارق ومن ثم إقتحام جبال البرانس .

يقول المؤرخ الفرنسى رينو : إن غزو المسلمين لفرنسا ، بدأ سنة ٧١٢م ، أغراهم إلى ذلك ضعف زعماء الفرنجة ، واقتتالهم ، وتفرقهم ، إضافة إلى أن فرنسا أصبحت عرضة لهجمات قبائل المجر والنورمان . والحقيقة أن القرب الجغرافى ، والهدف الجهادى ، شجع المسلمين على عبور الجبال الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا [٢] .

إن طريق المسلمين من الأندلس إلى فرنسا عبر عبر جبال البرت : وهى كلمة لاتينية Portus وتعنى الممر أو المعبر ، وفى الفرنسية Porte وفى الإسبانية Porta وقد جمعت البرتات أى الأبواب ، وهى جبال حاجزة بين إسبانيا وفرنسا وتمتد حوالى ٤٣٠كم من خليج بسكاى فى الغرب الى البحر المتوسط فى الشرق وتصل إلى ارتفاع ٣٧٢٠م فى قمة أنتو Anto أعلى قمة فى الجزء المسمى الجبال الملعونة Maidits فى إسبانيا ، وتتصل هذه الجبال بمرتفعات قطالونيا فى الشرق وجبال جليقية أو كنتبرية فى الغرب ويخترق هذه الجبال ممرات ضيقة وهى من الشرق إلى الغرب :

- ممر برنبان Perpignan بين برشلونة وأربونة ويسمى البورت الأعظم أى المعبر الكبير .
- ممر بوكيردا Puigcerda يقع فى منطقة سرطانية .
- ممر أشيرة Aspeti وهو ممر جاقة أمام هذه المدينة .
- ممر الشيزرى أو الشيزرو Cisereus وهو ممر رونسفالة Roncevalles يمر فى الطريق من بنبلونة إلى فرنسا وهو ممر تاريخى .
- ممر بيونة Bayonne نسبة إلى مدينة بيونة الفرنسية الواقعة على خليج بسكاى .

وسميت جبال البرت خطأ جبال البرانس التى تقع جنوبى نهر وادى يانة وتسمى جبال المعدن ، وجاءت تسميتها بالبرانس نسبة إلى قبيلة البرانس البربرية التى سكنت هذه المنطقة [٣].

وكان هاجس فتح فرنسا ، مسيطراً على ذهنية الفاتحين الأوائل ، مثل طارق بن زياد الذى دوخت بعوثه بلد الفرنجة كما يقول ابن حيان ، واستطاعت هذه الفرق العسكرية احتلال أربونة "نربون Narbonne" وصخرة أبينون "أفينيون Avignon" وحصن لوذون" ليون Lyon [٤] .

ويذكر أن موسى بن نصير ، دخل بلاد الفرنجة ، وبلغ حصن قرقشونة "Carcassonne" وكان بصحبته أحد التابعين حيان بن أبى جبلة الذى توفى قريباً من هذا الحصن [٥].

ويبدو أن موسى بن نصير كانت له جولات مع الفرنج ، وهذا مايؤيده النص الذى أورده ابن عذارى : فقد عاد ابن نصير إلى دمشق وسأله سليمان بن عبد الملك عن أمور كثيرة منها الإفرنج فقال له : "هناك العدد والعدة ، والجلد والشدة ، والبأس والنجدة . قال : فأخبرنى كيف كانت الحرب بينك وبينهم : أكانت لك أو عليك ؟ . فقال : أما هذا فوالله ماهزمت لى راية ، ولابدد جمعى ، ولانكب المسلمون معى ، منذ افتتحت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين"[٦] .

ولم تخل الساحة الأندلسية بعد ذهاب موسى بن نصير الى الشام فقد واصل ابنه عبد العزيز الجهاد ، يذكر ابن قتيبة "أن عبد العزيز بن موسى غزا بالناس حتى بلغوا أرض القوطيين" . وأرض القوطيين هى منطقة لانجدوك Languedoc وعاصمتها طولوشة (تولوز Toulouse) وكان القوط Gotie مسيطرين عليها فى بداية العصور الوسطى [٧].

وفى سنة ثمان وتسعين من الهجرة ، استعمل الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك الحر بن عبد الرحمن الثقفى والياً على الأندلس ، وكانت مدة ولايته سنتين وتسعة أشهر (٩٨-١٠٠هـ/ ٧١٥-٧١٨م) [٨]. وتذكر بعض المراجع الحديثة أن الحر قام بفتح جنوب فرنسا حتى وصل إلى أربونة Narbonne وأن أهل تلك النواحى سألوه الصلح فأجابهم[٩] .

وثمة قائد مسلم ، يتردد اسمه على الساحة الفرنسية إلى اليوم هو السمح بن مالك الخولانى والى الأندلس (١٠٠-١٠٢هـ/٧١٨-٧٢٠م) ويسمونه زاما Zama . كان قد اتخذ برشلونة قاعدة لعملياته العسكرية الشمالية بالنظر إلى صلاحية مينائها لرسو وإبحار الأساطيل الإسلامية وقربها من ممرات جبال البرتات وبخاصة ممر برنبان الموصل من برشلونة إلى أربونة ، ومن هذا الممر سار السمح بجيشه إلى جنوب فرنسا "إقليم سبتيمانيا" وسمى بذلك لاشتماله على سبع مدن : العاصمة نارون ، نيم Nimes ، آجد Agde ، بيزيه

Beziers، لودیف Lodeve ، وقرقشونة ، ماقلون Maguelone ، واختار السمح مدينة أربونة منطلقاً له نحو بقية المدن والقلاع ، وهو اختيار ينم عن استراتيجية عسكرية لكون أربونة تؤمن خط الرجعة للمسلمين في حالة الهزيمة ، لأنها تقع على نهر يصب في البحر مما يمكن الأسطول الإسلامي من الوصول إليها بالإمدادات ، ولمناسبة مناخها للفاتحين ، ولهذه المزايا اعتبرت أربونة ثغراً إسلامياً تابعاً للأندلس ، وكانت كتب عمر بن عبد العزيز تصل إليها ، ومنها انطلق السمح إلى طرسكونة Tarascon وفتحها ، ثم واصل طريقه نحو تولوز فتصدى له الدوق أود Eude حاكم أكيتين وهزمه ، وقتل السمح وعدد كبير معه وذلك في يوم عرفة من عام ١٠٢هـ/٧٢١م وكانت ولايته حوالي عامين [١٠].

وفي سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م سار عنبسة بن سحيم الكلبي عامل الأندلس من أربونه ونازل مدينة قرقسونة وحصر أهلها ، فصالحوه على نصف أعمالها ، وعلى جميع ما في المدينة من أسرى المسلمين وأسلابهم ، وأن يعطوا الجزية ويلتزموا بأحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه ، فعاد عنهم [١١].

وغير عنبسة اتجاهه نحو الشرق بعكس طريق السمح الذي اتجه نحو الغرب ، واستولى عنبسة على نيم دون مقاومة وأخذ عدداً من أهلها رهائن بعث بهم إلى برشلونة ، حيث كان الأسرى الفرنسيون يرسلون إليها ويعاملون بالرحمة والعطف ، وسار عنبسة من نيم وتوغل في إقليم برغندية Burgundie فاحتل فين Vienne وليون ، واستولى على مدن ماكون Macon وشالون Sur- Chalon - Saone ، ومضى المسلمون في فتوحاتهم الى بون Beaune ودجون Dijon ولانجر Langres وأرسل عنبسة سرية إلى أوتان Autun ، وبلغوا نيفر Nevers ومقاطعة فرانش كونتي Franche-Comté التي يوجد فيها آثار إسلامية ، ووصلوا إلى بزانسون Byzancon ، ولما وصلوا إلى مدينة سنس Sens قاومهم قسيسها Ebbon الذي أشعل النار في آلاتهم التي أعدوها لاقتحام أسوار المدينة . وتراجع قائد السرية أمام المقاومين وأصيب بجراح أثناء تراجعه . كما أن عنبسة في طريق عودته انقض عليه الفرنجة وأصابوه بجراح مات متأثراً منها في شعبان ١٠٧هـ/٧٢٥م ، وكانت ولايته أربع سنين وأربعة أشهر . وبعد موت عنبسة خلفه في القيادة عذرة بن عبد الله الفهري وسار بالجيش إلى أربونة ، وبعد أن وصلت الإمدادات من الأندلس عاد عذرة إلى فرنسا وتوغل في حوض الرون [١٢].

وقد أحاط الفرنجة الوجود الإسلامي بأساطير تصور المسلمين على أنهم وحوش . ومن ذلك مارواه رونو من أن المسلمين عندما وصلوا إلى مقاطعة رودس Rhodés أقاموا في حصن

اتخذوه قاعدة لعملياتهم العسكرية ، وقاومهم الفرنجي دادون Dadon فأسروا أمه ، وهددوه بقتلها إن لم يسلم جواده ، فأبى ، فذبحوها أمام ناظريه ، فصرخ ، وذهب عقله . ويقول رينو: إن المسلمين اجتاحوا مقاطعات بوي Puy وكليرمون Clermont فلما أشرفوا على دير موناستييه Monastier جمع القديس شافر Saint Chaffre رهبانه ، وأمرهم أن ينسحبوا إلى الغابات المجاورة ، مصطحبين معهم آثارهم الدينية ، فلما وصل المسلمون ألفوا شافر يصلي ، فمالوا في الدير يبحثون عن رهبان أحداث يبيعونهم في الأندلس وعن ذهب وفضة ، فلما لم يجدوا شيئاً انهالوا على القديس يضربونه ، ثم تقول الرواية إن هذه العصابة عيدت في الدير ، وذبحت أضحيتها وشربت الخمر ، فجاءهم القديس ودعاهم إلى دينه ، فرموه بحجر ، ثم هموا بهدم الدير ، فهبت عليهم ريح عاتية ، وصواعق محرقة ، فولوا هاربين ، وعاد الرهبان إلى ديرهم ، ومات شافر . ولكن رونو يستدرك بقوله : إن المؤرخ الذي ننقل عنه هذه القصة لم يحدد نوع الطقوس التي قامت بها هذه العصابة ؟ ولكنه يقول إنهم كانوا في عيدهم يشربون الخمر ويسخرون ، مما يدل على أن هؤلاء القوم الذين أغاروا على إقليم "فيلاي Velay" لم يكونوا مسلمين ، بل وثنيين من قبائل بربرية [١٣].

ولا شك في أن الروايات التاريخية التي سبقها رينو ، وصورت المسلمين ، بصور أقوام مفسدين ، لم تقم على أساس ، بدليل أن أصحاب هذه الروايات كانوا يخلطون بين لفظتي Sarrazins التي تعني مسلمين ، و Vandales وهم الوندال إحدى القبائل الجرمانية ، وقد عرف عنهم الغلظة والشدة والتخريب ، ويبدو أن رينو تحفظ في هذه المسألة ، وتردد في نسبة أعمال الحرق والهدم التي شملت جزءاً كبيراً من وسط فرنسا إلى جماعات مسلمة [١٤].

ويعلل سيديو شيوع مثل هذه الأساطير عن المسلمين بجهل الغربيين بحقيقة الإسلام مما جعلهم يعزون إليهم "جميع التخريبات التي ترى آثارها في الولايات التي جابوها . والعرب كانوا يظهرون معتدلين عند النصر مع ذلك . فلم يحاربوا بمثل ما كان يحارب به الهون والنورمان من الاندفاع والهمجية ، أفلم تكن تلك التهم نتيجة ما كان العرب يؤثرون به في خيال القوم ؟ كانت وجوه العرب السمراء ، ونظراتهم الحادة ، وسرعة انقضاض خيولهم ، وغرابة أزيائهم ، وأقاصيص الجنود الهاربين المملوءة بالمبالغات تطير منها النفوس جزعاً ، وكان العرب قد أتوا بلسان غير معروف ، وكان العرب قد أتوا حاملين جديداً ودياناً جديداً إلى أناس مؤمنين بتعاليم أسلافهم ، فما كان غير الحقد على أعداء إله النصارى ليصدر عن هؤلاء الأساقفة." ثم ألقى هذا المستشرق اللوم على كتبة الروايات الغربيين فقال : " ومن يطلع على

التواريخ الإيطالية والفرنسية يجدها حافلة بالأقاصيص المخيفة ، المبالغ فيها في الغالب ، حول غارات الشرقيين (العرب) الذين كانوا ينزلون إلى البر ، حيث السكان المسالمون ، فيدخلون القرى المفتوحة ، وينهبون الكنائس ، ويقتلون من يقاومون ، ويعودون بأناس من الأهالي على أنهم من الأرقاء . ومؤرخو ذلك العصر كانوا قليلي الاطلاع على سير الحوادث مع ذلك ، فلم يكن مادونوه – ولو بحسن نية – غير حكايات ناقصة عن غزو العرب لشواطىء البحر المتوسط ، فقد جعلوا ظهور المسلمين الأول قبل الزمن الذي نشر محمد (صلى الله عليه وسلم) فيه دينه . ولم يتفقوا قط ، على تواريخ غارات العرب ، فعلى من يرغب في معرفة الحوادث العامة معرفة صحيحة أن يرجع إلى مؤرخي العرب"[١٥] .

معركة بلاط الشهداء : النتائج :

بعد أن مات عنبسة – كما مر بنا – تسلم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي قيادة الجيش ، وأسرع به إلى أربونة ، كان هشام بن عبد الملك قد عين عبيدة بن عبد الرحمن السلمي على أفريقية والأندلس سنة ١١٠هـ ، فاستعمل عبيدة على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، في صفر عام ١١٢هـ "فغزا إفرنجة وأوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة ، وكان فيما أصاب رجل من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزمرد ، فكسرها وقسمها في الناس . فبلغ ذلك عبيدة ، فغضب غضباً شديداً ، فكتب إليه يتهدده ، فأجابه عبد الرحمن . وكان رجلاً صالحاً : أما بعد فإن السموات والأرض لو كانتا رتقاً فجعل الله للمتقين منها مخرجاً"[١٦] .

وخلال ولايته الثانية سنة ١١٢هـ/ ٧٣٠ ، أخذ عبد الرحمن يخطط لاجتياح فرنسا ، وحدث أن عثمان بن أبي نسعة أمير الثغر كان قد تزوج لامبيجي Lampégie ابنة أود دوق أكيتين ، فلما رأى عام ١١٣هـ/ ٧٣٠ ، فعزم الغافقي على غزو بلاد حميه وحاول أن يثنيه فلم يفلح ، فأرسل الى أوه يخبره بأمر الغزو ليستعد لملاقاة الغافقي ، فعلم الغافقي بالأمر ، فأرسل فرقة للقبض عليه ، فهرب ابن أبي نسعة ، وقاتل حتى قتل ، وجيء بزوجته الفرنجية لامبيجي ، فلما رآها عبد الرحمن إستحسن جمالها وبعث بها هدية إلى الخليفة في دمشق[١٧] .

وفي صيف عام ١١٤هـ/٧٣٢م ، جمع الغافقي قواته في بنبلونة عاصمة البشكنس ، ليجتاز البرت من الممرات الغربية فيضرب إقليم بردبل : بوردو Bordeaux واجتاز نهر الشيزري وأرسل فرقة لتأديب مدينة آرل Arles التي امتنعت عن أداء الجزية ، ثم واصل طريقة نحو بوردو وهزم قوات أود دوق أكيتين ، واستولى على بوردو وقتل أميرها ، فاستنجد أود بشارل مارتل الذي أسرع إلى ملاقاة المسلمين في مكان بين تور Tours وبواتيه على

مسافة ٣٣٢ كم جنوبي غربي باريس يقال له "موسيه لا باتاي Moussais La bataille" أواخر شهر شعبان ١١٤هـ/٧ أكتوبر ٧٣٢م واستمرت المعركة ثمانية أيام ، هزم فيها المسلمون وقتل الغافقي أوائل رمضان[١٨] . وبالغ بعض المؤرخين فقدر خسائر المسلمين بنحو ٣٧٥ ألف قتيل واعتبر بعض المؤرخين هذه المعركة انحساراً للمد الإسلامي في فرنسا[١٩] .

هل كان لنتيجة معركة بلاط الشهداء ، أثر في وقف الزحف الإسلامي على فرنسا ؟ ولكي نجيب بالنفي نستعرض أوضاع الجبهة الإسلامية فيما وراء البرانس :

بعد هزيمة المسلمين في بواتيه ، عبر عبد الملك بن قطن الفهري والي الأندلس (الولاية الأولى ١١٤-١١٦هـ/٧٣٢-٧٣٤م) ، جبال البرتات إلى فرنسا ونظم أوضاع المسلمين في إقليم سبتمانية حيث إن الاضطراب أصابهم بعد هزيمة بلاط الشهداء ، ثم عاد إلى الأندلس بعد أن تعرض إلى هجوم أفرنجي مباغت هزم فيه[٢٠] .

وذكر ابن عذارى أن عقبة بن الحجاج السلولي تولى على الأندلس في شوال سنة ١١٦-١٢٣هـ/٧٣٤- ٧٤٠م ، وقال إنه : "غزا أرض إفرنجة ، فلقيته جيوش الأعداء ، فقتل هو ومن معه ببلاط الشهداء" ؛ كان صاحب بأس ونجدة ، ونكاية للعدو وشدة ، كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه دين الإسلام ، ويقبح له عبادة الأصنام . فيذكر أنه أسلم على يديه بهذا الفعل ألف رجل . وكانت ولايته خمسة أعوام وشهرين"[٢١] .

ولاشك في أن ابن عذارى أخطأ عندما ظن أن عقبة قتل في بلاط الشهداء التي وقعت سنة ١١٦هـ ، بداية ولاية عقبة ، والصحيح أن عقبة ، عاد إلى الأندلس بعد أن وصل في فتوحاته بأرض الفرنجة إلى فالنس Valence . وترك مسألة فرنسا لقائدة عبد الرحمن بن علقمة اللخمي الذي قاد الجيش الإسلامي إلى آرل ، فأعاد فتحها ، واستولى على فالنس وفيين . ولكن شارل مارتل بعد أن هدأت الجبهة الشمالية والشرقية ، قرر مهاجمة المسلمين ، فأرسل أخاه شيلدبران Childebrand واستطاع استرداد أفينيون ثم واصل الجيش الفرنجي بقيادة شارل مارتل زحفه نحو أربونة وحاصر قائدها ابن علقمة سنة ١١٢هـ/٧٣٧م فأرسل إليه عقبة مدداً بحرياً ، ولكن الفرنجة هاجموا الأسطول وقتلوا قائده ، وحاول شارل مارتل اقتحام أربونة ، لكنه قرر رفع الحصار فجأة بسبب ثورات حدثت شمال فرنسا ، وفي طريق عودته دمر نيم وماجلون وأسر عدداً من المسلمين ، أما دوق مرسيليا Marseille فقد انتهز انسحاب شارل مارتل إلى الشمال وهاجم مع المسلمين مدناً في وسط فرنسا وشرقها . فعاد شارل مارتل إلى

الجنوب مسرعاً . واستعان بأخية شيلديران وسيطر على مرسيليا سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م وفي مقابل تقدم شارل مارتل ، شهدت الجبهة الإسلامية تراجعاً بسبب الفتن الداخلية التي أدت إلى مقتل عقبة سنة ٢٢٣هـ ، فانشغل المسلمون فيما بينهم عن الجهاد ، واستطاع الفرنجة إخراج المسلمين من مناطق عديدة في بلادهم[٢٢] .

رغم أن شارل مارتل ، أصبح في نظر الفرنجة بطلاً ، ورغم إنتصاراته التي حققها ضد المسلمين ، إلا أنه لم ينجح في توحيد شمال البلاد وجنوبها ، كما أن أهل الجنوب كانوا مشبعين بالحضارة الرومانية ، وكانوا يكرهون الفرنجة لأنهم جرمان لم يتحضروا . وزاد هذا الشعور ماقام به شارل مارتل بعد استيلائه على أملاك الكنائس والأديرة التي كانت بأيدي المسلمين ، فقد وزعها على رجاله الشماليين ، ونهب كنوز الكنائس ، الأمر الذي أثار حفيظة قساوسة الجنوب[٢٣] .

شارلمان وعبد الرحمن الداخل :

عندما مات شارل مارتل سنة ٧٤١م ، تولى خلفه ابنه بيبين القصير Pepin - Le Bref - (٧٤١-٧٥١م حاجباً ثم ملكاً ٧٥١-٧٦٨م) وقد ركز جهوده العسكرية في القضاء على القاعدة الإسلامية "أربونة" فانقض عليها سنة ١٣٣هـ/٧٥٢م ، وانضم اليه الأمير القوطي أنسمندوس Ansemundus ، ولم يستطع الملك فتحها ، فعاد تاركاً أمرها للأمير القوطي الذي قتله المسلمون[٢٤] .

أما الأندلس فقد شهدت أوضاعاً جديدة ، بوصول الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٥-٧٨٨م) فبعد أن استقر الحكم له أرسل سنة ١٤٠هـ/٧٥٨م جيشاً بقيادة الأمير الأموي في طليطلة حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك ، غير أن هذا الجيش لم يستطع اختراق جبال البرتات بسبب مقاومة القبائل الجبلية ، كما أضعف موقف الحامية الإسلامية في أربونة ، فاتفق سكانها القوط سراً مع الملك الفرنجي بيبن على تسليم المدينة شريطة إبقائهم مستقلين فيها حسب أعرافها القوطية فوافقهم على ذلك ، وتم قتل من فيها من المسلمين ، وتخريب مساجدهم سنة ١٤١هـ/٧٥٩م ، وهكذا سقطت أربونة بعد ثلاثين سنة من الحكم الإسلامي ، وانسحب بيبن بعد أن ترك فيها حامية إفرنجية . ويعتبر سقوط أربونة ، عقبة أمام مواصلة الفتح الإسلامي لفرنسا . ورغم ذلك فقد بقي المسلمون منطلقين بين مدن دوفينيه ونيس وجبال الألب[٢٥] .

وبالإضافة إلى انحسار المد الإسلامي في جبهة فرنسا ، شهدت الجبهة الداخلية الأندلسية صراعاً قبلياً إذ استعان عبد الرحمن الداخل باليمانيين ضد القيسيين للوصول إلى إمارة قرطبة ، ثم انقلب على اليمانيين ، فاستغل سليمان بن يقظان الكلبي الأعرابي والي برشلونة الوضع وأعلن عصيانه على الأمير عبد الرحمن سنة ١٥٧هـ/٧٧٤م ، وانضم إليه الحسين بن يحي الأنصاري والي سرقسطة ، فأرسل إليهما الداخل جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي فانهزم الجيش وأسر قائده ، وكان سليمان على اتصال بالفرنج منذ سقوط أربونة ، وعلى علاقة مباشرة مع شارلمان ، حيث قابله عام ١٩٠م في بادربورن Baderborne ، واتفق معه على تسليمه المدن الشمالية ولاسيما سرقسطة وكذلك الأسير ثعلبة ، وكان الجو مناسباً لشارلمان للقيام بحملة في إسبانيا ، بعد أن أخضع القبائل الجرمانية الوثنية ، وبعد أن حصل على تأييد البابا ، فانطلق بقواته نحو أكيتين في ربيع عام ١٦١هـ/٧٧٨م ، ومنها دخل اسبانيا حيث سهل له سليمان الأعرابي أمر احتلال المدن حتى سرقسطة ، ولكن الحسين بن يحي الأنصاري ترك تحالفه مع الأعرابي ، وكره أن يتورط في خيانة ضد الإسلام بالنظر إلى كونه من أسرة عريقة في الدين والإخلاص للإسلام . ووصل شارلمان إلى سرقسطة على عجل فوجدها مؤصدة الأبواب فحاصرها ولكنه لم يستطع فتحها ، وظن أن سليمان الأعرابي قد خدعه فنقض عليه ، وقفل راجعاً إلى بلاده في شوال ١٦١هـ/٧٧٨م ، ماراً ببلاد الباسك" البشكنس "فنهب عاصمتهم بنبلونة سنة ١٦١هـ/٧٧٨م فهب الباسك للانتقام ومعهم مسلمون تحت قيادة مطروح وعبشون ابني سليمان الأعرابي ، وعند باب الشيزري على بعد عشرين كيلو متراً من بنبلونة انقض البشكنس والمسلمون على مؤخرة جيش شارلمان وقتلوا قائدية إيجيارد Eggihard ورولان Roland ولازال شاهدا قبريهما يحملان تاريخ ١٥ أغسطس ٧٧٨ ذو القعدة ١٦١هـ ، ثم رأى شارلمان أن يفك أسر الأعرابي فعاد إلى سرقسطة ولكن الأنصاري قتله بإيعاز من الداخل عام ١٦٧هـ ، أما ثعلبة فقد أفرج عنه شارلمان بعد مفاوضات بينه وبين الداخل[٢٦] .

ويعلل رينو فشل شارلمان في احتلال سرقسطة بأن السكسن أعلنوا عصيانهم على شارلمان فاضطر إلى العودة سريعاً لتأديبهم[٢٧] .

وحيث إن مقاطعة أكيتين ، كانت هدفاً حربياً للمسلمين ، فقد عين شارلمان ابنه لويس التقي (Louis I Le Pieux ، ٧٨١-٨١٤) ملكاً على أكيتين لصد الهجمات الإسلامية . وتمكن الجيش الفرنجي من احتلال جيرونة (جيروندة Gerunda) قبل وفاة عبد الرحمن الداخل بثلاث سنين[٢٨] .

ويبدو أن كلا من شارلمان والأمير عبد الرحمن ، أدرك – في النهاية – أن لا مجال لإحراز نصر حاسم على الآخر ، فلجئا إلى المفاوضات ، ويقول المقرى : "كان عبد الرحمن الداخل يكاتب شارلمان يدعوه إلى السلم والمصاهرة ، فتم السلم ولم تتم المصاهرة"(٢٩) .

وبعد موت الأمير عبد الرحمن ، تولى الحكم بعده ابنه هشام (١٧٢-١٨٠هـ/ ٧٨٨-٧٩٦م) وانشغل في السنى الأولى من عهده بأمور داخلية ، ثم اتجه نظره إلى الحدود الشمالية ، فسير سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م جيشاً إلى الشمال الشرقى بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث "فبدأ بجرندة ، وكان بها حامية الفرنج ، فقتل رجالها ، وهدم أسوارها وأبراجها ، وأشرف على فتحها ، فرحل عنها إلى أربونة ففعل مثل ذلك ، وأوغل في بلادهم ، ووطيء أرض برطانية ، فاستباح حريمها ، وقتل مقاتلتها ، وجاس في البلاد شهوراً يخرب الحصون ، ويحرق ويغنم ، وأجفل العدو من بين يديه هارباً ، وأوغل في بلادهم ، ورجع سالماً معه من الغنائم مالا يعلمه إلا الله تعالى ، وهى من أشهر مغازى المسلمين بالأندلس"(٣٠) .

وبعد أن عبر عبد الملك بن مغيث البرتات نحو أربونة ، بقى أشهراً يحرق القرى ويفتح الحصون حتى تم له فتح أربونة سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م(٣١). ثم سار إلى قرقشونه حيث تصدى له جيوم كونت تولوز في عشرين ألف مقاتل ، وكان لويس التقى قد أوكل إليه مهمة الدفاع عن إقليم سبتمانيا ، والتقى الجمعان في فيلدينى Villednigne بين أربونة وقرقشونة ، فانهزم الجيش الفرنجى وعاد المسلمون بالغنائم ، وقطع المسلمون أنف جيوم فسمى "جيوم الأجدع Gil-laume au court nez" ولم يبق من جيشه سوى ثلاثة عشر فقط ، وكان لهذا الانتصار صدى في الأندلس ، ويقال إن ابن المغيث واصل طريقة شمالاً حتى بريتانى شمال غربى فرنسا(٣٢) .

وفى رد فعل للمد الإسلامى قام لويس التقى باحتلال برشلونة عام ٨٠١م/١٨٥هـ وامتد النفوذ الفرنجى حتى نهر أبرة بعد أن احتلوا طركونة سنة ٨٠٨م/١٩٢هـ مكونين مملكة عرفت فيما بعد باسم كطالونيا Catalunya ولايزال سكان المنطقة الواقعة بين بريتيان في فرنسا وبالنسبة في أسبانيا يتحدثون لغة قريبة من لغة البروفانس وهم بذلك يتميزون عن باقى سكان إسبانيا . وأصبح لشارلمان صولة وجولة ، حتى لجأ إليه عدد من الزعماء المسلمين المنشقين على هشام الرضا مثل عبد الله بن عبد الرحمن الذى فر إلى البلاد الفرنجى(٣٣) .

وبعد وفاة هشام ، تولى ابنه الحكم ١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م) فثار ضده عماه سليمان وعبد الله ، وأبو ثور أمير وشقة Huesce ويهلول بن مرزوق ، وذلك عام ١٨١هـ/٧٩٧م ،

وسار عبد الله الى الثغر الأعلى يذكى نار الفتنة والانشقاق ، واجتاز جبال البرنيه إلى الفرنجة، وبلغ عاصمتهم إكس – لا – شابل Chapille – las – Aix ، وقابل شارلمان وطلب منه إرسال جيش معه لاحتلال شمال إسبانيا ، وتم ذلك تحت قيادة ابنه لويس التقى الذى استولى على جيرندة وحاصر وشقة عام ٧٩٧م/١٨١هـ ، لكنه لم يستطع فتحها ، ولما رأى انفضاض الحلفاء عنه ، حيث آثروا العودة إلى طاعة الحكم ، عاد إلى فرنسا وشيع مضيق الرونسفال يطارده ، أما الحكم فقد قبض على عميه فقتل سليمان وعفا عن عبد الله(٣٤) .

وفى عام ١٨٢هـ/٧٩٨م اجتمع سعدون الرعينى عامل برشلونة بشارلمان وقدم له خضوعه ، ولكن شارلمان أدرك من مجيء سعدون حجم الخلاف الواقع بينه وبين أمير قرطبة ، فاستغل الوضع ، وقرر احتلال برشلونة عام ١٨٥هـ/٨٠١م ، بعد تسعين سنة من الحكم الإسلامى(٣٥).

يقول المقرى إنه "فى سنة ١٩٢هـ ، بعث الحكم ابنه عبد الرحمن فالتقى جيش لفريق بن قارله (لويس Ludovico) عند طرسونة فهزمه وفتح الله على المسلمين .. ولما كثر عبث الفرنج فى الثغور بسبب إشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين، فافتتح الثغور والحصون ، وخرب النواحى ، وأثخن فى القتل والسبى والنهب ، وعاد إلى قرطبة ظافراً(٣٦) .

وبعد مد وجزر بين المسلمين والفرنجة رأى الطرفان أن السلم خير لهما ، فعقد صلح بين شارلمان والحكم عام ١٩٦هـ/٨١٠م ، ورغم ذلك فقد تعرضت جزيرة كورسيكا Corse الفرنجية لإنزال إسلامى عام ٨١٣م ، حيث هاجمت فرقة من البحارة المسلمين سواحل نيس والبروفانس(٣٧).

ويقول ابن عذارى : "وفى سنة مئتين أغزى الحكم وزيره عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد المشركين ، فدخلها وتوسطها ، وأهلك معايشها ، ومرافقها ، وحطم زروعها ، وهدم منازلهم وحصونها ، حتى استوفى جميع قرى وادى أرون" . وبعد معركة حول نهر أرون وهو المعروف الآن باسم "الرون Rhone" عاد عبد الكريم منتصراً لسبع خلون من ذى القعدة (٣٨) .

وطرأ على الساحة الفرنجية ، مستجدات ترتبت على موت شارلمان سنة ٨١٤م ، وتولى ابنه لويس التقى أو الحليم (Louis - Le - Débonnaire ؛ ٨١٤-٨٤٠م) ، الذى كان ملكاً على أكيتين ، فأرادت القيادة الأندلسية سبر غور الحاكم الجديد ، واهتم بهذا الشأن الأمير عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م) الذى تسميه الفرنجة "أبو العاصى "Abulaz

ففي سنة ٨١٦م ، بعث وهو لم يزل ولياً للعهد سفارة إلى لويس الحليم في مكان إقامته في كومبيني Compiégne ، من أجل عقد هدنة بين الطرفين ، وتم التوقيع عليها في العاصمة إكس - لا - شابل . ولكن الهدنة لم تدم طويلاً ، بسبب غارات بحرية قام بها الأسطول الإسلامي على جزيرة سردينيا Sardegna عام ٨٢٠ [٣٩] .

وبعد أن خلف الأمير عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م) أباه على إمارة قرطبة ، قام عام ٢٢٤هـ/٨٣٨م ، بإرسال أسطوله إلى مرسيليا بقيادة ابن عمه عبيد الله بن عبد الله البلنسي فاستولى على ضواحيها وأسر كثيراً من رجال المدينة . وهناك أسطورة فرنجية تدور حول راهبة تدعى أوزيبي Ousébie كانت رئيسة دير الراهبات في مرسيليا خشيت هي وأربعون راهبة على أعراضهن أن ينتهكها المسلمون فجدعن أنوفهن حتى يتخلصن من ذلك ، وهذه بلا شك أكذوبة أريد منها تصوير المسلم شهوانياً مغتصباً [٤٠] .

في سنة ٢٢٦هـ/٨٤٠م بعث عبد الرحمن بن الحكم عساكره إلى أرض الفرنجة وانتهوا إلى أرض بريطانية بقيادة موسى بن موسى عامل تطيلة [٤١] واستطاع المسلمون الوصول إلى جزيرة أوى Oye في بريتاني Bretagne . ويبدو أن هذه العملية كانت تهدف إلى دخول فرنسا عبر نهر اللوار Laloire [٤٢] .

في عام ٨٤٠م مات لويس الحليم ، وخلفه ابنه شارل الأصلع Charles - Le Chauve (٨٤٠-٨٧٧م) ، إلا أنه دخل في صراع مع أخيه كل من شارل مارتل ، ويبين القصير ، وشارلمان ، واستفاد المسلمون من هذا الوضع ، فزحفوا عام ٨٤٨م على وادي الرون ، وأغاروا على سردينيا وكورسيكا ومرسيليا ، ووصلوا إلى ضواحي آرل [٤٣] .

ولم يلبث الأمير عبد الرحمن أن مات سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م ، وخلفه ابنه محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م) ، وفي عهده ضعفت عمليات غزو فرنسا بالنظر إلى ماحدث في الأندلس من اضطرابات . في سنة ٨٤٨م جاء المسلمون إلى مرسيليا لمساعدة الملك بيبن ضد عمه شارل الأصلع فقد كان بيبن قد بعث جيوم كونت تولوز إلى قرطبة وطلب مساعدته فبعث معه الخليفة عساكر توغلت في فرنسا حتى اضطر شارل الأصلع إلى طلب الصلح . واتفق مع الملك الفرنسي شارل الأصلع على عقد صلح عام ٢٥٢/٨٦٦م [٤٤] .

ولكن هذه الحملة لم تحقق ما كان يطمح إليه الناصر . فاتخذ من قضية التواجد الإسلامي في البروفانس والألب ، ورقة رابحة ، استغلها في علاقاته مع زعماء أوروبا الغربية ؛ يحدثنا المقري أنه في سنة ٣٣٦هـ/٩٤٨م ، وفد على عبد الرحمن الناصر مبعوثون : "رسول من ملك

الصقالبة وهو يومئذ هرتو (إمبراطور ألمانيا Otton) ، ورسول من ملك الإفرنجة وراء البرت وهو يومئذ أوقه (Hugues d'Arles) ، ورسول آخر من ملك الإفرنجة بقاصية المشرق وهو يومئذ كلدة Guido بن أدلبرت مركيز تسكانيا" [٤٥] .

ولاشك في أن الوجود الإسلامي ، كان يحظى بتأييد من بعض الزعامات الفرنسية ، التي ترى أن من مصلحتها الانضمام إلى العرب في عمليات عسكرية مشتركة ، فبعد أن احتل المسلمون جرونوبل Grenoble سنة ٩٥٤م اتخذوها قاعدة انطلاق لهم . وقد عثر على كتابة منقوشة على حجر تدل على وجود العرب في هذه المنطقة . ويقال إن أحد الفرنسيين يدعى ايمن Aymon إنضم إلى العرب ، واشترك معهم في غارة فوقعت بأيديهم إمرأة جميلة ، فاختص بها . ولكن العرب انتزعوها منه ، فشارت حميته ، وانفض عنهم ، وانضم إلى روتبالدوس Rotbaldus حاكم بروفانس العليا [٤٦] .

ونلاحظ أن إلصاق التهم بالمسلمين ، وبخاصة فيما يتعلق بالنساء ، دون هؤلاء الرواة الذين ينقل عنهم المؤرخ الفرنسي ريتو . وعلى أية حال فإن الوجود الإسلامي في الألب أقلق الإمبراطور أوتو فأرسل سنة ٣٤٣هـ/٩٥٤م سفارة إلى الناصر يطلب منه الكف عن مساعدة العرب المرابطين في السواحل الفرنجية ، فرد عليه الناصر بعبارات لاتخلو من قدح في النصرانية ، فرأى أوتو أن يرسل إليه الراهب جان Jean رئيس دير جورز Gorze سنة ٩٥٦م ليشرح له القضية ، وقد رد الناصر على طلب الملك برسالة لم تصلنا ، ولكن يظهر أن أوتو لم يستطع عمل شيء إزاء تفاقم الوجود الإسلامي في الألب ، مما دفع الأسقف فالدر Waldo إلى مخاطبة أوتو بشأن توغل المسلمين في كوار . وقام أوتو إمبراطور ألمانيا بتعويض الأسقف بإقطاع آخر في مرسوم صدر في سنة ٩٥٦م [٤٧] .

ولنا أن نستأنس بعبارة نقلها كلر عن اكهارد راهب دير سان - غالد ، تصور لنا مدى هيمنة العرب على الأجزاء الجنوبية من فرنسا ، والألب : "إن العرب كانوا متمكنين جيداً في قلب الجنوب من أوروبا حتى أنهم لم يكونوا يحدثون أنفسهم بإمكان خروجهم منها ، وكانوا يتزوجون من بنات أهل البلاد ، ويسكنون أودية خصبة" [٤٨] .

ولم يكن الوجود الإسلامي في المنطقة يلقى الجميع ، فقد استفاد منه الزعماء المحليون في بروفانس وذلك في الصراع الذي دار بينهم ، وعندما يعلن زعيم بروفانسي الحرب على المسلمين فإنه يهدف إلى الحصول على تأييد شعبي ، وفي المقابل كان العرب يستغلون خلافات هؤلاء الزعماء لتقوية وجودهم في البلاد ، فعندما انشغل هوج كونت بروفانس ، في حربه ضد

منافسية سنة ٩٢٦م ، استغل العرب الفرصة ، وتسللوا إلى الألب ، فقرر هوج ضربهم في معقلهم الأول "وأحرق سفن المسلمين ، ولكن ظروفاً سياسية تدخلت في خلافات بين هوج وزعماء فرنسيين آخرين ، اضطرت هوج إلى التوقف عن تعقب العرب في الجبال التي تسمى إلى اليوم باسمهم "Monts des Maures" ، ورأى أن من مصلحته مصالحتهم ، واتفق معهم على السماح لهم بالتوغل في جبال الألب شريطة أن يمنعوا أي جيش قادم من إيطاليا . واعتبر العرب هذه الاتفاقية إعترافاً رسمياً بوجودهم . وسيطروا على معابر الألب ، وفرضوا مكوساً على المسافرين ، وكان هوج قد اشترط عليهم عدم التعرض للحجاج ، فرعوا ذلك . إلا أنهم بعد وفاته أصبحوا غير مقيدين بهذا الشرط . ومن الممكن أن نقول إن محاولة إجلاء العرب عن سان ترويس تحولت إلى تعزيز لوجودهم في البروفانس والألب (٤٩) .

وكان أن ظهر عنصر آخر على الساحة ، وهم المجر الذين اكتسحوا الألزاس سنة ٩٥٢م ، فصار لزاماً على زعماء هذه البلاد أن يخططوا للقضاء على المجر والعرب في آن واحد . وقد لجأ كونراد حاكم بورغونية وسويسرا وفرانش كونتي ودوفينى إلى حيلة للتخلص من الغزاة تكتب إلى العرب يقول لهم : إن لصوص المجر قد قدموا لاحتلال الأراضي الخصبة التي بأيديكم فهلموا إلينا نقف صفاً واحداً ضدهم ، ثم أرسل إلى المجر يقول لهم : إن الأراضي الخصبة بيد المسلمين فتعالوا معنا نقاتلهم ، فحضر المجر والعرب إلى المكان الذي حدده كونراد ووقعت بينهم معركة ثم إنقض عليهم كونراد وأبادهم ولم ينج منهم إلا القليل أرسلوا إلى آرل وبقوا هناك . وهذه المعركة وقعت في سافوا Savoie في موقع موريين Maurienne مشتقة من لفظة مور التي تعني المسلمين ، ورغم أننا نشك في حكاية "حيلة كونراد" فإننى أفترض حدوث المعركة ، التي لم تسفر عن طرد للعرب ، بل من المؤكد أنهم واصلوا انتشارهم حتى بلغوا مدينة سان غال Sain-Gall ، وأصبحوا ظاهرة جبلية ، مما جعل أحد المؤرخين يشبههم بالمعزى في خفة أقدامهم وسرعة سيرهم بين الجبال والأحراج (٥٠) .

ويبدو أن أوتو إمبراطور ألمانيا ، قد يئس من إقناع حكومة قرطبة ، في الحد من نشاط عرب الألب والبروفانس ، فقرر سنة ٩٦٨م ، القضاء على الوجود الإسلامي في هذه الأقاليم ، إلا أنه مات قبل تنفيذ مشروعه ، ورأى الأهالي أن يوحدوا جهودهم ، من أجل حماية ممتلكاتهم من غزو هذه الفئة المسلمة ، لكنهم يفتقرون إلى سبب لإثارة حميتهم ، وقائد يرفع شعار المقاومة ، وحدث أن مايول Mayeul أحد قساوسة دير كلوني Cluny كان ذاهباً إلى روما يوم ٢٢ يوليو ٩٧٣م ، وانضمت إليه قافلة سارت نحو جبال الألب ، وفي أحد المضايق

انقض على القافلة مسلمون قدروا بألف رجل ، وأسروا كثيراً منهم ، ووقع مايول أسيراً . وطلب المسلمون منه أن يرسل إلى أصحابه في الدير يسألهم دفع الفدية له ولرفاقه .

مرحلة الاستيطان :

من خلال سردنا التاريخي لسير الفتوحات الإسلامية في بلاد الفرنجة نلاحظ أن الحملات العسكرية كانت تمنى بهزائم تارة ، وتحظى بانتصارات تارة أخرى ، ولكن يبقى العنصر الإسلامي مرابطاً في تلك البلاد ، وبخاصة في إقليم البروفانس ، ولنأخذ مثلا معركة بلاط الشهداء ، التي هزم فيها المسلمون ، فقد مكث المسلمون بعدها في فرنسا عدة قرون ، واختلف المؤرخون حول أهمية هذا الانتصار : منهم هنري مارتن الذي قال : "لقد تقرر مصير العالم في تلك المعركة ، فلو غلب الفرنج فيها لكانت الأرض قبضة محمد ولخسرت أوروبا والدنيا مستقبلهما ، فليس النشاط الذي يحفز الناس إلى التقدم مما تجده في عبقرية المسلمين الذين يردون كل شيء إلى الله . وإله المسلمين جنح إلى العزلة والسكون بعد أن خلق العالم فلا يحث الناس على العمل في سبيل الرقي" . وقد فند هذه المغالطة ، المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون في كتابة القيم "حضارة العرب" فقال : لو انتصر المسلمون في هذه المعركة ، وأقاموا في فرنسا كإقامتهم في إسبانيا "فماذا كان يصيب أوروبا ؟كان يصيب أوروبا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانيا من التقدم والارتقاء ، والحضارة الزاهرة الرفيعة تحت راية النبي العربي (صلى الله عليه وسلم) (٥١) .

أما المفكر الفرنسي أناتول فرانس Anatol France فقد وضع كتاباً سماه الحياة الوردية ، قال فيه : إن "أشأم يوم في تاريخ فرنسا يوم معركة بواتييه عندما تراجع العلم العربي ، والفن العربي ، والحضارة العربية ، سنة ٧٣٢م أمام همجية الفرنجة"(٥٢) .

والذي نحن بصدده – هنا – التأكيد على أن هذه الفتوحات ، أو الغارات أسفرت عن استيطان عناصر إسلامية ، متبثة في أودية ، وجزر ، وقلاع ، جنوب فرنسا ، وحول جبال الألب ، ووراءها ، وإذا كانت السرايا المنظمة خاضعة لظروف الأندلس السياسية ، ومعاهداتها الإقليمية ، فإن سراحل البروفانس شهدت إقامة جماعات إسلامية ، تعمل – فيما يبدو – بمعزل عن سياسة قرطبة .

ورغم الهدنة التي أبرمت بين الأمير محمد بن عبد الرحمن والملك شارل الأصلع ، فقد قام عدد من المجاهدين سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م ، بمهاجمة الشواطىء الفرنسية ، ونزلوا في بروفانس

في جزيرة يقال لها كامارج Camargue على مصب نهر الرون ، وفيها أملاك الراهب رولان Roland ورئيس أساقفة آرل ، الذي يدعى رونو أن المسلمين قبضوا عليه وقتلوا ثلاثمئة من رجاله ، وطلبوا فدية لإطلاقة مقدارها مئة وخمسون ذهباً ، ومئة وخمسون ثوباً ومئة وخمسون سيفاً ومئة وخمسون عبداً ، ومات الأسقف قبل تسليم الفدية فكتم المسلمون أمره ، حتى استلموا الفدية ، فألبسوا الأسقف ثيابه كما لو كان حياً ، وأجلسوه على أريكة ، ثم غادروا المكان فلما وصل أصحابه إليه لتهنئته بالسلامة وجدوه جثة هامدة [٥٣] .

وعندما مات شارل الأصلع عام ٨٧٦م ، اضطربت الأحوال السياسية في فرنسا ، وتنازعت فرنسا وألمانيا على إقليم اللورين الشرقي الحدودي ، وانتهى هذا الصراع بتوقيع اتفاقية ريبمون Ribemont عام ٨٨٠م ، التي تقضي بأن يكون اللورين من نصيب الملك لويس السمين Louis le Gros (٨٧٩-٨٨٢م) الذي لم يحسن توظيف الفرص ، مما أضعف الحكم ، وأدخل البلاد في فوضى سياسية ، وبخاصة في إقليم بروفانس [٥٤] .

وقد أتاحت الفوضى السياسية في جنوب فرنسا بالذات ، الفرصة للبحارة المسلمين ، ففي سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م ، رست مجموعة مكونة من عشرين مجاهداً على الساحل الفرنسي في بروفانس ، في خليج سان - تروبيس Saint - tropés ، واتخذوا من جباله موقعاً استراتيجياً، يهيمن على إقليم بروفانس الأسفل ، واستدعوا إخوانهم من الأندلس وشمال أفريقيا ، فامتلأت بهم هذه الجبال ، وبنوا حصوناً أشهرها قلعة فراكسينتيرم Fraxinetum شمالي ميناء طولون Toulon وسميها المسلمون جبل القلال ، وتعرف اليوم باسم جارد - فرينيه Garde - Fraînet ، وتسمى الغابة المحيطة به "غابة العرب" . واستمر هذا الوجود من سنة ٢٧٦هـ إلى ٣٦٥هـ (٨٨٩-٩٧٥م) ، وسيطر المستوطنون المسلمون على مناطق مهمة في فرنسا وسويسرا وإيطاليا [٥٥] .

ومن هذا الموقع وصل المسلمون إلى أنطيب Antibes التي يسميها العرب عين الطيب ، ونيس التي يسمونها نيقة . وفيها مكان يسمى ناحية المسلمين Canton des Sarrazins وبنى المسلمون في إمبران Embrun ثلاثة حصون [٥٦] .

ثم حدث أن تعرضت فرنسا أواخر القرن التاسع ، وأوائل القرن العاشر الميلاديين إلى غزوات القبائل المجرية ، التي عاثت فساداً في البلاد ، حتى ظنهم رجال الدين يأجوج ومأجوج وأنهم من علامات القيامة التي كان يظن هؤلاء أن موعدها الألف الأول من ميلاد المسيح عليه السلام. وللأسف أن القوم كانوا يخلطون بين المسلمين والمجر ، الأمر الذي جعل كتاب رينو يجمع

بأمثلة كثيرة تتهم العرب بالخراب والدمار والوحشية من ذلك ما نسب إلى العرب ، عندما احتلوا بلاد بيمون Piémont ومونفرا Montferrat فقد روى مؤرخ دير نوفاليز Novalese أن أحد أعمامه - وكان من قواد الجند - داهمته عصابة عربية قرب بلدة فرسل Vercil وأسروا رفاقه ، ثم أطلقوا بعضهم واستبقوا القادرين على دفع الفدية ، وبقي عم الراوي وخادمه في أيديهم ، وكان والد الأسير مارّاً من هناك فعلم بالخبر فذهب وجمع مالاً فك به أسر ابنه وخادمه [٥٧] .

في عام ٩٠٦م ، اجتاز المسلمون مضايق دوفيني Dauphiné وسيطروا على جبل سيني Mont Cenis . وفي عام ٩٠٨ ، نزل بحارة مسلمون على ساحل لافيدوك قرب إيجمورت وهاجموا دير الترتيل abbaye de Psalmodie ، ثم لم يلبثوا أن تحكموا في جبال الألب ، وكان لابد لمن يريد عبورها من فرنسا إلى إيطاليا أو العكس أن يحصل على إذن منهم ، ففي عام ٩١١ ، كان رئيس أساقفة أربونة يتوى الذهاب إلى روما فلم يقدر لأن جماعة مسلمة كانت تهيمن على الطريق الذي يخترق جبال الألب إلى إيطاليا . ووصل العرب إلى وادي فاليه Valais في سويسرا ، وتقدموا إلى مقاطعة غريزون Grisons السويسرية وعاصمتها كوار Coire [٥٨] .

وقد شهدت الجبهة الإسلامية مع فرنسا ، انبعاثاً جديداً في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) وفي عهده قام جودمار Godmar الذي كان أسقف سيريه Ce-ret من منطقة روسيون Roussillon في فرنسا ، بتأليف كتاب لابنه الحكم سنة ٣٢٨هـ ، ضمنه مقتطفات من تاريخ فرنسا ، منذ عهد كلوفيس إلى سنة ٣٣٢هـ ، ومع الأسف لم يعثر حتى الآن على نسخة من هذا الكتاب [٥٩] .

ويبدو أن الناصر ، كان يخطط للوصول إلى أماكن جديدة في فرنسا ، فاحتاج إلى معلومات دقيقة عن الفرنجة شعباً وأرضاً ، ولعله استفاد من الكتاب الذي ألفه الأسقف ، ولا يعني ذلك أن الناصر لم يقم بأية محاولة للتوغل في بلاد الفرنجة ، فإنه أرسل في سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م ، عمه عبد الرحمن لعبر البرتات واكتسح منطقة غسكونية Gascogne ووصل إلى تولوز [٦٠] .

وفي عام ٩٧٥ ، سقط حصن فراكسنتوم في أيدي المسيحيين بعد أن ظل بيد العرب ثمانين سنة ، ولقد أقيم في هذا الموقع برج تذكاراً للانتصار على المسلمين [٦١] .

وبعد سقوط حصن فراكسينتوم ، أقل نجم المسلمين فى جنوب فرنسا والأسف ، ولكن ظل هاجس غزو الجزر والسواحل الفرنسية يهيمن على تفكير مسلمى الأندلس . غير أن ما اعتراهم من تفكك وتفرق ، جعل القيام بمثل هذه الغزوات ، صعبا ونادراً ، ومع ذلك فقد استمرت الغارات متقطعة وخاطفة ، وخاصة على ماجلون التى أصبحت هدفاً لغاراتهم ، حتى أطلق عليها "الميناء الإسلامى" Port Sarrazin ، ورغم ضعف الدويلات الإسلامية فى الأندلس ، فإن ثمة أمراء واصلوا عمليات الجهاد فى البحر ، باتجاه جزيرتى سردينيا وكورسيكا ، وسواحل البروفانس ، وأشهرهم مجاهد العامرى الذى ينتمى إلى "الصقالبة" وهم عنصر يعود إلى أصول أفرنجية وألمانية ، كان يؤتى بهم من بلادهم صغاراً ، وقد تولى المنصور بن أبى عامر تربيته ، وقد استطاع احتلال سردينيا عام ٤٠٦هـ/١٠١٥-١٠١٦م ، ولكن القوى الإيطالية والبابوية أجلته عن هذه الجزيرة عام ١٠١٧م ، وأسرت ابنه على بن مجاهد المسمى إقبال الدولة ومكث فى سردينيا سنين كثيرة حتى أتقن لغتهم ، وتزيا بزيهم ، واعتنق دينهم . وبعد مفاوضات بين نصارى سردينيا وأبيه مجاهد ، أطلق سراح الفتى ، فعاد مسلماً كما كان[٦٢] . ورغم هزيمة مجاهد العامرى أمام الأوربيين ، إلا أن شخصيته ذائعة الصيت عندهم ، وكانوا يسمونه Muget أو Musectus [٦٣] .

وعندما مات المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٢هـ/١٠٠٢م أثناء غزوة قام بها فى بلاد الإفرنج ، تولى مكانه ابنه عبد الملك (٣٩٢-٣٩٩هـ/١٠٠٢-١٠٠٨م) وبعد عام من حكمه غزا بلاد الإفرنج وفتح حصن تقصر من ثغر برشلونة عنوة وأسكنه بالمسلمين ، ودرخ بسيط برشلونة وما اتصل به . "وعهد الحاجب وقت الفتح إلى المسلمين ألا يحرقوا منزلاً ولا يهدموا بناءً لمذهب إليه من إسكان المسلمين فيه فشرع الوقت فى إصلاحه ونادى فى المسلمين من أراد الإثبات فى الديوان بدينارين فى الشهر على أن يستوطن فى هذا الحصن فعمل وله مع ذلك المنزل والمحرث فرغب فى ذلك خلق عظيم واستقروا فى حينهم" [٦٤] .

مرحلة الهجرة الموريسكية :

يجدر بنا قبل الحديث عن "الموريسكيين" أن نعرف المعنى اللغوى لهذه الكلمة : فلفظة موريسك Morisco ، هى تصغير للفظة El Moro بمعنى مسلم ، وقد شاع هذا المصطلح ابتداءً من عام ١٥٢٦م ، ولاشك فى أن التصغير للتحقير إذ أن معناه الحرفى مسلم قليل الشأن" [٦٥] .

ذلك أن سقوط غرناطة عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م فى يد الملكين الإسبانيين فرناندو وإيزابيلا ، كان بداية مأساة لمسلمى إسبانيا ، رغم مافحمله وثيقة الاستسلام التى وقعها الأمير أبو عبد الله فى ٢٣ رمضان عام ٨٩٨هـ/١٥ أبريل ١٤٩٣ من التزام خطى من الملك الإسبانى وزوجته بمراعاة حقوق المسلمين ، لكن أبا عبد الله ذيل هذه الوثيقة بشعبه ، بيبع أملاكه ومغادرة إسبانيا ، فكان أول من عبر مضيق جبل طارق إلى المغرب ، وبصحبته ألف ومئة وثلاثون من أتباعه . وفى بداية الأمر حرص الملكان على بقاء العنصر الإسلامى لحاجة البلاد إلى خبرته الحضارية ، ولكن رجال الدين النصارى طالبوا بتخيير المسلمين بين التنصر أو بيع ممتلكاتهم والرحيل إلى المغرب ، وأوحوا إلى الملك أن ذلك ليس نقضاً لبنود الاتفاقية ، بل محافظة على أرواح المسلمين . وعاش المتنصرون من المسلمين ، فى ظروف قاسية ، فقد محيت هويتهم ، وحرمت عليهم عاداتهم ولغتهم ، وأقاموا تحت رقابة وتحرى "محاكم التفتيش" ومع ذلك فقد ظل الإسبان ينظرون إليهم بعيون الشك والريبة ، الأمر الذى انتهى بإصدار قرارات بنفيهم[٦٦] .

ويهمنا هنا أن نتتبع أحوال المتنصرين من المسلمين الذى كانوا يقطنون شمال إسبانيا ، واتخذوا طريقهم إلى جنوب فرنسا . ففى ١٢ فبراير عام ١٥٠٢م ، صدر مرسوم ملكى ، يقضى بتخيير المقيمين فى قشتالة وليون من المسلمين بين النصرانية أو الهجرة ، وأعطوا مهلة إلى نهاية أبريل من العام نفسه "واحتج المسلمون بأن أسلافهم عندما حكموا معظم إسبانيا ، فإنهم سمحوا بالحرية الدينية ، إلا فى القليل النادر ، للمسيحيين الذين تحت سلطانهم" وكان أن ترك إسبانيا إبان القرن السادس عشر ثلاثة ملايين من المسلمين المتنصرين ، ووصف الكاردينال ريشليبه مرسوم عام ١٥٠٢ بأنه "أكبر حدث همجى فى التاريخ .. وفقدت إسبانيا كنزاً لايقدر بخروج التجار وأصحاب المهن والدارسين والأطباء من اليهود والمسلمين ، وأفادت الأمم التى تلقتهم من الناحيتين الاقتصادية والفكرية[٦٧] .

وقد وجد كثير من المسلمين أنفسهم مضطرين إلى التنصر ، من أجل البقاء فى ديارهم ، ومع ذلك لم ينجوا من المضايقات والملاحقات ، وصدرت ضد وجودهم القرارات الخامسة . ففى ١٧ أبريل عام ١٦١٠م ، أصدر فيليب قراراً بطرد الموريسكيين القطلان Catalans فى بلد الوليد ، ونشر البيان فى ٢٩ مايو من العام نفسه فى برشلونة . وبدأ الموريسكيون القطلان الهجرة إلى فرنسا وكان عددهم عشرة آلاف . ولم يسلموا من أذى رجال الحدود ، وبخاصة بعد أن أصدر مجلس الدولة فى ٢٤ يونيو ١٦١٠م ، قراراً بتفتيش الموريسكيين المتوجهين نحو فرنسا ، واعتقال الأغنياء منهم والمشهورين ، بهدف التحقق من أهدافهم . أما عامة الناس فسمح لهم بالعبور [٦٨] .

وبعد أن أصدر الفشتاليون قرار النفي في ١٥ سبتمبر ١٦٠٩م ، رحل إلى فرنسا من فشتالة سبعة عشر ألفاً . وفي ١٠ يوليو ١٦١٠م ، صدر أمر ملكي بطرد من بقي في البلاد من العرب ، ماعدا المسلمات المتزوجات من نصارى وكذلك أولادهن ، وقدر عدد المطرودين إلى فرنسا من أراجون بخمسة وعشرين ألفا ، ومن فشتالة بمئة ألف مسلم ومسلمة ، وتمت عملية الإجلاء تحت إشراف الكونت دى سالازار الذي أوصلهم الى حدود فرنسا . حيث استقبلوا استقبالا حسنا[٧٠] .

ولايعني ذلك أن هذه المجموعة كانت أول من وصلت فرنسا ، بل إن مجموعات سابقة بلغت مدينة أربونة الفرنسية في نهاية القرن السادس عشر الميلادى . يقول أحد رجال الدين الفرنسيين ويدعى الآب بليدا : إنه رأى على مشارف أربونة مجموعة من الموريسكيين ، وهم يبكون وطنهم السليب ، ويجبرون على بلد لم يعرفوه ، ومجتمع لم يألفوه ، ومظاهر يشمئزون منها في فرنسا ، وعانوا من الخنازير التي كانت تجول في الشوارع وقد تم استئناسها ومع أنهم كانوا يبتعدون عنها إلا أنها كانت تمس ثيابهم ، وكذلك لم يجرؤوا على تناول الخبز الذي يصنع في الأفران العامة لأن أوانيها تستعمل لطهي لحم الخنزير ، ولهذا أقاموا أفراناً خاصة بهم في منازلهم حيث كانوا يصفون فيها أوانى اللحم حتى في أيام صوم النصارى ، وكانوا يبكون الحرية التي كانوا يتمتعون بها في إسبانيا ، وإن كانت حرية العقيدة الموجودة في فرنسا تريحهم بعض الشيء ، ومع هذا فإن اشمئزازهم من الخنازير حيث كان الدخان والرائحة التي تأتيهم من أفران المنازل المجاورة لم تدعهم في راحة داخل منازلهم"[٧٠] .

وربما فضل بعض الموريسكيين البقاء في فرنسا التي استفادت من الثروة التي حملوها معهم ، فقد هاجروا بذهبهم ، مقابل مبلغ من المال سلموه لحرس الحدود ، ويذكر أن مهاجراً اسمه إبراهيم ، قدم إلى مرسيليا ، وعندما اطمأن على وضع المدينة ، استدعى جماعته بعد أن أقنعهم بالمجيء إليها لأنهم سيكونون فيها أحراراً في معتقدهم الإسلامي .[٧١]

ولما كان المذهب البروتستانتي منتشراً في جنوب فرنسا ، وكان البروتستانت أقلية في فرنسا ، فإنهم انتهزوا فرصة مجيء المهجرين ، وأغروهم بدخول المذهب البروتستانتي ، مما أقلق البابوية التي كانت تراقب عن كثب تزايد أعداد الموريسكيين في فرنسا ، واتحادهم مع البروتستانت ، مما دعى البابا إلى استدعاء أحد أعضاء السفارة الفرنسية في روما وهو الكاردينال دوسا Carsinal d'Ossat سنة ١٥٩٧ وسأله : "هل قامت فرنسا بشيء ما لصالح الملحدين" فأجابه : إن هناك مرسوماً أصدره برلمان روان Rouan سنة ١٥٧٧م لصالح

البروتستانت ، وصادق عليه برلمان باريس ، فتغير وجه البابا ، وأبدى أمنيته أن لايرى رعاياه إلا متحدين تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية" . واستفاد البروتستانت من التأييد الرسمي لهم، فزاولوا نشاطهم التنصيري في حرية تامة ، وقاموا بتعميد أطفال المسلمين المهجرين . ويعلق كاردياك على اعتناق الموريسكيين المذهب البروتستانتي بقوله : "توجهت المجموعة الموريسكية مراراً إلى الملك هنري الرابع بوساطة مبعوثين رسميين ، وذلك لطلب مساعدته للعمل بانتفاضة عامة في إسبانيا . إن إعتناق البروتستانتية المحتمل ، يبدو إذن بالنسبة إليهم وكأنه حركة تحريرية وعملياً كوسيلة للتخلص من اضطهاد محاكم التفتيش" . وهكذا اضطر المهجرون إلى قبول البروتستانتية ، بل إن بعضهم وصل إلى رتبة راهب ، وأشهرهم كازيودورو دو لارينا Casiodoro de la Reina وهو أصلاً مسلم من غرناطة وأصبح راهباً لوثريا[٧٢] .

لقد كان الدخول في مذهب البروتستانت ، ميسراً ، وسهلا ، ولكن الطقوس تعقدت فيما بعد ، وأصبح لزاماً على الموريسكي أن يكذب محمداً صلى الله عليه وسلم ، وينكر القرآن ، وكان يوجد في باريس معبد أبلون Ablon الذي شهد حالات تعميد الموريسكيين ، وصارت مراسم الزواج بين موريسكي وموريسكية تشهر في الكنيسة ، وأحياناً تتم هذه المراسم بحضور شخصية من أفراد الأسرة المالكة الفرنسية . ففي مارس عام ١٥٩٩م تم عقد قران بين فتى وفتاة موريسكيين بحضور أخت الملك هنري التي كانت على المذهب البروتستانتي[٧٣] .

ومنذ سنة ١٥٨٠م دخلت قضية الموريسكيين ضمن الصراع الإسباني - الفرنسي ، وحيث أن ثمة عداء بين فيليب الثاني ملك إسبانيا ، وبين هنري الرابع ملك فرنسا ، فقد استعمل الفرنسيون الموريسكيين عملاء وجواسيس ، ففي سنة ١٦٠٢ ، قام المارشال الدوق دو لاتورس De laForce عامل الملك الفرنسي على بيارن Bearne ونافار Navarre بالاتصال بمسلمي إسبانيا ووعدهم بتجهيز ثمانين ألف رجل لنصرتهم واحتلال ثلاث مدن إسبانيه ودفع العرب للمارشال في بو Pau سنة ١٦٠٤م مبلغ مئة وعشرين ألف دوكة ، لكن الملك هنري أرجأ المشروع لأن الظروف لم تكن مهيأة لذلك[٧٤] .

لقد سمح هنري الرابع بدخول المسلمين الفارين من إسبانيا ، على أن يقبلوا المذهب الكاثوليكي ، ولكنه عدل عن هذا بموجب رسالة تلقاها من السلطان العثماني أحمد الذي طلب منه إرسال المسلمين إلى سواحل أفريقيا وغيرها ، وبقيت منهم فئات في فرنسا ، أذن لهم الملك هنري - بموجب قرار صدر في ٢٢ فبراير ١٦١٠م بإزاولة الزراعة في الأراضي الواقعة بين نهري الجارون Garonne ودوردوني Dordogne ، ومن هذه المنطقة انتشروا في بيارن ولانجويدك

وجرنيا وبروفانس ، ويذكر أن الموريسكيين كانوا قد اقترحوا على الملك هنري الرابع أن يضم إلى جيشه ثمانين ألف مقاتل منهم في حربه ضد الملك الإسباني فيليب الثاني . ولكن هنري اغتيل في ١٤ مايو ١٦١٠م ، مما أربك الجماعات الموريسكية التي وصلت إلى فرنسا ، وبلغ عددها حوالي خمسة وعشرين ألفا ، قام دولا فورس باستقبالهم ألفا ألفا وتابعوا سيرهم إلى مرسيليا . ومن المهاجرين من وصلوا إلى مدينة كانفران Cantfrane على الحدود الفرنسية وكان عددهم أربعة آلاف منعوا من دخول فرنسا رغم أنهم دفعوا للسلطات الإسبانية أربعين ألف دوكة إضافة ، إلى الضرائب الأخرى ، فهاجمت هذه الجموع على وجوهها ، ومات معظمها في الطريق بحثاً عن مهرب . وقدم السفير الفرنسي سالنياك Salignac احتجاجاً ضد ممارسات الإسبان تجاه المسلمين المطرودين ، واتخذت السلطات الفرنسية إجراءات للحد من تجاوزات موظفيها الذين ارتكبوا جرائم قتل أو سرقة في صفوف المهاجرين (٧١) .

وتخبطت السلطات الفرنسية في سياستها تجاه الموريسكيين ، فأمرت بضرورة إبعاد الموريسكيين وترحيلهم إلى أقرب مرفأ حيث شحنوا بسفن على حسابهم . ومن وجد منهم تعرض للسجن والتعذيب . ورغم ذلك فقد بقي موريسكيون في فرنسا ، بعضهم ألقى عصا التسيار في باريس (٧٦) .

وإزاء هذه الإجراءات ، تطلع الموريسكيون إلى الخلاص ، وكاتبوا السلطان العثماني أحمد الذي كان متدبناً مهتماً بشؤون المسلمين في كل مكان ، وبخاصة الموريسكيين ، فأرسل السلطان إلى الملكة ماري دو مديتشي Marie de Médicis الوصية على ابنها لويس الثالث عشر رسالة حول مساعدة الموريسكيين في السفر إلى استانبول ، فاستجابت الملكة لذلك ، وأمنت سفناً فرنسية لنقل المسلمين من فرنسا إلى مايشاؤون من البلدان الإسلامية(٧٧) .

ولدينا نص يلخص مدى الاهتمام العثماني بقضية الموريسكين عامة ، ومن هم في فرنسا بخاصة ، يحدثنا محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسني الجعفري الأندلسي وهو موريسكي ، عاصر المحنة ، وهاجر إلى تونس ، وألف كتاباً سماه "الأنوار النيرة في آباء خير البرية" عن رحلة الموريسكيين فيقول :

"ثم بقي العدو يحتال بالكفر عليهم غصباً ، فابتدأ يزيل اللباس الإسلامي ، والجماعات ، والحمامات ، والمعاملات الإسلامية ، شيئاً فشيئاً ، مع شدة امتناعهم والقيام عليه مراراً ، وقتالهم إياه ، إلى أن قضى الله سبحانه وتعالى ماقد سبق من علمه ، فبقينا بين أظهرهم ، وعدو الله يحرق بالنار من لاحت عليه أمارة الإسلام ، ويعذبه بأنواع العذاب ، فكم أحرقوا ،

وكم عذبوا ، وكم نفوا من بلادهم ، وضيعوا من مسلم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه ، وحرك القلوب للهروب ، وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وألف (١٦١٣-١٦١٤م) فخرج منا بعض للمغرب وبعض للمشرق خفية ، مظهراً دين الكفار أبعدهم الله . فخرج بعض أحبابنا وإخواننا وهو الفقيه الأجل محمد أبو العباس أحمد الحنفي المعروف بعبد العزيز القرشي ومعه أحد أخواله إلى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية ، فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد بن السلطان محمد مجل آل عثمان ، نصرهم الله تعالى وأيدهم ، فأخبراه بما حل بإخواننا بالأندلس من الشدة بفرانسة وغيرها ، فكتب أمراً لصاحب فرانسة دمرها الله ، بإعلام السلطان نصره الله ، يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين بالأندلس ، وخدام آل عثمان ويوجههم إليه في سفن من عنده مع ما يحتاجون اليه ، فلما قرىء الأمر السلطاني في ديوان الفرنسيس ، تسعد من كان عنده مرسلاً من قبل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فيليبو الثالث ، فأرسل لسيده يخبره بالواقع ، وأن السلطان أحمد آل عثمان أرسل أمره إلى فرانسة ، وأمر صاحبها أن يخرج من كان عنده من الأندلس ، فقبل كلامه وأمر بإخراج المسلمين ، وأذن لمن جاء من الأندلس بأن لابأس عليهم ، وأن يركبوا عنده في سواحله مراكبه ، ويبلغهم حيث شاؤوا من بلاد المسلمين ، فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب أسبانية ، دخله الرعب والخوف الشديد" (٧٨) .

يوضح هذا النص حرص السلاطين العثمانيين على إنقاذ المسلمين الهاربين من مذابح الإسبان ، ولاشك في أن عملية الإجلاء تحتاج إلى تمويل ، وتخضع لظروف العلاقة بين استانبول وفرنسا ، وأحياناً تؤدي الضغوط الدينية والشعبية إلى أن يتخذ صناع القرار إجراءات ضد الوجود الموريسكي في فرنسا ، فقد أصدر لويس الثالث عشر (١٦١٠-١٦٤٣م) قراراً في فبراير ١٦١٠م يقضي بكتلكة الموريسكيين ، ثم أصدر في ٢٥ أبريل أمراً بطرد الموريسكيين من الجنوب الفرنسي ، وأعلنت بلدية وبرلمان تولوز إغلاق الحدود أمام المهاجرين ، وهدد برلمان لانجدوك بشنق كل من يتأخر عن مغادرة البلاد من الغرباء ، كما رحل الكثيرون من مرسيليا ، ومنعت المراكب من الرسو في الميناء وعلى متنها موريسكيون ، وفرض على أغنياء الموريسكيين دفع نفقات نقل الفقراء من إخوانهم . وإزاء هذه الإجراءات استشرى المرض بين الموريسكيين ، وتعرضوا للقتل والسرقة ، بل والإلقاء في البحر ، وتحول من حالت ظروفهم المادية دون رحيلهم ، إلى متسولين ، فرغم قبولهم التنصر سواء على المذهب الكاثوليكي أو البروتستانتي ، إلا أن رجال الدين شككوا من مصداقية الموريسكيين

التحرى عن "الفرناطيين الذين أفسدوا المدينة والأسقفية" ، والتأكد من هوياتهم ، وحقيقة عقيدتهم . فهام هؤلاء المهجرون على وجوههم وأخذوا يطوفون على الكنائس ، وقد حذر المجمع الديني البروتستانتي الذي انعقد في سنة ١٦١٧م ، من خطورة هذه الطائفة[٧٩] .

ومع كل هذا الشقاء والأذى ، فقد مكث كثير من الموريسكيين في فرنسا يمتهنون الزراعة والصناعة والتطبيب ، ولكن نظرة المجتمع الفرنسي نحوهم ، كانت تتصف بالحذر والشك ، يغذي هذا الشعور رجال الكنيسة ، الذين ما فتئوا يبحثون عن ذرائع لطرد هؤلاء الغرباء . ففي عام ١٦٧٧م ، عمم مجلس كنيسة منطقة فيتري Vitré على "كل الكنائس أن تحتاط بكل عناية من العرب المطرودين من إسبانيا الذين يجربون كنيسة تلو أخرى" وطلب من السكان عدم إيوائهم ، واتخاذ الإجراءات الكفيلة بعدم استغلالهم عواطف المحسنين . وتقرر إعطاء الموريسكيين شهادات بعد اختبار دقيق ، تتضمن صحة اعتناقهم النصرانية ، وعدد أطفالهم وأعمارهم وتخصيص المعمدين منهم ، والسمات البارزة في ملامحهم[٨٠] .

شواهد الوجود الإسلامي في فرنسا :

في أوائل الفتح العربي لجنوب فرنسا أيام شارل مارتل وابنه بيبن القصير ، أعطى العرب سكان اللانجدوق من القوط وغيرهم الاستقلال بأمورهم الخاصة وأبقوا على زعاماتهم . وقد ظل معظم سكان أربونة على دينهم ، يتمتعون بحريتهم الدينية ، ولم يمس المسلمون كنائسهم بسوء[٨١] .

وقد أقر بعض المؤرخين الغربيين ، بحسن المعاملة التي لقيها سكان المدن الفرنسية من الفاتحين المسلمين ، ولكن ثمة آخرين ألصقوا بالعرب تهمة التخريب ، وهدم الكنائس ، ونحن نعلم أن الحرب لابد وأن تحدث دماراً ، حتى بين القادة الفرنجة أنفسهم الذين تصارعوا على السلطة ، وقد فندت الدكتور منى حسن محمود هذه التهمة بقولها : " يالغ المؤرخون المسيحيون مثل رينو Renaud في وصف تخريب المسلمين واعتدائهم على الكنائس والأديرة. والمعروف أن هدف المسلمين لم يكن حرق الكنائس والأديرة لأننا لو قارنا بين المسلمين وبين الشعوب الأخرى التي احتلت غالة في تلك الحقبة من فرنجة وقوط شرقيين وغربيين وبرجنديين لاتضح أن المسلمين الذين اتهموا بتدمير الكنائس والأديرة كانوا أكثر منهم تحضراً وأبعدهم عن النهب والتخريب" [٨٢] .

أما الفرية الأخرى ، فهي نسبة عمليات الخصاء التي تمت في بلاد اللورين وبخاصة في فردان Verdun إلى المسلمين الذين كانوا في هذا المناطق . ونحن لا ننكر أن تصور الأمراء والخلفاء في الأندلس كانت زاخرة بأعداد كبيرة من الصقالبة وهم عبيد يجلبون من بلاد الفرنجة والألمان بعد خصيهم ، ليؤمن خطرهم على نساء القصور ، ولكن الحقيقة أن الذين كانوا يتاجرون بهذا العنصر البشري ، ويقومون بعملية الخصاء ، يزورون من إفرنجة وغيرها ويخصون، ولم يحدد الجهة التي تقوم بذلك [٨٣] ، فإن المقري يقول صراحة عن الفرنجة : "وهذه الأمة يحاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم في الديانة فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلهم هناك كثرة ، وتخصيهم للفرنجة يهود ذمتهم الذين بأرضهم ، وفي ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل خصيانهم من هنالك إلى سائر البلاد ، وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك ، فصاروا يخصون ويستحلون المثلة"[٨٤] .

واعتماداً على هذا النص فإن ثمة مسلمين تعلموا من اليهود إجراء مثل هذه العمليات ، ولكن تحت إشراف يهودي . وقد تطرقت الدكتورة وفاء المزروع في بحثها "نفوذ الصقالبة في الأندلس في عصر الإمارة والخلافة" إلى الدور اليهودي في تجارة الرقيق الأوربي ، وخلصت إلى أن اليهود قاموا بدور رئيس في بيع الرقيق ، جلباً من فرنسا ، أو شراء من أسواق النخاسة المنتشرة في مواقع مختلفة من أوروبا الغربية ، وبخاصة يهود الرهدانة نسبة إلى نهر الرون[٨٥] .

ومهما كان الأمر ، فإن مافعله الفرنجة مع رقيقهم المسلمين ، يعتبر في عرف المتحضرين همجية . فقد قام الفرنجة بعد انتصارهم على المسلمين في أربونة وغيرها بأسر آلاف منهم ، ووزعوهم على المزارع والقصور والكنائس . وقد صدر عام ١٢٣٩م قرار كنسي بإلزام العبيد المسلمين زياً خاصاً كاليهود ، ومنعوا من التزاوج لئلا يتكاثروا . ثم رأت الكنيسة عتق من يثبت تنصره ، بعد اختبار طاس من سيده ، ولهذا كان السادة يحرصون على بقاء عبيدهم مسلمين حتى يظلوا عبيداً أرقاء لهم . وقد أصدر البابا كليمونت الرابع سنة ١٢٦٦م منشوراً يغضب غضبه على رئيس دير القديس بندكت في ميراند Miranda من أعمال إقليم أكيتين لأنه عذب عبداً مسلماً تنصر ، وزعم هذا الراهب أن عبده لم يكن صادقاً في تنصره . وكان لبعض العبيد المسلمين أملاك ، وللنصرانيات الحق في أن يتزوجن عبيداً مسلمين ولكن لا يدفن في مقابر النصارى ، وكان على العبيد المسلمين أن يوقروا أعمالهم في الأعياد النصرانية[٨٦] .

وكان الأسرى المسلمون يباعون في أسواق آرل ومرسيليا وأربونة ، ويحرص أهل الخير من المسلمين على شرائهم ، ومن بقي يظل في العبودية ، حيث يحق لأسيادهم استعمالهم في الأعمال الشاقة موثقين بالسلاسل حتى لايهربوا ، وكان الأسياد يتصرفون بعبيدهم بيعاً وشراءً وهبة ، بل كانوا يتنقلون بالوصية من سيد إلى آخر ففي عام ١١٤٩م أوصى أرنو Arnaud رئيس أساقفة أربونة بعبيده المسلمين لأسقف بيزييه ، وفي سنة ١٢٥٠م أوصى روميو دو فيلنوف Roméo de Villeneuve من البروفانس ببيع عبيده المسلمين من ذكور وإناث ، وظلت تجارة الرقيق المسلمين مزدهرة إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، فقد ورد أن الملك رنيه Renéi le Bon (١٤٣٤-١٤٨٠م) اشترى ثلاثة عبيد مسلمين [٨٧] .

من جراء هذه الضغوط التي تعرض لها الأرقاء المسلمون فقد تنصر كثير منهم ، وذابوا في المجتمع الفرنسي ، ولكن في المقابل ، أسلم عدد كبير من نصارى البروفانس خلال مراحل الفتح الإسلامي[٨٨] .

وقد تكون من الأرقاء المسلمين ، والموريسكيين المتنصرين ، سلالة بقيت في مقاطعات كثيرة من فرنسا مثل : كروز Creuse ، الألب الأعلى Haues Alpes ، وسون مور "جبال المسلمين" ، وورسيون ولنقدوك وبيرن" فيمكن الإنسان أن يعرفهم بجلودهم السمر وشعورهم السود وأنوفهم القنو ، وعيونهم الشاقية اللامعة ، ويمكن المرء أن يعرف نساءهم بألوانهم الزيتية ووجوههن الأسيلة ، وأعينهن النجل الدعج وحواجبهن الزج "، [٨٩] ويعلل لوبون بقاء هذه الصفات في عناصر فرنسية إلى اليوم بأن ذلك عائد إلى أن جندة العرب ألفوا جماعات منعزلة عن بقية الشعب الفرنسي ، فحافظوا على سحناتهم الوراثية .

ويوجد في فرنسا وبخاصة في المقاطعات الجنوبية منها ، أسر يظن أنها تعود إلى أصول عربية بالنظر إلى ماتحمله من ملامح عربية ، وهناك أسر غادرت إلى سويسرا ، تعرف باسم "سرازين" أي العرب المسلمين في جنيف وبازل ، منهم الفيلسوف ابن أبي زيد وينسبه أهل سويسرا "أبو زيت Abou Zit" ، وكانت أسرته تعيش في تولوز في فرنسا ، كانت تمتهن الطب ، وهي من المسلمين الذين تنصروا على مذهب البروتستانت ، فلما صدر أمر لويس الرابع عشر (١٦٤٣-١٧١٥م) بإخراج كل البروتستانت من فرنسا ، خرج أبو زيد مع أسرته إلى جنيف ، حيث نشأ وتعلم فيها ، ونبغ في العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة والتاريخ ، وكان معاصراً لفولتير وروسو ونيوتن ، وصديقاً لهم ، وإليه يرجعون في المسائل العلمية ، وقد عرضت عليه مناصب عليا فرفضها ، واكتفى بأمين خزانة الكتب العامة ،

واليوم يوجد في جنيف شارع باسم أبي زيد[٩٠] ، ويخبرنا كلر أنه يوجد في جنيف أسرة تسمى سرازين منهم الكلونيل سرازين من قادة الجيش السويسري[٩١] .

الآثار الفكرية :

دخل الفاتحون المسلمون أراضي فرنسا ، وخالطوا المجتمع المحلي ، فأثروا فيه ، وتأثروا به ، ولم يجدوا غضاضة في لبس القبعة ، واستعمال سيوف بوردو ، وقلدوا الأوروبيين بأعلامهم ، ودروعهم وسروج خيولهم [٩٢] ، واشتهر عند عرب الأندلس خوذة فرنسية يسمونها الطشطانة (من Testa في اللغة البرونسالية أي الرأس ، بالفرنسية الحديثة tate)[٩٣] .

ونشأ بين الفرنسيين ، وبعض المسلمين المقيمين علاقات اجتماعية ، وقلد الفرنسيون العرب حتى في عادات التشاؤم والطهرة مثل عادة "زجر الطير" التي انتقلت إلى فرنسا - كما يقول البكري - بوساطة عرب الأندلس[٩٤] .

ويبدو أن العرب الذين عاشوا في فرنسا قد أتقنوا لغة الفرنجة ، بدليل أن سفراء مسلمين ، كانوا يقومون بمهام سياسية بين الفرنجة والأندلس ، ففي عام ٣٤٥هـ/٩٥٦م ، قام هرج العظيم بإرسال سفارة إلى الخليفة الحكم الثاني ، وكان السفير هو أشراكة بن عمر داود القومس أحد بقايا العرب في جنوب فرنسا [٩٥] .

وظهر من بين الفرنسيين من يتحدث العربية مثل آرتموت Hartmoe رئيس دير سان - غال Saint - Gall الذي كان يعرف اليونانية والعبرية والعربية ، وهو من رجال القرن التاسع الميلادي وحرص رجال الدين النصارى على تعلم العربية لأغراض تنصيرية ، فكانوا يذهبون إلى الأندلس لتعلمها ، وقد تعلم بطرس المحترم Pierre Le Venerable رئيس دير كلوني اللغة العربية ، وكتب نقداً للإسلام وشعائر المسلمين ، ولاشك في أن الأسرى والعبيد النصارى وبخاصة النساء منهم تعلموا العربية ، ولاشك في أن للعبيد المسلمين تأثيراً على أسيادهم الفرنسيين في تعلم العربية [٩٦] .

أما أثر اللغة والأدب العربي ، فيتجلى في لغة الجنوب الفرنسي أوك Oc ، ولغة الشمال أوي "oil" فقد تسربت إلى اللغة الفرنسية مفردات عربية ، ونظر الفرنسيون بإكبار إلى العربي ، وساووه حضارياً بالروماني ، وكانت العامة تنسب إلى العرب كل عمل عظيم ، ودخلت في القاموس الفرنسي ألفاظ عربية مثل سلام عليك Salumalek [٩٧] . وتحفل اللهجات السائدة في ولاية أوفرن وولاية ليموزان الفرنسيتين بالكلمات العربية ، وكثير من

أسماء الأعلام فيها ذات مسحة عربية . ومن الطبيعي أن تقتبس فرنسا من العرب مصطلحات بحرية وفلكية [٩٨] .

وكان طلاب فرنسيون ، يرحلون إلى الأندلس ، ينهلون من علومها وثقافتها ، ومن هؤلاء الراهب الفرنسي جربير Gerber الذي تلقى علومه في جامعة قرطبة ، ثم عاد إلى بلاده وقد بلغ من العلم مبلغاً صار يتهم من أجله أنه تاجر مع الشيطان ! ولم يمنعه ذلك من أن يصبح -فيما بعد - البابا سيلفستر الثاني Sylvestre II . يقول المفكر الفرنسي روجيه جارودي : "إننا ندين كذلك للعلم العربي بكليات الطب الفرنسية الأساسية . وقد كانت مونبلييه في طليعتها . وقد ظلت كتب الطب العربية ، مثل كتب الرازي الشهيرة ، تنشر وتدرس حتى القرن السادس عشر في فرنسا ، وحتى منتصف القرن التاسع عشر في انكلترا ، وظل كتاب الجبر الكبير الذي ألفه عمر الخيام وترجم إلى الفرنسية مرجعاً معتمداً حتى سنة ١٨٥٧م"[٩٩] .

أما مجال الترجمة ، فلدينا عدد من الأمثلة ، التي تصور مدى اهتمام علماء فرنسا وملوكها بالتراث العلمي الإسلامي . ففي عام ١١٤١م قام بطرس المحترم رئيس دير كلوني بزيارة إسبانيا ؛ وبعد أن عاد إلى فرنسا كلف روبير دو كيتون Robert de Ketton بترجمة معاني القرآن إلى اللاتينية . وتعتبر أول ترجمة للقرآن عرفتها أوروبا[١٠٠] .

واهتم الفرنسيون بالفلسفة الإسلامية ، فأمر الملك لويس الحادي عشر سنة ١٤٧٣م بتدريس فلسفة ابن رشد ومذهب أرسطو في مدارس فرنسا[١٠١] .

وكان لمعرفة الأوروبيين بصناعة الورق ، أثر في ازدهار حركة التدوين والنشر ، وأقدم ورق موجود في أوربا ورق الكتاب الذي أرسله جوانفيل Joinville إلى لويس التاسع سنة ١٢٧٠م. ويقول لوبون إن هناك ورقاً عربياً صنع من الأسمال قبل ذلك التاريخ بقرن . وتعتبر ليون الفرنسية ، مركزاً مهماً للطباعة ، وقد تم في هذه المدينة طباعة عدد من الكتب العربية المترجمة إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية ، مثل كتاب علي بن عباس المجوسي "كامل الصناعة الطبية" المعروف بالملكي ، فقد طبع في ليون سنة ١٥٢٣م . وفي عام ١٦٧٢م نقل كتاب الإستقصاء لجابر بن حيان(٧٣٧-٨١٣م) إلى الفرنسية[١٠٢] .

ومن الناحية الطبية ، يقول دالماس وهو طبيب في كلية الطب بجامعة مونبلييه في محاضرة له : نزل العرب في ماجلون وهي من ضواحي مونبلييه ، فأجلاهم عنها شارل مارتل، وأحرقها حتى لايعودوا إليها ، وكانوا يمتهنون الطب ، ويبيعون الكتب الطبية ، وعلى يديهم تتلمذ عدد من الأطباء اليهود منهم : صموئيل بن طيبون وناثان بن زكريا ، وأسمائهما

منقوشان على مدخل كلية الطب في جامعة مونبلييه ، وكان بعض الرهبان الذين وصلوا إلى منصب البابوية قد تلقوا العلم في جامعة مونبلييه على يد أساتذة عرب . ويوجد في متحف الجامعة بعض آثار ماجلون ، عليها بعض آيات من القرآن ، وأبيات شعر عربية [١٠٣] .

الآثار المادية :

لقد اقتبس الفرنسيون كثيراً من عناصر فن العمارة الإسلامية ، وتوجد كتابات عربية على باب كاتدرائية برى ، كما أن حصون أربونة تشهد على الذوق العربي . وتأثرت كاتدرائية ماجلون وكاتدرائية وغاماش بالفن الإسلامي . وبالنظر إلى مهارة المسلمين في مجال العمارة ، فقد استخدم بناؤون عرب في بناء كنيسة نوتر - دام - باريس [١٠٤] .

ومما وجد في فرنسا من الآثار العربية منسوجات حريرية ، وخزانات صغيرة ، مصنوعة من العاج والفضة ، وكؤوس بلورية ، وأسلحة ، ولايزال كثير منها محفوظاً في خزانات الكنائس[١٠٥] .

كما يوجد طيلسان محفوظ في كنيسة نوتر - دام باريس Noure - dame de Paris وعليه كتابة عربية تحمل ألقاب الحاكم بأمر الله الفاطمي المتوفى سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م ، وطيلسان آخر وجد في أحد قبور دير سان جيرمان دي برى Des - st. German - Prés . كما يوجد في خزانة كنيسة "كور" حلة من الحرير ، يرتديها القسيس في القداس ، تختلف عن الأزياء الكنسية ومرشاة بآيات قرآنية بخط كوفي ، وعبارة "أظال الله أجله" [١٠٦] .

وقد طبق العرب في جنوب فرنسا طرقاً متطورة للري والزراعة ، وبنوا الأقنية ، واستثمروا شجر البلوط ، وحسنوا من سلالة الخيل الفرنسية بما أدخلوه معهم من خيول عربية أصيلة . ويوجد في مقاطعة كامارج صنف مولد من خيول عربية ، وتعلموا من العرب استخراج القطران من شجر الصنوبر والأرز ، ويطلق سكان البروفانس اليوم اللفظة العربية "قطران Quitran" بخلاف غيرهم من الفرنسيين في المناطق الأخرى الذين يطلقون على هذه المادة لفظة" جودرون Goudron"[١٠٧] .

وفي المجال التجاري نجد أنظمة عربية دخلت إلى فرنسا مع الفاتحين ، ومنها وظيفة "المحتسب" التي عرف عند الفرنسيين باسم "رئيس التجار" وتحفل متاحف البروفانس بكثير من المسكوكات والميداليات العربية ، ولكنها في معظمها لاتحمل أسماء الملوك الذين سكت في عهدهم [١٠٨] .

أما في مجال العمارة فقد ترك العرب كثيراً من الأبراج في جنوب فرنسا وبالذات في مقاطعة الفار Pe Var ويقال إن السمح بن مالك الخولاني بنى جانباً من هذه الأبراج التي كان العرب يوقدون في أعلاها النار لإعلام الأبراج الأخرى بقدوم عدو أو لطلب العون ، كما يوجد أبنية منسوبة إلى العرب في مارتيج Martigues على مصب نهر الرون ، وكذلك في ضواحي إيار Hyéres [١٠٩] .

وهناك أسماء عربية أطلقت على أماكن متفرقة في فرنسا ، فهناك جبل محيط بمدينة آرل يدعى "جبل كوده Montagne de Cordes" نسبة إلى قرطبة[١١٠] وفي مقاطعة فرانش – كونتي يوجد خمسة كهوف ، وجسران ، وثلاثة قصور ، وطريقان ، وقناة ، ومطحنة ، وواد صغير ، وجندلان ، وآلة حديد لتسوية الأرض الزراعية ، وحائط يسمى "حائط السارازان" وقرية يقال لها "سارازا" كل ذلك منسوب إلى السارازان وهم المسلمون [١١١] .

الخاتمة

وبعد أن استعرضنا معلومات تاريخية ، وحللنا حقائق جلية ، وفندنا أساطير مروية ، حول الوجود الإسلامي في فرنسا ، نعتقد أننا توصلنا إلى نتائج ، نوجزها بما يلي :

١- لم تكن غزوات العرب والمسلمين لفرنسا سوى امتداد لحركة الفتح الإسلامي ، الذي بدأ من جزيرة العرب ، واستمر عبر القرون ، بين مد وجزر ، فالأمر إذن لا يعدو كونه محاولة فتح هذه البلاد شأنها في ذلك شأن البلدان المفتوحة ، لا كما يظنه بعض المؤرخين الغربيين غزواً همجياً لا يختلف عن غارات القبائل الجرمانية .

٢- يهمنا من هذا الطرح ، ماترتب على سكوت الفاتحين ردحاً من الزمن ، من تأثير حضاري ، مازال واضح المعالم في فرنسا إلى اليوم ، وقد توصلنا في بحثنا هذا إلى إيضاح المكتسبات الحضارية التي جناها الفرنسيون من جراء اتصالهم بالمسلمين .

٣- رأينا ماترتب على سقوط غرناطة ، من تهجير للمسلمين بصفة لم يسبق لها مثيل ، وأدركنا أن الجوار الجغرافي حتم على المهجرين اللجوء إلى فرنسا ، التي حاولت أن تعاملهم أكثر حضارية من أمة الإسبان ، مستفيدة من قضيتهم في علاقاتها مع العثمانيين ، وصراعها مع الإسبان ، ويهمنا أن عدداً كبيراً من المسلمين لم يبرحوا هذه الأرض ، مؤثرين إلى اليوم في ديموغرافية الجنوب الفرنسي .

٤- وبناءً على معطيات هذا البحث ، فإن الوجود الإسلامي في فرنسا الذي فقد جذوره من العصور الوسطى إلى اليوم ، وحاول الفرنسيون إخفاءه بالتنصير أو التهجير عبر القرون ، نقول: إنه قدر يجب أن تسلم به فرنسا ، وتتعامل معه بحضارية ، وفق انسجام يحافظ على عبق هذا العنصر الذي أمده الاستعمار الفرنسي الحديث لشمال أفريقيا بدماء جديدة ، تمثلت بالجالية المسلمة ذات الجنسية الفرنسية .

الهوامش

١- المقرى ، المصدر السابق ، جـ ١ ص٢٦٦ .

٢-
Reinaud. Op. Cit. p. xj - xiv.

٣- أنظر : شكيب أرسلان ، الحلل السندسية ، جـ١ ت ٨ - ١-١١٢ .

٤- المقرى ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٧٣-٢٧٤ .

٥- نفسه ، جـ١ ص ٢٧٨ .

٦- ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٢ ص ٢١ .

٧- السامرائى ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص١٢٤ .

٨- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ٥ ص ٤٨٩ .

٩- سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص١٢٤ .

١٠- السامرائى ، المرجع السابق ، ص١٢٥-١٢٧ ؛ ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ٢ ص٢٦ .

١١- ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٥ ص ١٣٦ .

١٢- Reinaud, Op. Cit. p. 30-31 ؛ السامرائى ، المرجع السابق ، ص١٢٨-١٣١ .

١٣-
Reinaud. Op. Cit. p. 23-26. 29 .

١٤- أنظر : تعليق وينو : . . Ibid. p. 31.

١٥- سيديو ، تاريخ العرب العام ، ص ١٦٧-٢٤١ .

١٦- ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٥ ص ١٧٤-١٧٥ ، ٤٩٠ .

١٧-
Reinaud. Op. Cit. p. 36-28 .

١٨- السامرائى ، المرجع السابق ، ص١٣٣-١٣٧ ؛
Reinaud, Op. Cit. p. 41-49.

١٩- عادل بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، ص٣٢ .

٢٠- السامرائى ، المرجع السابق ، ص١٣٩-١٤٠ ؛
Reinaud, Ibid. p. 51-52 .

٢١- ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٣٩ .

٢٢- السامرائى ، المرجع السابق ، ص ١٤٢-١٤٩ ؛ Reinaud. Op. Cit. p. 54-60. أنظر أيضا :

Histoire de France. pp. 712. 896,926,998,1024 .

٢٣- طرخان ، المسلمون فى أوروبا ، ص ١٥٩-١٦٠ .

٢٤-
Reinaud. Op. Cit. p. 77-78.

٢٥- السامرائى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠-٢٣١ ؛
Reinaud. Op. Cit. p. 82.

٢٦- ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٦ ص ١٤ . ؛ السامرائى ، المرجع السابق ، ص٢٣١-٢٤٠ ؛ عادل بشتاوى ، المرجع السابق ، ص٣٤-٣٥ .

٢٧-
Reinaud. Op. Cit. p. 95-96.

٢٨- عادل بشتاوى ، المرجع السابق ، ص٣٤-٣٥ .

٢٩- المقرى ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٠ .

٣٠- ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٦ ص ١٣٥ .

٣١- ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤ .

٣٢- السامرائى ، المرجع السابق ، ص٢٤٣-٢٤٤ ؛
Reinaud, Op. Cit. p. 103-108.

٣٣- عادل بشتاوى ، المرجع السابق ، ص٣٥ .

٣٤- محمد الشيخ ، دولة الفرنجة ، ص ١٦٣-١٦٤ ، ١٦٩-١٧٠ .

٣٥- نفسه ، ص ١٦٩-١٧٠ . ؛
Reinaud, Op. Cit. p. 109-112.

٣٦- المقرى ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٤٠ .

٣٧-
Reinaud. Op. Cit. p. 122-123, 126

٣٨- ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ٢ ص٧٥ . ؛ المقرى ، المصدر السابق ، جـ١ ص-٣٤ .

٣٩-
Reinaud, Op. Cit. p. 128-129.

٤٠- السامرائى ، المرجع السابق ، ص٢٤٦ . ؛
Reinaud, Op. Cit. p. 137.

٤١- المقرى ، المصدر السابق ، جـ١ ص٣٤٥ . ؛ أنظر : المجمى ، التاريخ الأندلسى ، ص٢٤٩-٢٥٠ .

٤٢-
Reinaud, Op. Cit. p. 134 .

٤٣-
Ibid. p. 133-141.

٤٤-
Ibid. p. 147, 150.

٤٥- المقرى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص٣٦٥ .

٤٦-
Reinaud, Op. Cit. p. 181-182.

٤٧- ابن عذارى ، المصدر ، جـ٢ ص٢١٨ ؛
Reinaud, Op. Cit. p. 174, 187.

٤٨- كلر ، غارة العرب على سرمسرا ، ص ٢٥٧-٢٥٨ .

٤٩- نفسه ، ص ٢٥٣-٢٥٥ .

٥٠- Reinaud. Op Cit. p. 183, 184 .

٥١- لوبون ، حضارة العرب ، ص٣٨٨-٣٨٩ .

٥٢- يوجيه قاوردى ، حرار الحضارات ، ص٩٨ .

٥٣- Reinaud. Op. Cit. p. 151-152 . السامرائى ، المرجع السابق ، ص٢٩٠-٢٩١ .

٥٤- Atlas Historique. p. 121 .

٥٥- الحبيبى ، المرجع السابق ، ص٢١٣ . ؛ Reinaud. Op. Cit. p. 158-163.

٥٦- شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص . ١٦١ ، ١٦٩-١٧٠ . ؛ Reinaud, Op. Cit. p. .167

٥٧- Reinaud. Op. Cit. p. 169-171.

٥٨- Ibid. p. 165-164., 173-174 .

٥٩- المسعودى ، المصدر السابق ، جـ٣ ص ٧-٨ .

٦٠- السامرائى ، المرجع السابق ، ص٢٦٥ ؛ Reinaud, Op. Cit. p. 165.

٦١- Reinaud. Op. Cit. p. 205-209.

٦٢- ابن عذارى ، جـ٣ ص ١٥٧ ؛ عنان ، دول الطوائف ، ص١٨٨ ، ١٩٠-١٩٣ ، ١٩٥ .

٦٣- Reinaud. Ibid. p. 221-222 .

٦٤- ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ٣ ص ٤-٧ . ؛ المقرى ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٤٠٢ .

٦٥- جمال ، المسلمون المنصرون ، ص٤٩ .

٦٦- عنان ، نهاية الأندلس ، ص٢٧٧-٢٧٨ ، ٣١٣ . لمزيد من المعلومات حول معاناة المسلمين بعد سقوط غرناطة ، أنظر : خمس ، افتراق العالمين الإسلامى والمسيحى ، الفصل السابع : ص١٧٩-٢٣٦ .

٦٧- ول ديورانت ، قصة الحضارة جـ ٢/٦ ، ص٩٧ .

٦٨- جمال ، المرجع السابق ، ص٢٣٥ .

٦٩- عنان ، المرجع السابق ، ص٤٠٠ . ؛ جمال ، المرجع السابق ، ص٢٢٨ . ؛ أسعد حومد ، محنة العرب فى الأندلس ، ص٣٦٨-٣٦٩ .

٧٠- هورتز & بنثنت ، تاريخ مسلمى الأندلس ، ص٢٧١ .

٧١- جمال ، المرجع السابق ، ص٢١٢ .

٧٢- كارديماك ، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون ، ص١٣٨-١٣٩ ، ١٤٢-١٤٣ . ؛ هورتز & بنثنت ، المرجع السابق ، ص٢٧٣ .

٧٣- كارديماك ، المرجع نفسه ، ص١٣٢ ، ١٤٠

٧٤- لى ، العرب والمسلمون فى الأندلس ، ص١٧١ . ؛ جمال ، المرجع السابق ، ص٢٩١ .

٧٥- لى ، المرجع السابق ، ص ١٩٨-١٩٩ ، ٢٠٨ . ؛ جمال ، المرجع السابق ، ص٣٩٣-٣٩٦ .

٧٦- جمال ، المرجع السابق ، ص٣٩٤ .

٧٧- التميمى ، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين ، ص٤٢-٤٣ .

٧٨- عنان ، نهاية الأندلس ، ص٤٠٣ ، ٤٠٥ .

٧٩- كارديماك ، المرجع السابق ، ص١٤١ . ؛ جمال ، المرجع السابق ، ص٣٩٧ . ؛ هورتز & بنثنت ، المرجع السابق ، ص ٢٦١-٢٧٣ .

٨٠- كارديماك ، المرجع السابق ، ص١٤١ .

٨١- Reinaud, Op. Cit. p. 271-272.

٨٢- منى محمود ، المسلمون فى الأندلس ، ص١٤٧ .

٨٣- ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص١٠٥-١٠٦ .

٨٤- المقرى ، المصدر السابق ، جـ١ ص١٤٥ .

٨٥- رفاء المزروع ، نفوذ الصقالبة فى الأندلس ، ص٤٩ .

٨٦- Reinaud, Op. Cit. p. 268-269.

٨٧- Ibid. p. 263-267.

٨٨- Ibid. p. 270.

٨٩- لوبون ، المرجع السابق ، ص٣٨٩-٣٩٠ .

٩٠- شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص٢٢٨ .

٩١- كلر ، المرجع السابق ، ص٢٦٦-٢٦٧ .

٩٢- Reinaud. Op. Cit. p. 252.

٩٣- ابن خلدون ، تاريخه ، جـ٤ ص ١٤٤ . ؛ المقرى ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٨٢ .

٩٤- البكرى ، المسالك والممالك ، جـ ١ ص١٥٧ .

٩٥- محمد الشيخ ، المرجع السابق ، ص٢٨٩-٢٩٠ .

٩٦- Reinaud. Op. Cit. p. 282-283 .

٩٧- Reinaud. Ibid. p. 306-307.

٩٨- لوبون ، المرجع السابق ، ص٥٣٣ .

٩٩- جاروذى ، المرجع السابق ، ص٩٧-٩٨ .

١٠٠- حمادى ، الموريسكيون ومحاكم التفتيش ، ص١١٨ .

١٠١- لوبون ، المرجع السابق ، ص٦٧٩ .

١٠٢- نفسه ، ص ٥٧٣ ، ٥٨١ ، ٥٩٠ .

١٠٣ شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص٢٣٦ .

١٠٤- لوبون ، المرجع السابق ، ص٦٨٤-٦٨٥ .

١٠٥- Reinaud, Op. Cit. p. 296 .

١٠٦- كلر ، المرجع السابق ، ص٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ .

١٠٧- Reinaud, Op. Cit. p. 298.

١٠٨- Ibid. p. 291. ؛ جاروذى ، المرجع السابق ، ١٠٢ .

١٠٩- Ibid. p. 222.295.

١١٠- Ibid. p. 40.

١١١- كلر ، المرجع السابق ، ص٢٦٨

المصادر

ابن الأثير (عز الدين على بن محمد .ت٦٣٠هـ) ، الكامل فى التاريخ ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٦٥م .

البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز . ت٤٨٧هـ) ، المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندرى فيرى ، الدار العربية للكتاب بيت الحكمة ، تونس ١٩٩٢م .

الحميرى (محمد بن عبد المنعم . ت٩٠٠هـ) ، الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبى . ت٣٦٧هـ تقريباً) ، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد . ت سنة ٨٠٨هـ) ، كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، مؤسسة الأعلمى ، بيروت ١٩٧١م .

ابن عذارى (أبو عبد الله أحمد بن محمد . ت ٦٩٥هـ تقريباً) ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج.س. كولان وليفى بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٠م.

المسعودى (على بن الحسين . ت ٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٥م .

المقرى (أحمد بن محمد ، ت ٤١ - ١هـ) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨م .

ياقوت (ياقوت بن عبد الله الحموى . ت٦٢٦هـ) ، معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ب.ت .

المراجع العربية

أسعد حومد ، محنة العرب فى الأندلس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٨م .

التميمى (عبد الجليل) ، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين ، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسيكية والتوثيق والمعلومات ، زغوان ، ١٩٨٩م .

جمال الدين (عبد الله محمد) ، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون ، دار الصحوة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م .

حاطوم (نور الدين) ، تاريخ العصر الوسيط فى أوربا ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٩٦٧م .

الحجى (عبد الرحمن على) ، التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، دار القلم بدمشق ، المنارة ببيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م .

حمادى (عبد الله) ، الموريسكيون ومحاكم التفتيش فى الأندلس ١٤٩٢-١٦١٦م ، الدار التونسية ، تونس & المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٩م .

طرخان (ابراهيم على) ، المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى ، سجل العرب ، القاهرة ١٩٦٦م .

سالم (السيد عبد العزيز) ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، دار النهضة بيروت ١٩٨١ .

السامرائى (خليل ابراهيم) ، الثغر الأعلى الأندلسى : دراسة فى أحواله السياسية ، مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٧٦ .

شكيب أرسلان ،

- تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ، دار الكتب العلمية بيروت ، ب.ت .

- الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، دار الكتاب الإسلامى ، القاهرة ، ب.ت .

عادل بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، دار أسامة ، دمشق ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

علية الجنزورى ، جريجورى الثورى وقيام دولة الفرنجة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨م .

عنان (محمد عبد الله) ،

- دول الطوائف ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م .

- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنصرين ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٩٨٧ .

محمد مرسى الشيخ ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلس ٧٥٥-٩٧٦م-١٣٨-٣٦٦هـ ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، الطبعة الثانية ١٩٩٠م .

منى محمود ، المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة ٩٢-٦-٢هـ/٧١٤-٨١٥م . دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٦م .

وفاء المزوغ ، "نفوذ الصقالبة فى الأندلس فى عصر الإمارة والخلافة ١٣٨-٣٦٦هـ/٧٥٥-٩٧٦م" : ندوة الأندلس : قرون من التقلبات والعطاءات : جمادى الأولى ١٤١٤هـ/أكتوبر - نوفمبر ١٩٩٣ الجلسة ٢٤، بتنظيم من مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض.

المعربة والأجنبية

برى (إدلورد) ، القرون الوسطى : تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٣ ، ترجمة يوسف داغر & فريد داغر ، منشورات عويدات ، بيروت - باريس ، الطبعة الثانية ١٩٨٦م .

غارودى (روجيه) ، حوار الحضارات ، ترجمة عادل العوا ، منشورات دار عويدات ، بيروت - باريس ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م .

سيديو (ل.أ) ، تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م .

كاردياك (لوى) ، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون : المجابهة الجدلية (١٤٩٢-١٦٤٠م) ، ترجمة عبد الجليل التميمي ، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ، زغوان ، الطبعة الثانية ١٩٨٩م .

كلر (فرديناند) ، غارة العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر ، ترجمة شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ص٢٤٤-٢٨٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

لوبون (غوستاف) ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م .

لي (هنري تشارلز) ، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة ، ترجمة حسن الكرمي ، دار لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م .

هس (أندرو . س) ، افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ذات السلاسل ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ .

هورتز & بنتنت ، تاريخ مسلمي الأندلس : الموريسكيون "حياة ومأساة أقلية" ، ترجمة عبد العال طه ، دار الإشراق ، قطر ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م .

ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد السادس ، الجزء الثاني ، ترجمة عبد الحميد يونس ، نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، مطابع الدجوى ، القاهرة ١٩٧١م .

المصادر والمراجع الأجنبية

Atlas Hisartique, France Loisirs. Paris. 1987

LAROUSSE. France Loisirs. Paris 1978.

REINAUD (M.), Invasions des sarrazins ck France. Librairie Orient, Paris 1964 .

د. حياة الحجي(*)

حملة لويس التاسع على تونس وردود الفعل المملوكية

مقدمة :

لعل من أصعب الأمور على الباحث فى التاريخ أن يكتب بموضوعية عن عدوان كان يستهدف عقيدته ، وأرضه ، وأسلافه ، وتظل تتنازع فى نفسه عوامل عديدة تأرجح بين الحقيقة المجردة ، ورفض واقع يسجله التاريخ والوثائق . ولكن عقلانية محور البحث التاريخى لابد أن تنتصر لقول كلمة الحق التى سيسجلها التاريخ باسمه ، وتحفظها الأجيال فى صفحات كتاباته.. وهنا تنعكس صورة هذا البحث الذى يتناول نشاط فارس صليبى نذر حياته وممتلكاته لنصرة التطلعات الصليبية ، ومات فى سبيل تحقيقها . وهذه الصفحة المثيرة فى التاريخ الإسلامى لابد أن تظهر فى صورة مغايرة عند الإمعان فى شخصية هذا الفارس الصليبى .. لقد كان لويس التاسع ملكا ناجحا دون شك ، ولا يختلف إثنان على ما وصلت إليه مملكة فرنسا فى عهده من تفوق وبروز فى مجالات الاستقرار السياسى ، والتماسك العسكرى ، والازدهار الاقتصادى . كذلك لابد من الاعتراف بما كان عليه هذا الملك

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الكويت .

الفرنسي من إنسانية مفرطة مع شعبه خاصة تلك الفئة من الفقراء والضعفاء .. لقد كان يحق طيلة فترة حكمه داخل فرنسا ملكا إنسانا ، وحاكما عادلا ، وهنا يبرز السؤال : ولكن ماذا عن أعماله الصليبية ؟ لقد جاء بحملة عسكرية صليبية على مصر ، واحتل دمياط ، ووصلت جيوشه إلى المنصورة لولا الهزيمة السريعة التي أنهتها به المماليك ، فانتقل بعد إطلاق سراحه من الأسر إلى عكا على الساحل السوري لكي يرمم القلاع ، ويرفع الأسوار ، ويشحذ الهمم ضد الإسلام والمسلمين، والبلاد الإسلامية . فماذا يمكن أن يقول الباحث في هذا التاريخ وهو ينتمي في أصله وعقيدته إلى هذه البلاد ؟

بدراسة شخصية الملك لويس التاسع ، والتعمق في مراحل نشأته وطفولته ثم توليه مقاليد الحكم في فرنسا ، وأعماله الناجحة داخل مملكته ، وكل مايتعلق بعلاقاته الخارجية مع جيرانه من الممالك الأوربية ، والقوة البابوية يلح سؤال آخر : لماذا يقدم من أنجز هذه الأعمال العظيمة لبلاده على الاعتداء على بلاد أخرى بعيدة ، وشعوب ليس لها علاقة به ولا ببلاده على الإطلاق ؟ من المؤكد أن كلاً من الحملتين الصليبيتين اللتين قادهما لويس التاسع ضد مصر وتونس تمثل اعتداء صليبياً سافراً ولكن لماذا ؟ لم يأت الملك لويس التاسع إلى مصر وتونس لتحقيق أطماع مادية ، ولا لإقامة إمبراطورية فرنسية يتربع على عرشها ، ولا من أجل إنجاز أمجاد يسجلها التاريخ له ويخلد بها اسمه ، إذن لماذا جاء ؟ من المؤكد أن قدوم لويس التاسع إلى الشرق الإسلامي كان لأسباب دينية ، وكان الوازع الديني هو المحرك الأساسي لجميع تحركاته الصليبية ، لقد كان هدف لويس التاسع هو الوصول إلى القدس ، ومات وهو يحلم بتحقيق هذا الهدف الذي لم يتحقق ، ليس من السهل قبول هذا الرأي .. نعم لقد جاء إلى الشرق الإسلامي مسلحا ، قويا بالفرسان المدربين ، والخيول المدججة بالسلاح ، ولكن الهدف لم يكن ماديا البتة ، بل روحانيا في مقصده وأعماله ..

ويبقى القول بأن هذا الرأي الموضوعي ليس دفاعا عن لويس التاسع ، ولا عن أعماله العسكرية ضد مصر وتونس ، ولكنه إنصافا للحقيقة التي يجب قولها للتاريخ حتى يستمر هدف البحث التاريخي في خدمة الحقيقة الإنسانية على مر العصور .

يقول جوزيف نسيم يوسف : "لقد كان حماس لويس للقضية الصليبية وإيمانه به كفيلين بحشد آلاف الفرنجيين من سائر الأقطار الأوربية لو أنه عاصر بابوية أربان الثاني أو أنوسنت الثالث في تلك الحقبة من التاريخ حيث كان الإيمان فتيا عميقا . ولكن لويس عاش في عصر

بدأت فيه العقيدة الدينية تهن في نفوس الأوروبيين بوجه عام سواء أكانوا من الشعب أو رجال الدين أو حتى البابا نفسه"(١).

وهكذا بعد ثلاثة عشر عاما من انتهاء حملة لويس التاسع الأولى على مصر قام سنة ١٢٦٧م بالاستعداد للقيام بحملته الصليبية الأخيرة إلى تونس . وقد استغرق الاستعداد لهذه الحملة ثلاث سنوات حتى غادرت فرنسا سنة ١٢٧٠م قاصدة تونس في الشمال الأفريقي ، إلا أن القدر لم يمهل لويس لكي يحقق الأهداف المرجوة فقضى نحبه ، وهو على أبواب قرطاجنة إثر مرض لم يمهله طويلا ، وذلك يوم الإثنين ٢٥ آب - أغسطس سنة ١٢٧٠م .

وعلى ذلك فقد بدأ لويس في الإعداد لحملة صليبية جديدة إلى الأراضي المقدسة في سنة ١٢٦٧م ، بعد أن أصبح مرهقا ومريضا ، ومن ثم سرع في إعداد التدابير اللازمة ، وتوفير اللازم بحيث أصبح مستعدا للإقلاع إلى الشرق بعد ثلاث سنوات ، وذلك في سنة ١٢٧٠م(٢).

وتتناول المصادر الإسلامية موضوع الحملة الصليبية الثامنة على تونس بإيجاز شديد، ربما يعود إلى أنها لم تحقق أي نتيجة لصالح الحركة الصليبية فيقول المقريزي : "واتفق أن الفرنسيس هذا ، بعد خلاصه من أيدي المسلمين ، عزم على الحركة إلى تونس من بلاد أفريقية، لما كان فيها من المجاعة والموتان . وأرسل يستنفر ملوك النصارى ، وبعث إلى البابا خليفة المسيح بزعمهم . فكتب البابا إلى ملوك النصارى بالمسير معه ، وأطلق يده في أموال الكنائس يأخذ منها ما شاء . فأتاه من الملوك ملك الانكتار ، وملك اسكوسنة ، وملك تورل ، وملك برشلونة واسمه ريدارکون ، وجماعة أخر من ملوك النصارى فاستعد له السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر بالله بن الأمير أبي زكريا يحيى بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر ، ملك تونس ، وبعث إليه رسله في طلب الصلح . ومعهم ثمانون ألف دينار . فأخذها الفرنسيس ولم يصالحهم وسار إلى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين وستمائة ، ونزل بساحل قرطاجنة في ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل . وأقام الفرنسيس هناك ستة أشهر ، فقاتله المسلمون - للنصف من محرم سنة تسع وستين - قتالا شديدا نقتل فيه من الفريقين عالم عظيم . وكاد المسلمون أن يغلبوا . فأنامهم الله بالفرج وأصبح ملك الفرنجة مبتا" (٣) .

ومن جانب آخر يذكر المقريزي أنه :

"ورد الخبر (سنة ٦٦٩هـ/ - ١٢٧٠م) بمسير الفرنسيس وملوك الفرنج إلى تونس ومحاربة أهلها ، فكتب السلطان إلى صاحب تونس بوصول العساكر إليه لمجدة له على الفرنج ، وكتب

إلى عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير إلى نجدته ، وأمرهم حفر الآبار فى الطرقات برسم العساكر ، وشرع فى تجريد العساكر فورد الخبر بموت الفرنسيس رابنه وجماعة من عسكره ، ووصول نجدات العربان إلى تونس وحفر الآبار ، وأن الفرنج رحلوا عن تونس فى خامس صفر»(٤).

ونتيجة لوصول الأنباء حول قدوم حملة لويس التاسع الصليبية هذه سنة ١٢٧٠م يشير المقريزى إلى الاستعدادات التى بذلتها الحكام المسلمون ، فيذكر عودة الظاهر بيبرس من الشام إلى مصر بسرعة من ذلك قوله :

"ثم رحل السلطان من حصن الأكراد إلى دمشق ، فدخلها فى ثامن عشريه وقدم الخبر بأن الفرنسيس وعدة من ملوك الفرنج قد ركبوا البحر ولا يعلم قصدهم ، فاهتم السلطان بالشغور والشوانى ، وسار إلى مصر فدخلها فى ثانى شوال (سنة ٦٦٨هـ)" (٥) .

ولعل السبب وراء ذلك هو أن الظاهر بيبرس كان يخشى أن يتوجه لويس بحملته هذه إلى مصر كما فعل سنة ١٢٥٠م حينما قصد دمياط ، ولذا عمل على إعداد الثغور والشوانى لمواجهة أى هجوم فجائى .

كما يذكر المقريزى أن الظاهر بيبرس قد بعث "عدة رسل بهدايا إلى بلاد الفرنج" (٦) ربما بدافع من الرغبة فى تأمين عدم مشاركة هؤلاء الملوك الفرنج فى هذه الحملة الصليبية الثامنة التى تقصد الشرق من أجل هدف مساعدة الحركة الصليبية . وهكذا نجد أن الظاهر بيبرس يستعد لإحباط هذه المساعى الصليبية بالاستعدادات الحربية والاحتياطات العسكرية إلى جانب المساعى الدبلوماسية وعلاقات الصداقة مع ملوك الفرنج . ورغم أننا لانعرف نتيجة هذه الاتصالات الدبلوماسية ، ومدى أثرها على مساعدة زعماء الغرب الأوروبى فى هذه الحملة ، إلا أنه من المؤكد لدينا أن هذه الحملة الصليبية لم تجد الحماس المطلوب عند حكام الممالك الأوروبية وفرسانها ، بل إن عدم الحماس هذا شمل كونتات فرنسا وأدواقها وعدداً غير قليل من فرسانها ، الأمر الذى كان له بالغ الأثر على أهميتها وافتقارها الصبغة الدولية .

وفى البحث عن السبب الرئيسى وراء هذه الحملة يسترعى الانتباه الأطماع الصليبية التى سيطرت على شارل كونت أنجو وأخو لويس التاسع . وعندما فشلت حملة لويس التاسع ضد تونس بوفاة لويس التاسع بادر شارل كونت أنجو إلى القيام بحملة صليبية ضد تونس ، ونجح فى أن ينتزع لنفسه ولملك فرنسا من المستنصر حاكم تونس تعويضا ضخما(٧) .

كذلك يمكن القول أن من أسباب الحملة الصليبية الثامنة على تونس سنة ١٢٧٠م ما يأتى:

أولا : الانتقام للانتصار الكبير الذى حققه السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى بفتح أنطاكية سنة ١٢٦٨م ، حيث قرر لويس التاسع القيام بحملة مضادة لإنقاذ بقية المراكز اللاتينية على الساحل السورى خشية أن تسقط فى يد السلطة المملوكية .

ثانيا : رغبة لويس بأن تخدم هذه الحملة حركة التبشير بالديانة المسيحية طالما أنه يعرف ميل المستنصر إلى المسيحيين ، فرأى أن الحملة تخدم الحركة الصليبية ، بالإضافة إلى إمكانية التبشير بالديانة المسيحية .

وعلى ذلك يمكننا أن نلخص بعض الأهداف التى قصدتها حملة لويس التاسع إلى تونس سنة ١٢٧٠م :

أولا : استعادة مملكة بيت المقدس التى فقدها المسلمون سنة ١٢٤٤م .

ثانيا : ضرب مصر للقضاء على قوة المماليك التى استطاعت أن تهزم التتار فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م بحيث يمكن بعد ذلك دعم الممالك الصليبية فى سوريا .

ثالثا : استمالة صاحب تونس الأمير المستنصر محمد بن يحيى إلى الديانة المسيحية بحيث تصبح تونس جبهة مسيحية تهدد الحدود الغربية لمصر ، إذ أن لويس بدأ يدرك عدم جدوى الذهاب إلى سوريا ومساعدة الممالك الصليبية ما لم يتم القضاء على القوة الحاكمة فى مصر .

رابعا : الانتقام للهزائم التى أنزلها الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى بالوحدات اللاتينية على الساحل السورى حيث سقطت على يده مملكة أنطاكية وباتت بقية المراكز الصليبية مهددة بالزوال على يد المماليك .

وأخيرا بعد ثلاث سنوات من الاستعداد والتهيؤ غادر الملك لويس فرنسا سنة ١٢٧٠م مبحراً نحو تونس على أمل أن ينجح فى تحويل حاكمها المستنصر إلى المسيحية(٨).

ولكن مشروع حملة ١٢٧٠م تعرض للتضييق والدمار على يد شارك أخى لويس التاسع ، حيث حدث أن الطفل كنراد بن الملك الإسمى لصقلية وبيت المقدس عزل عن العرش على يد عمه مانفرد وهو ابن غير شرعى للإمبراطور فردريك الثانى ، فحل مكانه فى الحكم . وكان مانفرد يشابه أباه فردريك فى غطرسته ، كما حظى من البابوية على نفس ما لقيه أبوه من الكراهية . ومن ثم أخذ البابوات يبحثون عن أمير يجعلونه مكانه على عرش صقلية ، فاتفقوا على شارل كونت أنجو (٩).

ومن ثم وافق لويس على ترشيح أخيه ليتولى عرش صقلية ، بل أنه قرر فرض ضرائب فى فرنسا لمساعدته[١٠] .

ولكن يبدو أن شارل كونت أنجو كان يخشى أن تحول البابوية دون تحقيق أطماعه ، وكان أكثر ما يقلقه حرص أخيه لويس التاسع على القيام بحملته الصليبية لخدمة الممالك اللاتينية فى الساحل السورى ، حيث رغب فى الاستفادة من الجند والأموال الفرنسية لصالح أطماعه[١١] .

وكان المستنصر أمير تونس الذى يسيطر على ساحل أفريقيا المقابل لجزيرة صقلية يميل نحو المسيحيين ، غير أن إيراء بعض التجار من جزيرة صقلية أثار غضب شارل الذى أقنع أخاه لويس بتحويل هدف حملته إلى تونس كى يقنع المستنصر باعتناق الديانة المسيحية ، وتصبح تونس بالتالى إقليما يخدم الحركة الصليبية ، ورغم كراهية بعض المقربين من لويس لهذا المشروع إلا أن لويس نفسه وافق عليه[١٢] .

إذن ، فقد كان أحد الأهداف الرئيسية لهذه الحملة هو تحويل المستنصر أمير تونس إلى المسيحية ، الأمر الذى لابد أن يكون له بالغ الأثر فى خدمة وضع القوى الصليبية على الساحل السورى .

وفى نفس الوقت كان لانتصارات الظاهر بيبرس على الساحل السورى ضد الممالك اللاتينية بالغ الأثر على أوروبا ، الأمر الذى جعل القديس لويس يعزم مرة أخرى على القيام بحملة صليبية إلى الشرق . وقد لعب المبشرون الدومينيكان دورا كبيرا فى تصميم لويس على تحقيق هذا الهدف ، إلا أن الطبقة النبيلة لم تكن متحمسة لهذا المشروع ، بل إنه حتى يوحنا جوانفيل الصديق الحميم المعروف للملك لويس رفض المساهمة فى هذه الحملة ، إلا أن أخا لويس وهو شارل كونت أنجو الذى وصل إلى كرسى الحكم فى صقلية سنة ١٢٦٥م بمساعدة البابا كان أشد ما يكون حماسا لهذه الحملة من أجل خدمة أهدافه الخاصة[١٣] .

وفى الأول من تموز - يولية سنة ١٢٧٠م أبحر لويس التاسع بحملته الصليبية الضخمة من ايجمورت وبصحبته أبناؤه الثلاثة ، وصهره تيبالد ملك نافار ، وابن أخيه روبرت كونت أرتوا ، وكونت بريشاتى ، وكونت لامارش ، وولى عهد الفلاندرز ، وكانوا جميعهم أبناء رفاقه فى حملته الصليبية السابقة ، إلى جانب كونت سانت بول الذى بقى على قيد الحياة من تلك الحملة ، وكونت سواسون[١٤] .

وأخيرا وصل الأسطول الصليبى إلى نقطة على ساحل شمال أفريقيا مقابل قرطاجنة فى ١٨ تموز - يولية سنة ١٢٧٠م فى أشد أوقات صيف أفريقيا حرارة ، وعلى عكس ما كان لويس يتوقع إذ لم يظهر أمير تونس أى دليل يشير إلى رغبته فى التحول إلى الديانة المسيحية ، بل إنه زيادة على ذلك أعاد تحصين عاصمته ، وعزز حاميتها .

ومن ناحية أخرى أدى ارتفاع الحرارة إلى انتشار المرض فى المعسكر الفرنسى ، فأصاب ألوف الأمراء والفرسان والجنود ، بل إن لويس التاسع نفسه وقع فريسة المرض حتى إذا وصل شارل كونت أنجو بجيشه فى ٢٥ آب - أغسطس سنة ١٢٧٠م علم أن أخاه لويس قد توفى منذ ساعات قليلة .

أما عن أولاد لويس فقد عصف المرض بفيليب ولى عهد فرنسا ، أما يوحنا تريستان الذى ولد فى دمياط فكان يحتضر[١٥] .

وقد اشترك مع لويس التاسع فى حملته إلى تونس كونت الفونس وزوجته اللذان توفيا على التوالى فى ٢١ ، ٢٤ آب - أغسطس سنة ١٢٧٠م بعد عودتهما بفترة وجيزة من تلك الحملة الصليبية الوخيمة على تونس[١٦] .

كذلك كان يوحنا بن لويس التاسع أحد أولئك الفرسان الذين شاركوا فى الحملة الصليبية على تونس حيث قدر له أن يلقى حتفه هناك سنة ١٢٧٠م[١٧] .

أما الأمير إدوارد الإنجليزى الذى لحق بالحملة الصليبية فى تونس متأخرا بعض الوقت فإنه لم يعد إلى فرنسا بصحبة الحملة التى رجعت بقيادة شارل كونت أنجو ، ولكنه أبحر إلى عكا حيث رسا على ساحلها سنة ١٢٧١م فى الوقت الذى وصلت فيه الأنباء تخبر بأن الظاهر بيبرس قد نجح فى اجتياح خط الدفاع عن طرابلس بالاستيلاء على حصن الكرك وما حوله من حصون كانت مقرا للمتطوعين الرهبان النظاميين . وقد استمر بقاء الأمير إدوارد فى الأراضى المقدسة حتى أيلول - سبتمبر سنة ١٢٧٢م حيث نجح فى التوفيق بين ملك تيبرس وأتباعه الفرسان . وكذلك عقد معاهدة هدنة مع الظاهر بيبرس لمدة أحد عشر عاما[١٨] .

أما لويس نفسه فقد انتهارت قواه وصحته ، وتوفى فى المعسكر الذى أقامه خارج جدران تونس فى ٢٥ آب - أغسطس سنة ١٢٧٠م . وفى الأول من تشرين الثانى - نوفمبر سنة ١٢٧٠م عمل شارل كونت أنجو على إنهاء وجود هذه الحملة فى تونس عندما حصل على موافقة من حاكمها المستنصر على منحه حقوقا فى شمال أفريقيا مشابهة لتلك التى حصل عليها الملوك النورمان فيما مضى فى صقلية[١٩] .

ولما وصلت إلى الشرق أخبار كارثة الحملة الصليبية فى تونس اطمأنت نفوس المسلمين ، فى حين اكتنف المسيحيين حزن عميق فقد اختفى بهذه الكارثة الأمل فى خروج جيش فرنجى صليبى من فرنسا لنجدة الفرنج فى الشرق . لقد حاول لويس المتدين أن يساعد الممالك اللاتينية فى فلسطين غير أنه لم يحقق لها سوى الخيبة والهزيمة . وبينما كان على فراش الموت لم يكن يفكر سوى بالمدينة المقدسة التى لم يدخلها أبدا ، ولم تفلح جهوده فى تخليصها من يد المسلمين وكان آخر ما نطق به قبل وفاته ... بيت المقدس .. بيت المقدس [٢٠] .

لقد توفى لويس التاسع تحت أسوار تونس فى ٢٥ آب - أغسطس سنة ١٢٧٠م ، مضيفا بذلك صفحة جديدة فى خدمة الديانة المسيحية إلى جانب ماتمتع به طوال حياته من مجد كمؤسس عظيم للقانون . وقد توجت هذه الأعمال العظيمة بالمنشور الذى أصدره البابا بونيفاس الثامن فى ١١ آب - أغسطس سنة ١٢٩٧م بتسجيل اسم القديس لويس إلى جانب أسماء قديسى الكنيسة الكاثوليكية[٢١] .

ولكن هذا لايعنى أن الفرنسيين انتظروا قرار الكنيسة هذا حتى يبدأوا فى الاعتقاد بقدسية لويس التاسع ، فقد كانوا يقدسونه منذ أمد بعيد[٢٢] .

ولا شك فى أنه كان لتلك الخصائص الفريدة التى تميز بها لويس التاسع عن غيره من حكام أوروبا أثر بالغ فى صدور هذا المرسوم البابوى الذى يجعل القديس لويس يتبوأ مكانته بين القديسين الذين يحظون بتبجيل الكنيسة [٢٣] .

وبعد وفاته استمرت ذكرى لويس التاسع أنموذجا مثاليا لعهد فريد من الحكم يجدر أن يحتذى به فى نظر العالم المسيحى الغربى [٢٤] .

وعندما توفى لويس التاسع بكته الرعية كما لم تبك غيره من الملوك والحكام وبقيت ذكراه فى ذهن الشعب الفرنسى قرونا طويلة[٢٥] .

واقتداء بخطى لويس التاسع قام لويس الثانى دوق بوربون Bourbon بحملة صليبية إلى تونس سنة ١٣٩٠م ولكنه لم يفشل فى تحقيق أى نجاح ملموس [٢٦] .

وفى ختام هذه الدراسة التحليلية لطبيعة النشاط العسكرى والسياسى للملك لويس يمكننا أن نصل إلى بعض أسباب فشل السياسة الصليبية وهو الأمر الذى حال من جانب آخر دون تحقيق الهدف الصليبى الذى طالما تطلع لويس إليه فى مختلف أعماله :

١- عدم وجود تصور له بين الممالك الأوروبية .

٢- انشغال البابوية بمصالحها فى أوروبا ، دون بذل الاهتمام اللازم لمساعدة الممالك اللاتينية فى الشرق .

٣- تغير الوضع السياسى فى مصر وسوريا ووصول المماليك إلى كرسى السلطنة إذ كانوا على درجة من القوة العسكرية ، بحيث أنهم استطاعوا أن ينزلوا الهزائم المتتالية ضد هذه الممالك .

٤- عدم وقوف الإمبراطورية المقدسة إلى جانب لويس التاسع فى خططه الرامية إلى تحطيم الزعامة الإسلامية فى مصر بوصفها المقر العسكرى والرسمى للخطط العدائية ضد الممالك اللاتينية فى سوريا . ويتضح موقف الإمبراطورية هذا بشكل ظاهر فى اتصال فردريك الثانى بالصالح أيوب سلطان الدولة الأيوبية سرا واطلاعه على خبر حملة لويس التاسع ضد مصر سنة ١٢٤٩م متناسيا بذلك موقف لويس اخيادى من صراع الإمبراطورية والبابوية بل ومتجاهلا كون ابنه كونراد الوريث الشرعى لمملكة بيت المقدس .

٥- اهتمام كل من البندقية والبيازنة والجنوية بمصالحهم التجارية حتى ولو كان ذلك على حساب الأهداف الصليبية فى الأراضى المقدسة ، والدليل على ذلك إمدادهم المماليك بالأخشاب والحديد والبياض وغير ذلك من المواد اللازمة لصنع السفن والأسلحة ومعدات الحصار .

٦- هزيمة المغول بقيادة كتبغا على يد المماليك بقيادة السلطان سيف الدين قطز والقائد ركن الدين بيبرس فى قرية عين جالوت فى ٣ أيلول - سبتمبر ١٢٦٠م ، ففقد لويس التاسع بذلك نصيرا كان يأمل فى التحالف معه ضد القوة الإسلامية من ناحية الحدود الشرقية بالتعاون مع الممالك اللاتينية فى الساحل السورى .

وهكذا توفى لويس التاسع بالحمى فى تونس عندما قدم إليها فى حملته الصليبية الأخيرة سنة ١٢٧٠م [٢٧] . وأنهى بوفاته حلقة من حلقات العدوان الصليبى من أجل هدف خدمة الممالك اللاتينية فى الشرق ، بل يمكن القول بأن موته كان إيذانا بأن نهاية هذا الوجود باتت وشيكة ، ولن تجدى المساعى التى قد تبذل مستقبلا . وبذلك يسدل الستار على فترة فريدة بخصائصها المميزة ومظاهرها المختلفة ، مما أعطاها طابعا خاصا يستحق الدراسة والبحث .

الهوامش :

١- جوزيف ، لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ١١٥ .

2- Runciman, A History of the Crusades, 290

٣- المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٩٤-٣٩٥ .

٤- المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص ٥٩٠ .

٥- المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص ٥٨٧-٥٨٨ .

٦- المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص ٥٨٨ .

٧- أرنست ، الحروب الصليبية ، ص ١٦٥-١٦٦ .

8- Mayer, The Crusades, 270.

9- Runciman, A History of the Crusades. 290-291

10- Runciman, A History of the Crusades, 291.

11- Runciman, A History of the Crusades, 291.

12- Runciman, A History of the Crusades, 291.

13- Mayer, The Crusades, 270.

14- Runciman, A History of the Crusades, 292.

15- Runciman, A History of the Crusades, 292.

16- Fawver, The Capetian Kings of France, 124.

17- Fawtier, The Capetian Kings of France, 165.

18- Mayer, The Crusades, 270.

19- Mayer, The Crusades, 270, Runciman, A History of the Crusades, 292 .

20- Runciman, A History of the Crusades, 292.

21- Fawtier, The Capetian Kings of France, 34.

22- Fawtier, The Capetian Kings of France, 34.

23- Fawtier, The Capetian Kings of France, 59.

24- Fawtier, The Capetian Kings of France, 169.

25- Loc. Cit.

26- Mayer, The Crusades, 276.

27- Keen, The Pelican History of Mediveval Europe, 187 .

المصادر والمراجع

أولا : العربية :

ابن بطوطة : محمد عبد الله (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، القاهرة ، ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م .

ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)

- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، جزأين ، تحقيق ويليام بوير ، لوس انجلوس ، ١٩٣٠-١٩٤٢م .

- مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة ، بإشراف ج. د. كارليل ، طبعة أوروبا ، ١٧٩٢م.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٢ جزء ، القاهرة ، ١٩٢٩-١٩٥٦م .

الجبرتي : عبد الرحمن (ت١٢٣٧هـ/١٨٢٢م) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، الجزء الأول تحقيق حسن محمد جوهر وآخرين ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٩م.

أرنست : باركر - الحروب الصليبية ، تعريب ، الباز العريني ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

جوزيف : نسيم يوسف - لويس التاسع في الشرق الأوسط ١٢٥٠-١٢٥٤م ، الطبعة الثانية. القاهرة ، ١٩٥٩م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م)

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، بيروت ، ١٩٦٥م .

- المقدمة ، طبعة دار الشعب .

دراج : أحمد - المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١م .

ابن دقماق : إبراهيم بن محمد (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م) - الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جزآن في كتاب واحد ، القاهرة ، ١٨٩٣م .

الدواداري : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (معاصر للناصر محمد بن قلاون) - كنز الدرر وجامع الغرر ، - جـ ٨ الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق : و. هارتمان ، القاهرة ، ١٩٧١م . - جـ ٩ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق : هـ. ريتر ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

زيتير شتين - تاريخ سلاطين المماليك ، نشرة كارل ف. زيتير شتين ، لبدن ، ١٩١٩م .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، تحقيق : م.أ. إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٦٧-١٩٦٨م .

- تاريخ الخلفاء ، تحقيق : م.م. عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

ابن شاكر : محمد بن أحمد الكتبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م) فوات الوفيات والذيل عليها ، ٤ أجزاء ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٤م .

الصفدي : خليل ابن أيبك بن عبد الله (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م)

- إمارة دمشق في الإسلام ، دمشق ، ١٩٥٥م .

- الوافي بالوفيات ، ٨ أجزاء ، ١٩٣١-١٩٧١م ، نشرة : Bibliotheca Islamic

الصقاعي : فضل الله بن أبي الفخر - تالي كتاب وفيات الأعيان ، تحقيق : جاكلين سويلة ، دمشق ، ١٩٧٤م .

الظاهري : خليل بن شاهين (ت٨٧٢هـ/١٤٦٨م) زبدة كشف الممالك ، تحقيق : بول ريتز . باريس ، ١٨٩٤م .

عاشور : سعيد عبد الفتاح

- العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

- مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

- الحركة الصليبية ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

عبد السيد : حكيم أمين - قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ١٩٦٦م .

ابن عبد الظاهر : محي الدين أبو الفضل عبد الله (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م) .

- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق : م. كامل ، القاهرة ، ١٩٦١م .

- الروض الزاهر في سيرة الظاهر ، تحقيق : عبد العزيز الخويطر ، بحث دكتوراه ، لندن ، ١٩٦٠م .

- الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية ، ليبزج ، ١٩٠٢م.

العيني : الهاز - المماليك ، بيروت ، ١٩٦٧م .

أبو الفداء : إسماعيل بن علي (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) .

- المختصر في أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م .

- تقويم البلدان ، تحقيق : م. ريشود ، م. سلان ، باريس ، ١٨٤٠م .

ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م) تاريخ الدول والملوك ، جـ٨ ، تحقيق: قسطنطين زريق وآخرين ، بيروت ، ١٩٣٩م .

ابن أبي الفضائل : مفضل - النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، جـ٢ ، ٣ ، تحقيق : أ. بلوشيه ، باريس ، ١٩٢٨م .

فهمي : نعيم زكي - طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة ، ١٩٧٣م.

القلقشندي : أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)

- مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، ٣ أجزاء ، تحقيق : عبد السلام أحمد فراج ، الكويت ، ١٩٦٤م .

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزء ، القاهرة ، ١٩١٣-١٩٢٢م.

ابن كثير : اسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م) البداية والنهاية ، ١٤ جزء ، ١٩٢٣م .

المقريزي : أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م)

- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق : م. عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١م .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "الخطط المقريزية" جزءان ، القاهرة ، ١٨٥٣م .

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ٢ تحقيق : محمد مصطفى زيادة جـ٣ ، ٤ تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٣٩-١٩٧١م .

النويري : أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ١٨ جزء، القاهرة ١٩٢٣-١٩٣١م .

ابن الوردي : عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) تتمة المختصر في أخبار البشر ، جزءان ، القاهرة ، ١٧٦٨م .

اليافعي : عبد الله بن أسعد (ت٧٦٨هـ/١٣٦٧م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ٤ أجزاء ، حيدر أباد ، ١٣٣٧-١٣٣٩هـ/١٩١٨ - ١٩٢٠م .

ياقوت : شهاب الدين بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان ، ٨ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٠٦م .

ثانيا : الأجنبية :

Fawtier, Robert, The Capetian Kings of France Monarchy and Nation 987-1328, Trans. from the Frensh by Lionel Butler and R.J. Adam, U.K., 1974.

Hale, J. R., Highfield, J. R. L., Smalley B., Europe in the Late Middle Ages, London, 1970.

Al-Hajji, Hayat Nasser, The Internal Affairs in Egypt During the Third Reign of Sultan Al-Nasir Muhammad B. Qalawun, Kuwait, 1978.

Keen Maurice, The Pelican History of Medieval Europe, U.K., 1970.

Mayer, Hans Aberhard, The Cursades, Trans. John Cillingham, London, 1972.

Runciman, Steven, A History of the Crusades (V. III) 3 volumes, U.K., 1971 .

د. عبد المنعم ابراهيم الجميعي(*)

موقف القوى الإسلامية من سقوط الأندلس

في أواخر القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي استمرت قواعد المسلمين في الأندلس تتساقط تباعا في يد إسبانيا النصرانية ، ولم يبق منها سوى مملكة غرناطة الصغيرة بمدنها وثغورها القلائل .

وبعد أن اتحدت قشتالة وأراجون على يدي فرديناند وإيزابيلا ، اعتزمت إسبانيا النصرانية توجيه ضربتها الحاسمة لما تبقى للإسلام في الأندلس فتدفقت جيوشها على مملكة غرناطة التي كانت رغم صغرها وضعفها تمثل صولة الإسلام في إسبانيا ونواة التحرك الإسلامي تجاه أوربا ، والذي بدأت طلائعه في الشرق على يد الأتراك العثمانيين بعد فتحهم للقسطنطينية . وقد استغلت إسبانيا النصرانية في ذلك ، الخلاف الداخلي الذي دب بين الأسر الحاكمة في غرناطة واضطرام المنافسة على السلطة وغلبة نفوذ النساء على الحكام، وانتشار الخطوب والفتن والحروب الأهلية داخلها(١).

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر جامعة القاهرة - فرع الفيوم .

وفى تلك الآونة العصيبة اتجهت أبصار أمراء وأهل الأندلس إلى القوى الإسلامية المعاصرة لهم فى المشرق والمغرب معا ، يناشدونها النجدة والغوث إزاء الخطر المحدق بهم وكانت رسائلهم ووفودهم تصل تباعا إلى الآستانة والقاهرة ومراكش ، خاصة وأن هذه القوى الإسلامية كانت لها مكانتها وإسهاماتها فى خدمة الإسلام والمسلمين . فالدولة العثمانية حقق الله على يديها فتح القسطنطينية ، وراحت قواتها تتابع فتوحاتها فى أوربا وآسيا وتنفذ بلواء الإسلام إلى أمم النصرانية ، فأخضعت ممالك الأفلاق والصرب والبوسنة والهرسك وألبانيا وغيرها ، وكانت بمثابة القوة القادرة التى تفتح الممالك المسيحية باسم الإسلام ، وبوسعها أن تدفع القوافل عن المسلمين فى أى مكان ، مما جعل أعناق أهل الأندلس تشرئب إليها لإنقاذهم من محنتهم ، وليحتفظوا بالأندلس للمسلمين . وكانت هناك دولة المماليك الشراكسة فى مصر والشام الذين تحقق على أيديهم هزيمة المغول وإجلاء الصليبيين من آخر معاقلهم بالشام ، وكانت أوربا تخشاهم ، وتعمل لسلاطينهم ألف حساب ، خاصة وأنهم كانوا يتحكمون فى البقاع النصرانية المقدسة وبين رعاياهم العديد من النصارى . وكان هناك حكام المغرب الأقصى الذين تمسكوا بفكرة الجهاد ، وبأهمية المحافظة على ماتبقى للمسلمين من ممتلكات فى الأندلس ، كما كانوا يرغبون فى وقف أطماع الممالك المسيحية الناهضة فى شبة جزيرة أيبريا ، وقد تمثل ذلك فى الحملات المتتالية للمرابطين والموحدين ثم المرينيين ، والتى كان من أهمها قيام المرابطين بمساندة ملوك الطوائف ضد جيوش إسبانيا النصرانية فى موقعة الزلاقة ٨٦ - ١م وقيام السلطان المغربى يعقوب بن عبد الحق المرينى بإرسال جيش جرار فى عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م لمساندة أهل الأندلس فى الانتصار على نصارى إسبانيا .

ونظرا لأن أهل غرناطة وحكامها شعروا بعدم قدرتهم وحدهم على الثبات أمام أعدائهم فقد استغاثوا بهذه القوى ، وطلبوا منها العمل على إنقاذهم من الخطر المحدق بهم والاحتفاظ بغرناطة للمسلمين . ولكن ذلك لم يتحقق ، مما يدفعنا إلى البحث عن الأسباب التى أدت إلى تقاعس هذه القوى عن نصرة إخوانهم فى الدين والملة على الرغم من أن صدى الأحداث المؤسفة التى وقعت للمسلمين فى الأندلس صارت تملأ بلاط حكام القاهرة والآستانة وغيرها ، وتثير فيهم الاهتمام والعطف[٢] .

وحتى تتضح لنا الأمور سنتعرض لأحوال كل قوة من هذه القوى على حدة والأسباب التى باعدت بينها وبين مساندة أهل الأندلس .

أولا : الدولة العثمانية :

كان من الطبيعى أن يتجه أهل الأندلس إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية يتشدون مساعدتها عسكريا خلال صراعهم من أجل البقاء والمحافظة على الدين والملة ، فأرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م سفارة إلى استانبول ملفتين نظر السلطان محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس طالبين تدخله لإنقاذهم[٣] . ولكنه كان مشغولا عنهم ولم يقدم لهم النجدة . وتكررت مناشدتهم بعد وفاة هذا السلطان لابنه بايزيد ، فأرسل أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة وسولا إليه يلتمس منه النجدة لإنقاذ بلاده ، ونصرته ضد ملوك النصارى[٤] كما أرسل إليه أحد شعراء غرناطة بقصيدة يصور فيها مأساة المسلمين ويستنجده لإنقاذهم والدفاع عن حرمات المسلمين[٥] .

وتختلف الآراء حول مدى استجابة بايزيد لهذه الاستغاثة فهناك من يقول أن الدولة العثمانية استجابت لنداء أهل الأندلس ، وأرسلت أسطولا إلى المياة الإسبانية لمساعدة حاكم غرناطة المحتضر[٦] وهناك من يقول إن مشاكل السلطان الداخلية قد حالت دون ذلك ، وخاصة وأن نزاعه مع أخيه جم على العرش وما أثاره ذلك النزاع من مشكلات مع البابوية وبعض الدول الأوربية ، ثم التحالفات الصليبية ضد الدولة قد جعلته يصم أذنيه عن تقديم النجدة لأهل الأندلس .

والواقع أن إرسال أسطول عثمانى لمساندة أهل الأندلس فى محنتهم لم يثبت تاريخيا وإن كان هناك بعض المصادر الثانوية التى أشارت إلى ذلك[٧] . حقيقة أن الدولة العثمانية كانت تمتلك جيشا بحريا لها بالبنان ، ولكن هذا الجيش كان قوامه القوات البرية وليست البحرية ، يضاف إلى ذلك أن الهزائم البحرية التى حلت بالأساطيل العثمانية كانت تجعلها تحجم عن المخاطرة[٨] وتساند أهل الأندلس المحاصرين بالشاطىء ، والذين كانوا فى حاجة إلى قوة بحرية قوية وإلى جانب ذلك فإن السلطان بايزيد كان ميالا للسلم أكثر منه للحرب ، وفى عهده عموما لم تحدث فتوحات تذكر .

ويميل بعض الباحثين إلى تبرئة ساحة الدولة العثمانية بالنسبة لسقوط الأندلس ، بحجة أنها لم تكن تستطيع أن ترسل جيوشها إلى هناك بسهولة . بينما يرى البعض الآخر أن العثمانيين قصروا فى نصرة إخوانهم فى الأندلس ، ولم يسارعوا إلى نجدتهم ودويلاتهم وهى تتساقط الواحدة تلو الأخرى .

والواقع أن الدولة العثمانية عقب فتح القسطنطينية فى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م كانت منشغلة فى حروب متعددة مع النصاريين والألمان والمجريين والألبان والصرب والجبل الأسود والبرنان وإمارتى جنوة ونابلى وغيرها ، وكان على آل عثمان إذا أرادوا إنقاذ الأندلس القيام بمغامرة غير مأمونة العواقب حيث يتركون الجبهة الاوربية ، ومنطقة الأناضول مكشوفة ويذهبون للحرب على مسافة بعيدة دون استعدادات بحرية مجدية لنقل الجنود من أقصى شرق أوربا إلى أقصى جنوبها الغربى فى شبه جزيرة أيبريا ليحاربوا حربا وسط إقليمين كبيرين هما إسبانيا والبرتغال المدعومتين من كل القوى الصليبية فى الشمال[٩] .

وهكذا يتضح أن الدولة العثمانية لم تستطع لظروفها الداخلية والخارجية أن تمد يد المساعدة لمسلمى الأندلس لإنقاذهم من الوقوع فى براثن الصليبية ، وبقى مسلمو الأندلس يواجهون مصيرهم المحتوم وحدهم .

ثانيا : دولة المماليك :

اتجه سلاطين غرناطة وأهلها إلى مصر يلتمسون معونتها أمام الخطر الصليبى المحدق ببلادهم فأرسل السلطان محمد بن يوسف بن نصر رسالة[١٠] إلى السلطان أحمد بن محمد بن قلاوون[١١] يوضح له فيها الأحوال التى آلت إليها بلاد الأندلس وما يضمره النصارى من شر، ويناشده المساعدة لإنقاذ الإسلام بقوله "والدين غريب والغريب يحن إلى أهله والمرء كثير بأخيه على بعد محله"[١٢] .

ويبدو أن المشاكل التى اقترن بها عصر السلطان أحمد قد حالت بينه وبين بسط يد المساعدة للأندلس ، خاصة وأن سلطنته لم تستمر سوى شهرين واثنى عشر يوما[١٣] ونتيجة لذلك تكرر طلب النجدات من مصر فأرسل السلطان عبد الله بن محمد بن نصر[١٤] حاكم غرناطة إلى الظاهر جقمق العلائى[١٥] سلطان مصر برسالة عام ٨٤٤هـ يلتمس منه النجدة والعون ضد "الإفرنج المجاورين" والتى يمكن عن طريقها أن يتقوى بها المسلمون فى الدفاع عن أنفسهم ضد الخطر المحيط بهم[١٦] . وكان رد السلطان المملوكى على هذه الرسالة أن مصر بعيدة عن بلاد الأندلس ، ومن الصعب تجهيز قوات عسكرية لمساندتها لحيلولة البحر والافتقار إلى المراكب الكثيرة . ووعد بمخاطبة العثمانيين[١٧] فى مساعدة غرناطة . وكان رد السفير على ذلك "بامولانا السلطان نصركم الله أنت كبير الملوك والسلاطين . وخديم الحرمين الشريفين وتم نجيء إلا إلى حضرتكم وحاشا أن نردنا خائبين" .

وأخيرا وافق جقمق على تقديم معونات مالية ومعدات عسكرية إلى غرناطة[١٨] . ونتيجة لاشتداد ضغط النصارى على غرناطة وقيام إيزابيلا بطلب الجزية من أميرها فى عام ١٤٧٦م واحتقار الأمير لهذا الطلب بقوله "إن دار الضرب عندى لم تعد تضرب عملة ذهبية وإنما تضرب الفولاذ" ، واستئناف الحرب بين الطرفين وتقدم جيوش فرديناند وإيزابيلا ، اضطر أمير غرناطة إلى إرسال بعض مبعوثيه برئاسة الفقيه الأندلسى ابن على بن محمد الأزرق إلى السلطان الأشرف أبى النصر قايتباى[١٩] فى ذى القعدة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م يستنجد به ضد المسيحيين ويستنهض عزائمه لمساندة أهل الأندلس [٢٠] فى قتالهم للمحاصرين لبلاده الذين أشرفوا على أخذ غرناطة[٢١] .

ولما لم يكن فى مقدرة السلطان المملوكى القيام بعمل عسكرى لمساندة أهل الأندلس ، خاصة وأنه كان يستعد لمنازلة السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، هذا إلى جانب بعد المسافة بينه وبينهم وصعوبة المواصلة ، واحتياج الأمر لمقدرة بحرية ضخمة لم يستطع إليها سبيلا ، فقد حاول إنقاذ الموقف عن طريق الضغوط السياسية ، فأرسل إلى كبير قساوسة كنيسة القيامة بالقدس يذكره بما يتمتع به نصارى الشرق من حريات وأمان على أنفسهم وعقائدهم ويطالبه بإرسال مكاتبة على يد قسيس من أعيانهم إلى ملك نابلى[٢٢] وإلى بابا روما [٢٣] للتدخل لدى ملك قشتاله وأراجون بأن يعمل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم[٢٤] ولا يتعرض لهم ، ويرد إليهم ما استولى عليه من أراضيهم ، وإلا فإنه سيضطر إزاء هذا العدوان أن يشيع تحو نصارى الشرق سياسة القصاص ، ويجلب عليهم المتاعب ، ويقوم بالتنكيل بهم ويمنعهم من دخول كنيسة القيامة ويقبض على أعيانهم ويهدم الأديرة والمعابد والآثار النصرانية المقدسة[٢٥] .

ومع أن كبير قساوسة كنيسة القيامة استجاب لطلب السلطان المملوكى ، وكاتب ملك نابلى فإن هذه المحاولة لم تفد بشيء .

وفى محاولة أخرى من السلطان المملوكى أمر بإرسال وفد من رعاياه النصارى[٢٦] إلى روما ونابلى ، وإلى الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا يعاتبهما على ما يحدث لأبناء دينه فى غرناطة ، ويهددهما باضطهاد نصارى الشرق إن لم يكفا عن مهاجمة غرناطة ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضا[٢٧] وسقطت غرناطة فى صفر ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م وانتهت بذلك دولة الإسلام فى إسبانيا . ومع ذلك فإن وساطة المماليك وتوعداتهم لم تتوقف عند سقوط غرناطة ، فقد أرسل السلطان المملوكى وفدا إلى إسبانيا فى عام ١٥٠٠م للتعرف على إذا ما

كان المسلمون الأندلسيون قد أجبروا على الارتداد عن دينهم واعتناق النصرانية ، وعن مدى صحة ماتردد عن تحويل المساجد إلى كنائس وليخبر الملك فرديناند والملكة إيزابيلا بأن السلطان المملوكي سوف يقابل الاعتداء بمثله ويثأر للمسلمين باضطهاد النصارى الخاضعين لحكمه[٢٨] . وكان رد فرديناند على ذلك هو محاولة إقناع سلطان مصر بما يلقاه المسلمون في الأندلس من الرعاية ، وأن يطمئنه على مصيرهم .

والسؤال المطروح هو : هل كان في مقدرة مصر القيام بعمل عسكري لإنقاذ أهل الأندلس ؟

الواقع أن بعد المسافة ، وقصور إمكانات المماليك الجراكسة البحرية خاصة وأنهم أصحاب خيل وقوتهم برية أكثر من كونها بحرية كان السبب في التقاعس عن إنقاذ الأندلس ، وأن كل مافعله المماليك لايتعدى قيام مصر بظاهرة دولية تقوم على استغلال المؤثرات الدينية مما أدى إلى ترك الأندلس لمصيرها[٢٩] .

ثالثا : المغرب الأقصى :

توالت نداءات أهل الأندلس لملوك المغرب وحكامها يلتمسون نصرتهم ويطلبون منهم الغوث والنجدة ، غير أن الأوضاع الداخلية التي كانت عليها بلاد المغرب خلال هذه الفترة ، وانقسامها إلى دويلات عدة تحاول تمزيق بعضها بعضا وازدياد النفوذ الإسباني البرتغالي على السواحل المغربية ، كل ذلك جعل من الصعب القيام بإجراءات فعالة لنصرة أهل الأندلس[٣٠] وإنقاذهم من المأساة التي تعرضوا لها كما حدث في الماضي غير مرة[٣١] ، فسقطت غرناطة آخر مابقي من بلاد الأندلس للإسلام ، وطويت صفحة الحكم الإسلامي في شبه جزيرة أيبريا .

وبعد هذا العرض لمواقف القوى الإسلامية من الأندلس أثناء محنتها يطرح سؤال نفسه : لماذا لم تتآزر القوى الإسلامية وتتفق على خطة موحدة لمساندة أهل الأندلس وإنقاذهم من السقوط بعد أن داهم العدو ساحتهم وعد الصليب ذراعيه إليهم مع أن القرآن الكريم والسنة النبوية يحضان على ذلك فيقول تعالى "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص" ويقول الرسول الكريم" من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار" و "من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا" .

الواقع أن العلاقات بين القاهرة والآستانة خلال هذه الفترة كانت تسودها القطيعة والجفاء خاصة وأن العثمانيين كشفوا مرارا عن نيتهم في غزو مصر ، مما جعل حكام مصر يقفون منهم موقف الحذر المتأهب ، وينصرفون إلى الاستعداد للتقاتل بدلا من مساندة أهل الأندلس .

يضاف إلى ذلك ما كان بين العثمانيين والصفويين في إيران من صراع وصل مداه إلى حد أن يقوم الشاه اسماعيل الصفوي بطلب المساندة العسكرية من ملوك أوربا الذين حرصوا على توسيع شقة الخلاف بين الدولتين الإسلاميتين ، فتحالف البرتغاليون مع الدولة الصفوية ضد الدولة العثمانية كما دخل الشاه اسماعيل الأول في مراسلات مع الإمبراطور شارلكان للتحالف ضد العثمانيين ، يضاف إلى ذلك أن الصراع في المغرب الأقصى للوصول إلى الحكم والحروب الطاحنة بين الأسر المتنافسة قد حال دون تقديم المساعدات اللازمة لأهل الأندلس .

وهكذا يتضح أن السبب الرئيسي في التقاعس عن محنة الإسلام بالأندلس نتج عن فرقة المسلمين وتشرذمهم ، والعداء المستحكم بين حكامهم ، ونجاح حكام أوربا في توسيع شقة الخلاف بين هؤلاء الحكام لدرجة أن استعان بعضهم بالنصارى ضد إخوانهم في الدين .

وعلى أي حال فقد استوعب العثمانيون الدرس جيدا ، ورفضوا تكرار ما حدث للأندلس في أي منطقة إسلامية أخرى ، واستمرت عقدة الشعور بالذنب تلاحقهم حتى واتتهم الفرصة لاستعادة ثقة العالم الإسلامي بهم عندما طلب منهم أهل شمال أفريقية النجدة ضد البرتغاليين والإسبان ، فقام السلطان سليم الأول بحسم الموقف ، ومساندة المسلمين وتثبيت دعائم الإسلام هناك .

الهوامش

١- للتفاصيل أنظر ، محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين جـ٤ ، القاهرة ، مطبعة مصر ص ١٦٢ ومابعدها .

٢- عنان ، مصر الإسلامية وتاريخ المخطط المصرية ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م ص١٣٨ .

٣- عبد الجليل التميمي ، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني المجلة التاريخية المغربية، تونس ، العدد الثالث يناير ١٩٧٥ ص ٣٨ .

٤- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ القاهرة الأخبار المصرية ص٩٠٣ .

٥- شهاب الدين المقري التلمساني : أزهار الرياض في أخبار عياض - تحقيق مصطفى السقا وآخرين جـ١ ، القاهرة ، ١٩٣٩ ص ١٠٩-١١٥ .

٦- ستانلي لين بول : الدول الإسلامية ، القسم الأول - ترجمة محمد صبحي غرزات ص٦٥ .

٧- ذكر ستانلي لين بول أن السلطان العثماني ساق أسطولا لنجدة أهل الأندلس بقيادة رجل من حاشيته اسمه جمال ولكننا لم نجد في المصادر التاريخية ما يشير إلى هذا الأسطول أو إلى النجدة بنجدة قدمها السلطان لمسلمي الأندلس .

٨- لتفاصيل ذلك انظر الشناوي : المرجع السابق جـ٢ ص٨٩٦-٨٩٨ .

٩- محمود الشاذلي : المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية . القاهرة مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م ص٥٠-٥١ .

١٠- عن فحوى هذه الرسالة انظر : المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ٤ - تحقيق إحسان عباس - بيروت دار صادر ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص٣٢١-٣٢٦ .

١١- أكبر أبناء الناصر محمد بن قلاوون ، تولى الحكم أواخر عام ٧٤٢هـ .

١٢- نفح الطيب ص٣٢٦ .

١٣- انظر ، محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك وتراثه العلمي والأدبي جـ١ القاهرة ، مكتبة الآداب ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م ص٤٣ .

١٤- تذكر بعض المصادر والنصوص الأجنبية أن سلطان غرناطة في ذلك الوقت كان محمد بن يوسف الأيسر، ولكننا أخذنا برأي المقريزي .

١٥- تولى سلطنة مصر من عام ٨٤٢-٨٥٧هـ (١٤٣٨-١٤٥٣م) للتفاصيل انظر ، السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ٣ ص٧١-٧٤ وأيضا ابراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٠ ص١٤٦ .

١٦- لتفاصيل ذلك انظر د. عبد العزيز الأهواني : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري (سنة ٨٤٤) مقال منشور بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السادس عشر جـ١ مايو ١٩٥٤ ص٩٥ .

١٧- يقصد مخاطبة السلطان مراد بن محمد ، وكانت الصلة بينهما طيبة .

١٨- د. ابراهيم طرخان : المرجع السابق ص١٤٦ .

١٩- وثب إلى عرش مصر في عام ٨٧٢هـ ، وكان عهده بداية النزاع بين العثمانيين والمماليك .

٢٠- أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، الإسكندرية الطبعة الأولى ١٩٦٨ ص٤٦٨ .

٢١- محمد بن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ٢ ، القاهرة ، مطبعة بولاق ١٣١١هـ ص٢٤٦ .

٢٢- هو فرديناند الأول .

٢٣- هو الفونسو اثنوسان الثامن .

٢٤- ابن اياس ، المصدر السابق ص٢٤٦ .

٢٥- Prescott, William, H : History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, London. 1895, P. 278 .

٢٦- تكون هذا الوفد من راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس أنطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس في بيت المقدس ، وقد وصل هذا الوفد إلى إسبانيا في عام ٨٩٤هـ ١٤٨٩م أي قبيل سقوط غرناطة.

انظر ، عنان : نهاية الأندلس ص١٦٧-١٦٨ وايضا Prescott , Op. Cit, P. 278 .

٢٧- لم ينقذ السلطان المملوكي وعيده باتخاذ إجراءات عنيفة ضد النصارى لانشغاله عندئذ بصد غارات بايزيد الثاني على حدود مصر الشمالية ، واضطراب أحوال مصر خلال هذه الفترة .

٢٨- مؤلف مجهول : وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة - ترجمة محمد عبد الله الشرقاوي القاهرة ، دار الهداية ص١٢-١٣ .

٢٩- عنان ، مصر الإسلامية ص١٤٣ .

٣٠- الشناوي : مرجع سابق جـ٢ ص٩٠٤ .

٣١- Irving, W; Legends of the Conquest of Spain. P. 220-221 .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

- **ابن اياس :** محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ) . بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٢ ، القاهرة ، مطبعة بولاق ١٣١١هـ .

- **السخاوى :** أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ) . الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ٣ القاهرة ١٩٣٤م .

- **المقرى :** شهاب الدين أبو العباس التلمسانى (ت١٠٤١هـ) .

١- أزهار الرياض فى أخبار عياض ، نشر منه ثلاثة أجزاء مصطفى السقا وآخرين (القاهرة ١٩٣٩م) .

٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - القاهرة ، وتحقيق إحسان عباس بيروت ، دار صادر ١٣٨٨هـ .

- **مؤلف مجهول :** وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة - ترجمة محمد عبد الله الشرقاوى ، القاهرة ، دار الهداية .

ثانيا : المراجع العربية :

- **أبراهيم طرخان :** مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٠ .

- **أحمد مختار العبادى :** دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية مؤسسة شباب الجامعة ، د.ت .

- **ستانلى لين بول :** الدول الإسلامية - القسم الأول - ترجمة محمد صبرى فرزات - د.ت .

- **عبد العزيز الشناوى :** الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ، القاهرة الأنجلو المصرية ١٩٨٠ .

- **محمد عبد الله عنان :** ١- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة مطبعة دار الكتب ، ١٣٥٠هـ .

٢- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين جـ ٤ القاهرة ، مطبعة مصر .

- **محمود رزق سليم :** عصر سلاطين المماليك وتتاجه العلمى والأدبى جـ١ ، القاهرة مكتبة الآداب ١٣٦٦هـ .

- **محمود الشاذلى :** المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية القاهرة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .

- **مؤلف مجهول :** وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة - ترجمة محمد عبد الله الشرقاوى - القاهرة ، دار الهداية .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

1- Irving, W : Legends of the Conquest of Spain .

2- Presott, William, H : History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, London 1895 .

رابعا : الدوريات :

- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السادس عشر جـ١ ، مايو ١٩٥٤ .

- المجلة المغربية ، تونس ، العدد الثالث ، يناير ١٩٧٥ .

أ.د. رضوان البارودي(*)

عناصر المرتزقة فى الجيوش المغربية منذ القرن السادس حتى القرن الثامن للهجرة

دأبت الدول المختلفة التى تعاقبت على حكم بلاد المغرب منذ مطلع القرن السادس الهجرى (١٢م) على استخدام عناصر من المرتزقة المسيحيين للعمل كجنود فى صفوف جيوشها . ومن العجيب أن بعض هذه الدول قامت على أساس دعوة دينية إصلاحية ، واتخذت من الجهاد فى الأندلس هدفا أساسياً لقيامها ، مثل المرابطين والموحدين ، وكذلك بنى مرين ، الذين جعلوا من الجهاد هدفا مباشرا لقيام دولتهم برغم أنهم لم يستندوا إلى دعوة دينية إصلاحية كما فعلت الدول السابقة لهم[١١] . ولنا أن نتساءل عن الأسباب التى دفعت حكام المغرب إلى الاستعانة بهذه العناصر المسيحية وضمها إلى صفوف جيشها . ويعطينا ابن خلدون تبريرا لذلك فيقول أن طريقة قتال هذه العناصر المسيحية المرتزقة والتى تعتمد على أسلوب الثبات فى الزحف هى السبب الأساسى لاستخدامها ، لأن أسلوب القبائل البربرية التى كونت غالبية بنية الجيوش المغربية اعتمدت فى قتالها على أسلوب الكر والفر ، ويضيف ابن خلدون أن هؤلاء المرتزقة كانوا يستخدمون فقط فى الحروب المحلية ضد الثائرين والمخالفين سواء من العرب أو البربر ، أما فى الحروب ضد النصارى فلا

(*) كلية الآداب – جامعة الكويت .

يستعينون بهم حذارا من مخالفتهم على المسلمين[٢] . ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره ابن خلدون سبباً آخر هو عدم ثقة حكام دول المغرب فى بعض العناصر المحلية وخشيتهم للتعرض للاغتيال فى حال استخدام هذه العناصر المحلية كحرس خاص لهم[٣] . كذلك استخدم المرتزقة المسيحيين فى عملية جباية الضرائب . ويرى أحد الباحثين المحدثين أن النظام الإقطاعى العسكرى الذى ساد فى عصرى المرابطين والموحدين، ومن بعدهم فى الدول المغربية الاخرى (مثل دولة بنى مرين وبنى عبد الواد) قد أرهق الفلاحين بأنواع مختلفة من الضرائب والجبايات ذات الصبغة الإقطاعية والتى لا أصل لها فى الشرع[٤]. وهذه الضرائب والجبايات يصعب تحصيلها فى المناطق البعيدة والنائية – وخصوصا المناطق التى تجتازها القبائل الرحل – حيث تضعف السلطة المركزية . ولابد للدولة أن تبعث بجنودها لحماية عمال الجباية والمشاركة فى تحصيلها[٥].

أما عن بداية استخدام عناصر المرتزقة من النصارى فى الجيوش المغربية ، فقد اختلف المؤرخون فيما بينهم حول أول من استخدمهم . فابن الخطيب يذكر أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين هو أول من استخدمهم فى صفوف جيشه[٦] . أما ابن عذارى وصاحب الحلل الموشية فيؤكدان أن الأمير على بن يوسف بن تاشفين هو أول من استخدمهم من المرابطين ، وقد برز من هؤلاء النصارى على عهد المرابطين قائد قطلانى من أهل مدينة برشلونة Barcelona عرف فى المصادر العربية باسم الريرتير Reverter وكان هذا القائد من ضمن قواد ملك أراجون ولكنه وقع أسيراً فى يد أمير البحر المرابطى على بن ميمون ، فحمله إلى على بن يوسف بن تاشفين بمراكش ، فولاه قيادة المرتزقة فى جيوشه . وقد أبلى هذا القائد بلاءً حسنا فى الدفاع عن دولة المرابطين حتى أنه قتل فى إحدى المعارك ضد الموحدين عند مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط عام ٥٣٩هـ/١١٤٥م[٧] .

أما فى عصر الموحدين فقد استمرت عملية استخدام المرتزقة الأجانب فى صفوف جيوشهم ، إذ انضمت الفرقة النصرانية العاملة فى جيش المرابطين إلى الموحدين بعد أن سهلوا لعبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين دخول مدينة مراكش عاصمة المرابطين عام ٥٤١هـ/١١٤٦م[٨] . ولذلك لم يجد عبد المؤمن بن على حرجا فى ضمهم إلى صفوف جيشه ، وقد يبدو هذا الإجراء من جانب عبد المؤمن بن على غريبا ، حيث يذكر عبد الواحد المراكشى أن عبد المؤمن كان شديدا على أهل الذمة من اليهود والنصارى وأنه لم تنعقد فى عهده ذمة ليهودى ولا نصرانى ولا يوجد فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة[٩]. ولكن يبدو أن الحاجة إلى جهود

هؤلاء المرتزقة كانت شديدة ، لذلك غض الموحدون الطرف عن مسألة تشددهم المزعوم مع النصارى واليهود . ودليلنا على ذلك ما تذكره المصادر من أن هؤلاء المرتزقة شاركوا فى العديد من العمليات العسكرية التى قامت بها الجيوش الموحدية ضد الثائرين فى بلاد المغرب، فعندما ثار محمد بن عبد الله بن هود الماسى (نسبة إلى رباط ماسه على ساحل المحيط الأطلسى) فى عهد عبد المؤمن بن على ، لم يتردد هذا الأخير فى إرسال جيوشه لإخماد هذه الثورة ، وكانت فرقة الروم أو الجند النصارى ضمن الفرق المكونة لهذا الجيش[١٠]. كذلك يشير ابن صاحب الصلاة إلى أن الروم كانوا من ضمن العناصر التى خرجت رفقة الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨– ٥٨٠هـ) لاستقبال العرب الوافدين إلى مراكش فى ربيع الآخر عام ٥٦٩هـ/ يناير ١١٧٣م[١١]. ومن أشهر قواد المرتزقة النصارى فى جيوش الموحدين شخصية القائد البرتغالى جيرالدو سمپاڤور Giraldo Sampavor (والمعروف فى المصادر العربية باسم جرائدة الجليقى) ، هذا الفارس انضم مع جماعة من الفرسان النصارى لخدمة الموحدين بعد أن استسلم لهم عام (٥٦٩هـ/١١٧٣م) ، وقد قام الخليفة أبو يعقوب بنقله هو وجنوده من الأندلس إلى المغرب حيث أرسله إلى السوس الأقصى وولاه قيادة المرتزقة العاملين فى الجيش الموحدى فى تلك المنطقة . بيد أن نهاية هذا القائد البرتغالى كانت مأساوية، حيث قتل على يد عامل درعة موسى بن عبد الصمد وبتحريض من الخليفة نفسه . ويذكر البيذق أن سبب اغتيال هذا القائد هو اتصاله بابن الرنك (ألفونسو هنريكث ملك البرتغال) وخيانته للموحدين[١٢] .

أما الخليفة أبو يوسف يعقوب المعروف بالمنصور فكان حرسه الخاص من هؤلاء المرتزقة ، وكانوا من الرماة وأسكنهم أحد القصور التى شيدها وكانوا يحيون أمامه أينما تنقل من مكان لآخر[١٣]. ونلاحظ أن هؤلاء المرتزقة سواء الذين عملوا فى خدمة المرابطين أو الموحدين لم يكن لهم أى دور فى توجيه الأحداث الداخلية ، ولم يتعد دورهم أكثر مما رسمه لهم حكام المغرب ، فهم حرس خاص أو جباة ضرائب أو يشاركون فى إخماد بعض الثورات الداخلية . ولم يكن لهم فى المقابل أية حقوق – باستثناء رواتبهم – فلم يكن لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ولاتوجد لهم كنائس خاصة بهم أو حتى أساقفة منهم ، بيد أنه منذ خلافة المأمون الموحدى (٦٢٤–٦٣٠هـ/١٢٢٧–١٢٣٣م) أخذت هذه العناصر من المرتزقة تلعب دوراً بارزاً فى أحداث بلاد المغرب . فقد استعان بهم هذا الخليفة لدخول مراكش عندما ثارت ضده وبايعت لأخيه يحيى الناصر بالخلافة ، وقد أرسل المأمون إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث يطلب

مساعدته بفرقه من الفرسان القشتاليين ، وبالفعل استجاب فرناندو لهذا الطلب وسير جماعة من هؤلاء الفرسان بلغ عددهم اثنى عشر ألف فارس[١١٤] . ولكن ملك قشتالة اشترط عدة شروط على المأمون نظير موافقته على مسير هؤلاء المرتزقة القشتاليين لمساعدة المأمون الموحدى، ومن هذه الشروط :

أن يقدم الخليفة الموحدى عشرة حصون يختارها الملك القشتالى بنفسه ، وأن يسمح لهؤلاء النصارى ببناء كنيسة لهم فى وسط مراكش يؤدون فيها شعائرهم الدينية بحرية كاملة ، وإذا اعتنق أحد هؤلاء المرتزقة الإسلام فلا يقبل منه ويرد إلى إخوانه . وقد قبل المأمون كل هذه الشروط[١١٥] .

هذا وقد استنكر نفر من المؤرخين القدماء والمحدثين هذا التصرف من قبل المأمون ، فصاحب كتاب ذكر مشاهير اعيان فاس ينتقد الموحدين بقوله : "ومن قبح فعلهم التجييش بالنصارى وسكناهم مراكش وإقامة دينهم بين ظهور المسلمين وعلم تصرفهم فيهم ، بل جعل أمرهم لرهبانهم يجهزون بهم لحرب المسلمين بالمغرب"[١١٦] . أما المؤرخ التونسى محمد المطوى فقد برر تصرف المأمون السالف بأنه كان مدفوعا برغبته فى التنصر والارتداد عن الإسلام ، لأن المأمون من جهة نظر المطوى – كان متأثراً بنزعة صليبية حيث ارتقى العرش على أسنة رماح المرتزقة. ثم أن أم المأمون أم ولد نصرانية رومية[١١٧] . والواقع أن كلا المؤرخين قد أخطأ فيما ذهب إليه، لأن ما فعله المأمون الموحدى ليس بدعة أو سنة جديدة . فقد سبقت الإشارة إلى استعانة المرابطين وخلفاء الموحدين الأخرين بعناصر المرتزقة فى جيوشهم . أما القول بالتأثر بالنزعة المسيحية والرغبة فى التنصر فهو قول بعيد تماما عن الصحة . هذا ، ويعلق بيير دى سينفال على هذه الحادثة قائلاً أن المأمون لم يكن يفكر فى اعتناق المسيحية[١١٨] .

وكيفما كان الأمر ، فقد صار لعناصر المرتزقة المسيحيين فى أواخر عهد الدولة الموحدية دخل كبير فى أحداثها . وقد هاجم الأمير الموحدى يحيى بن الناصر مدينة مراكش مستغلا فرصة انشغال عمه المأمون بحصار سبته عام ٦٢٩هـ/١٢٣٢م ، وقام بحرق كنيسة نوتردام التى خصصها المأمون لجنده النصارى ، كما قام بقتل عدد كبير من هؤلاء الجند ، ويبدو أن الأمير يحيى كان يريد أن يكسب عامة أهل مراكش إلى جانبه ، لأن هؤلاء لم يستسيغوا وجود عناصر من المرتزقة بين ظهرانيهم ، كما أن السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية قد مست مشاعر هؤلاء العامة . وقد حاول المرتزقة من جانبهم الدفاع عن أنفسهم ، وكاد الموقف ينفجر بين الطرفين لولا أن الخليفة الموحدى الجديد الرشيد بن المأمون عمل على تهدئة الأمور

داخل مراكش ، فقد أصدر عفوا عن أهل مراكش ، وفى نفس الوقت دفع مبلغا كبيرا من المال لقائد المرتزقة القشتاليين المسمى فرنسيل حتى لا يتعرض لأهل مراكش بسوء[١١٩] . وبرغم ذلك فقد استمر الموحدون يستخدمون هذه العناصر لمساندتهم فى القضاء على الثائرين ، فاستعان الرشيد الموحدى بهم فى التخلص من أحد زعماء القبائل العربية بالمغرب وهو مسعود بن حميد زعيم قبائل الخلط حينما رفض هذا الأخير الاعتراف ببيعة الخليفة الرشيد[١٢٠] أما المرتضى الموحدى فقد استكثر من هؤلاء المرتزقة بصورة واضحة ، حيث أرسل إلى الأندلس عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م يطلب اعداداً كبيرة منهم ليركبوا معه ويكونوا أعوانا ، فوصلوا إليه فى هذه السنة[١٢١] . ولكن برغم ازدياد الحاجة إلى هذه العناصر المسيحية من المرتزقة ، إلا أن الأمر لم يسلم من تعرضهم لأعمال عنف من قبل الحكام الذين كانوا يشكون فى إخلاصهم فى كثير من الأحيان . وقد يبدو ذلك منطقيا ، لأن هذه العناصر إنما تدين بولائها لمن يدفع لها ، ولذلك نسمع عن حدوث تنكيل بهؤلاء المرتزقة المسيحيين . فدبر الخليفة الموحدى المرتضى مؤامرة لاغتيال قائد النصرانية فى جيشه المسمى دى اللب Del Lobo مع من معه من هؤلاء المرتزقة[١٢٢] ، كذلك قام هذا الخليفة بإلقاء القبض على قائد الجند النصارى فى مراكش المسمى جارثيا طاليس Garcia Tales لأنه خشى أن يفر هذا الأخير إلى أعدائه[١٢٣] .

المرتزقة الاجانب وجيوش الدول المغربية عقب انهيار دولة الموحدين :

حدث عقب انهيار دولة الموحدين أن تفتت وحدة بلاد المغرب التى كانت قائمة فى عصرى المرابطين والموحدين ، وتولى حكمها ثلاث دول هى : المرينيون فى منطقة المغرب الأقصى وعاصمتهم فاس ، والزيانيون فى المغرب الأوسط وعاصمتهم تلمسان ، والحفصيون وعاصمتهم تونس . هذه الدول الثلاث لم تشذ كثيراً فى نظمها عما كان سائداً عند الموحدين . ولذلك استمر استخدام عناصر المرتزقة الاجانب فى صفوف جيوشها لنفس الأغراض السابقة ، ففى عهد المرينيين كان استخدامهم منذ فترة مبكرة فى تاريخهم ، إذ يذكر ابن خلدون أن الأمير أبا بكر بن عبد الحق المرينى هو أول من استخدمهم عندما أوقع بفلول الجيش الموحدى المنسحب من أمام تلمسان عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، وضم إليهم عدة فرق من هذا الجيش ومن ضمنهم هؤلاء المرتزقة أو الروم كما يسميهم ابن خلدون[١٢٤] .

كذلك شاركت عناصر المرتزقة المسيحيين فى الاحداث الداخلية لدولة بنى مرين ، فكانوا إحدى الفرق التى خرجت مع السلطان أبى يوسف يعقوب لغزو تلمسان عام ٦٧٧هـ/١٢٧٦م .

كما انضموا إلى جانب الأمير المريني أبي علي بن ابي سعيد عثمان في ثورته ضد والده[٢٥].
وفي أثناء ثورة الوزير رحو بن يعقوب الوطاسي ضد السلطان ابن الربيع سليمان عام ٧١٠هـ/ ١٣١٠م انضم هؤلاء المرتزقة وزعيمهم عنصاله (جونثالو Gonzalo) إلى جانب الوزير المريني في ثورته[٢٦].

وقد ازداد تدخل هذه العناصر في أمور الدولة المرينية خاصة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ١٤م، حيث بدأت علامات الضعف تظهر على حكم المرينيين، وانشغل السلاطين والأمراء بالصراع ضد بعضهم البعض في سبيل الحكم والسلطة. ولعل مأساة السلطان أبي الحسن المريني مع ابنه السلطان أبي عنان فارس لخير دليل على ماتقول. ولهذا كثر اعتماد المرينيين على هذه العناصر المرتزقة لمؤزراتها في صراعها ضد الطامعين في العرش. ويحدثنا ابن الخطيب في كتابة نفاضة الجراب عن احداث تلك الفترة المضطربة في تاريخ الدولة المرينية عقب وفاة السلطان أبي عنان فارس، وكيف تنازع القواد فيما بينهم لتولية أمير بعينه على العرش. ويشير إلى دور الفرقة النصرانية في أحداث هذا الصراع، حيث انضموا إلى جانب أحد المرشحين ودار قتال عنيف بين انصار كل مرشح ولم ينته الأمر إلا بظهور السلطان ابن سالم إبراهيم على مسرح الأحداث[٢٧]. وفي أواخر أيام هذا السلطان تآمر أحد وزرائه ويدعى عمر بن عبد الله بن علي بن سعيد اليابانى (نسبة إلى بني يابان أحد فروع بني مرين) مع قائد المرتزقة النصاري غرسيه بن أنطول على الفتك بالسلطان أبي سالم ومبايعة الأمير المريني أبي عمر تاشفين بن السلطان ابي الحسن علي، وتمكن أحد الجند النصارى من اغتيال السلطان ابن سالم[٢٨]. ولكن مصير قائد المرتزقة غرسية لم يكن بأفضل من مصير سلطانه حيث لقي هو الآخر مصرعه على يد السلطان الجديد ابن عمر تاشفين المعروف بالموسوس، فضلا عن قتل عدد كبير من المرتزقة المسيحيين حينما فروا إلى معسكرهم بحي الملاح في فاس، وقد رد المرتزقة على تلك المذبحة التي تعرض لها إخوانهم باغتيال عدد كبير من أهل فاس كانوا بالملاح يشربون الخمر، ولم تهدأ الأمور إلا بعد تدخل الجيش المريني لإنهاء هذه الفتنة[٢٩].

وهناك حادثة أخرى وقعت في هذه الفترة توضح مدى نفوذ هؤلاء المرتزقة النصاري وتدخلهم في الشئون الداخلية للمدنيين، فقد حاول أحد الأمراء المرينيين وهو الأمير عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد عثمان الظفر بالعرش المريني، ولكن الوزير عمر بن عبد الله عمل من جانبه على مواجهة هذا الخطر، ولم يجد من يستعين به إلا المرتزقة النصاري، حيث عمل على كسب رضاهم وأخذ عليهم المواثيق والعهود بمناصرته، ومن العجيب أن مفاوضات هذا الوزير

مع أولئك المرتزقة تمت في كنيستهم على يد ترجمانه وقسيسهم كما يذكر ابن الخطيب[٣٠].
وقد تمكن الوزير عمر من الانتصار على الأمير عبد الحليم بفضل مساعدة هؤلاء المرتزقة النصارى.

ومن الأعمال الأخرى التي انيط بالمرتزقة القيام بها عملية الاغتيالات السياسية، فقد عهد السلطان أبو الربيع سليمان إلى قائد الجند النصاري (غصالد) قتل الوزير وصاحب العلامة عبد الله بن أبي مدين نتيجة لوشاية الحاجب أبي خزر اليهودي[٣١]. كما أوعز الأمير المريني أبو الفضل بن السلطان ابن سالم ابراهيم لقائد الجند النصاري باغتيال منافسه على العرش الأمير عبد المؤمن بن علي بن أبي سعيد عثمان، فقتله وجاء برأسه إليه[٣٢].

وبالإضافة إلى أعمال الاغتيالات السياسية، كلف السلاطين من بني مرين بعض هؤلاء القادة المرتزقة بالقيام بأعمال السفارة لدى ملوك إسبانيا المسيحية. فالسلطان المريني أبو يعقوب يوسف أرسل قائد المرتزقة النصاري في جيشه المسمى برناط سجين سفيرا إلى ملك أراجون جايمي الثاني Jaime II. كذلك عمل هذا القائد سفيرا للسلطان أبي ثابت عامر لدى الملك الأراجوني لطلب لمساعدة في حروب المرينيين ضد غرناطة حينما استولى السلطان الغرناطي محمد الثالث على مدينة سبتة[٣٣] عام (٧٠٥/٥-١٣٠٥م). أما الفارس القشتالي جارثيا مارتينيز دي جابجوس Gercia Martinez de Callegos فكان أحد أعضاء الوفد المريني الذي ذهب للتفاوض مع قائد الأسطول القشتالي دون بدرو ابن الملك القشتالي الفونسو العاشر أثناء حصار الجزيرة الخضراء عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م[٣٤].

والملاحظ أن هؤلاء المرتزقة المسيحيين العاملين في صفوف الجيش المريني قد عوملوا معاملة طيبة من قبل الحكام المرينيين بصفة عامة. فقد كان لهم رئيس يسمى "أمين النصارى"، ولهم قساوستهم الذين يشرفون على شئونهم الدينية، فضلا عن كنيستهم الخاصة بهم. كما أقاموا في مكان خاص بهم في مدينة فاس الجديدة وهو حي الملاح، وهو حي اليهود أيضا. كذلك كان لهؤلاء المرتزقة النصاري مطلق الحرية في تناول الخمر في حيهم هذا. ويذكر ابن مرزوق أن السلطان أبا الحسن علي المريني برغم ماعرف عنه من تشدد في الأمور الدينية[٣٥]، إلا أنه لم يتمكن من منعهم من شرب الخمر، وكل مافعله هو أنه اشترط عليهم ألا يجاهروا بشربه ومن ضبط منهم وهو ثمل أو ثبت عليه أنه باع الخمر لمسلم عوقب بشدة حتى يصبح عبرة للمعتبر[٣٦]. ويبرر ابن مرزوق هذا التساهل من قبل أبي الحسن مع النصارى بشدة الحاجة إليهم وانتفاع المسلمين بهم.

أما دولة بنى زيان وهى إحدى الدول المغربية فقد قامت على أنقاض دولة الموحدين فى منطقة المغرب الأوسط واتخذت من مدينة تلمسان عاصمة لها ، ومؤسس هذه الدولة هو الأمير أبو يحيى بغمراسن (ومعناها بالزناتية رئيس القوم) الذى أعلن فى عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م استقلاله عن سلطة الموحدين وإن كان ظل يدعو لهم تارة وللحفصيين أصحاب تونس تارة أخرى[٣٧] . وقد استعان الزيانيون بفرق من المرتزقة المسيحيين فى جيوشهم لنفس الأسباب التى دعت المرينيين ومن قبلهم الموحدين والمرابطين إلى استخدام هذه العناصر . وكانت مملكة اراجون بالذات هى المصدر الرئيسى الذى أمد الزيانيين بحاجتهم من هؤلاء النصارى المرتزقة . ويتضح ذلك من خلال المراسلات المتبادلة بين الزيانيين وملوك أراجون . فقد بعث السلطان بغمراسن بن زيان سفارة إلى خايمى الأول ملك أراجون فى ٢٩ ربيع الأول عام ٧٤٨هـ/ ٣٠ يونيو ١٢٤٥م يطلب منه عدة مطالب من ضمنها فرقة من المرتزقة القطلانيين للعمل فى الجيوش الزيانية[٣٨] . وتشير المصادر الأراجونية إلى سفارة أخرى أرسلها خايمى الثانى ملك أراجون عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م إلى أبى سعيد عثمان سلطان بن زيان لمناقشة بعض الأمور بين الدولتين ومن ضمنها ما يتعلق بالمرتزقة القطلان العاملين فى خدمة الزيانيين ، حيث أبدى الملك الأراجونى استعداده لإرسال المؤن والبضائع اللازمة لأفراد هذه الفرقة ، كما طلب تعيين أحد القواد ويدعى روديجوسا تشيزدى بيرجاس قائدا للمرتزقة النصارى فى تلمسان[٣٩] . ومن الملاحظ أن المصادر العربية تنفى أن يكون المرتزقة قد عملوا فى خدمة الزيانين حتى ذلك الوقت ، إذ يشير أبو زكريا يحيى بن خلدون ان السلطان بغمراسن بن زيان قد أطاح بهم عقب اكتشافه لمؤامرة دبرها هؤلاء المرتزقة لاغتياله وذلك عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م . ويضيف ابن خلدون أنه منذ ذلك الوقت لم يستخدم بنو عبد الواد هؤلاء المرتزقة فى جيوشهم[٤٠] . بيد أن الوثائق الأراجونية وكذلك العربية المحفوظة فى أرشيف تاج أراجون تثبت – بما لايدع مجالا للشك – استمرار بنى زيان فى الاستعانة بهؤلاء المرتزقة المسيحيين ، بحيث أصبح موضوع الفرقة العسكرية القطلانية العامة فى صفوف الجيوش الزيانية من الموضوعات الرئيسية فى كل المراسلات المتبادلة بين سلاطين بنى زيان وملوك أراجون . فعلى سبيل المثال ورد فى رسالة بعث بها خايمى الثانى ملك أراجون إلى أبى تاشفين عبد الرحمن ، سلطان بنى زيان عام ٧١٩هـ/١٣١٩م ، إشارة إلى موافقة الملك الأراجونى على بقاء المرتزقة القطلان فى تلمسان كنوع من التعاون بين الدولتين . وفى رسالة أخرى مؤرخة بتاريخ ١٥ مارس ١٣٢٥م/٢٨ ربيع الأول ٧٢٥هـ ومرسلة من ملك أراجون إلى أبى تاشفين إشارة إلى طلب الملك الأراجونى أن

يكون له وحده حق تعيين قائد الفرقة العسكرية الأراجونية العاملة فى تلمسان ، بل واقترح أن يكون ابنه خايمى الأراجونى قائدا لهذه الفرقة . ومن المثير للدهشة أن السلطان الزيانى فى رده على هذه الرسالة قد وافق على هذا الطلب[٤١] . هذا ولم يقتصر استخدام الزيانيين للمرتزقة المسيحيين على المشاة أو الفرسان فقط ، بل تعداه إلى استخدام البحارة القطلان لمساعدتهم فى مواجهة هجمات جيرانهم الحفصيين أو لشن هجمات على الموانىء الحفصية . كذلك عمل بعض قادة المرتزقة القطلان كسفراء لسلاطين بنى زيان لدى ملوك إسبانيا ، فتسمع عن القائد قيليب دى مويا Felip de Mova وخايمى بشربيخس ، وكذلك القائد خايمى الأراجونى (وهو ابن غير شرعى للملك خايمى الثانى ملك أراجون) هؤلاء عملوا كسفراء من قبل سلاطين بنى زيان إلى ملوك أراجون .

أما فى عهد الدولة الحفصية ، فمن المعروف أن الحفصيين فرع من الموحدين ، ينتسبون إلى أبى حفص يحيى بن عمر الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاته إحدى بطون قبيلة مصمودة ، والشيخ أبو حفص كان من كبار رجال المهدى بن تومرت ، وترجع صلة الحفصيين بتونس إلى أيام الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص صهر الخليفة الموحدي المنصور ، حيث ولى إفريقية فى خلافة الناصر محمد الموحدى عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م . ولما انهارت دولة الموحدين ورث الحفصيون الموحدين فى حكم إفريقية . وقد استخدم الحفصيون – شأنهم شأن بقية حكام المغرب – الجنود المسيحيين المرتزقة للعمل فى صفوف جيوشهم وخاصة كحرس لهم . وتشير المصادر إلى أن استخدام هؤلاء المرتزقة المسيحيين يرجع إلى بداية عهد الدولة . وقد خصص السلطان الحفصى أبو زكريا يحيى بن المستنصر واللقب بالواثق لهؤلاء المرتزقة ربضا خارج النطاق الشرقى من مدينة تونس ، وسمى بربض النصارى[٤٢] . وكان الغرض منه أن يمارس هؤلاء الجند شعائرهم الدينية بحرية تامة بعيدا عن أعين المسلمين . كما سمح لهم ببناء كنيسة فى ربضهم تحمل اسم القديس فرانسوا يقام بها القداس ، وسمح لهم بدق الأجراس[٤٣] . وكما تعرض الموحدون لانتقاد الشامى لهم بسبب استخدام المسيحيين فى جيوشهم ، لم يسلم الحفصيون من ذلك النقد ، فقد ذكر الآبى فى كتابه "الأكمال" أن السلطان الحفصى زكريا بن أحمد اللحيانى كان صارما من باب السويقة – أحد أبواب مدينة تونس – ويحيط به حرسه من المسيحيين ، فتصدى له الشيخ القروى أحد زهاد إفريقية فى ذلك الوقت ، وكان صديقا للسلطان فى نفس الوقت ، فقال له : بافقيه لايجوز ذلك ، فتوقف السلطان ، واستفسر حول

هذا النداء ، فأجابه الشيخ القروى مستشهداً بإحدى قواعد الفقه المالكى وهى أن الله حرم الاستعانة بمشرك . ولم يزد السلطان فى رده على الشيخ القروى أكثر من قوله : أجل ، ثم انصرف[٤٤] . ونلاحظ أن هذا الاعتراض على استخدام المرتزقة المسيحيين إنما صدر من أحد المتشددين فى الدين ، ولذلك لم يعبء السلطان به ، وظل استخدام المسيحيين فى الجيش الحفصى قائما حتى نهاية عصر الدولة الحفصية .

الهوامش

١- احمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، ص٦-٢ .

٢- ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٧٤ ، كما أشار لسان الدين بن الخطيب إلى مسألة ثبات الفرنج فى القتال بقوله "والإحجام عندهم والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع" . الإحاطة فى أخبار غرناطة ، جـ٣ ، ص٤٣-٤٤ .

٣- الواقع أن عملية استخدام عناصر معينة كحرس خاص للحكام المسلمين فى بلاد المغرب والاندلس ، بدأت منذ فترة بعيدة ، حيث استخدم الامير الأموى الحكم بن هشام المعروف بالربضى (١٨٠/٢٠٦هـ-٧٩٦-٨٢٢م) حرسا خاصا من الصقالبة واستمر استخدامهم فى العهود والمتعاقبة ، كذلك تستخدم الفاطميون الصقالبة كحرس خاص أيضا وكقادة للجند ولكن الفرق بين الصقالبة والعناصر المرتزقة - موضوع البحث - أن الصقالبة مماليك اشتروا وربوا تربية عسكرية إسلامية ودربوا على أعمال القصر والحرس والجيش ، فهم يرتبطون ارتباطا وثيقا بسيدهم . أما هؤلاء المرتزقة فهؤلاء يعملون بتظير أجر معلوم ويمكن الاستغناء عنهم فى أى وقت . راجع : مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص٤٠٨-٤٠٩ .

٤- محمود اسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، جـ٣ ، ، ص٣٣ ، ص٧٦.

٥- عبد الله الزيرى : مذكرات الأمير عبد الله أو كتاب التبيان ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٩٥م، ص٢١٣-٢١٤-هوبكنز : النظم الإسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى ، ترجمة أمين الطيبى ، ص ١١١ .

٦- مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه ، ص٨٤-: ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق إحسان عباس ، القسم الخاص بالمرابطين ، بيروت ، ١٩٨٠ - ص١٠٢-١٠٣ .

٧- ابن القطان : نظم الجمان فى أخبار الزمان ، نشر محمود على مكى ، الرباط ، ١٩٦٤ ، ص٩٦ ، البيدق: أخبار المهدى بن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، ١٩٧٤م ، ص٨٦-٩٦ .

٨- ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين ، تحقيق د. عبد الهادى التازى ، بيروت ، ص٧٨ ، انظر كذلك : R. Dozy : Recherches Sur L'histoire et la litterature de l'Espagne, Amesterdam. 1965. Tom. 2. pp. 427-442 .

٩- عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة : ١٩٦٣م ، ص٣٨٣ .

١٠- مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص١٤٦ .

١١- ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة تحقيق عبد الهادي التازي ، ص٤٣١ .

١٢- البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص١٦٧-١٦٨ .

١٣- ليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، الرياض ، ص١٤٤ .

١٤- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، أربسالا ، ص١٦٧ ، السلاوي : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، جـ٢ ، ص٢٣٧ .

١٥- ابن أبي زرع : نفس المصدر السابق والصفحة .

١٦- مؤلف مجهول : ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم ، تحقيق عبد القادر زمامه ، مجلة البحث العلمي، الرباط ، العدد ٢ عام ١٩٦٥ ، ص٥٣ ، محمد بن مبارك المنلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، الجزائر ، ص٦٦٤ .

١٧- محمد العروسي المطوي : السلطنة الحفصية ، منشورات دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٦ ، ص١٢٤ - ١٢٥ .

١٨- Pierre de Cenival: L'eglise Chretienne de Marrakech au XIII Siecle, R. Hesperis. Tome VII, Annee, 1927, Ier Trimestre. P. 75.

١٩- السلوي : الاستقصاء ، جـ٢ ، ص٢٤٢ .

٢٠- راجع التفصيلات في : ابن عذارى ، البيان المغرب ، قسم المرحدين ، ص٣١٩-٣٢٠ .

٢١- المصدر السابق ، ص٣٩٩ .

٢٢- ابن خلدون : العبر ، جـ٧ ، ص٢٤٤ .

٢٣- ابن عذارى : المصدر السابق ، ص٤٣٦ ، ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص٢٦١ .

٢٤- ابن خلدون : جـ٧ ، ص١٧٣ - السلاوي : الاستقصا جـ٤ ، ص١٣ .

٢٥- نفس المصدر ص٢٤٤ .

٢٦- Gaminz Soler; op. cit., P. 262- y Nota 2 .

٢٧- راجع التفاصيل في : ابن الخطيب : مفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، تحقيق أحمد مختار العبادي، القاهرة : ١٩٦٧ ، ص٢٥ ، ص٢٣ .

٢٨- نفس المصدر السابق ، ص٢٧١-٢٦٧ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٧ ، ص٣١٣ .

٢٩- ابن الخطيب : المصدر السابق ص٢٥٦ ، السلاوي : الاستقصا ، جـ٤ ، ص٤٢ .

٣٠- نفس المصدر ، ص٦-٣ .

٣١- ابن خلدون : العبر جـ٧ ، ص٢٣٩ ، مجهول ، ذكر مشاهير أعيان فاس ، ص٩٧ .

٣٢- ابن خلدون : العبر جـ٧ ، ص٢٢٤ .

٣٣- Gaminez Soler' La Corona de Aragon, P. 120 .

٣٤- Lopez de Ayala : Cronica de los Reyes de Espana, p. 56 .

٣٥- يشير العنبري إلى أن السلطان أبا الحسن المريني كان يعاقب من يتأخر عن الصلاة من الجند ، وإذا كان في السفر وأذن المؤذن للصلاة نزل هو وجنده وتقام الصلاة جماعة ، العنبري : مسالك الأبصار ، ص١٠٣ .

٣٦- ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا السلطان الحسن ، تحقيق ماريا خيسوس بيجرا ، الجزائر ، ١٩٨١ ، ص٢٨٢ ، هنا ونشير هنا إلى أن التجار المسيحيين أيضا سمح لهم بتناول الخمور في المدن الإسلامية التي ينزلون فيها للتجارة ولكن داخل فنادقهم المخصصة لهم حتى يتيسر لهؤلاء التجار لربما من ألوان الحياة الاجتماعية يتفق مع ما ألفوه في بلادهم ، راجع : سعيد عاشور ، دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت : ١٩٨٦ ، ص٣٠١-٣٠٠ .

٣٧- ابن خلدون : العبر ، جـ٧ ، ص٨٠-٨١ ، H. Terrasse : Histoire du Maroc. New York, 1973, Tom I, p. 355 .

٣٨- Mirct Y Sans : Un Missatage de Yarmsen de Tremcen a Jaume I., Boletinde La Real Academia de Buenas Leturas de Barcelona, Tom IX, 1915, pp. 95 - Du Forcq L'Espagne Catalane et le Maghrib aux XIII e et XIV Siecles. Paris. 1966, p. 147 .

٣٩- Dufourcq (Ch) Les Espanoles et le royaume de Tlemcen aux XII et XIV siecles, Bulletin de la Real Academia de Buenas Leturas, Barcelona. 1948. Tom XXI, P. 59.

٤٠- يحيى بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، نشر الفوديل - الجزائر ، ١٩٠٣ ، ص١٤ - ١١٥ .

٤١- راجع :

Capmany y de Nuripatau : Memorias historicas Sobre la marina Comercio y arts de la antigua ciudad de Barcelona. Madrid, 1779 - 1792. vol, 4, pp. 67 - 69 - De Mas Latrie : Traites de Paix et de Commerce divers Concernant Les relations de Chretines avec les Arabs de L'Afrique Septentrionale au moyen age, Paris. 1860. Tom, I. P. 312 .

٤٢- ليون الافريقى : وصف افريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميد ، الرياض ، ١٣٩٩ هـ ، ص٤٦٦ - ص٤٦٧ - ابن أبى دينار ، المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، تونس ، ١٣٥٠هـ ، ص١٤٥- ١٥٠ .

٤٣- برنشفيك : تاريخ افريقية فى العهد الحفصى ، ترجمة وتعليق حمادى الساحلى ، بيروت ، ١٩٨٨م ، جـ١ ، ص٤٧٨ .

٤٤- الآبى : الأكمال ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٧ - ١٣٢٨هـ ، جـ٤ ، ص٣٥٥ .

أ. د. سعد زغلول عبد الحميد(*)

محمد بن تومرت
ورحلته العلمية فى المغرب والأندلس والمشرق
٥٠٠-٥١٤ هـ/١١٠٦-١١٢٠م

تمهيد :

أدب الرحلة واحد من فروع الأدب الجغرافى الذى عرفته المكتبة العربية فى أول الأمر فى شكل كتب الأسفار أو كتب "المسالك والممالك" . وأول نماذجه المشرقية هو كتاب ابن خرداذبة الذى ألف فى أواخر القرن الثالث الهجرى/٩م ، بينما يعتبر كتاب البكرى أول نماذجه المغربية، والذى ألف فى أواخر القرن الخامس الهجرى/١١م بالأندلس .

ويرجع الفضل فى تطور كتب أخبار السفر والمسالك والبلدان إلى تطور علم الجغرافيا العامة على أيدى كتابها من الأدباء والعلماء، مثل : المسعودى والبيرونى فى القرنين الرابع (١٠م) والخامس (١١م) للهجرة - الذين عملوا على تعميم كتبهم ونشر ثقافتهم بين جمهور كان يرقى ثقافياً وحضارياً مع رقى المجتمع الإسلامى جدّياً وتحضره .

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

وابتداء من القرن السادس الهجرى / ١٢م ظهر التوقف العلمى عند العرب والمسلمين فى النشاط الجغرافى فى عدم ظهور جديد عند الجغرافيين الناشئين ، حتى كاد ينقصر الأمر على النقل ، مع محاولة جمع شتات المعلومات الجغرافية المتنوعة وتصنيفها بحيث تصبح سهلة التناول ، كما هو الحال بالنسبة لمعاجم البكرى (معجم ما استعجم) وياقوت والقزوينى . الأمر الذى انتهى بشكل واضح فى الموسوعات الثقافية العامة التى يمكن أن تشبه بدوائر المعارف ، والتى تصد بها خدمة كتاب الدواوين ، وخاصة فى مصر على عهد المماليك ، مثل : نهاية الأرب للنويرى (ت٧٤٣هـ/١٣٣٢م) ، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م) ، وعلى رأسها كتاب "صبح الأعشى فى صناعة الإنشا" للقلقشندى (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) [١].

وإذا كانت الأنواع المشار إليها من الكتابات الجغرافية العربية هى مشرقية أصلاً ، فإن الرحلة بمعناها العلمى هى مغربية أصلاً ، إذ كان ظهورها فى أواخر القرن الـ ٦ هـ/١٢م على يدى ابن جبير[٢] ، الذى يعتبر أول من فكر فى تسجيل أحاسيسه إلى جانب مشاهداته على طول الرحلة فى مذكرات يومية ، مع الاهتمام بالحياة الثقافية . وعلى غطه هذا سار تابعوه من المغاربة ، من : العبدرى (رحلة سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م) والبلوى (٧٣٦هـ/١٣٣٦م) وابن بطوطة (٧٢٥هـ/١٣٢٥م) وانتهاء بالعياشى (ق١١هـ/١٧م) .

وإذا كان الفضل فى نشأة الرحلة الحجازية ذات الطابع العلمى يرجع إلى ابن جبير ، وتابعيه من الرحالة المغاربة ، فإنه تحسن الإشارة هنا إلى أن ابن جبير يظهر فى كثير من مواقفه فى الرحلة وكأنه داعية للدولة الموحدية التى نشأ فى كنفها فى الأندلس ، والتى كان يرجو أن تمتد لتشمل المشرق من مصر إلى الحجاز[٣] ، الأمر الذى يذكر باين حوقل بالنسبة للدولة الفاطمية التى قام برحلته المغربية على أيامها سنة ٣٦٠هـ/٩٧٧م .

وهنا نشير إلى أن محمد بن تومرت صاحب رحلتنا هذه ، هو مؤسس دولة الموحدين التى ورثت دولة المرابطين فى المغرب الأقصى والأندلس ، وتمددت شرقاً حتى طرابلس الغرب ، على بوابات مصر الغربية . أما عن وسيلته فيما تحقق من وحدة المغرب والأندلس ، وما كان يرجوه ابن جبير من شمول تلك الوحدة حتى مصر والعراق والحجاز ، فكانت تنبنى على أساس عملية الإحياء الدينى التى نادى بها الغزالى – أستاذ النظامية ببغداد – قبل ذلك بسنوات قليلة ، وكذلك ما نادى به قبل ذلك بنحو نصف قرن الماوردى ، قاضى قضاة بغداد (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م) ، وصاحب كتاب الأحكام السلطانية ، من أن وحدة الدولة الإسلامية

تتمثل فى وحدة حكومتها المركزية ، وهى الخلافة . وبالتالى فإن أية حكومة خارجة على سلطانها تعتبر دولة متغلبة ، خارجة على القانون – إلا إذا اقتضى الأمر الواقع غير ذلك[٤] . مما سمح بقيام دول الطوائف المستقلة ، فلكى تعود الوحدة إلى دولة الإسلام كان ينبغى أن يكون البدء بعودة الوحدة إلى إسلام واحد بغير مذاهب . وإذا كان الغزالى قد حاول التوفيق بين السنة والشيعة والمتصوفة – وإن كان ذلك تحت لواء التصوف – فإن ابن تومرت دعا إلى وحدة الإسلام ودولته تحت راية مذهبه فى "التوحيد" المطلق أو الكلى ، فكأنه وحدة الوجود .

المصادر والمنهج :

وهكذا يقتضى منهج البحث فى محاولة التعرف على أسس التوحيد فى مذهب محمد ابن تومرت ، وهو الأمر الذى يقتضى التعرف على المؤلف الرئيسى لابن تومرت ، وهو كتاب "أعز ما يطلب" ، نسبة إلى افتتاحيته التى يقول فيها : "أعز ما يطلب وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل ، العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل المكاسب"[٥] . والكتاب يحتوى على مطلبين ، أولهما فى العقيدة ، يعنى التوحيد المطلق ، وثانيهما فى المرشدة يعنى التطبيقات الدينية العملية مع المعاملات[٦] .

وتأتى بعد "أعز ما يطلب" الرسائل الموحدية التى ألفها كتاب ديوان الدولة الموحدية ، والتى تعالج موضوعات سياسية وحربية واجتماعية دارجة ، كما تأخذ عادة شكل الدعاية الموحدية المغلفة أو السافرة لجماعة الموحدين ومذهب التوحيد فى كثير من الأحيان[٧] .

هذا عن مذهب التوحيد الذى تمسك به الدولة المؤمنية (دولة بنى عبد المؤمن بن على) ، أما عن الأحوال الثقافية والعلمية والدينية فى بلاد المغرب والأندلس وفى المشرق الإسلامى من مصر والشام والعراق والحجاز ، فمرجعنا بالنسبة لها كتب السيرة والرجال ، من مغربية ومشرقية ، وعمدتنا الأول فيها هو كتاب ابن بشكوال المعنون بكتاب الصلة : تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم[٨] ، فهو المصدر الأساسى من حيث التعريف بطلاب العلم من المغاربة والأندلسيين ، وأساتذتهم الذين عرفوهم بالمشرق ، والموضوعات التى كانوا يدرسونها ، الأمر الذى يعرف بالأحوال الثقافية والعلمية فى كل من المغرب والمشرق ، بشكل لا يتيسر فى المصادر المشرقية والمغربية المشابهة بنفس التكامل ، مثل : وفيات الأعيان لابن خلكان ، أو مدارك القاضى عياض ، والحلة السيراء لابن الأبار ، أو نفح الطيب للمقرى .

أما عن منهج البحث فيتمثل في متابعة الموضوع على المستوى الإقليمي بتتبع مراحل رحلة ابن تومرت من بلد السوس في اتجاه الأندلس عبر بلاد المغرب ، مروراً بالمراكز العلمية المغربية في مراكش وفاس وسبتة وتتبع المراكز العلمية الأندلسية التي مر بها ابن تومرت حسبما تذكر المصادر ، أو حسبما تقتضي سلامة الحس اعتباراً من موضع النزول في الجزيرة الخضراء ، وانتهاء بالمرية : مرسى الإقلاع بحراً نحو المشرق إلى بلاد الشام ، ومنها إلى العراق وبغداد ، مقر المدرسة النظامية ، من حيث كان الحج إلى الحرمين الشريفين ، مكة والمدينة ، اللتين كانتا من أهم مراكز الثقافة الإسلامية وتتلمذ ، ومن ثم إلى طريق العودة عبر القاهرة والإسكندرية : مركزي مصر العلميين بالامتياز . ومن الإسكندرية : مقر مدرستي السلفي وابن عوف الزهري ثم مدرسة الطرطوشي ، كان ركوب السفينة في طريق العودة إلى تونس والمغرب ، ونهاية رحلة الطلب العلمية ، وبداية مرحلة التعليم والأستاذية ، ومن ثم التأليف بوضع كل من العقيدة والمرشدة ، أساسي مذهب التوحيد ، دعامة مهدوية ابن تومرت وعصمته .

أما عن التحديد الزمني الأفقي للدراسة فهو يتعين بطبيعة الحال في مدة رحلة ابن تومرت العلمية في المشرق والتي تبدأ من سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م من بلده السوس ، وتنتهي بعودته إلى بلده سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م حيث كان اللقاء مع فقهاء المغرب في مناظرات علمية حارة ، تعبر عن التضاد بين ما حمله ابن تومرت معه من العلم المشرقي المنفتح عقلانياً ، وما كانت عليه الحالة العلمية المنغلقة تقليدياً بالمغرب . أما عن تحديد قوام الثقافة المعاصرة وتأثيرات الأساتذة بعلومهم من عقلانية منفتحة وتقليدية منغلقة فذلك لايحدد بطبيعة الحال بمجال رحلة ابن تومرت الذي يتحدد بـ ١٥ (خمسة عشر) عاماً ، إذ هناك من الأساتذة الذين طالت أعمارهم العلمية عما قبل بداية الرحلة وما بعدها ، وهناك من انتهت أعمارهم قبيل الرحلة بقليل ، أو من بدأت شهرته العلمية بعدها بقليل ، الأمر الذي دعانا إلى تحديد الفترة موضع البحث ببداية القرن السادس الهجري/١٢م ، وتحديد نهايتها بوفاة ابن تومرت سنة ٥٢٤هـ/١١٣٤م ، فكأنها فترة ربع قرن ، وهي الفترة التي يمكن اعتبارها بمثابة جيل ابن تومرت العلمي . فكأن رحلة ابن تومرت العلمية - كما نراها - في كثير من الأوضاع هي محاولة للتعريف بثقافة وعلوم جيل ابن تومرت من علماء المغرب والمشرق ، أكثر منها تعريفاً بشخصية ابن تومرت . وهذا الأمر يكون مقبولاً إذا أخذنا بمبدأ أن علم التاريخ هو تاريخ المجتمعات والشعوب قبل أن يكون تاريخ الأفراد والملوك .

رحلة ابن تومرت العلمية في المغرب :

كان الشاب المصمودي محمد بن تومرت الذي كان يعرف بلقب أسفو[٩] في السادسة والعشرين من عمره ، وهو يغادر بلدته إيجليز سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م ، بادئاً رحلة دراسته العالية إلى الخارج .

مراكش :

وكان من الطبيعي أن تكون مراكش العاصمة هي أول المراكز الثقافية التي يزورها بصفتها مركز الحكم والعلم بفضل كبار الموظفين من كتاب الديوان ورجال الدين العاملين في القضاء وإمامة الصلاة والخطبة والوعظ ، وكان كثير منهم من الأندلسيين ، إلى جانب الوافدين من الأدباء والشعراء الساعين لتقديم قروض الطاعة وإنشاد المديح والتهاني التماساً للجود والكرم.

وهكذا تظهر مراكش عند الكتاب في بعض المواضع كمركز علمي في فترة الجيل الثقافي المعاصر لابن تومرت . فأبو محمد عبد الغالب السالمي الذي أخذ العلم عن القاضي أبي عبد الله بن شبرين وغيره ، كان عالماً بالأصول والاعتقادات ، وهي العلوم التي اهتم بها ابن تومرت . ومن المهم الإشارة إلى أن السالمي انتقل إلى مراكش العاصمة ، حيث توفي بها في سنة ٥١٩هـ/١١٢٢م[١٠] أي في الوقت الذي كان ابن تومرت ينهي رحلة العودة ، ويستقر في بلده استعداداً لإنجاز الدعوة الموحدية الرائعة : دعوة توحيد الجماعة من أهل السنة والشيعة والمتكلمين . وحيث كان قد اتخذ لقب المهدي المعصوم في السنة السابقة ٥١٥هـ/١١٢١م[١١].

في هذا الوقت كانت مراكش غنية بالفقهاء والعلماء ، وخاصة من الأندلسيين ، مثل مالك بن وهيب مناظر ابن تومرت المشهور ، والذي كان قد شارك في جميع العلوم ، وإن كان لايظهر منها إلا ما ينفق في ذلك الزمان . فلقد رأى عبد الواحد المراكشي له كتاباً سماه : فراضة اللهب في ذكر أيام العرب ، كما يذكر أنه كان لمالك بن وهيب تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة، مثل كتاب الثمرة لبطليموس في الأحكام ، وكتاب المجسطي في علم الهيئة ، وعليه حواش مفيدة أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة اسمه أحمد الذهبي[١٢] .

فاس :

أما عن فاس عاصمة المغرب الثقافية على مر العصور ، فلا تظهر في فترة جيلنا المتقفاة في صلة ابن بشكوال إلا مرة واحدة . فمحمد بن علي بن محمد الطليطلي (المعروف بابن الربوطي الأعمى) ، سمع من عبد الرحمن بن سلمى . ومن أبي الوليد الباجي ثم إنه خرج من الأندلس إلى فاس فسكنها ، ونسبها ولي منصب الخطابة . ومن هناك انتقل سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م إلى سبتة حيث ولي منصب الخطبة هناك[١٣] .

سبتة :

وبناء على ماتقدم نستخلص أن سبتة كانت أهم مراكز المغرب الثقافية في تلك الفترة من عصر الدولة المرابطية ، عصر علي بن يوسف ، راعب ملوك المرابطين ، حيث كانت معبر العلوم والثقافة من الأندلس إلى العدوة المغربية .

وهكذا فازت سبتة بأربعة علماء ، هم :

١- عبد الرحمن بن محمد الكتامي المعروف بابن المجوز ، من أهل سبتة ، ومن جلة فقهائها ، والمهم أنه "كان يميل إلى الحجة والنظر" ، وهي الميزة النادرة بين فقهاء العصر من المالكية . والأمر المستغرب أن هذا الرجل العقلاني كان من كبار العباد القوامين بالليل ، إلى جانب ولايته القضاء بالجزيرة الخضراء ، ثم سلا حيث توفي بعد سنة ٥١٠هـ/١١١٦م[١٤] .

٢- عبد الغالب المالقي ، الذي انتقل من سبتة إلى مراكش (انظر أعلاه) .

٣- محمد بن عمر بن فطرى الزيبلي ، الإشبيلي الذي رحل إلى المشرق ثم انتقل إلى سبتة، حيث توفي سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م[١٥] .

٤- ابن الربوطي (انظر أعلاه) .

وهكذا كانت سبتة هي المعبر الذي مر فيه تيارات التأثيرات الأندلسية إلى المغرب ، ولا بأس إن كانت أزهى المدن المغربية ثقافة في ذلك الوقت من رحلة ابن تومرت العلمية .

رحلة الأندلس العلمية :

وأقرب نماذج الرحلة العلمية الأندلسية إلى المشرق - بالنسبة لرحلة ابن تومرت من حيث التوقيت - هي الرحلة التي قام بها أبو القاسم عيسى بن إبراهيم بن عبد ربه بن جهور القيسي، عالم كل من قرطبة وإشبيلية[١٦] . وأصل أبي القاسم من مدينة طليرة قبل أن

يتحول إلى مدينة شريش . أما عن رحلته العلمية فقد بدأت بعد سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م - نفس وقت رحلة ابن تومرت - وكانت أهم أحداثها : الدخول إلى بغداد ، مقر المدرسة النظامية ، حيث دخل في مناظرات مع عدد من الفقهاء ، كما التقى بكبار مشايخ بغداد العصر هنالك ، فأخذ عن أبي بكر الحلواني ، وأبي بكر بن طرخان ، وأبي بكر الشاشي . وكان ممن لقيهم أبو محمد القاسم بن علي الحريري ، صاحب المقامات .

قرطبة :

وهكذا عاد أبو القاسم القيسي من الرحلة المشرقية ليقوم في قرطبة بالتدريس في الأدب واللغة والشعر إلى جانب مشاركته في الفقه والحديث ، وأصل الديانات ، وهي من الأمور التي كان يهتم بها ابن تومرت . هذا كما عرفه طلبة إشبيلية حيث توفي سنة ٥٢٧هـ/ إبريل ١١٣٣م[١٧].

أما عن كبار أساتذة قرطبة عندما كان يدخلها ابن تومرت ، فمنهم أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب اللخمي (٤٣٣- ٥٣٠هـ/١٠٤١-١١٣٥م) الذي يعتبره ابن بشكوال "آخر الشيوخ الأكابر ببلاد الأندلس ، في علو الأسانيد وسعة الرواية"[١٨] .

والمهم أن ابن بشكوال يقيم ابن عتاب ، الذي كان في السابعة والستين من عمره عندما كان ابن تومرت يدخل الأندلس ، بأنه كان حافظاً للقرآن ، عارفاً برواياته وطرقه ، واقفاً على كثير من تفسيره وغريبه ، مع حظ وافر من اللغة العربية . والأهم من ذلك أن ابن عتاب "كانت الرحلة في وقته إليه ، ومدار أصحاب الحديث" ، وأنه "طال عمره وسمع منه الآباء والأبناء"[١٩] .

وتلميذ ابن عتاب ووريث علمه هو : ابن عفيف (عبد الرحمن الأموي ، الطليطلي أصلاً ، والقرطبي سكناً ، والذي تولى وظيفة صاحب الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، والذي كانت تعظمه العامة ، كما كان الناس يسمعون ويروون عنه[٢٠] .

ومن فقهاء قرطبة المشاورين في الأحكام : ابن حزمون (عبد العزيز عبد الله - ٤٤٠هـ - شعبان ٥٠٨هـ/٤٨-١٠ - ٤ يوليه ١١١٤م) الذي تولى إمامة الصلاة في مسجد قرطبة الجامع، والذي كان له باع طويل في المناظرة ، حتى أنه كان يناظر أستاذه أبا جعفر بن رزق ، كما ناظر الناس عليه في الفقه ، وانتفع به في معرفته وعلمه[٢١]. وكان من أعلام العلماء، في هذه المجموعة المنتقاة من العلماء : أبو محمد بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة - (٤٣٩-٢٦

محرم ٥٠٨هـ/١١٤٧- ٤ يوليه ١١١٤م - تميل عودة محمد بن تومرت) الذى اشتهر بالتفنن فى العلوم والاقتدان بها ومذاكرتها . وابن بشكوال يقيمه بأنه كان "حافظا ذكياً فطنا ، أديباً، شاعراً ، لغويا ، أصوليا". والمهم أن ابن حمدين كان يشغل وظيفة قاضى الجماعة بقرطبة وقتما كان ابن تومرت يعبر الأندلس طالباً وإذا كان ابن بشكوال لايشير إلى أن ابن تومرت قد قدر له أن يلتقى به أو أن يحضر بعض مجلسه أو أن يأخذ بعض علمه ، فإن صاحب الحلل الموشية يذكر أنه تتلمذ عليه - وهو الأمر الذى نود أن نقول به[٢٢] .

ونظير ابن حمدين فى قضاء الجماعة بقرطبة هو : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ابن رشد الجد) المالكى (٤٥٠ هـ - ذو القعدة ٥٢٠هـ/١٠٥٨ - ١٨ مارس ١١٢٧م) الذى كانت له إمامة الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة أيضا . واشتهر ابن رشد الجد بأنه كان "فقيهاً عالماً . حافظاً للفقه ، مقدماً فيه على جميع أهل عصره ، عارفاً بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه .. تافذاً فى علم الفرائض والأصول ، كما عرف بحسن الخلق ، وسهولة اللقاء، وكثرة النفع لخاصته وأصحابه ، وجميل العشرة لهم ، والحفظ لعهدهم والبر لهم" .

وممن أشاد بعلم القاضى ابن رشد (الجد) وفضله ، الفقيه أبو مروان عبد الملك بن مسرة رفيق ابن بشكوال فى الدراسة ، كما عدد من تواليفه : كتاب المقدمات الأوائل لكتب المدونة ، وكتاب البيان والتحصيل لما فى المستخرجة من التوجية والتعليل ، واختصار المبسوطة ، واختصار مشكل الآثار للطحاوى ، إلى غير ذلك من تواليفه التى أسمع التلاميذ بعضها ، وأجاز لهم سائرها[٢٣] .

ومن جلة علماء تلك الفترة التى نهتم بها ابن العواد : أبو الوليد هشام بن أحمد بن سعيد القرطبى (٤٥٢ - آخر صفر ٥٠٩هـ/ ١٠٦٠- ٢٤ يولية ١١١٥م) الذى كان من جلة الفقهاء وخيارهم . فقد كان حافظاً للرأى ، مقدماً فيه على جميع أصحابه - وهى الميزة النادرة ، كما ترى ، التى يستحق عليها التقدير . هذا إلى جانب بصره بالفتيا ومعرفته بعقد الشروط وعللها ، مع دين وفضل ، وانقباض عن السلطان . هذا ، كما كان له إقبال على مايعينه ، ومواظبة على نشر العلم وبثه ، وجميل العشرة لتلاميذه والمختص به .

ويتمثل انقباض ابن العواد عن السلطان فى امتناعه عن قبول وظيفة القضاء ، رغم دعوته إليها أكثر من مرة .

أما فى مجال نشر العلم ، فقد كان "يختلف إليه خلق كثير على سبيل التفقه عنده والمدارسة ، فنفع الله به كل من أخذ عنه" . وهكذا كانت جنازته حافلة بالمشاهدين ، وكان ابن بشكوال بين من حضرها[٢٤] .

ويأتى بعد ذلك من القرطبيين ولد الفقيه الشهير ابن حزم الظاهرى الأندلسى ، وهو أبو أسامة يعقوب بن على بن أحمد بن حزم (٤٤٠ - جمادى الأولى ٥٠٣هـ/١٠٤٨ - نوفمبر ١١٠٩م) . وابن حزم الابن روى عن أبيه ، وعن أبى عمر بن عبد البر بالإجازة ، عن أبى العباس العذرى .

ومذهب الظاهرية له أهمية كبيرة عند محاولة تقييم مذهب التوحيد عند محمد بن تومرت ، كما أن له أهمية بالنسبة لتطور الأحوال المذهبية فى الدولة الموحدية ، اعتباراً من ولاية ثالث خلفائها يعقوب المنصور .

وفى تقديم خصائص مدرسة قرطبة يمكن تصنيف العلوم التى اشتغل بها القرطبيون من الأساتذة فى مطلع القرن الـ ٦ هـ/ ١٢م - حسب الأهمية - على الوجه التالى :

الفقه ، والحديث ، والفتوى على مذهب مالك ، والخبر وسير الرجال ، وعلوم القرآن من تفسير وغريب ، واللغة العربية والإعراب ، والآداب والشعر ومعانيه ، وعقد الشروط ، والأصول ، والفرائض ، وأخيراً الرأى .

ويتضح من ذلك أن التفوق كان لعلوم الحديث والفقه والفتوى على مذهب مالك ، إلى جانب علوم الخبر ومعرفة الرجال والتاريخ المرتبطة بعلم الحديث ، وكذلك الأمر بالنسبة لعلوم العربية . أما علوم الأصول والاعتقاد ، إلى جانب منهج الرأى المضاد لمنهج النقل والتقليد فيأتى فى ذيل القائمة .

وهنا لايغيب عن الذهن ما سجله عبد الواحد المراكشى من أنه كان من الخارج أن يظهر العلماء المقربون من السلطان ما كان يتفق من علم الحديث والفقه على مذهب مالك ، وأن يخفوا ما كانوا يعرفون من الفلسفة وإعمال الفكر - كنوع من التقية . والمثل لذلك الفقيه مالك بن وهيب ، الذى كان قدر خطورة العلم الجديد المتمثل فى مذهب الأشعرى - المبنى على التأويل - والذى حمله ابن تومرت من المشرق إلى المغرب[٢٥] .

إشبيلية :

ولاتختلف مدرسة إشبيلية عن قرطبة من حيث مناهج العلم والتدريس ، وخاصة أن علماء كل من المدينتين كانوا يتبادلون المراكز بينهما . وبناء على ذلك نكتفى من الإشبيليين بذكر أبى بكر بن العربى (محمد بن عبد الله - ٢١ شعبان ٤٦٨ - ربيع الآخر ٥٤٣هـ/ إبريل ١١٧٦ - أغسطس ١١٤٨م) .

وتظهر أهمية نموذج ابن العربي في عدد من الأمور . أولها : أنه كان في السابعة عشر من عمره عندما بدأ رحلته العلمية إلى المشرق بصحبة والده في سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م . قبل رحلة ابن تومرت بـ ١٥ عاماً . ولما كان قد بدأ الدراسة في الشام - حسب رواية ابن بشكوال - فإنه يكون قد سافر في البحر إلى هناك مباشرة . حيث يكون اللقاء بالشيخ أبي بكر الطرطوشي ، شيخ الإسكندرية بعد ذلك ، وهو الذي أخذ عنه ابن تومرت في رحلة العودة ، فيما بعد .

أما عن عودة ابن العربي إلى إشبيلية وحده دون والده المتوفى ، فكانت في سنة ٤٩٣ هـ/١١٠٠م ، وقد استكمل تعليمه العالي وعمره ٢٥ سنة ، وهو رقم قياسي فيما نرى ، بالنسبة للمبتدئين من علماء ذلك العصر .

أما عن تحصيله في المشرق ، فقد التقى بعدد من قدامى الأساتذة ، مثل أبي الحسين الصيرفي ، وأبي بكر بن طرخان ، ثم أبي بكر الشاشي ، وأبي حامد الطوسي (الغزالي) وغيرهم .

ولما كانت رحلة ابن العربي تلتقي في بعض ما قيل عن رحلة ابن تومرت المشرقية ، من اللقاء بينه وبين الغزالي وأبي بكر الطرطوشي ، الأمر الذي ربما دفع المقري إلى القول عن ابن العربي أنه "كان قد صحب المهدي محمد بن تومرت بالمشرق ، ولقيا سوياً الغزالي (إن لم يكن بالمشرق فبالإسكندرية عند الطرطوشي)[٢٦] . وإذا كانت الحقيقة تتلخص في أن ابن العربي كان في الأندلس بعد العودة من الرحلة العلمية المشرقية ، منذ سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م ، فيمكن القول إذن أن علم ابن العربي كان منتشراً بالأندلس سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م ، عندما بدأ ابن تومرت رحلة العلم في الأندلس ، فلا بأس أن يكون ابن تومرت قد حضر بعض مجالس ابن العربي ، أو أن يكون قد تعرف هناك على بعض علومه الوافدة من المشرق .

أما عن حضور ابن تومرت مجلس الطرطوشي بالإسكندرية ، فهو مرتق من قبل عبد الواحد المراكشي وابن خلكان[٢٧] .

المرية :

والمركز العلمي الثالث في الأندلس يتمثل بالنسبة لابن تومرت في مدرسة المرية ، وهي المدينة ذات المواصلات البحرية السهلة مع المغرب وشرق المتوسط ومصر والشام من حيث يكون الدخول إلى الحجاز وبغداد . ومن أشهر علماء المرية في الفترة المحددة منهجياً بجيل ابن تومرت يأتي أبو بكر عبد الباقي بن قربال (٤١٦- رمضان ٥٠٢هـ/١٠٢٥- إبريل

١١٠٩م)[٢٨] ، وابن شعيع (أبو الحسن عبد العزيز بن عبد الملك - ٤٣٠- شعبان ٥١٤هـ/ ١٠٣٨ - أكتوبر ١١٢٠م)[٢٩] ، والبلغي (أبو عبد الله محمد بن الحسن الخولاني - ت٥١٥هـ/١٠٣٩م)[٣٠] .

غرناطة :

ويتمثل المركز العلمي الرابع في غرناطة كمدرسة مرموقة ، تبعاً للنخبة المنتقاة من علماء الأندلس الذين كان يمكن أن يكونوا ممن التقى بهم محمد بن تومرت أثناء رحلة العلم بالأندلس . ومن هؤلاء ، يأتي أبو الحسن علي الأنصاري ات بغرناطة في رمضان سنة ٥١١هـ/ ديسمبر - يناير ١١١٧-١١١٨م) الذي كانت له عناية خاصة بالإقراء وسماع العلم (الحديث)[٣١] ، وأبو الحسن علي بن أحمد الأنصاري (٤٤٤-١٣ من المحرم ٥٢٨هـ/١٠٥٢- ١٢ نوفمبر ١١٣٣م) الذي كان "من أهل الرواية والإتقان والدراية مع الدين والفضل" .

هذا ، كما يمكن ذكر عدد من العلماء من مالقة ، وشلب ، ولطيلة ، ومرسية ، بل وطليطلة التي كانت في أسر المسيحيين الإسبان ، وذلك عن طريق بعض العلماء الذين كانوا قد غادروها إلى بلاد المسلمين . ومثل هذا يقال عن مثل طرطوشة أبي بكر الاسكندري ، أستاذ محمد بن تومرت لفترة من الوقت في طريق العودة .

ويوصف الطرطوشي شيخ الإسكندرية "بالعلم والفضل والزهد في الدنيا والإقبال على مايعنيه" . أما أهم أعماله فهو كتاب "سراج الملوك" الذي يعتبر من كتب النظم الإسلامية ، وإن مالت آراؤه فيه إلى العمل من أجل الآخرة ، على أنه السبيل إلى تحصيل السعادة في الدنيا[٣٢] .

وتظهر إحصائية العلوم الدارجة في إشبيلية ومدن الأندلس الإقليمية أنها تمثل قائمة لاتختلف كثيراً عن مجموعة علوم قرطبة الثوعية ، وإن اختلفت عنها نسبياً . فالحديث وما يلحق به من أسماء الرجال المعرضين لنهج التجريح والتعديل له الأكثرية ، وتتلوه القراءات (القرآنية) ثم اللغة ، والأدب ، والنحو ، والشعر ، على قدم المساواة . وبدلاً من الرأي يظهر مصطلح الدراية ، ويعده الفقه ، ثم أصول الدين ، والزهد والتصوف - على قدم المساواة .

ومن عرض كل من ثقافتي قرطبة والأقاليم الأندلسية في مطلع القرن الـ ٦ هـ/ ١٢م ، يتضح تفوق العلوم الدينية على العلوم المدنية (الرسمية) . وكان لعلم الفروع الأسبقية على

غيره من علوم الدين ، وبطبيعة الحال على علوم الخبر وسير الرجال ، بمعنى التاريخ الذى كان يستخدم وقتئذ وكأنه من العلوم المساعدة للدين .

وأمام سيادة العلوم النقلية تراجع استخدام العقل والرأى عند علماء الأندلس والمغرب ، الأمر الذى كانت له ردته فى رياح التغيير الرافدة مع رحالة العلم القادمين من المشرق ، حيث بدأت غلبة مبادىء الدراية على الرواية أو الدراية والعناية ، الأمر الذى أدى إلى محاولة "إحياء علوم الدين" على أسس علمية أكثر صلابة ، على يدى الغزالى فى المشرق ، وما كان لذلك من رد فعل رائع فى المغرب والأندلس ، مما تمثل فى رفض المالكية المرابطين القاطع ثم قبول الأشعرية الموحدية الرائع ، ممثلاً فى مذهب التوحيد لابن تومرت .

رحلة العلم الشرقية :

إذا كانت معلوماتنا ضبابية عن بداية رحلة ابن تومرت العلمية فى المغرب والأندلس ، حيث مجرد الإشارة إلى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م أو ٥٠١هـ/١١٠٧م كبداية للرحلة ، إلى جانب ذكر اسم قرطبة والمرية كمركزين طرقهما محمد بن تومرت للدراسة أو السفر ، فإن المعلومات ليست وافية أيضا عن رحلة المشرق ، إلى جانب كونها غير أكيدة .

والراجح أن ابن تومرت أقام بعض الوقت فى قرطبة ، حيث أخذ عن القاضى ابن حمدين[٣٣] قبل أن يتوجه إلى المرية من حيث ركب بعض السفن المتجهة نحو الشام (راجع الإسكندرية)[٣٤] .

وبعد أن قرأ فى الشام على الإمام أبى عبد الله الخضرمى[٣٥] سار ابن تومرت إلى مكة، حيث قام بأداء فريضة الحج ، ثم إنه سار إلى العراق[٣٦] وبغداد حيث لقى فخر الإسلام أبا بكر الشاشى (ت٥٠٧هـ/١١١٣م) فأخذ عنه بالمدرسة النظامية ، شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين[٣٧] ، كما سمع الحديث على الشيخ المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من شيوخ المحدثين[٣٨] . أما عن لقائه الغزالى فهو أمر مغلوط ، كما تنص عليه رواية ابن الأثير[٣٩].

والحقيقة أن شيوع رواية لقاء ابن تومرت بالغزالى – بصرف النظر عن خطئها – إنما يعبر عن هيمنة فكر الغزالى الجديد فى إحياء علوم الدين الذى يناهض علم الفقهاء من النقلة والمقلدين ، والذى يدعو إلى رحابة التفسير العقلى والتأويل المعروف عند الأشعرية (الشافعية أصلاً) مع الالتزام بالزهد والتصوف ، وبالتالى لم تشمل المذاهب الإسلامية تحت رايات الأخوة

فى الإسلام ووحدة الجماعة . ولاشك أن معارضة بعض فقهاء الأندلس لكتب الغزالى وتتبعها بالحظر إلى درجة الحرق ، كان من الأسباب التى أتت بنتائج عكسية ، فرفعت من شأن الغزالى، كما كانت دعاية طيبة لكتاب الإحياء ، كما نرى[٤٠] .

ولا شك أن أهم مايميز عصر الغزالى فى بغداد والعراق على أواخر القرن الـ ٥هـ/١١م هى ظاهرة تلاقى المذاهب وتفاعل المدارس النقلية والعقلية بفضل عدد من مشاهير العلماء الذين يمثلون هذا الاتجاه العقلانى أو التنويرى . فإلى جانب أبى بكر الشاشى (ت٥٠٧هـ/١١١٣م) الذى أخذ عنه ابن تومرت كان هناك الشهرستانى ، صاحب الملل والنحل (أبو الفتح محمد – ت٥٤٨هـ/١١١٤م) المتكلم على مذهب الأشعرى ، والذى كان له أيضا من الكتب : "نهاية الأقدام فى علم الكلام"[٤١] . كما كان هناك الفراء (الحسين بن مسعود – ت٥١٠هـ/١١١٦م) الفقيه الشافعى ، روى الحديث والمفسر والزاهد المتصوف[٤٢].

ومن أصحاب الاتجاهات الفكرية الفلسفية يذكر الأطرابلسى (نسبة إلى طرابلس الشام : توفيق بن محمد – ت٥١٠هـ/١١١٦م) . والذى كان يميل إلى مذاهب الأوائل ، مما جعله محل الاتهام بقلة الدين[٤٣] .

ومن ممثلى الاتجاهات العلمية العقلانية : ابن الهبارية ، شاعر بغداد (محمد بن محمد الشريف العباسى – ت ٥١٩هـ/١١١٥م) الذى قدم أصبهان على ملكشاه والوزير نظام الملك ، فلم يظفر من الزيارة بشىء ، فكتب فى ذلك أبياتاً ينم فيها العقل والفضل[٤٤] .

وآخر من نشير إليه هنا هو شيخ الحنابلة ببغداد : أبو الوفا بن عقيل (٤٣١–٥١٣هـ/١٠٣٩–١١١٩م) تلميذ القاضى أبى يعلى بن الفراء فى الفقه ، والذى سمع الحديث الكثير ، وقرأ الأدب والفرائض والوعظ . كما درس الأصول على أبى الوليد المعتزلى، فنرى أنه كان نموذجاً فذاً من الحنابلة المعروفين بتشددهم المذهبى ، حيث كان "يجتمع بجميع العلماء من كل مذهب ، وربما لامه بعض أصحابه فلا يلوى إليهم"[٤٥] .

ونموذج ابن عقيل هذا يوضح كيف أن ثقافة بغداد كانت قد وصلت إلى مرتبة العالمية على جميع مستويات النقل والعقل ، الأمر الذى يمكن أن يقدم تفسيراً منطقياً مقبولاً لحركة الإحياء التى فجرها الغزالى والتى تأثر بها محمد بن تومرت صاحب حركة التجديد والتوحيد ، فكانت لها أصداؤها فى بلاد السوس وجبال هرغة المغربية العريقة .

العودة إلى المغرب وتصنيف مذهب التوحيد :

إذا كان محمد بن تومرت قد غادر بلده سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م ، وهو يناهز الخامسة والعشرين من عمره طالباً للتعليم الجامعي ، في أهم منابعه : جامعة بغداد النظامية ، فإنه كان يعود بعد حوالي عشر سنوات (٥١٠هـ/١١١٦م)[٤٦] ، وهو يشعر بالأستاذية – شاباً في عنفوان الخامسة والثلاثين من عمره ، الأمر الذي سمح له بتقمص وظيفة المحتسب ، أي الرقيب على الأسواق والأخلاق العامة ، فكأنه داعية شعبي يطبق معارفه الدينية والأخلاقية بأسلوب عملي واقعي – وإن كان بدون ترخيص من السلطات المختصة . فكأنها نقلة من أرستقراطية التعليم الجامعي – إذا صح القول – نزولاً إلى مرتبة مؤدب العامة : "الأمر بالمعروف "أو بوجه أصح : "الناهي عن المنكر"والذي يعرض نفسه إلى الأذى ، ليس من غوغاء الناس فحسب ، بل ومن السلطات المسئولة عن إقرار الأمن العام والنظام .

حدث ذلك في مكة وفي مصر الفسطاط وفي الإسكندرية . أما في المغرب الأوسط فقد بدأت تتبلور حوله نواة من الأنصار : الطلبة الأصحاب ، كان من أشهرهم ثلاثة ، هم : البيدق (أبو بكر بن علي الصنهاجي) : سائس البغلة ، والبشير الونشريشي : صاحب التمييز (التطهير) في الجيش ، ثم عبداً لمؤمن بن علي أول خلفاء ابن تومرت (المهدي المعصوم) الذي سيعطي اسمه للدولة الموحدية أو الدولة المؤمنية : دولة بني عبد المؤمن .

وعلى طول الطريق عبر بلاد المغرب الشرقية وحتى مراكش عاصمة المغرب الأقصى والدولة المرابطية كان ابن تومرت يقوم بتعليم جماعته من الطلبة الأصحاب ومن يفد عليه من أهل البلاد ، في مساجد القرى البعيدة ، كما كان ينزل الطرق والأسواق آمراً بالمعروف نظرياً ، ناهياً عن المنكر عملياً الأمر الذي كان يثير العامة وأهل السوق أحياناً . والذي كان ينتهي بمساءلة السلطات له . ولقد كان الأمر يتطلب في كثير من الأحيان دخول ابن تومرت في مناظرات مع الفقهاء والعلماء من رجال الدولة وحاشية أمير المسلمين . ومن هنا كان يظهر شغوف ابن تومرت بفضل ما كان تعلمه في المشرق من أساليب الجدل العلمي . مما كان يعرفه الفلاسفة والمتكلمون ، مما كان ينتهي بملاحقته خارج الحدود حتى وصل إلى بلدته إيجليز في منطقة قبيلته هرغه : إحدى قبائل المصامدة في بلاد السوس ، من المغرب الأقصى . وهناك بدأت حرب الدعاية التي انتهت بإنشاء ابن تومرت لمذهب التوحيد المبني على مبدأ المعتزلة : التوحيد (المطلق أو المجرد الذي ينفي الصفات) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (وهو المبدأ الإسلامي الرئيسي) – الأمر الذي انتهى بأن سماه المرابطون هو وأصحابه "بالخوارج" ، كما سماهم بدوره بـ "المجسمة" .

وفي التوحيد ألف ابن تومرت كتابة المعروف بـ"أعز مايطلب" باللغتين البربرية والعربية ، وقسمه إلى بابين ، أحدهما : "العقيدة" والآخر "المرشدة" . والعقيدة في التوحيد المطلق ، والمرشدة في العبادات والمعاملات ، وإن كان تصديرها أشبه ما يكون بالعقيدة من حيث الإصرار على التوحيد المجرد .

وأملى ابن تومرت هذه العقيدة وذلك التوحيد المطلق على العامة من بسطاء البربر من المغاربة ، كما ألزمهم بحفظها وتلاوة أحزابها ، وأنزل العقوبة بالمقصرين فيها – الأمر الذي تطلب حكماً عادلاً مقبولاً – فكان اتخاذ ابن تومرت لقب الإمام المعصوم : أي الحاكم الذي لايخطيء . وعن هذا الطريق ارتكز مذهب التوحيد عند ابن تومرت على ٣ (ثلاث) دعائم ، هي : الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر ، والحاكم أو المحتسب الذي لايخطئ ، والتوحيد المجرد الذي اتخذته الدولة التومرتية أو المؤمنية شعاراً لها .

الهوامش

١- انظر بلاشير ، نخب من أهم الجغرافيين العرب في العصر الوسيط (بالفرنسية) ، ص١٩٣١ ، والملخص في مقدمة – ملاحظات عن مصر ، كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة في القرنين الـ ٦ والـ ٧هـ/١٢-١٣م ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلد ٨ – ديسمبر ١٩٥٤ .

٢- هو سيدي جابر دفين الإسكندرية ، ت ٦١٤هـ/١٢١٧م .

٣- انظر للمؤلف ، ملاحظات عن مصر كما رآها الجغرافيون والرحالة المغاربة في القرنين الـ ٦ والـ ٧ للهجرة، مجلة كلية الآداب بالإسكندرية ، المجلد ٨ ، ديسمبر ١٩٥٤ ، ص١٠٧-١٠٨ .

٤- الأحكام السلطانية ، فصل الخلافة ، ص ٣ – حيث عدم جواز تعدد منصب أمير المؤمنين – مع جواز قيام المتغلبين لضبط النظام إذا لم تسمح الظروف للخلافة بذلك .

٥- انظر محمد بن تومرت ، أعز ما يطلب ، تحقيق ونشر عمار الطالبي ، الجزائر ، ١٩٨٥ .

٦- انظر أعز ما يطلب ، ص٢١٣ – حيث الكلام عن التوحيد ، ص٢٢٦ – حيث الكلام عن المرشدة ، هذا ويتضح من ترتيب الكتاب أنه مجموعة من التعاليم في الموضوعين ، معروضة بغير ترتيب منهجي ، ولا ندري إن كان ذلك من وضع المؤلف (ابن تومرت) أم أنه يعبر عما انتاب الكتاب من التشويش على مر العصور ، وهو الأمر المحتمل فعلاً ، ومثل هذا يقال عما وصل إلينا من بقية كل من المرجعين الرئيسيين في تاريخ الموحدين : كتاب ابن صاحب الصلاة المعروف بالمن بالإمامة ، وكتاب ابن القطان : نظم الجمان .

٧- مجموع رسائل موحدية ، من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية ، اصدار أ. ليفي – بروفنسال ، رباط الفتح ١٩٤١ – وعددها ٣٧ رسالة تظهر إلى جانب أهميتها السياسية والاجتماعية ، أهميتها بالنسبة لدراسة تطور الآداب في الديار المغربية الإسلامية من نماذج شتى من الكتابة الرسمية – ومنها رسالة منقولة من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي – انظر المقدمة ، ص . ب ، ج .

٨- ابن بشكوال ، الصلة ، نشر كودير ا ، مجريط (مدريد) ، ١٨٨٢) .

٩- أسفو هو الاسم البربري الذي كان يعرف به ابن تومرت صغيراً ، ويعني "ضياء" نظراً لكثرة إيقاد القناديل في المسجد ليلاً من أجل القراءة أو الدراسة ، حسبما تقول الروايات الموحدية – انظر ابن القطان ، نظم الجمان ، ص٣٤-٣٥ .

١٠- انظر ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٨٣٠ ص٣٨٢ – حيث النص على أن تلك المعلومة مستفادة من القاضي : أبو الفضل عياض ، السبتي .

١١- انظر البيدق ، أخبار المهدي ، ص٥٢-٥٣ .

١٢- عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص١٨٥ .

١٣- ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ١١٣١ ص ٥٠٩ – حيث النص على أن تلك المعلومات مما أفاده القاضي أبو الفضل عياض .

١٤- ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٧٥٥ ص ٣٤٨ – حيث النص على رجوع الفضل إلى القاضي عياض (أبو الفضل) في تلك الإفادة .

١٥- ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ١١٣٠ ص ٥٠٩ .

١٦- ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٤٣ ص ٤٣٢ .

١٧- ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٩٤٣ ص ٤٣٣ .

١٨- ابن بشكوال ، الصلة ، رقم رقم ٧٤٤ ص ٣٤٢ .

١٩- ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٣٤٢ .

٢٠- ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٣٤٤ – حيث النص أيضاً على أن ابن عفيف لم يكن بالضابط لما رواه.

٢١- ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٧٩٢ ص ٣٥٦-٣٦٦ .

٢٢- ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ١١٣٨ ص ٥١٢ .

٢٣- ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ١١٥٤ ص٥١٨ ، وثارن التهامي ، تاريخ قضاة الأندلس ، نشر بروفنسال، ١٩٤٨ ، ص٩٨-٩٩ .

٢٤- الصلة ، رقم ٣٢٥ ص٥٩٣-٥٩٤ .

٢٥- المعجب ، ص ١٨٥ .

٢٦- المقري ، نفح الطيب ، ج٢ ص٢٧ .

٢٧- المعجب ، ص ١٧٩ ، ونفيات الأعيان ج٥ ص٤٦ .

٢٨- ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٨٢٢ ص٣٧٩ .

٢٩- الصلة ، رقم ٧٩٣ ص ٣٦٦ .

٣٠- الصلة ، رقم ١١٤٩ ، ص٥١٧ .

٣١- الصلة ، رقم ٩١٨ ص ٤١٧ .

٣٢- الصلة ، رقم ١١٥٣ ص ٥١٨ .

٣٣- سابق ، ص ٦ .

٣٤- أنظر الحلل الموشية ، ص١٠٤ – حيث ، وجاز فيها سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م ، من مرسى المرية في مركب إلى الشام .

٣٥- الحلل الموشية ، ص١٠٤ .

٣٦- عبد الواحد المراكشي ، ص١٠٨ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج٥ ص٤٦ .

٣٧- عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص١٧٨ ، وانظر ابن شاكر الكتبي ، ج٢ ص٢١ .

٣٨- عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص١٧٨ .

٣٩- الكامل ، ج١٠ ص٥٦١ – صبث التعليق على لثاثة الغزالي بالثرث ، والصحيح أنه لم يجتمع به ، وانظر حاشيته .

٤٠- انظر للمؤلف ، تاريخ المغرب العربي ، ج٤ ص٤١٦ .

٤١- انظر محمد بن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، ج١٢ ص٤٦ .

٤٢- ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، ج٢ ص٦٦ .

٤٣- ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، ج١٢ ص٦٧ .

٤٤- ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، ج١٢ ص٥٨ ، ٥٩ .

٤٥- ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، ج١٢ ص٩٠ .

٤٦- ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص١٧٣ .

د. علي أحمد(*)

"المغاربة العاملون فى مصر منذ نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجرى"

كانت العلاقات بين مصر والمغرب طيبة وطبيعية خلال فترة ما قبل نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . فقد استقبل المغاربة فى المشرق بشكل عام على هيئة حجاج وطلبة علم وتجار وزائرين خلال هذه الفترة لتختلف الصورة خلال الفترة التالية ، فتصبح مصر العربية خلالها من أهم أقطار المشرق العربى بالنسبة للمغاربة ، الذين قصدوها واستقروا فيها وأصبحوا من مواطنيها بدون معارضة ولا قيود . فما الذى حدث على الساحة المغربية حتى لجأت فئة من سكانها الى المشرق وبخاصة إلى مصر ، وما العوامل التى شجعت على ذلك ؟

للإجابة على هذا التساؤل يمكن القول ، أن ما حدث كان أمراً كبيراً وفظيعاً من حيث تأثيره، وبالتالى من حيث النتيجة السلبية التى انتهى إليها . ويتمثل هذا الأمر فى ضياع

(*) جامعة دمشق .

مساحة كبيرة من أملاك المسلمين فى الأندلس التى كان المغاربة يلجأون إليه بشكل دائم لأغراض شتى، هذا بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية التى تجسدت فى الانقسامات الحادة وتعاقب الدول ، أجبرت مجموعة من المغاربة على الهجرة باتجاه مصر وبقية أقطار المشرق العربى الأخرى . فحينما وصل المرابطون إلى الحكم هاجر كثيرون بسبب أنهم لم يكونوا متوافقين معهم على صعيد المبدأ العام [١] والأمر نفسه حدث حينما زال حكم المرابطين بمجىء الموحدين إذ هاجر الكثيرون من المغرب إلى المشرق خوفاً منهم ، نذكر من هؤلاء ، الوهرانى صاحب كتاب المقامات المعروف والذى غادر المغرب إلى مصر ونزل فيها ، ونبهها عبر عن شدة كرهه للموحدين فى كتابه سابق الذكر[٢] .

وفى مقابل هذه العوامل السلبية ، وجدت عوامل إيجابية فى المشرق العربى ، حيث استقر قسم كبير من المغاربة ، وكانت مصر فى مقدمة الأقطار العربية المشرقية ، التى استقبلت عدداً من هؤلاء القادمين الذين لم ينقطعوا عن التوافد عليها وفى مقدمة هذه الإيجابيات ، التى تميزت بها مصر فى تلك الفترة من الزمن ، الإمكانات الاقتصادية التى اعتبرت فى المقدمة بدون منازع وبخاصة بالنسبة للمغاربة الذين لايملكون شيئاً ، فقد كان لمصر وجودها البارز من هذه الناحية ، فهى بلد زراعى وصناعى وتجارى ، يتوافر فيها كل ما يطلبه الناس من لوازم واحتياجات . وهذا ما أكده الرحالة المعروف ابن بطوطه الذى زار مصر خلال الربع الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، فوصفها بأنها أم البلاد ، يعيش فيها الفقير إلى جانب الغنى والضعيف إلى جانب القوى[٣] . يضاف إلى هذا أن الغرباء ومنهم المغاربة ، كانوا يخصصون بمساعدات كبيرة من قبل السلاطين والحكام ، الذين تعاقبوا على حكم مصر ، فالخلال توزع بنسب معينة ، ويرصد لهم ما يكفى لتكفين موتاهم ودفنهم ، واختصت السلطات المصرية المغاربة من بين كل الغرباء الذين عرفتهم مدن مصر وحواضرها إضافة إلى ما ذكر ، بأن أوقفت باسمهم بعض الأوقاف خصصت للصرف عليهم[٤] .

وإلى جانب العوامل الاقتصادية وجدت عوامل أخرى كان لها تأثيرها الفعال على حركة المغاربة باتجاه مصر ، فالمغاربة كانت لهم اهتماماتهم العلمية البارزة ، التى تجلت فى النشاط العلمى عندئذ ، فلم يشارف القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى نهايته حتى كان فى الإسكندرية والقاهرة وحدهما ما يقرب من ثلاث وسبعين داراً للحديث ، وأضاف هذا العدد من المدارس والخانقاوات ، التى ما انقطع التسابق على بنائها والصرف عليها منذ فترة حكم صلاح الدين الأيوبى فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، حتى الفترة

التى يتوقف عندها هذا البحث [٥] . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن مناهج التعليم وأساليبه التى كانت معروفة آنذاك توافقت مع المبادىء التى كان يعتنقها ويسعى لأجلها المغاربة .

كذلك كان للعوامل الدينية دورها الفعال فى هذا الميدان ، فساعدت فى نشاط حركة الاستقطاب باتجاه مصر التى كان لاسمها وقعه الخاص فى أسماع المغاربة من الناحية الدينية. فلها ذكر طيب فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بقول الله تعالى : "واهبطوا مصر فإن لكم ماسألتم"[٦] . وفيها أماكن يحترمها المسلمون ويجلونها ، ذكرها الكندى ونقلها السيوطى فى كتابه (حسن المحاضرة) فذكر الطور والنيل المبارك وقبرى موسى وهارون ، والنخلة التى ولد عيسى بن مريم تحتها ومساجد ابراهيم ويعقوب وموسى وماربة سرية رسول الله (ص) إلى غير ذلك [٧] .

من جهة أخرى كان لطبيعة مصر تأثيرها الواضح والمؤثر على حركة المغاربة . ففيها العديد من المدن والنواحى تشبه مافى المغرب ، كالإسكندرية وبعض مناطق الدلتا ، وتأتى أهمية هذا الأمر من سرعة التأقلم مع البيئة الجديدة وسهولته ، الأمر الذى أخذ بعين الاعتبار عند الفتح العربى للأندلس وبعض مناطق المغرب[٨] .

وأما العوامل الأخيرة التى ساعدت على استقطاب المغاربة إلى مصر ، فهى العوامل السياسية وكانت بمعظمها لصالحهم ، فقد لاقوا فى مصر كل العناية والترحيب من السلطات الحكومية والرسمية منذ فترة حكم نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، حتى نهاية القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى ، وشيدت المدارس باسم المغاربة ، والزوايا والخانقاوات الصوفية والمساجد فى كل أنحاء المشرق العربى وبصورة خاصة فى القاهرة والإسكندرية ، حيث كان الوجود المغربى كثيفاً ومتميزاً .

تنتقل بعد هذه المقدمة المقتضبة إلى دراسة الإداريين المغاربة فى البداية ، ثم ننتقل بعد ذلك إلى دراسة الاقتصاديين .

١- الإداريون . نقصد بالإداريين مجموعة المغاربة التى علمت فى ميدان القضاء والحسبة والدواوين ، إلى غير ذلك من التسميات الإدارية التى عرفت واشتهرت فى المشرق العربى . ويبدو أن الإداريين المغاربة كانوا كثيرين جداً ، توصل بعضهم إلى مناصب رفيعة المستوى فى المشرق وفى مصر بصورة خاصة ، ويمكن تقسيم هؤلاء إلى قسمين رئيسين ، العاملون فى ميدان الإدارة العامة على مختلف درجاتهم ، والعاملون فى القضاء .

- أما العاملون في ميدان الإدارة العامة : فلم تخل دواوين الكتابة من وجود مغربي ، على الرغم من أن أعمال الكتابة كانت نادراً ما تسلم لغير أهل المشرق الذين تميزوا باتقانها والقيام بأعبائها على خير وجه ، وبصورة خاصة دواوين الكتابة في مدينة القاهرة عاصمة الدولة ومقر الحكومة والسلطان ، وفي هذا الميدان عمل من المغاربة نزيل مصر محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري من قلعة بني حماد في الأصل ، الذي أقام ببلدة بوصير من أرض مصر ، وتسلم منصب كتابة ديوان منطقة الشرقية حتى وفاته سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م ، فعكس المسيرة الأخلاقية التي لم يحد عنها معظم من تسلم منصبا إدارياً في مصر العربية من المغاربة ، وهي مسيرة الصدق والأمانة والنزاهة والإخلاص في العمل ، وتألم للحالة المأساوية التي كانت منتشرة في تلك الفترة من الزمن ، والتي تميزت بمجانبة الصدق واستغلال المناصب الإدارية للصالح الشخصي ، فثارت في أعماقه مشاعر السخط والأسى على هذا الوضع الصعب فقال :

فقدت طرائف المستخدمينا ... فلم أر فيهم رجلا أمينا

فقد عاشرتهم ولبثت فيها ... مع التجريب من عمري سنينا

فكم سرقوا النفائس وما عرفنا ... بهم فكأنما سرقوا العيونا[٩]

وعرفت مدينة المحلة الكبرى إدارياً مغربياً عمل في ديوان الإنشاء موظفاً عادياً وهو رضي الدين محمد بن حمزه المغربي المتوفى سنة ٦١٥هـ/١٢١٩م [١٠] .

وبلغت ثقة الحكام المصريين بالمغاربة حداً كبيراً جعلهم يستخدمونهم في مناصب أمانة السجن بالقاهرة ، الذي تسلمه في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، المغربي أبو الحسن علي بن عثمان الصنهاجي اللمتوني المتوفى سنة ٦٩٤هـ/١٢٥٩م . ويبرهن من خلال عمله الذي لم ينفصل عنه إلا بالموت على أنه أهل للثقة التي أولاه إياها رجال الحكم في مصر آنذاك[١١] . كما وصل معاصره الأمير بدر الدين المغربي المتوفى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م إلى منصب رفيع جداً بمدينة القاهرة هو منصب الدواداري ، الذي لم يتسلمه مغربي غيره خلال الفترة موضوع هذا البحث ، لأن مثل هذا المنصب غالبا ما كان يسند إلى المقربين من السلطان وحاشيته . وقد عينه فيه السلطان المنصور لاجين وكلفه بتجديد عمارة جامع ابن طولون[١٢] .

ورفاق جميع الإداريين في مصر المغربي عبد الواحد بن اسماعيل الإفريقي المتوفى سنة ٨٧٦هـ/١٣٨٤م من حيث المرتبة والمنصب الذي شغله بمدينة القاهرة ، وهو منصب كتابة السر

لدى السلطان ، وهو من أكبر المناصب الإدارية ، ومن يتسلمه يعد من شخصيات الدولة المرموقة ، التي يعول عليها في كثير من الامور التي تهم الدولة والمجتمع ، وذلك لأهمية الامور التي يطلع عليها كتاب السر وحساسيتها .

وقد تدرج الإفريقي في السلم الوظيفي حتى توصل إلى هذه المرتبة العالية ، إذ عمل في البداية شاهدا في ديوان أحد أمراء الطبلخاناه ، ولما أصبح برقوق أمير طبلخاناه استخدمه كشاهد ديوانه أيضا ، ثم انتقل بعد ذلك إلى وظيفة موقع الدست [١٣] . وحينما تسلم الظاهر برقوق السلطنة عينه كاتباً للسر ، فصار فيها سيرة حميدة أرضت الجميع ، لكن مدة توليه هذا المنصب لم تدم طويلاً ، فمات متأثرا من مرض أصابه قبل أن يبلغ الأربعين[١٤] ويبدو أن السلطان الظاهر برقوق ، كان يثق في المغاربة ، ودليل ذلك أنه لما تسلطن للمرة الثانية ، قام بتعيين مغربي آخر لمنصب كتابة السر في الدولة وهو علي بن عيسى العامري المعروف بالكركي المتوفى سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م ، وكان قد قدم له بعض المساعدات في منفاه بالكرك ، فكافأه حين عودته إلى السلطنة بهذا المنصب المرموق . ولكنه هو الآخر لم تطل مدته بسبب الوفاة المبكرة[١٥] . وتسلم مغربي آخر كشف منطقة الوجه البحري جميعها ، وهو أحمد بن شرف الدين عبد الهادي بن أحمد المغربي المعروف بابن الشيخ المتوفى سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م ولم يعرف عنه مايسيء إلى سمعته خلال عمله هذا[١٦] .

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، تسلم الحسبة بمدينة الإسكندرية يوسف بن محمد الفلاحي المغربي المتوفى سنة ٨٧٥هـ/١٤٧١م ، وقد اختاره نائبها لهذه الوظيفة سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٦م ، فحمدت سيرته فيها [١٧] .

ب- العاملون في ميدان القضاء :

كان منصب القضاء من أهم المناصب الإدارية التي شغلها المغاربة في مصر خلال الفترة المعنية بهذا البحث ، وبخاصة القضاء على المذهب المالكي مع وجود بعض القضاة على المذاهب الأخرى ، ومن الجدير ذكره قبل استعراض بعض أسماء هؤلاء القضاة ، أن منصب القاضي المالكي في مصر ، وخاصة في مدينتي القاهرة والإسكندرية ، كان من أقدم المناصب القضائية، لكون هاتين المدينتين ، ولاسيما الإسكندرية ، تضمان الكثيرين من الذين يتمذهبون بالمذهب المالكي ، زاد عليهم المغاربة وكلهم على هذا المذهب ، إلا أن القضاة المالكيين من المغاربة لم يكونوا جميعاً في سوية واحدة ، سواء أكان ذلك من حيث الأهلية والثقافة ، أم على صعيد الأخلاق والصفات الإنسانية ، على عكس جميع من عرفتهم مصر في حقل الإدارة أو غيرها ،

والذين اتسموا بشكل يكاد يكون كاملا بالأخلاقية والجدية فى العمل ، وكذلك الصدق والأمانة . ويعد المذهب المالكى فى مدينة الإسكندرية بشكل خاص المذهب الوحيد فى مجال القضاء حتى سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م حين استحدث منصب آخر ، وهو منصب قاضى الحنفية ، يقول المقريزى فى حوادث سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م : (واستقر شهاب الدين إبراهيم بن عمر المعروف بهبة الحنفى قاضياً بالإسكندرية زيادة على قاضيها جمال الدين ابن الريفى المالكى ولم يعهد قبل ذلك فى الإسكندرية قاضيان) [١٨].

وتمثلت أول مشاركة للمغاربة فى منصب قاضى المالكية بمصر بحسب معظيات المصادر المعاصرة بتعيين محمد بن الحسن بن عبد السلام المعروف بابن المقدسيه أبو بكر السفاقسى ، وهو ابن أخت الحافظ أبى الحسن المقدسى الذى لايستبعد أن تكون ولادته ونشأته بمصر ، حيث درس بالإسكندرية ، وتولى نيابة القاضى المالكى فيها حتى وافته المنية سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م[١٩] أما قائمة القضاة المستقلين من المغاربة فقد افتتحها بالإسكندرية ، قاضى القضاة محمد بن أبى القاسم بن عبد السلام الربعى التونسى شمس الدين المتوفى سنة ٧١٥هـ/١٣١٦م ، الذى أهلته ثقافته لهذا المنصب ، فقد درس على عدد من كبار علماء القاهرة ، الأمر الذى ساعده لأن يعنى ويدرس فى عدة مدارس بالقاهرة قبل توليه منصب القضاء بصورة مستقلة ، فاتساق وراء شهراته مستغلاً ما هو عليه من علو المرتبه والمكانة المرموقة ، وقبل الرشاوى وسلك الأساليب غير المستقيمة وغير اللائقة بمنصب قاضى القضاة ، وكان يصرح ذاتها بقوله : (أنا أعرف كيف آخذ الدراهم فى قضاء الحوائج) [٢٠] .

ولم يكن وجود العاملين فى ميدان القضاء من المغاربة مقتصراً على المدن الكبرى التى كانت محط أنظار الغرباء بتشكيل خاص ، مثل القاهرة والإسكندرية ، وغيرهما من المدن الأقل سكانا وأهمية . ففى مدينة المحلة الكبرى توصل إلى مرتبة القضاء على المذهب المالكى أبو القاسم بن بنوف التونسى ، الذى زاره ابن بطوطة سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م خلال مروره بالمحلة الكبرى ضمن رحلته المعروفة ، وكان مايزال على رأس عمله الذى مارسه بعفة وإخلاص[٢١] . وعلى الرغم من كثافة الوجود المغربى فى مدينة القاهرة خلال هذه الفترة فإن وصول المغاربة إلى منصب القضاء فى هذه المدينة بصورة مستقلة جاء متأخراً بعض الشىء ، إذ ولى منصب قاضى قضاة المالكية عيسى بن مسعود الزواوى خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى وتوفى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٣م . وقد تلقى معظم ثقافته التى كانت فى غالبها دينية مثل الفقه والحديث والعربية من المغرب فى بجاية وتونس ، وبدأ عمله القضائى

بمدينة دمشق نائبا لقاضيها حتى استقل بهذا المنصب فى القاهرة ، ولم يؤخذ عليه شىء فيما يتعلق بمجال عمله هذا [٢٢] .

أما معاصره أحمد بن محمد المعروف بابن المخلطة الصنهاجى المتوفى سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٨م فقد ولى قضاء الإسكندرية بصورة مستقلة أيضا بعد إقامة وجيزة بدمشق غداة وصوله من المغرب ، وكان من القضاة الذين حمدت سيرتهم وأثنى عليهم [٢٣] .

ولم تكن أهلية القضاة الذين تسلموا القضاء هى التى أوصلتهم الى حيث وصلوا فى كثير من الأحيان ،إنما وجدت عوامل على أرض الواقع المصرى كان لها تأثيرها ، الأمر الذى لايمكن تجاهله أو غض الطرف عنه عند بحث مسألة من هذا القبيل ، مثال ذلك أن السلطان فى الكثير من الأحيان كان يقدم بعض من وقف إلى جانبه فى أمر من الأمور أو فى مناسبة ما ، ويوليه القضاء بغض النظر عن المؤهلات الثقافية التى لابد من توافرها فيمن يتولى هذه المهمة الصعبة . وهذا ماحدث بالفعل فى زمن السلطان الظاهر برقوق وتحديدا خلال فترة سلطنته الثانية سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م ، حينما قدم محمد الركراكى المغربى على جميع من فى حاضرة حكمه وعينه قاضى قضاة المالكية بالقاهرة ، وهو الذى امتنع عن فتيا ضد السلطان الظاهر برقوق خلال فتنة حدثت قبل تسلمه هذا المنصب بزمن قليل مع أن ماضيه الأخلاقى ، لم يكن يؤهله لتولى منصب القاضى المالكى[٢٤]. وعندئذ أصبح أداة طيعة فى أيدى السلطان وحاشيته فحاباهم ونفذ كل ماطلبوه منه فى ميدان عمله ، الأمر الذى جعل بعض من رثاه يفصح بوضوح تام ، ومنهم عيسى بن حجاج الذى قال فيه :

لهفى على قاضى القضاة محمد ... الف العلوم الفارس الركراكى

قد كان رأسا فى القضاء فلأ جل ذا ... حزنت عليه عصابة الأتراك [٢٥]

ولعل أعظم من ولى القضاء على المذهب المالكى من المغاربة فى مصر كلها من حيث المؤهلات العلمية والقضائية والسيرة الحميدة والسلوك المستقيم ، القاضى عبد الرحمن بن محمد بن محمد ولى الدين الحضرمى المعروف بابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م إلا أنه على الرغم من أهليته التى لا مثيل فيها عزل عن عمله وأعيد مرات عديدة ، كان آخرها السنة التى فارق الحياة فيها ، والسبب فى ذلك يعود إلى أنه وجد فى عصر كان فيه سلاطين المماليك ورجال الحكم من معاونيهم لايقيمون وزناً للنزاهة وخاصة فى منصب حساس مثل منصب القضاء ، لأنها تتعرض بالضرورة لمصالحهم ، وهى فى نظرهم تتقدم على كل شىء ، لذلك كان ابن خلدون الذى اتصفت أحكامه بالصرامة والاستقلال يعزل لأتفه الأسباب ، وأقلها

شأناً وموضوعية ، كرفض وساطة السلطان أو غيره من الأمراء ، الذين جعلوا من منصب القضاء وسيلة لجمع المال والثروة ، على أساس أنه كان يباع لمن يدفع أكثر ، دون النظر إلى أهلية المشترى ، شأنه في ذلك شأن المناصب الأخرى ، وقد صور المقريزي هذا الجو الفاسد بقوله: فإذا أراد أحد ولاية شيء من الأمور تحدث مع حاشية الأمير بركة حتى يتقرر له مايريد، ثم يستقر فيما يقرر فيه من الوظائف . غير أن الولايات كلها من القضاء والحسبة وولاية الحرب في الأعمال والكشف وسائر الوظائف ، لاسبيل أن ينالها أحد إلا بمال يقوم به أو يلتزم بأدائه ويكتب به خطه ، فتطاول كل نزل رذل وسفلة إلى ما سنح بخاطره من الأعمال الجليلة والرتب العلية فدعا الناس من ذلك بداهية دهياء أو جبت خراب مصر والشام) [٢٥] .

وذكر ابن خلدون عن نفسه ، وذكره غير واحد ، أنه سلك عكس ما أراده بعض من ضعف نفسه من أهل السلطة والحكم في عصره . فقد سلك طريق الحق في كل أحكامه ، الأمر الذي لم يعجب الكثيرين من ذوي الشأن الذين اعتادوا على أن تكون جميع طلباتهم مقبولة وشفاعاتهم مستجابة ، وهذا ما رفضه ابن خلدون ، فكثر الشغب عليه وأظلم الجو بينه وبين أهل الدولة . ويذكر أن ذلك توافق مع مصابه بفقد أهله وماله في السفينة التي غرقت وهي في طريقها إلى مصر[٢٦] .

وقد طال أمد وجود المغاربة في منصب القضاء المالكي بعد ابن خلدون أكثر من ربع قرن من الزمان في مدينة القاهرة والإسكندرية حتى جاء واحد منهم وشغل منصب قاضي قضاة الإسكندرية ، وكان من الذين عرفوا بجهلهم المطبق بالمعارف الضرورية لمن يريد العمل في هذا الميدان كعلوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير ، وهو أحمد بن سعيد التلمساني المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م . ومع ذلك فقد سار في وظيفته مسيرة حق واستقامة[٢٧] . وعلى النقيض من جهة المؤهلات ، اشتهر بالقاهرة نائب القاضي المالكي نور الدين الرهوني المغربي المتوفى سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٦م ، وعرف بشدة تهوره في أحكامه وإقدامه على ظلم الناس ، وأتى على تنفيذ أحكام لايقدم عليها أحد من القضاة الراعين[٢٨] .

وخارج مدينتي الإسكندرية والقاهرة تسلم منصب قاضي قضاة المالكية المغربي محمد بن محمد المعروف بابن حريز المتوفى سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٩م بمدينة منفلوط . وجمع هذا القاضي ما يحتاجه أمثاله من معرفة ومؤهلات وأمانة ، وحرص على الحق ونصرته في أحكامه . وهذا ما أجمع عليه كل الذين عاصروه وفرحوا به لما خلف القاضي ولي الدين السنباطي بمدينة القاهرة[٢٩] . واشتهر من آل حريز الذين كانوا يسكنون مدينة منفلوط عمر بن محمد سراج

الدين المغربي المنفلوطي المتوفى سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م ، الذي حصل على ثقافته الواسعة من شيوخ مكة ومنفلوط ، وتميز بأخلاقه وأحكامه الحيادية المنصفة ، لم تحرفه عنها حالته المادية البائسة وديون أخيه الذي تكفل بتأديتها عنه فكان مثال القاضي الذي لايرى بدلا عن امتثال الحق في ميدان أعماله[٣٠] .

والشيء اللافت للانتباه هنا ، أن جميع القضاة الذين التزموا في مهماتهم القضائية جانب الحق والصدق والأمانة تعرضوا للمضايقات وانتهوا نهايات محزنة مثل العزل ، بعكس الذين سلكوا طريق مجانبة الحق ، حينما وجدوا بأن من مصلحتهم تنفيذ ما يريده السلطان ومعاونوه. وعكس ابن تغري بردي الأتابكي هذا الحال في كتابه (النجوم الزاهرة) كما فعل المقريزي من قبله ، حينما تفاقمت الأمور وأصبحت أسرأ مما كانت عليه زمن المقريزي ، علما بأن ابن تغري بردي ينتمي من ناحية بالأصل إلى المماليك ، الذين حكموا مصر والشام[٣١] .

وهكذا فقد كان للقضاة المالكيين المغاربة دور هام في الحياة الاجتماعية بمصر ، وتأتي أهمية هذا الدور من شهرتهم بالأحكام الصعبة والقاسية من حيث نتيجتها . فجميع المسائل الكبرى التي كانت تواجه القضاة من المذاهب الأخرى تحال إلى القاضي المالكي ، مثل قضايا الكفر والإلحاد والزندقة والخروج على الدين ، وقضايا الخيانة . والأمثلة في هذا الميدان كثيرة جدا ، منها أنه في سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م ادعى عند القاضي المالكي على الطنبغا الحلبي والطنبغا دوادار جقمق بأمور تقضي الكفر ، فحكم بإراقة دمهما وأعدما[٣٢] ، وحدث في سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٤م أن جماعة بالقاهرة اتهموا بالزندقة فأحيلوا إلى القاضي المالكي الذي أمر بضرب رقاب ستة منهم[٣٣] وكذلك كانت عاقبة من يرتد عن الاسلام[٣٤] .

ج- السياسيون :

وهم مجموعة من المغاربة ، لم يتعد عدد أفرادها أصابع اليد ، تدخلوا في شؤون الحكم والسياسة ، وكان لهم رأيهم الخاص في هذا المجال ، وبخاصة في فترة حكم المماليك . وكان الواحد منهم طموحاً لتولي السلطة ، الأمر الذي ندر عند المشارقة على الإطلاق . واعتبر تدخلهم في شؤون السياسة ، التي كانت تنتهجها طبقة الحكام آنذاك من أشد الأمور مساساً بمركز السلطان ، ذلك لأنه لم يسبق لأحد أو لجماعة أن تدخلت في شؤون السلطنة من أهل البلاد الأصليين ، فالمشاكل من هذا القبيل تصدر عن المماليك أنفسهم .

الحادثة الأولى كانت سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٢م ، وتتلخص بقيام أحد المغاربة بمجادلة جركتمر بن بهادر أحد أمراء المماليك آنذاك بالقاهرة ، وكان المغربي يتهمه بأنه قتل الملك المنصور بن

الملك الناصر محمد بن قلاوون ، الذى خلفه فى السلطنة مباشرة بعد موته ، ولفترة قصيرة لم تتعد بضعة أشهر ، وبلغت الجرأة بهذا المغربى أن كتب بذلك إلى الأمير قطلو بغا الفخرى ، فقبض على المغربى ، ولاريب فى أن مصيره كان القتل ، فلا رحمة فيمن يطرح مثل هذه الأمور وعلى الأخص فى فترة من أصعب فترات التاريخ العربى الإسلامى وأحلكها وهى فترة حكم المماليك فى المشرق العربى [٣٥] ولا يذكر المقريزى اسم هذا المغربى على الرغم من دقته وشدة ملاحظته بالإضافة إلى أنه المصدر الوحيد ، الذى أتى على هذه الحادثة .

وبلغ الأمر ببعض نزلاء القاهرة الدائمين من المغاربة أن أرجعوا سوء الحالة الاقتصادية وتفاقم الأمور وتدهورها إلى سياسة السلطان نفسه ، فقد اتهم مغربى جرىء السلطان بأنه السبب فيما وصلت إليه حالة الاقتصاد من سوء وتدهور ، وتحسس بصورة كبيرة لهذه القناعة التى تكونت عنده حتى أخذ يدعو الناس فى القاهرة للتخلص من السلطان ، وحدث ذلك سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٤م التى عمت خلالها موجة من الغلاء والقحط لم يعهد لها مثيل من قبل على حد قول من كتبوا عنها . وبلغ الأمر بهذا المغربى ، الذى لم يذكر المقريزى اسمه أيضا ، إلى التوجه إلى مكان قريب من القلعة مكان إقامة السلطان والأمراء وتحريض الناس علانية على قتل السلطان والتخلص منه لان فى ذلك مفتاح حل الأزمات التى تعانى منها البلاد فى ذلك الوقت . يقول المقريزى : (وفى ثالث عشر ذى الحجة ، قبض على رجل مغربى كان يقف فى الليل تحت القلعة ويصيح ، اقتلوا سلطانكم ترخص أسعاركم ويجرى نيلكم فضربه والى القاهرة وتركه) [٣٦] .

وحادثة ثالثة تدخل من خلالها المغاربة فى أمور السياسة ، كانت من أخطر الحوادث على مستقبل السلطان والحكم بصورة عامة ، وبطلها أحد المغاربة الذى قام بالتخطيط مع بعض أمراء العرب للإطاحة بالسلطان المملوكى والتخلص من حكم المماليك نهائياً . لكن هذا التخطيط لم يكن له من العمق والارتكاز على ثوابت موضوعية مايمكن صاحبه من الوصول إلى مايهدف إليه . وكان أن أخفقت أول وآخر محاولة من هذا القبيل خلال العصر المملوكى . وهى إن دلت على شىء فهى تدل على أن المغاربة نزلاء المشرق العربى ، كانوا على درجة من الوعى والنضوج بصورة تدعو للقول ، أنهم تفوقوا على أضرابهم من المشارقة . وصاحب هذه المحاولة الفريدة فى عصر المماليك جمال الدين محمد العنابى المتوفى سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م ، وهو الذى اختص به السلطان الظاهر برقوق وقربه إليه . وملخص محاولته الفاشلة قيامه بالاتصال مع الأمير العربى موسى بن محمد بن عيسى وهو فى السجن بأمر السلطان برقوق ،

وعرض عليه أن يخبر جميع أنصاره بأن يحضروا إلى قريب من القاهرة وينتظروا حتى يخرج السلطان ، الذى كان على وشك الخروج الى الشام ، ومن ثم يهاجمون القاهرة بدعمهم فى ذلك خمسمائة مملوك بقيادة العنابى من داخلها ويسيطرون عليها . وبعد أن تتم عملية السيطرة على القاهرة يعلن العنابى خليفة شهاب الدين بن قايماز أنابكا "للجيش ، ويتم أيضا" تعيين سلطان جديد ، ومن ثم تنفيذ مايراه هؤلاء مناسباً من الأعمال . لكن الأمير السجين لم يوافق على مايبدو على خطة العنابى لأنه لم يعطه منصباً قيادياً كبيراً ، فكان أن سلم مذكرة العنابى إلى من أوصلها إلى السلطان الذى أمر باعتقال العنابى وأجرى معه تحقيقاً طويلاً واعترف هذا من خلاله بخطته الرامية لقلب نظام الحكم والإطاحة بالسلطان ، فصدر الأمر بقتل هذا المغربى [٣٧] . وبذلك انتهت أول محاولة تجرأ مغربى على القيام بها . وتدل هذه المحاولة على مدى الوعى الذى تجسد فى الأوساط الشعبية وعدم رضاها على الحكام المماليك ، الذين عاشوا فى غربة دائمة كانت تفصلهم عن الأرض والشعب على حد سواء فى كل تصرف وفى كل خطوة خطوها على أرض المشرق .

د- العسكريون :

واجهة الإدارية الأخيرة الهامة التى شارك المغاربة فيها هى مؤسسة الجيش . فمن المعروف أن الأعداء التاريخيين الذين هددوا وجود العرب وكيانهم منذ أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، تجسدوا بالدرجة الأولى فيمن دعوا باسم الصليبيين ، وكان من الطبيعى أن يتطوع المغاربة لمحاربتهم . وهم الذين شاركوا فى طرد العرب من الأندلس . ومما يلفت الانتباه أن من تطوع وشارك فى الجيش المصرى من المغاربة عمل فى سلاح البحرية . وفوق هؤلاء فى هذا المجال لكونهم أبناء بيئة بحرية وهم من ذوى الخبرة فى شؤون البحر . والباحث فى هذا الأمر ، لابد من أن يصطدم ببعض العراقيل لأن المصادر تضن بمعلوماتها وكل مانجده إشارات فى سياق أخبار أخرى . ولكن لهذه الإشارات أهميتها البالغة لأنها تدل على الحجم الكبير لمشاركة المغاربة فى مؤسسة الجيش بمصر .

ولعل أول اشارة فى هذا المضمار وردت عند ابن جبير فى رحلته المشهورة ، اذ يروى أنه فى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٤م . جاءت جماعة من نصارى الشام فاستولوا على بضاعة كان تجار اليمن يحملونها فى ميناء عيذاب . وفوق هذا أشاعوا أنهم يقصدون إخراج ضريح الرسول العربى الكريم من الحجاز ، واقتربوا من المدينة ، فجهزت مراكب من مصر والإسكندرية برئاسة الحاجب المعروف لؤلؤ ومعه نخبة من أنجاد المغاربة البحريين ، لحقوا بالنصارى سابقى الذكر وتمكنوا من إبادتهم جميعا" [٣٨] .

وتجسد وجود المغاربة بشكل رئيسي بمدينة الإسكندرية القاعدة البحرية الهامة التي كانت تنطلق منها القطع البحرية المصرية في البحر المتوسط . ويفهم من بعض الأخبار أن المغاربة توصلوا الى أرفع المناصب القيادية في بحرية مصر العسكرية ، فتوصل أحدهم إلى مرتبة رئيس في البحرية . ويذكر اليونيني صاحب كتاب (ذيل مرآة الزمان) أن من بين الأسرى الذين أسرهم الفرنج سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٥م بالقرب من قبرص الرئيس شهاب الدين أبو العباس المغربي. ولا يعطي اليونيني تفاصيل وافية عن تدرجه في البحرية المصرية ، حتى وصل إلى هذه المرتبة . لكن الذي يفهم من لقبه (الرئيس) أنه كان من القادة المشهورين في عصره ، إذا لم يكن قد تسلم رئاسة بحرية مصر خلال فترة خدمته العسكرية . ودليل ذلك أنه أثر عودته من إحدى الغزوات طلبه الظاهر بيبرس ومن كان معه من الجند ووبخهم . فبادر للدفاع عن نفسه ومن كان معه[٣٩] .

واتفق أن أحد الأمراء المغاربة – ولأمور غامضة – ترك بلاده ولجأ إلى القاهرة ، وفيها عمل في الجيش المصري البري وهو أبوديرس عثمان بن سعيد المغربي أمير قابس . الذي أقطع فيها بعض الاقطاعات . ويذكر ابن كثير أنه كان يركب مع الجند في زي المغاربة متقلداً سيفاً. وكان نظامياً لايتغيب عن الخدمة وظل هكذا حتى وفاته سنة ٧١٣هـ/١٣٣١م[٤٠].

وكان المغاربة في مقدمة المتطوعين والمندفعين إذا ما طلب منهم ذلك ، وفي معظم الأحيان يسبقون أهل البلاد الأصليين إلى الدفاع . ذكر المقريزي في كتابه (السلوك) أن الأمير بلبغا الأتابك اهتم بعمل الشوانى البحرية لغزو الفرنج ، وبعد اتمام العمل : "نودي بالقاهرة ومصر بحضور البحارة والنقاطة ومن يريد الجهاد في سبيل الله الى بيت الأمير بلبغا الأتابك للعرض وأخذ النفقة للسفر في المراكب فاجتمع عدة من المغاربة رجال البحر وكتبت أسماؤهم وقررت لهم المعاليم وأقيمت لهم نقباء وقاموا بمساعدة صناع المراكب "وقد حدث ذلك في سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٦م[٤١] ويقول في مكان آخر وضمن حوادث سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م مايلي : "كملت عمارة الشوانى البحرية وعدتها مائة قطعة مابين غربان وطرائد ، فاستخدم الأمير بلبغا من الرجال مايكفيها ، وجمعهم مابين مغاربة وتراكمين وصعايدة ورتب لهم رؤساء ونقباء وأنفق فيهم المعاليم المقررة"[٤٢] .

وتكرر تسلم المغاربة لقيادة الأسطول الحربي في مصر في بعض الغزوات ، كما حدث سنة ٧٧٩هـ/١٣٦٨م حينما تسلم قيادة الأسطول الحاج محمد التازي المغربي . يقول المقريزي : "وقدم الحاج محمد التازي المغربي رئيس البحر ، وقد تسلم من الشوانى التي عمرها الأمير

غرابا "أكمله بالعدد والآلات وشحنه بالمقاتلة من رجال المغاربة ، وأخذ غراباً آخر من الإسكندرية مكملاً بالعدد والرجال . ومضى في البحر وهجم على الفرنج فملك منها غراباً قتل منه جماعة وأسر باقيهم . وقدم في التاسع والعشرين من شعبان ، فتلقاه جماعة من الأمراء بتجمل عظيم وخرج الناس إلى لقائه وسروا به ، فلما تمثل بين يدي السلطان خلع عليه وأنعم عليه بجميع ما أحضره من الغنائم[٤٣] .

ويبدو أن معظم البحارة الذين وجدوا بصورة دائمة في مواقع البحرية بمدينة الاسكندرية كانوا من المغاربة ، ودليل ذلك أنه في سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٩م هوجمت الإسكندرية فتولى المغاربة الدفاع عنها بشكل رئيسي . يقول المقريزي : "وفي يوم الجمعة ثامن ذي الحجة . قدم الخبر بنزول أربع قطائع على الإسكندرية من الفرنج وأنهم رموا المدينة بمنجنيق ، فخرج تلك الليلة ثلاثة وعشرون أميراً منهم ثلاثة من الألوف وعشرة من الطبلخاناه وعشرة من أمراء العشرات ، فقدم الخبر في عشية السبت أن المغاربة والتركمان نزلوا في المراكب وقاتلوا الفرنج وقتلوا منهم نحو المائة وغنموا منهم مراكبا "[٤٤].

وقد دلت بعض الأحداث التي ذكرها المؤرخون عن مشاركة المغاربة في أعمال البحر ، أنه لم يكن في سلاح البحرية المصرية أشجع من أهل المغرب . وتكاد شهرتهم في هذا الميدان تعلو كل شهرة ، وأنه كان لابدانيهم في صدق العمل وشدة الاندفاع أية مجموعة أخرى . ففي سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٦م فوجيء أهل مدينة الإسكندرية بالفرنج في عقر دارهم وهم على حالة من عدم الاستعداد والغفلة ، فبادر المغاربة بالنزول الى البحر بدون لباس ولامراكب واستطاعوا أن يقبضوا على غراب المقدمة المعادي واقتادوه باتجاه الشاطيء بقصد حرقه ، الأمر الذي لم يتم لأن الرماة لم يكونوا على استعداد لهذا الأمر . ويذكر المقريزي أن هذه المجموعة من المغاربة اشتبكت بعد ذلك مع ركاب الغراب بالسيوف على الشاطيء[٤٥] واستمرت مشاركة المغاربة مع مرور الأيام في الجيش المصري ، وقد أصبحوا من سكان المشرق مثلهم مثل السكان الأصليين لايتمايزون عنهم . ففي زمن السلطان الأشرف برسباي وخلال النصف الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، شاركوا في غزو قبرص ، وكان منهم حسين بن أحمد المغربي المعروف بالطولوني الذي غزا مع الغازين ثم عاد وتوفي سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٦م[٤٦].

أما العاملون في مجال الاقتصاد من المغاربة ، فقد كانوا مجموعة كبيرة جدا ، على الرغم من عدم ذكر المصادر لأفرادها بصورة مستقلة . فلم تذكر المصادر من رجال هذه الفئة إلا الذين

كانت لهم عناية خاصة بأمور علمية معينة مثل الفقه والحديث والعربية إلى غير ذلك . وقد توزع هؤلاء عدة أقسام ، فمنهم من عمل بالصناعة ، ومنهم من عمل بالتجارة ، ومنهم من عمل بالزراعة ، وآخرون في ميادين الخدمة المتنوعة . فعلى صعيد الصناعة كان نشاطهم بارزاً ، ولاسيما اذا أخذنا بعين الاعتبار صناعات ذلك العصر ومدى تقدمها . فقد اشتغلوا بصناعة الحرير من نوع الستلاطون ، الذي لم يكن معروفاً على مايبدو في مصر بشكل واسع ، فجاءوا وروجوا هذه الصناعة ونشروها في كل أنحاء مصر . فقد اشتغل في هذه الصناعة لفترة طويلة بمدينة القاهرة ، أبو العباس أحمد الحرار التجيبي من رجال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . وكانت هذه الصناعة مصدر رزقه الرئيسي . ويبدو أن هذه الصناعة انتشرت بسرعة في مصر ولاسيما في مدينة القاهرة ، يظهر ذلك من خلال قول نقل عن هذا المغربي هو: "وكنت أكب زناراً حريراً بدرهم وأجعله عند الزيات فآخذ منه في عشية كل يوم رغيفاً - أقتات به فاذا فرغ الدرهم أكب زناراً غيره وهكذا . فلم أزل على حالتي أكب الحرير حتى قيل لي ان لم تتركه أعميناك"[٤٧] . فلو لم تكن هناك جماعة من العاملين بهذه الصناعة بالقاهرة ، لما كان هذا المغربي تلقى هذا التهديد الذي ذكره ، والذي لايستبعد أن يكون سببه القضاء على منافسته في ميدان هذه الصناعة ، لكن الذي لايمكن تحديده ، أن التهديد هنا لايعرف ، إذا كان من جماعة من المشارقة أو المغاربة ، وإن كان الاحتمال الأكبر أنه صدر عن جماعة من المغاربة العاملين بهذه الصناعة .

وفي صناعة النسيج العادية ، اشتغلت مجموعة من النساء المغربيات ، لايذكر ابن حجر أياً من أسمائهن ، لأنه كان في صدد الحديث عن عبد الله المغربي المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م ، وهو شقيق إحداهن وكان لايلبس إلا من انتاج شقيقته[٤٨] .

وتوصل بعض المغاربة بمدينة القاهرة إلى أن أنشأ معملاً أو ما يشابه ذلك لصناعة الغزل والنسيج . فقد ذكر المقريزي في صدد حديثه عن منطقة الميدان الصالحي: "أن الميدان الصالحي ظل باقيا إلى سنة ٧٤٠هـ فأدخله صلاح الدين المغربي في قيسارية الغزل التي أنشأها هناك" ومن هذا القول يستنتج أن هذه المنشأة كانت كبيرة وواسعة ، ولابد أنها كانت غزيرة الإنتاج[٤٩] .

وظهرت براعة المغاربة في مجال آخر من مجالات الصناعة ، التي اعتبرت جديدة في ذلك العصر على مجتمع مدينة القاهرة . فقد قام عبد الله بن محمد السوسي المتوفى سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م بصناعة نوع من الورق ، كان يستخدم لكتابة بعض الآيات القرآنية وما إلى

ذلك . ذكره السخاوي بقوله : "كان أعجوبة الدهر في صناعة الأشياء الدقيقة ، حتى كان يصنع بيده رقاً يكتب فيه بخطه الدقيق سورة الإخلاص وآية الكرسي"[٥٠] .

أما بشأن العاملين في ميدان الزراعة فيمكن تقسيمهم إلى قسمين ، أولهما ، الذين عملوا في حراسة الحقول والبساتين والكروم والحدائق ، وهو أمر اشتهر به المغاربة خلال وجودهم في المشرق بصورة عامة ، مثل المتصوف المغربي أبي موسى الدكالي ، الذي عمل في حراسة الكروم وحفظها بمدينة الإسكندرية خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي[٥١] .

أما القسم الثاني ، فهم الذين امتلكوا الأراضي واستزرعوها ، أو الذين عملوا عند مالكين مصريين وغيرهم . فقد ذكر المقريزي في كتابة الخطط طبيباً باسم (ابن المغربي) كان يمتلك بستاناً" بمدينة القاهرة" اشتراه منه القاضي كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقي بنحو مئة ألف درهم فضة ، عنها زهاء خمسة آلاف مثقال ذهباً" [٥٢] وتدل هذه الإشارة على أن المغاربة ، كانت لهم رغبة فائقة في العمل الزراعي ، وإلا لماذا لم يقف هذا الطبيب عند حدود علمه واختصاصه ودخله منه ؟

وكانت الزراعة على مايبدو الملجأ الأمين ، أو بعنى آخر الاحتياطي ، الذي يغني من يعمل به ويساعده على العيش محفوظ الكرامة اذا ما أحدقت به الصعاب ، فعلى الرغم من علم ابن خلدون ومكانته الرفيعة كقاضي قضاة للمالكية بالقاهرة ، فقد كان يلجأ إلى العمل بالزراعة ، حينما كانت الأمور تسير في غير صالحه في الميدان الإداري والعلمي ، يذكر عن نفسه أنه في سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م توفي القاضي المالكي أحمد بن محمد التنسي ، فبعث إليه ليخلفه في القضاء يقول : "وكنت مقيماً" بالفيوم لضم زرعي هنالك"[٥٣] . ومثل ابن خلدون كان القاضي حسام الدين محمد المعروف بابن حريز المغربي المتوفى سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٩م الذي توسع في أمور الزراعة والري بمصر ، فشملت نشاطاته عدة وجوه وكانت له اهتمامات مختلفة الأمر الذي جعله يصنف في المنتجين الزراعيين المرموقين في عصره ، فقد اعتنى بفن السقاية والري ، فاستجر المياه إلى الأراضي المراد إرواءها . ومن ناحية أخرى اعتنى بتربية النحل وصناعة السكر والقنود إلى غير ذلك . ويقول ابن تغري بردي" وحبب إليه الزراعات ودولبة السواقي وعمل القنود والسكر والأعسال ، واتسع أمره في ذلك حتى صار في أمر كبير من المتحصل في السنة يكون ذلك آلافا "مؤلفة" [٥٤] .

أما في الحقل التجاري فإن الأمر يختلف عما كان بالنسبة للصناعة والزراعة ، من حيث توفر الأمثلة الواضحة . فلم يجد التجار المغاربة أي مانع من الانتقال وشحن البضائع إلى حيث يريدون من بلدان المشرق العربي وغيرها .

من هؤلاء التجار كان شعيب بن يحيى القيروانى المتوفى نة ٦٤٥هـ/١٢٤٨م نزيل الإسكندرية ، الذى تصدق بالكثير من ماله على الفقراء من خلال الأوقاف التى جعلها للصرف عليهم[٥٥] . وفى القاهرة عمل ابراهيم بن عبد الملك المغربى المتوفى سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٦م ، تاجراً عند السلطان فجمع مالاً كثيراً ، حاول إرساله المغرب ، حتى لاتصادره الدولة ، لكنه لم يفلح وصودرت أمواله[٥٦] . وبالقاهرة أيضا" اشتهر عمر بن غازى المغربى خلال القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى على أنه أبرز تجارها ، وكثرت أمواله ، وانتهى إلى المصير نفسه الذى لاقاه سابقه ، حيث تمت مصادرة أمواله وإهانته[٥٧] ، وذكر السخاوى أن محمد بن عبد الرحمن التونسى ، كان يتكسب بالتجارة بمدينة دمياط لكنه على مايبدو لم يفلح فى هذا المبدان ، بدليل أنه تحول الى عمل آخر كان أقل شأنا" ، وظل هكذا حتى وفاته سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٦م[٥٨] وعاصره التاجر المغربى مساعد بن جاهد المصراتى ، الذى أمضى الجزء الأكبر من حياته تاجراً متجولاً بين مصر والحجاز واليمن والهند ، وكانت معظم اقامته بمصر ، حيث رآه السخاوى فيها كثيرا" ، لكن وفاته باليمن سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٦ ، [٥٩] .

وهناك فئة أخرى من المغاربة الفقراء أكثر عدداً وأوسع انتشارا" ، وعمل رجالها فى مجالات اقتصادية هامة ومتنوعة ، منها ماهو صناعى ومنها ماهو زراعى وآخر تجارى ، وأفراد هذه الفئة لايقلون أهمية عن العاملين فى المجالات الأخرى الآنفة الذكر من حيث النتيجة، ويمكن تسميتها برجال الخدمة . وهم مجموعة من المغاربة الفقراء الذين يختلفون عن المجموعات الأخرى من حيث طبيعة الأعمال التى مارسوها واشتغلوا فيها ، فقط ، وقد تمثلت هذه الأعمال فى ميادين ومجالات متنوعة ، مثل العمل فى حراسة طاحونة ما ، أو بستان أو حمام الى غير ذلك من هذا القبيل . وربما دفع هؤلاء للعمل فى هذه المجالات ، أن ظروفهم العامة ، لم تكن تساعدهم أو تؤهلهم لشغل مناصب على مستوى أرفع وأفضل مردودا مثل العمل فى حقل التدريس أو فى حقل التجارة أو غير ذلك . وإن خير من فقد الأعمال التى امتهنوها فى المشرق الرحالة ابن جبير الأندلسى ، حينما تحدث عن الجالية المغربية فى المشرق فقال: "فالغريب المحتاج هنا إذا كان على طريقة خير وصون ، محفوظ غير مريق ماء الوجه . وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحالة ممن عهد الخدمة أو المهنة ، يسبب له أيضاً أسباب غريبة من الخدمة ، اما بستان يكون ناطورا" فيه ، أو حمام يكون عينا" على خدمته ، وحائطا" لأبواب داخلية ، أو طاحونة يكون أمينا عليها ، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم ، ويصرفهم إلى منازلهم ، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة ، وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت فى الأمانة وطار لهم فيها ذكر"[٦٠] .

وتوجد بعض الأمثلة التى تبرهن على إقبالهم على مثل هذه الأعمال واشتهارهم فى مجالها ، هذا بالإضافة إلى أنها تشير إلى أنهم كانوا كثيرين جدا" ، فقد جاء على لسان المقريزى فى كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) ، أن أكثر من ألف حمام كانت مع جيش صلاح الدين ، ترافقه أينما ذهب ، وكان أكثر الذين قاموا بمهمة تجهيز وتحضير الحمامات مع جيش صلاح الدين ، كانوا من المغاربة الفقراء يقول :" وكان فى المعسكر أكثر من ألف حمام ، وكان أكثر مايتولاها المغاربة ، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة ، ويحفرون ذراعين ، فيطلع الماء ويأخذون الطين ، فيعلمون منه حوضا "وحائطا" يسترونه بحطب وحصير ، ويقطعون حطباً من البساتين التى حولهم ، ويحملون الماء فى قدر ، وصار حماماً بغسل الرجل رأسه بدرهم أو أكثر" . ولايستبعد أن تكون أعداد كبيرة منهم ، قد شاركت إلى جانب هذا العمل فى أعمال أخرى ، مثل الطبخ وتجهيز الطعام للجيش وما إلى ذلك[٦١] .

وكثر هؤلاء المغاربة فى المدن المصرية الكبرى كالقاهرة والإسكندرية وبعض الحواضر ، التى كانت محطة للمسافرين من مصر والقادمين اليها ، مثل مدينة قوص التى عرفت كثيراً من هؤلاء ، مثل محمد بن أحمد المغربى المتوفى سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م ، الذى سكن هذه الناحية ، وعمل فيها بحرفة تجليد الكتب وترتيبها وتصفيفها[٦٢] واشتغل قسم منهم بحرفة الخياطة بمدينة القاهرة ، مثل ذلك محمد بن يوسف الزواوى المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٥م بمدينة الإسكندرية على الرغم من تضلعه فى العلوم الدينية واللغوية والحساب . وهذا يدل على أن هذه الحرفة من الحرف ، التى تدر على أصحابها المال والثروة وكانوا يمارسونها فى منازلهم[٦٣] .

وقد اشتهرت عائلة الزواوى المغربية بمدينة القاهرة خلال القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى بعمل جديد من أعمال الخدمة العامة ، لم تمارسه جماعة أخرى من المغاربة حسب معطيات المصادر ، وهو العمل فى مجال القبان ، الذى يستخدم عادة لمعرفة الأوزان المختلفة. والذى يكون مكانه بصورة عامة فى سوق كبيرة للمحاصيل والمنتجات . وأفراد هذه العائلة هم شعبان بن على بن أحمد المغربى الزواوى القبانى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م ووالده وأخوه ، هما اللذان أورثاه هذه الحرفة ولكنه تميز عنهما ، بأنه لم يكتف بوضع قبان واحد ، إنما قام بوضع بضعة عشر لبانا ألفياً فكثيراً ما لجأ اليه المتخاصمون من أصحاب القبابين . وفوق كل ذلك فإنه كان من الماهرين بتصليح القبابين وصيانتها ، وتطورت به الأحوال حتى أصبح شيخ المشتغلين فى هذه الحرفة ، فكثيرا ما لجأ اليه المتخاصمون من أصحاب القبابين وفوق كل ذلك

فإنه كان من الماهرين بتصليح القبابين وصيانتها ، فقد سافر كثيراً لإصلاح قبابين كانت معطلة في مناطق مصرية بعيدة عن مدينة القاهرة ، كمنطقة الوجه البحري وغيرها . وقد أثارت شهرته هذه حقد كثير من الناس عليه ، كان منهم قسم من أقربائه المقربين مثل أخيه محمد بن الزواوي الذي كان قبله معلماً كما ذكرنا ، فادعى عليه ببعض أشياء لم تكن فيه ، فأوقف لفترة وجيزة وأطلق واستطاع صرف أخيه من مشيخة المشتغلين بالقبابين ، وأصبح هو شيخهم من سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٧م حتى وفاته ، أي قرابة خمسين عاماً[١٤٤] .

ويبدو أن حرفة التجليد وتوريق الكتب ، كانت من الحرف المحببة للمغاربة ، وأنهم كانوا لايرون في ذلك حرجاً ، وبخاصة منهم الذين كانوا من عائلة علمية معروفة أو غنية في ماضيها أو غير ذلك ، مثل عبد العزيز بن علي بن محمد بن فرحون ، الذي كان والده علامة عصره ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يمارس حرفة التجليد بالاجرة[١٤٥] .

ويستخلص مما سبق عرضه ، أن الوطن العربي الكبير عاش دوماً في وحدة شبه كاملة ، لم تعرف بلدانه الحدود الفاصلة ولم يعرف سكانه إلا جنسية واحدة ، ولم يحتج العربي قط إلى إشارة مرور أو إذن بالعمل والإقامة ، ولا يمكن وصف التمزق الذي عرفه الوطن العربي في الماضي بالتمزق السياسي لما لهذه الكلمة في هذه الأيام من معان ، بل إن الأمر لم يشهد وجود حكام مختلفين هنا وهناك والفرق شاسع فيما بين تعدد الحكام وتباين مصالحهم ، والتمزق السياسي . لذا نرى أن سكان الوطن العربي لم يختلفوا ولم ينقطعوا في حركة دائبة بين هذا البلد وذاك يستقرون ويعملون حيث طاب لهم الاستقرار ، كما فعل المغاربة في مصر خلال فترة هذا البحث ، حيث قدموا خدمات جليلة لمصر لايقف في سبيلهم أي عائق ، وإن كان بعضهم قد واجه بعض المصاعب ، فإنها كانت فردية من حيث مصدرها ، وآنية كانت تزول بسرعة وسهولة .

الهوامش

١- انظر عن ذلك مثلاً واحداً يتجسد في والد أبي بكر بن العربي : البكري - مستعة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص١٨٨ .

٢- مناقبات الوهراني ومقاماته ورسائله - تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد دنقل ، دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٦٨ ص١١ .

٣- ابن بطوطه - رحلة ابن بطوطه المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ١٩٦٤ ص٢٦٠ .

٤- السيوطي - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ج٢ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار احياء الكتب العربية القاهرة بدون تاريخ ص٢٢٤ - اليونيني - ذيل مرآة الزمان - طبعة أولى حيدر آباد الدكن ١٩٦٠ ص٢٥٢ .

٥- ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج٦ ص٥٤ ومابعدها - المقريزي الخطط مجلد ١ ص١٧٢ .

٦- سورة البقرة الآية ١٦ .

٧- السيوطي - حسن المحاضرة ج١ ص٢٢٤ .

٨- ابن خلدون - كتاب العبر ج٤ طبعة بيروت بدون ت ص١١٩ - الحميري - الروض المعطار ٤٥-٤٦.

٩- الصفدي - الوافي بالوفيات ج٣ ص١٠٠ ومابعدها .

١٠- الصفدي - الوافي بالوفيات ج٤ ص٣١٣ .

١١- ابن فهد - لحظ الألحاظ - طبعة بيروت ، دار إحياء التراث بدون تا ص٨٤ .

١٢- المقريزي - السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم ٣ تحقيق محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٦٤ ص٨٨٢-٨٨٣ . والدوادارية وظيفة (التعريف بالمصطلح الشريف ص١٥٠) .

١٣- مرقع النست هو الذي يجلس مع كاتب السر بدارالعدل أمام السلطان أو النائب بمملكة من الممالك (انظر المنتقى من صبح الأعشى لعبد القادر زكار ج١ ص٩٣) .

١٤- ابن حجر العسقلاني - إنباء الغمر بأبناء العمر ص٢٥٩ .

١٥- ابن قاضي شهبة - التاريخ مجلد ٣ من المخطوط تحقيق عدنان درويش طبعة دمشق ١٩٧٧ ص٤٤٦ .

١٦- ابن حجر العسقلاني - الدرر الكامنة ١٩ تحقيق محمد سيد جاد الحق - الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٦ ص٢٠٧-٢٠٨ .

١٧- السخاوي - الضوء اللامع ج١٠ طبعة القاهرة ١٣٥٤هـ ص٢٣١-٢٣٢ .

١٨- المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ قسم ١ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ١٩٨٠ ص١٢٨ .

١٩- الصفدى - الوافى بالوفيات ج٣ ص١٨ .

٢٠- ابن حجر - الدرر الكامنة ج٤ ص٢٦٦ - ابن فرحون - الديباج المذهب فى معرفة أعيان ج٢ تحقيق محمد الاحمدى أبو النور طبعة القاهرة ١٩٧٤ ص٣١٧ - الداودى - طبقات المفسرين تحقيق على محمد عمر الطبعة الاولى القاهرة مكتبة وهبة ١٩٧٢ ص٢٣١ .

٢١- رحلة ابن بطوطة ص٣١ .

٢٢- ابن القاضى - ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال فى أسماء الرجال ج٣ تحقيق محمد الاحمدى أبو النور طبعة القاهرة وتونس ١٩٧١ ص١٨٧ .

٢٣- ابن القاضى - المصدر السابق ج١ ص ٤٧ .

٢٤- ابن قاضى شهبة - التاريخ مجلد ١ ج٣ ص٤١٣ - ابن تغرى بردى الأتابكى النجوم الزاهرة فى اخبار مصر والقاهرة طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب بوزارة الثقافة المصرية ج١٥ ص٨ .

٢٥- ابن حجر العسقلانى - إنباء الغمر ج١ ص٤٣٠ .

٢٦- المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ قسم ١ ص٣٢٤ .

٢٧- ابن خلدون - كتاب العبر ج ٧ ص٤٥٢ ومابعدها - ابن حجر العسقلانى - إنباء الغمر ج٢ ص٣٣٩-٣٤٠ السخاوى - الضوء اللامع ج٤ ص١٤٥ ومابعدها . ابن العماد الحنبلى - شذرات الذهب ج٧ ص٧٦-٧٧ .

٢٨- السخاوى - التبر المسبوك فى ذيل السلوك طبعة القاهرة بدون تا ص٣٧-٤٠ .

٢٩- السخاوى - الضوء اللامع ج٨ ص٢٢٦-٢٢٧ .

٣٠- السخاوى - التذييل على رفع الاصر تحقيق جودت هلال ومحمد محمود صبح - الدار المصرية للتأليف والنشر بدون تا ص٢٥٨ ومابعدها .

٣١- السخاوى - الذيل على رفع الاصر ص١٩٨ ومابعدها وانظر الضوء اللامع ج٦ ص٧٦ ومابعدها .

٣٢- انظر حول هذا الامر - ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة ج١٣ ص٣٩-٤٠ .

٣٣- ابن حجر - إنباء الغمر - ج١ ص٤١٨ .

٣٤- ابن حجر - إنباء الغمر - ج١ ص٢٧٤ .

٣٥- المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ قسم ١ ص٣٧٢-٣٧٣ .

٣٦- المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ قسم ١ ص٢٢٦ .

٣٧- المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج٢ قسم ٣ ص٤٩٤ .

٣٨- تاريخ ابن قاضى شهبة مجلد ١ ج٣ ص٥٠٩ ومابعدها - ابن حجر - إنباء الغمر ج١ ص٤٧٠ .

٣٩- ابن جبير - رحلة ابن جبير - طبعة بيروت دار صادر ١٩٥٩ ص٣٤-٣٥ .

٤٠- اليونينى - ذيل مرآة الزمان ج٣ ص٨٦ .

٤١- ابن كثير - البداية والنهاية ج١٤ الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٣ ص٥٥ .

٤٢- المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ قسم ١ ص١١٣ .

٤٣- المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ قسم ١ ص١٢٩ .

(٤٤) المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ قسم ١ ص١٥٩ .

٤٥- المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ قسم ١ ص١٧٥-١٧٦ .

٤٦- المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ قسم ١ ص٤٢٠ .

٤٧- المقريزى - التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص١٢٨ .

٤٨- ابن الزيات - الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة طبعة بغداد بدون ت ص١٥١ ومابعدها .

٤٩- ابن حجر العسقلانى - الدرر الكامنة ج٢ تحقيق محمد سيد جاد الحق طبعة ثانية القاهرة ١٩٦٦ ص٤١٩ .

٥٠- المقريزى - الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار مجلد ٣ طبعة لبنان بدون ت ص ١١٧ .

٥١- السخاوى - الضوء اللامع ج٥ ص٥٧ .

٥٢- العادلى - التشوق إلى رجال التصوف - اعتنى بنشره أدولف فور - الرباط ١٩٥٨ ص١٨٦-١٨٧ .

٥٣- المقريزى - الخطط مجلد ٣ ص٩٧ .

٥٤- ابن خلدون - التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا تحقيق محمد بن تاويت الطنجى القاهرة ١٩٥١ ص٣٤٧ .

٥٥- ابن تغرى بردى - حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ج٢ طبعة كالبفرونيا ١٩٣٢ ص١٢٣-البرملى - نظم العقيان فى أعيان الأعيان تحقيق فيليب حتى نيويورك ص١٤٣ . السخاوى - التذييل على رفع الاصر ص٢٥٨ ومابعدها .

٥٦- الفاسى - العقد الثمين فى تاريخ البلد الامين ج٥ تحقيق فؤاد سيد طبعة القاهرة ١٩٦٦ ص١٢-١٣ .

٥٧- السخاوى - الضوء اللامع ج١ ص٧٢-٧٣ .

٥٨- السخاوى - الضوء اللامع ج٩ ص ٦٣-٦٤ .

٥٩- السخاوي - الضوء اللامع ج٨ ص٤٤-٤٥ .

٦٠- السخاوي - الضوء اللامع ج١٠ - ص١٥٤-١٥٥ .

٦١- انظر رحلة ابن جبير ص٢٥-٢٥١ .

٦٢- المقريزي - السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص٩٤ .

٦٣- المقريزي - نفح الطيب ج٤ ص٣٨٥ .

٦٤- السخاوي - الضوء اللامع ج١٠ ص٨٨ وج ٨ ص ١١٧ .

٦٥- (السخاوي - الضوء اللامع ج٣ ص ٢٠٠ .

٦٦- السخاوي - التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ج٣ طبعة القاهرة ١٩٨٠ ص ٣٣ .

د. يسرى أحمد عبد الله زيدان(*)

القراء المغاربة وعلاقتهم بمصر

حتى نهاية عصر الموحدين سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٨ م

منذ أن دخلت مصر وبلاد المغرب تحت راية الإسلام ، والعلاقات الثقافية ، بصفة خاصة ، قائمة بين الجانبين على أشدها . وكان لمصر في بداية الأمر دورها الريادي ، وتأثيرها الثقافي المتنوع في بلاد المغرب ، ثم ما لبثت بلاد المغرب أن تبوأت مكانة علمية متميزة ، فتبادلت مصر التأثير والتأثر .

وقد ترددت أخبار العلماء ونبوغهم في الميادين الثقافية المختلفة فيما بين البلدين . فنبوغ عالم ما في أي القطرين سرعان ما يجد صداه في القطر الآخر [١]. ووفاة عالم ما في أي الإقليمين سرعان ما يذيع خبره وينتشر ، ويدونه المؤرخون في الإقليم الآخر [٢].

وأشارت المصادر[٣] إلى أن الأخبار المتصلة بالجانب الثقافي تبودلت بين البلدين في أقل من شهر ، بحسب البعد المكاني للبلد المغربي عن مصر .

---

* - مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

ومن بين العلوم الدينية التي كان لمصر فضل السبق في نشرها ببلاد المغرب : علم القراءات. وهو علم يتناول كيفية النطق بألفاظ وحروف القرآن الكريم [٤].

نشأة علم القراءات بمصر :

كان للصحابة القراء الذين نزلوا مصر فضل السبق في تعليم المسلمين بها القرآن الكريم ، وتعريفهم بالقراءات القرآنية . وأبرز هؤلاء الصحابة القراء هم :

١ - عقبة بن عامر بن عبس الجهني (ت ٥٨هـ / ٦٧٨م) [٥]: ويبرز دور هذا الصحابي الجليل في مصر إذا علمنا أنه كان من أحسن الناس صوتًا ، وأنه كان مقرئًا فصيحًا [٦]، وأنه مكث بمصر مدة زمنية حيث تولاها لمعاوية رضي الله عنه لمدة سنتين وثلاثة أشهر [٧].

٢ - عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥هـ/ ٦٨٥م) [٨]: هو أحد مَن وردت الرواية عنهم في حروف القرآن العظيم [٩]، ولأن عبد الله بن عمرو بن العاص هو مثل المدرسة العلمية في مصر الإسلامية ، نتوقع أن يكون له باعٌ كبير في إقراء المصريين القرآن ، وتحفيظهم إياه في الفسطاط ، وفي رباطه بالإسكندرية [١٠].

٣ - عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت٧٣هـ / ٦٩٢م) [١١]: وقد وردت الرواية عنه في حروف القرآن الكريم [١٢]. وورد أنه روى عنه العلم أكثر من أربعين نفسًا من أهل مصر[١٣].

٤ - عبيد بن محمد ، أبو أمية المعافري : يُعدّ هذا الصحابي من أوائل الصحابة الذين قرأوا القرآن بمصر [١٥] وأقرؤوه بها [١٦].

هذا بالإضافة إلى صحابة آخرين كانوا قراء ، منهم : أبو ذر الغفاري ، جُندب بن جنادة[١٧] (ت ٣٢هـ / ٦٥٢م) الذي شهد فتح مصر وسكنها مدة ، وكان من فضلاء الصحابة وقرائهم [١٨]. ومنهم : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب [١٩](ت٦٨ هـ / ٦٨٨م) الذي أخذ القراءات القرآنية عن زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود [٢٠].وروى عنه من أهل مصر خمسة عشر نفسًا [٢١].

وبعد ... فهؤلاء هم أبرز مَنْ أقرأوا بمصر القرآن الكريم من صحابة النبي ﷺ . وكانوا بذلك روادًا لمدرسة القراءات القرآنية بمصر .

وخَلَفَ من بعد هؤلاء خَلْفٌ من التابعين ورثوا علم وتعليم القراءات القرآنية ، وكان لهم دورهم الملموس في تطوير مدرسة القراءات المصرية . ومن أبرز هؤلاء التابعين :

أ - عبد الله بن مالك ، أبو تميم الجيشاني [٢٢](ت ٧٧هـ / ٦٩٦م) وقرأ القرآن الكريم على معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وتوفي الجيشاني بالإسكندرية .

ب - جُعْثُل بن هَاعان بن سعيد الرُّعيني المصري [٢٣](ت ١١٥ هـ / ٧٣٤م) وروى علم القراءات عن عبد الله بن مالك ، وترك أثرًا كبيرًا في مصر ، حيث أخذ عنه عدد من علماء مصر القراءات القرآنية أبرزهم الفقيه المصري بكير بن سوادة[٢٤] (ت ١٢٨ هـ / ٧٤٧ م) كما أن له دورًا هامًا ببلاد المغرب حيث « أمره عمر بن عبد العزيز بالخروج من مصر إلى المغرب ليقرأهم »[٢٥] . وقد عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٤ - ٧٤٤م) إلى عالم القراءات الفقيه جُعْثُل بن هاعان المصري قضاء إفريقية [٢٦].

جـ - عبد الرحمن بن هُرْمز الأعرج المدني (ت١١٧هـ / ٧٣٦م)[٢٧] : أحد علماء القراءات التي أخذها عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهما ، وجود القرآن وأقرأه ، ونزل الإسكندرية فأقام بها ، ومات مرابطًا بها .

يتبين لنا مما سبق أن مدرسة القراءات المصرية تلقت القراءات عن أكثر من صحابي ممن نزلوا مصر . وكانت لهم مصاحفهم الخاصة التي أقرأهم إياها رسول الله ﷺ . ثم التزم التابعون مصحف عثمان رضي الله عنه بعد صدوره سنة ٣٠ هـ / ٦٥٠م والذي تعمد أن يكون مجردًا من النقط والشكل اعتمادًا على السليقة العربية السليمة وليكون الرسم أكثر شمولاً لأوجه القراءات التي صح نقلها عن النبي ﷺ [٢٨].

مصر وقراءة نافع أحد القراء السبعة وبداية التفرد والاستقلال :

الإمام نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (ت١٦٩هـ / ٧٨٦م) هو أحد القراء السبعة ، وإليه انتهت رئاسة الإقراء بمدينة النبي ﷺ [٢٩]. وتبدو أهميته لمدرسة القراءات المصرية إذا علمنا أن أعلام هذه المدرسة قد تلقوا القراءات على الإمام نافع ، ومنهم : الليث بن سعيد (ت١٧٥هـ/ ٧٩٢م)[٣٠] والإمام عثمان بن سعيد الملقب بورش (ت ١٩٧هـ / ٨١٢م) شيخ الإقراء بمصر[٣١] .

ويُعدُّ عبد الرحمن بن مَيْسرة المصري (ت ١٨٨هـ / ٨٠٤م) هو أول من أقرأ الناس بمصر بحرف نافع قبل الخمسين ومائة [٣٢].

رواية ورش القيرواني(٣٣) ثم المصري وظهور المدرسة المصرية في القراءات :

روى الإمام عثمان بن سعيد المشهور بورش القراءة عن الإمام نافع ، وانتهت إلى ورش رئاسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه[٣٤] ، وتتلمذ على يديه قراء مصريون وغير مصريين ، وجعل لمدرسة مصر استقلالها وريادتها في علم القراءات .

نشأة علم القراءات بالمغرب ودور مصر في ذلك :

حظيت بلاد المغرب بدخول عدد من الصحابة القراء ، منهم العبادلة : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس ، رضي الله عنهم ، وأبو ذر الغفاري وعقبة بن عامر الجهني ، وغيرهم من الصحابة القراء ، رضوان الله عليهم جميعاً . وكان هذا سنة ٢٧ هـ / ٦٤٧م في جيش والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح[٣٥] . وعندما تمكن هذا الجيش من فتح إفريقية ، فإنه سرعان ما بنى المسجد بها . ويحكي الدباغ[٣٦] أن عبد الله بن سعد صلى جمعة بإفريقية وخطب بالناس بمسجدها . ومنذ ذلك التاريخ المبكر وكثيرون من البربر وخاصة من لواته وهواره ونفوسه انضموا للعرب ، وكثيرون من أولئك البربر دخلوا في الإسلام في ذلك الوقت المبكر[٣٧] . ومن المتوقع أن يكون الصحابة القراء قد أقرأوا القرآن الكريم بإفريقية لهؤلاء الذين أسلموا حديثاً .

وقد عاد بعض الصحابة القراء مرة أخرى إلى إفريقية في جيش معاوية بن حديج سنة ٣٤هـ / ٦٥٤م ومنهم عبد الله بن الزبير[٣٨] وعبد الله بن عمر[٣٩] . ومن الجائز جداً أن يكون هؤلاء الصحابة القراء قد جلسوا إلى البربر المسلمين بإفريقية فأقرأوا لهم القرآن وأقرؤهم .

وبعد ... فهؤلاء هم أبرز الصحابة القراء الذين نزلوا إفريقية لفتحها حربياً وثقافياً . ولم ينته الأمر عند ذلك من صحابة النبي ﷺ وإنما قام مَنْ دخلها بعد ذلك ببناء المساجد التي تعد مراكز للعلوم والمعارف المختلفة . ومن الصحابة الذين دخلوا إفريقية وبنوا بها مسجداً : رُوَيْفع بن ثابت الأنصاري المصري[٤٠] (ت ٥٦ هـ / ٦٧٦م) وقد تولى طرابلس لمعاوية بن أبي سفيان سنة ست وأربعين [٤١] ، فغزا إفريقية سنة سبع وأربعين واختط بها مسجد الأنصار «وهو من أفضل مساجدها وأقدمها »[٤٢] .

وبالمثل قام التابعون ، ببناء المساجد بإفريقية خاصة [٤٣] ، وأقرأوا بها القرآن الكريم ومن هؤلاء :

١ - أبو منصور الفارسي[٤٤] والد يزيد بن أبي منصور : يُعَدُّ هذا التابعي في أهل مصر[٤٥] ، وكان فقيهاً قارئاً للقرآن ، متقناً في العلم . قدم إفريقية وسكن القيروان وأمّ المسلمين بها ، إلى أن توفي بالقيروان[٤٦] .

٢ - عكرمة ، أبو عبد الله القرشي البربري الأصل[٤٧] (ت١٠٥هـ / ٧٢٤م) : وكان لعكرمة دور مهم وأثر كبير في إفريقية ، وبخاصة في مجال القراءات القرآنية ، فقد وردت الرواية عنه في حروف القرآن ، حيث روى عن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة[٤٨] . ودخل القيروان وأقام بها ، وكان له مجلس في مؤخرة جامع القيروان لإقراء العلوم الدينية ومنها القراءات القرآنية[٤٩] . ومن المهم هنا أن نذكر أنه لم يدخل إفريقية غازياً وإنما دخلها لنشر العلوم الدينية .

٣ - جُعْثُل بن هاشان بن سعيد الرعيني المصري (ت١١٥هـ / ٧٣٤م) : وهو أحد الفقهاء القراء الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م إلى القيروان ليفقهوا أهلها في الدين[٥٠] . ومن المؤكد أن هذا القارئ كان له دور مهم في إقراء أهل القيروان القرآن[٥١] .

ولأن البربر بإفريقية قد أقبلوا على الإسلام إقبالاً شديداً نتيجة لجهود الفقهاء التابعين العشرة الذين بعث بهم عمر بن عبد العزيز إلى القيروان ، فأسلم ما يبقى من البربر بإفريقية على أيديهم[٥٢] ، فإن تعليم القرآن وقراءاته قد زاد ، وأثمرت مجهودات الصحابة والتابعين ، بدليل أنه في سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٣م وجدنا مصطلح « القراء » بالقيروان ، وذلك في أثناء مقاومة الوالي حنظلة بن صفوان الكلبي للخوارج الصفرية [٥٣] ، حيث إن القراء وغيرهم من أهل العلم الديني ، تفرغوا في الجيش محرضين على جهاد الخوارج ، مبينين فساد معتقدهم ، وخطر أفكارهم على الإسلام وأهله[٥٤] . ولعل مما يبين نشاط حركة تعليم القرآن الكريم ، ليس فقط بالمغرب الأدنى فحسب ، وإنما بالمغرب الأقصى أيضاً ، هو أن موسى بن نصير أمر سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م سبعة عشر رجلاً من العرب بتعليم البربر بالمغرب الأقصى القرآن وشرائع الإسلام « وقد كان عقبة بن نافع ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام : منهم شاكر صاحب الرباط وغيره »[٥٥] .

الرحلة إلى مصر وظهور تأثير مدرسة القراءات المصرية :

كان لمدرسة القراءات المصرية دورها وأثرها العميق في بلاد المغرب ، حيث إن البلدين اقتصروا على قراءة ورش المصري ورواية أبي يعقوب[٥٦] (ت٢٤٠هـ / ٨٥٤م) عنه ، وأبو

بعقوب هو شيخ الإقراء بالديار المصرية بعد ورش ، وعليه تتلمذ أهل مصر والمغرب من المقرئين[٥٧] .

ولعل نسبة الإمام ورش المصرى المولد والنشأة والوفاة إلى إفريقية التى ينتسب إليها جده ، كان مما جعل المقرئين المغاربة يقبلون بصفة خاصة على قراءة ورش . ومن أسباب ذلك أيضًا اتصال بلاد المغرب الميسور بمصر التى انتشرت فيها رواية ورش ، فقام تلامذته بها بإقرائها بمصر . ومن اتصال بلاد المغرب بمصر بقول المراكشى : « وكانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان ، تمشى فيها القوافل ليلاً ونهاراً »[٥٨] . كما أنه لعل مما ساهم فى تلقى القراء المغاربة لقراءة ورش المصرى ، أن عدداً ممن أدخل القراءات القرآنية من التابعين إلى بلاد المغرب قبل نهاية القرن الأول الهجرى أو فى بدايات القرن الثانى الهجرى ، يُعدون من أهل مصر[٥٩] ، حيث استوطنوها لمدة طويلة ، ومنها نزلوا بلاد المغرب فأقرأوا القرآن به ، وبإفريقية على الأخص ، فكان هذا سببًا فى أخذ قراءة ورش المصرى الذى يُعَدّ من المدرسة الإقليمية الجغرافية لهؤلاء السابقين من أعلام القراء التابعين .

ويمكن الجمع بين هذه الأسباب كلها وغيرها[٦٠] ، لبيان سبب إقبال القراء المغاربة على تلقى قراءة ورش .

وعلى كل فإن رحلة العلماء المغاربة إلى مصر لتلقى علوم الشريعة ، ومن بينها علم القراءات مما ذكرته المصادر ، فعلى سبيل المثال اختص الفقيه المقرئ[٦١] محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم المصرى[٦٢] (ت٢٦٨هـ / ٨٨١م) برحلة أهل المغرب والأندلس إليه بمصر[٦٣] ، وقد انتهت إليه الرئاسة العلمية الدينية بها .

ومن أسهم فى تعليم القراء المغاربة قراءة ورش الإمام يونس بن عبد الأعلى (ت٢٦٤هـ / ٨٧٧م) وهو فقيه مقرئ مصرى أخذ القراءة عرضًا[٦٤] من ورش ، وارتحل إلى الإمام يونس بن عبد الأعلى خلق من المغاربة والمشارقة[٦٥] .

وهكذا استمرت الرحلات فى هذه الفترة المبكرة إلى مصر لتلقى القراءات القرآنية ، وخاصة قراءة ورش[٦٦] .

ويبدو أن بعض القراءات الأخرى قد عرفت طريقها إلى المغرب كقراءة ابن كثير[٦٧] ، وقراءة عاصم[٦٨] ، فصدر قرار من القاضى عبد الله بن طالب ، قاضى القيروان للأغالبة فى

منتصف القرن الثانى الهجرى تقريبًا بالاقتصار على إقراء الناس بحرف نافع بجامع القيروان. والإمام نافع هو أحد القراء السبعة والذين روى عنه القراءة روايتان هما : « قالون وورش المصرى » .

ويبدو أيضًا أن للعلامة المقرئ البصرى يحيى بن سلام بن أبى ثعلبة (ت ٢٠٠ هـ / ٨١٥م) دورًا فى معرفة أهل المغرب ، وبخاصة المغرب الأدنى لقراءة ابن كثير وعاصم حيث إن المقرئ ابن سلام أخذ هاتين القراءتين عن أعلامهما[٧٠] ثم نزل المغرب ، فسكن إفريقية سنوات عديدة[٧١] .

كذلك كان للمقرئ القيروانى محمد بن عمر بن خيرون (ت٣٠٦هـ / ٩١٨م) دور فى التمكين لقراءة نافع من رواية ورش ، حيث قدم القيروان من بلاد الأندلس واستوطنها . فنسب إليها ، وأصبح شيخ القراء بها ، وأقرأ بها ، وكان ابن خيرون يأخذ أخذاً شديداً على مذهب المشيخة من أصحاب ورش وسلك أصحابه فى ذلك طريقه ، فاجتمع عليه الناس ورحل إليه القراء[٧٢] .

وكانت قراءة حمزة[٧٣] قد وصلت إلى بلاد المغرب[٧٤] ، لكن المقرئ ابن خيرون مكن لقراءة نافع من رواية ورش ببلاد المغرب .

أبرز القراء المغاربة الأوائل :

١ - كردم بن خالد المغربى التونسى ، قدم المدينة وعرض على نافع[٧٥] (ت نافع ١٦٩هـ).

٢ - محمد بن برغوث ، أبو عبد الله ، تصدر بجامع القيروان ، وقد تخصص فى قراءة نافع ، وتوفى سنة اثنتين وسبعين ومائتين[٧٦] .

٣ - محمد بن عمر بن خيرون ، شيخ القراء بالقيروان (ت٣٠٦هـ) : ألف كتاب « الابتداء والتمام » وكتاب « الألفات واللامات » وهو إمام فى قراءة نافع من رواية ورش [٧٧] .

٤ - أبو جعفر ، عمر بن مشنى (ت فى ق ٤ هـ) : كان من العلماء بقراءة ورش ، مقدمًا فى علوم القرآن الكريم ، وهو من أهل إفريقية[٧٨] .

٥ - على بن محمد بن خلف المعروف بابن الفاسى (ت٤٠٣هـ / ١٠١٢م) : أقرأ الناس بالقيروان دهرًا ، ثم قطع الإقراء لما بلغه أن بعض أصحابه استقرأه السلطان فقرأ عليه ، وهو من أهل إفريقية ، وتلقى القراءة عن أحد القراء البغداديين الذين نزلوا مصر[٧٩] .

٦ – محمد بن عبد الله بن سليمان الآبي (ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م) : من أبة من عمل القيروان ، وأقرأ الناس ببلده وبالقيروان [٨٠].

٧ – أحمد بن علي ، أبو جعفر القيرواني (ت ٤٣٧هـ / ١٠٣٥م) رحل إلى مصر ، وقرأ القراءات بها على الخطيب عبد المنعم بن غلبون[٨١] ، وعاد إلى القيروان ، فأقرأ الناس بها مدة ، حتى توفي سنة سبع وعشرين وأربعمائة للهجرة [٨٢].

٨ – محمد[٨٣] بن عيسى ، أبو عمران الفاسي ثم القيرواني[٨٤] (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م): سمع بالقيروان من ابن القابسي ، وبمصر ومكة وبغداد ، وأقام بها أشهراً ، قرأ فيها القرآن ، وسمع القراءات ، ثم انصرف إلى القيروان وأقرأ الناس بها مدة ، أخذ عنه الناس من أقطار المغرب » [٨٥].

٩ – مكي بن أبي طالب القيرواني (ت ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥م) : أحد أئمة القراء الكبار ببلاد المغرب ، ولد ونشأ بالقيروان ، وبها سمع من ابن القابسي ، ثم نزل مصر فقرأ القراءات على عبد المنعم بن غلبون وابنه طاهر ، وقرأ قراءة ورش على أبي عدي عبد العزيز ، وقد رحل إلى مصر ثلاث مرات : الأولى وهو ابن ثلاث عشرة سنة وتردد فيها إلى المؤدبين وأكمل القرآن . والثانية قرأ فيها القراءات على ابن غلبون سنة ست وسبعين وثلاثمائة للهجرة ، والثالثة سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة . وألف عدداً من الكتب في علم القراءات هي :

أ – التبصرة في القراءات ، وهو في خمس أجزاء .

ب – الكشف في وجوه القراءات السبع وعللها .

جـ – الموجز في القراءات .

د – الإبانة عن معاني القراءة .

إلى غير ذلك من كتب في علوم القرآن الكريم ، بلغت أكثر من ثمانين كتاباً ورد ذكر الكثير منها في مصادرنا ، وطبع عدد كبير منها أيضاً [٨٦].

* * *

ويتضح لنا مما سبق ما يأتي :

١ – دور مصر في تكوين وانشاء مدرسة القراءات القرآنية ببلاد المغرب ، وبخاصة في إفريقية ، من خلال رحلة القراء المصريين إليها ، أو رحلة القراء وطالبي علم القراءات منها إلى

مصر ، وظهر دور مصر جلياً في أن رواية ورش « المصري » عن الإمام نافع قد ذاعت وانتشرت بإفريقية على الأخص في هذه المرحلة الأولى ، وببلاد المغرب كله بعد ذلك ، بدليل أن المقرئ الجرجاني أبا الفضل محمد بن جعفر بن عبد الكريم (ت ٤٠٨هـ / ١٠١٧)[٨٧] يقول : « أدركت أهل مصر والمغرب على أبي يعقوب ورش ، لا يعرفون غيرها » [٨٨].

٢ – لم تكن قراءة نافع ورواية ورش هي السائدة فقط بإفريقية وإنما عُرفت قراءة ابن كثير وقراءة عاصم وقراءة حمزة أيضاً ، وإنما بقلة عن قراءة نافع وراويها ورش .

٣ – أثمرت مدرسة المغرب القرآنية وبالأخص مدرسة القيروان منذ القرن الثاني الهجري ، فظهر عدد من القراء الأعلام[٨٩] الذين ألفوا في علم القراءات المصنفات المتعددة ، وفي علوم القرآن بصفة عامة ، وكان لهؤلاء القراء القيروانيين دور مهم في نشر القراءات القرآنية في مدن المغرب الأدنى كالمهدية التي أخذ علماء القراءات بها القراءات القرآنية على يد أعلامها بالقيروان ومصر . فعلى سبيل المثال أخذ المقرئ إسماعيل بن أحمد أبو إبراهيم المهدي (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) القراءات بمصر وبالقيروان[٩٠]. كذلك ساهمت مدرسة القيروان للقراءات القرآنية ومعها مصر في قيام مدرسة المغرب الأوسط والأقصى القرآنية [٩١]، حيث كان الراغبين في تعلم القراءات القرآنية يترددون على مصر والقيروان لنيل بغيتهم [٩٢]. وقد يحدث في بعض الأحيان أن ينتقل المقرئ المصري أو القيرواني إلى المغرب الأوسط أو الأقصى لإقراء القرآن ، كما حدث مع المقرئ القيرواني علي بن عبد الغني أبو الحسن الفهري (ت٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م) حيث رحل إلى سبتة وغيرها وأقرأ بها القرآن وتوفي بطنجة [٩٣].

وهنا تجب الإشارة إلى أنه كان للقراء الأندلسيين دور أساسي ومهم في تعليم القراءات القرآنية ببلاد المغرب الأقصى على الأخص ، حيث إنهم انتقلوا إلى المغرب الأقصى انتقالاً اضطرارياً نظراً للظروف التي كانت تمر بها بلاد الأندلس . وقد ذكرت مصادرنا عدداً كبيراً من هؤلاء القراء الأندلسيين وكشفت عن دورهم في بلاد المغرب الأقصى بالذات [٩٤].

كذلك كان للغزو الهلالي لإفريقية ، وما حدث للقيروان سنة (٤٤٦ هـ / ١٠٥٤م) [٩٥]، دور في هجرة القراء القيروانيين من القيروان إلى المغرب الأقصى حيث فلول الأدارسة ، مما ساهم في ازدهار مدرسة القراءات القرآنية به . وقد أشار الدباغ[٩٦] إلى إجلاء أهالي القيروان عنها بعد الغزو الهلالي لها ، وأشار في موضع آخر إلى هجرة أحد أئمة القراءات القرآنية من القيروان وهو أبو الحسن علي بن عبد الغني المعروف بالمصري ، وإن كان قد نزل الأندلس فأقرأ بها القراءات ثم انتقل إلى طنجة [٩٧].

٤ – أقرأ القراء القيروانيون الأوائل القراءات القرآنية في مساجد القيروان ، وما أكثر هذه المساجد ! ومنها : مسجد الأنصار ، والزيتونة ، وأبي ميسرة وأبي عبد الرحمن الحُبُلي ، وحنش الصنعاني ، وعلي بن رباح اللخمي ، ومسجد الخميس [٩٨] ، ومسجد السبت [٩٩] ، ومسجد عبد الله [١٠٠] ، وغيرها [١٠١] . كجامع القيروان الذي بناه عقبة بن نافع بدءًا من سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠م . كما أقرأ هؤلاء القراء القراءات في دورهم أيضًا [١٠٢] . وكانت القراءة للقرآن وتعليم قراءاته تتم بالنهار والليل [١٠٣] . وتم إقراء الصبية القرآن الكريم في مكاتب إقراء القرآن [١٠٤] .

٥ – لم يكن القراء القيروانيون في هذه الفترة بمعزل عن الأحداث السياسية والفكرية التي مرت ببلاد المغرب ، وبخاصة عندما تغلب الفاطميون على المغرب ، ودانت لهم البلاد من طرابلس إلى منتصف المغرب الأوسط ، منذ نهايات القرن الثالث الهجري ، فقد خرج علماء الشريعة – ومنهم القراء – ضد تجاوزات الفاطميين الشيعة ، وبخاصة المتصلة بسب صحابة رسول الله ﷺ ، وحدث في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة للهجرة أن اشتد الأمر على المذهب السني بالقيروان و « كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر ، كأنهم ذمة ، تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة » [١٠٥] نشق الفقهاء والقراء والصالحون القيروان ينادون بالجهاد ، شاهرين أسلحتهم الخفيفة ، وأعلنوا بالتهليل والتكبير وقراءة القرآن » وكان من بينهم المقرئ الفقيه ربيع بن سليمان القطان [١٠٦] ، الذي قتل شهيدًا في هذه الحركة سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤م [١٠٧] .

وقام بعض الفقهاء المقرئين بتأليف المؤلفات التي تبين مذهب أهل السنة وصحته ، وبطلان غيره ، ومنهم مقرئ فقيه هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني وألف سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨م كتابًا في اعتقاد أهل السنة ، انتشر في القيروان وفي غيرها من المدن كبغداد وقرطبة ، وركز فيه المقرئ الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني على تعليم هذه العقيدة السلفية للناشئة من أبناء المسلمين [١٠٨] . وممن كان لهم رأيٌ في عقيدة الفاطميين المقرئ الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن يحيى المعافري التونسي (عاش في النصف الأخير من القرن الرابع الهجري وفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري) وقد قرأ القراءات وأجاز بها [١٠٩] .

كذلك فإن القراء القيروانيين عارضوا البدع بكافة صورها [١١٠] وتجنبوا أصحابها ، ومن عُرف بمجانبة أهل البدع من القراء : المقرئ محمد ابن الفتح المعروف بابن الصوائي (ت٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) [١١١] .

وإذا كان بعض القراء يجتمعون في مسجد السبت كل سبت لقراءة القرآن وسماع شعر الزهد والرقائق [١١٢] وهو ما عده بعض الفقهاء من البدع ، فإن المالكي يذكر أن هذا الاجتماع طبع بطابع الوقار والسكينة والخشوع [١١٣] . وممن حضر هذا الاجتماع المسمى الإمام المقرئ أبو بكر محمد بن مسعود [١١٤] (ت٣٤٤ هـ / ٩٥٥م) بينما لم يحضره المقرئ ابن القابسي [١١٥] . وعدّ من البدع كالفقيه يحيى بن عمر (ت٢٨٩هـ / ٩٠٢م) .

٦ – اتسم القراء القيروانيون بالزهادة والقناعة باليسير ، ومنهم : المقرئ أبو بكر ابن أبي طاعة القيرواني (ت ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦م) [١١٦] . والمقرئ أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م) الذي كان لا يلبس الفرو ولا الخفاف ولا النعال إلا من جلود الوحش ، كما ذكر الدباغ [١١٧] . وقد رفض بعضهم المناصب كالقضاء وغيره ورعًا وزهادة [١١٨] .

أبرز قراء المغرب الأوسط والأقصى :

من أبرز قراء المغرب الأوسط في فترة البحث المقرئ أبو العباس أحمد بن محمد المعافري ، وكان إمامًا في القراءات ، أخذها عن أبيه بقلعة بني حماد بجامعها الأعظم سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م وارتحل إلى بجاية ، وجلس للقراءة بجامعها [١١٩] .

ومنهم المقرئ أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن الخراط (عاش في أوائل القرن السابع الهجري) وأخذ القراءات بقلعة بني حماد ، ولقي بها المشايخ ، وانتقل إلى بجاية ، واستوطنها وأقرأ بها ، وكان حسن التلاوة ، صادق القراءة [١٢٠] .

ومنهم المقرئ عبد السلام بن علي الزواوي الذي ولد ببجاية سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة ، وقدم القاهرة سنة أربع عشرة وستمائة وقرأ بها ، ثم نزل الشام [١٢١] .

ومن أشهر القراء المغاربة المنتمين إلى المغرب الأقصى في فترة الدراسة : ابن المُطينة أبو العباس أحمد بن عبد الله الفاسي (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤م) ولد ولد بمدينة فاس سنة ثمان وسبعين وأربعمائة من الهجرة . وأخذ القراءات السبع وسكن مصر ، وأصبح علمًا من أعلام

المقرئين ، وتصدر بها للإقراء.[١٢٢] وأيضًا المقرئ الفاسي ابن الفتوت (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م) الذي انتهت إليه رئاسة الإقراء بالسبع ببلده[١٢٣] .

أما المقرئ العلامة ، شيخ القراء جمال الدين أبو عبد الله محمد الفاسي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) فقد ولد بفاس بعيد الثمانين وخمسمائة للهجرة وتعلم القراءات وقدم مصر فقرأ على أعلامها القراءات حتى أصبح « رأسًا في القراءات »[١٢٤] .

علاقة قراء المغرب المتأخرين بمصر ودورهم بها حتى نهاية عصر الموحدين سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٨م) :

ونهايتها ، مرحلة تكوين وازدهار مدرسة المغرب في القراءات ، والتي بدأت منذ أواخر القرن الأول الهجري في القيروان ، وتأخرت بالمغرب الأوسط والأقصى عن هذا الزمن بقرنين من الزمان ، تبدأ مرحلة أخرى لمدرسة المغرب كله بمصر ، حيث استمر الأخذ عنها ، ويُدلي في دعم المدرسة المصرية وتقويتها بالقراء المغاربة . وكان لهؤلاء القراء أدوارٌ أخرى مهمة قاموا بها بمصر ، وكانت امتدادًا لرؤى وتصورات القراء المغاربة بالمغرب .

لمن نزل مصر في هذه الفترة التاريخية وقرأ بها القراءات وأقرأها أيضًا :

١ - محمد ابن أبي بكر القيرواني (ت ٥١٢ هـ / ١١١٨م) : نزل مصر وقرأ بها القراءات سنة أربع وأربعين وأربعمائة ثم « أقرأ بمصر القرآن »[١٢٥] .

٢ - الحسن بن خلف القيرواني (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) : ولد هذا المقرئ سنة سبع وعشرين وأربعمائة بالقيروان ، وعني بالقراءات ، فقرأ بها على بعض القراء ، منهم إمام جامع القيروان أبو بكر القصري . ثم قرأ بمصر برواية ورش على بعض قرائها ، وتصدر للإقراء بمصر ، فأخذ عنه أئمة أصبحوا فيما بعد من الأعلام في علم القراءات . وهذا المقرئ من نزلاء مدينة الإسكندرية وبها توفي[١٢٦] .

٣ - محمد بن عمر بن مالك الفاسي (ت٥٧٤هـ / ١١٧٨م) ولد بفاس سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وقرأ بها القراءات السبع ، ونزل الإسكندرية وسمع بها ثم تصدر للإقراء وقرئ عليه بها[١٢٧] .

٤ - محمد بن عبد الرحمن المغربي (ت٦٠١ هـ / ١٢٠٤م) : ولد بالمغرب سنة تسع وتسعين وأربعمائة من الهجرة ، ونزل قوص وأقرأ بها القراءات ، وتصدر بها للإقراء ، فأخذ

عنه عدد كبير من القراء المصريين بالصعيد ، وبذلك فهو من مؤسسي مدرسة القراءات بالصعيد وبقوص على الأخص ، وتوفي بها[١٢٨] .

ومما يدلّ على دور هذا المقرئ المغربي في الصعيد أن من مدرسته :

أ - عبد الله بن أبي الفضل .

ب - عبد الله بن جعفر القوصي الذي تصدر بقوص للإقراء[١٢٩] .

جـ - ناشئ بن عبد الله (ت ٦٤١هـ / ١٢٤٣م)[١٣٠] .

وقد قرأ على المقرئ ناشئ بن عبد الله القوصي كل من :

١ - عبد السلام بن عبد الرحمن القوصي[١٣١] .

٢ - أحمد بن محمد بن عبد الله[١٣٢] .

٣ - يحيى بن حجازي بن مرتضى[١٣٣] .

وغيرهم[١٣٤] كثير من أعلام القراءات بقوص ومنطقة الصعيد .

٥ - عبد الغفار السُّبتي : قرأ عليه الحسن بن عبد الرحيم بن أحمد القنائي (ت ٦٦٥هـ / ١٢٥٧م) الشاطبية مرتين بمدينة قنا[١٣٥] .

* * *

وأخيرًا فإننا نختتم الحديث في هذا الموضوع بالملاحظات الآتية :

١ - أشارت المصادر[١٣٦] إلى أن عشرين مقرئًا مغربيًا - في فترة البحث - نزلوا مصر لتلقي القراءات القرآنية ، وتصدّر بعضهم للإقراء بمصر وتكوين مدرسة للقراءات بها ، خاصة بالإسكندرية وبالصعيد[١٣٧] .

ويبدو أن أهمية الإسكندرية كميناء تجاري عظيم لمصر على البحر المتوسط ، وكمعبر للمغاربة والأندلسيين في طريقهم عبر مصر ، للتجارة أو للحج إلى بيت الله الحرام ، أو لمطلق القصد إلى مصر لأي غرض آخر كالتعلم ، جعل الإسكندرية محط أنظار المغاربة بصفة عامة . هذا إلى أن مدينة الإسكندرية كانت في وقت من الأوقات ممثلة للمذهب السني بمصر ، وبها مدرستان سنيتان[١٣٨] بنيتا لفقيهين كبيرين هما : الفقيه ابن عوف[١٣٩] والفقيه السَّلَفي[١٤٠] اللذان وقع عليهما عبء مناهضة الفكر الشيعي الذي يمثله الفاطميون آنذاك ،

وتضطلع القاهرة بتمثيله وتدريسه . ولم يكن العلامة السلفي فقيهًا ولا محدثًا فحسب ، وإنما كان مقرئًا ، عالمًا بالقراءات القرآنية السبع[١٤٤] ، ومكث بالإسكندرية ستين عامًا معلمًا الحديث والفقه والقراءات القرآنية ، فقصده القراء المغاربة للتعلم ، ثم شاركوه في تعليم القراءات القرآنية ، وبذلك ازدهرت مدرسة القراءات القرآنية بالإسكندرية .

أما الصعيد فيبدو أنّ نزول المقرئين المغاربة به ، والمساهمة في تكوين وازدهار مدرسة القراءات به[١٤٢] ، كان نوعًا من تكبد المشاق بارتياد مناطق صعبة المسالك ، بعيدة عن القاهرة ، حاضرة مصر وأهم مدنها الثقافية ، ولشهرة مدينة قوص بمدارسها التي تضارع مدارس القاهرة ، وبعلمائها الذين لا يقلون علمًا ونبوغًا عن غيرهم من علماء القاهرة والإسكندرية ، وغيرها من مدن مصرية[١٤٣] . ولأن مدينة قوص كانت ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين ومنها يمرون بصحراء عيذاب وإليها يعودون بعد الحج[١٤٤] .

وأغلب الظن أن القراء المغاربة لم يقتصروا على تدريس القراءات القرآنية بالإسكندرية وبالصعيد فقط ، وإنما بمدن مصر الأخرى وبخاصة الفسطاط والقاهرة ، ولدينا خبر بفقيه مقرئ قرطبي (ت ٤١٣هـ / ١٠٢٢م) تردد على مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط وفيه حلقات العلم[١٤٥] . وكان جامع عمرو بن العاص بمصر مركزًا مهمًا من مراكز تعليم القراءات القرآنية بها . كذلك كانت مكتبته التي أقرأ بها مقرئ الديار المصرية أبو الحسن النحاس (ت بعد ٣٨٠ هـ) القراءات القرآنية بقراءة ورش ، كما ذكر المقريزي في كتابه « المقفى الكبير »[١٤٦] . بل إن هناك جامعًا بالفسطاط حمل اسم « جامع القراء »[١٤٧] ، فلعله كان مسجدًا جامعًا لقراء القراءات من مختلف الدول والجنسيات ، وملتقى لهم جميعًا ، ومركزًا أساسيًا لإقراء القراءات في مدينة الفسطاط ، بالإضافة إلى جامع عمرو الذي زاره ابن جبير في رحلته وتحدث عما ينفق في مصالحه وعلى أئمته والقراء فيه[١٤٨] .

ومما يؤكد أن القراء المغاربة أقرأوا القراءات بالفسطاط ماذكره المقريزي[١٤٩] في ترجمته للمقرئ ابن الخطيئة الفاسي (ت ٥٦١ هـ / ١١٦٥م) من أنه « تصدر بمصر (الفسطاط) للإقراء ، فقرأ عليه جماعة منهم شجاع بن محمد المذحجي » كما أنّ هذا المقرئ المغربي الفاسي استوطن مصر وسكن بجامع راشده[١٥٠] خارج الفسطاط ، فلعله أقرأ القراءات بهذا المسجد أيضًا .

كذلك كان للمغاربة بصفة عامة تواجدٌ مهم ملموس في المسجد الطولوني بالقطائع زمن الأيوبيين[١٥١] . وهذا هو ماذكره ابن جبير[١٥٢] في عصر الناصر صلاح الدين ، الذي جعل

مسجد ابن طولون مأوى للغرباء من المغاربة « يسكنونه ، ويحلقون فيه ، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر » . ومن ثمّ فمن المحتمل أن القراء منهم أقرأوا القراءات القرآنية بمسجد ابن طولون .

ولأن ميادين الإقراء بمصر قد تعددت وتنوعت مابين مساجد[١٥٣] ومدارس[١٥٤] ومكتبات[١٥٥] وغيرها[١٥٦] ، فمن المترقع أن يكون القراء المغاربة قد مروا بهذه الأماكن جميعًا : متعلمين ومعلمين .

وعلى ذلك فقد شارك القراء المغاربة إخوانهم القراء المصريين في تعليم القراءات القرآنية بمصر ، وكون بعضهم مدرسة في هذا العلم ، أثمرت عن أعلام مصريين في مجال علم القراءات القرآنية .

ولعل مما يبرز أثر مدرسة المغرب للقراءات القرآنية في مصر أن المقرئ إبراهيم بن محمد بن وثيق[١٥٧] (ت بالإسكندرية سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) أقرأ القراءات السبع لأحد الأساتذة المقرئين الكبار بالإسكندرية ومصر كلها ، هو المكين الأسمر ، عبد الله بن منصور الإسكندري[١٥٨] (ولد سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤م وتوفي ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م) ولكنه تلقى القراءات السبع[١٥٩] على المقرئ ابن وثيق الذي توفي قبل انتهاء فترة البحث ، مما يثبت دوره في إقراء المقرئ السكندري الكبير .

٢ – كانت القراءات السبع تدرس بمصر ، وببلاد المغرب ، ويدرسها القراء المصريون والمغاربة في هذه الفترة ، مع الاهتمام بقراءة ورش عن نافع بمصر خاصة[١٦٠] . ووردت قراءة نافع والحضرمي[١٦١] خاصة بالقيروان في القرن السابع الهجري[١٦٢] .

٣ – قام القراء المغاربة بدور مهم في المغرب ضد الفاطميين ، وكذلك قاموا بهذا الدور في مصر[١٦٣] إبان حكم الفاطميين لها . فعلى سبيل المثال فإنّ المقرئ المغربي الفاسي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) وكان رأسًا في القراءات ، وصفه الإمام السلفي بقوله « كان شيخنا ابن الخطيئة شديدًا في دين الله ، فظًا غليظًا على أعداء الله ، لقد كان يحضرُ مَجْلِسَه داعي الدعاة[١٦٤] مع عظم سلطانه ونفوذ أمره ، فما يَحتشِمُهُ ، ولا يُكرِمُه ، ويقول : أحمق الناس في مسألة كذا وكذا الروافض ، خالفوا الكتاب والسنة ، وكفروا بالله »[١٦٥] .

فهذا المقرئ المغربي كان قد سكن مصر وتصدر بها للإقراء ، ولأهل مصر فيه اعتقاد كبير ، حتى أمرائها الفاطميين . ولم يمنعه ذلك من إظهار عقيدته فيهم .

وكما أن قراء المغرب كانوا ببلدهم من الزاهدين ، فإنّ هذا المقرئ المغربي كان زاهداً وهو بمصر ، لايقبل من أحد شيئًا ، لا يرتزق على إقرائه أجراً ، ويتكسب من وراء نسخ الكتب ، تلك المهنة التي ساعدته فيها زوجته وابنته . ولما تعطل القضاء بمصر مدة ثلاثة أشهر في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة في خلافة الحافظ لدين الله وقع الاختيار عليه ، فاشترط أن لا يقضي إلا بمذهبه ، ولايقضي بمذهبهم ، فلم يُجب إلى ذلك (١٦٧).

٤ -كان للقراء المغاربة بمصر مقدرة على تجنب الخلافات العقائدية المتصلة بكلام الله تعالى على سبيل المثال ، فلم يحاولوا تعميق هذه الخلافات وإنما تعاملوا معها ومع المخالفين لهم في الرأي بكل حكمة وموضوعية(١٦٨) . ومثل هذا الاتجاه المقرئ المغربي القاسم ابن جرّان (ت٦٥٩هـ / ١٢٥٨م) . وقد وُلد بفاس بعد الثمانين وخمسمائة ، وقدم إلى مصر ، فقرأ بها القراءات ، ومر في بعض قراءاتها وبها طائفة يتحسنون الشخص حول العقيدة في كلام الله تعالى ، فتصرف بذكاء منعًا للفتن وتجنبًا للخلافات ودرءًا للمنازعات .

الهوامش

١ - السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٣٦ .

٢ - القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٣٧٧ .

٣ - راجع القاضي عياض : المصدر السابق والصفحة نفسها وابن حجر : رفع الإصر قسم ١ ص ١١٥ .

٤ - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ١٠٢٨ وراجع حتى ص ١٠٣٠ .

٥ - راجع ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٣ ص ١٨٣ ، والعبر جـ ١ ص ٦٢ وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٣ ص ٤٦٧ - ٤٦٩ وحسن المحاضرة للسيوطي جـ١، ص ٢٢ وحتى ٤٨٥ .

٦ - راجع في ذلك المصادر السابقة .

٧ - الكندي : ولاة مصر ص ٥٩ - ٦١ وابن عبد البر : السابق ص ١٨٣ والذهبي : العبر جـ ١ ص ٦٢ وسير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٤٦٨ .

٨ - راجع ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٣ ص ٨٦ - ٨٨ والعبر جـ ١ ص ٧٢ وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٣ ص ٧٩ - ٩٤ . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الذهبي ذكر في « سير أعلام النبلاء » جـ ٣ ص ٩٣ أنّ عبد الله بن عمرو ابن العاص حجّ زمن معاوية في مجموعة من القراء ، وتوالى بعد ذكر مصطفى « القراء » وقد خرج عدد كبير في جيش ابن الأشعث ضد الحجاج سنة ٨٢ هـ . راجع تاريخ خليفة ابن خياط ص ٢١٧ و ص ٢٢١ وص ٢٢٢ .

٩ - ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء جـ ١ ص ٤٣٩ وتجب الإشارة هنا إلى أن ابن عمر درس بجامع عمرو ودخل عليه الصحابي أبو زمعة بن الأوقم وطلب منه عدم التشدد على الناس . الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٠٠ - ١٠١ .

١٠ - د. عبد الفتاح شحي عبد الفتاح : الحياة الثقافية في العالم العربي في القرنين الأول والثاني الهجريين جـ ١ ص ٧١ .

١١ - راجع ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٣ ص ٨٠ - ٨٣ وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٣ ص ٢٠٣ - ٢٣٩ وحسن المحاضرة للسيوطي جـ ١ ص ٢١٤ .

١٢ - ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء جـ ١ ص ٤٣٧ .

١٣ – الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٢٠٩ .

١٤ – ورد اسم هذا الصحابي عند السيوطي في « حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٨ » عبيد بن محمد ، بينما ذكره محقق كتاب « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » للسيوطي عبيد بن عمر . أبو أمية المفاقري ، وذكره ابن عبد البر في « الاستيعاب جـ ٣ ص ١٣٩ » عُبيد بن مخمر . وهذا هو ماجاء في كتاب الإصابة لابن حجر ، والخطط للمقريزي جـ ٢ ص ٣٣١ . وجميع هذه المصادر اتفقت على كنية هذا الصحابي وهي « أبو أمية المفاقري » .

١٥ – السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٨ ودر السحابة ص ٨٨ .

١٦ – المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٣٣١ .

١٧ – راجع ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر جـ ١ ص ٣٢١ – ٣٢٤ وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٣ ص ٤٦ – ٧٨ والعبر للذهبي جـ ١ ص ٢٣ . وقد أغرت الحديث عنه لأن المصادر لم تكشف عن تراثه.

١٨ – السيوطي ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٤ .

١٩ – راجع ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٣ ص ٦٦ – ٧١ وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٣ ص ٣٣١ – ٣٥٩ والعبر للذهبي جـ ١ ص ٧٦ . وقد أغرت الحديث عن ابن عباس حيث إنه لم يشهد فتح مصر ، كباقي الصحابة القراء الذين تناولتهم بالذكر . وإنما قدم ابن عباس رضي عنه مصر في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي عنه ، راجع السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٤ .

٢٠ – راجع ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء جـ ١ ص ٤٢٦ وراجع من ص ٤٢٥ .

٢١ – الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٣٣٦ .

٢٢ – راجع ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٤ ص ١٨٠ وسير زعلام النبلاء الذهبي جـ ٤ ص ٧٣ – ٧٤ ودول الإسلام جـ ١ ص ٥٥ والعبر للذهبي جـ ١ ص ٨٨ وشذرات الذهب لابن العماد جـ ١ ص ٨٤ .

٢٣ – ورد ذكره في كتاب سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٤٧٦ وترجم له الدباغ في « معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٠٢ » والسيوطي في « حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٩٨ » .

٢٤ – ترجم له الذهبي في « سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٢٥٠ » وذكره خليفة ابن خياط في طبقاته ص ٢٩٥ ، وابن كثير في « البداية والنهاية جـ ٥ ص ٢٠٢ » وابن العماد في شذرات الذهب جـ ١ ص ١٧٥ وذكر أنه كان مفتي مصر .

٢٥ – السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٩٨ والدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٠٢ .

٢٦ – ذكر السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٩٨ أنه تولى القضاء بإفريقية لهشام ابن عبد الملك ، بينما ذكر الدباغ في « معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٠٢ » أنه تولى القضاء بجند إفريقية .

٢٧ – راجع عنه الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص٦٩ – ٧٠ والعبر جـ ١ ص ١٣٥ ودول الإسلام جـ ١ ص ٨٠ وابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء جـ ١ ص ٣٨١ والسيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٨٥ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ١٥٣ . ويذكر هنا أن الفقيه المصري جعفر بن ربيعة (ت١٣٤هـ / ٧٥٣م) قد أخذ عن الأعرج راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٦ ص ١٤٩ .

٢٨ – للوقوف على نسخ سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه للقرآن على حرف واحد من الحروف السبعة . ولسان قريش راجع د. عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ٨٩ وص ١٢٧ – ١٣٧ ، ود. صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ص ١٠١ – ١١٦ والزرقاني : تاريخ القرآن ص ٧٩ – ٩٠ ود. عدنان زرزور : علوم القرآن ص ١٨٠ – ١٩٣ .

٢٩ – راجع ترجمته عند الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء جـ ٧ ص ٣٣٩ – ٣٣٨ ودول الإسلام جـ ١ ص ١١٢ والعبر جـ ١ ص ٢٥٧ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٧٠ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٣٠ – ٣٣٤ .

٣٠ – راجع الذهبي ، دول الإسلام جـ ١ ص ١١٣ وسير أعلام النبلاء جـ ٧ ص ٣٣٧ وجـ ٨ ص ١٤٥ ومن ص ١٣٦ – ١٦٣ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٤ و ص ٣٣٣ .

٣١ – راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٢٩٥ – ٢٩٦ والعبر جـ ١ ص ٣٢٤ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٥٠٢ – ٥٠٣ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٣٤٩ . ويذكر هنا أن عدداً كبيراً من المصريين قد أخذ القراءة عن ورش منهم : داود بن أبي طيبة (سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٢٩٦) ويونس بن عبد الأعلى (سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٢٩٦ وجـ ١٢ ص ٣٤٨ – ٣٥١) وابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ٤٠٦ – ٤٠٧ .

٣٢ – المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٣٣١ وذكره ابن الكندي ، فضائل مصر المحروسة ص ٥ .

٣٣ – وصفه الذهبي بالقيرواني ثم المصري في كتابه (العبر جـ ١ ص ٣٢٤) ووصفه في كتابه « سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٢٩٥) بالإفريقي ، غورش مصري المولد والوفاة ، ويرجع بأصوله إلى المغرب .

٣٤ – راجع ابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٥٠٢ والسيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ٤٨٥ .

٣٥ – راجع في ذلك طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب ص ٧٣ – ٧٨ والدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢١ – ١٧٨ .

١٣ – الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٢٠٩ .

١٤ – ورد اسم هذا الصحابي عند السيوطي في « حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٨ » عبيد بن محمد ، بينما ذكره محقق كتاب « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » للسيوطي عبيد بن عمر ، أبو أمية المغافري ، وذكره ابن عبد البر في « الاستيعاب جـ ٣ ص ١٣٩ » عُبيد بن مخمر ، وهذا هو ماجاء في كتاب الإصابة لابن حجر ، والخطط للمقريزي جـ ٢ ص ٣٣١ . وجميع هذه المصادر اتفقت على كنية هذا الصحابي وهي « أبو أمية المغافري » .

١٥ – السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٨ ودر السحابة ص ٨٨ .

١٦ – المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٣٣١ .

١٧ – راجع ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر جـ ١ ص ٣٢١ – ٣٢٤ وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٣ ص ٤٦ – ٧٨ والعبر للذهبي جـ ١ ص ٣٣ . وقد أخرت الحديث عنه لأن المصادر لم تكشف عن قراءته .

١٨ – السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٥ .

١٩ – راجع ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٣ ص ٦٦ – ٧١ وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٣ ص ٣٣١ – ٣٥٩ والعبر للذهبي جـ ١ ص ٢٦ . وقد أخرت الحديث عن ابن عباس حيث إنه لم يشهد فتح مصر ، كباقي الصحابة القراء الذين تناولتهم بالذكر ، وإنما قدم ابن عباس رضي عنه مصر في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي عنه . راجع السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٤ .

٢٠ – راجع ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء جـ ١ ص ٤٢٦ وراجع متن ص ٤٢٥ .

٢١ – الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٣٣٦ .

٢٢ – راجع ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٤ ص ١٨٠ وسير زعلام النبلاء الذهبي جـ ٤ ص ٧٣ – ٧٤ ودول الإسلام جـ ١ ص ٥٥ والعبر للذهبي جـ ١ ص ٨٨ وشذرات الذهب لابن العماد جـ ١ ص ٨٤ .

٢٣ – ورد ذكره في كتاب سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٤٧٦ وترجم له الديباج في « معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٠٢ » والسيوطي في « حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٩٨ » .

٢٤ – ترجم له الذهبي في « سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٢٥٠ » وذكره خليفة ابن خياط في طبقاته ص ٢٩٥ . وابن كثير في « البداية والنهاية جـ ٥ ص ٤٠٢ » وابن العماد في شذرات الذهب جـ ١ ص ١٧٥ وذكر أنه كان على مصر .

٢٥ – السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٩٨ والديباج : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٠٢ .

٢٦ – ذكر السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٩٨ أنه تولى القضاء بإفريقية لهشام ابن عبد الملك ، بينما ذكر الديباج في « معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٠٢ » أنه تولى قضاء جند إفريقية .

٢٧ – راجع عنه الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص٦٩ – ٧٠ والعبر جـ ١ ص ١٣٥ ودول الإسلام جـ ١ ص ٨٠ وابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء جـ ١ ص ٣٨١ والسيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٨٥ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ١٥٣ . ويذكر هنا أن القنبه المصري جعفر بن ربيعة (ت١٣٤هـ / ٧٥٣م) قد أخذ عن الأعرج راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٦ ص ١٤٩ .

٢٨ – للوقوف على نسخ سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه للقرآن على حرف واحد من الحروف السبعة ، وبلسان قريش راجع د. عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ٨٩ وص ١٢٧ – ١٣٧ ، ود. صبحي صالح : مباحث في علوم القرآن ص ١٠١ – ١١٦ والزنجاني : تاريخ القرآن ص ٧٩ – ٩٠ ود. عدنان زرزور : علوم القرآن ص ١٨٠ – ١٩٣ .

٢٩ – راجع ترجمته عند الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء جـ ٧ ص ٣٣٦ – ٣٣٨ ودول الإسلام جـ ١ ص ١١٣ والعبر جـ ١ ص ٢٥٧ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٧٠ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٣٠ – ٣٣٤ .

٣٠ – راجع الذهبي : دول الإسلام جـ ١ ص ١١٣ وسير أعلام النبلاء جـ ٧ ص ٣٣٧ وجـ ٨ ص ١٤٥ ومن ص ١٣٦ – ١٩٣ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٤ و ص ٣٣٣ .

٣١ – راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٢٩٥ – ٢٩٦ والعبر جـ ١ ص ٣٢٤ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٥٠٢ – ٥٠٣ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٣٤٩ . ويذكر هنا أن عدداً كبيراً من المصريين قد أخذ القراءة عن ورش منهم : داود بن أبي طيبة (سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٢٩٦) ويونس بن عبد الأعلى (سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٢٩٦ وجـ ١٢ ص ٣٤٨ – ٣٥١) وابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ٤٠٦ – ٤٠٧ .

٣٢ – المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٣٣١ وذكره ابن الكندي : فضائل مصر المحروسة ص ٥ .

٣٣ – وصفه الذهبي بالقيرواني ثم المصري في كتابه (العبر جـ ١ ص ٣٢٤) ووصفه في كتابه « سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٢٩٥ » بالإفريقي ، قوريش مصري المولد والوفاة ، ويرجع بأصوله إلى المغرب .

٣٤ – راجع ابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٥٠٣ والسيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٨٥ .

٣٥ – راجع في ذلك طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب ص ٧٣ – ٧٨ والديباج : معالم الإيمان جـ ١ ص ٧١ – ١٧٨ .

٣٦ - الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٣٨ .

٣٧ - الدكتور حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣ .

٣٨ - ذكر ابن الجزوى فى « غاية النهاية فى طبقات القراء جـ ١ ص ٤١٩ » أنه قد وردت الرواية عنه فى حروف القرآن . ويذكر هنا أنه قد شهد فتح إفريقية مع عبد الله بن أبى سرح سنة ٢٧هـ/٦٤٧م . وترجمته فى الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٣ ص ٣٨ - ٣٩ وسير أعلام النبلاء للذهبى جـ ٣ ص ٣٨١ - ٣٨٣ .

٣٩ - الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٤١ - ١٤٢ .

٤٠ - راجع ترجمته فى الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٢ ص ٨٣ وسير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٣٦ والدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٢٣ - ١٢٥ .

٤١ - المصادر السابقة والصفحات نفسها ؛ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٥٥ .

٤٢ - الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٢٥ . وبُنى مسجد الأنصار قبل أن تُبنى مدينة القيروان . ولايزال يحمل اسم الصحابى الجليل ورفع الأنصارى حتى اليوم . انظر دكتور محمد زيتون : القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية ، هامش (٤٥) ص ٨٧ .

٤٣ - من ذلك مسجد القيروان الذى أسسه عقبة بن نافع بداية من سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠م وعنه راجع معالم الإيمان للدباغ جـ ١ ص ١٠ - ١١ والبيان للمغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٢٠ - ٢١ . ومن ذلك أيضًا مسجد الزيتونة بالقيروان الذى بناه التابعى إسماعيل بن عُبيد الأنصارى سنة إحدى وتسعين راجع معالم الإيمان جـ ١ ص ١٩٢ والمالكى : رياض النفوس جـ ١ ص ٦٩ . وعنه أيضًا مسجد ابن عياض المعروف أيضًا بمسجد الرِّباطى وبناه التابعى عبد الله بن يزيد (ت ١٠٠ هـ / ٧١٩م) بالقيروان . راجع الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٨٠ - ١٨١ . وهناك مسجد آخر بناه التابعى على بن رباح بالقيروان. راجع الدباغ : السابق ص ٢٢٠ .

٤٤ - راجع ترجمته فى الاستيعاب جـ ٢ ص ٣٢٦ وطبقات علماء إفريقية وتونس لأبى العرب ص ٨٣ ومعالم الإيمان للدباغ جـ ١ ص ١٧٧ - ١٧٨ . وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن عبد البر ، ذكر فى كتابه « الاستيعاب » أن له صحبة ، وبالمثل نقل الدباغ ، بينما عند أبو العرب من أوائل التابعين ، وعلى ذلك فهو مختلف فى صحبته بين العلماء .

٤٥ - هذا ماجاء عند ابن عبد البر فى « الاستيعاب » والدباغ فى « معالم الإيمان » .

٤٦ - راجع الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٧٧ - ١٧٨ .

٤٧ - راجع ترجمته عند الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٢ - ٣٦ والعبر جـ ١ ص ١٣١ - ١٣٢ وأبى العرب : طبقات علماء إفريقية والمغرب ص ٨٢ - ٨٣ والمالكى : رياض النفوس جـ ١ ص ٩٢ وابن الجزرى : غاية النهاية جـ ١ ص ٥١٥ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ١٣٠ .

٤٨ - ابن الجزرى : السابق ص ٥١٥ .

٤٩ - أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٨٣ والمالكى : رياض النفوس جـ ١ ص ٩٢ . ويقول أبو العرب : « ولم يكن عكرمة دخلها غازيًا » .

٥٠ - راجع البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٤٨ وراجع أسماء العشرة التابعين عند أبى العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٨٤ - ٨٧ والمالكى : رياض النفوس جـ ١ ص ٧٢ - ٧٧ والدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٨٠ - ١٨٤ وص ١٨٤ - ١٨٧ وص ١٩٢ وص ١٩٨ - ١٩٩ و ٢٠٢ وص ٢٠٣ وص ٢٠٩ وص ٢١٣ وص ٢١٥ .

٥١ - سبق الحديث عن القارئ التابعى جُعْثل بن هاعان .

٥٢ - راجع البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٤٨ .

٥٣ - الخوارج الصفرية هم أتباع زياد بن الأصفر ، وهم يرون أن أصحاب الذنوب مشركون ولا يرون قتل نساء وأطفال مخالفيهم ، وأعلنوا الحرب على الدولة باعتبارها العدو الأساسى لهم . وعنهم راجع د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٦٢ - ٦٣ ود. محمود عبد الرازق : الخوارج فى بلاد المغرب ص ٦٢ - ٨١ ود. وفعت غوزى : الخلافة والخوارج ص ١٥٣ - ١٠٩ وراجع من كتب العقيدة الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٩٠ - ٩٣ والملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ وراجع من ص ١١٤ .

٥٤ - الرقيق القيروانى : تاريخ إفريقية والمغرب ص ٧٠ - ٧١ وراجع من ص ٦٨ - ٧٢ . وعن دور علماء الدين فى قتال الخوارج فى هذه الفترة المبكرة راجع الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٠٩ وص ٢٢٨ - ٢٢٩ وص ٢٣١ . وسير أعلام النبلاء للذهبى جـ ٥ ص ٣٧٨ وراجع عن محاربة الصفرية : النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٦٢ وص ٦٤ وص ٧٣ وابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٥٢ و ٥٣ - ٥٤ وص ٥٧ وص ٥٨ وص ٧٠ .

٥٥ - ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٤٢ . ويذكر هنا أن عقبة بن نافع كان قد وصل إلى طنجة أهم مدن المغرب الأقصى فى السنة التى استشهد فيها ٦٤ هـ / ٦٨٤م . راجع البيان المغرب جـ ١ ص ٢٣ - ٣٠ .

٥٦ – أبو يعقوب المدنى ثم المصرى يوسف بن عمرو . أحد تلامذة ورش . لزمه مدة طويلة . وأتقن عند الأداء . وخلفه فى الإقراء بالديار المصرية ، وتوفى سنة ٢٤٠هـ . عنه راجع السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٤٨٩ وابن الجزرى : غاية النهاية جـ ٢ ص ٤٠٢ .

٥٧ – السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٨٦ وابن الجزرى : غاية النهاية جـ ٢ ص ٤٠٢ .

٥٨ – عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٢ وراجع الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ١٣ ص ٤٨٧ – ٤٨٨ الذى وصف الأمن فى الطريق من مصر إلى سبتة .

٥٩ – مثل أبو منصور الفارسى وجعثل بن هاعان ، ومن قبلهم ، ودويغ بن ثابت الصحابى الأنصارى المصرى . وقد سبق الحديث عن هؤلاء .

٦٠ – كأن تكون هذه القراءة موافقة للمزاج اللغوى للمنطقة .

٦١ – ذكره ابن الجزرى فى القراء ، وذكر من روى عنهم القراءة ، ولم يبين مدرسته فيها .

٦٢ – راجع ترجمته عند الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ١٢ ص ٤٩٧ – ٥٠١ والقاضى عياض ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٦٢ – ٧٠ وابن الجزرى : غاية النهاية جـ ٢ ص ١٧٩ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٩ ، وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٥٤ .

٦٣ – السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٩ والقاضى عياض ، ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٦٣ .

٦٤ – العَرْض : القراءة على الشيخ حفظًا أو من كتاب . هامش (١) جـ ٤ ٨-٢ من كتاب سير أعلام النبلاء بتحقيق مأمون الصاغرجى .

٦٥ – ابن الجزرى : غاية النهاية جـ ٢ ص ٤٠٧ وراجع القاضى عياض ، ترتيب المدارك جـ ٣ ص ١٩٤ وهو يونس بن عبد الأعلى المصرى المقرئ الحافظ راجع ترجمة الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ١٢ ص ٣٤٨ – ٣٥١ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٩ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٤٩ .

٦٦ – راجع فى ذلك محمد بن حارث الخشنى : أخبار الفقهاء والمحدثين ص ١٥٥ والقاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ١ ص ٨٢ – ٨٣ وص ٣١١ .

٦٧ – راجع عنه ابن الجزرى : غاية النهاية جـ ١ ص ٤٤٣ – ٤٤٥ .

٦٨ – راجع عنه الذهبى : دول الإسلام جـ ١ ص ٨٩ وسير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٢٥٦ – ٢٦١ وابن الجزرى : غاية النهاية جـ ١ ص ٣٤٦ – ٣٤٩ .

٦٩ – القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ٣ ص ١٩٨ .

٧٠ – راجع الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ٧ ص ٤٤٤ – ٤٥٦ وص ٢٩٦ – ٣٠١ .

٧١ – الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٣٩٦ – ٣٩٧ وابن الجزرى : غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٧٣ .

٧٢ – ابن الجزرى : السابق جـ ٢ ص ٢١٧ .

٧٣ – عنه راجع الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ٩٠ – ٩٢ وابن الجزرى : غاية النهاية جـ ١ ص ٢٦١ – ٢٦٣ .

٧٤ – ابن الجزرى : السابق جـ ٢ ص ٢١٧ .

٧٥ – ابن الجزرى : السابق جـ ٢ ص ٣٢ وراجع جـ ١ ص ٤٢ .

٧٦ – ابن الجزرى : السابق جـ ٢ ص ١٠٤ .

٧٧ – ابن الجزرى : السابق جـ ٢ ص ٢١٧ وراجع محمد بن حارث الخشنى : أخبار الفقهاء والمحدثين ص ١٥٥ .

٧٨ – القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٦٢٧ .

٧٩ – القاضى عياض السابق ص ٦٢١ وراجع من ص ٦١٦ وابن الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء جـ ١ ص ٥٦٧ والذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ١٧ ص ١٥٨ – ١٦٢ .

٨٠ – ابن الجزرى : السابق جـ ٢ ص ١٧٩ .

٨١ – عبد المنعم بن خليون حلبى الأصل نزل مصر واستقر بها وأقرأ بها القراءات . وألف بها الكتب فى القراءات القرآنية وتوفى سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨م بمصر . عنه راجع ابن الجزرى : السابق جـ ١ ص ٤٧٠ – ٤٧١ ، وراجع ترجمة ابنه المقرئ طاهر جـ ١ ص ٣٣٩ وقد عدّه الذهبى فى المصريين كما ذكر ذلك السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٩١ .

٨٢ – ابن الجزرى : السابق جـ ١ ص ٩١ والمقريزى : المقفى جـ ٦ ص ٥٤٢ .

٨٣ – هكذا ورد اسمه عند المقريزى (المقفى جـ ٦ ص ٤٦٥) و محمد » بينما ورد اسمه « موسى » عند القاضى عياض « ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٧٠٢ – ٧٠٦ » وابن الجزرى « غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٢١ – ٣٢٢ » .

٨٤ – حدد ابن الجزرى والقاضى عياض فى المصدرين السابقين سنة الوفاة وهى ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨م . بينما وردت وفاته فى كتاب المقفى للمقريزى سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧م .

٨٥ – القاضى عياض : السابق جـ ٤ ص ٧٠٢ – ٧٠٦ وابن الجزرى : السابق جـ ٢ ص ٣٢١ – ٣٢٢ والمقريزى : المقفى جـ ٦ ص ٤٦٥ والديباج : معالم الإيمان جـ ٣ ص ١٥٩ – ١٦٠ والذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٥٤٥ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

٨٦ – القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٧٣٧ – ٧٣٨ . والدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ١٧١ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٠٩ – ٣١٠ والذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ١٧ ص ٥٩١ – ٥٩٣ وابن بشكوال : الصلة قسم ٢ ص ٦٣١ – ٦٣٣ والحسيني : جذوة المقتبس ص ٣٥١ والضبي : بغية الملتمس ص ٤٦٩ وقد ترجم له المؤرخون الأندلسيون لأنه نزل الأندلس وأقرأ بها القرآن . وراجع أيضًا الذهبي : العبر جـ ٢ ص ١٨٩ – ١٩٠ وذيول الإسلام جـ ١ ص ٢٥٨ ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٣ ص ٢٦٠ – ٢٦١ . وقد وصفه ابن سعيد في « المغرب في حلى المغرب » بالشهرة في القراءة والزهد (جـ ١ ص ١٠٨) .

٨٧ – راجع ترجمته عن ابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ١٠٩ – ١١٠ .

٨٨ – ابن الجزري : السابق جـ ٢ ص ٤٠٢ والسيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٨٩ .

٨٩ – ساذكرته عن أبرز القراء المغاربة الأوائل أمثلة فقط . وهناك نماذج أخرى عديدة ، بالإضافة إلى هؤلاء . وانظر على سبيل المثال معالم الإيمان للدباغ جـ ٣ ص ٥٢ – ٥٣ وص ١٠٩ – ١١٣ وص ١٥٧ وص ١٧٧ – ١٨٠ .

٩٠ – ابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ١٦١ – ١٦٢ وراجع أيضًا ابن خير : فهرسة ماروى عن شيوخه ص ٣٨ – ٣٩ ، طبع بلوريش بمرقطة سنة ١٨٩٣م وأعيد طبعه ١٩٦٣م .

٩١ – راجع للوقف على ذلك القفي للمقري جـ ٦ ص ٤٦٥ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ١٢٢ وص ٣٢١ – ٣٢٢ .

٩٢ – راجع الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ص ١٥٩ – ١٦٠ .

٩٣ – ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٩ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٥٠ – ٥٥١ .

٩٤ – راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٢٣ ص ٢٧٥ – ٢٧٨ وجـ ٢١ ص ٢٥١ – ٢٥٢ وجـ ٤ ص ٢٧٧ وراجع ابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٢٠٨ وص ٤٢١ – ٤٢٢ وص ٤٤٨ وص ٥٨١ وجـ ٢ ص ١٦٤ وص ٢٨٨ وص ٣٩١ ، وراجع القيسريني : عنوان الدراية ص ١٠٤ – ١٠٦ وص ١٠٨ – ١٠٩ وص ٢٤٥ وص ٢٤٩ وص ٢٥٧ – ٢٦١ وراجع ابن تغري بردي : المنهل الصافي جـ ٢ ص ٣٥٤ – ٣٥٥ والوزير السراج : الحلل السندسية جـ ١ قسم ٣ ص ٨٣١ – ٨٣٢ .

٩٥ – راجع في ذلك البيان المغرب لابن عذاري جـ١ ص ٢٩٢ – ٢٩٣ وراجع من ص ٢٧٩ .

٩٦ – الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

٩٧ – الدباغ : السابق جـ ٣ ص ٢٠٢ ، ويذكر هنا أن المراكشي : « المعجب ص ٢٨٩ » أقر انتقال علم القيروان إلى مدينة فاس ، بعد تخريب الهلاليين للقيروان .

٩٨ – سمي هذا المسجد بهذا الاسم لأن القراء والصلحاء وأهل الخير يجتمعون به كل يوم خميس من العصر إلى الليل لعبادة الله تعالى . الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٣٢ وجـ ٢ ص ١٧٤ .

٩٩ – سمي هذا المسجد بهذا الاسم لاجتماع القراء والحفاظ والصلحاء فيه كل يوم سبت من أول النهار إلى الزوال لعبادة الله تعالى . الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٣١ وجـ ٢ ص ٢٤ – ٢٥ وص ٥٢ وراجع المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٣٩٩ – ٤٠٠ والقاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٢٣٠ وص ٢٣٧ وص ٢٠٧ .

١٠٠ – اختلف في نسبة هذا المسجد ، أهو منسوب إلى عبد الله بن الزبير ، أم إلى عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ؟ راجع في ذلك الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٣٢ .

١٠١ – للوقوف على المساجد السابقة راجع الدباغ : السابق جـ ١ ص ٢٧ – ٣٣ وعن بعضها راجع طبقات علماء إفريقية لأبي العرب ص ١٤٦ ، وترتيب المدارك للقاضي عياض جـ ٤ ص ٤٩٧ ، وأعمال الأعلام (القسم الخاص بالمغرب) للسان الدين ابن الخطيب ص ٢٣ .

١٠٢ – راجع القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٧٠٣ وراجع من ص ٧٠٢ – ٧٠٦ والدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ١٦٠ وص ١٦١ .

١٠٣ – راجع طبقات علماء إفريقية لأبي العرب ص ١٤١ ومعالم الإيمان للدباغ جـ ٣ ص ٨٨ وص ١٨٠ .

١٠٤ – راجع طبقات علماء إفريقية لأبي العرب ص ١٥٠ وترتيب المدارك للقاضي عياض جـ ٢ ص ٢٦٥ وجـ ٣ ص ٣٧٨ والدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٣٤٢ وص ١٣٤ .

١٠٥ – القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٣٩٨ .

١٠٦ – كان الفقيه المقرئ ربيع بن سليمان القطان عالمًا بالقرآن وقراءاته وتفسيره ومعانيه ، حافظًا للحديث ، عالمًا بمعانيه وعلله ورجاله ، وسمع بمصر ومكة وأخذ بها القراءات . وهذا هو ماذكره القاضي عياض في « ترتيب المدارك » جـ ٣ ص ٣٢٣ – ٣٢٥ .

١٠٧ – راجع القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٣٣٠ – ٣٣١ وللوقوف على دور الفقهاء بصفة عامة في إظهار معارضتهم للفاطميين ومجاهرتهم لهم بالعداء ، وموقف الفاطميين من هؤلاء الفقهاء السنة انظر الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٢٩١ وص ٢٩٨ – ٣٠٠ وجـ ٣ ص ٩١ وص ١٥٤ – ١٥٤ و١٩٦ – ١٩٧ وص ٦٣ – ٧١ والقاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٣٣٤ – ٣٣٦ وص ٣٤٥

وص ٢٧٦ وص ٣٨٦ وص ٣٠٠ - ٣٠١ وجـ ٣ ص ٢٥١ وص ٢٥٢ والوزير السراج : الحلل السندسية جـ ١ قسم ٢ ص ٣٢٠ وتجدر الإشارة هنا إلى أن الوضع العام للفقهاء والقراء كان حسنًا أيام حكم الأغالبة لإفريقية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) وراجع عن ذلك طبقات إفريقية لأبي العرب ص ١٧٠ - ١٧٣ وترتيب المدارك للقاضي عياض جـ٣ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ وجـ ٤ ص ٤٩٧ ومعالم الإيمان للدباغ جـ ٢ ص ٢٠٢ وص ١١٦ وهو الحال الذي تحقق لهم أيضًا بعد انتهاء حكم الفاطميين للمغرب . وراجع الفهريني: عنوان الدراية ص ١٤٠ وص ٢٤٧ .

١٠٨ - الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ص ١٠٩ وراجع حتى ص ١١٣ .

١٠٩ - الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ص ١٧٧ وراجع حتى ١٧٩ .

١١٠ - للوقوف على دور الفقهاء بصفة عامة في مقاومة أهل البدع بالمغرب راجع : المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٨١ والقاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ١ ص ٣٣٩ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٦٦ وجـ ٢ ص ٤٧٣ و ٤٧٤ و ٤٨٢ و ٥٨٨ و ٥٩١ و ٦٠٠ وجـ ٣ ص ٢٥٤ و ٢٥٦ وص ٢٨٨ وص ٢٥١ والدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ١٨ وص ٤٠ وص ٨٧ وص ٢٠٤ وجـ ٣ ص ٥٧ وص ٩٨ وص ١٩٦ - ١٩٧ .

١١١ - الدباغ : معالم الإيمان جـ٣ ص ٥٤ .

١١٢ - للوقوف على اجتماع القراء في مسجد البيت ، وما كان يجري فيه راجع المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٣٧٠ - ٣٧١ و ٣٩٩ - ٤٠٠ والقاضي عياض : ترتيب المدارك جـ٣ ص ٢٣٠ وص ٢٣٧ - ٢٣٨ وص ٣٠٧ والدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ١١٤ - ١١٥ وجـ ٣ ص ٢٤ - ٢٥ و ٥٢ - ٥٣ .

١١٣ - المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

١١٤ - الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ص ٥٢ - ٥٣ .

١١٥ - الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ص ٢٤ - ٢٥ .

١١٦ - الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

١١٧ - الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ص ١٨٢ .

١١٨ - الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ص ٢١ - ٢٣ . وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض مصادرنا تحدثت عما كان يأخذه مقرئ الصبية القرآن الكريم في المكاتب ، ولكن هؤلاء المقرئين كانوا يؤمنون بأن عملهم لايقدر بمال فلم ينظروا إلى هذا المال الكبير الذي قُدِّم إليهم أحيانًا . راجع الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية ص ١٣٩ والقاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ١ ص ٣٢٢ .

١١٩ - الفهريني : عنوان الدراية ص ٢٦٥ .

١٢٠ - الفهريني : السابق ص ١٤٠ .

١٢١ - ابن تغري بردي : المنهل الصافي جـ ٧ ص ٢٩٥ . وإن كان هذا المقرئ قد تولى الإقراء بالشام وتوفي سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م إلا أنه مغربي الأصل ، وعاش وتلقى القراءات قبل انتهاء فترة البحث .

١٢٢ - عن هذا المقرئ القاسي راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٣٤٤ - ٣٤٨ والعبر جـ ٤ ص ١٦٩ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٧١ - ٧٢ والمقريزي : المقفى جـ ١ ص ٥١٠ - ٥١٢ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٥١ والسيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٥٣ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٤ ص ١٨٨ .

١٢٣ - ابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ٦٨ ويلاحظ أن هذا المقرئ قد علم عددًا من علماء القراءات الأندلسيين . الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٢٣ ص ٢٥٩ .

١٢٤ - الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٢٣ ص ٢٦١ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

١٢٥ - المقريزي : المقفى جـ ٥ ص ٤٤٥ وجـ ٦ ص ١٨٧ - ١٨٨ وراجع الجزري . السابق جـ ٢ ص ١٠٥ وراجع الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٤١٧ - ٤١٨ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢١٢ .

١٢٦ - ابن الجزري : غاية النهاية ص ٢١١ والسيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

١٢٧ - ابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ٢١٨ .

١٢٨ - ابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ١٦٠ - ١٦١ والأدفوي : الطالع السعيد ص ٥٢٩ .

١٢٩ - الأدفوي : الطالع السعيد ص ٢٧٨ .

١٣٠ - الأدفوي : الطالع السعيد ص ٦٧١ .

١٣١ - راجع الأدفوي : السابق ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

١٣٢ - راجع الأدفوي : السابق ص ١٠٩ .

١٣٣ - راجع الأدفوي : السابق ص ٧٠٧ .

١٣٤ - راجع الأدفوي : السابق ص ٧١٦ - ٧١٨ وراجع ص ٣٢٠ - ٣٢١ و ٣٨٣ - ٣٨٧ .

١٣٥ - الأدفوي : الطالع السعيد ص ٢٠٣ .

١٣٦ – راجع المقفى للمقريزى جـ ١ ص ٥١٠ – ٥١٢ وص ٥٤٢ وجـ ٣ ص ٣٤٢ وص ٣٦٢ وجـ ٥ ص ٥٨ وجـ ٥ ص ٤٤٥ و٥٦٥ – ٥٦٦ وص ٥٩٦ وص ٦٨١ جـ ٦ ص ١٨٧ – ١٨٨ وص ٤٢٣ وجـ ٧ ص ٩ وص ٤٥٥ وراجع أيضًا السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٥٣ وص ٤٩٤ – ٤٩٥ وص ٥٠٢ والذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ٢٣ ص ٣٦١ وجـ ١٩ ص ٤١٧ – ٤١٨ وجـ ٢٠ ص ٣٤٤ – ٣٤٨ وجـ ١٧ ص ١٥٨ – ١٦٢ . وابن الجزرى : غاية النهاية جـ ١ ص ٧١ – ٧٢ وص ٩١ و ٢١١ و ٢١٨ و ٣٨٦ وجـ ٢ ص ١٢٢ – ١٢٣ و ١٤٧ و ١٦٩ و ١٧٩ و ٢١٨ و ٢٤١ و٣٢١ – ٣٢٢ وراجع حسن يحضهم راجع القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٧١٢ والذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٤١٨ وابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٧ ص ٢٦٥ – ٢٦٦ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٤ ص ١٨٨ والأدفوى : الطالع السعيد ص ٥٣٩ ومذاكرته المصادر عن عدد القراء المغاربة الذين نزلوا مصر ليس حصرًا وإنما نماذج فقط لاتصال مصر بالمغرب فى مجال علم القراءات القرآنية .

١٣٧ – ويلاحظ أيضًا أن القراء الأندلسيين نزلوا الإسكندرية والصعيد أيضًا وترجم لهم المقريزى فى « المقفى » والسيوطى فى « حسن المحاضرة » والأدفوى فى « الطالع السعيد » .

١٣٨ – المدرسة الأولى هى المدرسة التى بناها الوزير رضوان بن ولخشى فى خلافة الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة (وجعل فى تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف » .. راجع اتعاظ الحنفا للمقريزى جـ ٣ ص ١٦٧ وراجع القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٥٨ – ٤٥٩ وأورد سجلاً من الحافظ لدين الله بتعيين « الفقيه الرشيد أبو الطاهر » وفى هذا السجل إشارة إلى أن هذه المدرسة أنشئت لتدريس علوم الشريعة كلها . والمدرسة الثانية هى المدرسة التى بناها الوزير ابن السلار وزير الظافر بأمر الله سنة ٥٤٤ هـ (أو ٥٤٦هـ) للحافظ السلفى . راجع الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٢٨٢ والمقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٩٨ .

١٣٩ – الوقوف على ترجمة الفقيه ابن عوف راجع الذهبى : السابق جـ ٢١ ص ١٢٢ – ١٢٣ .

١٤٠ – الوقوف على ترجمة السلفى (ت ٥٧٦هـ) راجع الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ٢١ ص ٥ – ٣٩ وابن الجزرى : غاية النهاية جـ ١ ص ١٠٢ – ١٠٣ والمقريزى : المقفى جـ ١ ص ٧٠٦ – ٧١١ .

١٤١ – الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ٢١ ص ٢٦ .

١٤٢ – الوقوف على نشاط حركة تعليم القراءات القرآنية بالصعيد ومن البحث راجع الطالع السعيد ص ٢٧٨ وص ٣٥٧ وص ٥٥٩ وص ٦٧١ . وبعد فترة البحث راجع ص ٤٤٠ وص ٥٠٨ .

١٤٣ – يذكر هنا أن أحد القراء الأندلسيين أقرأ القرآن بالقراءات السبع بالصعيد وهو أبو العباس أحمد الأنصارى (ت ٦٢٣ هـ) وقال السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥١٧ « أنه أجاز سبعة آلاف رجل

بالقراءات السبع . وأظن أن فى هذا العدد مبالغة . ولكن الخبر يدلل على نشاط تعلم القراءات القرآنية بالصعيد . وراجع أيضًا . الجزرى : غاية النهاية جـ ١ ص ٤٠٠ – ٤٠١ و ٤٦٧ وجـ ٢ ص ١٩٨ و ١٤٤ .

١٤٤ – ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٦١ .

١٤٥ – القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٧٢٧ .

١٤٦ – الوقوف على نشاط تدريس القراءات القرآنية بجامع عمرو بن العاص فى فترة البحث ابن الجزرى : غاية النهاية جـ ١ ص ١٦٤ و ٢٩٥ – ٢٩٦ و ٥٥٤ – ٥٥ وجـ ٢ ص ٤ والمقفى للمقريزى جـ ١ ص ٢٢ وجـ ٢ ص ١٢٠ وفيها ذكر أن أحد القراء درس القراءات بمكتبة جامع ابن العاص ، وهو القارئ النحاس (ت بعد ٣٨٠ هـ) .

١٤٧ – المقريزى : الخطط ج- ٢ ص ٢٤٤ .

١٤٨ – ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٩ .

١٤٩ – المقريزى : المقفى جـ ١ ص ٥١٠ – ٥١١ وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض القراء المغاربة علم القراءات القرآنية بجامع عمرو بن العاص بعد فترة البحث . المقفى جـ ٥ ص ٩٧ .

١٥٠ – عُرف هذا الجامع بجامع راشدة لأنه فى خطة راشدة بن جديلة من لخم . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٨١ .

١٥١ – ذكر الدكتور العبادى والأستاذ الكتانى محققا كتاب « أعمال الأعلام » الجزء الخاص بالمغرب » ص ٥٩ أن المسجد الطرطوشى كان سكنًا للمغاربة وفيه يدرسون العلم منذ أيام مؤسسه أحمد بن طرطون سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٦م .

١٥٢ – ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٢ – ٥٣ .

١٥٣ – منها أيضًا جامع الجيوشى (ابن الجزرى : غاية النهاية جـ ١ ص ٤٠٠ – ٤٠١) وجامع الفكاهين (ابن الجزرى : السابق جـ ١ ص ١٢ و ص ٥١٢) . ومسجد الأمير موسك بين القصرين (ابن الجزرى: السابق جـ ٢ ص ٤) وهذا فى فترة الدراسة .

١٥٤ – كالمدرسة الفاضلية (المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٦٥) والقطبية (المقريزى : السابق جـ ٢ ص ٣٦٧) والظاهرية (ابن الجزرى : السابق جـ ١ ص ٨٥ والمقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٧٨ وابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٧ ص ٤٢١ – ٤٢٢) . وتجدر الإشارة هنا إلى أن بلاد المغرب الأقصى كان بها مدرسة بسبتة أقرأ بها صاحبها القراءات وت ٦٤٩هـ . الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ٢٣ ص ٢٧٥ – ٢٧٨ والجزرى : السابق جـ ١ ص ٥٧٥ .

١٥٥ - ومنها دار العلم بالقاهرة وراجع ابن الجزري جـ ١ ص ٥١٢ غاية النهاية .

١٥٦ - كالدر على سبيل المثال ، وانظر ابن الجزري جـ ١ ص ٣٦٨ وج ٢ ص ١٩٠ وهنا تجدر الإشارة إلى أن بلاد مصرية أخرى نشطت بها إقراء القراءات القرآنية كالمحلة على سبيل المثال . الجزري جـ ١ ص ١٦٩ وص ٨٢ والمقفى للمقريزي جـ ١ ص ٥٤٣ وهو ماحدث أيضًا في المغرب حيث كان الإقراء في كثير من المدن والقرى وراجع ابن الجزري جـ ٢ ص ١٧٩ .

١٥٧ - راجع ترجمة الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٢٣ ص ٣٠٢ - ٣٠٤ وذكر أنه مغربي إشبيلي . وراجع أيضًا ابن الجزري ، غاية النهاية جـ ١ ص ٢٤ - ٢٥ وأشار إلى أنه إشبيلي أندلسي . لكن الذهبي وصفه بأنه مغربي ويقصد النسبة إلى بلاد المغرب أما نسبته إلى الأندلس فلأنه ولد بها . وراجع في ترجمته ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٤ .

١٥٨ - راجع ترجمته عند ابن الجزري ، غاية النهاية جـ ١ ص ٤٩٠ .

١٥٩ - ابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٢٥ وص ٤٦٠ .

١٦٠ - رَاجع في ذلك ابن الجزري : السابق جـ ١ ص ٢١١ وجـ ٢ ص ٦٨ و ٢٧٨ و٣٠٩ و ٣٩١ والسيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

١٦١ - يعقوب الحضرمي أحد القراء العشرة وإمام ومقرئ أهل البصرة وراجع عنه ابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٨٦ - ٣٨٩ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٤ والذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ١٠ ص ١٦٩ - ١٧٤ .

١٦٢ - الوزير السراج : الحلل السندسية جـ ١ قسم ٣ ص ٦٣٣ - ٦٣٤ .

١٦٣ - يُذكر هنا أن القراء المصريين كان لهم كلمتهم ورأيهم أيضًا ، فعلى سبيل المثال فإنهم خرجوا سنة ١١٧ هـ على الوليد بن رفاعة والي مصر للخليفة الأموي هشام بن عبد الملك غضبًا من الوالي الذي قتل فقيهًا لأنه عارضه في السماح ببناء كنيسة للنصارى في منطقة بين الفسطاط والقاهرة . راجع الكندي : ولاة مصر ص ٩٩ - ١٠٠ .

١٦٤ - هو أبو القاسم هبة الله بن كامل ، قاضي الخليفة العاضد ، وتوفي ٥٦٩ هـ ، حيث شنقه صلاح الدين ، لأنه كان ممن سعوا في إعادة الدولة الفاطمية إلى حكم مصر ، وشذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٣٥ .

١٦٥ - الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٣٤٦ وراجع المقريزي : المقفى جـ ١ ص ٥١٢ .

١٦٦ - الذهبي : السابق جـ ٢٠ ص ٣٤٥ .

١٦٧ - الذهبي : السابق جـ ٢٠ ص ٣٤٤ - ٣٤٨ والعبر جـ ٤ ص ١٦٩ ، والمقريزي : المقفى جـ ١ ص ٥١٠ - ٥١٢ وابن الجزري : غاية النهاية جـ ١ ص ٧١ - ٧٢ والسيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٥٣ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٥١ وابن العماد : شذرات الذهب جـ ٤ ص ١٨٨ .

١٦٨ - ذكر الذهبي في « سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٤١٧ - ٤١٨ » وابن الجزري : غاية النهاية جـ ٢ ص ١٩٥ - ١٩٦ حدوث فتنة بين مقرئ قيرواني بمرقب بابن كندية وترشي سنة ٥١٢ وبين المخالفين له في المذهب الفقهي وعقيدة الاستواء ، ولم يتحدد المكان الذي حدث فيه النزاع لأن هذا المقرئ نزل مصر ودمشق وبغداد ، ولم تكشف المصادر عن دوره في الخلاف العقائدي المتصل بعقيدة الاستواء .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

الإدفوي (كمال الدين جعفر بن ثعلب ت ٧٤٨ هـ) : الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد محسن ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك ت ٥٧٨ هـ) : كتاب الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م .

البغدادي (عبد القادر بن طاهر بن محمد ت ٤٢٩هـ) : الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة دار التراث .

بن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ) : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، تحقيق د.محمد محمد أمين .

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب العلمية – لبنان، بيروت .

ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد ت ٦١٤ هـ) : رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبناني – دار الكتاب المصري .

ابن الجزري (شمس الدين محمد بن محمد ت ٨٣٣هـ) : غاية النهاية في طبقات القراء ، عُني بنشره ج . برجستراسر ، مكتبة المتنبي بالقاهرة .

ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن علي ت ٨٥٢ هـ) : رفع الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق د. حامد عبد المجيد ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧م .

– الإصابة في تمييز الصحابة .

لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) : كتاب أعمال الأعلام (القسم الثالث بتاريخ المغرب) تحقيق د. أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد الكتاني ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ١٩٦٤م .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ) : مقدمة ابن خلدون ، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر .

ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد ت ٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م .

خليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ) : كتاب الطبقات ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض ١٩٨٢م .

– تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د. سهيل زكار ، دار الفكر ١٩٩٣م .

الدباغ (عبد الرحمن بن محمد ت ٦٩٦ هـ) : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تحقيق د. الأحمدي أبو النور وإبراهيم شبوح ومحمد ماضور ، المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجي بمصر .

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد ت ٧٤٨ هـ) : سير أعلام النبلاء ، تحقيق عدة أساتذة بإشراف شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ١٩٩٦م .

– كتاب دول الإسلام ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، طبع إدارة إحيا ، التراث الإسلامي بدولة قطر .

– العبر في خبر مَنْ غَبَر ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٨٤م.

الرقيق القيرواني (أبو إسحاق إبراهيم ت ن ق ٥ هـ) : تاريخ إفريقية والمغرب ، دار الفرجاني للنشر ١٩٩٤م .

الوزير الشراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب هيلة .

ابن سعيد : (علي بن موسى ت ٦٨٥ هـ) : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق د. شوقي ضيف ، دار المعارف .

السيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١ هـ) : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٧م .

– دار السحابة فيمن دخل مر من الصحابة ، تحقيق الأساتذة النشرتي وترغلي وعبد الحميد مصطفى ، مطابع الأهرام .

الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ) : الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٦م .

الضبي (أحمد بن يحيى ت ٥٩٩ هـ) : بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس دار الكاتب العربي ١٩٦٧م .

عبد الواحد المراكشي (محيي الدين التميمي ت ف ق ٧ هـ) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب : دار الفرجاني للنشر والتوزيع .

ابن عذاري (أبو عبد الله محمد المراكشي ت في ق ٨ هـ) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق كولان وبروفنسال ، الدار العربية للكتاب ١٩٨٣م.

أبو العرب (تميم محمد بن أحمد ت ٣٣٣ هـ) : طبقات علماء إفريقية وتونس تحقيق علي الشابي ونعيم حسين الباقي : الدار التونسية للنشر ١٩٨٥م .

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي ت ٨٩-١ هـ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب دار الذكر - بيروت .

القاضي عياض (عياض اليحصبي السبتي ت ٥٤٤ هـ) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . تحقيق أحمد بكير ، بيروت .

الغبريني (أبو العباس أحمد الغبريني ت في ق ٨ هـ) : عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابقة في بجاية .

القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م .

ابن كثير : (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ، دار الغد العربي ١٩٩٠م .

الكندي : (محمد بن يوسف الكندي ت ٣٥٠ هـ) : ولاة مصر تحقيق د. حسين نصار ، دار صادر - بيروت .

ابن الكندي (عمر بن محمد بن يوسف ت في ق ٤ هـ) : فضائل مصر المحروسة ، تحقيق د. علي محمد عمر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م .

المالكي (أبو بكر عبد الله بن عبد الله ت في ق ٥ هـ) : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، نشر د. حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية.

محمد بن حارث الخشني (ت ٣٦١ هـ) : أخبار الفقهاء والمحدثين ، تحقيق ماريا لويا آبيلا وليوس مولينا ، مدريد ١٩٩١م .

المقريزي : (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ) : كتاب المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي .

- خطط المقريزي ، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ .

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣ هـ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، جـ ٢٤ تحقيق د. حسين نصار ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٣م .

ثانيًا : المراجع :

د. حسين نصار : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، دار ومطابع المستقبل ١٩٨٠م .

د. رفعت فوزي : الخلافة والخوارج في المغرب العربي ١٩٧٣م.

عبد الله الزنجاني : تاريخ القرآن ، دار الحكمة ١٩٩٠م .

د. صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين ١٩٨٣م .

د. عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ، معهد الدراسات الإسلامية ١٩٩٠م .

د. عبد الفتاح لشحي : الحياة الثقافية في العالم العربي في القرنين الأول والثاني الهجريين دار رياض الصالحين ١٩٩٥م .

د. عدنان زرزور : علوم القرآن ، المكتب الإسلامي ١٩٨١م .

د. محمد عبد الرازق : الخوارج في بلاد المغرب ، مكتبة الحرية الحديثة ١٩٨٦م .

د. إبراهيم بن محمد الحمد المزيني(*)

رحلات المغاربة إلى المشرق الإسلامي في عصر الحروب الصليبية

المقدمة :

نشط المغاربة (من أهل المغرب والأندلس) كثيراً في رحلاتهم إلى المشرق الإسلامي ، وبخاصة في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) .

وكان الرحالة المغاربة ينتهزون فرصة خروجهم لأداء فريضة الحج في التجول بين المراكز العلمية المشهورة في المشرق الإسلامي للقاء العلماء والأخذ عنهم . وغالباً ما يؤدي ذلك إلى حياة استقرار لبعضهم في تلك البلاد .

ولم يقتصر نشاط هؤلاء المغاربة على تلقي العلم في البلاد المشرقية بل تعداه إلى المشاركة في الحياة العامة في تلك المجتمعات التي عاشوا فيها .

---

* - قسم التاريخ والحضارة - كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

وقد ظهرت لي من خلال دراستي عن تاريخ العلم والعلماء في المشرق الإسلامي ، وبالتحديد في بلاد الشام في عصر الصراع بين المسلمين والصليبيين مجموعة من أسماء العلماء المغاربة الذين ارتحلوا إلى المشرق الإسلامي بعامة ، وإلى بلاد الشام بخاصة ، واستقروا بها . وكانت لهم آثار مهمّة في مختلف أوجه الحياة التي عاشوها ، ولكن أثرهم في جهاد الصليبيين في المنطقة يبرز ويظهر لأهميته من ناحية ، ولتركيز قادة الجبهة الإسلامية لمجابهة الصليبيين من ناحية أخرى .

ولهذا الموضوع جانبان ، الجانب الأول : يتمثل في رحلات هؤلاء العلماء من بلادهم إلى المشرق الإسلامي ، وما واكب ذلك من ظروف ودوافع شجعت على رحيلهم . ويتبع ذلك إقامتهم في المشرق ، وحالهم في تلك البلاد .

أما الجانب الآخر ، فهو عن أثرهم في جهاد الصليبيين ، ويتمثل ذلك في مشاركاتهم في الجهاد أيًا كان نوع هذه المشاركة ، وما تبع ذلك من آثار لهذا الدور الذي قاموا به .

وقد ظهرت فاعلية هؤلاء في جهاد الصليبيين على الرغم من انحصارها في مجموعة قليلة منهم قدموا للنهل من العلم ، ولكنهم رأوا أن المشاركة في الجهاد لا تقل فضلاً وشرفًا عن ذلك.

رحلات المغاربة - دوافعها ، وحالهم في بلاد المشرق :

تعددت الدوافع التي أدت إلى رحلات المغاربة من بلادهم إلى المشرق الإسلامي ، وتنوعت حيث كان من أهمها :

- الرحلة لأداء فريضة الحج ، وزيارة الأماكن المقدسة .

- الرحلة لطلب العلم إلى عدد من المراكز العلمية المشهورة في المشرق الإسلامي ، ومنها مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، ودمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، وغيرها من المراكز العلمية التي أصبحت خلال ذلك العصر محطّ أنظار طلبة العلم من مختلف أقطار الأرض[١] .

وكان هذان السببان (الحج ، وطلب العلم) هما نقطة انطلاق هؤلاء المغاربة من بلادهم إلى المشرق الإسلامي ، يضاف إليهما : حالة عدم الاستقرار التي عاشوها في بلادهم وبخاصة حالة الانقسامات والاضطرابات التي ارتبطت بقيام ملوك الطوائف ثم قيام حكم المرابطين ، فالموحدين في بلاد الأندلس ، فلم يتوافر الاستقرار في تلك البلاد . وهذا الأمر شجّع عددًا من

العلماء أسوة بغيرهم من أهل تلك البلاد إلى الهجرة والرحيل بحثًا عن حياة الطمأنينة والاستقرار .

وإلى جانب هذه العوامل وجدت عوامل أخرى داخلية تتمثل في الضغط النصراني الأسباني المنظم على المراكز الإسلامية في الأندلس ، والمعاملة القاسية للمسلمين هنا .

هذا وإن كان البعض قد بالغ كثيرًا في الربط بين رحلات هؤلاء المغاربة إلى المشرق الإسلامي وحالة عدم الاستقرار التي عاشتها بلادهم .

فالرحلة في تلك الأزمان تكاد تكون الوسيلة الوحيدة لنقل العلم من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب وذلك بملاحظة ظرفين اثنين هما :

١ - أنّ بلاد المشرق سبقت بلاد المغرب في الميدان العلمي وبالأخص ما يتعلق بالعلوم الشرعية والعربية .

٢ - صعوبة نقل العلم إلا تلقيًا مباشرًا من الشيوخ ، وذلك بالرحيل إليهم في بلادهم ، لعدم توافر الإمكانات المادية التي يتيسر معها نقل العلم .

ولهذا فلا غرابة أن يحرص المغاربة على الرحلة إلى بلاد المشرق الإسلامي وبورود أكثر مراكزه العلمية المشهورة . والغالب أن طالب العلم كان ينتهز فرصة أدائه للحج لكي يلتقي بأكبر عددٍ ممكن من العلماء المجاورين بمكة أو بمن يلتقي بهم في طريق ذهابه أو عودته إلى بلاده[٢] .

وإلى جانب العوامل السلبية الداخلية التي حدثت في أرض الأندلس على وجه الخصوص حدثت هناك عوامل استقرار في بلاد المشرق الإسلامي ساعدت على الهجرة إليها ، والعيش فيها بأمن وسلام مع توفير أسباب الحياة الكريمة للغرباء وتوفير العوامل النفسية والمعيشية والسياسية والاقتصادية الملائمة للعيش في أرجائها في سلام ، وبخاصة خلال الفترة الزنكية والأيوبية التي قطعت فيها مصر والشام شوطًا كبيرًا في التوحد والاستقرار .

وقد عرف عن نور الدين محمود حرصه على حسن استقبال المغاربة في بلاد الشام وإحسان وفادتهم ، وتقديم كافة التسهيلات لهم ، الأمر الذي استدعى ابن جبير الأندلسي أن يقول : « ومن مناقب نور الدين ، رحمه الله تعالى ، أنه عيّن للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك ، أوقافًا كثيرة ، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمّام

ودكانان بالعطارين . وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه ، وهو أبو الحسن علي بن سردال الجيّاني المعروف بالأسود : أنّ الوقف المغربي يغلّ ، إذا كان النظر فيه جيداً ، خمس مئة دينار في العام .... » (٣).

ويواصل ابن جبير إشادته بما وفّره نور الدين للغرباء من مرافق في بلاد الشام بعامّة ، وفي دمشق خاصّة ، فيقول : « ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ، ولاسيما لحُفّاظ كتاب الله ، عزّ وجلّ ، والمنتمين للطلب . فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً . وهذه البلاد المشرقيّة كلها على هذا الرسم . لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد فيجد الأمور المعيّنات كثيرة . فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمها ... » (٤).

كذلك لقي المغاربة زمن السلطان صلاح الدين مثل ما لقوه زمن نور الدين من التسهيلات. من ذلك ماذكره الرحالة ابن بطوطة عند زيارته لمدينة دمشق بقوله : « كان بدمشق قاضل من كتّاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصراني . من عادته أنه متى سمع أن مغربيًا وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن إليه ، فإن عرف عنه الدين والفضل أمره بملازمته، وكان يلازمه منهم جماعة . وعلى هذه الطريقة علاء الدين بن غانم وجماعة غيره » (٥).

وقد استمرت سياسة الترحيب بهؤلاء المغاربة بعد صلاح الدين الأيوبي ، وفي عهد أبنائه وبخاصة الملك الأفضل الذي أوقف أوقافًا خيرية على المغاربة في بيت المقدس سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢م) « على مختلف أجناسهم ذكرهم وأنثاهم ، وحجاجهم ، وفقهائهم ، وطلابهم الذين أخذوا يتوافدون إليها من مختلف أقطار إفريقية الشمالية ، فنسب الحي إليهم »(٦) فقيل حي المغاربة .

وثمة عوامل أخرى توافرت في البلاد المشرقية ساعدت على جذب المغاربة إليها . من ذلك توافر الأعمال لهم في الضياع كما أشار إلى ذلك ابن جبير بقوله : « وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال ، ويتنال الخبز عليه من أهل الضيعة ، ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ماشاء ، ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى ... »(٧). وعن ذلك يذكر ابن جبير أيضًا : « .. فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد ، وتقرع سن الندم على زمن التضييع ... ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا

مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء ، ولاسيما أهل باديتها ، فإنك تجد من بدار إلى مر الضيف عجبًا كفى بذلك شرفًا لها » (٨).

وبالجملة فقد ساعدت جميع العوامل السابقة المغاربة على الرحيل إلى البلاد المشرقية ، كما ساعدتهم أيضًا على الاستقرار فيها . شأنهم في ذلك شأن أهل البلاد الأصليين بل أنهم وجدوا عند حكام هذه البلاد من حسن المعاملة ما جعلهم يشعرون أنهم يعيشون في بلادهم وديارهم .

مشاركاتهم في جهاد الصليبيين – أغراضها ، وأثر ذلك :

وقد شارك هؤلاء المغاربة خلال وجودهم في المشرق في شتى مجالات الحياة العامّة مثلهم في ذلك مثل سكان البلاد الأصليين . ومن ذلك أنهم لم يكونوا بعيدين عن ميادين الجهاد ضد الصليبيين ، وهو أمر ليس بجديد على هؤلاء المغاربة الذين كانوا في بلادهم التي نزحوا منها في حروب مستمرة مع النصارى منذ وقت مبكر (٩).

ورغم ذلك فإن المؤرخين لم يشيروا إلى هذه المشاركة بشكل مباشر بمعنى أنها لم ترد لديهم إشارات صريحة عن قيام كتيبة مستقلة أو مجموعة معينة منهم لمواجهة الصليبيين في أي موقع حربي . لكن الإشارات صريحة في مشاركاتهم الفردية في ذلك سواء عن طريق تجهيز المقاتلين من بعض ذوي الأموال من هؤلاء المغاربة ، أو مشاركة فعلية في عمليات القتال ميدانيًا (١٠).

أما المشاركة الفعلية ، فقد وردت عليها أمثلة عديدة . من ذلك ما حدث سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٩م) حينما أغار الصليبيون على مدينة دمشق وضيقوا عليها فاجتمع أهلها للتباحث في طريقة يدافعون فيها عن مدينتهم ، وعندئذٍ ظهر العالم يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي، وكان رجلاً متحمسًا للقتال على الرغم من تقدمه في السن ، فاندفع للقتال بكل حماس رغم نصيحة حاكم دمشق آنذاك معين الدين أنر بمشقة الحرب عليه ، ولكنه ردّ عليه بقوله : « قد بعت واشترى فوالله لا أقيله ولا أستقيله » وتلا الآية الكريمة ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ وظلّ يقاتل ، يرحمه الله ، حتى استشهد بأرض النيرب بالقرب من الربوة ، وحمل جثمانه إلى مقبرة باب الصغير حيث دفن هناك (١١).

ويؤكد ابن القلانسي أنّ وقوف هذا العالم في وجه الصليبيين ، ومواجهته لهم مما أدى إلى استشهاده هو : اتباعه لأمر الله تعالى حسبما ورد في الآية الكريمة التي تلاها عند عزمه المواجهة (١٢).

ومما يؤكد مشاركة المغاربة في جهاد الصليبيين ذلك الإجراء الذي اتخذه الصليبيون ضدهم والذي أشار إليه ابن جبير في أثناء زيارته حصن تبنين(١٣) ، فيقول : وهو موضوع تكيس القوافل... وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين ، وذلك لمقدّمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم ، سببها أنّ طائفة من أمجادهم غزت مع نور الدين ، رحمه الله ، أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر ؛ فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم ... وقال الإفرنج : إنّ هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا وتسالمهم ولا نرزأهم شيئًا ، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم ، فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في تكايتهم بالعدو يسهله عليهم ويخفف عنهم عنهم » (١٤).

وقد ظهر أثر المغاربة في جهاد الصليبيين خلال حكم صلاح الدين الأيوبي أكثر وضوحًا وتأثيراً ، حيث سُجلت لهم مشاركات فعلية في عمليات الجهاد التي خاضها صلاح الدين ، ضد الصليبيين ، كما ظهرت لهم مشاركات أيضًا عن طريق مرافقة الجيش وتقديم مايحتاج إليه من خدمات .

ففي الجانب الأول : أشار العماد الأصفهاني (ت ٥٩٦ هـ / ١٢٠١م) إلى حادثة تظهر من خلالها المشاركة الفعلية لهؤلاء المغاربة في عمليات الجهاد ، فقد حدث في سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١م) وفي أثناء حصار المسلمين لمدينة عكا أن جاء رسول من قبل أحد قادة الصليبيين ومعه أسير مغربي قدمه إلى السلطان صلاح الدين من باب الإهداء ، فما كان من صلاح الدين إلا أن استقبل ذلك الأسير بحفاوة بالغة وتقدير عظيم ، الأمر الذي يؤكد إعجاب صلاح الدين بهؤلاء المغاربة وبقدر ماقاموا به من جهود في المشاركة بقتال الصليبيين (١٥).

أما في مجال مرافقة الجيوش الإسلامية وتقديم الخدمات المساعدة لها ، فقد سجلت عدد من مصادر العصر اشتغال أعداد منهم في تحضير الطعام وتجهيز حمامات الجنود ، وتوفير أسباب النظافة العامة التي تضفي على النفس البشرية نوعًا من البهجة والراحة ، وقد قدّر المقريزي أعداد هؤلاء بأكثر من ثلاثة آلاف رجل(١٦).

ومن العلماء المغاربة الذين برزوا في هذا المجال عدد من الأطباء الذين وفدوا إلى بلاد المشرق الإسلامي منذ بداية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وكانت لهم مشاركات فعلية في العمليات الإنقاذية والعلاجية أثناء الحروب ضد الصليبيين . يذكر منهم هنا :

الطبيب أبو الحكم عبد الله بن المظفر الباهلي المتوفى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٥م)(١٧) وكان قد ارتحل إلى بلاد المشرق ، وتعلم الطب في مصر حتى برع فيه واشتهر ، ثمّ انتقل إلى بغداد واشتغل فيها بالطب ، وحينما سمع بتقدم الصليبيين نحو دمشق ارتحل إليها ، وأقام بها يداوي الناس في دكان له عند باب جيرون قرب الجامع الأموي حتى وفاته ، يرحمه الله (١٨).

وكذلك فعل ابنه أبو المجد محمد بن عبد الله الباهلي الملقب بأفضل الدولة ، وكان قد حذق في الطب ، ورفاق فيه والده حتى إن نور الدين اعتمده مسؤولاً أولاً عن إدارة البيمارستان الذي أنشأه في دمشق (١٩).

كما أقام الطبيب الأندلسي عمر بن علي البذوخ المتوفى بدمشق سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣م)(٢٠) بدور علاجي رائد في دمشق ، واشتهر بتصنيع الدواء وتحضيره بنفسه (٢١).

ومن هؤلاء الأطباء أيضًا عبد المنعم الجلياني الأندلسي الذي قدم إلى دمشق وأقام فيها إلى حين وفاته سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٧م) (٢٢). وكان الملك الناصر صلاح الدين يرى له ويحترمه ، وله في صلاح الدين قصائد كثيرة يمتدح فيها جهوده في جهاد الصليبيين كان من أبرزها تلك القصيدة التي وجهها له من مدينة دمشق وهو محاصر للفرنج المعسكرين في ظاهر عكا ، وهي القصيدة المشهورة بالتحفة الجوهرية والتي جاء في مطلعها :

رفاهية الشهم اقتحام العظائم طلابًا لعـــز أو غلابًا لضـــائم

كما ألف كتاب أسماه « منادح المادح وروضة المآثر والمفاخر ، من خصائص الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب »(٢٣).

وهذا يؤكد أنّ الدور الذي قام به هؤلاء دورٌ واسع الأطراف ، ولم يقتصر على الجهاد بمعناه المعروف الذي يعني المواجهة العسكرية ، بل تعدد ذلك إلى مشاركات متنوعة ، وكلها تسجل في صالح الجهاد ضد الصليبيين .

وممن رافق صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين الطبيب الأندلسي يحيى بن إسماعيل اليباسي الملقب بأمين الدين ، وكان صلاح الدين يثق به كثيراً حتى اعتمده أحد أطبائه الرئيسيين (٢٤).

وفي عصر المماليك ظهرت صور عديدة لمشاركة هؤلاء المغاربة ضد الصليبيين . من ذلك حادثة وقعت سنة ٧٨٥ هـ (١٣٨٣م) عندما هاجم الصليبيون مدينة بيروت ، فبعد اتصال تم بين حاميتها ونائب دمشق طلبًا للمساعدة لحمايتها والدفاع عنها تردد والي دمشق بحجة أنه يريد أمرًا سلطانيًا ، فقام أحد رجالات الدولة بدعوة الناس للجهاد طوعًا ، وكان في مقدمة الذين استجابوا لهذا النداء القاضي المالكي في دمشق آنذاك مع مجموعة كبيرة من الأندلسيين والمغاربة الموجودين في دمشق [٢٥].

ومن غير الأطباء شارك في الجهاد القاضي محمد بن محمد الدمشقي المالكي الملقب بعلم الدين القفصي ووالده أيضًا ، فقد عمل قبل تسلمه القضاء جنديًا في عدد من المدن الشامية مثل : حلب ودمشق وحماة ، وكذا الأمر بالنسبة لوالده[٢٦].

وهناك مظهر مهم لمشاركة الأندلسيين والمغاربة في جهاد الصليبيين يتمثل في البذل وتقديم الأموال ، وتجهيز المقاتلين بالسلاح والعتاد وما إلى ذلك . ومن أسهم في هذا الجانب الإمام محمد بن محمد أبو الوليد التجيبي الأندلسي إمام المالكية بدمشق والمتوفى بها سنة ٧١٨ هـ (١٣١٩م) . وقد قال عنه ابن حجر : « ... وكانت له عدة كاملة من السلاح والخيل أعدها للغزاة من ماله ... »[٢٧].

ومما يذكر هنا أن مشاركة هؤلاء المغربة لم تكن مرتبطة بحالات الطوارئ التي تمر بها المنطقة فحسب ، بل ثبت أنّ عددًا منهم قد انخرط في صفوف الجيش النظامي سواء باعتبارهم متطوعين أو محترفين ، مثل ماكان يقوم به أهل البلاد الأصليين [٢٨]. ويأتي الحافظ ابن عساكر كبير علماء الشام ومحدثها الأول في مقدمة هؤلاء [٢٩].

ثم إنه لابد من ملاحظة تذكر هنا وفي هذا المجال ، وهي أن المتطوعة لم يقتصروا على سكان البلاد الأصليين بل تعداه إلى القادمين من أهل المغرب والأندلس الذين يفدون إلى تلك الديار وتكتب لهم فضيلة المشاركة في الجهاد . وقد سميت أحد أحياء دمشق باسمهم وهو حي « المغاربة » الذي يعود إنشاؤه إلى تلك المرحلة [٣٠].

وقد انعكس نشاط المغاربة على تعامل الحكام المشرقيين معهم ، ففي عصر الملك العادل نور الدين محمود زنكي بلغ اهتمامه بالمغاربة حدًا جعله يفضلهم أحيانًا على أهل البلاد المحليين . وفي ذلك يقول ابن جبير : « ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة ، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية

وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم ، وأنهم لامخلص لهم سوى ذلك بعد الله عزّ وجلّ ، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم . فسلوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذا السبيل . وقد كان نور الدين ، رحمه الله ، نذر في مرضة أصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة ، فلما استهلّ من مرضه أرسل في فدائهم ، فسبق قبلهم نفر ليسوا من المغاربة ، وكانوا حماة من جملة عماله ، فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة ، وقال: هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لا أهل لهم[٣١] .

أما في العصر الأيوبي ، فقد تجلت صور المكافأة لهؤلاء المغاربة بتلك الإقطاعات التي منحها كلٌ من صلاح الدين الأيوبي وابنه الأفضل الذي خلفه في الحكم ، والتي تتمثل بمجموعة من الأوقاف والإقطاعات التي حبست لعلماء المغاربة في كل من دمشق وبيت المقدس[٣٢].

وكذلك فإن سلاطين المماليك عنوا بمعاملة تجار المغاربة معاملة خاصة ، وذلك بتقديم التسهيلات الكثيرة لهم كان من أبرزها تخفيض الضرائب على بضائعهم التي يقدمون بها إلى بلاد الشام[٣٣] .

الهوامش

١ – صالح محمد أبو قباض أبو ديباك ، التبادل الفكري بين المغرب والأندلس وشبه الجزيرة العربية ، مجلة الدارة ، العدد الثاني ، السنة ١٣ ، محرم ١٤٠٨ هـ (١٩٨٧م) ، ص ٩٨ – ١٢٥ .

٢ – يوسف بن علي العريني ، الحياة العلمية في الأندلس ، ص ٥٧ – ٥٨ .

٣ – الرحلة ، ص ٢٥٧ .

٤ – الرحلة ، ٢٥٨ .

٥ – الرحلة (تحفة النظار) ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

٦ – مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل ، عمّان ، مكتبة المحتسب (١٩٧٣م) ، ٤٥/٢ – ٤٦ .

٧ – الرحلة ، ص ٢٥٩ .

٨ – نفسه ، ص ٢٥٨ .

٩ – زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ٨٥ .

١٠ – علي أحمد ، دور الأندلسيين والمغاربة ، ضمن ندوة الإطار التاريخي ، ص ٢١٨ – ٢١٩ .

١١ – ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص ٤٦٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٩/ ٢٠٠ ، وسميه : يوسف بن ذي ياس الفندلاوي . وهو في أغلب المصادر : يوسف بن دوناس بن عيسى يلقب بأبي الحجاج المغربي فقيه مالكي قدم الشام ، وسكن بلدة بانياس مدة ، ثم انتقل إلى دمشق واستوطنها ، ودرّس بها مذهب الإمام مالك ، وحدّث بكتاب الموطأ وغيره . وقد وصف بأنه شيخ حسن المفاكهة ، حلو المناظرة ، كريم النفس قوي القلب (أبو شامة ، الروضتين ، ٥٢/١ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٨/ ٢٠٠ – ٢٠١) .

١٢ – تاريخ دمشق ، ص ٤٦٤ .

١٣ – تِبْنِيْن : في معجم البلدان : بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور ، (ياقوت ، معجم البلدان ، ١٤/٢) .

ويعرف هذا الحصن في المصادر باسم « تبنين » تارة و « تورون » تارة أخرى وقد عرف باسم تبنين لإقامته فوق تل تبنين على بعد نحو ثلاثة عشر ميلاً إلى الشرق من صور ، أما اسم : « تورون » فيغلب إطلاقه في المصادر الصليبية . (وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ٢٣١/٤ ، ٢٤٦) .

وهذا الحصن يشرف على الطريق الموصلة بين صور على الساحل ودمشق ، وهو ثاني تحصينات الصليبيين في المنطقة . (سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢٩٧/١) .

١٤ – الرحلة ، ص ٢٧٤ .

١٥ – الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٥٠٢ .

١٦ – علي أحمد ، دور الأندلسيين والمغاربة ، ص ٢٢٢ . نقلاً عن المقريزي في السلوك ، ٦٤/١ .

١٧ – هو أبو الحكم تاج الحكماء ، عبد الله بن المظفر الباهلي المولود في مدينة المرية في جنوب الأندلس أو بمدينة مرسية شرق الأندلس سنة ٤٨٦ هـ (١٠٧٦م) وقد درس الطب في مصر ، واشتهر كطبيب معروف ، فشرجه إلى بغداد وعمل بالبيمارستان السلطاني ، ثمّ انتقل إلى دمشق وأقام فيها يداوي الناس بدكان عند باب جيرون حتى وفاته (القفطي ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢٦٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ١٢٣/٣ – ١٢٤ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٦٣٧/٢ – ٦٣٨) .

١٨ – المقري ، المصدر السابق ، ٢٣٤/٢ .

١٩ – هو أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم ، عبد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي من الحكماء المشهورين والعلماء المذكورين والأماثل في صناعة الطب ، وله معرفة أيضًا في علم الهندسة ، والنجوم ، وقد توفي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م (ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٦٢٨) .

٢٠ – هو أبو جعفر عمر بن الكندوح اللخمي المقربي ، اشتهر بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة ، وله حسن نظر في الاطلاع على الأمراض ومداواتها ، أقام بدمشق سنين كثيرة ، وله بها دكان عطر يجلس فيه ، ويعالج من يأتي إليه ، وكانت له مع ذلك عناية بعلم الحديث ، وقد عمر كثيراً وضعف عن الحركة حتى أنه كان لا يأتي إلى دكانه إلا محمولاً وعمي في آخر عمره حتى توفي ، وله من الكتب الطبية ، شرح كتاب المفصل لأبقراط ، وشرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط أيضًا ، وكتاب ذخيرة الألباء ، والمفرد في التأليف عن الأشباه ، وله حواش وضعها على كتاب القانون لابن سيناء . (ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ٦٢٨ – ٦٣٠) .

٢١ – ابن أبي أصيبعة ، المصدر نفسه ، ص ٦٣٠ .

٢٢ – ينسب عبد المنعم الجلياني إلى جليانة على مقربة من غرناطة في جنوب شرق الأندلس ، كان قد اشتغل بالطب في بلاده وبرع فيه ، ثم رحل إلى المغرب ومنها إلى بغداد حيث استفاد فيها من خزائن الكتب الطبية ، ولما سمع بما كان يجري في بلاد الشام من حروب ترك بغداد وتوجه إلى دمشق حيث عمل رئيسًا للبيمارستان السلطاني أيام صلاح الدين ولازمه في سفره وحضره . (ابن أبي أصيبعة ، ص ٦٣٠ – ٦٣٥) .

٢٣ – ابن أبي أصيبعة ، المصدر نفسه ، ٦٣٠ ، ٦٣٥ .

٢٤ – هو أمين الدين أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الأندلسي البياسي ، أتقن الصناعة الطبية ، وتميز بها ، وكان قد قدم من المغرب إلى مصر وأقام فيها مدة ، ثم توجه إلى دمشق وأقام فيها ، وخدم الملك صلاح الدين في صناعة الطب (ابن أبي أصيبعة ، مرجع سابق ، ص ٦٣٧) .

٢٥ – المقري ، نفح الطيب ، ٤٨٨/٢ ؛ المراكشي ، الذيل والتكملة ٥٩٩/٢/٥ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢٧/١ .

٢٦ – ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر ، ٢٥٢/٣ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ١٣/١٠ .

٢٧ – الدرر الكامنة ٣٥٠/٣ – ٣٥١ .

٢٨ – علي أحمد ، مرجع سابق ، ص ٣٠٧ .

٢٩ – هو الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٦م) وكان من أبرز أعماله توجيه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخ لأول دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث الشريف في الإسلام . وهي دار الحديث النورية بدمشق . وقد حرص الحافظ ابن عساكر على تدريس مايتعلق منه بباب الجهاد ، وحث على فضائله ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به ، وقد جمع نور الدين أربعين حديثًا في فضائل الجهاد في جزء واحد دفعه إلى جمعه ونشره في حث الناس على فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله (ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ٧٨/١٣) .

٣٠ – أحمد عبد الكريم طوقان ، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ، ص ٤٨ .

٣١ – الرحلة ، ص ٢٨٠ .

٣٢ – أبو شامة ، الروضتين ، ١٣٧/٢ .

٣٣ – علي أحمد ، الأندلسيون ، ص ٣٠٨ .

مصادر البحث ومراجعه

ابن أبي أصيبعة أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م) :
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق : نزار رضاء ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥م) .

ابن الأثير : عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) .
الكامل في التاريخ ، ط ٤ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م) .

أحمد عبد الكريم طوقان : ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية ، دمشق ، دار الفداء (١٩٩١م) .

ابن بطوطة ، أبو عبد الله . محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م) .
رحلته المسماة : « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، تحقيق وتقديم : علي المنتصر الكتاني ، بيروت ، ط ٤ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت : ٦١٤ هـ / ١٢١٧م) .
رحلة ابن جبير ، بيروت ، دار صادر ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م .

ابن حجر ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م) .
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، بيروت ، دار الجيل (د.ت) .
- إنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق : عبد المعيد خان ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، (١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م) .

الحنبلي ، مجير الدين : الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل ، عمان ، مكتبة المحتسب ، (١٩٧٣م) .

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت : ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٢م .

رنسيمان « ستيفن » : تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ، دار الثقافة (١٩٦٧ - ١٩٦٨م) .

زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، القاهرة ، دار المعارف (د.ت) .

سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت: ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م) . مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، الجزء الثامن ، الهند ، حيدر آباد الدكن ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٧٠ هـ (١٩٥١م) .

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ط ٣ ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٧٨م) .

أبو شامة ، شهاب الدين ، أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت : ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) . كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، جـ ١ تحقيق : محمد حلمي أحمد ، ق ١ نشر مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة (١٩٦٢م)، جـ ٢ ، مطبعة وادي النيل ، القاهرة (١٢٨٨هـ) .

صالح محمد أبو عياش أبو دياك ، التبادل الفكري بين المغرب والأندلس وشبه الجزيرة العربية، مجلة الدارة ، العدد الثاني ، السنة ١٣ ، محرم ١٤٠٨ هـ /١٩٨٧م .

ابن العديم ، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت : ٦٦٠ هـ / ١٢٦١م) . زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق : سامي الدهان ، دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، المطبعة الكاثوليكية ، (١٩٥٤م) .

علي أحمد :

- الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى القرن التاسع الهجري ، دمشق ، دار طلاس ، ١٩٨٩م .
- دور الأندلسيون والمغاربة في الحروب الصليبية على مسرح الشام ومصر ، بحث نشر ضمن أعمال ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية التي تم عقدها في مقر اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة في رجب ١٤١٦ هـ / نوفمبر ١٩٩٥م .

العماد الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن آله (ت: ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م) الفتح القسي في الفتح القدسي ، القاهرة ، مطبعة الموسوعات ، (١٣٢١ هـ) .

ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت : ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨م) . شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت دار الفكر ، (١٣٩٩هـ) .

القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) . أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ، مكتبة الكتبي ، (د.ت) .

ابن القلانسي : أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي الدمشقي (ت : ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) ، تاريخ دمشق ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ، دار إحسان ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م .

المراكشي ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك (ت ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣م) . الذيل والتكملة ، بيروت ، (د.ت) .

المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١م) . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨م .

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت : ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) . كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ط ٢ ، نشر محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٧٠م) ، المقريزي السلوك .

وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ٤ أجزاء ترجمة وتعليق : حسن حبشي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٥م) .

ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله (ت : ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م) .

- معجم الأدباء المسمى : « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » القاهرة ، دار المأمون (د.ت) .
- معجم البلدان ط ٢ بيروت : دار صادر ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م .

يوسف بن علي الصريفي ، الحياة العلمية في الأندلس ، الرياض ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، ١٤١٦هـ .

د. عائشة عبد العزيز محمد القهامي(*)

الأزهر الشريف ودوره فى توثيق العلاقات المشرقية المغربية

منذ العصر الفاطمى حتى العصر المملوكى

المقدمة :

لقد رأى الفاطميون[1] بعد أن امتد نفوذهم على بلاد المغرب ، أن هذه البلاد لا تصلح لكى تكون مركزاً لدولتهم الفاطمية ومقراً لدعوتهم الشيعية ، لذا اتجهت أنظارهم إلى المشرق عامة ومصر خاصة ، حيث الثروة الوافرة والموقع المتميز فى قلب العالم الإسلامى . كل هذا شجعهم على تحقيق حلمهم[2] فى إقامة دولة مستقلة تنافس الدولة العباسية [3].

وكان أن عزم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى على فتح مصر وأعد العُدة لذلك[4] ، فعهد إلى قائده جوهر الصقلى بقيادة حملة ضخمة قيل فيها أنها " مثل جميع عرفات كُثرة وعُـدة"[5]، وكانت كفاءة جوهر وشجاعته موضع ثقة المعز[6] ، فخرج من المغرب قاصداً

---

* - قسم الآثار الإسلامية - كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى .

مصر ، فاستولى على الأسكندرية ثم تابع سيره حتى وصل إلى الفسطاط فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ / يوليه سنة ٩٦٩ م وهكذا دخل جوهر مصر فاتحًا منتصراً بعد أن وعد أهلها بالأمن والأمان والحرية على أنفسهم وأموالهم ومذهبهم [٧].

ولم يشأ جوهر أن يتخذ من الفسطاط أو العسكر عاصمة لبلاده لأن المذهب السنى كان متأصلاً فيهما[٨] . لذا شرع فى بناء مدينة جديدة ، وضع أساسها شمالى مدينة الفسطاط فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ / يولية سنة ٩٦٩م ، كما وضع أساس قصر الخليفة المعز ومقر حكمه، وأحاط المدينة والقصر بسور كبير خوفًا من هجوم القرامطة ولكى تكون هذه المدينة سكنًا للمغاربة أنصار الفاطميين [٩].

وأطلق جوهر على هذه المدينة الجديدة اسم المنصورية[١٠] نسبة إلى منصور - أبى المعز - الذى بنى مدينته بالقرب من القيروان ، أو بمعنى المنتصرة أو الظافرة [١١]، وقد قيلت آراء كثيرة[١٢] بخصوص تسمية القاهرة ، ولكن أقربها إلى الصحة هو ماذكره المقريزى[١٣] فى مصدرية من أن اسم القاهرة كان تحقيقًا لرغبة المعز حينما ودع جوهر لفتح مصر قائلاً له "ولتنزلن فى خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا " ، قال البعض أنها سميت بذلك " لأنها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها "[١٤] ، على أية حال فقد ظلت تسميتها بالمنصورية حتى قدم الخليفة المعز إلى مصر بعد أربع سنوات فسماها القاهرة[١٥] .

وأعجب الرحالة الفارسى ناصر خسرو[١٦] بمدينة القاهرة ومبانيها عندما زارها بعد إنشائها بحوالى خمسة وسبعين عامًا فى منتصف القرن ٤ هـ / ١١م أى فى الفترة مابين سنة ٤٣٤ - ٤٣٧ هـ / سنة ١٠٤٦ - ١٠٤٩م فقال " وهكذا بنيت المدينة التى قل نظيرها ... ويقع قصر السلطان فى وسط القاهرة " .

وهكذا غدت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية الشيعية الفتية منافسة بغداد حاضرة الدولة العباسية السنية المتداعية ، وكان ذلك خطوة أولى لمد نفوذ الفاطميين على بلاد الشام والحجاز وإنشاء إمبراطورية فاطمية تجمع بين المشرق والمغرب [١٧].

وبعد أن تم لجوهر تأسيس مدينة القاهرة ، رأى ألا يفاجئ السنيين فى مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمى ، حتى لا يثير غضب المصريين وحفيظتهم ، لذا وضع أساس الجامع الأزهر ليكون رمزاً لسيادة الدعوة الشيعية الفاطمية ، كما كانت القاهرة رمزاً لسيادة الدولة الفاطمية على مصر [١٨].

وقد اختلف المؤرخون والمحدثون والمستشرقون فى تسمية هذا الجامع ، فبعضهم قال إنه نسبة إلى القصور الزاهرة التى بنيت عند إنشاء مدينة القاهرة ، ولهذا سمى بالأزهر ، بينما يرى البعض أن هذه التسمية تفاؤلاً بما سيبلغه هذا الجامع من شأن عظيم ومكانة كبيرة بازدهار العلوم فيه وزهارته بين الجوامع ، والبعض الآخر يفسر معنى الأزهر بأنه المضىء الباهر . وتخلص القول بأن التفسير الأقرب إلى الصحة هو انتسابه إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، والتى سميت باسمها مقصورة أقيمت فى هذا الجامع[١٩]. وكان يطلق على هذا الجامع أحيانًا اسم جامع القاهرة[٢٠]. أما الرحالة الأوربيون فقد حرفوا اسمه إلى Giamalazer[٢١].

ويذكر المقريزى[٢٢] أن جوهر الصقلى شرع فى بناء الجامع الأزهر فى جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م ، وانتهى من بنائه فى رمضان سنة ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م ، أى بعد دخوله مصر بنحو سنتين ، وقد سجلت هذه الكتابة بدائرة قبة[٢٣] الرواق الأول على يمنة المنبر والمحراب حيث جاء ما نصه بعد البسملة " مما أمر ببنائه عبد الله وليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى ، وذلك فى سنة ستين وثلثمائة " .

وبعد أن استكمل جوهر بناء الأزهر ، قدم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله من بلاد المغرب فوصل القاهرة فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ / يونيو ٩٧٣م ومن ثم صارت مصر بقدومه دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة ، وهكذا تحقق حلم الفاطميين وأصبحت مصر رسميًا قاعدة الخلافة وقلبها النابض [٢٤]، وعندما ذكر المقريزى[٢٥] أن المعز صلى بالناس فى نفس العام صلاة عيد الفطر بالجامع الأزهر ، فإن هذا يُعد - فى حد ذاته - إعلانًا رسميًا من قبل الخليفة بأن الأزهر هو المسجد الجامع للعاصمة الجديدة [٢٦].

وقد لعب الجامع الأزهر فى مدينة القاهرة نفس الدور الذى لعبه جامع عمرو فى مدينة الفسطاط ، وجامع العسكر فى مدينة العسكر ، وجامع ابن طولون فى مدينة القطائع ، فكل منهم كان مركزاً دينيًا لمدينته تؤدى فيه صلاة الجمعة ، ويخطب فيه الخليفة لجموع المصلين[٢٧]. وبناء على هذا فإن جامع الأزهر يعد رابع المساجد الجامعة فى مصر ، كما أن مدينة القاهرة رابع المدن العامرة فى حواضر مصر الإسلامية [٢٨].

أما عن مساحة هذا الجامع الذى وضع أساسه جوهر فى العصر الفاطمى ، فإنه يمثل مايقرب من نصف مسطحه الحالى ، ومسقطه الأفقى وقت إنشائه . كان يتكون من صحن مكشوف

مستطيل الشكل تحيط به الأروقة من ثلاث جهات[٢٩] ، خمسة منها في الجانب الشرقى -رواق القبلة - وثلاثة بكل من الجانبين البحرى والقبلى ، أما الجهة الرابعة الغربية فخلو منها (شكل ١) ويتوسطها المدخل الرئيسى الذى كانت تعلوه المئذنة ، ولعله كان بارزاً عن الوجهة لكى تحمل فوقه المئذنة أسوة ببروز مسجد المهدية بالقرب من القيروان[٣٠] . ويتسطر رواق القبلة[٣١] مجاز قاطع (صورة ١) يتجه عمودياً على المحراب الأصلى القديم وهو ما يعرف باسم القبلة القديمة ، (صورة ٢) ، وقد زخرفت حافة عقود هذا المجاز بخطوط كوفية[٣٢] مزهرة من آيات قرآنية ، كما زخرفت خواصرها برسوم نباتية مورقة . وعقود هذا المجاز مرتفعة عن باقى عقود الرواق ، وهى الباقية فقط من عقود الجامع القديمة . ويعلو المحراب القديم الذى يرجع للعصر الفاطمى قبة فاطمية أيضاً (صورة ٣) حلت محلها قبة من العصر المملوكى ترجع إلى القرن ٩ هـ / ١٥ م ، كما كان يغطى طرفى رواق القبلة قبتين ، ولكنهما غير موجودتين الآن[٣٣] .

وكان الجامع الأزهر موضع عناية الخلفاء الفاطميين جميعاً ، ولعل أهم عمارة بالجامع هى الزيادة التى تمت فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله فى المدة مابين سنتى سنة ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ / سنة ١١٢٩ - ١١٤٩م ، فيذكر المقريزى[٣٤] أنه أنشأ " منصورة لطيفة تجاور الباب الغربى الذى فى مقدم الجامع بداخل الرواقات عرفت بمنصورة فاطمة ، من أجل أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها رؤيت بها فى المنام " ، كما أضاف للصحن رواقاً يحيط به من جوانبه الأربعة[٣٥] ، (شكل ٢) وقبة على رأس المجاز - وهى التى ماتزال قائمة حتى اليوم - حُفلت جوانبها وتطبها بالزخارف النباتية والكتابات الكوفية ذات الآيات القرآنية (صورة ٤) . ويذكر العلامة الأثرى حسن عبد الوهاب ، أن طريقة إضافة رواق إلى الصحن هى إحدى التأثيرات التى دخلت إلى مصر من بلاد المغرب ، حيث رآها فى مساجد عقبة بالقيروان والجامع الكبير بسوسة والزيتونة بتونس ، وتُعرف هناك بالمجنبات[٣٦] (صورة ٥) .

هذا هو تخطيط الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى ، والذى شهد له المستشرقون بروعة عمارته ، يقول الفرنسى جاستون فييت[٣٧] " يعتبر الجامع الأزهر أروع أمجاد الدولة الفاطمية ، وقد أصبح بمثابة متحف العمارة والزخرفة الإسلامية " ، بينما يقول الأمريكى بيارد دودج[٣٨] " وكان الأزهر أكبر من أن يكون مكاناً للعبادة فحسب ، يقدر ماكان مسجداً أو جامعاً حيث يلتقى المسلمون للعبادة والدروس فى بهو أعمدته " .

وكانت بداية الجامع الأزهر كغيره من المساجد الجامعة لإقامة الشعائر الدينية ، ثم لم يلبث أن شهد نهضة علمية ، جعلته جامعة يتلقى فيه طلاب العلم مختلف العلوم والفنون[٣٩] ، وكان مطلع الدراسة بالأزهر فى أواخر عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، حيث ذكر المقريزى[٤٠] أنه فى صفر سنة ٣٦٥ هـ / نوفمبر سنة ٩٧٥م ، اجتمع حشد عظيم وجمع حافل من أكابر العلماء وأفاضل الفقهاء ، ليستمعوا إلى درس يلقيه أبو الحسن على بن محمد النعمان القيروانى قاضى القضاة [٤١] ، فقرأ مختصر أبيه فى فقه آل البيت ، وهو المسمى بكتاب «الاختصار» بعدما سجل أسماء الحاضرين ، فكانت هذه الحلقة بمثابة أولى الحلق الدراسية بالأزهر [٤٢] .

وقد استمرت وتطورت هذه الحلق الدراسية بالأزهر فى عهد الخليفة العزيز بالله ، وذلك على يد بنى النعمان أيضاً ، فكانوا يستأثرون بتصدر معظم هذه الحلق ، حيث اصطفاهم وفضلهم الخلفاء الفاطميون فى تبوأ ورياسة المناصب القضائية زهاء نصف قرن[٤٣] ، وذلك لسمعتهم العلمية الطيبة من ناحية ، ولأصولهم المغربية من ناحية أخرى - ولايغيب عنا أن الفاطميين اعتمدوا فى توطيد حكمهم وتثبيت سلطانهم بمصر على عصبيتهم المغربية الأصل - وكان هؤلاء العلماء المغاربة يعقدون حلقاتهم الخاصة بقصر الخليفة . أما حلقاتهم العامة فقد كانت تعقد بالجامع الأزهر ، ونخلص من هذا أن حلقات بنى النعمان كانت باكورة الحلق الدراسية التى جعلت الجامع الأزهر يتجه اتجاهاً علمياً ، ويتزعم الحركة الفكرية والعقلية ، ليس فى مصر فحسب ، وإنما فى العالم الإسلامى مشرقه ومغربه ، وذلك إلى جانب ريادته الدينية [٤٤] .

ثم كان أن خطا الجامع الأزهر خطواته التالية للمضى قدماً فى طريق الحياة الجامعية ، عندما تولى يعقوب بن كلس[٤٥] ، الوزارة فى عهد الخليفة العزيز بالله ، وجلس بالأزهر وقرأ على الناس كتاباً ألفه فى الفقه الشيعى على مذهب الإسماعيلية . ويحوى هذا الكتاب فى جنباته معلومات سمعها ابن كلس من الخليفة المعز لدين الله وابنه العزيز ، وكان هذا الوزير يجلس لقراءة كتابه بنفسه تارة فى الجامع الأزهر على جموع من خواص الناس وعوامهم ، وتارة أخرى فى داره ، وذلك فى اجتماع يحضره العلماء من الفقهاء والقضاة والأدباء والشعراء [٤٦] .

وتعد هذه الحلقات الدراسية الفقهية التى كان يعقدها ابن كلس فى الجامع الأزهر ، البداية الحقيقية لأول المجالس الجامعية المتحررة من القيود الرسمية ذات الاتجاهات العلمية دون الميول المذهبية وذلك بالمقارنة مع مجالس بنى النعمان [٤٧] .

أما عن أهم خطوة خطاها الجامع الأزهر فى أن يأخذ بالنظام التعليمى الجامع ، فكانت فى عهد الخليفة العزيز بالله ، إذ يذكر المقريزى[٤٨] ، أن وزيره ابن كلس عرض عليه مشروعًا علميًا فى سنة ٣٧٨ هـ / ٩٩٨م يتلخص فى يعين بالأزهر بعض الفقهاء - أى الطلاب - للقراءة والدرس بصفة دائمة على أن يعقدوا هذه المجالس العلمية فى الجامع الأزهر كل جمعة ، بعد أداء شعائر صلاة الجمعة حتى العصر . فرحب العزيز بذلك ، ورتب لهؤلاء الفقهاء - وكان عددهم خمسة وثلاثين طالبًا - أرزاقًا شهرية ، وأعد لهم دارًا للسكنى بجوار الأزهر ، كما أجرى عليهم ابن كلس أيضًا أرزاقًا سنوية من ماله الخاص ، وأنعم عليهم الخليفة بخلع يوم عيد الفطر ، وأمر أن يركبوا البغال فى تنقلاتهم تشريفًا لهم ، وتكريمًا لعلمهم ، وكانت التقاليد الاجتماعية والعادات المصرية آنذاك تقصر ركوب البغال على العلماء والفقهاء ، بقرنة أنها تسير الهوينا بصورة تتفق وتتمشى مع وقارهم وهيبتهم [٤٩].

ويحضرنا قول مؤرخنا المعاصر محمد عبد الله عنان فى هذه الرعاية الحكومية من قبل الدولة الفاطمية فى جذب الطلاب إلى الدراسة العلمية المنتظمة فى الأزهر بأن هذا حدث جامعى حقيقى " وإذن فنحن نستطيع أن نقول أن الأزهر يكتسب عندئذ لأول مرة صفته العلمية الحقيقية كمعهد للدراسة المنتظمة ، وأنه يبدأ حياته الجامعية الحافلة المديدة " [٥٠].

ونخلص القول بأن الجامع الأزهر بالإضافة إلى أنه كان المسجد الرسمى للدولة الفاطمية فى نشر دعوتها الدينية ومذهبها الشيعى فإنه أصبح أيضًا ، جامعة علمية رفيعة المستوى تنافس كل من جامعى عمرو وابن طولون فى الدراسات الفقهية واللغوية وكذلك المحاضرات الأدبية والعلمية [٥١].

وهكذا بدأ الجامع الأزهر عهداً جديداً وتاريخًا مجيداً ليصبح مؤسسة علمية عالمية تحمل مشعل النور الوهاج ومركز الإشعاع الوضاء ينتشر منه الفكر الحضارى على العالم الإسلامى كله مشرقه ومغربه [٥٢].

وبالرغم من إنشاء الحاكم بأمر الله لدار الحكمة[٥٣] بالقاهرة ، سنة ٣٩٥ هـ / سنة ١٠٠٥م لنشر دعوته الفاطمية السرية - إلى جانب العلوم الفقهية والدراسات الأدبية والعلمية- وانجذاب الطلاب والأساتذة إليها لما تقدمه من امتيازات وإغداقات ، وكذلك وفود علماء أفاضل من الشرق والغرب إليها[٥٤] ، إلا أن الأزهر لم يقف صامتًا ، بل ظل صامداً يؤدى رسالته العلمية ويترك بصماته فى الحياة الفكرية ، فنراه يوثق عروته بأساتذة شوامخ

يتولون التدريس فى حلقاته ، ويوطد صلاته بعلماء أجلاء من أنطاب الفاطميين . وفى مقدمتهم القاضى أبو الحسن على ابن النعمان أول من درّس بالأزهر (ت ٣٧٤ هـ) ، وإخوة القاضى محمد بن النعمان (ت ٣٨٩ هـ) ، وفقيه مصر ومؤرخها الكبير الحسن بن زولاق (ت٣٨٧هـ) الذى كان صديقًا للمعز لدين الله ومؤرخ سيرته ، وابن القيروانى (ت ٣٨٨ هـ) وقد كان شيخ المالكية بالمغرب ، وابن يونس المنجم (ت ٣٩٩ هـ) ، والمسبحى المؤرخ والكاتب الشهير (ت ٤٢٠ هـ) والحوفى النحوى (ت ٤٣٠ هـ) وابن الهيثم الفيلسوف (ت٤٣٠ هـ) والقضائى الفقيه المحدث (ت ٤٥٤ هـ) وأبو العباس الفاسى من مشاهير العلماء والأدباء (ت ٥٣٨ هـ) [٥٥].

ومما هو جدير بالذكر أن فكرة إنشاء دار الحكمة لم تقم على هدف عدائى للأزهر ، فكلا المعهدين كان من غرس الدولة الفاطمية[٥٦] ، وخير دليل على ذلك أن الخليفة الحاكم بأمر الله أوقف على الجامع الأزهر فى سنة ٤٠٠ هـ / سنة ١٠٠١م أوقافًا ذات مورد ثابت - حتى لايكون تحت رحمة شخص خليفة معين أو وزير محدد - ويذكر المقريزى[٥٧] فى الوقفية أن بعض هذه الموارد " كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشده والجامع بالمقس اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائها ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة " ويلاحظ من خلال سطور هذه الوثيقة وتلك الوقفية أن جامع الأزهر كان يتصدر الثلاث جوامع ودار الحكمة .

وبعد استعراضنا لنشأة الجامع الأزهر ، وبالإضافة إلى دور هذا الجامع فى نشر المذهب الشيعى الفاطمى ثم دوره كجامعة تدرس فيها مختلف العلوم الدينية إلى جانب الدراسات الدينية وتبوأه الصدارة بين الجوامع سواء فى مشرق العالم الإسلامى أو مغربه ، وشهرته العلمية الواسعة فى جلب العلماء والطلاب من كل صوب وحدب فإن الأزهر بحكم موقعه المتوسط فى العالم الإسلامى وقربه من الحجاز غدا محطة للحجاج المغاربة ، كما ساعدت أهمية مصر الاقتصادية وصيغتها العربية ، وأهم من هذا وذاك ما يملكه وادى النيل من ثقافة علمية راسخة فى شتى ألوان الآداب والعلوم [٥٨]. كل ذلك ساعد على إعلاء شأنه وارتقاء مكانته .

ولم يلبث أن غدا الأزهر على صلة وثيقة بمدارس بغداد إبان الدولة العباسية ، وأيضًا بمدارس قرطبة بالأندلس ، وبذلك غدا حلقة الوصل الفكرى والروحى والثقافى بين مشرق العالم

الإسلامي ومغربه . فاستقطب بين أروقته وحول أعمدته عشرات الأئمة من علماء المسلمين ليتدارسوا فيه ، وليدرسوا لطلبتهم مانهلوه من المشرق والمغرب جميعًا ليرتوى من علمهم كل ظمآن للمعرفة الإسلامية [٥٩].

ومما يؤسف له أن الخطبة انقطعت وأبطلت في الجامع الأزهر في أول جمعة من سنة ٥٦٧هـ/ سنة ١١٧١م . عندما استقل صلاح الدين الأيوبي بمصر ، ودعا للخليفة العباسي المستضئ بأمر الله وبذلك قُضي على الخلافة الفاطمية " ولم ينتطح فيها عنزان "[٦٠] ، وأخذ صلاح الدين يعمل على محو آثار الدولة الفاطمية بمختلف الوسائل [٦١]. فأبطل الخطبة في الجامع الأزهر كما نزع من محراب الأزهر منطقة فضية وزنها خمسة آلاف درهم نقرة [٦٢].

وهكذا أفل نجم الجامع الأزهر في العصر الأيوبي لمحاربة صلاح الدين المذهب الشيعي الذي كان ممثلاً في الأزهر بوصفه الجامع الرسمي للدولة الفاطمية ونشره المذهب السني [٦٣]. والغالب إن سياسة الدولة الأيوبية تجاه الأزهر كانت في جملتها وسداها تستهدف موته موتًا بطيئًا صامتًا [٦٤].

ولم يكتف صلاح الدين من حرمان الأزهر من إقامة صلاة الجمعة فيه ، بل حرمه أيضًا من موارده المالية وحفلاته الدينية وصلواته الرسمية . مما ترتب عليه إهمال عمارته وتصدع بنائه، وما يقرب من مائة عام ، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس ، الذي عمل على إصلاحه وترميمه وعين له الفقهاء والمحدثين والقراء [٦٥].

بالرغم من جو العزلة الدينية الذي أحاط بالأزهر ، إلا أن هذا لم يباعد بينه وبين الحياة العلمية . ولا غرو في ذلك . فقد كان للأزهر سمعة علمية راسخة معروفة عاش عليها ، ما يربو على مائتي سنة - حتى قيام الدولة الأيوبية - وهذه الفترة الزمنية تزيد كثيراً من مجموع السنوات التي عاشتها مصر في كنف كل من الدولة الطولونية والإخشيدية والأيوبية ، ومع ذلك فقد ظل الأزهر محتفظًا بمكانته العلمية وصفته الجامعية ، فهو مقصد كبار العلماء الذين وفدوا على مصر خلال هذا العصر [٦٦].

وكان من بين هؤلاء العلماء البارزين ، عبد اللطيف البغدادي الذي جاء إلى مصر سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣م في عهد السلطان العزيز عماد الدين عثمان ، وتولى التدريس في الأزهر عدة سنوات حتى وفاة السلطان في سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨م ، وكان يلقي دروسه في المنطق والكلام والبيان والطب أحيانًا [٦٧]. كما كان منهم أيضًا العلامة الشهير والمقرئ الضرير أبو

القاسم الشاطبي - الذي ولد بشاطبه من أعمال الأندلس سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣م - ورحل إلى مصر عقب انتهاء الدولة الفاطمية في سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٧م بسببه إليها صيته في القراءات وإبداعاته في التفسيرات ، فهرع إليه طلاب العلم والمعرفة من كل صوب وحدب ، ومن أبدع مؤلفاته وأشهرها في القراءات قصيدة " حرز الأماني ووجه التهاني " وكانت وفاته سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م [٦٨].

وقد واصل الأزهر في نهاية العصر الأيوبي مسيرته العلمية وحياته الجامعية وكان مسرحًا لنشاط كثير من أعلام الفكر والأدب ، إذ شهد تألق وظهور كوكبة من علماء وأدباء مذكرى هذا العصر منهم الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض الذي أقام حينًا بالجامع الأزهر يعقد فيه حلقاته الصوفية والروحية[٦٩] ، ومنهم أيضًا الشيخ أبو القاسم المنفلوطي ، والشيخ شمس الدين الأتابكي ، الشيخ جمال الدين الأسيوطي ، الشيخ شهاب الدين السهروردي والمحدث سعد الدين الحارثي الحنبلي[٧٠] وكان منهم كذلك المؤرخ المعروف شمس الدين بن خلكان صاحب مؤلف " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " وجاء مصر في نهاية العصر الأيوبي سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م - أي قبل سقوط الدولة الأيوبية بإحدى عشرة سنة - وأقام بالقاهرة فترة وألقى دروسه بالأزهر [٧١].

وعلى الرغم من نشاط وازدهار المدارس المتخصصة التي أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي لتدريس مذهب أو مذهبين ، إلا أن الأزهر ظل مفتوحًا أمام الكثير من طلابه لتدريس المذاهب الأربعة ، لذا فإن مجال الدراسة في الأزهر صار متنوعًا ومفتوحًا للطلاب الوافدين من مشرق العالم الإسلامي ومغربه ، كما كان يغطيه عدد كبير من هؤلاء الطلاب [٧٢].

ونخلص القول أنه بالرغم من السياسة التي اتبعتها الدولة الأيوبية تجاه الأزهر في محاولة إبعاده عن أذهان الناس وطمس أهميته الثقافية ، واستئصال آثاره المذهبية الشيعية ، إلا أنه ظل جامعة تنبض بالحياة العلمية والفكرية ، وإن كانت خطاه بطيئة ، ولكن حسبنا أنه كان صامدًا [٧٣].

ومن ناحية أخرى ظل الجامع الأزهر محرومًا ومعطلاً من إقامة صلاة الجمعة فيه مائة عام تقريبًا - أو بمعنى أدق ثمان وتسعين عامًا - من سنة ٥٦٧ حتى سنة ٦٦٥ هـ / سنة ١١٧١م حتى سنة ١٢٦٧م ، وهي فترة حكم الدولة الأيوبية ، علاوة على سبع عشرة سنة من حكم دولة المماليك البحرية . عندما أعيدت فيه الخطبة مرة أخرى سنة ٦٦٥ هـ / سنة ١٢٦٧م على يد

الأمير عز الدين أيدمر الحلى فى عهد السلطان بيبرس . وكان يومًا مشهودًا فرح به مريدو الجامع الأزهر وعبر عنه المقريزى[٧٤] بقوله : " ووجد الناس به رفقًا وراحة لقربه من الحارات البعيدة من الجامع الحاكمى " .

ويعد هذا الحدث الجلل نقطة تحول مهمة فى تاريخ الحياة العلمية للأزهر ، إذ تبارى سلاطين وأمراء دولتى المماليك البحرية والجراكسة فى تقديم العناية والرعاية لهذا الجامع من إصلاحات وتجديدات وزيادات ، كما قدموا له الهبات السخية ورصدوا له الأحباس الغنية تقديراً لمكانته وتعظيمًا لعلمائه وتقربًا لطلبته [٧٥].

وأهم هذه الإصلاحات وتلك التجديدات التى تمت بالأزهر فى العصر المملوكى البحرى ، هو ماحدث فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما تعرضت مصر لزلزلة شديدة سنة ٧٠٢ هـ / سنة ١٣٠٢م وتأثر الجامع بها فتولى إصلاحه وتجديده الأمير سُلار . وفى سنة ٧٢٥ هـ / سنة ١٣٢٥م جدده القاضى نجم الدين محمد بن حسين الأسعردى محتسب القاهرة[٧٦].

وفى عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٦١ هـ / سنة ١٣٦٠م جدده الأمير الطواشى بشير الجمدار[٧٧] الناصرى وأصلحه وأنشأ على بابه القبلى سبيلاً وفوقه مكتبة لأيتام الفقراء المسلمين [٧٨].

هذا وقد تمتع الأزهر بالعناية الكبرى أيضًا فى عصر سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، ففى عهد السلطان برقوق سنة ٧٨٤ هـ / سنة ١٣٨٢م أصدر مرسومًا سلطانيًا نُقش على لوح من الرخام عند الباب الغربى الكبير ينص بأن من يموت من طلبة الأزهر من غير وارث شرعى وترك ثروة ، تؤول ثروته إلى زملائه من مجاورى الجامع الأزهر[٧٩] (شكل ٣) .

ويعتبر عهد السلطان قايتباى سنة ٨٧٢ - ٩٠١ هـ / سنة ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م عصراً ذهبيًا للأزهر فى القرن ٩ هـ / ١٥ م ، حيث أحدث تجديدًا ظاهراً فى المسجد ، فأنشأ مئذنة للجامع ، وجدد الباب الأصلى للجامع (صورة ٦) ، ونقش عليه اسمه ، كما أنشأ فسقية وسبيلاً وصهريجًا وميضأة ، وبنى على باب الجامع مكتبًا[٨٠] ، كذلك جدد الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى رواق المغاربة ، وعمل مقصورة خشبية على وجه الإيوانات الثلاث حول الصحن[٨١] ويذكر مؤرخ عصره ابن إياس [٨٢]، أن هذا الخواجا أنفق من ماله الخاص على تجديد الأزهر نحواً من خمسة عشر ألف دينار ، حتى جاء غاية فى الحسن .

وقد بلغ من حب السلطان قايتباى للأزهر وارتباطه به أن ابن إياس[٨٣] يذكر إن السلطان قايتباى كان يتردد على الجامع الأزهر متخفيًا فى زى أحد المغاربة ويصلى فيه .

أما السلطان قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / سنة ١٥٠١ - ١٥١٦م فقد أنشأ مئذنته المشهورة باسمه فى سنة ٩١٥ هـ / سنة ١٥١٠م وتُعد تحفة فنية فى العمارة الإسلامية وهى ضخمة عالية ذات رأس مزدوجة [٨٤].

بالإضافة إلى الإنشاءات والتجديدات والإنفاقات التى قام بها سلاطين وأمراء دولتى المماليك البحرية والجراكسة فى مبنى الأزهر ، فقد حظى هذا الجامع أيضًا باعتدادات واسعة فى المساحة الإنشائية (شكل ٤) ، فقد أنشئت به عدة مدارس ، أولاها المدرسة الطيبرسية ، بناها الأمير علاء الدين طيبرس نقيب الجيوش فى دولة الناصر محمد بن قلاوون ، وتقع على يمين الداخل من الباب الغربى الكبير ، وفرغ من بنائها سنة ٧٠٩ هـ / ١٣١٠م وجعل لها أكابر العلماء يحاضرون فيها الفقه الشافعى [٨٥]. وثانيها المدرسة الاقبغاوية ، والتى قام ببنائها الأمير علاء الدين اقبغا من عبد الواحد استادار[٨٦] السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وتقع على يسار الداخل من الباب الغربى الكبير ، فأصبحت تجاه المدرسة الطيبرسية ، وقد بنيت سنة ٧٤٠ هـ / سنة ١٣٤٠م ، وجعل فيها دروسًا للشافعية والحنفية [٨٧].

أما المدرسة الثالثة ، فهى المدرسة الجوهرية ، وقد بنيت فى أواخر القرن ٩ هـ / ١٥م ، وبناها الأمير جوهر القنقبائى خازندار - أى المشرف على خزانة السلطان أو الأمير - الملك الأشرف برسباى ، عند باب الأزهر الصغير من الجهة البحرية تجاه زاوية العميان ، وفرغ من بنائها سنة ٨٤٤ هـ / سنة ١٤٤١م وتُعد من ملحقات الجامع الأزهر ودفن بها منشئها [٨٨].

وكان لقيام هذه المدارس التى ألحقت بالأزهر إلى جانب المدارس الأخرى دورها الفعال وتأثيرها الكبير فى إثراء الحركة الفكرية ودعم الحياة الثقافية واجتذاب العلماء الأجلاء والطلاب النبهاء من المشرق والمغرب جميعًا وذلك بفضل الرعاية السابغة والعناية الفائقة من قبل سلاطين وأمراء دولتى المماليك البحرية والجراكسة ، مما ترتب عليه أن أسهم الأزهر فى إنعاش الحركة العلمية والأدبية فى مصر الإسلامية وبخاصة فى أواخر القرن ٨ هـ / ١٤ م ، وأوائل القرن ٩ هـ / ١٥ م [٨٩].

ومما ساعد أيضًا على تقدم وازدهار الحركة العلمية والأدبية بالأزهر فى العصر المملوكى انتعاش ورواج طريق البحر الأحمر - مصر ، الأمر الذى هيأ لسلاطين المماليك فرصة ذهبية

للإفادة من القيام بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب . وهكذا نجحت مصر فى ذلك العصر فى أن تحتكر وتستأثر بالجزء الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، مما كان له تأثيره الفعال فى إنعاش الاقتصاد المصرى فى العصر المملوكى [٩٠].

وهكذا عاش الأزهر أزهى عصوره الفكرية وأنضج عهوده العلمية فى ظل هذا الثراء الفاحش ، حتى تبوأ الأزهر الزعامة الفكرية والعلمية ، ليس فى مصر فحسب بل فى العالم الإسلامى ولاشك فى أن غزوات المغول التخريبية التى قاموا بها فى الشرق الإسلامى الأسيوى وسقوط بغداد - عاصمة الخلافة العباسية - فى أيديهم سنة ٦٥٦ هـ / سنة ١٢٥٨م وقيامهم بإشعال النار فى المدينة . كل ذلك أدى إلى هجرة كثير من العلماء إلى مصر حيث الأمن والسلام ، وهنا وجدوا فى الأزهر بوجه خاص خير مقر ومقام [٩١].

وصادف ذلك زمنيًا انهيار صرح الخلافة الأموية فى الأندلس وسقوط قواعد المسلمين بها واحدًا بعد آخر ، بحيث لم يأت منتصف القرن ٧ هـ / ١٣م حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت فى يد إسبانيا النصرانية ، ولم يبق غير مملكة غرناطة الصغيرة ولكنها سرعان ماتهاوت هى الأخرى ، وبذلك اندثرت المعاهد العلمية الإسلامية وانطفأت شعلة الحضارة الإسلامية فى الأندلس [٩٢].

هكذا فقد لعب هذان العاملان ، سقوط بغداد وانهيار الخلافة الأموية فى الأندلس ، دورًا كبيرًا فى ريادة الأزهر كجامعة انتقل إليها علماء من المغرب الإسلامى شدوا رحالهم إليه وعملوا فى رحابه كأساتذة زائرين أو أساتذة متفرغين ، وغدا الأزهر منذ أواخر القرن ٧ هـ / ١٣م كعبة شوامخ الأساتذة ونوابغ الطلاب من سائر أنحاء العالم الإسلامى مشرقه ومغربه [٩٣] .

ولاشك فى أنه كان لموقع الأزهر فى وسط العالم الإسلامى مشرقه ومغربه ، أثره فى جذب العلماء من مشارق الأرض ومغاربها [٩٤] ، كما كان لقرب الأزهر من بلاد الحجاز فى طريق الحجاج القادمين من بلاد المغرب الإسلامى أو العائدين مروراً بالقاهرة ، وقد حرص عدد كبير من هؤلاء الحجاج على الإقامة فى القاهرة والتردد على الأزهر والعمل على تعميق صلاتهم بعلمائه [٩٥].

وفى مقدمة هؤلاء العلماء المغاربة ، ابن خلدون [٩٦] ، الذى وفد إلى مصر فى سنة ٧٨٤ هـ / سنة ١٣٨٢م أى فى عهد السلطان الظاهر برقوق أول سلاطين المماليك الجراكسة - وكان

قاصدًا الحج إلى مكة ولكنه مالبث أن مكث بالقاهرة التى بهرته روعتها وعظمتها - كما بهرت على مر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب - حتى غدت منزل الفكر الإسلامى والوعى الثقافى فى المشرق والمغرب كما صار لبلاطها شهرة واسعة فى العلوم والفنون والآداب [٩٧].

ولا غرو فى أن المجتمع المصرى - وخاصة القاهرى - قد رحب بابن خلدون وأكرم وفادته وذاعت شهرته ، لأن سيرته كانت قد سبقته من خلال مقدمته المعروفة التى نالت إعجاب الدوائر العلمية والأدبية والفكرية ، وتألق نجمه فى سماء القاهرة عندما اتصل بالأمير علاء الدين الطنبغا الجوبانى ، فأوصله إلى السلطان برقوق الذى عينه للتدريس أول الأمر بالمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص ، كما ولاه أيضًا فى سنة ٧٨٦ هـ / سنة ١٣٨٤م منصب قاضى القضاة المالكية بمصر ، وولىّ هذا المنصب ست مرات [٩٨].

وقد شارك ابن خلدون بدور كبير ونصيب وافر فى النشاط العلمى بالجامع الأزهر حيث تصدر الحلقات الدراسية التى تتناول الحديث والفقه المالكى ، وتتلمذ على يديه وجلس بين جنبيه فريق من كبار العلماء المحدثين والمؤرخين ، ومنهم ابن حجر العسقلانى الذى شن على ابن خلدون حملات عنيفة وكانت بينهما خصومات مضطرمة . وبالرغم من ذلك طلب من ابن خلدون أن يمنحه الإجازة العلمية التى كانت تعد وقتئذ شرفًا كبيراً يسعى إليه العلماء من أمثاله عملاق مثل ابن خلدون [٩٩] ، كما لم تمنعه هذه الخصومة من وصف ابن خلدون بقوله " كان لنا فصيحًا حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور وخصوصًا متعلقات المملكة " [١٠٠].

أما تقى الدين المقريزى [١٠١] فقد أعجب بغزير علمه وروائع محاضراته وطريف آرائه ونظرياته ، وصاهره وتأثر به ، وكان يذكره دائمًا بمنتهى الجلال والخشوع وينعته بقوله " شيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاة " .

ويذكر أيضًا عن ابن خلدون أنه عندما قدم من بلاد المغرب " تصدر للاشتغال بالجامع الأزهر فأقبل الناس إليه ، وراقهم كلامه وأعجبوا به " كذلك قال المقريزى عن مقدمته " لم يعمل مثلها ، وإن لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هى زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف عن كنهها الأشياء وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود وتنبئ عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم ، وألطف من الماء سرى به النسيم " [١٠٢] .

وقد شهد مؤرخو مصر المملوكية بدور ابن خلدون البارز فى إشعال الجذوة الفكرية والعلمية بالأزهر إشعالاً أشاروا إليه فى تراجمهم ، فيقول ابن الصيرفى[١٠٣] " وتصدر لانتشار العلم واقرائه بالجامع الأزهر ، فهرع الناس إليه واقبلوا عليه وأعجبهم كلامه الرائق ومعناه الفائق ". يقول ابن تغرى بردى[١٠٤] "واستوطن القاهرة ، وتصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة واشتغل وأفاد " ، ويقول السخاوى[١٠٥] " قدم الديار المصرية فى ذى القعدة سنة أربع وثمانين فحج ثم عاد إليها وتلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد إليه ثم تصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة " .

وقد امتدت إقامة ابن خلدون فى مصر ثلاثًا وعشرين سنة حتى وافته المنية سنة ٨٠٨ هـ/ سنة ١٤٠٦ م عن ثمانية وسبعين عامًا غلب عليها الطابع البارز ، فعمل أستاذاً بالأزهر وقاضيًا على المذهب المالكى [١٠٦].

بالإضافة إلى الدور الفكرى والنشاط العلمى الذى لعبه العلامة المغربى ابن خلدون فى الجامع الأزهر ، فإنه لعب أيضًا دوراً سياسيًا مهمًا بين ملوك وسلاطين دولتى المماليك بمصر وبنى مرين بالمغرب ، حينما كانت تتوتر أحيانًا[١٠٧] ، مما أثرى العلاقات وآصر الصداقات وتبادل الرسالات فى عهد السلطان برقوق [١٠٨] ، الذى كان ينشد وساطته لاستيراد الخيول العربية المغربية الأصيلة لحاجة الجيش المملوكى إليها . وكانت ترسل أنفس أنواع الثياب المملوكية إلى سلاطين بنى حفص وبنى مرين بتونس والمغرب ، كما أن السلطان الحفصى ، قام بمساعدة السلطان برسباى حربيًا فى فتح قبرص سنة ٧٩٣ هـ / سنة ١٣٩٠م . وخلاصة القول فقد ظلت العلاقات الودية قائمة بين السلاطين الجراكسة وملوك المغرب حتى نهاية الدولة المملوكية [١٠٩].

وهناك أيضًا الكثير من العلماء المغاربة الأجلاء الذين سبقوا ابن خلدون فى القدوم إلى مصر فى العصر المملوكى واستقروا بها لتدريس مذهبهم المالكى ، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر . العلامة أبو حيان النحوى الذى ولد بغرناطة بالأندلس سنة ٦٥٤ هـ / سنة ١٢٥٦م وهو يعد فريد عصره وشيخ زمانه فى التفسير والحديث والتراجم واللغات ، وقد رحل إلى مالقا وتنقل إلى أن استقر به المقام فى القاهرة وتوفى فيها سنة ٧٤٥ هـ / سنة ١٣٤٤م[١١٠] ، والعلامة محمد بن أبى القاسم بن جميل التونسى الذى ولد بتونس سنة ٦٨١ هـ / سنة ١٢٨٢م ، وجاء إلى مصر واستقر بها حتى وفاته سنة ٧٦٣ هـ / سنة

١٣٦٢م . العلامة محمد وفا الشاذلى المغربى الأصل الذى ولد بالأسكندرية سنة ٧٠٢ هـ / سنة ١٣٠٢م وسلك طريق الشيخ أبى الحسن الشاذلى ورحل إلى أخميم وصار له مريدون وأتباع ثم انتقل إلى القاهرة ، وأقبل عليه أعيان الدولة ، وتوفى بها سنة ٧٦٥ هـ / سنة ١٣٦٤م [١١١].

ومن العلماء المغاربة الذين وفدوا إلى مصر بعد ابن خلدون ، العلامة محمد تقى الدين الفاسى ، الذى تصدر الحلقات الدراسية بالجامع الأزهر وأخذ عنه العلامة المصرى ابن حجر العسقلانى وتوفى بمصر سنة ٨٤٣ هـ / سنة ١٤٣٨م [١١٢].

وإلى جانب وفود العلماء المغاربة الذين جاءوا إلى مصر فى العصر المملوكى لتدريس مذهبهم المالكى بالأزهر وأثروا الحياة الفكرية والثقافية ، فقد حفل الأزهر الشريف أيضًا بكوكبة من شوامخ العلماء المصريين الذين كان لهم دورهم فى الحركة العلمية والأدبية فى مصر الإسلامية التى بلغت ذروتها من التقدم والإزدهار فى أواخر القرن ٨ هـ / ١٤م ، وأوائل القرن ٩ هـ / ١٥ م فى شتى العلوم والفنون[١١٣] .

ولاغرو فى ذلك فقد تبوأ الأزهر فى مصر والعالم الإسلامى نوعًا من الزعامة الفكرية والريادة الدينية على مر العصور الإسلامية - باستثناء العصر الأيوبى - وكان العصر المملوكى هو العصر الذهبى من حيث نتاجه العلمى ومركزه الأدبى ، وفى ظل رعاية سلاطين المماليك ، كان أكابر علمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ ويشغلون وظائف القضاة العليا [١١٤].

وقد شجع هذا الجو الثقافى والمناخ الفكرى للأزهر فى العصر المملوكى على أن يجذب إليه طلاب العلم من سائر أنحاء العالم الإسلامى ، مشرقه ومغربه ، لينهلوا من معين علمائه ويستظلوا بواحته العلمية الوارفة ، ويحلقوا فى رحاب روحانياته الفياضة ، وكان الأزهر دائمًا كالأم الحنون تضم إلى صدرها طلاب علمها من كل صوب وحدب فى أروقتها[١١٥] وجنباتها .

وثمة ملاحظة يجب أن نذكرها عند ذكرنا لنظام الأروقة بالأزهر وهى أن هناك فرقًا بين الأروقة كنظام هندسى معمارى أنشئ أصلاً عند بناء الأزهر ، وبين الأروقة كساكن يقيم فيها الطلبة سواء المصريين أو الوافدين ، فبالنسبة للأروقة بمعناها الهندسى المعمارى هى المساحة المحصورة بين صفين من البوائك وكانت هذه الأروقة جزءاً من الجامع الأزهر وقت أن أنشأه جوهر الصقلى ، وكان عددها وقتذاك أحد عشر رواقًا [١١٦].

لم تستخدم هذه الأروقة كمساكن للطلبة فى العصر الفاطمى بدليل أن الخليفة العزيز بالله – ثانى الخلفاء الفاطميين – لم يأمر لمجموعة الطلبة – وعددهم خمسة وثلاثين – الذين اختارهم وزيره ابن كلس للدراسة المنتظمة فى الأزهر سنة ٣٧٨ هـ / سنة ٩٩٨م أن يسكنوا بأروقة الأزهر ، بل أعد لهم سكنًا بجوار الأزهر كما يذكر المقريزى (١١٧).

وثمة ملحوظة أخرى هى أنه حتى عندما أضاف الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله رواقًا يحيط بالصحن من جوانبه الأربعة(١١٨) – كانت هذه إحدى التأثيرات المعمارية الإسلامية التى دخلت إلى مصر من بلاد المغرب وعُرفت بالمجنبات (١١٩)– كان مجرد عملية هندسية معمارية من قبيل الإضافات المعمارية التى أضيفت للأزهر ، ولم يكن الغرض منها إنشاء نظام الأروقة كمساكن للطلبة فى ذلك الوقت وقت إنشاء الجامع كما يعتقد البعض(١٢٠) ، ولكن فيما بعد حُولت هذه وتلك إلى مساكن للطلبة فى العصر المملوكى وخاصة فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وفى سنة ٨١٨ هـ / سنة ١٤١٥م يذكر لنا المقريزى(١٢١) "وبلغت عدتهم فى هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزيالعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة ولكل طائفة رواق يعرف بهم".

ومعنى هذا أن فكرة الأروقة بالأزهر انبثقت فى العصر المملوكى لكى تضم الطلبة الوافدين من كل قطر من أقطار العالم الإسلامى ، ليكون لهم رواق خاص بهم يقضون به سنوات طوالاً من أعمارهم فى تحصيل العلم بالأزهر بعيدين عن أوطانهم وخلاتهم ، وكان هذا التجمع المعيشى والسكنى والمذهبى فى رواق واحد يشعرهم بالألفة وعدم الغربة والبعد عن الوطن ، حيث كانوا يمارسون عاداتهم وتقاليدهم فى مجتمعهم الصغير ، هذا بالإضافة إلى أنه كان للطلبة المصريين الوافدين من إقليم معين داخل مصر رواق خاص بهم أيضًا ، وذلك لاختلاف العادات والتقاليد بين أقاليم مصر العليا والسفلى (١٢٢).

وقد ترتب على ذلك أن تعددت الأروقة تبعًا لتعدد وتنوع الأقاليم الداخلية والبلدان الخارجية التى يأتى منها الطلبة سواء طلبة من مصر أو وافدين على مصر ، وكان الأزهر يقبل الطلبة دون التقيد بسن معينة أو بلد معين أو حتى مذهب دينى معين ، لذا فقد تضافرت كل هذه الأسباب على زيادة أعداد الطلبة الدارسين والوافدين من مشرق العالم الإسلامى ومغربه(١٢٣).

وقد تمتع طلبة أروقة الأزهر المصريين والوافدين برغد العيش فى عصرى دولتى المماليك البحرية والجراكسة لوفرة الموارد المالية والهبات الثابتة التى رصدها وأجزلها أهل الخير والبذل

والعطاء من القادرين والموسورين المسلمين على أجَل أعمال البر وأشرفها بأن أوقفوا أملاكهم وضياعهم على دور العلم وبخاصة الأزهر وأساتذته وطلابه باختلاف جنسياتهم ومذاهبهم(١٢٤).

وكان لكل رواق رئيس يسمى شيخ الرواق ، ويجب أن يكون هذا الشيخ منتميًا إلى الإقليم أو البلد الذى ينتسب إليه طلبة الرواق ، كما كان يفضل أن يكون مدرسًا فى الأزهر ، وكان يقع على عاتقه مسئوليات كثيرة ويتمتع بسلطات متعددة (١٢٥).

ومما هو جدير بالذكر أن نظام الأروقة الطلابية أخذت به الجامعات الأوربية وخاصة جامعة باريس فى النصف الأول من القرن ٧ هـ / ١٣م ، حيث كانت أروقة هذه الجامعة تشمل أساتذة وطلبة كلية الآداب وحدهم ، الذين انقسموا إلى أربعة أقسام (أروقة) لكل قسم أو رواق رئيس خاص به يضم عناصر وجنسيات متحدة من الطلبة تجمعهم لغة واحدة وتقاليد واحدة وبلد واحد ومذهب واحد أيضًا (١٢٦).

ومما لاشك فيه أن نظام الأروقة بالأزهر لعب دورًا كبيرًا فى جذب الطلاب إليه لما يوفره لهم من استقرار علمى وتآلف اجتماعى ، كما كان أيضًا فخرًا كبيرًا وشرفًا عظيمًا لأى عالم يتلقى دراساته وتعليمه بالأزهر أستاذًا كان أو زائرًا مما يعطى دلالة واضحة وصورة جلية عن مكانة الأزهر كجامع وجامعة ضمت بين أروقتها وفى رحابها طلبة غرباء وأساتذة أجلاء (١٢٧).

* * *

ونخلص القول بأن أروقة الأزهر قامت بدور بارز فى دعم الترابط وتوطيد الأواصر بين الشعوب الإسلامية فى المشرق والمغرب دون تميز عنصرى أو طبقى أو لونى أو مذهبى . وقد تمثل هذا الدور أولاً فى الطلبة الغرباء الذين كانوا يعودون إلى بلادهم بعد انتهاء دراستهم ، فكانوا يحظون بمكانة رفيعة بين مواطنيهم ، وسرعان ما يشغلون مناصب قيادية ومراكز ريادية فى مجالات الافتاء والقضاء والتدريس . كما كانوا يحملون تقديرهم العميق لأساتذتهم وعلمائهم فى الأزهر ، ويحتفظون بصداقتهم الحميمة لزملائهم من الطلبة المصريين . وبذلك يظل الأزهر بأروقته وطلابه وعلمائه يمثل ذكرى جميلة فى نفوسهم ، وهكذا يتوافد الطلبة من كافة أنحاء العالم الإسلامى على أروقة الأزهر فيجدون فى بهوه الواحة الوارفة وفى أعمدته الظلال الوارفة (١٢٨).

أما الدور الآخر الذى لعبه الأزهر فى دعم الترابط وتوطيد الأواصر بين الشعوب الإسلامية فقد تمثل فى الصفوة المختارة من العلماء الأجلاء فى المشرق والمغرب ، الذين بهرتهم قبلة

الأزهر العلمية ومنارته الدينية ، وتألق نجمه براقًا في عصري دولتي المماليك البحرية والجراكسة فوفدوا إليه ، ونزلوا عليه ، ومن ثم تنقلوا بين أروقة الوافدين ، فكان كل عالم ينزل في الرواق المخصص لأبناء بلده ويزاولون نشاطهم العلمي ، فيتصدرون الحلقات الدراسية ومن بعدها يعكفون على التأليف العلمي . وهكذا كان هؤلاء العلماء الوافدين ، يقضون أوقاتهم وحياتهم بين أروقة الأزهر وجنباته إلى أن تتوفاهم المنية أو يعودون إلى بلادهم ، ومن أشهرهم كما ذكرنا آنفًا ابن خلدون ، النحوي ، التونسي ، الشاذلي ، الفاسي .

ولا مبالغة إذا اعتبرنا أروقة الأزهر جزء لا يتجزأ من تاريخ الأزهر العلمي والاجتماعي ، يصعب على الباحث الذي يؤرخ لهذا الصرح الشامخ أن يتجاهل دورها في انفتاح الأزهر على العالم الإسلامي (١٢٩).

وقد واصل الأزهر دوره الديني ومسيرته الفكرية كأقدم جامعة إسلامية حتى بلغ من عمره أكثر من ألف سنة ، ولايزال صرحًا شامخًا ورمزًا مجسدًا للتراث الفكري الإسلامي ، حتى قيل أن للمسلمين قبلة دينية وأخرى علمية ، فالقبلة الدينية هي المسجد الحرام في مكة المكرمة ، أما القبلة العلمية فهي الأزهر الشريف في القاهرة (١٣٠).

استمر دور الأزهر وأروقته في دعم الترابط وتوطيد الأواصر بين الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب على مر عصور مصر التاريخية والإسلامية حتى يومنا هذا ، الأمر الذي يتجلى واضحًا في مجيء جَد الباحثة من بلاد المغرب (مدينة وزان) إلى مصر (مدينة القاهرة) في سنة ١٣٠٢ هـ / سنة ١٨٨٥م ، ليلتحق برواق المغاربة بالأزهر ويدرس فيه مختلف العلوم الدينية والدنيوية ، وقد قيد اسمه كطالب في سجل عمومي للأغراب (المغاربة) وكان عمره وقتذاك اثنا عشرة سنة وشهرين(١٣١) ، وقد قُبل واجتاز التنقلات في القسمين الأول والثاني وأخيرًا القسم العالي(١٣٢) ، وبعده حصل الطالب على شهادة العالمية للغرباء من الجامع الأزهر الشريف في سنة ١٣٣٦ هـ / سنة ١٩١٧م ، ومُنح لقب الشيخ العالم الفاضل (مرفق طيه صورة من هذه الشهادة) ، ولكنه لم يغادر أرض مصر ولم يرجع إلى وطنه مفضلاً الاستقرار والسكنى بجوار الأزهر (١٣٣) ، حيث قام بالتدريس للطلبة المغاربة في الرواق الخاص بهم في الأزهر وتصاهر وتزوج من مصرية وتآلف مع المجتمع القاهري وظل به إلى أن وافته المنية في سنة ١٣٧٤ هـ / سنة ١٩٥٥م .

وهكذا لعب الأزهر وأروقته دورًا مهمًا في توثيق عُرى المحبة والتآلف والتآخي بين المجتمعات والشعوب الإسلامية مع مزجها وصهرها وتقاربها مع بعضها البعض .

ملحق الصور

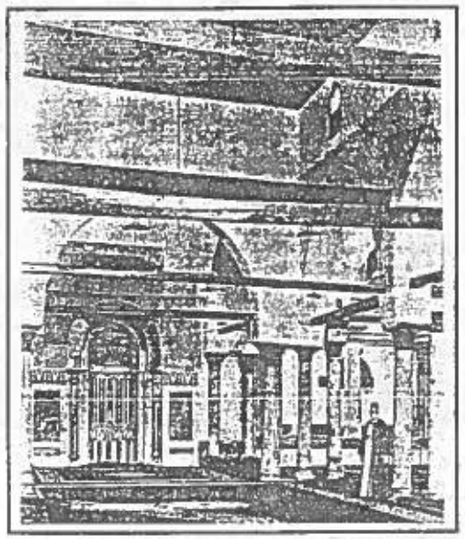

صورة (١) داخل الجامع الأزهر ويظهر به المجاز القاطع على رواق القبلة

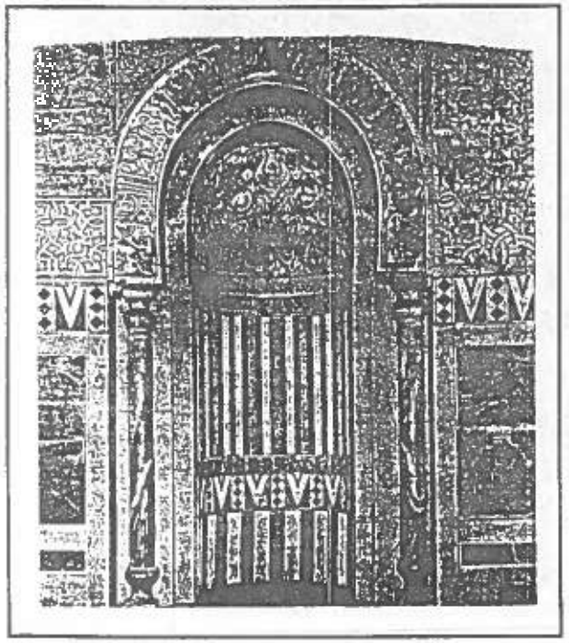

صورة (٢) المحراب العتيق بالجامع الأزهر

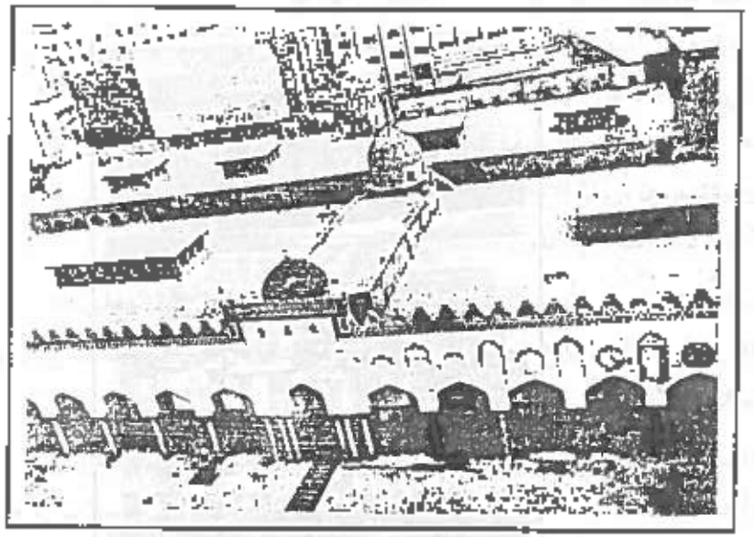

صورة (٣) الواجهة الجنوبية الشرقية (بيت الصلاة الفاطمى)

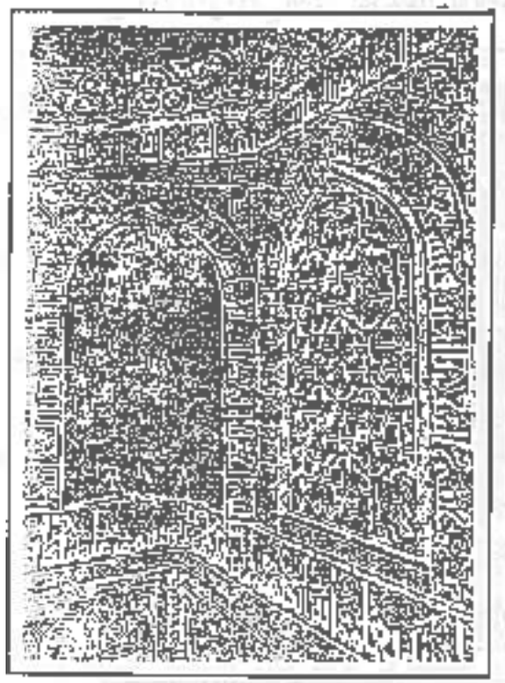

صورة (٤) مارستان معتمد فى قبة البهو بالأزهر من عهد الحافظ لدين الله

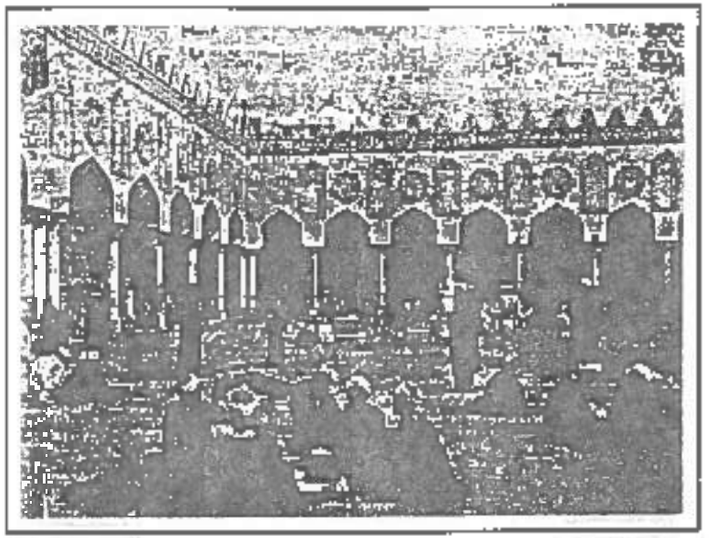

صورة (٥) صحن جامع الأزهر تحيط به الأروقة التى أضافها الحافظ لدين الله (وتعرف بالمجنبات) ويظهر به الطلبة الدارسين

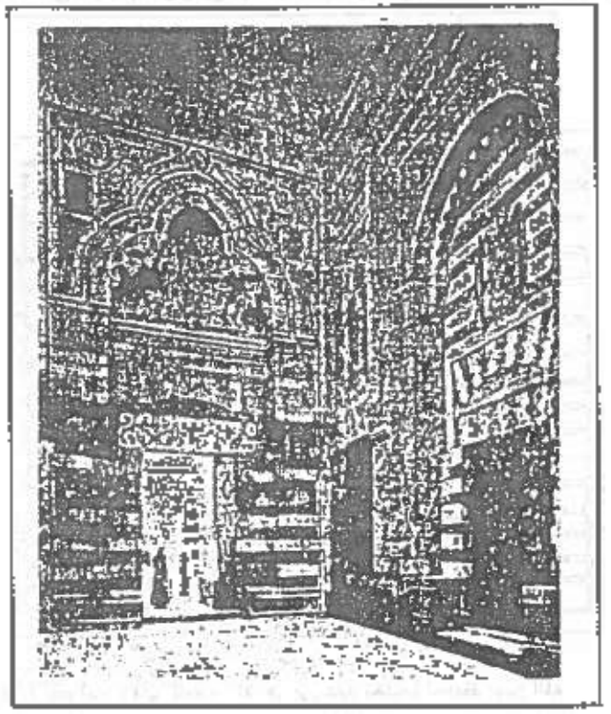

صورة (٦) واجهة الباب الرئيسى للأزهر الذى جدده قايتباى

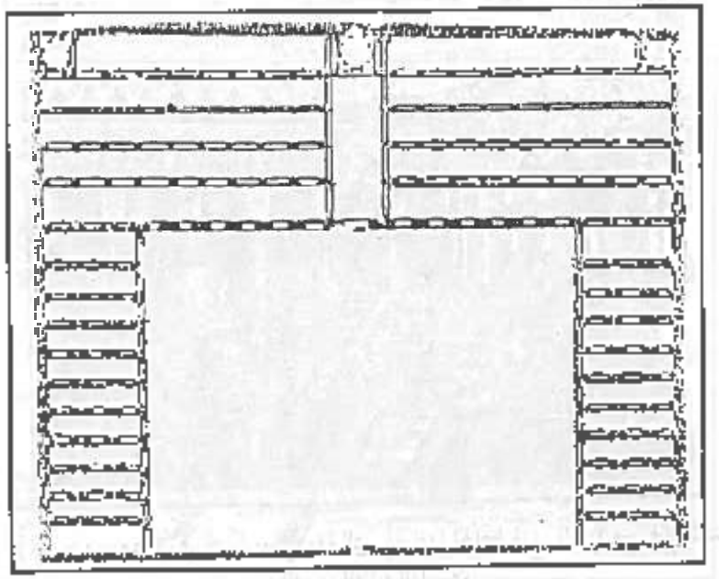

شكل (١) المسقط الأفقى للجامع الأزهر فى عهد الخليفة المعز لدين الله (أيام جوهر الصقلى)

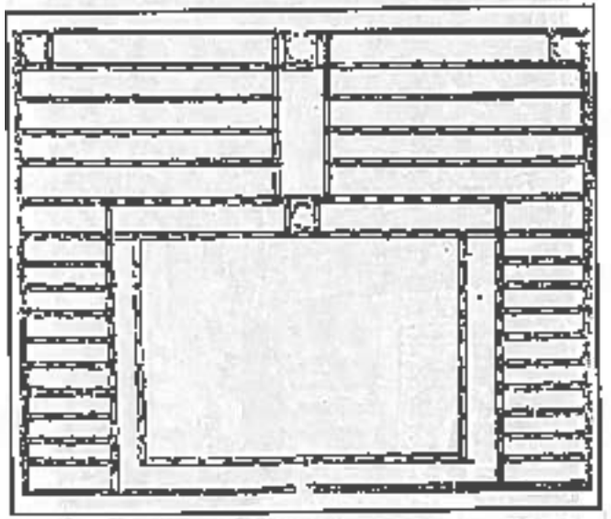

شكل (٢) المحراب الأفقى للجامع الأزهر فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله

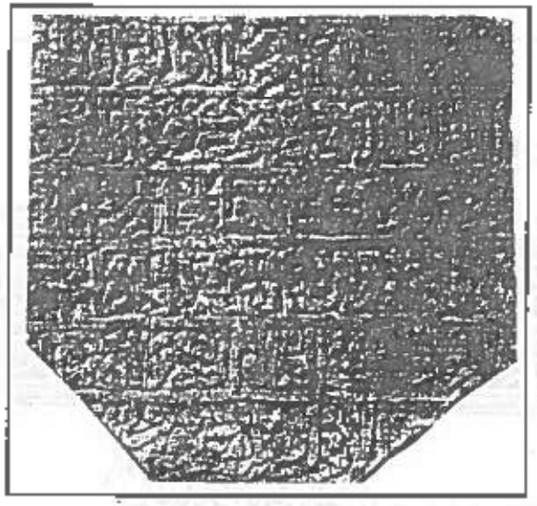

شكل (٣) لوح رخامى عليه النص الكتابى الذى أصدره السلطان برقوق

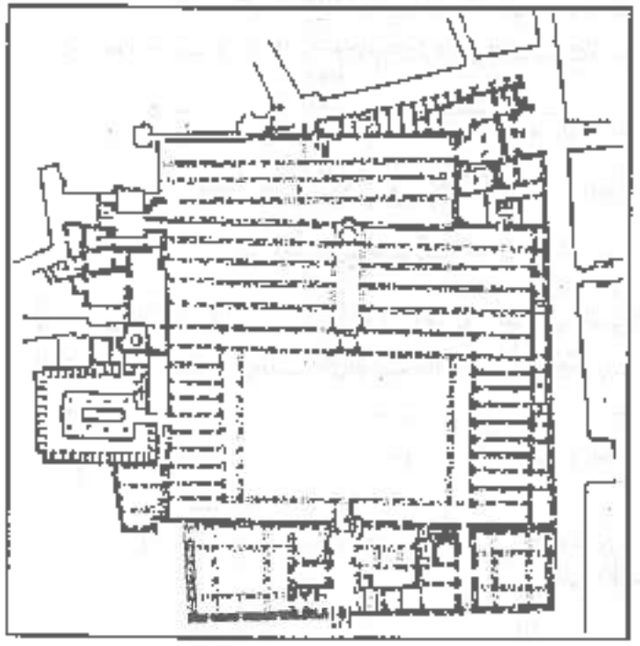

شكل (٤) المسقط الأفقى للجامع الأزهر مبينًا الأجزاء المختلفة التى أضيفت فى الأزمنه المتعاقبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامع الأزهر الشريف

شهادة العالمية للغرباء

الهوامش والتعليقات

١ – يرجع أصل الفاطميين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق من نسل فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وزوجة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وإن كان البعض يشكك في نسبهم هذا ، لكن نسبهم إلى فاطمة الزهراء صحيح وغير من دافع عن هذا النسب هو المقريزي شيخ المؤرخين بقوله أنهم " ملكوا من بني العباس بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين واليمن ... وعجزت عساكر بني العباس عن مقاومتهم فلاذت حينئذ بتغيير الكافة منهم بإشاعة الطعن في نسبهم " ، كما يطلق عليهم أيضاً العبيديين نسبة إلى الخليفة عبيد الله المهدي أول خليفة فاطمي وهو الذي أسس الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧ هـ / سنة ٩٠٩ م .

– المقريزي ، الخطط المقريزية ، جـ ١ ، ص ٣٤٩ .

– ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٧٥ – ٧٧ .

– ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ق ١ ، ص ١٨٧ .

– حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف ، عبيد الله المهدي ، ص ١٤٣ – ١٦٩ .

– حسن علي إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ، ص ٥٧ – ٧٩ .

– عباس محمود العقاد ، فاطمة الزهراء والفاطميون ، ص ٩٠ ، ٩٨ – ٧٠ .

٢ – كان حلم الفاطميين ممثلاً في حملاتهم على مصر لامتلاكها منذ عهد خلافة المهدي فخططوا لتحقيق هذا الحلم بإرسال ثلاث حملات لغزو مصر ، الأولى في سنة ٣٠١ هـ والثانية سنة ٣٠٩ هـ ، الثالثة في سنة ٣٢٢ هـ ، ولكن هذه الحملات الثلاث باءت جميعها بالفشل في ضم مصر القوية إلى سلطان الدولة الفاطمية .

– حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف ، عبيد الله المهدي ، ص ١٧٣ – ١٨١ .

– علي إبراهيم حسن ، مصر في العصور الوسطى ، ص ١٠٢ .

٣ – محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية في مصر ، ص ٦١ ؛ زاهر رياض ، شمال أفريقية في العصور الوسطى ، ص ٨١ .

٤ – حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف ، المعز لدين الله ، ص ٨٢ – ٨٣ .

٥ – المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٠٧ .

٦ – مما يدل على ثقة المعز في كفاءة جوهر وشجاعته ، قولته المشهورة عند وداعه " والله لو خرج جوهر على وحده لفتح مصر ، ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب " . المقريزي ، الخطط المقريزية ، جـ ١ ، ص ٣٧٨ .

٧ – محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية في مصر ، ص ٦٦ – ٦٨ .

٨ – حسن إبراهيم حسن وطه شرف ، المعز لدين الله ، ص ٢١٠ .

٩ – المرجع السابق ، ص ٢١١ ؛ محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية في مصر ، ص ٦٨ .

١٠ – محمد محمد زيتون ، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ص ١٤٤ .

١١ – أندرية ريمون ، القاهرة تاريخ حضاره ، ص ٣٨ .

١٢ – ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٤١ – ٤٢ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق١ ، ص ١٨٥ .

١٣ – اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١١٤ .

١٤ – على إبراهيم حسن ، تاريخ جوهر الصقلى ، ص ٩١ .

15 - Creswell, the Fondation of Cairo, pp. 268 - 8 .

١٦ – سفر نامه ، ص ١٠٤ .

١٧ – على إبراهيم حسن ، مصر في العصور الوسطى ، ص ١١١ .

١٨ – محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية ، ص ٧٠ .

١٩ – المقريزي ، الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٥ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق١ ، ص ١٨٩ ؛ سليمان الرصد ، كنز الجوهر في تاريخ الأزهر ، ص ٢٥ ؛ Creswell, the Muslim Architecture of Egypt, p. 36 ؛ دودج ، الأزهر في ألف عام ، ص ١٨ .

٢٠ – المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٣٧ .

٢١ – أوليج غرابكف ، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة ، ص ٥٤ .

٢٢ – الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ .

٢٣ – مما يؤسف له أن هذه الكتابة مع القبة قد اندثرت الآن . حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، جـ ١ ، ص ٤٩ .

٢٤ – عبد الرحمن الرافعي وسعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، ص ٢٠٠ .

٢٥ – الخطط المقريزية ، جـ ١ ، ص ٣٥٣ .

٢٦ – دودج ، الأزهر في ألف عام ، ص ١٩ .

٢٧ – حسن إبراهيم ، المعز لدين الله ، ص ٢٤٣ – ٢٤٩ ؛ محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية في مصر ، ص ٧٠ .

٢٨ – حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ، ص ٢١٩ – ٢٢٠ ؛ عبد الرحمن ذكي ، موسوعة العالم الإسلامي ، القاهرة منارة الحضارة ، ص ٢ ، ١٦ ، ١٨ .

29 - Creswell, the Muslim Architecture of Egypt, pp. 58 - 9, fig 21 .

٣٠ – حسن عبد الوهاب ، العمارة الإسلامية في العصر الفاطمى ، ص ٢١٤ ؛ سعاد ماهر ، مساجد مصر وأوليائها الصالحون ، جـ ١ ، ص ١٩٦ .

٣١ – يعتبر المجاز القاطع بجامع الأزهر ، أول مثال للعجاز في مصر الإسلامية ، وقد وجد هذا التصميم المعمارى من قبل في المسجد الأموى والذى أنشأه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ ، ويذهب د. عبد العزيز مرزوق إلى أبعد من ذلك بأن هذا العنصر قد أخذه المسلمون من تخطيط الكنائس المسيحية الشرقية ، بينما يؤكد العلامة الأثرى حسن عبد الوهاب أن مجازى كل من الأزهر والحاكم متشابهان من العمارة في بلاد المغرب حيث شاهد أمثالهما في مسجد عقبة بالقيروان والزيتونة بتونس ؛ حسن عبد الوهب ، العمارة الإسلامية في العصر الفاطمى ، ص ٣١٤ ؛ محمد عبد العزيز مرزوق ، مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ، ص ٥٦ ؛ كمال الدين سامح ، العمارة في مصر الإسلامية ، ص٢٤ .

٣٢ – تعتبر الكتابات الكوفية المزهرة – أي التي تخرج من حروفها فروع نباتية بها أزهار – المنقوشة على الجص في الجامع الأزهر من أقدم الكتابات الفاطمية في مصر ، فهي ترجع إلى تاريخ تأسيسه وقد اختلفت الآراء في نشأة هذا النوع من الخط ، فالبعض يرى أنه نشأ في المغرب والأندلس ومنها انتقل مع الفاطميين إلى مصر ، والبعض الآخر يرى أنه نشأ في العراق بوسط آسيا ومنه انتقل إلى القاهرة ، بينما يؤكد المستشرق جروهمان أن زخرفة التوريق في الخط الكوفي بدأت ونمت في مصر في شواهد القبور وأوراق البردى ، وازدهرت في القاهرة ومنها انتقلت شرقا وغربا ، ويعد الخط الكوفي المزهر من مميزات زخارف العصر الفاطمى .

- Grohman, the Origin and Early Development of Floriated Kufic, pp. 183 - 213 .

- Creswell, the Muslim Architecture, p. 57, Figs. 18 - 19 .

- محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية ، ص ١٧٤ ؛ مايسة محمود داود ، الكتابات العربية على الآثار الإسلامية ، ص ١٣٠ .

٣٣ - يستدل على وجود هاتين القبتين من تصميم جامع الحاكم الذي يشتمل على ثلاث قباب ، كما أن المقريزي أثبت أن هناك نصًا تاريخيًا كان مكتوبًا على القبة التي في الرواق الأول على يمين المحراب والمنبر ، وكذلك ما جاء في صحة وقف الحاكم بأمر الله على المساجد بما نصه " ما قدر لصيانة القباب فوق السطح " .

- الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ ؛ حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، جـ ١ ، ص ٤٩ .

٣٤ - الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٥ .

٣٥ - سعاد ماهر ، الجامع الأزهر بين ماضيه وحاضره ، ص ٣٨ - ٣٩ .

36 - Greswell, the Muslim Architecture, p. 62, Fig. 22 .

- تاريخ المساجد الأثرية ، جـ ١ ، ص ٥١ .

٣٧ - القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ص ٣٩ .

٣٨ - الأزهر في ألف عام ، ص ١٧ .

٣٩ - مجمع البحوث الإسلامية تاريخه وتطوره ، ص ١٨ .

٤٠ - المقريزي ، الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٣٤١ .

٤١ - ينتمي أبو حنيفة النعمان إلى قبيلة تميم وبيته الإسماعيلية " سيدنا القاضي نعمان " تمييزًا له عن أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب المشهور ، قال عنه ابن زولاق أنه كان من أهل العلم والفقه والدين ، وكان مالكي المذهب ، عاصر الفاطميين في المغرب وكان في صحبة المعز عندما رحل من أفريقية إلى مصر ، وقاله عنه ابن خلكان " قاضي الدولة الفاطمية أبو حنيفة النعمان ابن محمد الداعي " ، وكان رئيسًا للقضاء ، كما كان داعيًا وتوفي سنة ٣٦٣ هـ . وكان لأبي حنيفة أولاد نجباء منهم أبو الحسن الذي تولى قضاء مصر والشام والحرمين والمغرب . وأول من تلقب بلقب قاضي القضاة في عهد الخليفة العزيز سنة ٣٦٦ هـ ، ولمزاً مسجله في جامع الأزهر . وكانت الولاية لأولاد بني النعمان وأحفادهم .

- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٤٨ - ٥٦ ؛ حسن إبراهيم حسن ، مصر في العصور الوسطى ، ص ٣٦٢ ؛ حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف ، المعز لدين الله ، ص ٢٥٨ - ٢٦٨ .

٤٢ - الأزهر تاريخه وتطوره ، ص ١٠٣ .

43 - The Encyclopaedia of Islam, Vol. I, p. 823 .

- محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٤١ - ٤٢ .

٤٤ - عبد العزيز الشناوي ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ ١ ، ص ٥١ - ٥٢ .

٤٥ - كان يعقوب بن كلس يهوديًا ، ولد في بغداد ، وعاش في الشام ، ورحل إلى مصر سنة ٣٣١ هـ / سنة ٩٤٢ م واتصل بكافور ، ونال الحظوة لديه ، عندما اعتنق الإسلام سنة ٣٥٦ هـ / سنة ٩٦٧م ، كان حُجة في العلوم الإسلامية ، مما أثار حقد وحسد الوزير ابن الفرات فاضطر مرغمًا إلى الفرار إلى المغرب ، وهناك اتصل بالمعز ورغبه وحثه على فتح مصر ، حيث دله على أوجه ضعفها وظل ببلاد المغرب حتى دخول المعز مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣م ، وقد تبوأ ابن كلس مناصب وزارية مهمة في الدولة الفاطمية في عهد الخليفتين المعز والعزيز ، ولُقب ابن كلس في سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٩ م بلقب الوزير الأجل وألف الكثير من الكتب في الفقه ، ومن أشهرها كتابه في مختصر الفقه المعروف بالرسالة الوزيرية وتوفي سنة ٣٨٠ هـ / ٩٨١م .

- الزركلي ، الإعلام ، جـ ٨ ، ص ٢٠٢ ؛ علي إبراهيم حسن ، مصر في العصور الوسطى ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مج ١ ، العدد الثالث ، ص ٣٧٠ .

٤٦ - المقريزي ، الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٣٤١ .

٤٧ - محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٤٣ .

٤٨ - الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ .

٤٩ - عبد العزيز الشناوي ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ ١ ، ص ٥٤ ؛ أحمد محمد عوف ، الأزهر جامعًا في ألف عام ، ص ٥٨ - ٥٩ .

٥٠ - تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٤٤ .

٥١ - عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٦٢ .

٥٢ - الأزهر تاريخه وتطوره ، ص ١٠٣ .

٥٣ - المقريزي ، الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٣٤٢ .

٥٤ - عبد العزيز الشناوي ، نفس المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

٥٥ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ١ ، رقم ٦٨ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٢٠٠ ؛ الأزهر الشريف في عيده الألفي ، ص ٧٠ - ٧٢ .

٥٦ – عبد العزيز محمد الشناوى ، المرجع السابق ، ص ٧٧ .

٥٧ – الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٤ .

58 - The Encyclopaedia of Islam, Vol. I. p. 814 .

٥٩ – أحمد محمد عوف ، الأزهر فى ألف عام ، ص ٢٣ – ٢٤ .

٦٠ – أبو شامة ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٢ – ٤٩٣ .

٦١ – أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ، ص ٤٥ .

٦٢ – المقريزى ، الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٥ – ٢٧٦ .

٦٣ – الأزهر تاريخه وتطوره ، ص ٧٢ .

٦٤ – عبد العزيز الشناوى ، نفس المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٩٦ .

65 - The Encyclopaedia of Islam, Vol. I. p. 814 .

– سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ١٤٩ .

٦٦ – عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٠٧ .

٦٧ – زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، ص ١٠٨ ؛ مجمع البحوث الإسلامية تاريخه وتطوره ، ص ٢٩ .

٦٨ – ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ترجمة رقم ٥١٠ ، ص ٢٣٤ – ٢٣٦ ؛ محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٩٢ .

٦٩ – عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٠٨ .

٧٠ – عبد الرحمن زكى ، الأزهر وماحوله من الآثار ، ص ٦٤ – ٦٥ .

٧١ – دائرة المعارف الإسلامية ، مج ١ ، العدد الثانى ، ص ١٥٧ – ١٥٨ .

٧٢ – مجمع البحوث الإسلامية تاريخه وتطوره ، ص ٣٠ .

٧٣ – عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

٧٤ – الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٥ .

٧٥ – عبد العزيز الشناوى ، نفس المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٦ – ١٣١ ؛ عبد الرحمن زكى ، الأزهر وماحوله من الآثار ، ص ٢٦ – ٣٠ .

٧٦ – على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ .

٧٧ – الجمدار ، كلمة فارسية الأصل مركبة ، وتعنى الموظف الذى يقوم بإلباس السلطان أو الأمير ثيابه وملابسه . القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٥٩ .

٧٨ – سليمان الرصد ، كنز الجوهر ، ص ٥١ .

٧٩ – المقريزى ، الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن نص هذا المرسوم راجع : سعاد ماهر ، الجامع الأزهر بين ماضيه وحاضره ، ص ٣٩ – ٤٠ ، لوحة ٧ .

٨٠ – يونس مهران ، الجامع الأزهر ، ص ١٣٦ .

٨١ – سليمان الرصد ، المرجع السابق ، ص ٥٨ – ٥٩ ؛ حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، جـ ١ ، ص ٥٥ .

٨٢ – بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٣٠٦ .

٨٣ – نفس المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٢١ .

٨٤ – سعاد ماهر ، مساجد مصر ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ .

٨٥ – على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٤ ، ص ٤٤ – ٤٥ .

٨٦ – أستادار ، كلمة فارسية مكونة من مقطعين ، وهى وظيفة من وظائف أرباب السيوف ، يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها من مطابخ وحاشية وغلمان .

– القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٠ ، جـ ٥ ، ص ٤٥٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٢٢٢ ، حاشية ١ .

٨٧ – عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

٨٨ – سليمان الرصد ، كنز الجوهر ، ص ١٠٧ ؛ الأزهر تاريخه وتطوره ، ص ٧٩ – ٨٠ .

٨٩ – عبد الرحمن زكى ، الأزهر وماحوله من الآثار ، ص ١١٦ ، ١١٧ ؛ عبد العزيز الشناوى ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ ١ ، ص ١٣٦ .

٩٠ – سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٩٣ – ٣٠٣ .

٩١ – عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٦ – ١٣٧ ، ص ١٤٤ .

٩٢ – محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ١٦ – ٢١ .

٩٣ – محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، ص ١١٨ .

٩٤ – عبد العزيز الشناوي ، نفس المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٤٥ .

95 - The Encyclopaedia of Islam, Vol. I. p. 814 .

– محمد كمال السيد محمد ، الأزهر جامعًا وجامعة أو مصر في ألف عام ، ص ٩ .

٩٦ – ابن خلدون ، هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد الحضرمي الإشبيلي ، فيلسوف مؤرخ وعالم اجتماعي ، ولد بتونس ببلاد المغرب ، رحل إلى فاس وتولى مناصب رفيعة في بلاطها ، ورحل أيضًا إلى غرناطة وتلمسان والأندلس ، وفي سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢م خرج بقصد الحج إلى مكة المكرمة ولكنه توقف في رحلته عند الإسكندرية والقاهرة ومكث بها حتى توفي سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م بعد أن تبوأ مكانة عالية ومنزلة سامية في المجتمع المصري .

– الزركلي ، الإعلام ، جـ ٤ ، ص ١٠٦ – ١٠٧ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مج ١ ، العدد الثالث ، ص ١٥٢ ، ١٥٥ .

٩٧ – محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ، ص ٦٨ – ٦٩ ؛ Al Tawansy, Ibn Khaldoo. p. 14 ؛ أحمد رمضان أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

٩٨ – ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٢٧٩ ؛ محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ٧٠ – ٧٢ .

٩٩ – محمد عبد الله عنان نفس المرجع السابق، ص ٩٩– ١٠٥ ؛ Al Tawansy, Ibn Khaldun, p. 14 .

١٠٠ – السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ ٤ ، ص ١٤٨ .

١٠١ – المقريزي ، الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٦ ، ص ١٩٠ ؛ السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ٣ ، ق٢، ص ٤٨٠ ؛ محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ، ص ١٠٣ ، ١٠٦ ؛ أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٧١ .

١٠٢ – السخاوي ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٤٧ .

١٠٣ – نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، ص ٥١ .

١٠٤ – المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، جـ ٧ ، ص ٢٠٨ .

١٠٥ – الضوء اللامع ، جـ ٤ ، ص ١٤٦ .

١٠٦ – محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ ؛ عبد العزيز الشناوي ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ ١ ، ص ١٤١ .

١٠٧ – محمد عيسى الحريري ، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ، ص ٣٠٢ – ٣٠٩ .

١٠٨ – القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ١٠٣ – ١٠٥ .

١٠٩ – إبراهيم طرخان ، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٤٤ ، ١٤٦ ؛ محمد عبد الله عنان، ابن خلدون ، ص ٨٢ – ٨٣ .

١١٠ – ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ترجمة رقم ٤٦١ .

١١١ – الزركلي ، المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٢٦٧ .

١١٢ – عبد العزيز الشناوي ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ ١ ، ص ١٤٢ .

١١٣ – عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ص ١٤٢ – ١٤٣ .

١١٤ – محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، ص ١١٧ ، ١١٩ .

١١٥ – الرواق ، بكسر الراء وفتح الواو ، جمع أروقة ، وروق بضم الراء ، والرواق في الدار تعني الوحدة السكنية أو جزء منها وخاصة العلوي ، بينما في العصر المملوكي فيختلف معنى الرواق في المسجد عن الرواق في الدار ، ففي المساجد يطلق لفظ رواق وأروقة على المساحة المحصورة بين صفين من الأعمدة والبوائك ، هناك العديد من النصوص الوثائقية عن الرواق .

– محمد محمد أمين وليلى علي إبراهيم ، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية ، ص ٥٧ – ٥٨ .

١١٦ – كان المسقط الأفقي للأزهر وقت إنشائه مكونًا من ثلاثة إيوانات حول الصحن إيوان القبلة يتكون من خمسة أروقة ، والرواقين الجانبين كل منهما يتكون من ثلاثة أروقة – أما الضلع الغربي وهو المواجه لرواق القبلة – وبه المدخل الرئيسي ويعلوه المئارة – فلم يكن به أروقة .

– حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، جـ ١ ، ص ٤٩ .

١١٧ – الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ .

١١٨ – سعاد ماهر ، مساجد مصر ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

١١٩ – أحمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، ص ٣١٣ .

١٢٠ – عبد الرحمن زكي ، الأزهر وما حوله من الآثار ، ص ٣٩ – ٤٠ ؛ الشيخ طه الولي ، المساجد في الإسلام ، ص ٣٠٥ .

١٢١ – الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٩ .

١٢٢ – عبد العزيز الشناوي ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ ١ ، ص ٢٤٣ ؛ الأزهر الشريف في عيده الألفي، ص ١٦٥ – ١٦٨ ؛ عبد العزيز الشناوي ، أروقة الأزهر ، ص ٧ .

١٢٣ – سليمان الرصد ، كنز الجوهر ، ص ٩٦ ؛ عبد العزيز الشناوى ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ ١ ، ص ٢٤٣ .

١٢٤ – محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٧٤ .

١٢٥ – عبد العزيز الشناوى ، أروقة الأزهر ، ص ١١ – ١٣ .

١٢٦ – سعيد عبد الفتاح عاشور ، الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، ص ٦٤ – ٦٦ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، حضارة الإسلام ، ص ٢٧٤ – ٢٨٠ .

١٢٧ – عبد العزيز الشناوى ، أروقة الأزهر ، ص ١١ .

١٢٨ – الأزهر الشريف فى عيده الألفى ، ص ١٧٠ .

١٢٩ – المرجع السابق ، ص ١٧٠ – ١٧١ ؛ الشيخ طه الولى ، المساجد فى الإسلام ، ص ٣٠٤ – ٣٠٥ .

١٣٠ – عبد العزيز الشناوى ، أروقة الأزهر ، ص ١٢٢ – ١٢٣ .

١٣١ – وثائق مكتبة الأزهر الشريف ٤٢٩ ؛ وسجل اسمه الطالب محمد التهامى الوزانى تحت رقم ١٥٢ .

١٣٢ – وثائق مكتبة الأزهر الشريف ٤٣٦ ؛ سجل عمومى لقيد أسماء الطلبة برواق المغاربة .

١٣٣ – وثائق مكتبة الأزهر الشريف ٤٣٤ .

– وهناك نلاحظ أن اسمه لُقب بالشيخ محمد التهامى الوزانى تحت رقم ٤٨ ، مقيم بربع الباشا بالتبلطة .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المطبوعة :

ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ) :

– بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م .

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف أبو المحاسن ت ٨٧٤ هـ) :

– النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، ٦ أجزاء ، ١٩٣٠ – ١٩٧٢ .

– المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى تحقيق د. محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٤م .

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد ت ٦٨١ هـ) :

– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٩م .

أبو شامة (شهاب الدين عبد الحميد بن إسماعيل المقدسى ت ٦٦٥ هـ) :

– كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق د. محمد حلمى أحمد ، جـ ١ ، ق٢ ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

ابن الصيرفى (على بن داود الجوهرى ت ٩٠٠ هـ) :

– نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق د. حسن حبشى ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٠م .

البلاذرى (أحمد بن يحيى جابر البغدادى) :

– فتوح البلدان ، مطبعة الموضوعات بالقاهرة ، ط . أولى ١٩٠٨م .

الزركلى (خير الدين) :

– الإعلام ، الطبعة الثانية ، جـ ٤ ، ١٩٥٤م .

السخاوى (الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢م) .

– الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، مكتبة القدسى ، ١٣٥٤م .

سليمان رصد المختفي الزيائي :

- كنز الجوهر في تاريخ الأزهر ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ .

علي باشا مبارك :

- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، جـ ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م .

القلقشندي (أبو العباس أحمد ت ٨٢١ هـ) :

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ م .

المقريزي (تقي الدين أحمد ت ٨٤٥ هـ) :

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، ٣ أجزاء ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ، ١٩٦٧م .

- السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٣٤ - ١٩٧٣م .

ناصر خسرو :

- سفر نامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م.

ثانيًا : المراجع العربية الحديثة :

د. إبراهيم علي طوخان :

- مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠م .

د. أحمد رمضان أحمد :

- الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربي ، جدة ، بدون تاريخ .

د. أحمد فكري :

- المدخل ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١م .

- مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ ١ ، العصر الفاطمي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥م .

د. أحمد مختار العبادي :

- في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، بدون تاريخ .

- في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٢م .

د. أحمد محمد عوف :

- الأزهر في ألف عام ، مجمع البحوث الإسلامية ، السنة الثالثة عشر ، الكتاب الثاني ، ١٩٨٢م .

- الأزهر الشريف في عيده الألفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م .

- الأزهر تاريخه وتطوره ، العيد الألفي للأزهر ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

أندريه ريمون :

- القاهرة تاريخ حاضرة ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٩٤م .

أولج فولكف :

- القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة (٩٦٩ - ١٩٦٩) ، ترجمة أحمد صليحة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م .

- دائرة المعارف الإسلامية ، نقلها للعربية أحمد الشنتاوي وآخرون ، المجلد الأول ، العدد الثالث .

د. دوجج بياره :

- الأزهر في ألف عام ، ترجمة د. حسين فوزي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م .

حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف :

- عبيد الله المهدي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٧م .

- المعز لدين الله ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣م .

حسن إبراهيم حسن :

- تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٤م .

حسن عبد الوهاب :

- تاريخ المساجد الأثرية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٤٦م .
- العمارة الإسلامية في العصر الفاطمي ، المجلة ، العدد ٥ ، ٦ ، ١٩٤٠م .

زاهر رياض :

- شمال أفريقية في العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠م .

د. زكي محمد حسن :

- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار الرائد العربي ، ١٩٨١م .

د. سعاد ماهر محمد :

- الجامع الأزهر بين ماضيه وحاضره ، مطبعة المعرفة ، ١٩٦٠م .
- مساجد مصر وأوليازها الصاخرون ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، خمسة أجزاء ، ١٩٧١م .

د. سعيد عبد الفتاح عاشور :

- الجامعات الأوربية في العصور الوسطى ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٩م .
- الظاهر بيبرس ، أعلام العرب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٣م .
- حضارة الإسلام ، معهد الدراسات الإسلامية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م .

عباس محمود العقاد :

- فاطمة الزهراء والفاطميون ، مؤسسة دار الهلال ، ١٩٧١م .

د. عبد الرحمن زكي :

- الأزهر وما حوله من الآثار ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠م .
- حواضر العالم الإسلامي ، القاهرة منارة الحضارة الإسلامية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٩م .

د. عبد العزيز محمد الشناوي :

- الأزهر جامعًا وجامعة ، جزءان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٣م .
- أوبقة الأزهر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م .

الشيخ طه الولي :

- المساجد في الإسلام ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م .

علي إبراهيم حسن :

- مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥١م .

فيوت جاستون :

- القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة مصطفى العبادي ، كتاب اليوم مؤسسة أخبار اليوم ، ١٩٩٠م .

د . كمال الدين سامح :

- العمارة في مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

د. عايشة محمود داود :

- الكتابات العربية على الآثار الإسلامية ، منذ القرن الأول حتى أواخر القرن الثاني عشر للهجرة (٧ – ١٨م) ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩١م .
- مجمع البحوث الإسلامية تاريخه وتطوره ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

د. محمد جمال الدين سرور :

- الدولة الفاطمية في مصر ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٥م .

د. محمد عبد الرازق عرزوق :

- مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٤٢م .
- الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

محمد عبد الله عنان :

- ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٣م .
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٨٧م .

د. محمد عيسى الحريري :

- تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٨٧م .

محمد كمال السيد محمد :

- الأزهر جامعًا وجامعة أو مصر في ألف عام ، مجمع البحوث الإسلامية ، ١٩٨٦م .

د. محمد محمد أمين وليلى علي إبراهيم :

- المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) ، دار النشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ١٩٩٠م) .

محمد محمد زيتون :

- القيروان ودورها في الحضارةالإسلامية ، دار المنار ١٩٨٨م .

يونس مهران :

- الجامع الأزهر ، مقالة من كتاب في مصر الإسلامية ، مطبعة المقتطف والمقطم ، ١٩٣٧م .

ثالثًا : المراجع الأجنبية :

Al Tawwasy, Abul Futouh Mhammad :

- Ibn Khaldon, Translated by Dr. Ahmad Kamel Metwalli. the supreme council for Islamic Affairs, Cairo, U.A.R. 1967 .

Creswell, K. a.c :

- " The Foundation of Cairo" Bull. of the Arts. of frts, University of Egypt, 1933 .

- " The Muslim Architecture of Egypt" , vol. III Fatmid. Oxford, University Press Ciro. 1951 .

Grohman Adolf :

- " The Origin and Early development of floriated kufic" ars oriental. vol. II. Michigan, 1957 .

- " The Encyclopedia of Islam ", vol. I. leiden, 1986 .

أ . د مجاهد توفيق الجندي(*)

الرحلة العلمية المغربية إلى مدينة القاهرة

من خلال وثائق رواق السادة المغاربة بالجامع الأزهر بمصر

مقدمة :

لما رحل الفاطميون من مدينة " المهلة " بالمغرب الأوسط (الجزائر) وكذلك من مدينة "المهدية" بتونس . وغيرها من مدن المغرب الأقصى وأنشأوا مدينة " القاهرة " والجامع الأزهر، كان لابد لهم من أن يصطحبوا معهم إلى هذه الحاضرة الجديدة كل من أخلص لهم من المغاربة في تثبيت ملكهم وساعدهم على إقامة دولتهم بالمغرب العربي ...

فكان معهم في رحيلهم إلى القاهرة[١] بعض قبائل " زناته " و " مغراوة " و " هوارة " و " زويلة " وغيرها [٢].

* - أستاذ الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي قسم التاريخ والحضارة - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالقاهرة .

وكانت هذه القبائل المهاجرة من المغرب العربى ، هى النسيج الجديد الذى تكون منه سكان القاهرة ، لذلك لانعجب ونحن نراجع سجلات القاهرة أن نجد بين عائلاتها كثيراً من الأصول التونسية والجزائرية والمغربية والليبية كالهوارى والزناتى والتمازى والمغراوى وغيرها[٣] كالبلبدى والمليانى والجزايرى والتونسى والفاسى والوهرانى والتلمسانى وغيرها مما لايحصيها الحصر [٤].

عرب بنى هلال وبنى سليم من صعيد مصر ، وزغبة ورياح من الوجه البحرى :

قبل رحيل الفاطميين إلى القاهرة سلموا مقاليد الحكم للقادة المخلصين لهم من زناتة وصحيح أنهم أخلصوا للفاطميين فى البداية لكن واحداً من أحفاد هؤلاء شق عصا الطاعة على الفاطميين ، وقتل عدداً كبيراً من الشيعة الموالين للفواطم ، فأثار بذلك حفيظة القاهرة ، وكان على الخليفة الفاطمى أن يرد هيبة الدولة ، فأرسل الوزير الفاطمى " اليازورى " عرب بنى هلال وبني سليم " من صعيد مصر إلى المغرب العربى ، وكذلك عرب " زغبة ورياح " من الوجه البحرى ، وقال اليازورى للمعز بن باديس الزناتى فى رسالة منه إليه ... أرسلنا لك خيولاً فحولاً ، وعليها رجالا كهولاً ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً " [٥].

وقد انطلق هؤلاء العرب إلى مقصدهم كالصاعقة المحرقة أو كالتيار الجارف المغرب فدخلوا مع البربر فى معارك طاحنة وانتصروا عليهم انتصاراً ساحقاً وألجئوا البربر إلى الهروب فى الجبال ، وبذلك قلم العرب أظافر البربر وقصروا ريشهم ، واستقر العرب مكانهم .

ولجح اليازورى الوزير الفاطمى فى القضاء على الذين شقوا عصا الطاعة على الفاطميين وفى نفس الوقت تخلص من هؤلاء العرب الخطرين المشاغبين الذين كانوا مصدر إزعاج للدولة الفاطمية بمصر ، وبذلك ضرب عصفورين بحجر واحد .

وقد استقر هؤلاء العرب بتونس والجزائر والمغرب وأجبروا البربر على تعلم اللغة العربية "لغة القرآن وأدب العرب " كذلك حمل العرب راية الإسلام فى هذه البلاد فكانوا الأساتذة المعلمين والوعاظ المرشدين والخطباء المفوهين ... والمجاهدين المنتصرين ، ومازال صوتهم مرفوعًا وكلامهم مسموعًا لايشق لهم غبار لتعصبهم للعروبة والإسلام ، ولم يعودوا إلى مصر مرة أخرى ، بل بقى حنينهم إليها يزداد عامًا بعد عامًا وأصبحوا نسيجًا جديدًا فى المغرب العربى بعد اختلاطهم بسكانه وامتزاجهم بهم عن طريق المصاهرة وتبادل الزيجات .

وليس معنى هذا أن صلتهم قد انقطعت تمامًا عن القاهرة بل على العكس من ذلك فالرحلة لم تنقطع فى يوم من الأيام بينهم وبين أبناء العمومة بالقاهرة ، تلك التى اشتهرت بالجامع الأزهر الذى ملأت شهرته الآفاق ، ويأنس به ويرحل إليه كل مشتاق .

رواق السادة المغاربة بالجامع الأزهر بالقاهرة[٦] :

كان للعزيز بالله الفاطمى فضل كبير على طلاب الأزهر ، فهو أول من أنشأ المدن الجامعية ذات الإعاشة الكاملة ، فقد أشار عليه الوزير يعقوب بن كلس أن يبنى بيتًا لخمسة وثلاثين طالبًا هم أول هيئة رسمية من طلاب الأزهر ، سكنوا فى هذا البيت وأجرى عليهم المعز الجرايات اليومية والمخصصات الشهرية وأغدق عليهم الأموال والهدايا وكان هذا البيت بمثابة مأوى للطلاب ويعتبره بعض الباحثين أول إسكان جامعى فى العالم .

ثم تتالى إنشاء البيوت حول الأزهر وبجوار هذا البيت حتى بلغ عددها تسعًا وعشرين رواقًا ، كان منها رواق المغاربة الذى يعتبر أكبر ثلاثة أروقة بالأزهر ، وهو مكان للإعاشة الكاملة لطلاب المغرب العربى لايتحمل الطالب منهم أية نفقة فى طلب العلم ، والأزهر وحده هو الذى يتكفل بهم وينفق عليهم [٧].

مكتبة رواق المغاربة ونظام الإعارة :

اختصت مكتبة رواق المغاربة ضمن مكتبة الأزهر بنظام انفردت به عن مكتبات العالم وهو نظام " التغييرة "[٨] وهى عبارة عن نبذة أو ملزمة من مخطوط يستعيرها الطالب من أمين المكتبة ، ثم يردها إليه بعد فترة معينة حددها أمين المكتبة ، ويستطيع الطالب بعد ذلك أن يحصل على النبذة " الملزمة " التى تليها ، وهذا النظام الفريد يحقق عدة فوائد منها :

أولاً : فيه تشجيع على القراءة فى المخطوط الواحد لأكثر من قارئ حسب عدد الملازم التى يتكون منها هذا المخطوط .

ثانيًا : فيه ضمان بعدم ضياع المخطوط الغالى الثمن ، فإن الطالب إذا استعار مخطوطًا دفعة واحدة ، قد يهمل فيه فتتفرق أوراقه وقد تتمزق ، رغم أنه لايمكن تعويضه ، لأنه قد يكون نسخة فريدة فى العالم كله .

ثالثًا : فيه محافظة على التراث العربى والإسلامى الذى بذل العلماء ونساخ الكتب كل غال ونفيس فيه فى سبيل تزويد المكتبات العامة والخاصة فبعضهم كتب المخطوطات حتى

كلت يده اليمنى فكان يكتب باليسرى وبعضهم كان يكتب وهو جالس فإذا تعب اضطجع على شقه الأيمن فإذا تعب اضطجع على شقه الأيسر ، وبعضهم ضاعت عينه وهو ينسخ فلم ييأس بل كتب بالعين الثانية حسبة لوجه الله تعالى وحفظاً للعلم وبعضهم كان يكتب على ضوء القنديل ، فإذا انتهى منه الزيت كتب على ضوء القمر وبعضهم كان يكتب بسرعة فائقة حتى أن أحدهم كتب بمِلة القلم الواحد سبع عشرة سطراً وأحياناً ثلاثاً وعشرين سطراً وبذلك استطاع العلماء المغاربة أن يحافظوا على مكتبة رواقهم خدمة للعالمين والمتعلمين ، لذلك لابد من ضامن معروف لدى أمين المكتبة يضمن المستعير ، وإذا تلفت الشخيرة أو تمزقت فهو الضامن الغارم للمخطوط كله[٩] لكن وبكل الحسرة والأسى فإن مكتبة رواق المغاربة تتعرض للضياع.

وقد صرخت أكثر من مرة وماتزلت أصرخ بسرعة إنقاذ هذه المكتبة ومن هذا المنبر أناشد أثرياء المسلمين والغيورين على تراث الإسلام أن ينقذوا مابقى لنا من هذا التراث الذى تفرق معظمه شذر مذر ، ومعظمه ذهب إلى مكتبات المستشرقين وكمبردج وبرلين وطشقند واستنبول وإيران وغيرها من مكتبات العالم شرقاً وغرباً ، يحفظونه فى حجرات لاتحرقها النار بعد أن فرطنا فيه وأهملناه ، تآمروا بتحليله ومقارنته وترجمته إلى لغتهم وصدروه إلينا بها ، يدرسه طلابنا بلغتهم ويشترونه بأثمان باهظة وقد كان تحت أيدينا وملك يميننا [١٠].

ابن خلدون (ت ٨٠٨) فى رواق المغاربة :

زار العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الذى ملأت شهرته الآفاق - مدينة القاهرة - وكان محل احترام السلطان برقوق سلطان الدولة المملوكية فى مصر والشام ، وكذلك موضع احترام كل علماء مصر الذين تحلقوا حوله بالجامع الأزهر ، ويطلبون منه الإجازة العلمية على سبيل البركة ومنهم العلامة ابن حجر العسقلانى والمقريزى وغيرهما وأعطاهم هذا العلامة تلك الإجازة الفريدة من نوعها وهى بخطه وقلمه المغربى ، وهى محفوظة الآن فى تركيا ضمن كنوز الشرق التى نهبها السلطان سليم وهو يستولى على القاهرة العاصمة الزاهرة لعلماء الشرق والمغرب .

هذا نصها الذى يراجع بالملحق [١١].

أما ابن خلدون : فقد تولى بالإضافة إلى حلقته الكبيرة بالأزهر - رئاسة القضاء المالكى بمصر ، ورغم أن للقضاء زيًا خاصًا ، فإن ابن خلدون قد تمسك بزيه المغربى وهو " البرنس

والطربوش المغربى " كما تذكر المراجع التاريخية ، وتوفى بالقاهرة ودفن بها فى قرافة باب النصر رحمه الله تعالى بقدر ما قدم للإسلام والمسلمين .

وليس ابن خلدون فقط :

بل هناك طلاب ليبيين وتونسيين وجزائريين ومغاربة كثيرين ، عند رحلتهم من المغرب للحج أو الاعتمار فى الأراضى المقدسة (مكة والمدينة) فى طريق عودتهم مروراً بالقاهرة كان يحلوا لهم المقام فيها والمصاهرة مع سكانها والدراسة بالجامع الأزهر ... وهنا كلام لا أقوله جزافاً من عند نفسى ، بل كل ذلك من خلال الوثائق التاريخية ولدينا مجموعة هامة منها بالقلم المغربى عن حياة المغاربة (وطلاب العلم خاصة) بالقاهرة ومنهم الشيخ محمد ابن عودة عليلى الملاتى - نسبة إلى مليانة إحدى بلديات الجزائر - وهذا ذهب للحج مروراً بالقاهرة ، وبعودته من الحج استقر بها يدرس بالأزهر ، وبعد عشر سنوات من دراسته بالأزهر مات بالقاهرة ، وأرسل أخوه بمليانه بالقاهرة وكالة ليتسلم ارثه من شيخ رواق المغاربة بالأزهر [١٢].

وكذلك الشيخ عبد القادر عودة الجزائرى الذى كان عضواً باللجنة الإدارية لرواق المغاربة تزوج من مصرية هى " عزيزة محمد الحسينى " وعاش معها ومات عنها ١٩٤٦م بالقاهرة (راجع ملحق ٣ ، ٣ أ) .

وكذلك الشيخ إبراهيم طاهر أحد طلاب رواق المغاربة بالجامع الأزهر ، والذى درس وأقام بالقاهرة سنين عدداً ، وتزوج بالقاهرة من مصرية هى " نظلة بنت مصطفى " لكن الحياة استحالت بينهما فخالعها برضاها [١٣].

أما الشيخ أبو القاسم محمد بادى ، فكان هو الآخر أحد الطلاب المغاربة الذين حلى لهم المقام بالقاهرة ، فتزوج من " فاطمة إبراهيم " وأنجب منها بنتين ، ومات عنها بالقاهرة ، ودفن بها ١٩٤٣م ، وذلك من خلال وصل باستلام ماخصها إرثًا من زوجها من شيخ رواق المغاربة[١٤].

مما سبق يتضح لنا أن الرحلة لطلب العلم بعد أداء فريضة الحج - أو قبلها - فى القاهرة كانت من الأشياء المحببة إلى قلب هؤلاء المغاربة الذين كونوا جاليات كبيرة ، حيث جو القاهرة الثقافى والتجارى والعلمى وتزوج هؤلاء وأولئك من القاهريات وكونوا أسراً وعائلات مازالت إلى الآن تملأ القاهرة ، بل إن هناك شوارع وحارات بل أحياء ، وأبواب تحمل أسماء المغاربة ومنها باب زويلة ، وهو المعروف الآن ببوابة المتولى .

أوقاف المغاربة على رواقهم بالأزهر بمصر [١٩٥]:

أوقف المغاربة على رواقهم بالأزهر بالقاهرة الأوقاف الكثيرة ، التى تغل ريعًا وفيرًا ينفق منه على الطلاب والشيوخ بالرواق ، وهناك أوقاف خاصة تسمى أوقاف الستين المرتبين وأخرى للمتطوعين ، وهناك أوقاف خاصة بالمنتظرين أى الذين ينتظرون الجراية ،أما الأوقاف العامة فهى التى يوقفها أصحابها على هؤلاء جميعًا بالإضافة إلى مصالح الرواق من فرش ونظافة وزيت إضاءة وغير ذلك .

وكان للشيخ ضعف ما للطالب من الجرايات والمخصصات ، فإذا حصل الطالب على ثلاثة أرغفة من الخبز القرصة الجيد العلامة ، كان من نصيب الشيخ ستة أرغفة كما تنص على ذلك حجج الوقف .

الزيت والصابون والسكر والحلوى فى كل شهر عربى :

بالإضافة إلى حصول الطالب على الجراية اليومية كان يحصل على الزيت والصابون والحلوى والسكر فى أول كل شهر عربى وكل هذا من الأوقاف التى حبسها المغاربة على طلابهم بشرط ألا يحترفوا غير طلب العلم [١٦].

أعيان الأوقاف :

شملت أعيان الوقف التى تغل ريعًا ينفق منه على الرواق شيوخًا وطلاب الدكاكين والحواصل والطواحين ومعاصر الزيوت والرباع[١٧] والقهاوى والبيوت ، وكذلك الحدائق والأراضى التى تؤخر صيانتها وتغل ريعًا ينفق منه على هؤلاء وأولئك ... [١٨].

موظفو الرواق :

كان للرواق شيخ ينتخب من بين الطلاب والشيوخ وله اختصاصات معينة وصلاحيات خاصة ، ويعاونه وكيل يحل محله فى غيابه ، ونقيب وجاب للوقف يحصل الإيجارات وغيرها ومباشر للوقف وشاهده ، وكذلك ملأ الرواق ، وحارس ليلى وحارس نهارى ومغير الكتب وفيه (مؤدب) يعلم الصغار ، وكذلك قراء الربعة الشريفة وغير ذلك .

اللجنة الإدارية للرواق :

كثر العراك بين طلاب رواق المغاربة خاصة فى العصر الحديث لسوء حالة الرواق وتدهورها من سيئ إلى أسوأ وهذا العراك المستمر كان بسبب المخصصات والجرايات ، وأن شيخ رواقهم

لايعدل بينهم وغير ذلك ، وكثرت الشكوى الجماعية إلى مشيخة الأزهر التى انزعجت لتردى هذه الحالة .

لذلك دعت الضرورة إلى تكوين اللجنة الإدارية لرواق المغاربة وهى تتكون من سكان الرواق الأربعة الذين يمثل كل طائفة منهم واحداً ... فمثلاً واحداً عن طلاب الجزائر وآخر عن تونس وثالث عن المغرب ورابع عن ليبيا .

وكانت هذه اللجنة تساعد شيخ الرواق لإنجاز المهمات والخدمات التى يحتاجها الرواق كتوزيع الجرايات وفض النزاعات وحل المشكلات ومساعدة الطلاب ... الخ .

لكن شيخ الرواق وجد أن هذه اللجنة هى قيد عليه وتدخل فى شئونه لذلك جمد عملها ولم يشركها فى قليل أو كثير ، ولذلك قدم أعضاء اللجنة شكوى إلى شيخ الأزهر ورئيس مجلسه الأعلى ، حيث كوّن الشيخ لجنة تطبيق شروط الواقفين التى وضعت قرارات تحدد عمل كل منهم : اللجنة الإدارية ، وشيخ الرواق [١٩].

قراءة أولى فى وثائق مجهولة :

فى ظروف خاصة عثرنا على مجموعة وثائق تخص رواق المغاربة بالأزهر وذلك بعد إنشاء القسم العالى للدراسات العربية والإسلامية التابع لكلية الشريعة ، والذى يسمى الآن كلية الدراسات الإسلامية والعربية ١٩٦٥م .

وعلى سلم رواق الشراقوة فى أوله حجرة كان يقيم بها شكاب رواق المغاربة ولديه خزينة الرواق ومعه كل الوثائق الخاصة برواق المغاربة .

ولما كان الطلاب فى حاجة إلى مكان يضعون فيه حاجيات إتحاد طلاب الكلية ، كسروا هذه الغرفة ، وحملوا كل ما كان بها ورموه داخل مكتبة رواق المغاربة وعلى حافة بيارة الرواق، وهى : حلل نحاس كبيرة للطبخ وأطباق خشب كبيرة من الذين لزوم الثريد وخزينة الرواق وكذلك أوراق وسجلات الطلاب منذ مدة طويلة فتلف معظم السجلات والأوراق حيث طالتها المياه والرطوبة ومنها وثائق نادرة ، وحجج شرعية تالفة .

وكسرت عليها ماسورة الصرف لرواق الأفغان أو الجاوة فأتلفت المياه معظم هذه الأوراق ، وعرضت نفسى لخطر الوقوع فى البيارة (مغطس الرواق) ، وحملت هذه الأوراق على ظهرى فى هذا الظلام المخيف ، والكهرباء محمولة خوفًا على الكتب من الحريق ، وأخرجت هذه

الأكرام من السجلات المبللة وكذلك الأوراق ونشرتها برفق في مكان هاو حتى جفت ، وصرت بعد ذلك أخلص الورق بعضه من بعض في غاية الحرص والرفق[٢٠] فكان يتلف بعض الورق الكثير ، وحصلنا على مجموعة لابأس بها هي مرضوع خصب للباحثين في تاريخ المغاربة بالأزهر بمصر . وسنحاول نشر هذه الوثائق لأول مرة بعد قراءتها قراءة أولى معلقين عليها بما يفتح الله به علينا ، وسنحاول بعد ذلك نشر مجموعة أخرى وهكذا إلى أن ننجز ما وعدنا به الباحثين من نشر كل ما حصلنا عليه من هذه الوثائق التي هي في حوزتنا بعد مراجعتها ومقارنتها وتحليلها[٢١] . والله من وراء القصد .

بعض مؤلفات العلماء المغاربة في مكتبتهم بالرواق :

١ – شرح على مختصر المنارة لابن حبيب الحلبي ، نسخة بقلم نسخ وأخرى بمقلم مغربي(ع)[٢٢] .

٢ – تحفة السائل إلى أجوبة المسائل للعباسي ، العلامة الشيخ أحمد بن محمد بن حسن بن علي بن محمد العباسي الحنفي من علماء القرن التاسع الهجري ضمنها الإجابة على ثلاثمائة سؤال وجهت من السلطان الأشرف (قايتباي) إلى العلماء في الفقه والعقائد والفرائض نسخة بقلم مغربي بخط (محمد السنوسي سنة ١١٦٧هـ) في ٣٧ ورقة ، نسخة (ب) في ٦٠ ورقة ، نسخة (ج) ١٣٦ ورقة [٢٣] .

٣ – التمثيل في العبادات وما لا غنى عنه لذوي الإرادات للعلامة أبو القاسم عبد الغفور بن عبد الله محمد النفزي – محمد بن يحيى ابن يعقوب ، كتب سنة ٨٥٠ هـ – بقلم مغربي في ١١٠ ورقة [٢٤] .

٤ – تاريخ دمشق لابن عساكر بقلم مغربي ، بأوله مطالعة فيه للعلامة ابن حجر العسقلاني سنة ٨٠٩ هـ في ١٨٨ ورقة وبأول المجلد العاشر منه مطالعة تاريخها سنة ٨٤٧ هـ [٢٥] .

٥ – المنهج الفائق والمنهل الرائق والمفتي اللائق بآداب المرتق وأحكام الوثائق للعلامة الشيخ أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي التلمساني الفاسي ولعله المشهور بأبي حجلة المغربي (ت ٧٧٦ هـ – ١٣٧٤ م) نسخة بقلم مغربي على القاعدة المغربية[٢٦] .

٦ – مصحف شريف بقلم مغربي ، وبآخره أن الواقف له الشيخ السنوسي برواق صليح ، بأوله تنوش مزخرفة بالمداد ، وفواتح السور فيه بالمداد الأحمر وفواصل الآي بالمداد الأصفر في ٥٨٣ ورقة [٢٧] .

٧ – كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، فرغ من تأليفه سنة ٩٢٥ هـ ، في ٢٦١ ورقة [٢٨] .

٨ – الحدود ، رسالة لابن عرفة الورغمي ، العلامة الأمام محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المعروف بابن عرفة إمام الجامع الأعظم بتونس وخطيبه (٧١٦ – ٨٠٣ هـ / ١٣١٦ – ١٤٠٠م) وضعها في تعريف الألفاظ الفقهية المتداولة في كتب المالكية بقلم نسخ قديم في ١١ ورقة [٢٩] .

٩ – بغية المبتدي وعنية المنتهي – شرح للقلصادي أبو الحسن علي بن محمد ابن محمد بن علي البسطي القرشي الأندلسي المشهور بالقلصادي (٨٠٣ – ٨٩١ هـ / ١٤٠٠ – ١٤٨٦ م) بقلم مغربي ، في ٢٩ ورقة[٣٠] .

١٠ – الرسالة الميمونة في توحيد الجرومية ، شرح ميمون الأدريسي المولود في عمارة من أعمال فاس بالمغرب العربي والمتوفى في دمشق (٨٥٤ – ٩١٧ هـ / ١٤٥٠ – ١٥١١م) شرح فيه الجرومية النحوية على طريقة أهل التوحيد ، أوله بعد الديباجة : كان من أمر هذا الاجتماع مع بعض الفقراء من الإخوان بالصالحية (اسم مدرسة) الخ وضعه سنة ٩١٥ هـ، في ٧٠ ورقة[٣١] .

١١ – أم البراهين ، وهي العقيدة الصغرى للسنوسي ، للعلامة أبو عبد الله الحسني التلمساني الأشعري المشهور بالسنوسي (ت ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩م) [٣٢].

١٢ – المنهج السديد للسنوسي ، شرح له على المنظومة الجزائرية في ٢٩٧ ورقة نسخة (ب) في ٢٤٥ ورقة [٣٣].

١٣ – كنز العباد في بيان فضائل الغزو والجهاد ، مختصر لابن إثمال القرطبي ، أبو القاسم بن عبد العليم ابن أبي القاسم بن عثمان القرطبي الحنيفي الحنفي (من علماء القرن التاسع الهجري) رتبه على أبواب وفصول في ٥٧ ورقة [٣٤].

١٤ – الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، ويعرف (بطبقات المالكية) لابن فرحون المغربي الأصل المدني المالكي (ترقى بالمدينة المنورة سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧م) ضمنه تراجم أعيان علماء مذهب الإمام مالك ، وجمع فيه نيفًا وثلاثين وستمائة ترجمة من نحو عشرين كتابًا [٣٥].

١٥ – تذكرة الراشد برد كيد الحاسد ، لمحمد نجيب بن ملا بلال بن ملا مظفر الشولانكرى ط مدينة قزان سنة ١٣٠١ هـ بهامشه حواشى فى ٢٦٢ ورقة (٣٦).

١٦ – واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، لابن زيان العبد الوادى أحد ملوك بنى زيان بمدينة تلمسان (٧٥٣ – ٧٧٨ / ١٣٥٢ – ١٣٨٦م) ألفه لولى عهده على أربعة أبواب : الأول: فى قواعد الملك والوصايا والآداب والثانى : فى قواعد الملك وأركانه ، والثالث : فى الأوصاف التى هى نظام الملك وكماله ، والرابع : فى الفراسة على خاصة السياسة نسخة (ط) م الدولة التونسية بتونس سنة ١٢٧٩ هـ ، فى ١٧٥ ورقة (٣٧).

١٧ – الصلوات الرحمانية على ذى الأسماء المحمدية والأخلاق المصطفوية للبدى على البيومى الشافعى الخلوتى النقشبندى (من القرن التاسع الهجرى) بقلم مغربى مجدولة بالمداد الأحمر فى ٢٤ ورقة (٣٨).

١٨ – شرح الشيخ بن الخطيب القسطنطينى (من القرن التاسع الهجرى) على أرجوزة الشيخ على بن أبى الرجال القيروانى فى الأحكام الفلكية فى ٨ ورقات (٣٩).

١٩ – تنبيه العطشان على مورد الظمآن – شرح للشيخ حسين بن على بن طلحة الرجراجى الشرشاوى المغربى من علماء القرن التاسع الهجرى ، على منظومة أبى عبد الله محمد الشريشى المسماة " مورد الظمآن " فرغ من تأليفه سنة ٨٤٢ هـ فى ١٦٥ ورقة (٤٠).

٢٠ – شرح المجاصى ، للشيخ عبد القوى المجاصى ، على أرجوزة شيخه أبى الحسن على بن برى المسماة (الدرر اللوامع فى أصل مقرئ الإمام نافع) فيما من أقوال شيخه ابن برى أثناء شرحه للأرجوزة المذكورة (وأضاف إليه بعض مايحتاج إليه المقام نسخة بقلم مغربى قديم بخط عمرو بن محمد سنة ٩٧٤ هـ (٤١).

٢١ – شرح ابن جابر الأعمى الهوارى الأندلسى المرسى المالكى (ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨م) على الألفية لابن مالك فى ١٧٥ ورقة بأولها فهرس فرغ من تأليفه سنة ٧٥٦ هـ (٤٢).

٢٢ – شرح المكودى (ت ٨٠١ هـ / ١٣٩٨م) على الأجرومية لابن آجروم الصنهاجى نسخة بقلم مغربى وأخرى بقلم نسخ (خ) (٤٣).

٢٣ – شرح الطيلارى ، على أبيات له فى البيان ، نسخة بقلم مغربى مجدولة بالمداد الأحمر (خ) (٤٤).

٢٤ – حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب ، شرح للقاضى أبى العباس أحمد بن حسن بن على المعروف بابن الخطيب وبابن تنفذ (ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢م) ، على (تلخيص أعمال الحساب) لابن البنا بقلم مغربى فى ١٧٤ ورقة (٤٥).

٢٥ – شرح زروق الفاسى ، على مواضع غامضة من حزب الإمام أبى الحسن الشاذلى فى ١١٨ ورقة (٤٦).

٢٦ – رسالة ابن عباد النفزى الرندى (٧٣٣ – ٧٩٢ هـ / ١٣٣٣ – ١٣٩٠م) فى الدعاء والتوسل بأسماء الله الحسنى نسخة بقلم مغربى (٤٧).

٢٧ – المجموع الحاوى فى الفتاوى للبرطى ، نسخة بقلم مغربى بخط (أحمد بن القاسم الجزيرى سنة ٩٨٣ هـ ٢٣٥ ورقة (٤٨).

٢٨ – بغية المبتدى ، وغنية المنتهى ، شرح للشيخ / على القلصادى الأندلسى البسطى على كتابه المسمى (تقريب الوارث وتنبيه البواعث ، بقلم معتاد جلى ، فى ٢٦ ورقة (٤٩).

٢٩ – حاشية زروق (ت ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣م) على الجامع الصحيح للبخارى ، أولها بعد الديباجة : هذه إن شاء الله نكتة مفيدة منبهة على بعض بعض البعض ما يتعلق بالجامع الصحيح المسند ...إلخ فرغ من تأليفها سنة ٨٨١ هـ بقلم مغربى بخط . قاسم بن محمد التونسى سنة ١٠٣٩ هـ فى ١٨٦ ورقة (٥٠).

٣٠ – حاشية الجوبى المغربى السوسى ، على (المختصر) للسعد التفتازانى على التلخيص نسخة بقلم فارسى بعض أوراقها مجدولة بالمداد الأحمر فى ١١٥ ورقة (٥١).

٣١ – أرجوزة فى القراءات للشيخ عبد الواحد بن المسين من علماء القرن العاشر الهجرى فرغ من تنظيمها سنة ٩٣٠ هـ قال فى أولها : (الحمد لله على النعماء * حمداً بلا عد ولا انتهاء) (خ) بقلم مغربى (٥٢).

٣٢ – الدرة البيضاء ، منظومة فى الفرائض ، للعلامة الفقيه الشيخ عبد الرحمن بن محمد الأخضرى المغربى المالكى من علماء أوائل القرن العاشر الهجرى أولها (الحمد لله العليم الوارث * الدائم الفرد الباعث) ط (٥٣).

٣٣ – الجزائرية فى العقائد الإيمانية ، منظومة لامية الجزائرى ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائرى الزواوى المتوفى سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م نظمها فى العقائد ،

أولها : (الحمد لله وهو الواحد الأزلي * سبحانه جل عن شبه وعن مثل) إلخ نسخة في مجلد بقلم معتاد في ١٦ ورقة (٥٤).

٣٤ - كفاية المريد وحلية العبيد ، منظومة في علم التوحيد (لامية) للعلامة الجزائري شهاب الدين أبي العباسي أحمد بن عبد الله الزواوي (ت ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م) ، (خ) بقلم مغربي (٥٥).

٣٥ - واسطة السلوك للسنوسي (ت ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠م) منظومة في التوحيد بقلم مغربي (٥٦).

٣٦ - ديوان الخلوف ، العلامة الشاعر أحمد بن القاسم المعروف بالخلوف المغربي الأندلسي من أدباء القرن التاسع الهجري ، في المديح والغزل والتواشيح ومرتب على حروف المعجم (ط) (٥٧).

٣٧ - استغاثة ابن مدين ، منظومة استغاثية لشيخ مشايخ القطب شعيب أبي الحسن الأندلسي التلمساني الأنصاري ، مجدولة بالمداد الأحمر (خ) (٥٨).

٣٨ - أرجوزة في الطب والدواء في شرح منظومة ابن سناء ، للشيخ عبد الرحمن بن يوسف ابن محمد المعروف بالمغراوي من علماء أوائل القرن التاسع الهجري وهي تسعمائة بيت شرح فيها منظومة ابن سناء الملك في بعض الأمراض وعلاجاتها (خ) (٥٩).

٣٩ - منظومة الرقعي ، للشيخ عبد الرحمن الرقعي الفاسي من رجال القرن التاسع الهجري ، نظم فيها مقدمة العلامة ابن رشد في العبادات فرغ من نظمها سنة ٨٥٣ هـ (خ) (٦٠).

٤٠ - إنشاد المريد من ضوال القصيد ، لابن غازي المكناسي (٨٤٦ - ٩١٩ هـ / ١٤٣٧ - ١٥١٣م) أوله : الحمد لله الذي من علينا بوراثة كتابه العزيز ... إلخ في ٨١ ورقة (٦١).

٤١ - إرشاد السالك المحتاج إلى بيان أعمال المعتمر والحاج للعلامة يحيى الخطاب الطرابلسي - من علماء القرن العاشر الهجري - في ٧٠ ورقة (٦٢).

٤٢ - تحرير الكلام في مسائل الالتزام ، للعلامة أبي عبد الله محمد الخطاب (ت ٩٥٤ هـ / ١٩٤٧م) في ١٣٠ ورقة بقلم مغربي (٦٣).

٤٣ - المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء أفريقيا والأندلس والمغرب للونشريسي في علماء القرن العاشر الهجري ، فرغ من تأليفه سنة ٩٥١ هـ ، الموجود منه الجزء السادس يبتدئ بنوازل الركالات والإقرارات في ٢٤٣ ورقة بقلم مغربي (٦٤).

٤٤ - إيضاح المسالك على المشهور من مذهب مالك للشيخ داود بن محمد المالكي (ت ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧م) شرح له على رسالة أبي زيد القيرواني ، فرغ من تأليفه سنة ٨٦٩هـ، في ٤٣٠ ورقة ، بخط عبد القادر المالكي سنة ٩٠٨ هـ نسخة (ب) في ٢٦٩ ورقة بقلم مغربي بخط حسين بن عثمان المراكشي سنة ١٠٣٠ هـ (٦٥).

٤٥ - تحقيق المباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (الشرح المتوسط له) ملخصه من شرحه الكبير في مجلدين بقلم جلي سنة ١١٨٦هـ بأول الجزء الأول ورقات من الشرح الصغير المسمى (كفاية الطالب الرباني) في ٤٤٣ ، ٥١٩ ورقة (٦٦).

٤٦ - شفاء الغليل في حل مقفل خليل للعلامة أبي عبد الله بن غازي العثماني المعروف بالمكناسي (ت ٩١٩ هـ / ١٥١٣م) قال فيه : إن مختصر العلامة خليل من أنفس نفائس الأعلاق ، وقد عنى تلميذه بهرام بحل رموزه ، إلا أماكن ضرب عنها صفحًا فتحرك مني الغرام الساكن ، إلى تتبع تلك الأماكن فشرحتها بقدر الاستطاعة في ٣٧٢ ورقة (٦٧).

٤٧ - رسالة أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦ هـ / ٩٨٩م) بخطوط مختلفة كتبت سنة ٩٧١هـ(٦٨).

٤٨ - الرعاء المختوم على السر المكتوم ، شرح للعلامة قاسم السعدي بن أبي الفضل فرغ من تأليفه سنة ٩٠٣ هـ ، نسخة بقلم مغربي بخط عبد القادر بن عبد الكريم الوديفي الشفشاوني المغربي سنة ١٣٠١ هـ في ٢٦٣ ورقة مجدولة بالمداد الأحمر (٦٩).

٤٩ - الحدود النحوية ، تأليف العلامة الفاكهي المكي الشافعي المتقدم ، أولها : الحمد لله الذي أعطى من رفع قدره بالعلم الشرعي مكانًا عليًا ... إلخ ، بقلم مغربي (من ورقة ٣٤ - ٣٨) (٧٠).

٥٠ - شرح الفاكهي المتقدم ، على الحدود النحوية ، كلاهما له ، أوله : أحمدك يا من مَنّ بالفضائل على من يشاء من عباده ... إلخ ، نسخة بخط (محمد حامد سنة ١١٣٢ هـ) نسخة (ب) بقلم مغربي بخط (أحمد بن عمر بن محمد الشريف الماكني سنة ١٠٩٦هـ) من ورقة ٣٩ - ٧٧ (٧١).

٥١ - أطباق الذهب مختصر لابن وهبة الله شقروان المغربي الأصفهاني من رجال القرن العاشر الهجري ، ألفه بإشارة ولي من أولياء الله (هو العارف بالله أحمد بن محمود بن علي

الجوبني) ضمنه مائة مقالة في المواعظ والنصائح والحكم وعارض به كتاب أطواق الذهب للزمخشري في ٦٦ ورقة [٧٢].

٥٣ - شرح ابن قنفذ القسطنطيني على منظومة الشيخ علي بن أبي الرجال في الفلك في ٩٧ ورقة وأول المنظومة : (قال علي بن أبي الرجال * الحمد لله الكبير العالي) إلخ [٧٣].

٥٣ - تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام ، أفرد فيها " باباً للقضاء " من أبواب الفقه ورتبها على ثلاثة أقسام (ط) [٧٤].

٥٤ - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (ويعرف بتاريخ ابن خلدون) ضمنه الكلام على علم التاريخ وفضله والعمران وما يعرض له من الملك والسلطان والكسب وغير ذلك ، وأخبار العرب وأجيالهم ودولهم ومن عاصرهم من الأمم الشهيرة كالسريانيين والنبط والفرس وغيرهم منذ بدأ الخليقة إلى عصره ، وأخبار البربر ومن إليهم ورتبه على مقدمة وثلاثة كتب ، نسخة تنقصها المقدمة في ستة مجلدات بقلم معتاد بخط (أحمد بن يوسف الشافعي الأزهري سنة ١٢٧٢ هـ في ١٦٥ ، ٢٥٦ ، ٧٥٨ ، ٢٨٠ ، ٢١٨ ، ٢٤٦ ورقة ، نسخة أخرى في مجلدات ط بولاق سنة ١٢٨٤ هـ [٧٥].

٥٥ - حاشية على شرح عضد الدين على مختصر ابن الحاجب في ١٤١ ورقة بخط مغربي [٧٦].

٥٦ - أم البراهين وهي العقيدة الصغرى للسنوسي ، أولها بعد الديباجة إعلم أن الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام ... إلخ . نسخة في مجلد بقلم مغربي في ٥ ورقات ، نسخة أخرى ط حجر بالقاهرة في ٨ صفحات [٧٧].

٥٧ - حاوي المختصرات في العمل بربع المقنطرات أوله : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ... إلخ نسخة ضمن مجموعة في مجلد بقلم مغربي بخط (أحمد بن عبد العزيز سنة ١٠٧٥ هـ) من ورقة (٢٧٦ - ٣١٣) [٧٨].

٥٨ - رسالة في معرفة نصب الخيط ، أولها بعد البسملة : فصل في معرفة نصب الخيط ... إلخ نسخة ضمن مجموعة في مجلد بقلم مغربي سنة ١٣١٣ هـ مجدولة بالمداد الأحمر (من ورقة ١ - ٢) [٧٩].

٥٩ - لفظ الجواهر في معرفة الخطوط والدوائر ، نسخة في مجلد بقلم معتاد بخط حسن بن علي الغموي المالكي سنة ١٢٣٣ هـ في ٩ ورقات ، نسخة (ب) بقلم مغربي مجدولة بالمداد الأحمر (من ورقة ١٢ - ١٩) [٨٠].

٦٠ - اغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد شرح على عقيدة الإمام أبي حامد الغزالي أوله الحمد لله على نعمه المتواترة ، وله الشكر في أول كل شيء وآخره ... إلخ فرغ من تأليفه سنة ٨٩٧ هـ ، نسخة في مجلد بقلم مغربي ، بخط جابر بن عليان بن أحمد الجنعاني سنة ١٠٠٥ هـ في ٢٦ ورقة [٨١].

٦١ - العلامة العبدري الفاسي المالكي المشهور بابن الحاج (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦م) :
* المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات ، ألف بإشارة من شيخه أبي عبد الله محمد ابن أبي حمزة لتعليم الناس مقاصدهم ، وتبصيرهم بمعايبهم وبكثير من البدع التي يفعلونها تساهلاً منهم ، فرغ من تأليفه سنة ٧٣٢ هـ ، نسخة في ثلاثة مجلدات ، ط المطبعة الوطنية بالأسكندرية سنة ١٢٩٣ هـ [٨٢].

٦٢ - العلامة أبو اسحاق الغرناطي المالكي المعروف بالشاطبي (٧٩٠ هـ / ١٣٨٨م) :
*شرح على ألفية ابن مالك ، وأوله " اللهم إنا نحمدك على ما علمت ، ونشكرك على ما أنعمت ... إلخ " ، الأجزاء الأول والثاني والثالث والخامس من نسخة في ٤ مجلدات بقلم نسخ قديم ، بخط (عمر بن عبد الله المنظراوي الثلاث سنة ٨٦٨ هـ) ، والخامس سنة ٨٧٢ هـ ، والثالث ينتهي باسم ينتهي باسم الفاعل ويبتدأ الخامس بعوامل الجزم وينتهي بالتعب ، في ١٥٤ ، ١١٥ ، ١٧٨ ، ١٨٨ ورقة [٨٣].

٦٣ - العلامة ابن هذيل (من علماء القرن الثامن الهجري) : * عين الأدب والسياسة ، وزين المحسب ، جعله مختصراً جامعاً لكثير من فنون الأدب والحكم ، ورتبه على أربعة أقسام ، الأول : في نبذ من الأحاديث والحكم والأمثال ، والثاني : ففي السؤدد ومكارم الأخلاق والمروءة ، ومداراة الناس والتأدب معهم في حالتي الغنى والإملاق ، والثالث : في طرف من الحكايات والآداب الصادرة عن أولي الأحساب والألباب ، والرابع : في جمل من الوصايات والمواعظ العظيمة الفائدة والمنفعة نسخة في مجلد ط م الإعلامية بالقاهرة سنة ١٣٠٣ هـ ، بآخرها فهرس وتصحيح في ٢٨٠ صفحة [٨٤].

٦٤ – العلامة أبي عبد الله الورغمي المشهور بابن عرفة (٨٠٨ هـ / ١٤٠٠ م) :

* اختصار عزيز غريب ، في كيفية عمل الفرايض ، جمعه أحد الفضلاء ونسبه إلى هذا العالم ، أوله : الحمد لله ذي الجلال والإكرام .. إلخ ، نسخة ضمن مجموعة بقلم مغربي سنة ١٠١٣ هـ (من ورقة ١ – ٢٣) (٨٥).

٦٥ – العلامة أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني المغربي (ت ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م) :

* المفاتيح المرزوقية ، لحل الأقفال واستخراج خبيا الخزرجية ، شرح على الخزرجية لأبي الجيش المغربي ، أوله : الحمد لله الذي تفضل بإيجاد الموجودات وفضل الآدميين على كثير منها بصفات ... إلخ ، فرغ من تبييضها سنة ٨١٩ هـ ، نسخة في مجلد بقلم معتاد في ٣٢٢ ورقة (٨٦).

٦٦ – العلامة أبو عبد الله الحسيني التلمساني المعروف بالسنوسي (٨٩٥ هـ / ١٤٩٠م) :

* شرح السنوسي على منظومة أبي عبد الله محمد أحمد الحباك المسماة (بغية الطلاب في علم الاسطرلاب) أوله (الحمد لله الذي زين السماء الدنيا بالمصابيح النيرات ... إلخ) وأوله المنظومة : "

(بحمدك اللهم نظمي ابتدى مصليًا على الرسول أحمد) .... إلخ .

نسخة في مجلد بقلم معتاد سنة ١١٨١ هـ في ١٢٠ ورقة (٨٧).

٦٧ – عقيدة السنوسي الوسطى ، أولها بعد الديباجة : " وبعد فهذه جمل مختصرة يخرج المكلف بفهمها إن شاء الله من التقليد ... الخ " نسخة ضمن مجموعة في مجلد بقلم معتاد بخط (عبده بن محمد منصور التشرتي المالكي سنة ١١١٤ هـ) من ورقة ٤٦ – ٧٦ (٨٨).

٦٨ – العلامة أبي عبد الله العبدوسي الغرناطي المالكي المشهور بالمواق (ت ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م) : * سنن المهتدين ، أولها بعد الديباجة : " أن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه مخاطبًا هذه الأمة المحمدية بكريم خطابه ... الخ " ، نسخة ضمن مجموعة في مجلد بقلم مغربي بخط (محمد بن أحمد الشريف السنوسي سنة ١٠٥٥ هـ) من ورقة ٥٩ – ١٨٨ (٨٩).

٦٩ – العلامة أبو عثمان بن محمد العقباني (من علماء القرن التاسع الهجري) : * شرح العقباني ، على مختصر أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي في

الفرائض ، أول الشرح : " قال الشيخ الإمام العالم العلم الشهير ... إلخ ، نسخة في مجلد بقلم معتاد سنة ٩٧٨ هـ في ٣٥١ ورقة (٩٠).

٧٠ – العلامة عبد الرحمن الجزائري المعروف بالأخضري (ت ٩٤١ هـ / ١٥٣٥م) : * شرح على أم البراهين للسنوسي ، أوله : "الحمد لله ، بدأ بالحمد امتثالاً ... إلخ ، نسخة ضمن مجموعة في مجلد بقلم مغربي ، بخط (عبد الله بن محمد المغربي الأزهر المالكي سنة ١٠٨٥ هـ (من ورقة ٦٥ – ١٠٢) (٩١).

٧١ – السلم المرونق ، وهو منظومة أولها :

(الحمد لله الذي قد أخرجا نتائج الفكر لأرباب الحجا) إلخ .

نسخة في مجلد بقلم معتاد في ٦ ورقات ، نسخة (ب) ضمن مجموعة في مجلد بقلم نسخ من ورقة ١٦٠ – ١٦٥ ، نسخة (ج) في ٧ ورقات (٩٢).

٧٢ – شرح على السلم ، أوله : " الحمد لله الذي جعل قلوب العلماء سماوات تتجلى فيها شموس المعارف ... الخ " ، نسخة ضمن مجموعة بقلم نسخ بخط (إبراهيم شعبان سنة ١١١٤ هـ) ، نسخة (ب) ضمن المجموعة السابقة بقلم معتاد (بخط أحمد الجندي الشافعي سنة ١١٧٥ هـ) من ورقة ٣ – ١٣٠ (٩٣).

٧٣ – رسالة ، أولها بعد البسملة : " أول ما يجب على المكلف تصحيح إيمانه ... إلخ " ، نسخة بخط (بعد الرحمن أحجري سنة ١١٧٣ هـ) ضمن مجموعة بخط مغربي من (٤٤ – ٥٦) (٩٤).

٧٤ – الجوهر المكنون في الثلاثة فنون ، وهي منظومة في فنون البلاغة الثلاثة (المعاني – البيان – البديع) أولها :

(الحمد لله البديع الهادي إلى بيان مهيع الرشاد) إلخ .

فرغ من نظمها سنة ٩٠٠ هـ ، نسخة ضمن مجموعة في مجلد معتاد في ٣٠ ورقة (٩٥).

٧٥ – الدر البيضاء ، منظومة أولها :

(يقول راجي العفو والغفران الأخضري عابد الرحمن) إلخ .

نظمها في نيف وتسعين وأربعمائة بيتًا ، وفرغ من نظمها سنة ٩٤٠ هـ ، نسخة في مجلد بخطوط وسطور مختلفة في ١٩ ورقة ، نسخة (ب) في مجلد معتاد في ١٩ ورقة (٩٦).

٧٦ – شرح على أرجوزته المسماة (السلم المرونق فى علم المنطق) قال فى كشف الظنون أنه نظمها ثم شرحها سنة ٩٤١ هـ ، نسخة ضمن مجموعة فى مجلد بقلم معتاد سنة ١٠٩٧ هـ بخط محمد العرابى فى ٣٦ ورقة ، نسخة (ب) ط م الميمنية بالقاهرة سنة ١٣٠٨ هـ ، ضمن مجموعة من ص ٢٠ – ٤٠ (٩٧) .

٧٧ – المنظومة القدسية ، نظمها فى السلوك ، نسخة بقلم معتاد فى ١١ ورقة (٩٨) .

٧٨ – العلامة على بن ميمون الإدريسى الحسنى المغربى (من علماء القرن العاشر الهجرى) :

* الرسالة الميمونية ، فى توحيد الجرومية ، على الآجرومية لابن آجروم على طريقة أهل التوحيد ، أوله : يقول العبد الفقير إلى الله تعالى الغنى به عمن سواه ، على بن ميمون... إلخ ، فرغ من تأليفها سنة ٩١٥ هـ ، نسخة فى مجلد بقلم نسخ ، بخط (على بن أحمد بن على بن خاطر بن ناصر الدين سنة ١٠٦٢ هـ) ، مجدولة بالمداد الأحمر فى ٩٢ ورقة(٩٩) .

٧٩ – العلامة أبى مدين شعيب المغربى الأنصارى الأندلسى التلمسانى (من علماء القرن العاشر الهجرى) :

* أنس الوحيد ، ونزهة المريد ، وأولها : الحمد لله نور قلوب أوليائه بأنوار هدايته ... إلخ ، نسخة ضمن مجموعة فى مجلد بقلم معتاد بخط (محمد بن أحمد الحسنى التلمسانى سنة ٩٦٢ هـ) ، من ورقة ٢٥١ – ٢٥٦ (١٠٠) .

٨٠ – العلامة أبى الحسن على بن يحيى الغصنونى المغيلى المالكى المغربى (من علماء القرن العاشر الهجرى) :

شرح التلمسانية ، على أرجوزة العلامة أبى اسحاق التلمسانى فى الفرائض المسماة بالمنظومة التلمسانية ، أوله بعد الديباجة : " وبعد فإنى وجدت طلبة الزمان مولعين برجز الفقيه النحرير ... إلخ ، وأول المنظومة :

(الحمد لله القديم الباقى الخالق المقتدر الرزاق) الخ

* نسخة فى مجلد بقلم معتاد قديم فى ١٩٠ ورقة ، نسخة (ب) فى ٨٣ ورقة بخط (سليمان أحمد الدرى سنة ١١٥٣ هـ) ، نسخة (جـ) فى ١٦٩ ورقة ، نسخة (د) بخط حازى بسيونى المسلمى سنة ١٠٧٨ هـ فى ١٣٧ ورقة (١٠١) .

الملاحق

مصر

جلسات يوم الأحد ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٣٦ هـ ١٠ فبراير سنة ١٩١٨
ويوم الأحد ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٦ هـ ١٧ فبراير سنة ١٩١٨ ويوم الاثنين ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٣٦ هـ ١٨ فبراير سنة ١٩١٨

انعقدت لجنة تعيين شروط الراغبين فى الدراسة الزائدة عند ظهور يوم الأحد ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٣٦ هـ ١٠ فبراير سنة ١٩١٨ وانفضت الساعة ٨ مساء واجتمعت الساعة ٨ عند ظهور يوم الأحد ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٦ هـ ١٧ فبراير سنة ١٩١٨ وانفضت الساعة ٨ مساء واجتمعت فى الساعة ٨ عند ظهور يوم الاثنين

رقم القرار

١١ جمادى الأولى سنة ١٣٣٦ هـ ١٨ فبراير سنة ١٩١٨ وانفضت الساعة ٨ مساء تحت رياسة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية وحضور حضرات أصحاب الفضيلة الأستاذ الشيخ احمد ادريس المدرس بالمحكمة العليا الشرعية والأستاذ الشيخ محمد بخاتى مفتش وزارة الأوقاف والأستاذ الشيخ محمد الطوخى من هيئة كبار العلماء أعضاء

واعتذر حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعه عن الحضور وكان ابراهيم افندى ونس كاتب الجلسة عرضت المسألة الآتية :

قوانين وصحيح أوقاف رواق السادة المغاربة بالجامع الأزهر

أحالت اللجنة على العرائض المقدمة من الطلبة المتنظرين رواق المغاربة قائلين : ظهر لنا من تحقيق الطلبة المرتبين والمشاهرين ريع أوقاف رواق المغاربة وعلى الريعة المقدمة من الطلبة المرتبين والمشاهرين المستحقين لريع الأوقاف المذكورة المتمسكين فيها بالقوانين المعمول بها فى رواقهم من قديم الزمان وعلى قرار مجلس ادارة الأزهر الصادر بتاريخ ١٩ مايو سنة ١٩١٠ بخصوص هذا الموضوع وعلى قوانين الرواق المسطورة فى ثلاث صحج شرعية صادرة من محكمة مصر الشرعية الحجة الأولى مؤرخة ٨ جمادى الأولى سنة ١٢١٧ والثانية مؤرخة ٢ رجب سنة ١١٥٩ والثالثة مؤرخة ٩ محرم سنة ١٢٢٣ وعلى المجموعة المؤرخة ٧ ربيع الأول سنة ١٠٦٩ المشتملة على أكثر ما فى الصحج المذكورة من الشروط وعلى ما فى اضبامة المسألة من الأوراق والمذكرات وغيرها

ملحق رقم (١)

اطلعت اللجنة على الكشف المقدم من عبد المجيد افندي مصطفى كاتب الرواق المؤرخ ٢٥ فبراير سنة ١٩١٨ ببيان عدد الطلبة برواق المغاربة (وهم لا يتصرفون لأنهم أكثر من مائة) وما يتناوله كل واحد منهم شهريا من الجهات الآتية عدا وقف المرحوم السيد رشيد أبي النصر فانه عام وقفه :

عدد
١٣٧ أصلا

بيانه

من ريع وقف المغاربة

عدد		مليم جنيه
٦٠	أهل الرتبة الاولى لكل واحد منهم ٢٠٠	١٢ عدا الاخباز (المرتبين)
٢٠	أهل الرتبة الثانية لكل واحد منهم ١٥٠	٣ عدا الاخباز (المتطوعين)
٨٠	المتقاعدون	
٤٠	من التونسيين لكل واحد منهم ٨٤٠	عدا الأخباز من وقف السيد مختار الفاجوري
١٠	من الطرابلسيين لكل واحد منهم ٢٥	١ من سفارة ايطاليا عدا ٥٠٠ مليم من وزارة الأوقاف (اعانة)
٤٧	من الجزائريين والمراكشيين لكل واحد منهم ٥٠٠	مليم من وزارة الأوقاف (اعانة)
١٣٧		

واطلعت أيضا على البيان المذكور في التقرير المقدم من حضرة شيخ رواق المغاربة الى مشيخة الجامع الأزهر عن بيان ريع الأوقاف باعتبار الشهر الواحد تقريبا وقفه

مليم جنيه

الوقف الأول

مليم جنيه
٥٠٠ ١٣٠ أصله

بيانه

مليم جنيه
٩٦٠ ٧٧ لأهل الدرجة الأولى والمدرس ومنير وعجوز والخدمة الذين على الحيرات

رقم القرار

مليم جنيه

مليم جنيه
٦ لأهل الدرجة الثانية

تابع الوقف الأول
٥٠٠ ١٣٠ أصله

بيانه

مليم جنيه
٩٥٠ ٨٣ ماقبله
٥٠٠ ١٥ لمستحقي الوقف
١٥٠ ١٥ للأموال المقررة والاشخاص
١٢ للمهمات والترميمات
٥٠٠ ١٣٠ ٤ لمواد فضائية

الوقف الثاني وقف لاين

مليم جنيه
٧٥٠ ١٥ أصله

بيانه

مليم جنيه
١٣٣ ٤ لأهل القرأة والخدمة والحيرات
٥٠٠ ١ عوايد وأسكار
٥١٨ ٠ مواد ادارية
٩٠٠ ١٥٫٧٥٠ ٤ للمؤذنين

٢٥٠ ١٤٦ الوقف الثالث وقف السيد مختار الفاجوري

مليم جنيه — مليم جنيه — مليم جنيه
١٨ أصله من الأعيان ٥٠٠ ١٤ من المختار ٥٠٠ ٣

بيانه

مليم جنيه — عدد
٩٥٠ قوامة الربعة ٦٠ نفراته

رقم القرار

مليم جنيه
٢٥٠ ١٤٦ ماقبله

مليم جنيه
٩٥٠ ٠ ماقبله
٧٧٥ ٣ ثمن خبز ٥ أقة يوميا لأهل الربعة
٧٧٥ ٣ أموال مقررة
١١٥ ١ انارة وأجرة نظر
٤١٠ ٨ ١٨ توسعة لأهل الربعة والشيخ والشريف وقيمه المدفن

الوقف الرابع وقف الشرابي

مليم جنيه

٢٠٠ ٢ أصله

بيـــانه

مليم جنيه

١ للقراءة الربعة

٢٠٠ ٢ ١٠٠ ١ أموال متفرقة [illegible] جنيهات مليم جنيه ١٢٠٠

مليم جنيه

٦٣٠ ١٦٦

فهذا هو ريع الأوقاف الأربع المشمولة بنظارة شيخ الرواق البالغ مجموع ريعها شهريا مائة وست وستون جنيها وستمائة وسبعون مليما تقريبا

الوقف الخامس

من قبل المرحوم السيد رشيد أبي النصر بموجب الحجة المؤرخة في ١٣ شوال سنة ١٣٣٣ ليصرف فاضل ريعه على عموم العائلة المذكورين والمنتظرين بمقراة بالمقارية حصرة السيد أمين ابن الواقف المذكور

وبعد اطلاع اللجنة على ذلك كله أخذت في تلاوة صحيح أوقاف رواق السادة المغاربة المقدمة الى اللجنة من حضرة شيخ رواق المغاربة فاتضح أنها منظمة بحسب شروط واقفيها الى أحد عشر قسما حسب الآتي :

وجاء بهامش تلك الصحيح أن الأعيان المراثة هي على قراءة الربعة وقراءة الدلائل وقراءة قصعدية وزيت قنوار ترخدام الزيارة وجابي الوقف وشيخ الرواق وعمل أربع قصع فت مثريدا

وحيث أن الواقف في عقدة وقفه شرط لنفسه فشروط العشرة تتبع ما شرط في الهامش ..

القسم العاشر وقف السيد رشيد أبي النصر

٤٨ ـ هذا الوقف تحت يد ناظره السيد امين رشيد أبي النصر وهو عبارة عن ٢٠ فدانا وكسورها بناحية أوسيم وهو على قراءة ربعه برواق المغاربة وعلى شراء أخيار تفرق على المنتظرين الذين ليست لهم جراية ولا استحقاق في شهور رجب وشعبان ورمضان وعلى شراء لحوم تفرق في عيد الأضحى على عموم العائلة وعلى نظاره أن يصرف حسب شرط الواقف وليس تحت نظر شيخ الرواق

القسم الحادي عشر وقف الصيد بدر الدين السيادي

٤٩ ـ وهو عبارة عن نصف فوه كائنة بحوش قدم ويصرف ريعه على أهل مقراة السادة المالكية بقراءة الأيتام الشافعي ليس موقوفا على أهل الرواق

وهناك صحيح أوقاف لم يكن الرواق واضعا يده عليها ولا يعلم موجودها حسب الكشف المتقدم من عبد المجيد افندي مدحلي كاتب الرواق .

وقررت اللجنة ما يأتي:

القسم الأول وقف الصالح

يصرف ريعه على مصالح الرواق وهي عبارة عن الميزة والحوش والسراج والدواب والتيم والماطر وكور ذلك ولا دخل لأهل الرواق فيه

القسم الثاني وقف المؤذنين والمقاري المخترعة عن الرواق وغير ذلك (وقف الزين)

لم يكن لأهل الرواق فيه استحقاق وعلى ناظر الوقف أن يصرفه بحسب ما عينه الواقف في وقفه

القسم الثالث الأعيان الموضوع عليها اليد ولم يعلم لها شرط واقف

يصرف ريعها حسب ما تقرر بالمحكمة الشرعية بالقضية المؤرخة ٨ جمادى الأولى سنة ١١١٧ وهي صرف المتاقي (المرتبين والمتطوعين)

القسم الرابع الوقف العلم

نظرا الى عدد المغاربة المتعممين لرواق المغاربة بالجامع الأزهر البالغ عددهم ١٣٧ شخصا رغم لا يحصرون فيجوز للناظر أن يعم الجميع بالاعطاء وأن يعطي البعض دون البعض وأن يفضل البعض على البعض حسب المتصرف شرعا وحيث ما جرى عليه العمل في صرف ريع هذا الوقف حسب ما جاء بالحجة المؤرخة ٨ جمادى الأولى سنة ١١١٧ وصحيح القوانين الأخرى من تخصيص ستين وعشرين (المرتبين والمتطوعين) لا يناقي الشرط لأنه من قبيل اعطاء البعض وحرمان الباقي وتفضيل البعض على البعض وذلك جائز شرعا ولا مانع من صرف الريع كذلك شرعا

القسم الخامس وقف القراء

هو موقوف على قراءة الربعة فيجب العمل فيه بشرط الواقف ويصرف على القراء ولا يدخل فيه غيرهم وتعيين القراء عليق شرط الواقف بكون الناظر لا أنه تنفيذ لشرط الواقف

القسم السادس ما هو مشروط صرفه للمرتبين والمتطوعين

يصرف حسب شروط الواقفين لطائفتي (المرتبين والمتطوعين) حسب ما توضح سابقا

القسم السابع مكتبي الطلبة

هذا خاص بمكتبي الطلبة جميعا

رقم القرار

القسم الثامن وقف الشاعوري

فقراء لأن الموقوف عليهم ممن يشملون فعلى الناظر أن يصرفه حسب شرط الواقف بالسوية بينهم والذي يعين العشرة من المنتظرين التونسيين هو القاضي لأنه تنفيذ لشرط الواقف

القسم التاسع وقف الشرايبي

يصرف ما آل منه حسب ما ترشح به شرط الواقف

القسم العاشر وقف السيد رشيد أفندي النصر

على ناظر هذا الوقف أن يصرفه حسب ما توضح بشرطه

القسم الحادي عشر وقف السيد بدر الدين الصيادي

ليس موقوفا على أهل الرواق وعلى ناظره أن يصرفه على الموقوف عليهم حسب ما توضح شرطه

وهذا ما رأته اللجنة فصدقنا على الاصرين التحريرية

طبق الأصل المسجل بدفتر محاضر اللجنة كاتب اللجنة

٢٨ فبراير سنة ١٩١٨ امضاء (إبراهيم ونس)

تقرر الجلس ما يأتي :

١٣٠٣

ا — زيادة فيما يتعلق بالقسم الأول من أقسام أوقاف رواق المغاربة هذه العبارة :

« ويحاسب الناظر على صرف ريع هذه الأوقاف على حسب شروط الواقفين »

ب — يرى المجلس في القسم الرابع أن المسلسة في أن يوزع الريع على جميع أهل الرواق بالتساوي

ج — يؤجل النظر في القسم الخامس حتى يستوفي ما يرى فيه العمل

د — يستثنى من وزارة الأوقاف من أمانة توقيعية رقم ٥٢ من القسم الثامن ويعرض بيان عدد المنتظرين في رواق المغاربة من التونسيين

هـ — تراجع حجة الوقف رقم ٧٠ في القسم التاسع

و — صدق المجلس على باقي ما في محضر الجلسة

الفوائد

التي تسير عليها لجنة ادارة رواق المغاربة مع شيخ الرواق بالتطبيق لقرار المجلس الأعلى وقرار مجلس الادارة

مادة (١)

الانتساب

على شيخ رواق المغاربة مع أعضاء لجنة ادارته المشكلة بقرار المجلس الأعلى الصادر بتاريخ ٢٣ محرم سنة ١٣٣٢ و ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٣ أن يتحققوا من أن الطالب الذي يريد الانتساق برواق المغاربة ممن تنطبق عليه شروط الواقفين من حيث الجهة التابع اليها وحسن سيره وسيرته وأن يرفعوا أمره مشفوعاً طالب الانتساب الى مشيخة الجامع الأزهر لأخذ الاجراءات المنصوصة بلائحة القرباء الصادرة بتاريخ ٦ الحجة سنة ١٣٣١ هـ نوفمبر سنة ١٩١٣

مادة (٢)

الاستحقاق

اذا خلا محل من محال المستحقين عند شيخ الرواق لجنة ادارته تحت رياسته ونظرت في أول المتطوعين من طلاب الرواق ممن كان مستحقاً لشرائط الاستحقاق من المواظبة على الاشتغال بالعلم وحسن تلاوة القرآن وكان حسن السير والسيرة جعلته ضمن المستحقين ورفعت أمره الى مشيخة الجامع الأزهر لاعتماده وصرف ما يصرف لأمثاله من المستحقين وان لم يكن مستجمعاً لجميع الشروط المتقدمة صرفت النظار عنه الى من يليه وهكذا وكذلك يكون الحال في المنتظرين عند خلو محل من محال المتطوعين

مادة (٣)

الوظائف

اذا خلت وظيفة من وظائف الرواق وهي وظائف النائب ومدير الكتب وجابي الوقف ومباشره وشاهده والمجود والمندوب وغيرها فعند الشيخ لجنة النظار التي لا انتخاب من ترى اللجنة فيه الكفاية للوظيفة الخالية ويرفع قراره لمشيخة الأزهر لاعتماده

مادة (٤)

لا يجوز الجمع بين وظيفتين لشخص واحد متى وجد من أهل الرواق والخالين من الوظائف من هو أهل لوظيفة الخالية والرأي في ذلك للجنة ويعمل بذلك في المستقبل عند خلو أي وظيفة بالرواق

مادة (٥)

يراعي في انتخاب الموظفين بالرواق الاشتغال بطلب العلم الشريف وحسن السير والكفاءة فيما يناط به من الأعمال . ويقدم الأكفاء على غيرهم

مادة (٦)

اذا خلت وظيفة من وظائف القراءة في السادة المالكية أو في مبدى معاد عقد الشيخ اللجنة المشار اليها فيمن يراه لائقا لها

مادة (٧)

التبرعات التي ترد الرواق من غير توسط مشيخة الجامع الأزهر توزع بمعرفة شيخ الرواق ولجنة ادارته على عموم أهل الرواق ما لم يوجد تخصيص من المتبرع

أما التبرعات التي ترد اليه بواسطة المشيخة فيتبع فيها الطريقة التي ترسمها في ذلك

مادة (٨)

الشكاوى

شكاوى طلاب الرواق أو موظفيه ترفع الى شيخ الرواق وعليه أن أن يعقد لجنة ادارته للنظر والفصل فيها حسبما يراه واذا دعا الحال الى رفع الأمر الى مشيخة الجامع الأزهر رفعه اليها لاجراء ما يلزم

مادة (٩)

العقوبات

اذا ارتكب واحد من الموظفين بالرواق أمراً لا يلائم وظيفته أو لا يليق بشرف العلم عند شيخ الرواق لجنة ادارته وتقارت في شأنه وتبين تحقق لها شيء من ذلك رفعته الى مشيخة الأزهر لتصرف فيه طبق القانون

مادة (١٠)

اذا تعدى طالب من طلاب الرواق على غيره أو ارتكب مالا يليق بطالب العلم نظر شيخ الرواق مع لجنة ادارته في أمره وقررت ما تراه في تأديبه ورفعت قرارها الى مشيخة الجامع الأزهر لتصرف فيه طبق القانون

مادة (١١)

اذا احترف طالب من طلاب الرواق بحرفة لم تركن بشرط واقف عنه من الاشتغال بطلب العلم أو ترك الاشتغال بطلب العلم بغير عذر مقبول فعلى شيخ الرواق مع لجنة ادارته أن تبحث في هذا الأمر وتبين تحقق لها ذلك

رفعت قرارها مشفوعا برأيها الى مشيخة الجامع الأزهر لاجراء ما يلزم حسب القانون

مادة (١٢)

القراءة

على شيخ الرواق أن ينتدب واحدا أو أكثر من أعضاء لجنة ادارته للتأديب بإزالة العلة من حيث اشتغالهم بطلب العلم أو تركه وحسن السير والسيرة وعراقة أسلوب الموظف بالرواق من حيث قيامهم بوظائفهم

وعلى المنتدب أن يقدم الى شيخ الرواق في كل خمسة عشر يوماً تقريراً في ذلك عن كل طالب أو موظف صدر ما يستحق عليه العقاب ليرفعه شيخ الرواق الى مشيخة الجامع الأزهر مشفوعا بما يراه في العقوبة .

مادة (١٣)

على شيخ الرواق أن يعد سجلا خاصاً يقيد فيه ملحوظات المنتدب للمراقبة عن كل طالب أو موظف ليرجع اليها عند الاقتضاء — وللجنة ادارة الرواق أن تطلع على هذا السجل في أي وقت تشاء لتكون على بصيرة باحوال طلاب الرواق وموظفيه

مادة (١٤)

اذا تخلف عضو المنتدب لمراقبة الطلاب والموظفين بالرواق عن القيام بما عهد اليه بغير عذر مقبول أو امتنع عن قبول هذه المراقبة فلشيخ الرواق أن يرفع أمره الى مشيخة الجامع الأزهر مشفوعا بما يراه لاتخاذ ما يلزم حسب القانون

مادة (١٥)

أحكام عامة

تنعقد اللجنة مدعوة من شيخ الرواق كلما اقتضت الحال

مادة (١٦)

يكون انعقاد اللجنة للمشار اليها صحيحا متى حضر من أعضائها اثنان على الأقل سوى الرئيس وتكون قراراتها بالأغلبية وان تساوت الآراء فالأرجحية للفريق الذي فيه الرئيس

مادة (١٧)

لا يستحق أحد من أعضاء لجنة ادارة الرواق أجراً في نظير قيامه بالأعمال المنصوص عليها في هذه القواعد

مادة (١٨)

لشيخ الرواق أن يعقد لجنة ادارته للنظر فى أى عمل من أعمال ادارة الرواق التي لم تكن منصوصة فى المواد السابقة للفصل فيه ورفع قرارها الى مشيخة الجامع الأزهر عند الحاجة

مادة (١٩)

يعمل بهذه القواعد فيما لا يخالف شرعا واقف أو نص قانون أو قرار من مجلس الادارة والمجلس الأعلى

ملحق

ادارة أوقاف الرواق

مادة ( )

اذا خلا عقار من عقارات الوقف فعلى شيخ الرواق أن يشكل لجنة تحت رياسته ومن واحد من أهل الخبرة من ذوى الأملاك واثنين من أعضاء لجنة ادارة الرواق وواحد من الموظفين (المجاني ـ المشاهد المباشر) لاجراء التصقيع ويكون قرارها نافذاً بالأغلبية .

التصقيع

مادة ( )

على اللجنة المذكورة فى المادة السابقة اجراء التصقيع المشار اليه فى الميعاد الذى يحدده شيخ الرواق

مادة ( )

يعلن شيخ الرواق عن المحل الخالى فى لوحة تلصق عليه بابه الابجار وتابع الرواق المقاربة بالأزهر فاذا مضى خمسة عشر يوماً ولم يتقدم راغب بالقيمة التى قدرتها اللجنة المشار اليها فعلى شيخ الرواق أن يخفض من تلك القيمة ما يراه بحيث لا يتجاوز خفضها فاذا مضى بعد ذلك خمسة عشر يوماً ولم يوجد راغب فعلى الشيخ أن يؤجره بالقيمة التى يراها .

مادة ( )

الاماكن غير الخالية يجدد تصقيعها بمعرفة اللجنة المشار اليها كل ثلاث سنين مع اعلان للمستأجر بذلك قبل سريان عقد الايجار لمدة أخرى اذا كان التصقيع بأكثر من القيمة المؤجر بها

مادة ( )

اذا ندب الشيخ العضوين من أعضاء لجنة ادارة الرواق يمتنع أحدهما عن العمل فله أن يندب بدله الممتنع من اعضاء اللجنة المذكورة فاذا امتنعوا جميعاً فيكون التصقيع بمعرفة باقى أعضاء لجنة التصقيع المنصوصة فى المادة ( )

مادة ( )

يشهر شيخ الرواق الاماكن الزراعية الموقوفة على أهل الرواق بالمزاد فى الجرائد اليومية قبل انتهاء عقد الايجار بمدة تشهر على الأقل محدداً فى ذلك مدة لتقديم العطاء وفتح المظاريف ويكرر الاعلان ثلاث مرات أيضاً

مادة ( )

على شيخ الرواق أن يفتح مظاريف مزاد تأجير الاطيان فى الميعاد المحدد لفتحها بحضور اثنين يختارهما من أعضاء لجنة ادارة الرواق يدعوه منه ويكون التأجير بحسب ما يرونه مع استيفاء الشروط القانونية

مادة ( )

العمارة

كل عمارة تزيد قيمتها عن ألف قرش صاغ على شيخ الرواق أن يشهرها فى المناقصة بالطريقة التى يراها ويحدد يوماً تفتح المظاريف بحضور المدعوين الذين يختارهما على الوجه المتقدم فى المادة السابقة

ويكون لهم الحق فى الترخيص باجراء العمارة أو عدمه

أما العمارة التى تنقص قيمتها عن ألف قرش فلشيخ الرواق وحده التصرف فيها على حسب ما يراه »

---

٨٣٧ قرر المجلس أن تحول هذه القواعد على اللجنة السابق ذكرها لتسير بمقتضاها بالعدالة والاستحقاق بعد أن يحمد بك أبو الذهب لنبحثها وتقدم نتيجة بحثها الى المجلس وهذه اللجنة مكونة من أصحاب الفضيلة والسعادة الأستاذ الشيخ محمد بخيت والمحمد شفيق باشا والأستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعة »

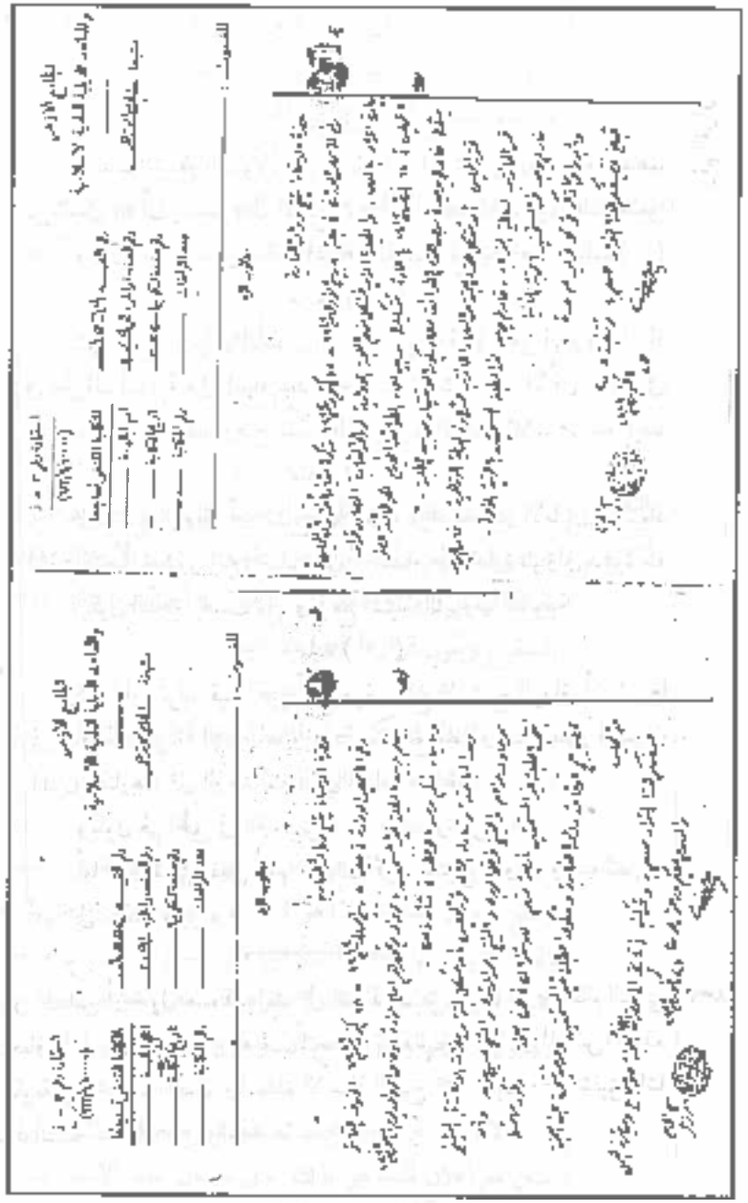

صورة وثيقة تبين الشغب الذى كان يحدث بين طلاب رواق المغاربة ، وتشكيل لجنة إدارية تساعد شيخ الرواق فى حل المشاكل ... تنشر لأول مرة من أرشيف د. مجاهد الجندى

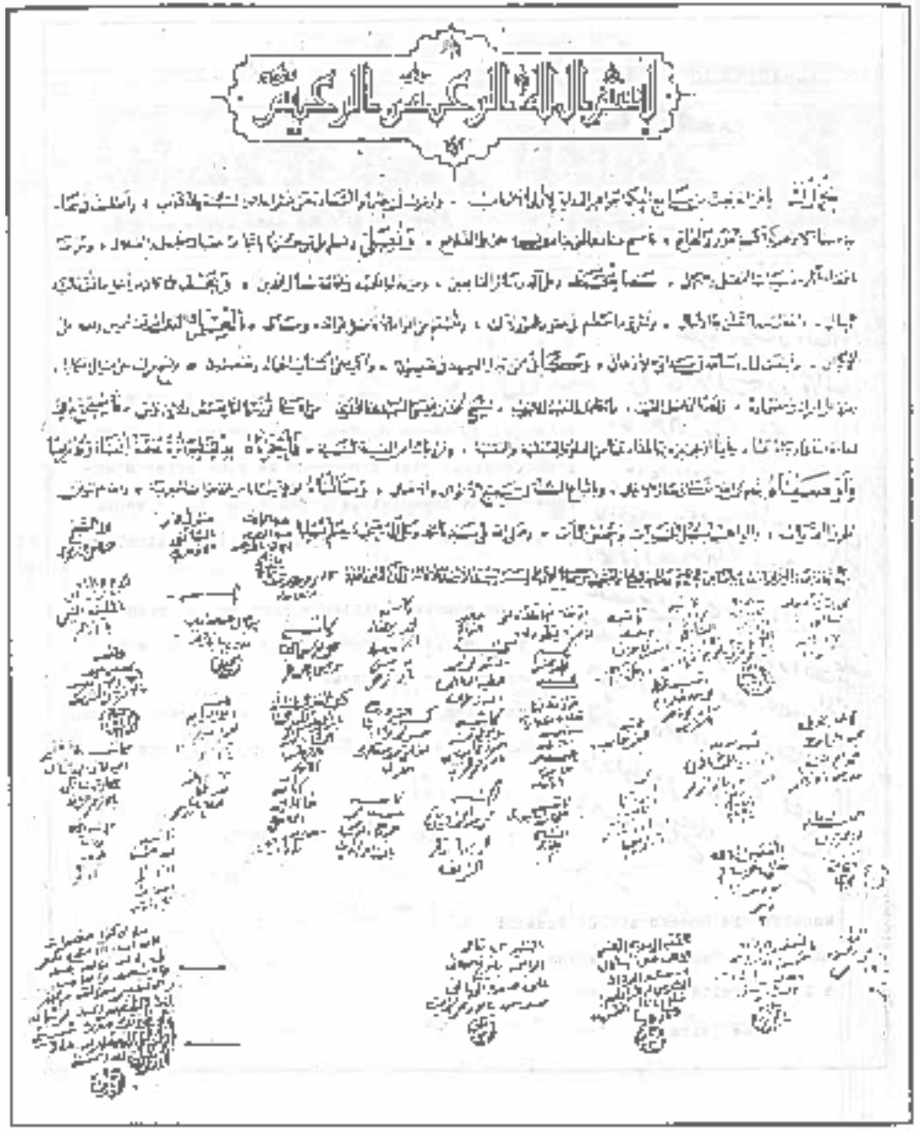

وثيقة إجازة علمية لطالب تونسى درس فى الأزهر فى رواق المغاربة تنشر لأول مرة وعليها توقيع ٤١ شيخ درسوا للطالب منهم ١١ شيخ كتبوا ختموا بأختامهم ، واعتمدها شيخ الرواق

أرشيف د. مجاهد الجندى جامعة الأزهر

CONSULAT DE FRANCE

Bibliothèque Française

N: 558

Le Caire, le 26 Mars 1913.

Monsieur le Chef de Section.

En réponse à votre lettre du 21 de ce mois au sujet du séjour de Cheikh Ali El Senani, résidant à l'Université, j'ai l'honneur de vous prier d'envoyer à mon Consulat le procès-verbal de la vente de ses effets avec une copie de l'inventaire dressé par vos soins.

Vous pouvez d'ailleurs engager le créancier dont vous parlez à produire son titre qui sera examiné par mon chancelier.

Veuillez croire, Monsieur le Chef de Section, à l'assurance de ma considération distinguée.

Le Consul de France.

Monsieur le Cheikh Ali El Senani
Chef de la Section Hongroise
à l'Université d'el Azhar
Le Caire.

وثيقة تنشر لأول مرة ، السفارة الفرنسية تطلب من شيخ رواق المغاربة إرسال صافي تركة الشيخ علي العماني التونسي ، وكان عليه دين يراد سداده ، فيطلب قنصل فرنسا بمصر الإيصال الذي يثبت به ذلك بتاريخ ٢٦ مارس سنة ١٩١٣م .

من أرشيف د. مجاهد توفيق الجندي/كلية اللغة العربية – قسم التاريخ – جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى

قال الله تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾

وقال صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة »

الجامع الأزهر الشريف

شهادة الإجازة للغرباء

قد نال صاحبه الشيخ علي بن الشيخ أحمد من تونس برقية شهادة الإجازة العالمية بالشهادة التي قررت لنيل الأهلية وذلك بعد ما قام الامتحان بحضرة كل من

الفقيه الخطيب الأديب الصالح الورع البديع

وأوصيه بتقوى الله تعالى والعمل بما علم والإقبال على كل مهم ما لم يعلم

تحريرا في ٥ شعبان سنة ١٣٢١ هجرية

وكيل الجامع الأزهر

مدير محاكم الأزهر سابقا

الهوامش

١ – أنشأها المعز لدين الله الفاطمي وبأمر منه ، جوهر القائد الصقلي من ٣٥٩ - ٣٦١ هـ وسميت القاهرة تيمنًا بأنها تقهر أعداءها . وللقاهرة شهرة كبيرة في العلوم والفنون فهي عاصمة مايزيد على الألف منقطة وبها الجامع الأزهر الذي ملأت شهرته الآفاق وعمرها يربو على الألف سنة ، وقد أقيم ١٩٨٣ إحتفال عالمي بالقاهرة للعيد الألفي للأزهر حضره عدد كبير من علماء العالم الإسلامي من قارات الدنيا ومنهم بعض المستشرقين (الباحث) .

٢ – هناك باب من أبواب القاهرة القديمة يطلق عليه باب " زويلة " نسبة إلى هذه القبيلة .

٣ – د. عبد الوهاب التازي : رواق المغاربة " أو " البعثة الدائمة للمغرب في مصر – حيث تقدم في مناسبة الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر ١٩٨٣م .

٤ – زار الباحث تونس واستقر سنة بالجزائر . وقد راجعت بنفسي هذه العائلات التي يوجد بعضها بالقاهرة وبعضها يوجد كذلك في تونس فوالجزائر . وكان ذلك ١٩٨٤ – ١٩٨٥ م حيث عملت أستاذاً مساعداً في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري .

٥ – كان هؤلاء العرب يقيمون شرق النيل في صعيد مصر خاصة في محافظة سوهاج ، وكانوا ذوي شغب للشعب وللحكومة . وأراد البازوري أن يتخلص منهم ، ويضرب بهم البربر . فشجعهم على عبور النيل وأعطى كل واحد منهم دينارًا من الذهب وملكهم أفريقيا ، وكان عددهم يقرب من نصف مليون . يركبون الخيول المطهمة ومعهم السيوف المرهفة فأدبروا البربر واستقروا هناك .

٦ – الرواق : هو المكان الذي يرتاده الإنسان المجلوس به والمكث فيه وهو مكان فسيح عادة . يتجمع به أبناء الجلدة الواحدة . وهو مكان للإعاشة الكاملة من نوم وطعام ومذاكرة وقراءة وبه مطبخ ومغطس وحنفية للوضوء وغير ذلك وأكبر ثلاثة أروقة بالأزهر رواق المغاربة والشوام والأتراك .

٧ – راجع : دكتور مجاهد توفيق الجندي : نظام الدراسة قديمًا وحديثًا بالجامع الأزهر . بحث قدم للجنة العليا للاحتفال بالعيد الألفي للأزهر ١٩٨٣ م . تحت الطبع .

٨ – راجع الملحق رقم ١ صورة مطبوعة تعطينا ختمًا ساطعًا على نظام " التغييرة " التي أنفردت به مكتبة الأزهر حفاظًا على التراث العربي الإسلامي ، فلابد لمن يستعير ثيقة من كتاب أن يضمنه أحد الشيوخ المعروفين لدى أمين المكتبة (الباحث) .

٩ – لم يفرط المغاربة ولا الأتراك ولا الشوام في مكتبات أوقافهم حتى بعد إنشاء الإمام محمد عبده لمكتبة الأزهر في عهد شيخه الشيخ حسونه النواوي ، ولذلك لم تدخل للأزهر وحتى هذا التاريخ ضمن فهرس مكتبة الأزهر فأصبحت عرضة للتلف من فئران وجرذان وقطط ورطوبة وأرضة وعفن وغيرها . بالإضافة إلى إستئناد أيدي ذوي النفوس الضعيفة إليها فباعوها بثمن بخس دارهم معدودة ولم يراعوا ما كتب عليها من نحو (وقف لله تعالى) لقد نبهنا إلى خطورة هذا التعاون على ما بقي من تراث في بحث نشر في العدد التذكاري لمجلة منبر الإسلام بمناسبة العيد الألفي للأزهر (انقذوا ما بقي من تراث الأزهر) من ص ١١٩ – ١٢٨ وركزت الثناء على مكتبات هذه الأروقة الثلاثة لما فيها من تحف نادرة ومخطوطات فريدة بخطوط مؤلفيها خاصة مكتبة رواق المغاربة فيها مجموعات نادرة بالقلم المغربي في كل الفنون من رباعيات ومصاحف بالقلم المغربي إلى علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه خاصة منه المالكي والتوحيد والمنطق والبلاغة والأدب والأوراد والأدعية والنحو والصرف والعروض والكيمياء والطب والصيدلة والجبر والهندسة والفلك وغيرها ويقصدها الألمان وغيرهم فيجدونها مغلقة .

١٠ – راجع : د. مجاهد توفيق الجندي (دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الإسلامية) طبعة القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م ص ٢٦٠ – ٢٧٩ توزيع دار المعارف بمصر .

١١ – راجع الملحق رقم ٣ في هذا البحث .

١٢ – راجع الملحق رقم ٢ في هذا البحث .

١٣ – لاندري ما سبب هذا الخلع . كما لانعرف الكثير عن هوية هذا الشيخ ، وهل هو تونسي أم جزائري أم مغربي أم ليبي . وسنحاول الحديث عنه مرة أخرى بعد مراجعة سجلات أروقة الأزهر بدار الوثائق القومية بالقاهرة ، راجع ملحق رقم ٤ .

١٤ – راجع ملحق رقم ٥ .

١٥ – راجع بعض أوقاف رواق المغاربة واختلاف الطلاب وشكواهم عليها في محاضر وقرارات المجلس الأعلى للأزهر من ص ٢٦٦ – ٢٧٢ والكشف التوضيحي المرافق ملحق رقم ٦ طبعة مطبعة النهضة بمصر ١٩١٨ – ١٩١٩ .

١٦ – راجع : د. مجاهد توفيق الجندي ، قراءة أولى في وثائق مجهولة ملحق رقم ٩ وثيقة رقم ٧ وهي تشتمل على زيت وزيتون مرسل لشيخ رواق المغاربة ليفرق شهريًا على الطلاب المغاربة .

١٧ – الرباع جمع ربع وهو بيت كبير مقسم أربعة أقسام لكل قسم باب خاص به يسكنه الناس ويدفعون الإيجار لشيخ الرواق ، ويوضع هذا الريع في خزينة الرواق لينفق منه على أسعابه .

١٨ – راجع بعض أوقاف المغاربة وأقسامها في محاضر وقرارات مجلس الأزهر الأعلى ١٩١٨ – ١٩١٩ . ثم ملحق رقم ٦ ، في هذا البحث .

١٩ – راجع أعمال لجنة شروط الواقفين والقواعد التي تسير عليها اللجنة الإدارية في قرارات ومحاضر مجلس الأزهر الأعلى ١٩١٥ – ١٩١٦م ، ص ٢٠٧ و ص ٢١٤ ملحق رقم ٧ وراجع كذلك اضطراب حالة الرواق في محاضر وقرارات مجلس الأزهر الأعلى ١٩١٨ – ١٩١٩م ص ٥٤ ، ١٢٤ – ١٢٦ ملحق رقم ٨ ، ط مطبعة النهضة بمصر ١٩١٨م ١٩١٩م وكذلك صورة شكوى من الشيخ الطاهر أحمد التونسي ضد الشيخ محمد جلول الجزائري ، وثيقة تنشر لأول مرة تاريخها ١٩٢٦م راجع ملحق ٨ أ . ٨ ب عبارة عن شكوى من الشيخ سعد بن محمد الجزائري ضد زميله الشيخ السعدي بأنه شتمه بألفاظ بذيئة .

٢٠ – استغرقت هذه العملية مني سنة كاملة تقريبًا ، وكان المكان غير مهيأ للقراءة حيث الضوء الخافت والرطوبة ، وكان علي أن أقرأ لاتقد مايمكن إنقاذه ، والأحرى لأنه وسخ المكان برائحته الكريهة ، حتى تسبب في ضعف بصري ، وكان ذلك وأنا أعد بحثي للدكتوراة رقيله ، واحتسب ذلك لوجه الله تعالى (الباحث) .

٢١ – راجع ملحق رقم ٩ قراءة أولى في وثائق مجهولة وهي اثنتين وعشرين وثيقة تنشر لأول مرة مرتبة ترتيبًا تاريخيًا أولها وأقدمها من ١٢٩٨ هـ ، وآخرها وأحدثها من ١٩٤٣م بالإضافة إلى الملاحق الثمانية السابقة (الباحث) .

٢٢ – ٨٩٥ ، ٢٢٤٥٨ أ ، ٩١٤ ، ٢٢٤٦٧ أصول فقه .

٢٣ – (أ) ١٠ ، ١٠٢٦ . (ب) ٥٠٩ ، ٥٣٦٨ . (ج) ١٦٥٣ ، ٣٤٩١٠ معارف عامة .

٢٤ – ٦٥٠ ، ٢٣٠٤٦ أوراد وأدعية .

٢٥ – ٢١٤ ، ٦١٣٦ تاريخ .

٢٦ – ١١٢٦٥ ، ٢٢٥٨٠ فقه مالكي .

٢٧ – ١٥٣ ، ٥٩٣٣ مصاحف .

٢٨ – ٣٠٢٣ ، ٥٣٢١٥ فقه شافعي .

٢٩ – ١٨٥٩ ، ٥٣١٧٥ فقه مالكي .

٣٠ – ٦٥١ ، ٥٣٢٢٨ فرائض ومواريث .

٣١ - ٨٠٥ ، ٦٨١٢٢ توحيد .

٣٢ - ١١٤ ، ٢٢٠٥ توحيد .

٣٣ - (أ) ٢٩ ، ٦٥٢ . (ب) ٧٣ ، ١٥٤٠ توحيد .

٣٤ - ١٨٦٠ ، ٥٣٣٩٥ آداب وفضائل .

٣٥ - ١٢٩٢ ، ٢١١٠٤ ، أخرى ، ١٥٣٠ ، بسم ٢٦١٩٧ تاريخ .

٣٦ - ٢٥٩٦ ، يخيث ٤٥٧٣٧ معارف عامة .

٣٧ - ٩٥٣ ، أباظة ٦٩٩٣ أخلاق وتربية وسياسة .

٣٨ - ٨٦٣ ، حليم ٣٤٣٦٦ أوراد .

٣٩ - ٥٦ ، عروسى ٤٢٧٨٣ حرف ورمل .

٤٠ - ٢٧٥ ، ٢٢٢٨٣ قراءات .

٤١ - ١٤٣٧ ، ٥٨٧٠٧ قراءات .

٤٢ - ٢٧٨٠ ، ٣٩٢٨٧ نحو .

٤٣ - ٥٦٢ ، ٣٥٨٨ ، ٦٣٣ ، ٤٣٢٥ نحو .

٤٤ - ٢١٢٦ ، ٥٣٤٧٣ بلاغة .

٤٥ - ٢٩ ، ٤٣٧١ حساب .

٤٦ - ١٠٣٢ ، الجوهرى ٤٢٠٦٩ أوراد وأدعية .

٤٧ - ١٠٧٧ ، مجاميع ، عروسى ٤٢٤٤٣ .

٤٨ - ٢٦٥٧ ، عروسى ٤٢٣٣٧ فقه شافعى .

٤٩ - ١٩٥ ، ١٢٥٩٢ مواريث .

٥٠ - ٢٨٦ ، ٢١٢٦ حديث .

٥١ - ٢١٢٧ ، ٥٣٤٧٤ بلاغة .

٥٢ - ٣٨٥ ، السقا ٣٨٩١٠ .

٥٣ - ٦٢٨ ، ٥٠٠٦٨ مواريث .

٥٤ - ٥٠٦٣ ، ٦٨١٠٤ توحيد .

٥٥ - ٢٢ ، ٢٧٦ توحيد .

٥٦ - فهرس جـ ٢ ص ٣٢٨ .

٥٧ - ٤٠٩ ، أباظة ٤٨٦٣٣ أدب .

٥٨ - ٨٨٧ ، حليم ٣٤٣٩٠ أدعية وأوراد .

٥٩ - ٣٨٢ ، ٢٨٨٩٢ طب .

٦٠ - ١٨٩١ ، ٥٣٢٠٧ فقه مالكى .

٦١ - ٢٩ ، ٢٢٣٥ قراءات .

٦٢ - ١٣٤ ، ٣٥٤ فقه مالكى .

٦٣ - ١٢٧١ ، ٣٢٥٨٦ فقه مالكى .

٦٤ - ٦٣٦ ، ٩٠٩٥ فقه مالكى .

٦٥ - ١٤٤ ، ٥٣٦٠٦ (ب) ٥٠٥ ، ٤٢١٤ فقه مالكى .

٦٦ - ٤٦٤ ، ٥٠٥١ فقه مالكى .

٦٧ - ٥٩ ، ١٣٩ فقه مالكى .

٦٨ - ١٣١ ، ٣٥١ فقه مالكى .

٦٩ - ١٣٣٩ ، يخيث تصوف .

٧٠ - ١٩٢٦ ، ٢٧٧٤٨ نحو .

٧١ - ١١٧ ، ١١٦٩ . (ب) ١٩٢٦ ، ٢٢٨٧٤ نحو .

٧٢ - ٤٤٤٠ ، حسنين باشا ٥٧٢٦٢ - أدب .

٧٣ - ٢٨٩ ، ١٢٣٨٤ فلك .

٧٤ - ١٩٤٩ ، حسنين باشا ٥٥٦٨ فقه مالكى .

٧٥ - (أ) ٤٣٩ ، أباظة ٦٧٢٩ ، (ب) ٩١ ، ٣٧٥٣ (اللغة) تاريخ .

٧٦ - ٣٧٤ ، ٩٩٥٧ أصول .

٧٧ – (أ) ٤٠١٣ ، ٥٣٢٧٢ ، (ب) ٤١١٤ ، ٥٣٢٧٣ توحيد .

٧٨ – (١٢) ٤٣٨٩ فلك .

٧٩ – (٣٥٧) صعايدة ٣٩٩٨٥ فلك .

٨٠ – (٣٥٧) صعايدة ٣٩٩٨ فلك .

٨١ – (٣٧٤) ٥١٢٧ توحيد .

٨٢ – راجع د ، ٢٩ ، ١٩٤٧٧ (فقه عام)

٨٣ – ، ١٤٨٧ ، ١٥٨٥٦ النحو .

٨٤ – ، ١٤٠ ، ٤٦١٥ أدب .

٨٥ – ، ٢٨١ ، ٢٣٣٤٢ مواريث .

٨٦ – ، ١٠ ، ٤٩١٨ عروض .

٨٧ – ، ٤٩ ، مختار باشا ٨١٦٦ فلك .

٨٨ – ، ١١٤ ، ٢٢٠٥ علم الكلام .

٨٩ – ، ١٠٨٧ ، مجاميع ٢٢٨٦٣ آداب وفضائل .

٩٠ – ، ٥٢ ، ٣٣٠٢ مواريث .

٩١ – ، ٣٢٨ ، ٤٤٣٣ توحيد .

٩٢ – ، ٦ ، ١٠٠٤ ، نسخة (ب) ، ٦٢ ، ٣٦٠٤ ، (جـ) ، ١٣ ، ١٢٦١ منطق .

٩٣ – ، ٣٦٠ ، ٢٢٠٣ منطق .

٩٤ – ، ٥١١ ، مجاميع ٢٣١٥٤ آداب وفضائل .

٩٥ – ، ٨٢ ، ٢٢١٠ بلاغة .

٩٦ – ، ٦٩٠ ، ٥٣٢٣٧ ، (ب) ، ٦٩١ ، ٥٣٢٣٨ مواريث .

٩٧ – ، ١٤١٧ ، حسنين باشا ٥٦٢٥٩ منطق .

٩٨ – ، ١٥٨٦ ، ٥٣٣٥٩ تصوف .

٩٩ – ، ٤١٩ ، ٥٨٠٨ توحيد .

١٠٠ – ، ٨٩١ ، مجاميع الجوهرى ١١٤ ، ٤٧ تصوف .

١٠١ – (أ) ، ٣ ، ٣٠١ (ب) ، ٤٥٠ ، صعايدة ٤٠٠٠١ (جـ) ، ١٠ ، ٦٩٢ (د) ، ١٤٤٩ ، صعايدة ٤٠٠٠٠ مواريث .

د. كمال عنانى إسماعيل العافى(*)

الآثار المعمارية الباقية من مسجد فنيانة

التعريف بمدينة فنيانة :

عُدت فنيانة من النواحى التى تتبع مقاطعة المرية[1] بالأندلس وقد ذكرت بأنها بلدة صغيرة قريبة من وادى آش [2]. وتقل مرتفعًا متوسطًا بين المرية وغرناطة . وإن كانت إلى غرناطة أقرب ، ومنطقة فنيانة التى تعرف أيضًا بالحصن[3] محاطة بزارع وبساتين واسعة كثيرة الكروم والتوت كما كانت تتوفر بها طرازُ للديباج [4].

وليس لدينا من النصوص مايؤكد أنها ترجع إلى أصول أيبرية أو رومانية قديمة أو أنها مدينة إسلامية الإنشاء . كما أننا لانعرف من تاريخ تلك المدينة سوى إنها كانت من المدن التى أستقل بها عمر بن حفصون[5] وإنها ظلت فى حوزته إلى أن استردها منه عبد الرحمن الناصر فى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م [6].

* – مدرس بكلية الآداب – جامعة الأسكندرية .

وفى عام ٣١٩ هـ / ٩٣١م استعمل عليها الناصر مولاه أحمد بن هاشم [٧]. ثم دخلت فى طاعة المرابطين الموحدين [٨]. وفى نهاية عهد الموحدين تمكن محمد بن يوسف بن نصر ملك غرناطة من ضمها إلى مملكة غرناطة [٩]. فقد ذكرها ابن الخطيب بين المواقع التى مر بها مع سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف بن نصر عام (٧٣٣ هـ - ٧٥٥ هـ) . لتفقد أحوال الثغور الشرقية لمملكة غرناطة ، حيث مر الركب بثغر المرية ثم غادرها السلطان وابن الخطيب مارين ببعض المدن الهامة مثل بجانة[١٠]، ومرشانة [١١]، وقنيانة [١٢]. التى وصفها ابن الخطيب بأنها بقعة حظها من النعيم موفور [١٣]. ومعنى ذلك أن مدينة قنيانة كانت من بين المدن التى خضعت مع المرية لسلاطين بنى الأحمر ، وظلت كذلك فيما يبدو حتى اغتصبها النصارى من ملوك بنى الأحمر عام ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠م [١٤].

مسجد قنيانة نهلة تاريخية :

المسجد مجهول التاريخ والمنشأ أيضًا ، فالمصادر العربية لم تسعفنا بمادة عن تاريخ تشييده أو ظروف إنشائه . وهكذا عَرَفَ الأستاذ توريس بلباس المسجد تعريفًا عامًا وكذلك الأمر بالنسبة لمن أخذ عنه من دارسى آثار مدينة المرية الذين يرجحون أنه يرجع إلى عصر بنى نصر [١٥]. وهو ما يستبعده كل من كارمن بارسيلو وأنطونيو خيلال بارئين حيث أكدا أن هذا المسجد يرجع إلى عهد الموحدين وأنه شيد خلال الفترة من عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠م إلى عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤م[١٦] ، معتمدين فى ذلك على تشابه بعض عناصره المعمارية والزخرفية بنظائرها فى آثار عصر الموحدين .

والواقع أنه من الصعب تحديد تاريخ هذا المسجد على وجه الدقة ، مالم يتم العثور على نص تاريخى أو نقش كتابى يؤكد تاريخ الإنشاء . ورغم أن ما تبقى من آثار مساجد الموحدين وبنى نصر فى الأندلس قليل ، فإن الدراسة التحليلية لبقايا هذا المسجد وكذلك زخرفته ترجع إلى عصر نهاية الموحدين وبداية عصر بنى نصر فكأنه بنى فى عصر الموحدين ثم أضيفت إليه بعض التجديدات فى عصر بنى نصر على نحو ماسوف تكشف عنه الدراسة فيما بعد .

موقع المسجد ووضعه الحالى :

وعلى أية حال ، فقد تحول هذا المسجد إلى كنيسة تعرف بكنيسة أو مصلى سنتياجو (Emita de Santiago) ومع ذلك فقد ظل المسجد قائمًا فى أحد شوارع المدينة الفرعية

المعروفة الآن باسم الكنيسة التى حُوِّل إليها المسجد وهو شارع سنتياجو الذى يبعد عن الميدان الرئيسى لمدينة قنيانة ، والذى أقيمت عليه الكاتدرائية الحالية التى أقيمت فى نفس البقعة التى كان يقوم عليها المسجد الجامع . ومن المعروف أن هذا المسجد تهدم من أساسه فى القرن ١٠ هـ / ١٦م وأقيم مكانه الكاتدرائية المذكورة [١٧].

وعلى هذا ، فإن مسجد قنيانة ، الذى نحن بصدد الحديث عنه ، كان مسجدًا ثانويًا ، ويدل على ذلك الربط بين مساحته التى لا تتجاوز ١٣٤م وبين موضعه حيث يطل بأكثر من واجهة على ثلاثة شوارع جانبية بعيدة عن مركز المدينة . ولاشك أن البقعة التى أقيم عليها أثرت على تخطيطه وعناصر الإنشاء ، خاصة فيما يتعلق بعناصر التهوية والإضاءة ، حيث إنه يخلو من الصحن ، وهذا النمط من المساجد الصغيرة انتشر فى مدن الأندلس ، مثل مسجد الباب المردوم ، ومسجد المسلمين بمدينة طليطلة[١٨] ، فضلاً عن مساجد القصور مثل مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة[١٩] ، ومصلى قصر البرطل[٢٠] بقصور الحمراء . وهذه المساجد تكاد تتشابه مع بعضها البعض فى ضيق مساحتها ، وفى تخطيطها العام الذى يتبع نظام الأساطين فى الغالب ، وفى عدم اشتمالها على صحن مكشوف ، وهو العنصر المحورى (أى الصحن) الذى صممت على أساسه معظم المساجد والجوامع فى العمارة الإسلامية منذ إنشاء جامع الرسول ﷺ فى المدينة .

وقد تعرض هذا المسجد - منذ أن تحول إلى كنيسة وحتى عام ١٩٨٦م - لكثير من التعديلات التى شوهت بعض معالمه على نحو يجعل من الصعب على غير المتخصص فى دراسة الآثار تمييزه عن غيره من المنازل المجاورة ، حيث أضيف إليه من جهة جدار القبلة صدر للكنيسة بدا كما لو كان جزءًا من البناء الأصلى ، وأقيمت لصق البلاط الغربى أبنية من طابقين [٢١]. مما جعل الشكل العام للمسجد غير منتظم ولعلنا نلمس مدى ما أصاب هذا المسجد من تشويه وإهمال من خلال النظر إلى سقفه المتهدم وجدرانه التى طمست زخارفها ، ولم يتبق منها سوى بقايا الكسوة الجصية بجدار القبلة (لوحة ٩ ب) وكذلك الحال بالنسبة للأرضية التى تبدو فى حالة سيئة . وفى القرن الثامن عشر الميلادى تعرض لأضرار غيرت من بنية الجامع ، حيث تم هدم جوفة المحراب وتوسيعها لإضافة صورة السيد المسيح ، وتحول الأسطوان المقابل للمحراب إلى مصلى [٢٢].

وصف عمارة المسجد :

أولاً : النظام التخطيطي :

تخطيط المسجد أقرب إلى الشكل المربع ، فطول كل ضلع من أضلاعه ١٠,٥م تقريبًا ومساحته ١٣٤م . ويظهر بوضوح أن هذا التخطيط ليس مربع الشكل تمامًا ، حيث إنّ الركن الشمالي يمتد طولاً عن الركن الشمالي الغربي بفارق ١,٩م (شكل «١») .

أما بيت الصلاة ، فيشغل مساحة قدرها ٩٦م يقسمها صفان من الدعائم إلى ثلاثة بلاطات عمودية على جدار القبلة ، بكل صف منهما أربعة دعائم ، تبقت من عقودها ثلاثة حدوية . ويتميز البلاط الأوسط بأنه أكثر إتساعًا وإرتفاعًا من البلاطين الجانبيين ، إذ يصل عرضه نحو ٣,٥م وإرتفاعه ٩,١٠م [٢٣] ، على غرار ماهو متبع في تخطيط معظم بيوت الصلاة وقاعات القصور الأندلسية من حيث إتساع البلاط الأوسط عن بقية البلاطات الجانبية[٢٤] .

وليس للمسجد صحن ، ولاتملك أية معلومات تؤكد أنه كان مزودًا بمئذنة ، وإن كان احتمال وجودها وارداً ، إستنادًا إلى أنه لم يتبق من آثار مساجد الأندلس الثانوية العديدة سوى ثلاث مآذن في قرطبة ، واثنين في أشبيلية[٢٥] ، وربما يدعونا ذلك إلى الاعتقاد بأن مسجد قنيانة كان به مئذنة شأن العديد من المساجد الأندلسية الرئيسية والثانوية ، وأغلب الظن أنها هدمت بعد أن تحول المسجد إلى كنيسة . ولم يُتح لأحد من الباحثين دراستها ومعرفة شكلها ونرجح أنها كانت مربعة الشكل على غرار المآذن الأندلسية والمغربية .

وصف المسجد من الخارج (الواجهات) :

الواجهة الشمالية :

يطل المسجد بثلاث واجهات على ثلاثة شوارع ، أهمها الواجهة الشمالية المطلة على شارع سنتياجو (لوحة «٢») ، فهي الواجهة الرئيسية ، وتشتمل على مدخل رئيسي يتوسطها ، ويرتفع هذا المدخل نسبيًا عن مستوى سطح الأرض الحالي ، ويصعد إليه برصيف يمتد بطول الواجهة ثم درج واحد يمثل عتب المدخل . ويتوج فتحة الباب عقد نصف دائري يقوم على دعامتين مندمجتين في الجدار ، وتكتنف المدخل من الجانبين دعامتان بارزتان عن سمت حائط الواجهة بتنهيان برفرف أو خارجة يبدو أن الغرض منها منع تسرب مياه الأمطار إلى الداخل .

ويبلغ اتساع فتحة عقد المدخل ٢,٥م وإرتفاع الدعامتين اللتين يقوم عليهما ١,٩٠م . وكان يمتد بطول الواجهة من أعلى طنف[٢٦] بارز اختفى الآن وحل محله في أثناء ترميم المسجد عام ١٩٨٦م لوح من الرخام مطلي بلون لازوردي [٢٧] .

ويلفت النظر في هذه الواجهة أنها عاطلة تمامًا من الزخرفة ، ولا ينفتح بها أية نوافذ أو عقود ، ولم تعالج زوايا الأركان عن طريق مساند أو كوابيل تقوم عليها أطراف لطنف العليا ، كما هو متبع في معظم واجهات عمائر الغرب الإسلامي ، فالمظهر العام للواجهة تسوده البساطة . وعلى المحور الرأسي للواجهة ، يرج للشواقيص مبني بالآجر يتوجه صليب . ومن المرجح أنه أقيم مكان مئذنة المسجد التي تهدمت ، بحيث لم يتح لأحد من الباحثين معرفة شكلها (لوحة ٢) .

الواجهات الغربية ، والشرقية ، والجنوبية الشرقية :

وأما الواجهة الغربية لهذا المسجد ، فقد أقيم لصقها من الجهة الجنوبية مجموعة منازل حديثة حجبت رؤيتها بحيث يتعذر دراستها ؛ وأما بقية الواجهة فلايوجد بها أي عنصر من عناصر الزخرفة وإن اشتملت على نافذة واحدة وظيفتها إنفاذ الضوء إلى المسجد . وقد اتخذت هذه النافذة شكل عقد مرتور .

أما الواجهة الشرقية ، فتلتقي بالواجهة الشمالية في ركن مشطوف على شكل زاوية منفرجة ، وكذلك مع الجدار الجنوبي في شكل زاوية حادة ، وتنفتح في تلك الواجهة فتحتان مدببتان تبدوان كما لو كانتا مزغلان أو منفذا سهام (شكل ٢) .

وأما الواجهة الجنوبية الشرقية (شكل ٣) ، فينفتح في جدارها محراب المسجد ، ومن الملاحظ أنها أكثر طولاً من الواجهة الشمالية[٢٨] ، حيث يبلغ طولها ١٠,٥م ، في حين يبلغ طول الواجهة الشمالية ٩,٩٠م [٢٩] . ويتوسط هذه الواجهة بناء ، عبارة عن مصلى كنسي أضيف للمسجد بعد تحويله إلى كنيسة في القرن السابع عشر الميلادي . ويفصل هذا البناء الكنسي ، بقي جدار القبلة من الداخل والخارج محتفظًا بحالته إلى حد كبير . ويرتفع مستوى أرضية هذا البناء بشكل واضح عن مستوى أرضية المسجد . ويوضح الرسم التخطيطي العام للمسجد (شكل ١) ، أنه كان يتم الوصول إلى هذا البناء أو المصلى الكنسي الملحق به عن طريق ممر معقود ، يؤدي إلى أحد المنازل الحديثة الواقعة لصقه من الجهة الغربية . والمصلى الكنسي المذكور يقع خلف جدار القبلة ، وهو عبارة عن قاعة مربعة الشكل تقريبًا طول كل

ضلع من أضلاعها ٣ . ٨م ، وقد تحولت إلى شكل سداسي عن طريق أنصاف حوائط أقيمت في أركانها . ويعلو هذه القاعة قبة [٣٠].

وصف المسجد من الداخل :

كان لبرودة المناخ وغزارة الأمطار بفنبانة أشد الأثر على عمارة المسجد[٣١]، فقد روعي أن يكون كله مسقوفًا ؛ ومن ثم يلاحظ أن بيت الصلاة ببلاطاته الثلاثة – التي تمثل كل ماتبقى من المسجد – يتخذ تخطيطًا مربعًا ، وهو من الظواهر الفريدة ، حيث إن التخطيط المربع قلما نجده في تخطيط معظم بيوت الصلاة في مساجد الأندلس وإنْ كنا نجده بكثرة في المشاهد والأضرحة الفاطمية بالقاهرة [٣٢]. والمثل الوحيد الباقي من بيوت الصلاة الأندلسية الذي يشبه في تخطيطه المربع تخطيط بيت الصلاة في مسجد فنبانة ، يتمثل في مسجد الباب المردوم بطليطلة الذي يرجع إلى أواخر عصر الخلافة [٣٣].

وفي رأي الأستاذ تراس أنّ أصل هذا التصميم المربع يرجع إلى أصول مشرقية ، لاسيما في سوريا سواء قبل أو بعد العصر الإسلامي ، وأنه تركز بصفة أساسية في المباني الجنائزية خلال العصر الأموي[٣٤] وأتفق مع ما انتهى إليه الأستاذ تراس بأن أصول التخطيط المربع ترجع إلى العصر الأموي ، ولكن ليس فقط في سوريا ، وإنما في معظم بلاد الشام والعراق ، كما أنه لم ينتشر في المباني الجنائزية فحسب ، وإنما ساد العديد من المساجد الأموية في الشام والعراق ، والتي نذكر منها على سبيل المثال : مسجد المنصور ببغداد (١٤٩ هـ / ٧٧٦م) [٣٥] ، والمسجد العلوي بمدينة إسكاف بني جنيد بالعراق [٣٦] ، ومسجد بصرى الذي شيده الخليفة يزيد بن عبد الملك ١٠٢ هـ / ٧٢٢م ، وجامع حران الذي يرجح أنه يرجع إلى أواخر عهد مروان بن محمد [٣٧].

ومما يلاحظ في تخطيط مسجد فنبانة أن البلاط الأوسط يزيد اتساعه وارتفاعه عن البلاطين الجانبيين كما أن هذين البلاطين يزيدان في الارتفاع من جهة جدار القبلة عنه من جهة الواجهة الشمالية ، حيث يبلغ ارتفاعهما من جهة جدار القبلة ٣٠ . ٢م في حين يبلغ الارتفاع من جهة جدار الواجهة الشمالية ٩٠ . ١م [٣٨].

مادة البناء :

على الرغم من اختفاء كل عناصر المسجد المعمارية الأصلية وجدران بيت الصلاة من الداخل والخارج ، وراء طبقة الجص التي كسيت بها حديثًا ، إلا أنه في أثناء إزالة أجزاء منها عند

ترميم المسجد ، اتضح أن نظام البناء في هذا المسجد يعد من النظم الفريدة في عمارة المساجد الأندلسية ؛ حيث استخدم في بنائه الآجر والحجارة ، غير أننا نلاحظ أن المادة الغالبة في معظم أجزاء المبنى هو الطابية [٣٩]. وأن استخدام الحجر أقتصر فقط على القطاع الأيمن من جدار القبلة ، أما الآجر ، فقد شيدت به العقود بما في ذلك الدعائم التي تنبت منها تلك العقود [٤٠].

ومن الجدير بالذكر ، أن طريقة البناء بالطابية ، شاع استخدامها في المباني العسكرية وأسوار المدن الأندلسية والمغربية [٤١]، لاسيما في عصر دولتي المرابطين والموحدين . وقلما نجدها مستخدمة في عمائر المغرب والأندلس الدينية . كما أنّ هذه الطريقة البنائية تمتاز في هذا المسجد بطابع خاص يختلف إلى حد كبير عن طابع العمارة الحربية من حيث العناية بصقلها عن طريق تغطية أسطح الجدران من الداخل بمواد بنائية أخرى ، مثل قطع القراميد لتسوية سطوحها الداخلية ، كما أن قوالب الآجر التي استخدمت في بناء هذا المسجد سواء بمفردها في العقود والدعائم أو لتكسية سطوح الجدران ، وكذلك قطع الحجارة التي اقتصر استخدامها على قطاع صغير من جدار المحراب – يختلف عن تلك التي استخدمت في معظم العمائر الدينية والمدنية الأندلسية[٤٢] في أن كليهما استخدم لوثاقة البناء دون العناية بجمال المظهر ، على عكس ماكان شائعًا في كثير من الأبنية الأندلسية التي استخدم فيها الآجر سواء بمفرده أو بالتناوب مع قطع الحجارة كأساس في بناء سنجات العقود وزخرفة الواجهات ، وفي تشكيل تكوينات زخرفية لكسوة الأرضيات ، على نحو ماهو مطبق في صحون القصور بمدينة الزهراء [٤٣].

أما عن أسلوب البناء ، فمن الملاحظ أن المداميك التي شيدت بها الجدران صفت بطريقة غير متقنة ، مما أدى إلى عدم انتظام الشكل العام لجدران المسجد ، فهناك انحراف واضح في الجهة الشمالية الشرقية والغربية من المسجد ، ويرجع ذلك إلى خلل في طريقة تنفيذ صفوف البناء مما أفسد التخطيط المنتظم الذي كان يجب أن يكون عليه المسجد .

وعلى أية حال ، فإن الطابع المميز لمواد البناء في مسجد فنبانة يتسم بالبساطة التي تعكس العناية بوثاقة البناء على حساب الشكل ، بحيث ظل بناؤه المتين يقاوم عوامل التخريب الطبيعية والبشرية . ويرى أحد الباحثين أن تلك البساطة تؤكد نسبة هذا المسجد إلى عصر الموحدين ؛ على أساس الطابع الديني الذي التزمته دولة الموحدين ، وما ارتبط به من زهد عن المباني الفخمة [٤٤].

المحراب تصميمه وزخارفه :

كانت جوفة المحراب بمسجد قنيانة على عكس معظم مساجد المغرب والأندلس تتجه شطر الجنوب الشرقي [٤٥]، كما أنها لاتتوسط جدار القبلة ، وانما تنحرف قليلاً جهة الشرق [٤٦].

ومع أن المحراب قد اختفى بعد أن تحول المسجد إلى كنيسة وأقيم مكانه مذبح ، وتم توسيع جوفته بحيث اتخذت حالياً شكلاً سداسيًا ، إلا أنه فى أثناء أعمال الترميم التى أجريت فى جدار القبلة ، تم الكشف عن أساس المحراب ، فتبين أن تخطيطه كان على شكل مثمن منتظم [٤٧]، وهو على هذا النحو ، يعد من الظواهر النادرة جداً ، حيث إن هذا التخطيط قلما نجده فى تخطيط المحاريب فى مساجد المشرق والمغرب الإسلامى . فالمثل الوحيد الباقى بهذا التخطيط يتمثل فى محراب جامع قرطبة الذى أثر على بقايا محراب جامع المرية ، الذى تحولت أركانه الأربعة إلى مثمن عن طريق جوفات ركنية مقوسة [٤٨].

وتكسو جدران بيت الصلاة بما فى ذلك جدار القبلة ، حالياً من الداخل والخارج طبقة حديثة من الجص ، وهى خالية تمامًا من أية زخارف ، ولكن فى أثناء أعمال الصيانة والترميم التى أجريت بالمسجد عام ١٩٨٨م ، تم الكشف عن تشكيلات من الزخارف الجصية كانت تزين واجهة المحراب ، وقد نزعت لوحات هذه الزخارف ، ثم أعيدت إلى مكانها بعد ترميمها لوحة (٣ ، ٤) وكانت تلك الألواح والكسرات الجصية قد تعرضت لمزيد من التلف وفقدان أجزاء منها عندما تطلب الأمر رفع العقد المركزى الذى يتوج المذبح من أجل وضع صورة السيد المسيح[٤٩] لوحة (٥) وعلى الرغم من تهدم واجهة المحراب بمسجد قنيانة ، إلا أن المخطط الذى وُضع لها على أساس أعمال الترميم العلمية الصحيحة التى استكملت المفقود منها ، يكشف عن نظامها الأصلى (شكل ٤) ؛ إذ كان يتوجها عقد متجاوز - اختفى الآن - يحيط به طرة مستطيلة أو تربيعة على شكل حرف (U) مقلوبًا تمتد أرجلها حتى الأرض ، وتتصل من أعلى على الجانبين بإفريزين يحصران بينهما فراغًا تشغله نافذتان صماوان . وعلى جانبى كل منهما ، لوحتان مستطيلتان مع لوحات الإفريزين بالقسم الأدنى ، شكل مستطيل زخرفى . وبين هاتين النافذتين نافذة مركزية معقودة بعقدة من ثماني فصوص . ومن الواضح أن تلك النوافذ جُددت ربما فى أثناء عمليات الترميم التى تمت فى أعقاب الكشف عن واجهة المحراب . وتتكون الضريبة التى تطوق واجهة المحراب من ثلاثة أفاريز مستطيلة متدرجة يختلف كل منها حجماً عن الذي يليه ، فالإفريز الأول من الخارج يبلغ عرضه ٨٠ سم والثانى ٣٠ ، ١سم والثالث من الداخل ٥٤ سم [٥٠]. ويشغل هذه الأفاريز لوحات جصية ،

يضمرها توريقات نباتية محفورة حفراً غائراً فى شكل شبكة خرقية . وتوام تلك التوريقات مراوح نخيلية متضافرة بنشأ من تضافرها أشكال شبيهة بأشكال العقود المفصصة وتحصر بينها توريقات نباتية . كما يتخلل تلك التوريقات نقوش كتابية بالخطين الكوفى والنسخى ، تبدو فيها حروف الكتابة متداخلة مع التوريقات ، بحيث يصعب تمييزها ، وكذلك يصعب تمييز النقط التى تعلو الحروف النسخية (لوحة ٥ ، ٦) . وقد تم توزيع النصوص الكتابية ؛ حيث شغلت الكتابات النسخية الإطارات الخارجية المشار إليها بحرف (B) ؛ وهذه الكتابات الأخيرة وصلتنا فى حالة سيئة بحيث يتعذر قراءتها وإن كان قد تبقى منها فى الشريط الأيمن المشار إليه بحرف (B) ما نصه (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم) [٥١]. وتتلاقى أطراف تلك الأطر (A,B) من أسفل بكل جانب من جوانبها مع حشوة أخرى أفقية ، بحيث تجمع هاتان الحشرتان المشار إليهما بـ حرفى (D,G) كلَّ الأفاريز والإطارات الداخلية المتصلة فيما بينها عن طريق خطوط أفقية ورأسية .

ويشغل أركان كل حشوة يمينًا ويساراً حلقة دائرية مشار إليها بـ حرفى (C,E) فى الحشرة اليمنى وبحرفى (H,F) فى الحشوة اليسرى . ويملأ تلك الدوائر نقوش كتابية تمثل امتداداً لكل من الشريطين الخارجى والداخلى لأركان المستطيل الزخرفى . وقد فقد من تلك النقوش النقش الذى كان يشغل الدائرة المشار إليها بحرف (C) فى الحشوة اليمنى . أما الدائرة المماثلة فى نفس الحشوة والمشار إليا بحرف (E) ، فنطالع فيها عبارة (عدة الله) بالخط الكوفى . وفي الدائرة المشار إليها بحرف (F) فى الحشوة اليسرى ، نطالع ما نصه (الله وحده) (شكل ٥). أما الدائرة المشار إليها بنفس الحشوة بحرف (H) ، فنطالع فيها بقايا كلمة (الملك) (شكل ٥ H) ، وبذلك يمكن قراءة نص كلمات الدائرتين بالحشرة اليسرى على التالى :

(الله وحده الملك) .

وتجدر الإشارة إلى أن النوافذ الثلاث بالطابق العلوى للواجهة ، كان يؤطرها أربع لوحات رأسية مزدانة بنقش كتابى ، نطالع فيه كلمة (بركة) ، مكررة بالخط الكوفى الهندى ، غير أن تلك اللوحة فُقدت ولم يتبق سوى اللوحة المشار إليها برقم (١ فى شكل ٤) ، وفيها نطالع كلمة « بركة » مبتورة [٥٢](شكل ٦) .

وهكذا يكشف تصميم هذه الواجهة ، وأسلوب زخرفتها ، عن تصميم متميز ينقسم رأسيًا إلى ثلاثة أقسام بحيث تخضع عناصر واجهة المحراب المعمارية الزخرفية من أدناها إلى أعلاها للتخطيط الرأسى الثلاثى الذى بدأت فكرته المعمارية فى باب الوزراء المعروف اليوم باسم

باب سان استبيان بجامع قرطبة ، ثم تطورت بحيث أصبحت الطابع المميز لتصميم معظم واجهات العمائر الأندلسية ، لاسيما الدينية والمدنية [٥٣].

كذلك يكشف هذا التصميم عن فكرة معمارية وزخرفية واحدة توامها التناسق الذى يجعل أجزاء كل قسم من أقسام الواجهة يتفق مع الأجزاء التى تعلوها أو تدنوها . ويتضح ذلك فى استخدام نوعين من النقوش الكتابية فى الإطارات الرأسية الخارجية والداخلية ، وفى استخدام حلقات دائرية متماثلة فى الحشوتين أو الإطارين الأفقيين ، ومختلفة فيما تضمنته من نصوص كتابية . هذا فضلاً عما يغمر تلك الحشوات من تزويقات متنوعة محصورة أحيانًا داخل جامات متعددة الفصوص ، انقسمت فصوصها إلى أنصاف دوائر متصلة ومتراكبة ، بحيث ملأت الإطارات المحصورة بداخلها واتصلت بها عن طريق أربعة ميمات أو عقد زخرفية موزعة فى ثمانى تنيت خطوطها من الخطوط المكونة لفصوص الجامة ، وقد ظهرت الجامة على هيئة جامتين متقاطعتين ومتراكبتين عن طريق الميمات أو العقد الأربع الركنية [٥٤]. وقسوام التزويقات المحصورة داخل تلك الجامات البالغ عددها أربع موزعة فى أركان المستطيل الزخرفى لتربيعة طرة المحراب مراوح نخيلية تفننت أشكالها على هيئة ورقة نباتية مقسمة إلى قسمين يربطهما سيقان نباتية مشدودة عبارة عن خطوط منكسرة تتخذ شكلاً هندسيًا رباعيًا يحصر بداخله شكلاً معينًا يمثل قاعدة ارتكاز للمروحة التى تألفت من فصين لخبر متماثلين ، حيث استطال واستقام أحدهما بشكل ملحوظ ، بينما قصر والتف الثانى . ويزدان الفصان بزهيرات رقيقة وتصييعات ذوات خواتم دائرية تظهر أحيانًا وتختفى أحيانًا أخرى [٥٥] (شكل ٨ (لوحة ٧) .

العقود والدعائم :

يبلغ عدد عقود بيت الصلاة بمسجد فنيانة ٦ (ستة) عقود كلها من النوع المتنوخ المتجاوز ، وبطونها مقعرة . وتستقر أرجلها على حدائر أو قرم مستطيلة الشكل ، جوانبها الطويلة مشطوفة فى انحناء مقعر ، بحيث تبدو فى شكل كابولى مكون من لفيفة واحدة ربع دائرية . تبدو كما لو كانت مستقلة عن أرجل العقود التى تقوم بواسطة تلك القرم على أربع دعائم مضلعة قطاعها منحنى ، يتوج كل منها مناكب مستطيلة الشكل لها زاويتان قائمتان على جانبى وجهها . الأمر الذى أكسب الدعائم شكلاً مصلبًا أو شكل حرف T (لوحة ٨) . وهى ، على هذا النحو ، تشبه نظام الدعائم فى العديد من المساجد الموحدية المغربية [٥٦].

كما تمثلت فى الدعائم التى ترتكز عليها عقود المجنبات فى صحن جامع القصبة بإشبيلية[٥٧] . ولكن دعائم هذا المسجد ، تختلف عن نظائرها فى أنها لاتشتمل على أعمدة مندمجة فى أركانها . ورغم ضخامة تلك الدعائم إلا أن أشكالها قد انتظمت محتدة من أدناها إلى أعلاها فى قطاع واحد مثمن متساوى الارتفاع ، حيث يبلغ ارتفاع كل منها ١,٩٠ م .

أما العقود الستة فمتساوية الارتفاع والاتساع ، حيث يبلغ ارتفاع كل منها ٢,٢٠ م ويبلغ اتساع فتحتها ١,١٠ م (لوحة ٩) . وقد ثبت فى أثناء ترميم المسجد أن تلك العقود والدعائم الحاملة لها مبنية بالأجر المكسر بالجص [٥٨].

سقف بيت الصلاة :

رغم تحول المسجد إلى كنيسة ، إلا أن هذا التحول لم يمس جوهر السقف الذى يتكون من لوحات خشبية مثبتة على عوارض ، تمتد بأعلى البلاطات يعلوها سطح مسنم هرمى الشكل ، تكسوه قراميد صنعت فى شكل نصف دائرى . وهو على هذا النحو ، يشبه أسقف جامع قرطبة التى تتألف من جوائز خشبية ترتكز عليها سماوات[٥٩] نظمت فى صفوف متلاصقة مثبتة فى جوانب الجوائز (شكل ١١) . ورغم هذا الشبه من حيث التكوين ، إلا أن شكل سقف مسجد فنيانة يظهر مختلفًا عن نظيره فى أسقف جامع قرطبة ؛ فهو يتكون من أربع حشوات رأسية مائلة ، تغطيها حشوة أخرى أفقية بحيث يتخذ السقف فى مجموعة شكل زورق (لوحة ١٠ ، ١١) ؛ على نحو يذكرنا بسقف قاعة تعارض فى قصور الحمراء[٦٠] . كما يتميز سقف مسجد فنيانة بأن جوائزه قصيرة ورفيقة تنتهى برؤوس مدببة مشطوفة ، بحيث يمكن تثبيتها فى قاعدة السقف وتحصر بينها سماوات ألواحها مستطيلة وأفقية ، تقل فى طولها من أسفل إلى أعلى بحيث كونت أشكالاً هرمية ألفت فى مجموعها جوانب السقف الأربعة . ويدعم هذا السقف فى قاعدته روابط عبارة عن أوتار خشبية تمتد بعرض السقف ؛ وظيفتها مقاومة فتح جوانب السقف المائلة الطويلة . ويبدو أنها كانت تستخدم أيضًا فى تعليق ثريات المسجد ولنهو السقف مع الحائط ، استخدمت إزارات من الخشب بارتفاع ٣٠ سم مطوقة بأشرطة معدنية .

وفى ضوء الوصف السابق ، يتضح أن مكونات سقف مسجد فنيانة مشتقة من نفس مكونات أسقف جامع قرطبة ؛ أى من نظام الجوائز أو الكمرات الحاملة للسقف واللوحات المسطحة . غير أن شكل هذين العنصرين فى سقف فنيانة ، يظهر مختلفًا عن الشكل الذى نراه فى أسقف جامع قرطبة ، ويتفق إلى حد كبير مع نظام أسقف عصر بنى نصر ؛ حيث نرى

نظائر له فى قاعة البركة ، وقاعة تمارش ، كما يشبه إلى حد كبير النظام المتبع فى بعض أسقف المبانى المدببة ، مثل سقف كنيسة اريوشي بطليطلة[٦١] Erustes (شكل ١٣) .

أما عن زخارف هذا السقف ، فقد تلاشت فى مجملها ولم يبق منها سوى آثار باهتة لزخارف محزوزة ، اقتصرت على أشرطة على هيئة التواءات وانحناءات تكون حلزونات على شكل حرف (S) ، تشغل ألواح السمادات المحصورة بين جوائز السقف .

وأخيراً ، تجدر الإشارة إلى أن سقف هذا المسجد ظل محتفظاً بشكله الأصلى إلى أن تسربت مياه الأمطار بداخله ، فتلف جانب منه مما دعا إلى إصلاحه فى عام ١٩٣٩م ، كما أن أجزاء أخرى أخذت مهددة بالتلف ، حيث تأكلت بفعل الرطوبة والرشح ، وأصبح من الضرورى ترميم السقف الذى يعد أقدم الأسقف الخشبية الإسلامية التى لاتزال باقية فى كل إقليم المرية[٦٢] . ولذلك فإن مشروع الترميم الذى بدأ فى هذا السقف على أسس علمية صحيحة فى عام ١٩٨٦ - عكس المشروع السابق - وضع فى اعتباره القائمين به أهمية هذا السقف وضرورة المحافظة عليه عند هدم توالب الأجر التى كانت تغطى سطحه الخارجى ، ونزع الهياكل الخشبية الداخلية بدقة ، بحيث يمكن الاستفادة من كل بقاياه بعد تنظيفها وإعادة تركيبها من جديد . وبالفعل ، تمكن المهندس المشرف على البلاطين ، من إعادة تركيب أجزاء فى البلاط الأوسط وفى قطاع كبير من الرواتين الجانبيين بعد أن استفاد استفادة كاملة من كل بقاياه حتى من القطع التالفة ، بأن أعاد استخدامها فى الأجزاء غير الظاهرة أو المدفونة من الهيكل الخشبى . ولتجنيب السقف أثر الرطوبة والأمطار ، استخدمت تقنيات حديثة فى طلاء لوحاته الخشبية باستعمال نوع من الزيت أو الورنيش الواقى من الفطريات ثم طبقة رقيقة من الشمع لتكسبها مناعة ضد التأثيرات الجوية[٦٣] . وقد حرص المهندس المرمم على تمييز القطع الحديثة عن القديمة بوضع طبقة من الدهان تشبه الصدأ لتكون شاهداً على الوضع القديم الذى كانت عليها [٦٤].

الأبواب والنوافذ :

ليس لمسجد قنيانة فى صورته الحالية إلا باب واحد ينفتح فى منتصف جدار واجهته الشمالية ، يعلوه عقد نصف دائرى بطوقه تربيعة تمتد بامتداد فتحة الباب البالغة ٩٥ , ١م ، والتى يشغلها مدخل بسيط المظهر يتكون من دعامتين ترتكزان على طنف بسيط ، وتخلو بيقتا هذا العقد من أية زخارف . ومن الملاحظ أن القطاع الأيمن من جدار القبلة به آثار فتحة

مسدودة يقابلها فى القطاع الأيسر من نفس الجدار عدة فتحات مسدودة أيضاً تمتد من أرضية المسجد حتى قرب نهاية الجدار . ويرى أحد الباحثين أنها بمثابة أبواب لبيت الصلاة [٦٥] وإن كان من الصعب الأخذ بهذا الرأى لعدم توصلنا إلى معرفة الغرض من تلك الفتحات أو العصر الذى فتحت فيه ، وكانت تنفتح فى أعلى جدار الواجهة الشرقية نافذة معقودة بعقد نصف دائرى . ونتيجة لتوسيع فتحتها من الداخل ، ظهرت كما لو كانت عقداً مرتوراً . وتعد هذه النافذة المصدر الوحيد للضوء داخل بيت الصلاة بالإضافة إلى فتحة باب المدخل [٦٦].

التأثيرات المغربية على مسجد قنيانة فى مجال العناصر المعمارية :

يتجلى الأثر المغربى على عمارة مسجد قنيانة فى مجال العناصر المعمارية بصفة خاصة فى ظاهرة استخدام دعائم مضلعة البدن رؤوسها تنتهى بمناكب لها زاويتان قائمتان على جانبى وجهها ؛ الأمر الذى أكسبها شكلاً مصلبًا لوحة (٨) . ومثل هذا النوع من الدعائم شاع استخدامه فى العديد من المساجد المغربية ، مثل جامع الكتبية بمراكش ، وجامع تنمال [٦٧] ، وجامع الأندلس بفاس . وقد بنيت تلك الدعائم وعقودها الحدودية المنفوخة فى كل المساجد المغربية الموحدية التى سبقت الإشارة إليها بمادة الآجر على نحو مطابق لعقود دعائم مسجد قنيانة ، أما الجدران فسبقت الإشارة إلى أنها مبنية بالطابية ، وهى على هذا النحو تطابق فى مادة بنائها جامع الأندلس بفاس ، فهو مبنى بالطابية ، أما دعائمه وعقوده فمبنية بالآجر [٦٨].

ملاحق الصور

لوحة (١) بقايا مسجد فنيانة من الداخل أثناء الترميم
(عن أرشيف المجلس البلدى لمدينة المرية)

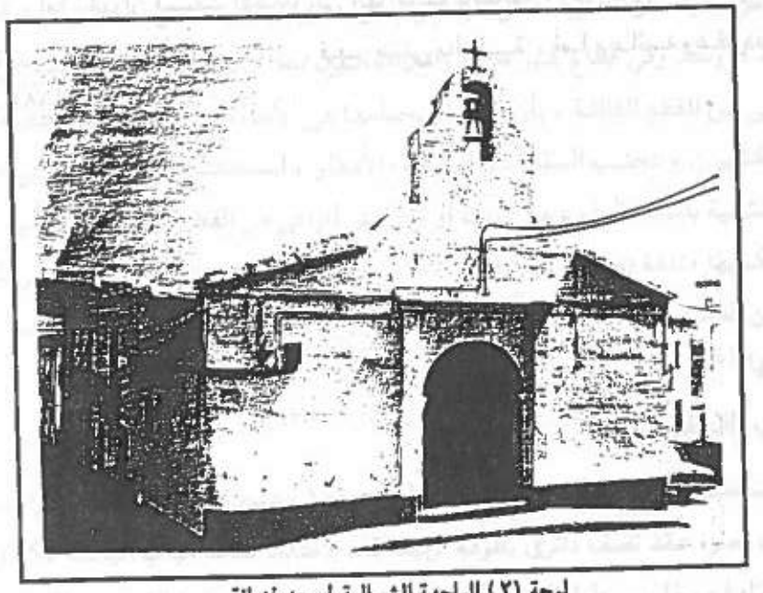

لوحة (٢) الواجهة الشمالية لمسجد فنيانة

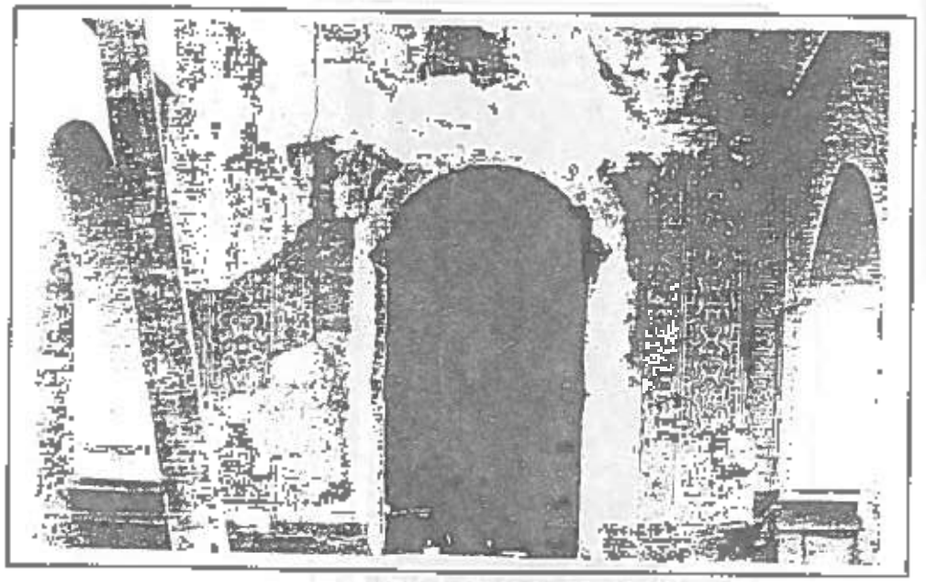

لوحة (٣) بقايا واجهة محراب مسجد فنيانة
(عن أرشيف المجلس البلدى لمدينة المرية)

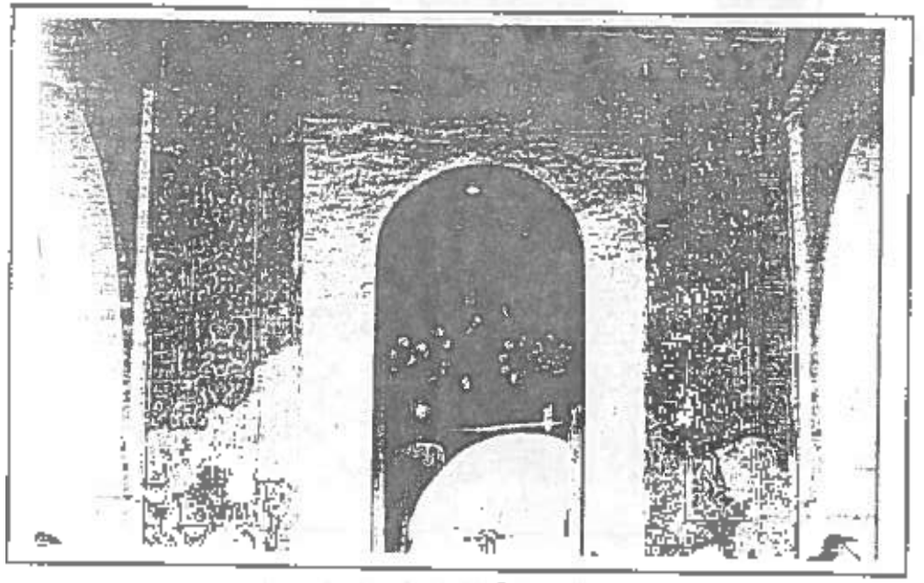

لوحة (٤) منظر آخر لواجهة محراب مسجد فنيانة
(عن أرشيف المجلس البلدى لمدينة المرية)

لوحة (٥) صورة اليد المسيح التي تتوج عقد واجهة المحراب بمسجد فنيانة

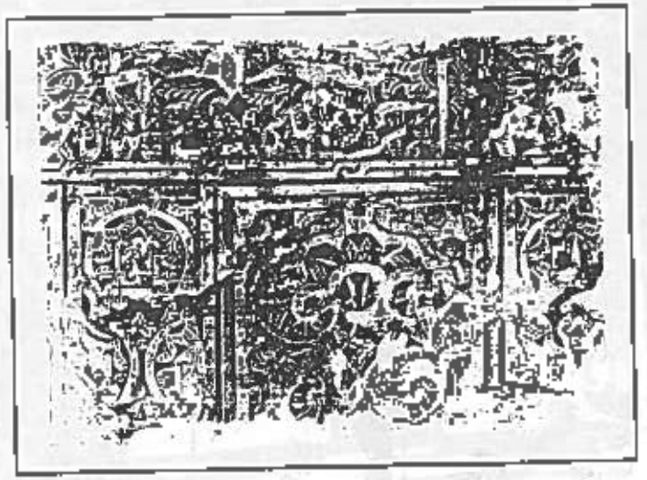

لوحة (٦) بقايا لأحد اللوحات الجصية التي لاتزال
تكسو واجهة محراب مسجد فنيانة

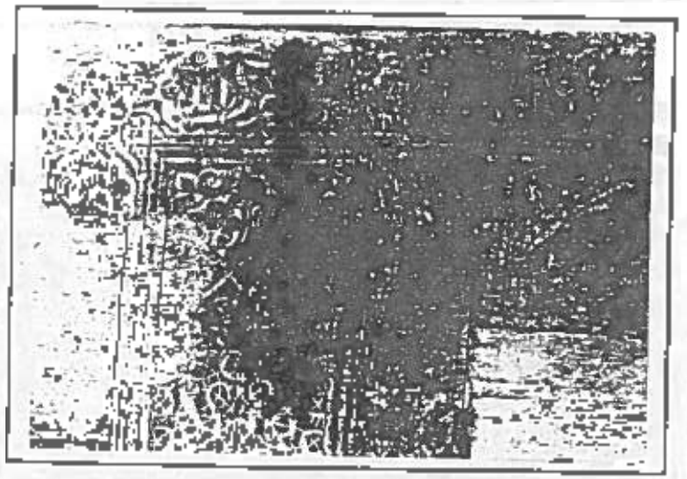

لوحة (٧)
بقايا من الكسوات الجصية برنجهة مسجد فنيانة (عن بافون)

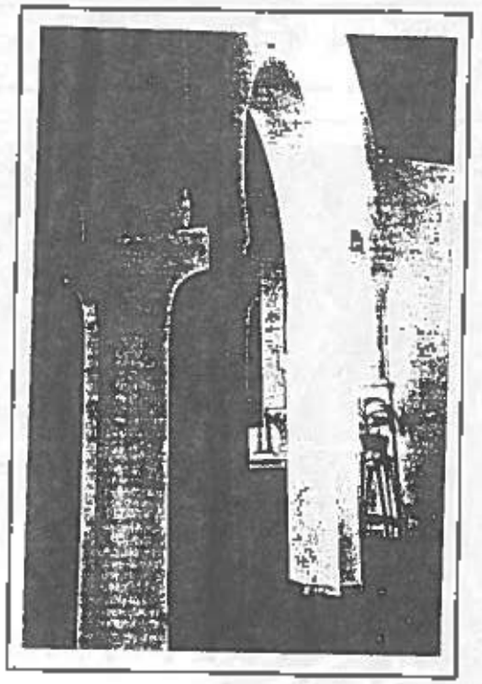

لوحة (٨) منظر من الداخل لمسجد فنيانة مرضع فيه
أشكال العقود والدعائم الحالية

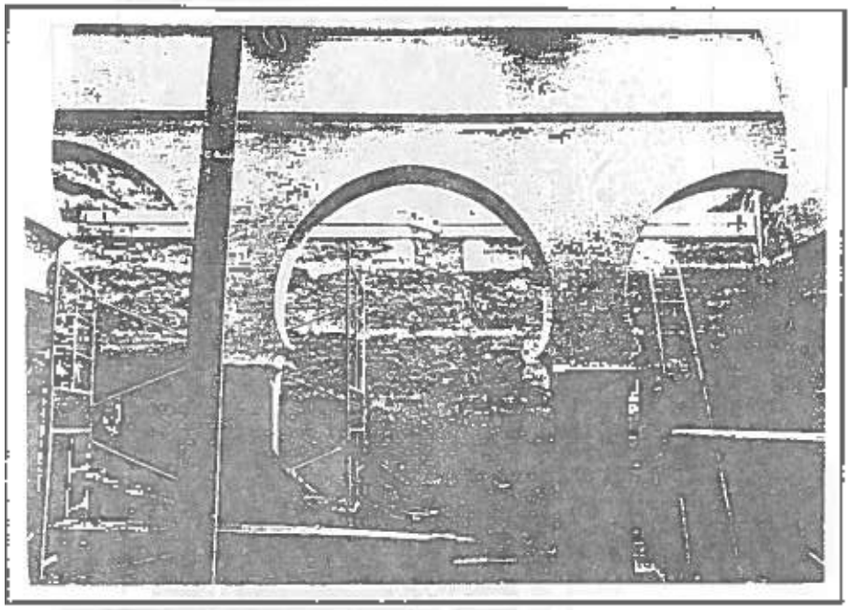

لوحة (٩) منظر داخلى لمسجد غنيانة موضح قبه بوائك العقود
(عن أرشيف المجلس البلدى لمدينة المرية « أثناء الترميم »)

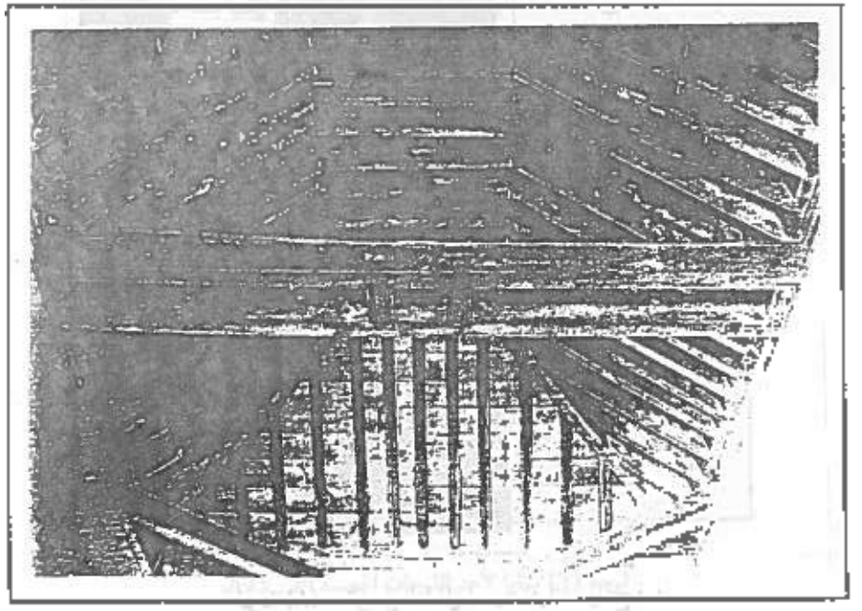

لوحة (١٠) سقف مسجد غنيانة من الداخل بعد الترميم
(عن أرشيف المجلس البلدى لمدينة المرية)

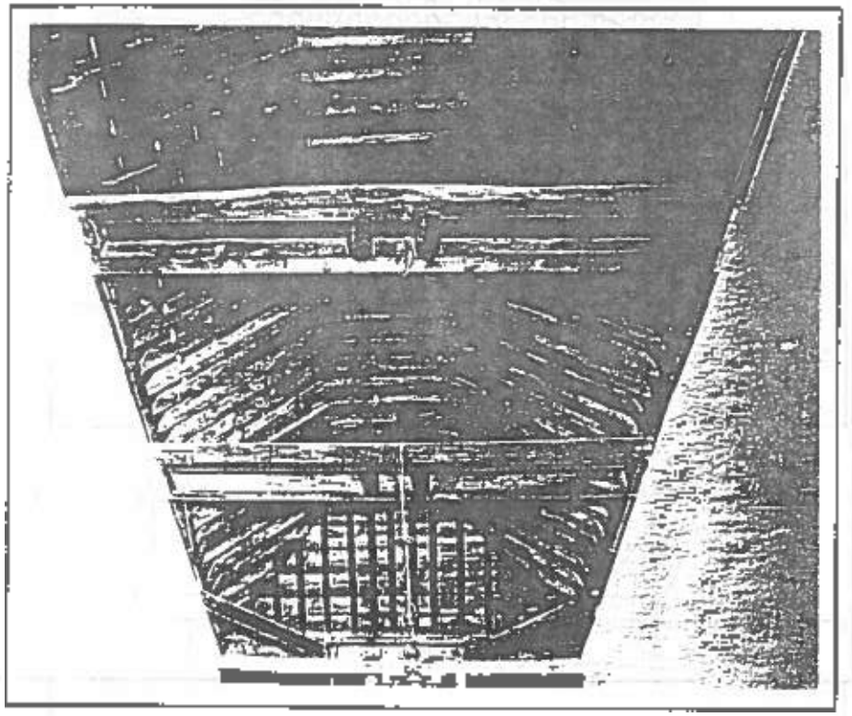

لوحة (١١)
منظر آخر لسقف مسجد غنيانة بعد الترميم
(عن أرشيف المجلس البلدى لمدينة المرية)

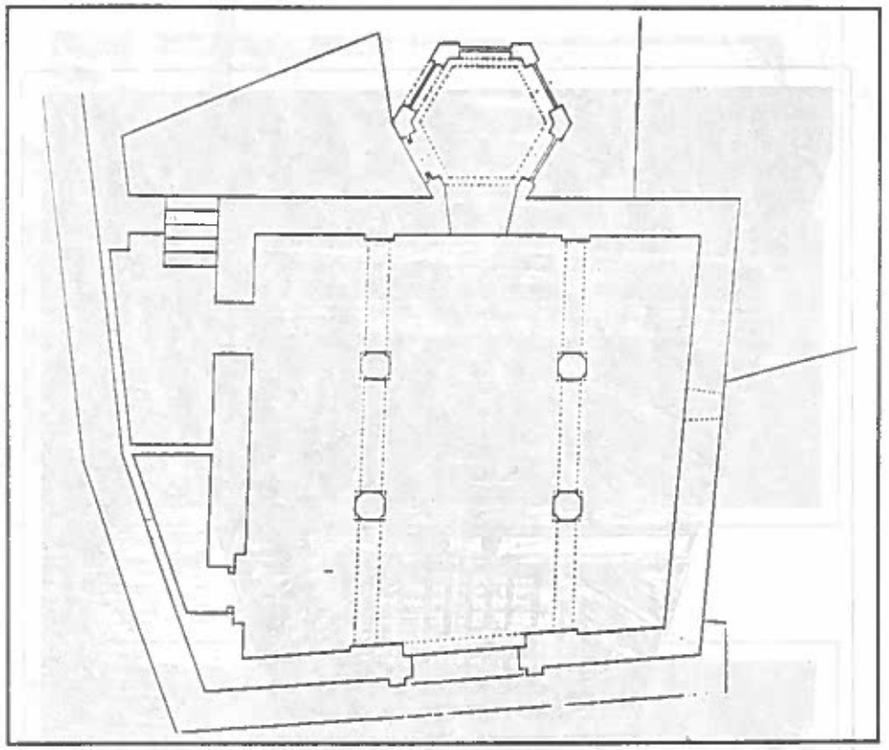

شكل (١)
رسم تخطيطى لمسجد فنيانة
(عن كارمن بارسيلو)

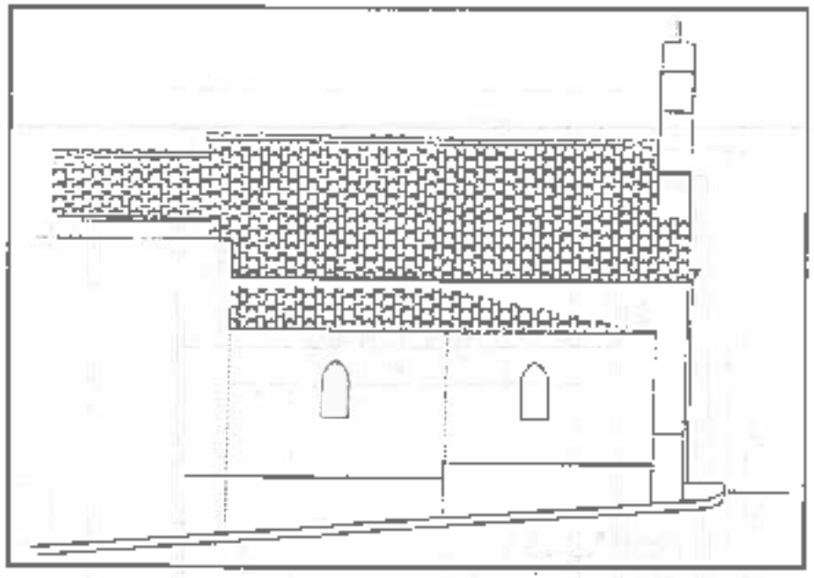

شكل (٢) الواجهة الشرقية لمسجد فنيانة وبها آثار فتحتان مدببتان تبدوان كما لو كانتا مزعلان
(عن كارمن بارسيلو)

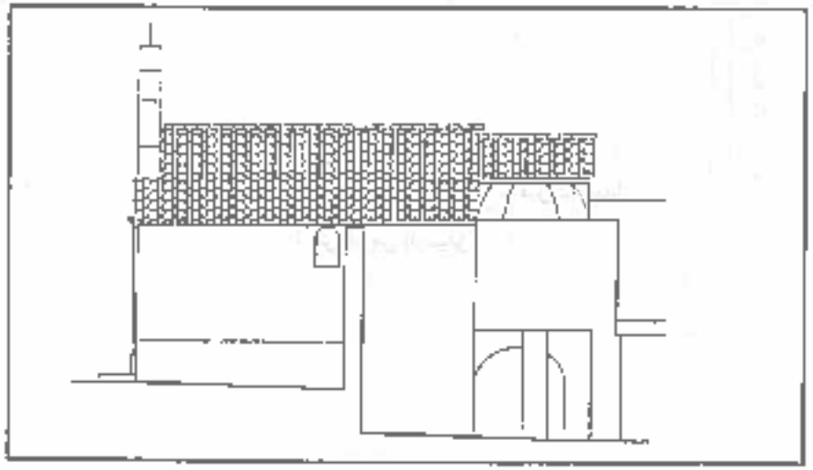

شكل (٣) الواجهة الجنوبية الشرقية
(عن كارمن بارسيلو)

شكل (٥)
رسم تفصيلي لواجهة محراب مسجد الصالحة قبل ترميمها
(عن كارمن بارسيل)

شكل (٥) رسم تفصيلي للشريط الكتابي بواجهة محراب مسجد الصالحة
(عن كارمن بارسيل)

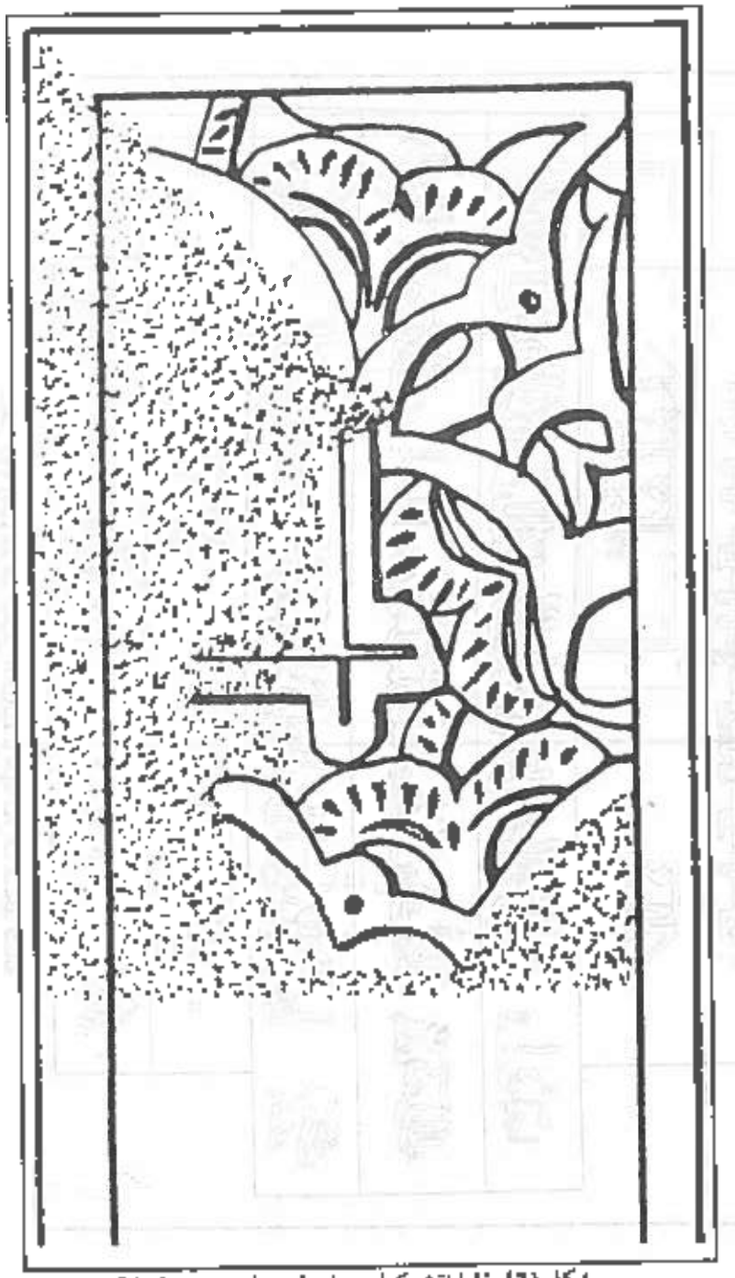

شكل (٦) بقايا نقش كتابى بواجهة محراب مسجد قنبانة
نطالع فيه كلمة بركة

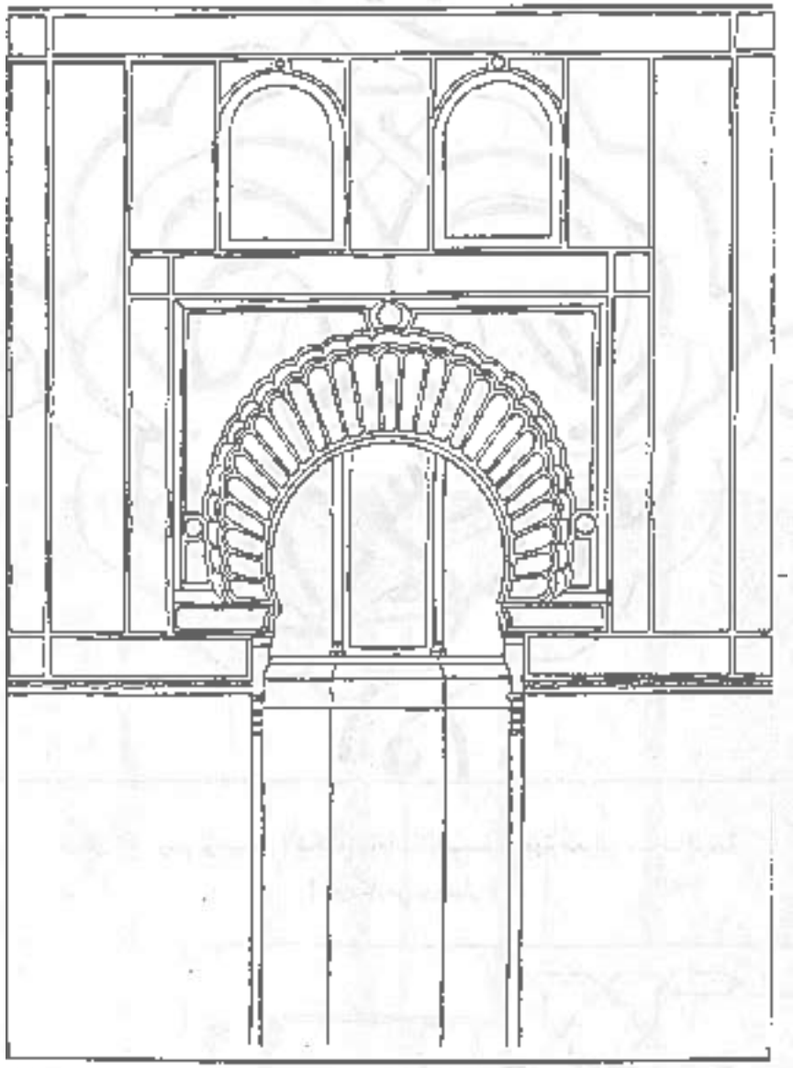

شكل (٧)
واجهة مصلى قصر المشور بقصور الحمراء
(عن بوبرتاس)

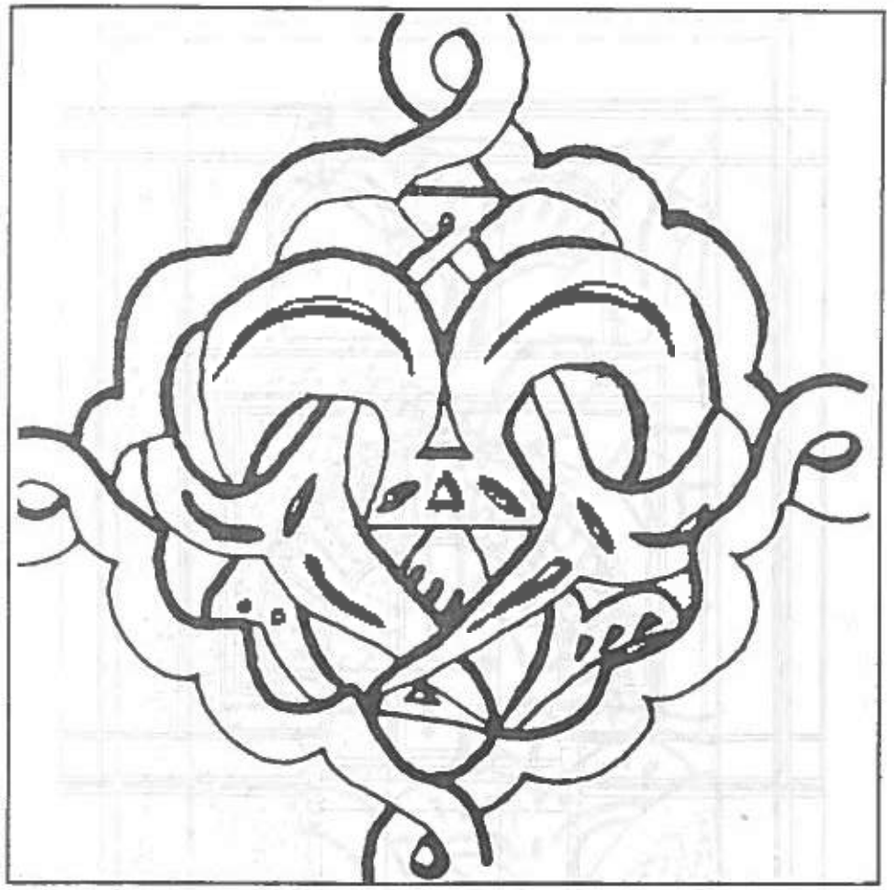

شكل (٨) رسم توضيحى لأشكال الجامات المفصصة بواجهة محراب مسجد قتبانة
(عن كارمن باريسيلو)

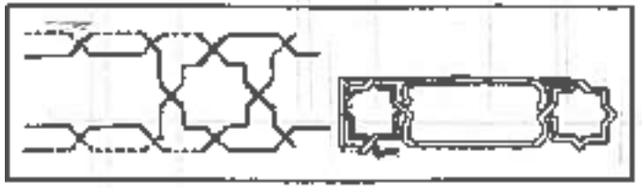

شكل (٩) رسم توضيحى لأشكال الجامات المفصصة على الفنون الأندلسية
(عن باقون)

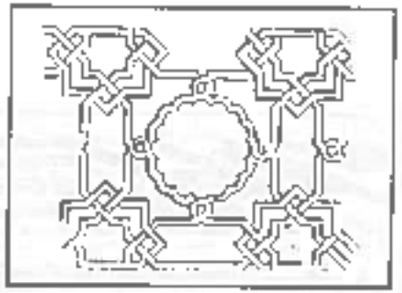

شكل (١٠) رسم توضيحى لأشكال الجامات المفصصة بوزرات قصور الحمراء
(عن باقون)

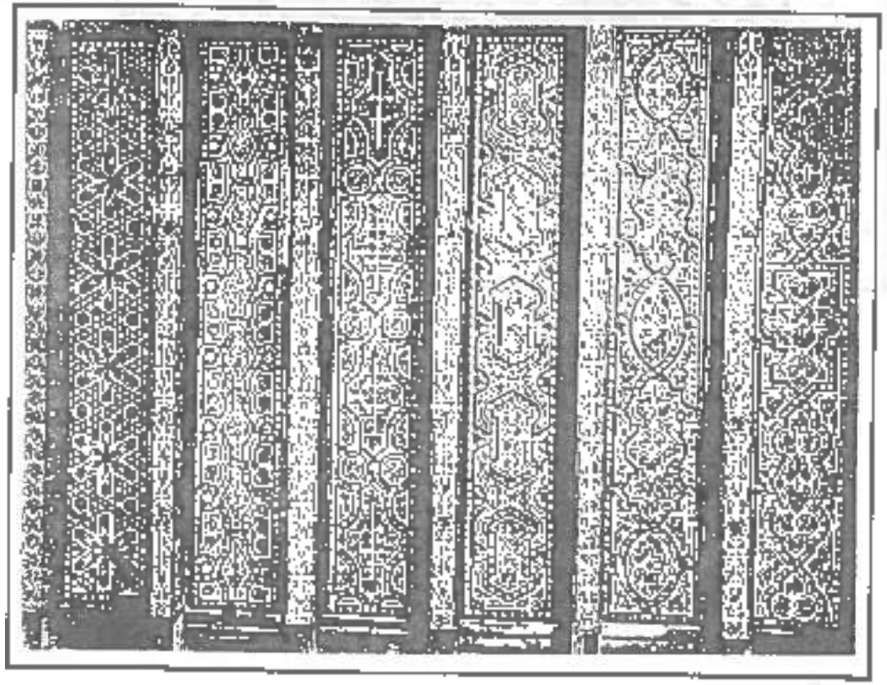

شكل (١١) بقايا سقف جامع قرطبة
(عن تورييس بلماس)

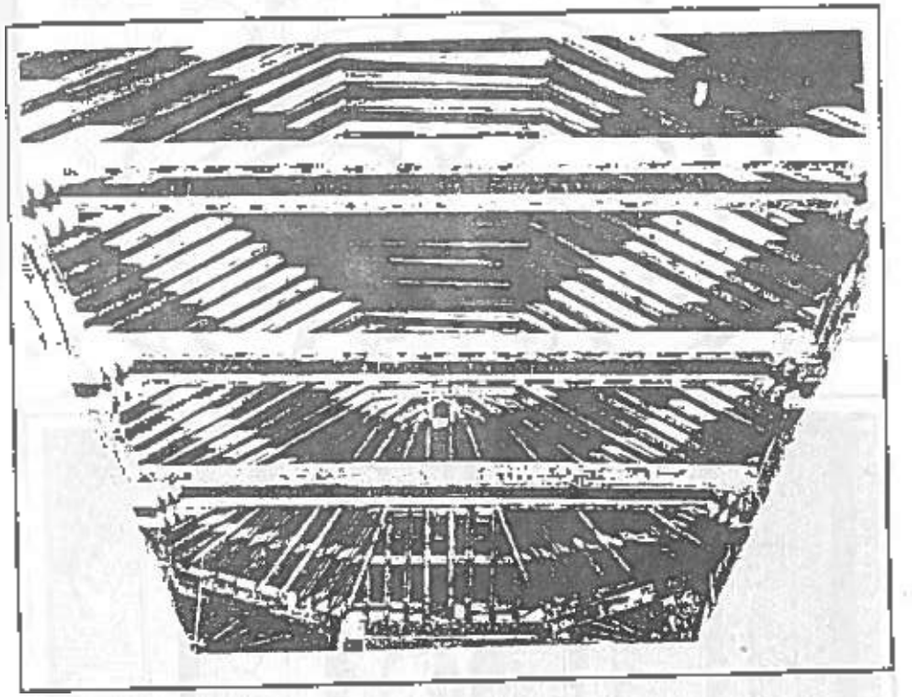

شكل (١٢)

سقف كنيسة أريوستس بطليطلة

(عن بافون)

الهوامش

١ – ابن الخطيب (لسان الدين) . مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة رسائله) . نشر وتحقيق د. أحمد مختار العبادي نشر مؤسسة الجامعة . إسكندرية ١٩٨٣ ص ٤٩ .

٢ – الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق د. إحسان عباس . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٨٤ ص ٤٤١ . ومدينة وادي آش أو وادي أيش تعرف اليوم باسم (Guadix) وقد وصفت بأنها بلدة حسنة بديعة حصينة يدور عليها سور من الحجارة في ركنها الجنوبي الغربي .

(راجع الحميري – نفس المصدر ص ٦٠٤) وتقع هذه المدينة على بعد ٥٣ كم شمال شرق غرناطة وكان يحكمها ولاة من بني أشقيولة أصهار بني الأحمر سلاطين غرناطة .

–(راجع ابن الخطيب – مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص ٢٨ حاشية رقم ٤٥) ، أحمد الطوخي قراءات في رحلة أندريانا فاشيرو . فصله من مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية . العدد ٢٩ . ١٩٨٢ ص ١٩ حاشية رقم (١) .

٣ – ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف القرطبي) . كتاب المقتبس من أبناء أهل الأندلس جـ ٥ نشر وتحقيق بدور شمالبا ، كورنيطي ، محمود صبح . مدريد ١٩٧٩ ص ٩٣ ، ٩٦ .

وكذلك راجع الإدريسي (الشريف محمد بن عبد العزيز) صفة جزيرة المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . نشر المكتبة الثقافية الدينية . بيروسعيد بدون تاريخ جـ ٢ .ص ٥٦٧ .

٤ – الحميري . المصدر السابق ص ٤٤١ .

٥ – هو عمر بن جفصون بن عمر بن حفار بن شتيم بن ذبيان بن فرغلوس بن أذفونش وكان من أهل الذمة وكبير ثوار الأندلس منذ أواخر عهد الأمير محمد حتى بداية عهد عبد الرحمن الناصر . وقد توفي عام ٣٠٥ هـ / ٩١٨م (راجع . ابن حيان . المقتبس) نشر وتحقيق د .محمود علي مكي . بيروت ١٩٨٣م. ص ٥٥٩ حاشية رقم ٣٧٩ ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية (راجع . السيد عبد العزيز سالم . تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس) . الإسكندرية . بدون تاريخ ص ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٣٥٩ : ٣٦٥.

٦ – ابن حيان . المقتبس جـ ٥ – ص ٩٣ .

٧ – ابن عذارى (أبو عبد الله محمد) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب نشر الأستاذان ليفي بروفنسال ، ج . س . كولان . الطبعة الثانية . بيروت ١٩٨٣ جـ ٥ . ص ٢٠٥ .

8 - Carmen Beracelo Torres-Antanio Gital Barracio. La Mezquita Al Mohade. de Finana (Almeria). Barcelona 1994. pp 17-18 .

٩ – السيد عبد العزيز سالم . في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس . نشر مؤسسة شباب الجامعة الطبعة الأولى . الإسكندرية ١٩٨٥ ص ٦٨ – ٧٠ .

١٠ – تقع بجانة في شمال المرية وتبعد عنها بحوالي ٦ أميال (الحميري – المصدر السابق ص ٨٠) . وهي مدينة إسلامية النشأة ترجع لعصر الدولة الأموية حيث أمر ببنائها الأمير عبد الرحمن الأوسط على بقايا مدينة قديمة كانت تعرف باسم (Fundus Baianus) .

Torres Balbas, Almeria Islamic Al-Andalus. Vol. XXII. 1957. p 416. ولقد حظيت بجانة ومدينة المرية بعناية الأمير عبد الرحمن الأوسط ثم أخذت تفقد أهميتها شيئاً فشيئاً منذ عام ٣٩٠ هـ / ٩٢٢م أخذت تتنازل للمرية عن مكانتها السامية التي تتجلى في وصف الحميري بأنها كانت مدينة زاخرة بالمنشآت والأسواق والمرافق الإسلامية والتي من أهمها الجامع الذي بناه عمر بن أسود الغساني (الحميري – المصدر السابق جـ ٧٩) ولمزيد من التفاصيل عن مدينة بجانة راجع . السيد عبد العزيز سالم . تاريخ مدينة المرية قاعدة أسطول الأندلس . الطبعة الأولى . بيروت ١٩٦٢م ص ١٩ ومابعدها .

١١ – مرشانة حصن من حصون مقاطعة المرية وصفه الإدريسي بأنه أمنع الحصون مكاناً وأرتفعها بنياناً وأكثرها عمارة (الإدريسي . نزهة المشتاق جـ ٢ . ص ٥٦٢) وهناك حصن آخر بهذا الاسم يقع في مقاطعة إشبيلية (الحميري – الروض المعطار ص ٥٤٢) .

١٢ – ابن الخطيب . مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ص ٩ – ١٠ .

١٣ – نفس المصدر . ص ٤٩ .

١٤ – السيد عبد العزيز سالم . في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس ص ٧٠ .

15 - Torres Balbas : Ars Hispanisne Historia Universal del arts Hispanico, Madris. 1949.p. 141 .

- Villa Nueva Munoz Emilio Angel, Torres Fenandez -

- Mara del Rosario. : Armaduras Mudejares en Las iglesias de La Provincia de Almaria. Teruel. 1982.p. 293 .

- Sanches Sedano. Mdel Pilar : Arquitectrura Musulmana en La Provincia de Al Meria (Almeria. 1988. p.p 266 - 267) .

- Cara Barno Nuevo Lorenzo : La Civilizacion Islamac Historia de Almeria. (Almeria. 1993. p. 38) .

16 - Carmen Baracelo Torres. Antanio Gital Barracio:. La Mezquita Al Mohade. de Finana . p. 45 .

17 - Carmen Baracelo Torres . Antanio Gital Barracio :. La Mezquita Al Mohade de Finanan. p. 45 .

١٨ – المسجد الأول وهو المعروف بمسجد الباب المردوم يعد من أهم الآثار الدينية الباقية بمدينة طليطلة وهو يرجع لعصر الخلافة وتاريخ بنائه ٣٩٠ هـ / ٩٩٩م .

- Ocana Jimenez, La Inscripcion Fundacional de La Mequita de Bib Mardon . Abandalus. V. XIX, 1949 p. 181 .

ولمزيد من التفاصيل عن هذا المسجد راجع :

_ Ewen (Christian). Die Mochee am Bab Al Mardum in Toledo Eine Kopie Der Moschee Von Cordoba Heidbery. 1944. 233 - 352 .

السيد عبد العزيز سالم . المساجد والقصور . سلسلة أقرأ العدد ١٩ – القاهرة ١٩٥٨ . ص ٥١ ؛ كمال عناني إسماعيل . العمارة الإسلامية في طليطلة في العصر الإسلامي . رسالة ماجستير . كلية الآداب . جامعة الإسكندرية ١٩٨٩م ص ٢١٢ ومابعدها .

أما المسجد الثاني وهو مسجد المسلمين الموجود أيضاً بطليطلة فقد اختلف الباحثون حول أصله وتاريخ بنائه ووضعه الشاذ . ففريق منهم يعتبره داراً . وفريق آخر يرى أنه مسجداً وعلى أية حال فإن هذا المسجد يرجع إلى عصر المدجنين ويؤرخ بالقرن ٧هـ / ١٣ م . (عن أصل هذا المسجد وتاريخه وآراء الباحثون حوله راجع كمال عناني . المرجع السابق ص ٢٥٣ – ٢٥٩) .

١٩ – يرجع قصر الجعفرية ومصلاه إلى عصر الطوائف وهو منسوب إلى أحد ملوك بني هود أصحاب سرقسطة وهو أبو جعفر أحمد المقتدر بالله (٤٣٩ هـ – ٤٧٤ هـ / ١٠٤٧ – ١٠٨١م) المقري (أحمد بن محمد) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٩٦٨ . ط ص ٤٤١ . والمصلى المذكور مربع الشكل طول كل ضلع من أضلاعه ٤٩ . م (جوميث مورينو . الفن

الإسلامي في إسبانيا ، ترجمة د. لطفي عبد البديع ، ود. السيد عبد العزيز سالم ، ومراجعة د. جمال محمد محرز نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٨ ص ٢٦٩) . (السيد عبد العزيز سالم ، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس ص ١٩٩) . ولمزيد من التفاصيل عن هذا القصر ومصلاه (راجع ، كمال عناني إسماعيل ، عمارة القصور الإسلامية في الأندلس وتطورها ، رسالة دكتوراه ، الإسكندرية ١٩٩٥ ص ١٢٦) .

٢٠ – يقع هذا المصلى في الجهة الشرقية من قصر البرطل أحد قصور الحمراء ويؤرخ بعهد يوسف الأول ٧٣٤ هـ – ٧٥٥ هـ ويبلغ طول هذا المصلى ١٦ ، ٤م وعرضه ٣ م .

- Torres Bolbas. Ars Hispania, p. 124 .

- Georges Marçais, : L'architeture Musulmane. D'occident Paris. 1954, p. 304 .

كمال عناني إسماعيل ، عمارة القصور الإسلامية في الأندلس ص ٢٣١ – ٢٣٢ .

21 - Carmen Baraclo Torres-Antanio Gilal Barracin. : La Mezquita Al Mohade de Finana p. 45 .

22 - Tapia Garrido, Jose Angel : Los Almerienses del Siglo XVI, Historia General de Almeria-Y-. Su provnica, V.VIII Almeria 1989 p. 56 , 57 .

- Sanchez Sedano M del Pilar, : Inventario de Arquitectura Musulamna en La Provincia de Almeda, Boletin del Institue de Estudios Almerienses (N.5 - Almeria 1985, p. 182) .

23 - Carmen Baraccio Torres Antanio Gilal Barracin, op cit ., p.p. 45 - 46 .

٢٤ – تعد ظاهرة إتساع البلاط الأوسط عن بقية البلاطات الجانبية ، من الظواهر التي تميزت بها معظم مساجد وجوامع الأندلس بحيث مثلت طابعًا تقليديًا ، أطلق عليه اسم الطابع الأندلسي (السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي) نشر مؤسسة شباب الجامعة ، إسكندرية ١٩٧٠ ، جـ ١ ، ص ٣٦٠ – ٣٦١ .

- Ewert, Die Mochsee Bab Al Mardum in Toledo , p. 352 .

– والواقع أن هذا الطابع نابع من أصول إسلامية شرقية حيث عُرف على أمثلة عديد من المساجد والجوامع الإسلامية مثل جامع دمشق وحلب والرصافة الأموي والحاكم بأمر الله .

- Torres Balbas. Arte Hispanoousulman Hasta La Caida del Califato de Cardoba. en Historia de España, T.V, Madrid 1957, p. 351 .

ويبدو أن هذا الطابع قد نقل إلى الأندلس من المغرب حيث ترجع أقدم الأمثلة الباقية المعروفة حتى الآن في المغرب إلى زيادة بشر بن صفوان بمسجد القيروان على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك عام ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م (راجع ، أحمد فكري ، المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها) جـ ١ نشر دار المعارف بالقاهرة ١٩٦١ ص ٢٠٧ .

٢٥ – مآذن قرطبة تتمثل في صومعة بكنيسة سان خوان وصومعة بكنيسة سنتياجو وصومعة بكنيسة سانت كلارا ، وفي أشبيلية صومعة بكنيسة كواترو أيبنان وصومعة كنيسة أومليام سانتكوروم . (راجع جوميث مورينو د : الفن الإسلامي في أسبانيا ص ٥٧ – ٥٨ ، تورييس بلباس : الفن المرابطي والموحدي ترجمة ، سيد غازي ، دار المعارف القاهرة ١٩٧١ ص ١٩ .

٢٦ – الطنف جمعها طنوف وأطناف ، وهو إفريز في أعلى الحائط يحول دون تسرب المياه إليه ، وقد تحتوي جزءًا حجريًا أو خشبيًا ناتئًا من جدار داعمًا لشيء فوقه . عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية ، بيروت ١٩٨٨ ص ٥٦٤ – ٥٦٥ .

27 - Carman Barcelo Torres Antanio Gilal Barracin, La Mezquita de Finane, p.p. 45 - 46 .

٢٨ – ربما جاء هذا الاختلاف الطفيف نتيجة لإضافة صدر أو حنية لتلك الواجهة بعد تحويل المسجد إلى كنيسة ، الأمر الذي أدى إلى إفساد التخطيط المنتظم الذي كان يجب أن يكون عليه المسجد عند تشييده .

29 - Carman Barcelo Torres, Antanio Gilal Barracin op. cit, p. 46 .

30 - Ibid, p. 45 .

٣١ – ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، نشر وتعليق د. أحمد مختار العبادي ص ٨٩ (حيث الإشارة إلى أن لنبانة كان يردها كثير ورودها أي مطرها كثير) .

32 - Ewert, Die Moschee am Bab Al Mardum in Toledo p. 290

كمال عناني ، العمارة الإسلامية في طليطلة ص ٢٢٢ .

33 - Claro Delgado, Toledo Islamico Ciudad arte E: Hisanio, Toledo, 1987. p.p 285 - 286 .

34 - Terrasse (Henri) : L'art Hispanoo Mauresque des Origines au XIIIm Siecle. Paris. 1932, PP. 169 - 172 .

٣٥ – شرع المنصور في بناء هذا المسجد في نفس الوقت الذي شرع فيه ببناء العاصمة في سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢م ، وتم البناء بعد ذلك بأربع سنوات (راجع ، أحمد فكري ، المدخل ص ٢٣١ – ٢٣٢) .

٣٦ – يرجح المرحوم الدكتور أحمد فكري أن هذا المسجد منسوب إلى خالد بن عبد الله القسري الذي كان عاملاً لهشام بن عبد الملك في مدينة اسكاف بني جنيد حوالي سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨م (أحمد فكري ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣) .

٣٧ – نفس المرجع ، ص ٢٢١ – ٢٢٥ .

38 - Carmen Barcelo : op. cit : p. 46 .

٣٩ – الطابية مادة بنائية استخدمت بدلاً من اللبن أو الآجر أو الحجر ، وهي عبارة عن نوع من الطين المخلوط بالجص والرمل والجير وتتم حسب شرح ابن الرامي وابن خلدون بعمل قوالب ألواح من الخشب تكبس الطابية قبل أن تجف بها وبعد أن تجف ، تنزع الألواح لبناء طبقة أخرى وهكذا (ابن الرامي ، الإعلان بأحكام البنيان (دراسة أثرية معمارية) ، نشر وتحقيق د. محمد عبد الستار عثمان ، نشر دار المعارف الجامعية ، إسكندرية ١٩٨٩م ، ص ١٩٢ ، ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ، المقدمة، نشر المطبعة المصرية القاهرة ، بدون تاريخ ص ٢٨٦ ، سعد زغلول عبد الحميد : العمارة والفنون في دولة الإسلام نشر دار المعارف الإسكندرية بدون تاريخ ص ٥٠٣ .

40 - Carmen Barcelo Torres, Antonio Gilal Barracin, La Mezquita de Finana, p.p. 45 - 48 .

٤١ – الطابية كمادة بنائية قوية أفضل من التراب في البناء حيث يدخل في الطابية الجبارة والثورة التي تساعد على قوة تماسكها ، ولذلك شاع استخدامها في بناء معظم أسوار المدن المغربية ، مثل سور مراكش والرباط ، كما أن سور مدينة تشالا كان مبنيًا حتى ارتفاع قامة بالحجارة ، وبقية السور من أعلى من الطابية ، (ابن الرامي ، الإعلان بأحكام البنيان ، ص ١٩٢ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، نشر مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢ ، ص ٧٧٤ ،

Terrasse (Henri) : Basset, Santuaires et Forteresses Almohades Paris, 1932.p. 38. ويذكر تيراس أن بداية استخدام الطابية في البناء يرجع إلى عصر المرابطين في المغرب ، حيث إن سور مدينة المنصورية كان مشيداً بالطوابي ، وعلى هذا الأساس ، يعتقد أحد الباحثين أن بلاد المغرب عرفت البناء بالطابية قبل الأندلس ، ومنها نقلت إلى الأندلس (ابن الرامي – المصدر السابق ، ص ١٩٢) ولكن العكس هو الصحيح ، لأن الأندلس عرفت البناء بالطابية قبيل تشييد المنصورية (٣٣٤ هـ / ٩٤٦م) حيث أشار الحميري إلى أن جامع بطليوس الذي شيد في عام ٢٦١هـ/٨٧٧م ، كان مبنيًا باللبن والطابية

(الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٩٣) ، ومعنى ذلك أن طريقة البناء بالطابية نقلت من الأندلس إلى المغرب وليس العكس .

٤٢ – شاع في العمائر البيزنطية استخدام الحجارة مع الآجر في البناء ، وكذلك استخدمت هذه الطريقة في إسبانيا في عمر القوط الغربيين ، ومعنى ذلك أنها تمثل أحد التقاليد الموروثة عن الفن القوطي في إسبانيا ، وقد استمر استخدام هذه الطريقة في البناء طوال العصر الإسلامي وفي عمائر المدجنين ، ويبدو أنها قد وفدت من المشرق ، حيث كانت معروفة في العراق وفارس وآسيا الصغرى .

- Golvin (Lucien) : Essai Sur L'architecture Religieuse Musulman, Vol. 4. L'art Hispanono Musulman. Klincksieck, 1979. p. 106 .

- Maldonado (Basilio Pavon) : arte Toledano Islamico Mudejar. Madrid, 1973. p. 55.

٤٣ – تتفق هذه الطريقة إلى حد كبير مع طريقة التغطية بالنيشان ، وهي طريقة أنتشرت في القرنين ٧ ، ٨ هـ / ١٣ ، ١٤ م ، وقد استمر استخدام هذه الطريقة حتى عصر المرينيين .

- Marçais (Georges) : Manuel d'art Musulman, Vol, II Paris, 1926, p. 256 .

44 - Carmen Barcelo, Torres Antonio Gilal Barracin, La Mezquita de Finana, p. 45 .

ومن جانب لا أتفق مع هذا الرأي لأن الأندلس في ظل الموحدين لاسيما في النصف الأول من عهدهم تمت باستمرار ظهرت آثار في المنشآت العديدة التي أقيمت في مدة سيطرتهم على الأندلس فإذا كانت الأندلس قد أزدهرت عمرانيًا في عصر الخلافة وعصري الطوائف والمرابطين فإن هذا الإزدهار قد استمر في عصر الموحدين حيث العمت عناية خلفاء هذا العصر نحو البناء والتشييد ولذلك ظلت الأساليب المعمارية والفنية المتطورة منذ عصر الخلافة تتابع تطورها في كثير من الأبنية التي أقامها خلفاء الموحدين في الأندلس وأشادت بها المصادر العربية وعلى هذا فمانه على الرغم من الطابع الديني الذي التزمته دولة الموحدين وما أرتبط به من زهد عن المباني الدنيوية إلا أن التأثير الأندلسي غلب عليها في عهد كل من يوسف ويعقوب المنصور ركانا أبرز خلفاء الموحدين وأكثرهم ثقافة وأستنارة ولم يترددوا في إقامة المساجد العظيمة والقصور الفخمة والأسوار والقصاب المنيعة .

٤٥ – وتجدر الإشارة إلى أن معظم محاريب مساجد الغرب الإسلامي تتجه نحو الجنوب ، على غرار مساجد الشام ومثال ذلك محراب المسجد الجامع بالقيروان ، وجامع قرطبة ، وغيرهما من المساجد في أسبانيا تتجه نحو الجنوب (مرتين ، الفن الإسلامي في أسبانيا) ص ١١ ،

٤٦ – روعي في كثير من المساجد أن يتوسط المحراب جدار القبلة ، ولكنها لم تكن قاعدة ثابتة ، فالمحراب ينحرف عن منتصف جدار القبلة في المسجد النوري بالمدينة ، وفي المسجد العلوي في مدينة اسكاف بني جنيد وكذلك في مسجدي عمرو وحران ، (أحمد فكري ، المدخل ص ٢٩٨) .

47 - Sanchez Sedano M.del Pilar:, arquitectura Musulmans en La Provincia de Al Meria. p. 182 .

Cara Barrio Nuevn:, La Civilization Islamica Historia de Al Meria, P. 38 .

٤٨ – السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، جـ ص ١ - ٤ . ويرجع تاريخ بناء جامع المرية إلى عهد الخلافة ، وإن اختلفت آراء بعض مؤرخي القرن حول العهد الذي شيد فيه ، فالأستاذ توريس بلباس يرى أنه يرجع إلى أواخر القرن ٤ هـ / ١٠م : أي إلى عهد الخليفة الحكم المستنصر ، في حين يرى الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم أنه يرجع إلى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر على أساس أن مدينة المرية من تأسيس عبد الرحمن الناصر (٣٤٤ هـ / ٩٤٥م) . ولايمكن أن تقام مدينة بدون أن يؤسس لها مسجد جامع لفترة طويلة من الزمن

Torres Balbas: La Mazquota Mayor de Almeria (Al andalus. V. XVIII. 1953. p. 429. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص ١٤٦ .

49 - Carmen Barcelo Torres Antanio Gilal Barracin, La Mezquita de Finana. p. 45

50 - Ibid .p. 54 .

51 - Carmen Barcelo Torres Antanio Gilal Barracin,op. cit, p. 59 .

52 - Carmen Barcelo Torres Antanio Gilal Barracin.op. cit, p. 59 - 60 .

٥٣ – استخدم الفنانون الأندلسيون في تصميم واجهات مبانيهم طرقًا عديدة ساعدت على إبراز عناصرها المعمارية والزخرفية وإدخال نوع من التباين على مظهرها من ذلك فكرة التقسيم الرأسي الثلاثي الذي بدأ منذ عصر الإمارة ممثلاً في باب الوزراء المعروف الآن بباب سان استيبان بجامع قرطبة . وقد تطور هذا النظام في كافة واجهات القصائر الأندلسية إلى أن بلغ قمة تطوره في واجهة مصلى المشهور بقصر الحمراء والتي نرى فيها صورة متكاملة لهذا الطراز المعماري المعروف باسم التقسيم الرأسي الثلاثي Espuerna Tripartito حيث نلاحظ أن مسطحات الواجهة وأطرها وأفاريزها تنحصر في تقاسيم ثلاثة ساعدت على إظهار حدودها المعمارية وعناصرها الزخرفية التي لم تخرج عن هذا التقسيم الثلاثي (شكل ٧) .

- Antonio Fernandez Puenas : La Fachada del Palacio de Comares Granada. M.C. LXXX. p.p 110 - 112 .

كمال عنانى إسماعيل . عمارة القصور الإسلامية في الأندلس وتطورها ، رسالة دكتوراة ص ٣٨٣ .

وفي رأي الأستاذ توريس بلباس أن نظام التقسيم الرأسي الثلاثي الذي تمثل لأول مرة في الأندلس في باب الوزراء منتبس من أبنية رومانية . غير أن الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم أنكر هذا

التسمية وأكد على أن هذا النظام يختلف من حيث الأداء والتصميم عن الأمثلة التي ذكرها الأستاذ توريس بلباس سواء في الأبنية الرومانية أو البيزنطية السيد عبد العزيز سالم : قرطبة جـ ١ ، ص ٣٢٩ . Torres Balbas:. arte Hispano Musulman p. 408

ومن جانبي أريد ما انتهى إليه الأستاذ الدكتور عبد العزيز وأضيف تدعيمًا لرأيه أن هذا النظام لم يكن إلا أحد وسائل عديدة استخدمت في تنسيق واجهات المباني والتي ربما اشتق هذا النظام من إحداها وأعني بها فكرة تقسيم الامتداد الأفقي للواجهة إلى فواصل منتظمة تظهر بمظهر الكتلة الواحدة التي يتناسق سطحها مع عناصرها المعمارية والزخرفية التي خضعت أيضًا للتقسيم الأفقي Puenas: op. cit, p.p 30 - 31 .

٥٤ – جدير بالذكر أن هذا التشكيل الهندسي الذي تتأليف فيه الجامة من ثمانية فصوص متعددة ، يعد من الصور الإسلامية الخالصة التي ظهرت في أمثلة كثيرة من الزخارف الأموية : مثل واجهة قصر المشتى وقصر الحير الأموي ، كما تحفل زخارف سامراء بالكثير منها . وقد طبق هذا التشكيل الهندسي على نحو رائع في العديد من التحف الأندلسية التي ترجع إلى عصر الخلافة (شكل ٩) . وقد تطور هذا التشكيل الهندسي في زخارف المباني المدجنة وزخارف قصر الحمراء ؛ حيث تنوعت فصوص الجامة ولم تعد تقتصر فصوصها على ثمانية فصوص بل تضاعف عددها فأصبحت ستة عشر فصًا مزدوجًا تمثل أقصى ماوصلت إليه الجامات المتقصصة من تطور ، فبعدت بذلك عن صورتها التقليدية والمثل الواضح لذلك زخارف أفاريز قصور الحمراء (شكل ١٠) .

- Basilio Pavon Maldonado:, el arte Hispano Musubana Decoracion Geometrica una Teoria Para un Estilo. Madrid, 1975 pp. 112 - 119 .

٥٥ – تعد المراوح النخيلية المزهرة ، من المراحل الهامة التي مرت بها أشكال المراوح النخيلية ، ومن المرجح أنها اشتقت من المراوح النخيلية الكلاسيكية القديمة ، التي استخدمت في الزخارف البيزنطية والساسانية والقبطية ، وأخيرًا الإسلامية المشرقية ، وقد استخدمت على نطاق واسع في زخارف الفنون والآثار الأندلسية منذ عهد الخلافة . وواصل الفنانون المسلمون استخدامها في الأندلس في عصر بني نصر المغرب الأقصى في عصر بني مرين ، كما شاع استخدامها في الزخارف المدجنة .

- Pavon Maldonado, : el arte Hispano Musulman en su decoracion Floral, Madrid, 1981, p. 113 .

56 - Terrasse. Basset, Sanctuaires et Forteresses al Mohades p. 85 .

٥٧ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٣٧١ .

58 - Carmen Barcelo Torres Antanio Gilal Burracin op. cit, p. 46 .

٥٩ – يطلق على العروق الخشبية الطولية فى الأسقف الأندلسية اسم جوائز ، وتعرف الألواح التى تغطيها باسم ساوات . وقد تم الاستدلال على هذين المصطلحين من خلال وصف الإدريسى لسقف جامع قرطبة. (راجع ها الوصف فى الإدريسى ، وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق الفريد بيسيه لامار ، الجزائر ١٩٤٩م ، ص ٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : بعض المصطلحات العربية للعمارة الإسلامية فى الأندلس ، نشر مجلة المعهد المصرى ، مدريد ١٩٥٧ – ص ٢٤٦ .

60 - Antanio Fernandez Puenas:. Plano Guia de La Alhambra Madrid. 1979. p. 14 .

- Basilio Pavon Maldonado : el Palacio del Comares (estudios sobre La Alhambra V.I. 1977 p. 108 .

كمال عنانى اسماعيل ، عمارة القصور وتطورها ، ص ٢٤٧ .

61 - Pavon Maldonado:. Arte Toledapo Islamicoy Mudejar Madrid 1973 . Lamina. XLV .

73 - Villa Nueva Munoz. Torres Fernandez. Mulet Resario : Armaduras Mudejares en Las Iglesias de La Provincia de Almeria. II Simposio Internacional de Mudejarismo. Teruel 1982 pp. 293 - 294 .

٦٢ – تشير إحدى الدراسات إلى أن بعض هذه التقنيات الحديثة كانت مطبقة على نحو أكثر بساطة فى أسقف بعض البيوت الشعبية بإقليم المرية Antonio Gilal Barracin Arquitecturay Teconologia Popular en Almeria, Almeria, 1992, p. 103 كما طبقت أيضًا فى رسوم أسقف قاعة الملوك بقصر الحمراء .

64 - Jesus Bermudez Pareja Y Rodrigues, : sobre los Techos Pintados de La Sala de Los Reyes (cuadernocos de la Al Hambra N.3. 1965. p. 7) .

65 - Torres Carmens Barcelo. Gilal Barracin; Al Meria. Barcelona. 1994. p. 48 .

66 - Ibid., p. 45 .

٦٧ – شُرع فى بناء هذا الجامع عام ٢٤٥ هـ ، واستبدلت أعمدته الحجرية بدعائم من الآجر فى زيادته الأخيرة التى قام بها الناصر محمد الموحدى سنة ٦٠٠ هـ ، ومن المعروف أن هذا الجامع أعاد بناءه كله الخليفة الناصر ولم يشرك من الجامع القديم غير المئذنة والمنبر (راجع ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ص ٢٦٦) .

٦٨ – نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصادر العربية :

الإدريسى (الشريف محمد عبد العزيز) : صفة جزيرة المغرب والأندلس . من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق نشر المكتبة الثقافية الدينية ببورسعيد . بدون تاريخ .

الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) ، الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف القرطبى) ، كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، جـ ٥ ، نشر وتحقيق ، بدور شالميتا ، موريتطى ، محمود صبح مدريد ١٩٧٩م .

ـــــــــــ ، المقتبس ، نشر وتحقيق د. محمود على مكى ، بيروت ١٩٨٣ .

ابن الخطيب (لسان الدين ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس ، (مجموعة رسائله) ، نشر وتحقيق ، د: أحمد مختار العبادى نشر مؤسسة شباب الجامعة ، إسكندرية ١٩٨٣م .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ، المقدمة ، نشر الطبعة البهية المصرية القاهرة ، بدون تاريخ .

ابن عذارى (أبو عبد الله محمد) ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب نشر الأستاذان ليفى بروفنسال ، ج ، س ، كولان ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٣.

المقرى (أحمد بن محمد) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨م .

ثانيًا : المراجع العربية الحديثة :

اسماعيل (دكتور كمال عنانى) ، العمارة الإسلامية فى طليطلة فى العصر الإسلامى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ١٩٨٩م .

ـــــــــــ ، عمارة القصور الإسلامية فى الأندلس وتطورها رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٥ .

الطوخى (دكتور ، أحمد) ، قراءات فى رحلة اندريا نافاخيرو فصلة من مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، العدد ٣٩ – ١٩٨٢م .

أغا (أ. عمر) . ملامح من تطور الخط العربي . مجلة كلية الآداب الرباط . عدد ١٨ .

جمعة (دكتور . إبراهيم) . دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة . دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٦٩م .

سالم (دكتور السيد عبد العزيز) . تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس . إسكندرية . بدون تاريخ .

———— . في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس . نشر مؤسسة شباب الجامعة . الطبعة الأولى . إسكندرية ١٩٨٥م .

———— . المساجد والقصور . سلسلة أقرء . العدد ١٩ . القاهرة ١٩٥٨م .

———— . قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس . دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي . نشر مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية ١٩٧٨م .

صالح (أ. زكي) . الخط العربي . نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٣ .

عبد الحميد (دكتور سعد زغلول) . العمارة والفنون في دولة الإسلام . نشر منشأة المعارف بدون تاريخ .

عبد الحليم (دكتور سامي أحمد) . الخط الكوفي الهندسي المربع حلية كتابية بمنشآت المماليك في القاهرة . نشر مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية ١٩٩١م .

غالب (دكتور عبد الرحيم) . موسوعة العمارة الإسلامية . بيروت ١٩٨٨م .

فكري (دكتور أحمد) . المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها . ج ١ . نشر دا المعارف ١٩٦٩م .

يوسف (ذنون) . الجديد في نشأة الخط المغربي وتطوره إلى القرن ٧ هـ بحث ضمن أعمال الندوة الثقافية بمهرجان المغرب العربي . بكلية الآداب . الرباط . مارس ١٩٩٠م .

المراجع الأوربية المعربة :

بلياس (ليوبولدوتوريس) . الفن المرابطي والموحدي . ترجمة سيد مصطفى غازي . دار المعارف بمصر ١٩٧١م .

جروهمان . النسخ والثلث . ترجمة غانم محمود . مجلة المورد . العدد الرابع . بغداد . ١٩٨٦م .

ديماند (م . س) . الفنون الإسلامية . ترجمة أحمد عيسى . دار المعارف . بمصر الطبعة الثانية . ١٩٥٨م.

موريتو (مانويل جوميث) . الفن الإسلامي في إسبانيا . ترجمة . د. لطفي عبد البديع .د. السيد عبد العزيز سالم . ومراجعة .د. جمال محمد محرز . نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٨م .

رابعًا : المراجع الأوربية :

- Antonio Gilal Burracin : arquitectura Y Tecnonlogia Popular en Almeria (Al Meria) 1992 .

- Delgado (Clara) :, Toledo Islmico Ciudad arte E Hisoria Toledo. 1987 .

- Emilio Angel (Villa Nueve Munoz), Torres Fernandez Maradel Rosario:, Armaduras Mudejares en Las Iglesias De La Provincial de Al Meria. Teruel 1982 .

- Ewert (Chrisaiun) - Die Mochee am Bab Al Mardum in Toledce. Eine Kopie Der Mochee Von Cordoba. Heidbery. 1944 .

- Garrido (Tapia), Jose Angel :. Los Almerienses Del Siglo XVI. Historia General De Almeria Y su Provincia, V. VIII. Al Meria, 1989 .

- Golvin (lucien) : Essai L'architecture Religeuse Musulman Vol. 4. L'art Hispana Musulman Klincksiecke. 1979 .

- Jimenez (Ocata) : La Inscripcaon Funductional de La Mezquita De BIB Mardam Alandalus. V, XIV. 1949 .

———— : Panoramico Del arte Al Mohade en Espana. Cuadernos de La Al Hmbra. N. 26 Granad. 1990 .

———— : Los Supuestos Bronces Califales del Museo Arqueologico Provencial De Cordoba (actas de Las Jornadas de cultura arabe Islamica. 1980) .

- Lorenzo (Cara Barrio Nuevo) : , LA Civilizacion Islamica Historia de Almeria (Al Meria), 1993 .

- Maldonado (Basilo Pavon) : arte Toledano Islamico Y Mudejar. Madrid. 1973 .

———— : El arte Hispano Musulman en su de decaracion Floral. Madrid. 1981.

———— : Infujos Occidentales en El arte del Califato de Cordoba. Al andalus. V, XXXIII. 1967 .

- Marçais (Georges) :. L'architecture Musulmane j'occidentales Paris. 1954 .

_____ : Manul d'art Musulman. Vd. II Paris, 1926.

- M. del Pilar (Sanchez Sodano) :, Inventario de Arquitectura Muslmana. en La Provincio Al Mericnses. Boletion del instituto de Estudios Almerienses. N.5. Almeria 1985 .

- Moreno (Manuel Gomez) : Yextos de Gomez Moreno Sobre La Alhambra Musulmana. Granad. N.9. 1965 .

- Pareja (Jesus Bermudez) Y (Manuel Rodrigues) Sobre Las Techos Pintadoes de La Sala de Los Reyes. Cuadernas de La Al Rambra N.3. 1965 .

- Provencal (Levi) : Inscripciones Arabes d'espana . Paris, 1931.

- Puertas (antonio Fernandez) :. La fachada del Palacio de comares Granada. M.C.L. XXX .

- Puenas (antonio Fernandez) : La escritura Cufica en Los Palacios de Comares y Leones. Madrid, 1971.

_____ : Dos Lapidas Al Mogades-Maqrabriya De Jauiva Y Lapida de La Cer- ca de Jerez de La Frantera (Miscelaoea Estudios Arbes Y Gebracos 27 - 28 Granada 1979.

- Salem (Abdel Aziz Salem):. La Puerta del Perdoo en La Gran Mezquita Al Mohade de Sevilla., Alandalus. V. XIII. Madrid. 1978.

- Terrasse (Henri): L'art Hispano Mauresque des origines au XIII Siecle Paris, 1932 .

- Torres Balbas (Leopoldo) :, Arte Hispano Musulman Hasta La Caida Del Califato de Cordoba en Historia de España, T.V, Madrid. 1957 .

_____ : La Mazquita mayor de Al Meria (Alandlus). V, XVIII. 1953.

_____ : Al Meria Islmaica Alandalus Vol. XXII . 1957 .

_____ : Ars Hispaniae Historia Unversal del art Hispanico. Madrid, 1949.

- Torres (Carmen Berrelo), Gilal Barracin:. La Mazquita Al Mohade de Finana (Al Me- ria. Barelona. 1994) .

بسم الله الرحمن الرحيم

بكلمة الختام

حضرات الإخوة الزملاء والأخوات الزميلات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد

فإننا نهنئكم بنجاح ندوتكم عن العلاقات بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه على مر العصور الوسطى وفجر الحديثة . إن الحصيلة الكبيرة التي خرجنا بها من الجلسات الست التي استغرقتها هذه الندوة ، لتدل على أهمية الموضوع وحيويته من ناحية ، ثم على الجهد الكبير الذي بذلتموه أنتم : من محاضرين أصحاب بحوث ، ومناقشين أصحاب رأى وفكر ، من ناحية أخرى .

قد تختلف الآراء ، وتتباين وجهات النظر ، وتتعدد البحوث حول نقطة واحدة من نقاط الموضوع ... وربما تحول النقاش إلى جدل ، ولكنه جدل هادئ بالتي هي أحسن يستهدف الوصول إلى حقائق التاريخ ؛ فيكون هذا كله دليلاً على حرية الرأى ، وإعمال الفكر ، والرغبة في الاجتهاد وروح التسامح التي تسود الجميع . ولولا تباين وجهات النظر ماكانت المذاهب في الأديان السماوية جميعها ، ولولا الاجتهاد ما أمكن التوصل إلى كنه الحقيقة التي هي هدفنا الأول من هذه اللقاءات .

حضرات الإخوة الزملاء والأخوات الزميلات

ياهن تمثلون الصفوة بين المؤرخين العرب ... نهنئكم بهذا النجاح الذي حققتموه ، ونبارك جهودكم وثمار أعمالكم ، ونشكركم على تحملكم عناء البحث وأعباء السفر في سبيل تحقيق رسالة سامية ... سائلين المولى القدير أن يجزيكم عن علم التاريخ وأهله خير جزاء ، وأن يجمعنا دائمًا على صراطه المستقيم ، لنعطي تراث الآباء والأجداد حقه من العناية والتقدير ، ونغرس بذوراً جديدة مثمرة في قلوب الأبناء والأحفاد ... والى لقاء جديد في القاهرة تحت مظلة اتحاد المؤرخين العرب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سعيد عبد الفتاح عاشور

رقم الإيداع ٩٨/٥٨٩٠

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 5457 - 99 - 0

دار وكالة الوثائق للطباعة ت: ٣٥٠٢٣٦٢ - ٣٥٠٠٦٩٤
٤٣ شارع نوبار - باب اللوق